www.alkottob.com

وداع ولقاء
في بلاد الشام

www.alkottob.com

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-unecriv@net.sy

mail :
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

صورة الغلاف من وثائق رشدي الشمعة أحد شهداء السادس من أيار

صمم الغلاف : وائل صيداوي

❑❑

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الدكتورة ناديا خوست

وداع ولقاء
فـي بـلاد الشـام
روايـــة

www.alkottob.com

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2002

www.alkottob.com

إلى المقاومين في جنين ونابلس وبيت لحم وبيت ريما وبيت جالا والخليل وطوباس ورفح وغزة، وفي أصغر قرى فلسطين!

إليهم، أحياء وشهداء ومعتقلين ومبعدين!

ولابد أن تنتصر فلسطين!

\\\

www.alkottob.com

نهضت نفيسة من فراشها مرتعشة القلب. هل قلبها وحده الذي ينبض في هذا السكون؟ أغصان شجرة النارنج قرب النافذة في الفوقاني ساكنة. خشب السقف، وبلاط الأرض الأبيض وإطاراته السوداء، والوسائد المطرزة، وإبريق الماء على الطاولة قرب فراشها، والمرآة المتوجة بطاووس محفور في الخشب، كلها ساكنة. التفتت إلى النافذة فرأت سماء ملأى بالنجوم. درب التبّان، ونجم القطب، والدب الأكبر، والدب الأصغر، والزهرة، كلها مستقرة! شعرت بخفقان قلبها على يدها. هل ينهض الإنسان ذات ليلة كما نهضت الآن كأنه يسمع جرسا يدقّ مناديا: انتهت حياتك! ليتأملها كما يتأمل هذه السماء الواسعة، في مثل هذا الصمت، ولينظر إليها كلها ويحيط بها كأنه يتذوقها مرة واحدة قبل أن يقول وداعا؟ وليسمع الكون ويسمعه آخر الأشواق؟ في مثل هذه البرهة فقط يستطيع الإنسان أن يشعر بأنه عاش برهة في دنيا واسعة ويدرك وقتذاك فقط أن تلك البرهة خاطفة وسريعة! فيأسى على كل مالم يتذوقه، وكل مالم ينتبه إليه، وعلى كل مالم يعمله؟

وقفت نفيسة ومشت خطوات بين سريرها وبين الطاولة كي تؤكد لنفسها أنها صاحية، وأنها ليست في برهتها الأخيرة. تناولت موقد السبيرتو. لايزال على صينية عليها فنجان مقلوب، وقطرميز صغير من البن. لايوجد سكر. لابأس! كانت لدى فاطمة أخت هذه الصينية مع موقدها! وكانت نفيسة كفاطمة تستعملها في أيام الشتاء فتحضّر لنفسها القهوة دون أن تنزل من الفوقاني إلى المطبخ في التحتاني. تستعملها في أوقات المساء الشجية عندما تستعذب تأمل المطر أو خفقة الريح على أغصان شجرة النارنج، فلاتريد أن تبتعد عن النافذة. ارتجف اللهب ووضعت فوقه دولة القهوة.

ما الذي أيقظها فجأة مرتعشة القلب؟ حلم؟ لا تتذكر من الحلم إلا أنها كانت تسقط وتسقط ولاتصل إلى القاع. لا تتذكر أين كانت، ولماذا هوت! منذ أيام

www.alkottob.com

تحاول نفيسة أن تلتقط نفسها، وأن تمسك بالمحور الذي ادعت طول عمرها أنه محور حياتها، تجري حوله تفاصيل ماعاشته ومنها زوجها ابن الكحال وابنتاها. خالد آغا؟ لم تفكر بأية محاور ودوائر وهوامش أو مراكز وقت كان يزورها. شعرت في تلك الأيام بأنها تجري مندفعة في حياتها نفسها، بحريتها السابقة نفسها، وبحماستها السابقة. مع أن أيام خالد آغا كانت سنوات صاخبة ودامية في بلدها وحياتها. استعذبت زمنا طويلا أن تستعيدها. ثم أذهلها أن تبدو لها تلك السنوات كأنها حياتها الثمينة الوحيدة. ألا يناقض هذا ما اعتمدته طول عمرها؟ هل تستطيع أن تدرك أنها لا تتنازل عن سلوكها ومسارها، منذ كانت طفلة تعلمت ماكان يتعلمه أخوها، وطوعت بطموحها أباها ولفتته إليها! أحبك خالد آغا، يانفيسة، لأنك هكذا، وهرب منك ابن الكحال لأنك هكذا، وبقيت المرغوبة والمتمناة لديه لأنك هكذا! فهل تتصورين الآن أنه كان يجب أن تكوني أخرى؟! ماالذي يقلقك إذن؟ هذا السكون الممتد؟ تضيقين بأن المدينة نائمة وأنت وحدك صاحية؟ تتذكرين الآن بنتيك اللتين عاشتا مع أبيهما، واستقبلتهما كزائرتين؟ انتفضت نفيسة وردت على نفسها. ألم تنشغل بموت صهرها، ألم تحاول أن تنقذ لابنتها بعض أملاكه من أهله في الصالحية، ألم تحتضن ابنتها في أيام حزنها؟ لا تلومي نفسك يا نفيسة! شغلك الحرير ودودة القز وشجر التوت والسوق، ولابد أنك ضيعت بها مقطعا من علاقة الأم بابنتيها وعلاقة الزوجة بزوجها والجارة بجاراتها!

تذكرت نفيسة زياراتها لابنتها، ولهفة أحفادها. بقيت تحمل لهم الكعك الذي أشرفت على عجنه، وأرسلته إلى الفرن في سوقساروجا ليخبز. وعبأته لهم في أكياس من الخام الناصع. والفواكه المجففة التي تشتريها لهم من سوق البزورية. مع السكر الذي يصاغ في ذلك السوق عصافير في أقفاص وزهورا وأعوادا. والفستق الحلبي واللوز المحمص بالسكر. والبندق الذي يتسلون بتقشيره. لكنهم فهموا أن لهم هداياها لا وقتها وقلبها. فهمت ابنتها الكبرى أساها من انسياقها كالنساء في الأسرة المعلقة بسعادتها وشقائها على رضا الرجل وابتسامة الطفل والصحة والطعام الطيب والسهرات اللطيفة. كانت تتابع ابنتها وهي تركض خلف أولادها، تبدل ملابسهم، وتطعمهم، وتنط إلى المطبخ خلال ذلك. وكانت تلمح ألوان ملابسها الزاهية والوردة التي تزين بها شعرها في المساء بانتظار الزوج، وحرصها على أن يكون الأولاد نائمين عندما يأتي. فتتصرف تاركة ابنتها تحضر صحون الطعام في انتظار الزوج. وتسرع عائدة إلى بيتها، حاملة غضبها وترفعها. وأنت يانفيسة، ألم تحضّري، كأية امرأة شامية، صحون الطعام لخالد

www.alkottob.com

آغا، وتطلقي نافورة البركة في تلك الأمسيات معه! هبت واقفة: ذلك كان خالد آغا! وأنا نفيسة! ليتها تستطيع أن ترفع ابنتيها إلى مكانها! ليتها كانت تستطيع أن تضع صهرها المتوفى مكان خالد آغا! كانت الدنيا حول البركة في تلك الأمسيات! كانت الحرب وميسلون والثورة السورية! أنت عم كنت تتحدثين مع زوجك قبل موته، وأنت عم ستتحدثين مع زوجك عندما تجدينه؟! خيل إليها أن عينيها دمعتا. لم تتمن لأي منهما مثل ذلك الزواج الذي قبلته ابنتها الاولى! ذاك زواج أبقاها في مكانها كأية امرأة في حي الصالحية أو القنوات! تلك سعادة صغيرة، وذاك شقاء صغير!

لكن لتعترف أن هذا الترفع أبعدها عن ابنتيها. ففي كل زيارة كانت تشعر بالخيبة. هل تستطيع أن تصارح نفسها بأنها تمنت لهما زوجين من رجال الثورة الوطنيين مثلا؟ لتذوقا الشقاء والعوز، يانفيسة؟ تضيق الأرض بالوطنيين فبعضهم في خيام نجد، وبعضهم في مصر، وبعضهم في الأردن. يعيشون بالمعونات، فهل تتمنين لابنتيك حقا العوز والحياة المضطربة؟!

تذكرت كلمة زوجها ابن الكحال: لاتكوني ظالمة! دعيهما تختاران ماترتاحان إليه! وخزته يومذاك بنظرتها. فقال: لاتستطيع كل شابة أن تكون مثلك يانفيسة! ردت في سخرية: وربما لاتريد ذلك!

هاهي تحصد هذا الأرق الذي لاتعاني منه امرأة يحيط بها أحفادها وأولادها! لاتستطيع نفيسة أن تستنجد بلهفة، ولاأن تطلب حفيدا ينام معها في هذا البيت الواسع في سوقساروجا! لاتستطيع أن تظهر ضعفا، وستبقى أسيرة قوتها! فلتفهمي الآن يانفيسة أنك صغت سجنك من حريتك وقوتك من ترفعك عن العلاقات العادية! لاحق لك حتى في كلمة آه! ولن تستطيعي صياغة مسار آخر لحياتك فالزمن الغدار أطاعك كما تطيع فرس خيّالها، لكنه الآن ينتقم منك كجمل تحمّل عنفوان صاحبه زمنا طويلا! خارج هذه الغرفة يجب ألا يبدو على وجهك خط حول الفم أو زرقة حول العينين! لاتخيبي من يؤمن بك لأنه لايستطيع أن يكون مثلك! تذكري بنتك التي جلست ذات مساء إليك وتناولت كفك وقبلتها: ماما، كم شابة تستطيع أن تقول إن لها مثل أمي؟! آه، تدرك نفيسة في هذه الليلة الساكنة أن الناس يريدون مثلا وأنبياء يتحملون عنهم، ويحملون عنهم، ويندفعون عنهم. ألأنهم يعرفون أن الحياة لاتتقدم من زمن إلى آخر بمثلهم بل بمثلنا؟

كفى! لو تستطيع نفيسة أن توقف هذا الحوار الجارح! صبت لنفسها فنجانا آخر من القهوة. لن تهدئها القهوة. بل تحتاج أن تمشي، أن تعبر بخطوات سريعة

www.alkottob.com

سوقساروجا إلى بوابة الصالحية، وتأخذ الطريق إلى المهاجرين.. لا، لا، تحتاج أن تنزل من جوزة الحدباء وتصل من البحصة إلى المرجة، وتأخذ ضفة بردى وتمشي مع النهر، وتتنفس رطوبته وعبقه المحمل برائحة المشمش. وتمشي حتى الربوة ودمر، متابعة خطوات خالد آغا على تلك الضفة! فهل تستطيع ذلك في هذا الليل؟!

فتحت باب غرفتها وخرجت إلى الداور في خفة اللصّ. لاتريد أن توقظ مرجانة وتتحمل قلقها عليها! فلتبق لها هذه الحرية التي تنفلت فيها من الاتزان الذي يسربلها منذ سنوات لاتعرف بدايتها! هل استمتعت نفيسة ولو مرة بجنون المحبة، أو بحزن امرأة على رجل هجرها، أو ببكاء عاشقة أرعشها الحب؟ أبدا! أبدا! يوم اكتشفت أن خادمتها حلا حامل من زوجها الأول نفضت رأسها كالعصفور وقالت له: فلتتزوجها ولترحل معها اليوم قبل الغد! ويوم تبينت أن كرامة ابن الكحال، الهائم بها، لم تتحمل أن تظهر سيدة نفسها أمام القاضي الشرعي، أحنت رأسها كممثلة وقالت له: فلنفترق! ومن ابن الكحال يانفيسة؟ الرجل الذي بقي واقفا حيث فرضت عليه أن يقف، لايتجاوز عتبة لاتريدينه أن يتجاوزها، وظل متابعا هواك خالد آغا وساهرا عليه في حنان وغيرة مكظومة، ثم مشفقا على فجيعتك ومشاركا فيها. طامرا اندفاع المحب، منتقلا إلى هدوء الصديق. بقي يوهم أهل الحارة بأنك زوجته المحترمة، ويقبل عندما يغلق الباب عليكما أن يظل على بعد مترين منك!

هبت نفيسة واقفة من الكرسي الذي يطل من الداور على أرض الدار: لا، لن تعود إلى ابن الكحال! لاتستطيع أن تفكر بملمس رجل حقيقي! لن تفقد طيف خالد آغا الذي يتلامح في خيالها، وأحاديثهما التي تتخيلها أو تستعيدها! اقبلي يانفيسة إذن هذه الوحدة التي أيقظتك الليلة مرتعشة وأوقفتك وسط هذا السكون الممتد إلى آخر المدينة!

تنهدت في راحة عندما سمعت صوت المؤذن من مئذنة الشامية، ينساب صافيا في فضاء رائق ترعشه رطوبة الفجر. مدت يدها ولمست الندى على ورق شجرة النارنج. وبدا لها، عندما رفعت نظرها إلى السماء، أنها أمضت زمنا طويلا أرقة تتفادى أن تعرف كم الساعة. أعلن المؤذن افتتاح النهار! وخيل إليها أنها سمعت بعد ذلك خشخشة أحمال القنب تنقل على الحمير إلى الفرن. انتهت هواجس الليل! وستعيدها مدينة أفاق الناس فيها، إلى مكانها الذي صاغته بحياة امتدت ستين سنة لايمكن أن تفقدها بقلق عابر أو حزن طارئ. ولاتستطيع أيضا

www.alkottob.com

أن تخونها بالخروج إلى نداءات الضعف الهشة، مستنجدة بمن هو دونها قوة لكنه أكثر منها سعادة. يجب أن تتحملي يانفيسة ثمن مااخترته بقرارك الحر! الوحدة في هذا العمر، ورعشة الروح من الصقيع، وفراغ الغرفة من لهفة معبأة بذكريات الحب وأهواء الشباب. هل تتحملين حنان ابنتيك لو ركضتا إليك خائفتين عليك، أم سيرعشك فيض الحنان وستخافين ظل ضعفك في عيونهما! مثلك يانفيسة يجب أن يخفي وحدته بالكبرياء، ووهن آخر العمر بالإباء، وضعفه بما تركه في ذاكرة الناس من جلال! عرفوك امرأة مستقلة، عالية القامة في عواطفها وفي أحزانها وأفراحها، كهذه المآذن التي تعلو على كل ماعداها في مدينة لاتعرفين متى بدأت ولن يعرف أحد متى تنتهي في الزمان!

خطر لها، مرة أخرى، أنها في ساعة تشبه الساعات التي توقظ بأجراسها الإنسان قبل الموت. استمعت إلى دقات قلبها، حركت أصابعها، أدارت رأسها إلى اليمين والشمال، رأت السماء تبيضّ وارتعش زنداها من برد الصباح. فقالت: لا! هذا ليس الشعور باقتراب الموت، بل هذه رغبة في تأمل الحياة قبل أن يملأها الناس بالصخب! وسخرت من نفسها: "ياعلى كسرتك يانفيسة، تنهضين وسط الليل لتتأملي الحياة؟ ألا يكفيك النهار"؟ مع ذلك لم تعد إلى فراشها، بل أصغت لبرد الصباح القادم من بساتين "وراء الدور"، ولتململ العصافير في الأعشاش في أشجار أرض الدار، وسمعت هديل ستيتية تعشش في سقف الداور، فتذكرت أنها لم تبلل لها الخبز اليابس أمس.

رتبت فراشها. لم تخرج من غرفتها يوما دون أن ترتبه. ولم تترك يوما لمرجانة أن ترتب لها خزانتها. لغيرها الظاهر فقط، مسح أرض الغرفة، ومسح الغبار عن تاج الخزانة الذي حفر عليه من طرفيه طاووسان. منذ فراقها عن ابن الكحال تركت غرفتها إلى غرفة أبويها، ونقلت ثيابها إليها. هاجرة مايمكن أن يذكرها بأنها كانت امرأة رجل يحبها وربما أحبته في ليال كثيرة. وكانت له كأية امرأة محبة، رقيقة وعذبة وصريحة. يوم أطلت على تلك الغرفة شعرت بالخجل فهربت منها وتركتها لمرجانة. ففهمت مرجانة أنها يجب أن تنظفها كل يوم عندما تكون نفيسة في أرض الدار أو خارج البيت وأن تبقي بابها مغلقا. وكم تعلمت مرجانة من أهواء نفيسة، منذ كانت زوجة ابن الكحال وكانت تتركه إلى بساتين التوت، حتى صارت تسهر معه ومع خالد آغا! وهل تستطيع مرجانة أن تنسى اليوم الذي خرجت فيه نفيسة لتبلغ خالد عن إعدام شهداء أيار! أو اليوم الذي خرج فيه خالد آغا آخر مرة من بيت نفيسة! حرست مرجانة سيدتها كأم لاكعبدة.

www.alkottob.com

لكنها فهمت أن نفيسة ترسم دائرة حول نفسها لاتسمح لأحد بأن يقترب منها، محتمية بوحدتها. ولذلك لم يدهشها أن تترك لها نفيسة الغرفة التي عاشت فيها مع ابن الكحال، وتكتم عنها غرفة أمها وأبيها التي انتقلت إليها منذ افترقت عن زوجها.

خرجت نفيسة في العصر إلى مقبرة الدحداح. زارت القبر الذي خصّ خالد نفسه به، لكن سعيدا دفن فيه. وابتسمت. كأنه مثل صارم الدين ساروجا الذي سمي باسمه الحي! خصّ نفسه بضريح إلى جانب حمام الجوزة لكن وزيره دفن فيه، ودفن هو في القدس! أو كأنه نجم الدين أيوب الذي خصّ نفسه بتربة مقابل بيت نفيسة لكنه لم يدفن فيها بل دفن فيها بعض أولاده! كأنك ياخالد آغا ورثت القدر الذي يضع مسافة بين أماني الرجال والواقع حتى في هذه المساحة الحميمة! أو كأنك تريدني في الرابع والعشرين من تموز كل سنة أن أخرج إلى ميسلون متوهمة مرة أنك مدفون قرب سبيل الماء كيلا تعطش، ومتوهمة مرة أنك مدفون قرب شجرة المسك كي تستظل بها!

اشترت نفيسة في ذلك اليوم قبرا قرب قبر خالد آغا الذي دفن فيه سعيد، وطلبت أن تزرع قربه شجرة رمان. قالت للرجل الذي تلقى أوامرها: وبعد ذلك نزرع خبيزة حمراء وبيضاء. عادت نفيسة من مقبرة الدحداح قبل العتمة راضية وهي تشعر بأن موتها مازال بعيدا جدا، لكنه يوم يأتي سيكون مرتبا كبيتها. راقبت في حذر البهجة التي غمرتها: لماذا؟ بعد أرق الليل؟ كم تخشى على روحها! لا، يانفيسة! تنهضين من أنقاض الثورة السورية كما تنهض مدينتك! لاتستطيع روحك السكون، ولاتستطيع ذلك المدينة! ولايستطيع ذلك أيضا الانتداب!

جلست مرجانة حيث أشارت إليها نفيسة. تناولت يدها: خشنة! لماذا لاتدهنينها بزيت الزيتون! فحصتها مرجانة. ليس هذا ماتريد أن تقوله نفيسة! فماذا في بالها في هذا المساء؟ قطعت نفيسة الصمت كأنها وجدت أخيرا صيغة تعبر بها: يامرجانة، عشت معي عمرا، وحقي أن أخاف عليك. سأكتب لك بيتي في الصالحية. جمدت مرجانة. ثم قفزت الدموع إلى عينيها. كأنها وجدت نفسها وحيدة في الدنيا! يقوم بها بيت نفيسة وتبدو فيه سيدة مستقلة، ولكن هل تستطيع أن تعيش دون سيدتها! اهدئي يامرجانة! اهدئي! سنعيش معا حتى يأخذ الله أمانته. أردت فقط أن أطمئن عليك!

هل جمعهما في ذلك الليل التفكير في الفراق الذي لايفكر فيه الأحياء عادة؟ هفّت من مرجانة رائحة الصابون عندما عانقتها نفيسة! اضطرها خوف مرجانة

www.alkottob.com

إلى عناق تتفاداه دائما. وتذكرت أنها لم تعانق أحدا منذ زمن بعيد. تستقبلها بنتاها كما يستقبل ضيف مهيب. وقد تقبل أحفادها لكن دون عناق. قالت وهي تبعد أسى العناق: الله يسامحك يامرجانة! هل يجب أن نكون كالناس الذين يتركون على من بعدهم أن يرتب أمورهم؟! هذا البيت حق منور وسعاد لأنه من أجدادهما. لكن بيت الصالحية لي. أنا اشتريت الأرض وبنيت البيت فيها، واخترت أن يكون قرب الساقية التي يسبح فيها الوزّ. حقي أن أهديك شيئا! امسحي دموعك! امسحيها! وافهمي أني أريد أن أطمئن عليك!

جلست نفيسة في ذلك المساء في صدر الليوان، مشرفة على أزهارها وشجرها وبحرتها. متسائلة هل كانت، ولو في السر عن نفسها، ترجو لمرجانة رجلا يتزوجها وتتجب منه لتطمئن عليها؟ ماأعجب أن يكون الرجل والأولاد الذين يأكلون عمر المرأة سبب اطمئنانها إلى مصيرها! لم تتزوج مرجانة فاستنجدت نفيسة بالسند الآخر: المال! ولكن ماالفرق يانفيسة بين الولاء وبين الحب، ومماالفرق بينهما وبين الإلفة؟ هاهي نفيسة التي تفادت أسر الزوج والأولاد والقرابة مسؤولة عن هذه الشابة! كانت قد سمعت أذان العشاء منذ زمن طويل من مئذنة الشامية، وأصغت إلى صوت المؤذن الحلو. أيمكن أن يولد إنسان دون أهل؟ أين أهل مرجانة إذن؟ هل تعودت أن تتساهم؟ أصبحت نفيسة أهلها! ولكن لماذا تحبسين الدنيا يامرجانة في هذا البيت، وترعبك الحرية؟ يبدو أن الوحدة مخيفة، يامرجانة، و"الدنيا بلا ناس مابتنداس"!

www.alkottob.com

- كلفوا الشيخ تاج !

- رأيته! مربوع، سمين!

- أين رأيته؟ أنا لم أره بعد !

- كيف لم تره؟! يتمخطر في الطرقات بالسيارة كأنه يقول للناس تفرجوا علي !

فهم بهاء أن منور حكمت على الشيخ تاج حكما لن تقبل المناقشة فيه. فهل يستطيع أن يقول لها تمهلي؟ تركت بيروت كي يشترك بهاء وسعيد في الثورة السورية. وفقدت أخاها في الثورة. فهل يستطيع أن يطلب منها الحكمة لتقدر المعتدلين الذين يسعون إلى الاستقلال بالحوار مع المندوب السامي الفرنسي؟

اسمع يابهاء! أعرف أنك تراني أسيرة حزني على أخي! أنت أيضا حزين عليه. فلماذا تدعي لنفسك الحكمة لأنك تفحص سعي المعتدلين في حذر، وتنكر عليّ القدرة على ذلك؟

ضبطته مرة أخرى! فهل أنسته منور، بأيام الحب التي داوته بها من الخيبة والحزن، عقل الصديقة وحكمتها! لماذا يتمسك بالمحبّة ويستبعد الصديقة؟ كأن الفرق في العمر بينه وبينها يلح عليه في أن يبقى مسحورا بالشابة التي تنفلت منه دائما حرة، ويزيد ذلك من سحرها عليه ومن خوفه من البعد بينهما!

كلم نفسه أمامها. من بقي من الثوار حيا رحل إلى المنفى الذي تيسر له. لكنهم لم يتفرقوا في المكان فقط بل في الفكر. كأن الهزيمة تفرق الناس! لذلك كتب سعيد العاص مذكراته عن الثورة السورية، دارسا ومحللا، مترفعا عن الصغائر. غيورا على الدرس والعبرة كقائد عسكري، وكسياسي يفكر في المستقبل. لكن المنفى يعني حصار الرجال! من بقي هنا لايستطيع أن يسكن بل يجب أن يبحث عن أسلوب ملائم للحركة!

www.alkottob.com

- تبرر الاتفاق مع الفرنسيين الذين حاربتهم في الثورة؟

- أفكر بصوت مرتفع. الخط أدق من الشعرة بين السعي إلى الاستقلال والسعي إلى أحضان المندوب السامي! لكني أميز بين من ينقل له الأخبار كواش، ومن يحاوره باسم الشعب! لاينقطع المسافرون إلى بيروت لمقابلة بونسو. لكن هاشم الأتاسي وجميل مردم وسعد الله الجابري يقيسون حركتهم. يبدو لي أن بونسو يريد علاقة تتجاوز الصدام بالسوريين.

كانت منور تتمسك بالعتبة التي تفصل سنة 1927 عن سنة 1928. فتسمع أصداء الثورة وهي واقفة على أنقاضها، وتجد في الأحزان العامة جمرة تعدها بثورة أكثر حظا في الانتصار. تعرف أن ذلك أملا عاما، فالطائرات والمدافع تستطيع أن تخمد ثورة جديدة، والناس لم ينهضوا بعد من الخرائب ولم يشفوا من المآتم.

بعد إخلاء البلد من الثوار، بحث المندوب السامي عن أسلوب جديد يحكم به البلد بسياسيين سوريين معتدلين. كلف الشيخ تاج، وقبل التحضير لانتخابات جمعية تأسيسية تضع دستورا مناسبا. فهمت منور أن السوريين سيحاولون الدخول من ثقب الإبرة. لكنها تنبأت بالنتيجة. صحيح يامنور، لااعتدال بين الاستقلال والانتداب، لكن الرجال يسعون، وهذا السعي كفاح، يكسب الناس فيه مهارات ومعرفة ويزيدون من كفاءتهم، وتكتشف فيه كل فئة مكانها وقوتها، وربما حلفاءها وأعداءها. وربما تعلّم الفرنسيين كيف يعاملون أهل البلد!

خيل إليها أنها تتابع أحداث سنة 1928 من جهة أخرى ليست الجهة التي ينساق فيها بهاء! هو، من الذين لايستطيعون أن يقفوا ساكنين في مكان! هي، مراقبة وحارسة باسم الغائبين، المنفيين والشهداء! تفادت أن تحاور بهاء، كي تكون صافية النظرة. زارت نفيسة وصادفت عندها نرجس، وسمعت مايقوله ابن الكحال. وتحدثت مع الصيدلي ميشيل مرات وهي تشتري مرة قطنا ومرة سبيرتو ومرة يودا ومرة مرهما أسود، رافعة له إصبعها الذي تقيح قرب الظفر من شوك الورد. واستمعت إليه وهو يعقمه ويلفه بالشاش.

عندما هم بهاء بأن يحدثها عن القوائم التي يحضّرها الوطنيون، قالت له: كم أشتهي الصبارة! فخفق قلبه وهبّ عن كرسيه. فأجلسته: سأحضّر شايا مع العنبر لنشربه في المشرقة! تاه وهو يتابعها. ثم خمّن أنها لاتريد أن تسمع شيئا عما يجري في البلد. واستمتع برهة برغبتها في أن يكون هو الذي يشغلها. ولم يعد راغبا في ماخيل إليه أنه حمل دفعها لتشتهي الصبارة. ألا يتمنى أن يكون دنيا لاتنتبه إلى سواها! لكنه وهو يراقبها تهمس لنفسها بنغمة أغنية من الأغاني التي

www.alkottob.com

كانت تستهويها في بيروت، شعر بأنها منساقة في أهوائها كأنها تبقيه على الأرض وتطير في فضائها. تفادت أن تغني بعد موت سعيد. وهذا ليس غناء بل دندنة تسجل فيها انتصارا ما. على من؟ على ماذا؟ في مثل تلك البرهة كان يزداد حبا لها ويخشى عجزه أن يكون منها ماتمناه. قال كي يدافع عنها ويهدئ نفسه: هذا طبع موروث، لاموقف مقصود! وأعجبته بلاغته!

حركت منور كأسه بملعقة العنبر، ورفعته له مبالغة بالعناية به. ثم حركت كأسها. فحصها بنظرته: ماذا تخفين ياشيطانتي؟ أمتعه بريق عينيها. تلعبين بي يامنور؟ بدت راضية. فلتبق كذلك! وليتبعها حتى تتعب من لعبتها. تنفست في عمق عبق الياسمين: يابهاء، يدهشني أحيانا عمر الياسمين الطويل! يبدأ في أول الصيف، ويبقى حتى أول الشتاء. ألا يملّ؟ سألها: لماذا يملّ؟ أغلقت جفنيها وتنهدت. لم تجبه. يتناول أحيانا كلمة من كلماتها ويرتجف. هل تقصد أنها يمكن أن تملّ من الحب؟ على الطاولة الصغيرة بين فنجاني الشاي صحن أزرق مليء بزهر الياسمين. فكر في طقوسها: لاتنسى مكان زهرة الفلّ قرب فنجان القهوة، أو قرب جرة الماء على طرف النافذة. ولاتنسى صحن الياسمين قرب فنجان الشاي ذي الخصر المرهف. لكنها تقول: أترك ورق الليمون في إبريق الماء لعمتي نفيسة! أحب الماء المعطر بماء الزهر!

نظر إليها. لماذا لايستطيع أن يمسك بهذه السعادة؟ لماذا يخاف عليها حتى وهي بين ذراعيه؟ لماذا ليس له اطمئنان الرجل الذي يعرف أنه سيأخذ زوجته متى أراد، وسيلقاها في انتظاره دائما عندما يعود من المقهى، وسيسمع دائما منها كلمات الرضا به والشكر له؟ لماذا لاتلتقي به منور إلا في برهة الوجد، وتفرض دائما طرقات طويلة من الرضا، وأياما هنيّة تبدأ منذ الفجر كي تسمح بأن يرقّ المساء؟ ابتسم لنفسه. ياسفرجل، كل عضة بغصة! التقطت منور طيف ابتسامته: خير؟ رد: اشتهيت السفرجل! فحصته بانتباه ثم ابتسمت: عندنا مربى السفرجل! وكادت تنهض فأمسك بيدها. سكنت ورأته يحدق فيها. سألته بنظرتها وبحركة من رأسها. فقال: سلامتك! ابتعدت عنه، تناولت طربوشه، لمسته بكفها كأنها تنظفه: خذ! اذهب إلى المقهى، لا إلى أصحابك! أو امش في شارع بغداد! أنا، سأزور عمتي نفيسة! وضعت الطربوش على رأسه وضحكت لأن الشرابة كانت في اتجاه أذنه. جرته من يده فأوقفته: اذهب! لم تشعر بأنه يتمنى أن يبقى إلى جانبها، مقابلها، قربها، وحتى على بعد أمتار منها! سيخرج من البيت، سيجلس في المقهى الذي كان يجلس فيه أبوه في سوقساروجا، وقد يستمع إلى رواية من

www.alkottob.com

روايات كركوز وعواظ تلمّح إلى الانتداب. ثم سيمشي في شارع بغداد مستحضرا أشواقه إلى منور، ليقول لها عندما يعود: نفذت اقتراحاتك كلها! طالبا رضاها، حالما بأن يشم عطر سعادتها! فإذا حدث ذلك، يجب ألا يخطئ فيسألها عما تخفيه عنه. يعرف أن ذلك سيجفلها! فهل يزور نفيسة ليصيد أطياف أسرارها!

www.alkottob.com

تساءل ابن الكحال أمام نفيسة: هل حمت بهاء معرفته أحمد نامي؟ وردت نفيسة عليه: لا! حمى بهاء أنه كان في الثورة دون اسمه الحقيقي! وأنه تفادى التصوير! هذا غير مألوف، فرجالنا كانوا يتباهون بأنهم يساعدون الثورة أو يشتركون فيها! لكن يبدو أن بهاء يحسب مالا نحسبه! مايزال يزور أحمد نامي، لذلك سألته: كيف تستطيع يابهاء أن تتحمل رجلا يحلم بعرش على أنقاض ثورة اشتركت فيها؟ نسيت أصحابك الذين بكيتهم؟ تكدر بهاء فندمت لأني هيجت أشجانه. قال لي جملة واحدة: يانفيسة خانم، أزور أحمد نامي لأني لم أنسهم!

فكرت نفيسة في بهاء بعد انصراف ابن الكحال. تساءلت هل تتضح الملامح من جيل إلى آخر، أم من أب إلى ابنه؟ انحازت نفيسة إلى بهاء لأنه يذكرها بخالد آغا. لكنها ترى فيه الآن أكثر من ذلك. قالت لنفسها: نرى نحن البرهة الحاضرة لكنه يرى ماوراءها! اندفع في الثورة وكان يمكن أن يموت فيها. لكنه بعدها أفاد من معرفته أحمد نامي وصار يزوره. لبهاء صلة بالوطنيين يتكتم عليها. لو كان يطمع في وزارة لشككت فيه. لكنه حريص على أن يبقى دائما في الظل. هذا رجل يحمي مشروعا! سألته: لماذا لاتطمع في منصب يابهاء؟ صاحبك أحمد نامي يمكن أن يؤمنه لك! فحصني بنظره: تريدين أن تحرقيني يانفيسة خانم؟ سألته: لا، لكن لماذا تبقى في الظل بين الوطنيين، وخصومهم؟ نظر إلي بملء وجهه: هذا الصراع طويل، طويل، يانفيسة خانم! يجب أن نحمي أنفسنا كي نبقى فيه أطول وقت ممكن!

هل تتعلم من بهاء، وهو أصغر منها؟ ابتسمت فسألها بنظرته: لماذا؟ وردت: تمنيت أن يكون خالد آغا حيا ليراك الآن! هل تولد موهبة النظرة الواسعة مع بعض الرجال، أم يكتسبونها بالتجربة؟ قال لها بهاء كأنه قرأ ماتفكر فيه: لابد من المعرفة والمعلومات كي تخمني وتقرئي ماحولك، يانفيسة خانم! موهبة الحدس عظيمة، لكنها يجب أن تؤهّل! قالت لنفسها: إذن يقصد من زيارة أحمد نامي أن

www.alkottob.com

يفهم مالانعرفه! سألته: لكن كيف تتحمل أحمد نامي؟ ابتسم: يبدو أن بيني وبينك حوارين في وقت واحد! يانفيسة خانم، هذا رجل مهذب ربّته الأرستقراطية. أسمع مايقوله في السياسة، لكني أحاوره بمتعة في ماعداها!

لم ينقطع بهاء عن زيارة أحمد نامي عندما استقال في شباط سنة 1928. كلف بونسو الشيخ تاج بوزارة موقتة تشرف على الانتخابات لمجلس تشريعي. مجلس تشريعي؟ هذا نجاح عظيم للوطنيين، يانفيسة خانم! أين العظمة، يابهاء، إذا كان جميل الإلشي وزيرا في وزارة الشيخ تاج؟ يعرف الناس أنه خائن نقل لغورو أخبار الوطنيين قبيل معركة ميسلون! يانفيسة خانم، يجب أن نسعى ليكون المجلس التشريعي للوطنيين! لكن لن تريني من زوار الشيخ تاج. فهذا رجل لاأجد معه لغة مشتركة!

فهمت نفيسة بهاء عندما رأت الشيخ عبد القادر الخطيب يسند الشيخ تاج منقلبا على ماضيه. صار بهاء يمر بنفيسة يوميا. فسرحت في ذكرياتها. يتكرر الأمر نفسه في شكل آخر! ألم تقربها الأحداث من خالد آغا كما تقربها الآن من ابنه؟ أخبرها بهاء: صار عبد القادر الخطيب مفتش الأوقاف! قالت: ليصرف منها لنفسه وللشيخ تاج! استمرار الماضي في حاضر الإنسان مسألة مهمة، يابهاء! فاجأته نفيسة؟ قال لمنور: عمتك توجز أمورا معقدة في بساطة! في المنعطفات الشخصية والعامة قد يفقد رجال السياسة والناس توازنهم فيخونون ماضيهم ليكسبوا مايتصورون أنهم ضيعوه أو قد يضيعونه! سألتني عمتك أيضا كيف يحشد الشيخ تاج رجال الطرق الدينية، ويلبس الفراك الاوروبي في الوقت نفسه. قلت لها: هذا تناسق الأضداد. عناصر متنافرة في الظاهر، متفقة في الحقيقة!

انتقمت نفيسة من الشيخ تاج بالسخرية: يسجل اسمه على أبنية لم تبن في زمنه! يقال يابهاء، إنه سيحفر اسمه على المدرسة الشامية! إذن سيصبّحك ويمسّيك، يانفيسة خانم! حدثت بهاء، فيما بعد، عن مظاهرة رجال الطرق الذين خرجوا احتفالا بشفائه، مع طبولهم ورياتهم وخيولهم: لم تعرف السراي التي تجمعوا أمامها مثل هذه الرايات من قبل! عجزت نفيسة أن تطفئ غضبها بالسخرية: هذا رجل دون قلب! أنفق على الاحتفال من المال المخصص للمرضى بالسلّ!

قال لها بهاء: تذكري هذه السنة، يانفيسة خانم، سنة 1928. وجرّها لتتشغل بالانتخابات التي قررت في العاشر والرابع والعشرين من نيسان. فسألته: وهؤلاء

www.alkottob.com

الذين استقبلوا الشيخ تاج في المدن السورية وفي دمشق؟! يبدو، يانفيسة خانم، أنه يوجد شعبان! هذا الذي يخرج إلى الشارع ليهزّ راياته للحاكم، وآخر يعرف الحقيقة ويجهر بها في بيوته! فسألته: تتهم الناس بالنفاق؟ رد: أسمّي ذلك تقية! إرث من خشية الحكام! أو وعي رفيع! نعرف مايريده الحاكم فنقدمه له ونحن نحتفظ بكلام القلب. "اليد التي لاتقدر عليها قبّلها وادع عليها بالكسر"! لكن لهؤلاء وجها واحدا أمام الأجنبي المحتل! في الانتخابات ستظهر الحقيقة! قالت له: لاتتفاءل كثيرا، يابهاء، فرجال الطرق المشعوذين سينزلون إلى الانتخابات!

شغلها بهاء مرة أخرى بمسألة العفو عن الوطنيين الذين اشتركوا في الثورة السورية. سعد الله الجابري، فوزي الغزي، لطفي الحفار، حسني البرازي، نسيب وفوزي البكري.. حجب العفو عن سلطان باشا الأطرش والقوتلي والشهبندر وآخرين. يقصد بهذا التمييز تقسيم الوطنيين. لكننا سنفيد ممن نال العفو! سألته: هل تشفق على ابنيّ البكري؟ نعم! صودرت حتى مزرعتهما في القابون. عاشا في قلّة. ولم يأخذا إعانات. لم يقدر لهما الوطنيون المنفيون أنهما زعيمان لهما شعبية وتاريخ! مع العفو أعيدت لهما المزرعة ونزلا في قائمة الشيخ تاج. سألته نفيسة: انفصل الماضي عن الحاضر؟! يانفيسة خانم، سعى لهما الشيخ تاج بالعفو. بينهم صحبة! يابهاء، تقود الصداقة السياسة أم تقود السياسة الصداقة؟ يانفيسة خانم، يرى الإنسلن الصافي كل شيء من خلال الوطن. لكن لنعترف بأن بين الناس علاقات قرابة وصداقة تؤثر في المواقف. نحن الشهود نحكم على الناس بمقدار قاماتهم! أنت شاهد فقط، يابهاء؟!

أعادته إلى بحث العواطف عندما سمعت أن الشهبندر هاجم الوطنيين المحظوظين بالعفو. سألته: غيرة، أم ضيق عقل؟ ابتسم: يزيد ذلك أن الوطنيين نزلوا مع الشيخ تاج في قائمة مشتركة. أربعة منهم وستة من جماعته. يريد الشهبندر أن يقاتل الناطور!

صدق تخمين نفيسة في انتخابات المرحلة الاولى. أجاب الشيخ تاج على الوطنيين الذين اتهموه بالتزوير، بمظاهرة في سوقساروجا وفي القيمرية. مشت نفيسة في أرض الدار حاملة صينية عليها فناجين القهوة: والله، والله، لو كنت وقتذاك في الحارة لسكبت على رؤوسهم من النافذة سطلا من الماء! نغصّ بالشيخ تاج في البلد، فيأتي ليتحدانا تحت نوافذنا؟! تناولت منور منها الصينية وتبينت أن القهوة انسكبت في الصحون. سألتها: صحيح، ياعمتي، أنك صرت من رجال الكتلة؟ كتم بهاء ابتسامته، وضيقت نفيسة عينيها وفحصت منور: لا، لأنهم لم

www.alkottob.com

يسمعوا كلامي!

عندما عرفت نفيسة أن مظاهرة أصحاب الشيخ تاج مرت في سوقساروجا طلبت من مرجانة أن تنظف زجاج نوافذ الفوقاني: لاتتركي على الزجاج أثرا من صراخهم! أضحك ذلك منور فقالت لبهاء: تعزّل عمتي بيتها من الهواء الذي تتنفسه جماعة الشيخ تاج في الحارة! هدأ نفيسة أن فوزي الغزي نظم مظاهرة في الثاني عشر من نيسان في سوقساروجا والشاغور. قالت: هذه مظاهرة، لاتلك! سألتها منور: لكنك ياعمتي لم تري مظاهرة الشيخ تاج! لم أرها، يامنور خانم، لكن الناس رأوها! قررت أن أحتفل مع نرجس في بستان الكركة. عمتي نفيسة ترافق نرجس في نزهة مع النساء إلى بستان الكركة؟ هذا حدث كبير كالثورة السورية! قال بهاء: الحق معك، يانفيسة خانم، تدافعين عن كرامة حارتنا! يابهاء: أدافع عن كرامة الشام! سافرت، على الأقل، مع الحرير إلى بيروت وبغداد وفلسطين! أم نسينا ذلك؟

نزل الوطنيون في قائمة مستقلة في مرحلة الانتخابات الثانية، لكنهم أضافوا اسم الشيخ تاج. ليعزلوه عن جماعته؟ لعبة؟ من يلعب على من؟ هل تقبل، يابهاء، اللعب في الانتخابات؟ يانفيسة خانم، يبدو أن هناك مسافة بين رجل المبادئ ورجل السياسة! ألم نتحدث عن ذلك؟ نسيت؟ يعمل رجل السياسة في الممكن لحساب المبادئ. ويثبت رجل المبادئ في موقفه ولو خسر الممكن الذي قد يكسبه باللعب! يبدو أن الطرفين لازمان في الحياة! المهم أن نربح المجلس التأسيسي الذي سيضع الدستور للبلاد! اعترف بهاء لنفسه بأنه خشي أن تثمر السيارات التي أرسلها الشيخ تاج محملة بالمال تعويضا للقرى عن خسائرها في الثورة، كأنها منه وبفضله. فرجعت كما أتت، ولم تحمل رجال القرى ليصوتوا له! لكن البكري قبل طلب الشيخ تاج فأرسل قبضايات مسلحين بالعصي إلى مراكز الانتخابات اشتبكوا مع شباب الكتلة في ساحة المرجة. مع ذلك نجح سبعة من تسعة من الوطنيين في دمشق. وصوت الجميع لليهودي لنيادو. وسقط رجلان من رجال الشيخ تاج: المحاسني وشامية.

نادت نفيسة: يامرجانة! كادت تطلب منها: لاتفتحي الباب لأحد ولاتطلّي من النافذة لتعرفي من يطرقه! هذا موعد بهاء، فهل تقصد أن تغلق الباب دونه؟ يمر بها في هذه الأيام قبل أن يعود إلى بيته، فهل تكافئه بالهرب منه؟ لماذا ضغط الوجع قلبها فجأة، وضيّق صدرها؟ لاتريد أن تسمع كلمة عن الوزارة والانتخابات والمجالس والناس! تريد أن تبقى وحدها، وحدها! خائفة من التساؤل هل يخون هذا

www.alkottob.com

الزمن الأحباء الذين فقدتهم، وهل تخونهم بالحديث عن الممكن الذي يبحث عنه السياسيون! صعدت نفيسة إلى غرفتها في الفوقاني وأغلقت على نفسها الباب. هل ظنت مرجانة أن نفيسة ستنام أم خمنت أنها ستخلو إلى أطيافها؟ هاهي "سقاطة الباب" تدق! هذا بهاء، فماذا قالت له مرجانة وماذا فهم من كلامها؟ بقيت نفيسة حتى الليل في غرفتها. سمعت نفسها تتأوه وتكتم بالوسادة آهتها. شعرت بندى عينيها واكتفت بما مسحته الوسادة خوفا من أن تعترف لنفسها بأنها بكت. وبعد؟ اكتفيت يانفيسة من أطياف المحبين؟ استغفرتهم وغفروا لك خيانة الماضي بالحاضر؟

خمنت أن بهاء سيعود في المساء، وأنه سيفحصها بنظرة مختلسة ليطمئن عليها. فلاقته بملء عينيها كأنها تسأله: طلب خالد آغا منك أن تحرسني؟! فأغضى وهو يهز رأسه. قدّرت له قلقه عليها. فلنعد إلى أحاديثنا! قل لي، يابهاء، ماذا يستطيع 22 من أصل سبعين في الجمعية التأسيسية؟ انتظري، يانفيسة خانم! تتعلّم من بهاء الصبر؟! تكشف لنا الأحداث الناس! تفتح لنا جوانبهم التي يجهلونها في أنفسهم، هم أيضا! ألم يتفتح خالد آغا في أحداث أيار، ثم في أيام الدولة العربية، وقبيل ميسلون، حتى وصل إلى قمته؟! تعودين، يانفيسة، دائما إلى خالد آغا! نعم! في يوم افتتاح الجمعية التأسيسية فضلت نفيسة أن تختلي بنفسها على السطح. لتتذكر أنها انتظرت خالد آغا في يوم إعلان الدولة العربية، فلم يأت. هو الوحيد الذي تستطيع أن تحدثه اليوم عن هواجسها! كم يحررنا الموتى، يانفيسة! وكم يتحررون منا أيضا! لعله إذن جانب روحها الآخر! الشطر الثاني من قلبها! تتجول معه بالطول والعرض، حرّة. يبدو، يانفيسة، أن الإنسان يحتاج آخر يثق به دون حدود، آخر ينزّهه كي يستطيع أن يبوح له، ويعود إليه، ويشكو له، ويستشيره. ألذلك تضعين خالد آغا فوق جميع من عرفت! هو الميت الذي لايمكن أن يخونك، أو ألا يصدقك، أو أن يستغل شكك ووهنك! ولأنه خالد آغا، ياروحي!

افتتحت الجمعية التأسيسية. ماذا يفيد بونسو من الكثرة غير المتجانسة من المعتدلين؟! تتحرك مجموعة الوطنيين في تناغم وتؤثر في الأكثرية! طلب الوطنيون حل حكومة الشيخ تاج وإقالة الأربعة الذين نجحوا بالتزوير في دورة خاصة، ومنهم عبد القادر الخطيب وفوزي البكري! في تلك الضجة في السراي ضاعت الأكثرية المعتدلة. لم تتكلم. فرق الوطنيون بعضها وكسبوا بعضها. فانتخب هاشم الأتاسي رئيسا للجمعية التأسيسية، وهنانو رئيسا للجنة صياغة

www.alkottob.com

مسودة الدستور، ومعه ستة وعشرون عضوا أكثرهم من الوطنيين. وانتخبت الجمعية اثنين للجنة الفرعية للصياغة: فوزي الغزي، وفائز الخوري، الأستاذين في كلية الحقوق. أرأيت يانفيسة خانم؟ الجمعية التأسيسية في غير هوى الفرنسيين! فليحصد بونسو لوم الضباط على ماتورط فيه! وليلم بونسو الشيخ تاج الذي أوهمه بالمعتدلين!

زارت نفيسة قبر سعيد في مقبرة الدحداح، زينته بالآس، وسقته بالماء. جلست زمنا تحدث خالد آغا الغائب عن القبر الذي رتبه لنفسه. رشت بالماء الخبيزة الحمراء والبيضاء التي زرعها بيده. قالت له: لم يخنك أحد، ولم ينسك أحد، ياخالد آغا! لم ينسك أحد؟ فلتعترف بأنها أحبته في غيابه أكثر مما أحبته في حياته! هذا الحب متحرر من خشية أن يكون أكثر مما يجب أو أقل مما يجب! متحرر من خشية أن يطمعه بها أو ألا يبدو في مقامها! متحرر من مراقبة المحبوب ومراقبة المتفرجين! لايهدده جرح في برهة جنون أو جموح! ولايهدده ملل أو عتاب!

في أقل من شهرين، ياخالد آغا، أنجزت مسوّدة الدستور في هوى الوطنيين! كأننا في أيام الدولة العربية! مشروعهم بارلمان منتخب بحرية. ومساواة بين المواطنين. وحرية الأديان. رئيس الجمهورية مسلم لأن الأكثرية مسلمة. والمهم، ياخالد آغا: سورية وفلسطين بلاد واحدة. وللحكومة السورية الجيش، ولرئيس الجمهورية سلطة وطنية! يرضيك ذلك؟!

خيب بونسو نفيسة وخالد آغا! رفض المندوب السامي في الثالث من آب المواد الستة الخطرة في مسودة الدستور لأنها تناقض الانتداب! قبل الشيخ تاج حذفها. فهاجمه الوطنيون، واتهمه فخري البارودي بأنه ينفق الأموال العامة. أعلن المجلس أنه سيعرض مسودة الدستور على التصويت مادة، مادة في التاسع من آب. فحدث الصدام بين الانتداب والوطنيين. هاجمت الجرائد الفرنسية بونسو. ارتبك رجلان: الشيخ تاج وبونسو! في السابع من آب صوتت الجمعية التأسيسية على مسودة الدستور. فأعلن بونسو أنه يؤجل اجتماعاتها ثلاثة أشهر.

هنا دور السياسي، يانفيسة خانم! تغلي البلاد. لكن الوطنيين لايريدون أن يضيعوا ماربحوه بالسياسة. قبلوا التأجيل، لكنهم ردوا بموقف. اجتمع في حلب ستة آلاف شخص تحدث فيهم هنانو والكيلاني وفائز الخوري. وفي حماة وحمص ودمشق اجتماعات كبيرة.

سافر بونسو إلى فرنسا. ولحقت به جماعة الشيخ تاج. إذا أحسنّا الظن قلنا

www.alkottob.com

ليقترحوا دستورا مقبولا! لانستطيع أن نحسن الظن، يابهاء! "الإتاية عوجا"! أرسلت الكتلة، يانفيسة خانم، جميل مردم ليسعى للعفو عن إحسان الجابري. قالت نفيسة: سيفشل الوفدان !ولم تفاجأ بتأجيل الجمعية التأسيسية ثلاثة أشهر أخرى! يعني هذا إلغاؤها! "من يلعب مع القط يتحمل خراميشه"! لكن ماذا سنقول لخالد آغا، يابهاء؟ ابتسم. ونظر إليها. هل يتبين الآن فقط أن الموت لايقطع علاقة بين رجل وامرأة، قد تقطعها الحياة؟ أحرقته عيناه وهو ينظر إلى نفيسة. في الخامسة من العمر فقد أمه. فهل وجد الآن فقط أما، وهو يتمنى أن يكون أبا؟ تناول يدها. لم يرفعها إلى شفتيه بل انحنى وقبّلها. لم تسحب نفيسة يدها، كأنها فهمت ماأراد أن يقوله. فهزت رأسها هزة خفيفة وأبعدت نظرتها عنه. هل اعتذرت له عن هربها من لقائه إلى غرفتها؟ أم صارحته بأنها تتنسم فيه أباه؟

رجع بونسو من فرنسا واستدعى هاشم الأتاسي. فذهب الأتاسي إليه في بيروت يحمل نسخة من الدستور. اقترح إضافة مادة تسمح لفرنسا بمعاملة خاصة، بمعاهدة بين فرنسا وسوريا. عبثا، يانفيسة خانم! لايستطيع بونسو في كانون الثاني سنة 1929 أن يقبل ماكان يمكن أن يقبله في آب سنة 1928. هكذا أعلن موت الجمعية التأسيسية في الخامس من شباط سنة 1929 بمرسوم من المندوب السامي.

نقل من بيروت إلى دمشق سالومياك الماهر في المناورات. مهمته أن يفكك الكتلة الوطنية، يانفيسة خانم! وبونسو؟ هائم بالمسائل الاقتصادية! سيخترع ضرائب جديدة إذن، يابهاء! لكن المظاهرات مستمرة. تشهد أن الطموح إلى الاستقلال باق مهما غير الانتداب رجاله. هل يجهل الفرنسيون أن الناس صرخوا عندما دخل الشيخ تاج إلى المسجد الأموي: ياخائن!

تنهدت نفيسة: هل هذا الوقت مناسب لفتنة البراق في القدس؟!

www.alkottob.com

منور حرة في مملكتها! لأحد في بيتها الواسع ينشر الفوضى، ومع ذلك تفحص الغرف المغلقة على الأسرة المغطاة بملاحف الأطلس، تعيد ربط أطراف الستائر البيضاء المطرزة بالإبرة التي طرزت لها في دكاكين سوق العرائس. اختارت رسم طاووس حوله نباتات. لماذا تذكرت الطاووس عندما سألها صاحب دكان التطريز عن الرسم الذي ترغب فيه؟ ألأنها صحت في طفولتها على ستائر بيضاء تحجب من الضوء مايؤذي وتسمح بما يريح، وكانت على تلك الستائر في بيت نفيسة رسوم طواويس؟ ألأنها تفرجت وهي صغيرة على الطاووس في طرف الحديقة-البستان في بيت أم بديع، وخيل إليها أنه نظر إليها ثم فرش ذيله الملون؟ ألأنها لمست ريش الطاووس في المزهرية الفضية في صدر القاعة في بيت مكرم وسحرها ملمسه الحريري، وعندما فكت الشعيرات المتلاصقة انكسرت الريشة، ورأت تلك الدائرة الساحرة الألوان فيما بعد علامة في صفحة من القرآن؟

سقت منور الدادا والأرطاسيا وحلق المحبوب. شمت الورد. رفعت رأسها إلى شجرة الليمون. استبقت عليها حبات ليمون من الموسم الماضي لتزينها. في الحوض جذع الياسمينة التي تسلقت الدرابزين في الفوقاني وانفرشت أمام المشرقة. أما الدالية فارتفعت لتظلل السطح. كنست منور أزهار الياسمين من أرض الدار. فتحت الحنفية لينسكب ماء البحرة على أطرافها وجلست على المقعد مقابلها تتأمل رسوم جدرانها التي وضّحها الماء، وزخرفة سجادة الرخام المربعة حول البحرة. يمتعها أحيانا أن تتفرج على أرض الدار المرصوفة بالحجر الأبيض والأسود في تشكيل بديع. لاتمل ذلك أبدا! تتفقد كل يوم الزوايا التي تحبها، المشرقة التي تجلس فيها بعد العصر لتشم عبق الياسمين. الداور الذي تطل منه على أرض الدار. السطح الذي فرشته ببساط عليه طراريح لجلسة المساء تحت عريشة

www.alkottob.com

العنب. القاعة التي تتوسطها بحرة، وتتصدرها مرآة من الصدف فوق "قنصلية" ثمينة. ينساب الماء على زخارف من الرخام الأبيض في جدارها ويملأ بحرة نصف دائرية. وضعت منور على "اسكملتين" في طرفي القاعة أصص "راخي شعره"، وتدلت الخضرة حتى الأرض تقريبا. كانت القاعة مفروشة بطقم مطعم بالصدف، منجد بالبروكار الدمشقي. تنقلت بين الفوقاني والتحتاني. نعم، تعيش في جنة لايلمسها آب اللّهاب. فالقاعة رطبة، وأرض الدار مغمورة بالظلال. لن تصعد إلى الفوقاني إلا في المساء، وقت يلعب الهواء ويحمل برودة أول الليل إلى الغرف، ويبرّد جرات الماء على أطراف النوافذ. يخيل لمنور أن نسيم الليل هو الذي يغلق جفنيها في عذوبة النعاس. فيتركها بهاء أحيانا غافية قرب النافذة، ويظل يروح ويجيء حتى تصحو فيمسك بيدها ويقودها إلى غرفة النوم كأم حنون. فتكمل غفوتها على كتفه. ويقول لها في الصباح ضاحكا: "اخضرت" ذراعي لكني خشيت أن أتحرك!

في آب، ينضج العنب على دالية السطح، فتراقبه كالدبور. أيهما يسبق الآخر إلى العناقيد الناضجة؟! مع ذلك تشتري العنب من الباعة الذين أتوا من الغوطة يحمّلون حميرهم وعرباتهم بسلال الدوماني والزيني والأسود! يفيض عنها العنب؟ تصنع منه خلا طيبا! فليكن هذا آب اللهاب، فهي تحتمي منه ببيتها وحارتها وعرائشها! يحمل لها آب الصبار الذي يصفّه على لوح من البوظ بائع وضع أمامه فرش الصبار، وخلفه تنكات الزنبق والريحان ومكنسة الجنة، وفوقه على شجرة الكينا "اللوكس". ويحمل لها التين الذي ينادي عليه البائع القادم من الغوطة في الصباح الباكر: عسل ياتين! فتستوقفه منور، وتلمس ندى الصباح على حبات التين. وتضعه على طاولة الفطور مع الجبن الأبيض الطري. تحب التين الأسود الملوكي وتحب التين الأصفر، تحب التين المزروع والتين البعل! يحمل لها بهاء من سوق علي باشا في آب الدراق اللبناني الملفوف كالمجوهرات بورق ملون، والخوخ، والدراق الزهري الشامي، والتفاح السكري الصغير. وفي المساء يمر بائع عرانيس الذرة المسلوقة يجر عربته التي نصب عليها حلّة فوق البريموس، فتستوقفه من النافذة وتنزل السلم راكضة إليه. وتعبر الممر بين الباب وأرض الدار وهي تقضم قضمة عرنوس الذرة وتحمي أصابعها من حرارته بورقته الصفراء.

كم مرة تصعد منور وتنزل الدرج الحجري بين التحتاني والفوقاني، والدرج الخشبي بين الفوقاني والسطح؟ لاتعدّ المرات! تنطّ كأنها تتمنى مساحات أكثر

www.alkottob.com

سعة من بيتها الواسع. مساحات كبستان أبيها في حيفا، كمدى بحر حيفا وبيروت وبحيرة طبرية التي كانت تبدو من بيوتها هناك!

غرفت منور من ماء البحرة بالسطل وسكبته على الأرض. تناولت سطلا آخر وسكبته في اتجاه آخر، سطلا ثالثا ورابعا وخامسا. يوم رآها بهاء من الفوقاني وهي تسكب الماء استمع مبتهجا إلى صوت الماء، وقال: كأنها تغسل الحجر لتنشر عليه الفرح! وقف ساكنا ليحفظ صورتها وهي في ثوب أزرق ابتل بعضه، وذراعاها تسبحان في الماء والهواء. شطفت الأرض مستمتعة برسوم الحجارة البيضاء والسوداء والوردية. عنيت خاصة بسجادة الرخام حول البحرة. أطلت على البحرة. نظفتها أمس! وخطر لها أن بعض سمكات حمراء ستزيد من بهجتها.

سكبت منور آخر سطل من ماء البحرة على نفسها. ارتعشت من برودة الماء، لكنها سكبت سطلا آخر. وهزت رأسها لتنفض شعرها. التفت بمنشفة ومشت إلى الحمام. للماء مذاق خاص تحت السماء، قرب شجرة الليمون! كوّمت ملابسها في طشت وخرجت إلى الفوقاني لابسة برنسا دمشقيا موشى بالقصب.

للغداء لديها لبنيّة مع الطرخون، ومسقعة بالزيت، وشيخ المحشي باللبن مع الرز. تحب في الصيف أطباق الألبان والخضار بالزيت. لكنها لاتتنازل عن الرز. نظرت إلى الساعة العربية والساعة الأفرنجية. ماأبعد الظهر! لماذا يمتد هذا اليوم في بطء؟ أفاقت مبكرة؟ تفيق مبكرة كل يوم! استمعت إلى الكنار الذي غرد في قفصه المعلق على شجرة الليمون. ثم امتلأ البيت بالهدوء. خطر لمنور أن تبحث عن السلحفاة في الأحواض. ووجدتها مختبئة بين أوراق البنفسج. حملت لها ورقة خس: هذا أفضل لك من قضم أوراق البنفسج!

عندما دخل بهاء إلى البيت لم يسمع صوت قبقاب منور المصدّف. تحب أن تلبسه في النهار، وتحب أن تلبس خفها المشغول بالصّرما في المساء. لم يكن يفهم سبب تقسيمها النهار بين الخف والقبقاب. ويوم سألها نظرت إليه معاتبة: صوت النهار كصوت الليل؟! واحد تنط فيه كنافورة الماء، وواحد تنساب فيه كساقية الماء! ظن بهاء من صمت البيت أن منور عند نفيسة. فلم ينادها: يانوارة! سيغتسل من الحر وينتظرها حتى تعود أو ترسل له مرجانة تدعوه للغداء عند نفيسة!

من وراء باب في الفوقاني سمع صوت بكاء. بكاؤها؟ فتح الباب فوجدها تغمر وجهها بقميص مبقع بالدم وتبكي في حرقة. يعرف القميص المطرز! قفزت

www.alkottob.com

غصة إلى حلقه ودمعت عيناه. احتضنها مع القميص وربت على ظهرها! استمرت في بكائها المحرق كأنها لم تشعر به. بعد زمن قال: يانوارة، لماذا تغضبينه؟ كان يحب ضحكتك! منذ أشهر لم يذكرا سعيدا. وهاهو يكتشف أن الميت يعيش بين الأحياء بمقدار حياتهم، بطولها وعرضها! وأن المرارة التي يخفيها الأحياء بالنسيان تتعتق في عتمته. النسيان قارب في حياة واسعة علينا أن نعبرها بهمة كيلا نغرق! النسيان واجبنا نحو الحياة!

لمس كفيها وتبين أنه يستطيع أن يخلصهما من القميص، وضعه على السرير ومسح دموع منور براحته، ثم مشى بها خارج الغرفة. نزلا إلى التحتاني، أجلسها قربه وبدأ يبحث عن ماء الزهر الذي تعطر به الماء. كتمت ابتسامتها وهي تراه تائها كالغريب بين زجاجاتها. فهمت أنه يريد أن ينعشها بكأس ماء معطر. فنهضت وساعدته. رأى بياض عينيها مكدرا لكنه قدر من نظرتها أنها اجتازت العتبة إليه. عانقها وربت على شعرها الرطب: آه منك يانوارة! ماأحلاك في الغضب وفي البكاء! هل يجب أن أبقى في البيت لأحرسك من أطياف الذكريات؟!

تأملها وهي تسكب اللبنية في صحنها. وبهره جمالها. في تلك البرهة غرد الكنار. فالتفتت نحوه: يشعر بالرطوبة! ألم تلاحظ، يابهو، أن العصافير لاتغرد في الحر؟! ماالذي دفعه في تلك البرهة لأن يفكر بأنها يجب أن تسافر إلى طبرية؟ بكاؤها أم صوت الكنار؟ لماذا فكر في أنها تحتاج طفلا يشغلها عن ظلال سعيد؟ لزوج مكرم سيارات تسافر بين فلسطين والشام. فلماذا لايكتب رسالة إلى شفيقة ويطلب منها أن تدعو منور إليها! ستستنتج شفيقة أنها يجب أن تستشير تورنس.

هل تقربنا المصادفة من مصائرنا؟ يبدو لنا أننا نصفّ حياتنا حجرا حجرا، فتتعطف بنا مصادفة وتجعلنا نسرع فيها. ستقول منور: لولا قميص سعيد لما فكرت في الخروج من دمشق في تلك الأيام! من يسافر من دمشق وهي قائمة قاعدة، إلى فلسطين التي يسيل فيها الدم!

أطل بهاء في ذلك اليوم على ماتصور أنه يراه في منور كمن يتلصص من ثقب الباب. فكر في روحها المتنوعة. قال لنفسه فيها شيء من نفيسة، وشيء من فاطمة، وشيء بعيد عنهما. وتساءل هل العمر هو الذي يستخرج من تلك العجائن روحا خاصة بصاحبها؟ وقدر الإنسان أن يعبر الحلو والمر والامتحانات ليصقل جوهرته وليرجح ويحذف من المتنوعات التي تجمعها روحه! بدت له منور في

www.alkottob.com

ذلك اليوم هشّة بما تخزنه من التعلق بمحبوبيها، وقوية بغضبها على القدر الذي اختارها للحزن، وبمعاييرها الصارمة بين ماتغفره ومالايغفر أبدا. أدهشته روحها الشاسعة التي تستبقيه عارفا وجاهلا بها. لكنه قال لنفسه: ماأتعسني لو عشت مع امرأة أخرى! وشعر مرة أخرى ببعدها عن نرجس.

www.alkottob.com

وصل تلغراف من شفيقة: ننتظر منور. في تلك الليلة لم يهدأ بهاء. ستغيب منور عنه أسابيع وربما شهرا. كأنه يفهم الآن المحب الذي يقتل حبيبته كي يطمئن عليها ويقطع الوجد الذي يحرقه. استعاد بهاء أيام كان يسمع دقات قلبه في أذنيه وهو يقترب من البيت. وعندما تلقاه منور مشغولة بنباتاتها أو مربياتها أو صاحباتها يطمئن برهة، لكنه لايهدأ. ماتزال منور مشغولة بعالم توسعه لنفسها. يعجبه ألا تكون مشغولة به فقط، ويعذبه أنها ليست مشغولة به فقط! ثم يقول لنفسه: مشغولة بالحياة! ولعلها هي التي استبقتني حيا في حرب الترعة، فعدت كيلا أرملها في أول العمر!

قالت له منور: سأتذكرك عندما نسهر قرب بحرة طبرية، وعندما نأكل سمكها. سأتذكرك عندما أسبح فيها! ابتسم: هل تزيدين غمي أم تواسينني؟ طارت منور من الفرح. دارت في أرض الدار بين شجيرات الفل رافعة ذراعيها كفراشة سعيدة. قطفت زهرة فل ورمتها في الهواء: طبرية!

ركبت منور في سيارة أبي رياح، زوج مكرم. ماأيسر السفر اليوم! قال أبو رياح: لولا الحدود، يامنور خانم! وتذكر بهاء أنه استأجر ذات يوم لمنور وأختها وأخيها "بوسطة" من بيروت. كانت عربة مغلقة فيها ثلاث كراس للركاب، على نوافذها ستائر ذات أزرار. رأى بهاء وجه منور من نافذة السيارة. بدر! في البرهة التي تحركت فيها السيارة أطلقت منور بنظرتها حبها لبهاء. فتح ذراعيه وتلقاه. يامنور، تظهرين الحب كالبرق فأكاد أعشى، في برهة الرحيل! تلعبين؟ لو يستطيع أن يرحل معها! لا! يشعر بأنها تحب أن تكون بعيدة عنه أحيانا كأن القرب أسر. تفهم أن في الحب شيء من الأسر وترفضه، لتحفظ توازنها بين الانسياق في الحب، والتحفظ الذي يستبقي الحرية. ومع ذلك يتمنى أن تورث أولادها هذا الكبرياء. قال لها مرة وهي بين ذراعيه: أتمنى أن تكون لي نسخة منك، ابنة تشبهك، تستطيع أن تجعل رجلها المحبوب لاهثا يحاول أن يمسك بها! ضحكت منور ضحكتها الفضية

www.alkottob.com

التي سترثها منها ليلى: سعيد رغم ذلك؟ التقطت إذن عذابه وسعادته! لكن ليلى التي تمناها لاتزال بعيدة!

لم تتذكر في الطريق بهاء. بل استعادت سفرها مع سعيد وسعاد من بيروت إلى حيفا. لعل تلك المرة كانت آخر مرة يسافرون فيها معا! هل تستقدم الحزن في الفلاة التي بدت فيها السماء واسعة، مزركشة بغيومها؟ سارت البوسطة يومذاك على الرمل قرب البحر. قالت: ياسعيد، يبدو أننا لن نتركك أبدا حتى وقت تتزوج! من قال إني أريد أن تتركاني يامنور؟ أريد دائما "سمّيعة"! لديك "سميعة" أفضل منا! أنسيت أنك صعدت إلى "التختة" وغنيت مع المغنين فكاد بهاء يجنّ!

لم يمنعهم التعب من الفرح. بل أضحكهم أن تنط العربة! وصرخ سعيد لسائق العربة: قف، قف! لماذا؟ لنتفرج على هذه القبور المحفورة في الصخر.

في صيدا نزلوا في بيت صبحي بك أباظة، قريبهم الذي يدرس اللغة الفرنسية في العازارية في بيروت. التقوا عنده بقريبيهما فؤاد وفكري أباظة اللذين نزلا في لوكندة في صيدا لأنهما عرفا أن سعيدا ومنور وسعاد قادمون من بيروت. قطعوا سفرهم هناك، ليخرجوا مع قريبيهم إلى الجبل! سهروا حتى الفجر! نصحناك يامنور أن تتزوجي في مصر فلم تقبلينا! ردت: بقيت سعاد! خذوها! احمر وجه سعاد: لن أترك أخي وخالي! غنى سعيد الأغاني المصرية. واستعاد أنه في مصر غنى في عيد الموتى مع أولاد قسيس فتصدق بعض الناس عليه. هل يحتاج السعيد ذكرى كي يضحك؟! نعم، مايزال يمكن أن يقصّوا الليلة عن كل ماحولها، عن الهموم والموت الذي فجعنا فيه، عن القلق الذي نخشى فيه أن نفقد المستقبل! همست منور لسعيد: كفى، فلننم! رد: النوم موت! ومازال الوقت مبكرا عليه!

توقفوا يومذاك في صور قرب معصرة دبس الخرنوب. طعامهم معهم لكنهم يريدون القهوة والشاي. طرق العربجي بابا. قدم لهم ذلك البيت غرفة ناموا فيها، ونام العربجي في العربة. هل تبحث منور عن أيام جميلة تتذكرها لذلك تتناول تلك النزهة مع أخويها؟ أم تعود إلى أهلها؟ آه، هل ندرك ونحن نعيش أننا قد لانرافق فيما بعد الأشخاص الذين نتجول معهم، وأننا قد لانرى مثل اليوم الذي نعيشه؟ لأن أحداثا أخرى وأشخاصا آخرين ينتظرون دورهم في حياتنا. وهل كان يخطر لمنور أنها ستفقد خالها الذي دعاها إلى طبرية وأخاها؟

في عكا نزلوا في بيت أحمد أفندي الجراح. تغدوا صيادية. يفتح الناس بيوتهم للزوار. طلب الجيران أن يستضيفوا ضيوف بيت الجراح. أتوا لهم بالطعام الطيب والحلويات. واتسعت السهرة للجيران. أطربت منور تلك الحفاوة. لكن يجب أن

www.alkottob.com

نصل إلى طبرية! سافروا إلى حيفا، ونزلوا في بيت الحسيني. التقت بهم هناك الست شفيقة التي نزلت إلى حيفا لتصلح أسنانها عند الطبيب اسكندر الطويل. في طبرية أطباء أسنان يهود، لذلك قصدت طبيبا مسيحيا في حيفا. بهذه الأسنان صرت صبية، ياخالتي! مازال لسانك طويلا، يامنور!

تنفست منور بقلبها كله تلك الرحلة بين بيروت وحيفا. وقفت في مقهى الحاج زعلان! نحاول، يامنور، أن نستعيد المدن بالأمكنة التي نعرفها بها؟ مشت ووجهها إلى البحر. بقيت واقفة زمنا في مطلها. لم تقل كلمة عندما عادت إليهما. ولم يستطع سعيد أن يقرأ على وجهها فرحا أو أسى. ولكن أليس صمتها إشارة إلى عواصف في قلبها؟ قالت: سنزور قبر أبي! هل كان سعيد يستطيع أن يحرمها من ذلك، وهو يزور قبر أبيه كلما مر بحيفا في الذهاب والإياب؟

هل شعرت منور وقتذاك بالغربة، لأنها في بيروت دون قبر أبيها؟ ألا نحب أن نحشد حولنا الأماكن والأصحاب والأهل أحياء وأمواتا لنشعر بأننا في بلدنا؟ قد لانزورهم لكنهم هناك! حتى الموتى في قبورهم يسندوننا! ولكن هل تخمن منور أنها ستفقد حتى قبر أبيها وأمها وخالها عندما تفقد حيفا وعكا وطبرية؟

انحنت سعاد لتنفض الغبار عن عقدة التفتا على حذائها. فوجدت على الأرض ليرة. هتفت: ليرة! التفتت منور إليها وابتسمت. سنتصدق بها عند قبر أبينا! استعادت سعاد حقها في الرد على منور التي انتقدت حذاءها: لولا عقدة التفتا لما وجدت ليرة! في الليل اخترع سعيد أغنيات أضحك بها منور. دلل صاحب البيت سعيدا. فصفص له اللحم والدجاج بيديه. سكب له اللبن. وقال للست شفيقة مرات: شرفت البيت ياست شفيقة! شرفت البيت!

طافت منور البلاد بخيالها واستعادت أياما حلوة. وهاهي أمام بيت خالها في طبرية. تغيرت البلاد في غيابي عنها، ياخالتي! الدنيا كلها تغيرت، يامنور! ياخالتي، مددتم السجاد العجمي لجمال باشا الصغير لكنكم لم تمدوه لي! منور مازالت كما هي! أين أثر الزواج عليها؟ لاأثر حتى للأحزان! بل هناك أثر خفي يستطيع أن يلمحه الخبير بالروح! منور "جوهرت"! في أي عمر، ياخالتي، نقرر أن الشخص صار نفسه؟ لكل عمر جوهرته! ترفض منور أن تسلب فتوتها، أو طفولتها! هزت شفيقة رأسها. لاتأتي الحكمة إذا لم ندفع ثمنها. العمر فقط ثمنها! لم تظهر منور بعد الجوهرة التي قصدتها شفيقة. ولن يظهرها إلا الحزن الكبير. وقتذاك ستبدو روح منور الجميلة. نعم، ياخالتي، هكذا الأمور في هذه البلاد! لاتظهر الجوهرة إلا في أيام معينة كما تظهر النجوم في أيامها!

www.alkottob.com

قالت شفيقة بعد أيام: يامنور، صرت مثل الوردة! سألتها: ياخالتي، يعني لم أكن! بدت لها دمشق بعيدة، بعيدة. وأصبح بهاء لذلك أكثر جمالا. هنا لاتوجد غيرته التي أرقتها في بيروت. تذكرت فقط وجده وهو ينحني عليها متأملا وجهها الذي توهج. يستدفئ بسعادتها ويغار منها. سألتها خالتها: يامنور، سعيدة مع بهاء؟ لم تجبها فورا. احمر وجهها وضحكت ضحكتها الفضية: ياخالتي، أي بيت يستقر فيه رجل وامرأة ضيق! ظننت العكس، يامنور! وأنا مثلك، ياخالتي!

لم يرسل بهاء برقية تطلبها. لكنها شعرت بأن بهاء يتضور من الشوق إليها. وهي، أتشتاق إليه؟ استمتعت بحبه وهي بعيدة عنه. للحب مع البعد مذاق آخر! تنقله معها وهي تتنقل بين الحمامات وحديقة خالها، وتستمتع بدلال خالتها. كم تحب الدنيا! كأنها تريد أن تزور كل زاوية في طبرية! شعرت بوجع الحنين إلى بهاء عندما مرت بالبيت الذي عاشت فيه معه على سور طبرية.

يوم نزلت مع سعيد وسعاد إلى طبرية بقيت شهرا كاملا في بيت خالها. ثم نزلت بالقطار إلى الشام. توقفت في محطة سمخ حيث مقص القطار إلى دمشق. ومن دمشق سافرت إلى بيروت. ودعها سعيد يومذاك ضاحكا: لايزال عقل بهاء تركيا لذلك لايتحمل أن تغيبي عنه شهرا! قولي له إنك تجولت في حيفا مكشوفة الوجه كي يشرق البدر فيها! قولي له إننا سبحنا في بحرة طبرية! ولاتنسي أن تؤكدي له أننا تذكرناه!

عن أي بهاء كان يتحدث سعيد يومذاك؟ عن الرجل الهائم بزوجته، الغيور عليها؟ بقي بهاء كذلك. لكن أليس له هو أيضا أن "يجوهر"؟ رأى منور فيما بعد تمشي بإشارب تظهر منه خصلات شعرها الجميل. ومشى معها فخورا بها. ظل يردد شعر ديك الجن الحمصي معجبا به. وظلت منور تعبر عن إعجابها بالشاعر واحتقارها السيد. ظلت تقول له: أحب جارية لم يرد لها الحرية! مسكين، لم يفهم أن الحرية هي فقط الطريق إلى الحب. ظلت منور تسخر من إعجاب بهاء بقصيدة ديك الجن: فيها حزن على حق لايملكه الرجال اليوم في قتل امرأة راغبة عن الحب!

www.alkottob.com

عندما نزلت منور إلى طبرية كانت سعاد قد اجتازت سنوات مرّة وحلوة. وكان قد خطر لها أن تهجر زوجها، مع أنها تزوجت لتؤسس أسرة. لو استعادت تلك السنوات لتبينت كم تغير عبد الرحيم، ولأكدت ماستقوله فيما بعد لأولادها: نربي أزواجنا كما نربي أولادنا! لكنها لن تقول طوال حياتها إن الحياة معه غيّرتها!

يوم توفي طفلها تركت بيتها في صفد وأتت إلى خالتها في طبرية. ردت شماتة سلفتها خضرا بالشجاعة التي أظهرتها أمامها. لكنها استدارت إلى جرحها منذ أخذ الرجال الطفل ملفوفا بشرشف أبيض ليدفنوه. أغلقت باب غرفة على نفسها ولم تفتحه لعبد الرحيم. وعندما*/ انصرف في الصباح، لبست ثيابها وقررت أن ترحل إلى خالتها في طبرية وتهجره! في تلك البرهة دخل ووقف أمامها محمر العينين من البكاء، واقترح عليها أن ينزلا إلى طبرية! وقصد أن يتركها وحدها مع شفيقة لتصب أمامها مافي قلبها.

لم تجسر شفيقة على عناق سعاد. قالت لها: أنت في أول عمرك! آه، ياخالتي! تحملت الحياة في عشّ الدبابير كي أؤسس أسرة! فأفقدني عبد الرحيم الطفل! عش دبابير؟ نعم، ياخالتي، عشّ دبابير! رجال العائلة درسوا في استنبول، وتنقلوا في بلاد الدولة قضاة وقائمقاميين، واشتغلوا في الدولة العربية. لكن عقولهم عصملّية وزوجاتهم أسوأ منهم..! اسكتي ياسعاد، يرى الحزين كل شيء أسود! أنت حملت الطفل، وستحملين غيره! وافهمي أن الولد عزيز على أبيه كما هو عزيز على أمه! رأيت عيني عبد الرحيم منفوختين من البكاء! لاتجهل شفيقة حزن سعاد على طفلها! لم تعش أفراحها به غير سنة قصيرة! لامتها لتهدئها، وتركتها ترمي مافي قلبها.

ياخالتي، مات فاروق بين يدي! حملته ومشيت في البيت وأنا أهدهده، فهل كنت أستطيع أن أنسيه الجوع؟ بكيت وأنا أمنعه عن قطعة خبز مد يده ليأخذها.

www.alkottob.com

رأيت اللوم والانكسار في عينيه. لوى رأسه في هدوء وأغمض عينيه. لم أصدق أنه مات. هل أقول لك إني تلوّيت وبكيت دون دموع؟ رجتها شفيقة: ابكي! ياخالتي، لاأستطيع أن أنسى نظرته! كان يفهمني ويلومني! ذاب أمامي! دقت على صدرها بقبضتها وانحنت على نفسها. مع ذلك كان يمسك بي وهو نائم كأني سأهرب منه! لو تستطيع شفيقة أن تلزمها بالنوم! سقتها فنجانا من اليانسون ثم فنجانا من الميرمية. ونامت معها في غرفتها. ورأتها تنهض صاحية مرات. لاشيء يشفي الروح غير الزمن ياسعاد. تحمليه حتى يمر!

يوم ولد الطفل قيل طار عقل عبد الرحيم. ركع على الأرض قرب سعاد. انتبه لأول مرة إلى بياض ساقيها وتورد كعبيها. وبدا له حتى في شعرها الذي يستقيم ثم يستدير في نهاياته سحر لم ينتبه إليه. بدا له وهّاجا في ضوء آخر النهار وكأن الشمس أصبحت وسط الغرفة المطلة على جبل الجرمق. قيل، قبّل يديها وكاد يقبل قدميها!

نزل إلى حيفا واشترى لها زوج مباريم، وقماشا لم يعجبها لكنها أبدت رضاها به. ووصلت منور من دمشق لتساعد أختها. حملت معها هدايا شامية، برانس ومناشف وشراشف مطرزة. السفر سهل من دمشق إلى طبرية. ركبت القطار إلى سمخ. ومن سمخ ركبب "البيّور" إلى طبرية. قالت لها سعاد: محظوظة! سألتها: لأني حرة دون أولاد؟ لو تعترف لها بأن ذلك مصيبة!

بقيت منور في بيت أختها في صفد أسبوعين. غسلت الطفل ودلّلته، طبخت لسعاد طعامها واستقبلت زوارها. منعت النساء من تقبيل الطفل، ومنعت حمله. فقالت خضرا: "كأن النساء لم يلدن قبل الست سعاد"!

طوال أسبوعين في صفد، لم تطلّ منور من نافذة! "لأن أهل صفد ليسوا كأهل بيروت أو دمشق. هناك مقابلنا بيت أخيه! وهناك بيت أخيه الآخر! وهناك أولاد عمه! عشيرة ماشاء الله"! استمعت منور إلى أختها ثم لامتها: أحبيهم لتكسبيهم! راقبتها سعاد عندما استقبلت خضرا. ليست مثلك، ياسعاد، لكنها أعجبتني. يبدو أنها لاتقبلك لأنك لست من بلدها، وربما كانت تتمنى لعبد الرحيم قريبة من قريباتها!

أعلنت سعاد لأختها: اطمئني! لاتشغلني خضرا! أتيت لأبني أسرة وسأبنيها! أريد عشرة أولاد! وهاهو الولد الأول! صمتت منور. كادت تسألها: تعوضين عمن لايعوض؟ وأدهشها أن تشعر سعاد بمثل هذه الوحدة. ماذا أقول أنا وقد لايكون لي أبدا ولد؟ أسكتت منور نفسها بايمانها بأنها أقوى من أختها! لولا ذلك أكانت

www.alkottob.com

تعبر الحرب العامة وتخرج من صراخ الجياع متماسكة، وتستعيد بهاء من نساء بيروت، وتكتم كل ذلك؟

أرضعت سعاد طفلها، وراقبت تورد وجهه. احتفلت يوم صار يرى، احتفت بأول حرف نطقه، بأول مرة جلس فيها، بأول مرة انقلب فيها على جنبه. كيف جهلت قبل مولده أن في قلبها هذا الحنان! ولكن ما أكثر مااشتهت النوم! لايخطر لهذا الصغير أن ينام في الليل ويصحو في النهار، مثلنا!

قالت سلفتها خضرا: ملأنا البيت أولادا ولم نحتفل بهم مثل الست سعاد! كأنها تعرف أنها لن تنجب غيره! فلتقل خضرا ماتريد! لن أغرق في قال وقيل! هذا مستنقع، والحياة المغلقة عليه بين الأهل مستنقع. اتصل بيت أهلك في حيفا، ياسعاد، بحياة البلد. وفي طبرية كانت أبواب قدري مفتوحة لرجال العرب. تنهدت سعاد: مضافة عبد الرحيم مفتوحة، أيضا، للرجال. يفتح الرجل الأبواب أو يوصدها؟ يفتح البلد أو يغلقه أيضا!

خلال أفراح عبد الرحيم بابنه قال لها مرة: قد ننتقل إلى عكا ذات يوم! فشعرت بقوة العشيرة التي يصعب أن ينفك فرد منها دون مبرر تقبله! لعله يفكر بعمل في عكا. ترحب العشيرة بكل مايسجل طموحا أو صعودا من درجة إلى درجة!

تعوّد عبد الرحيم ابنه، وغاب. مشغول طول النهار. متنقل بين صفد وحيفا وعكا. لم يترك الإنكليز بيتا يستريح. والناس لايسكتون على الهجرة اليهودية. لكني لاأعرف إن كان عبد يدافع عن الفلاحين في المحاكم أم ذهب ليكون مثلهم في القفص! وهل يخبرها عن اجتماعاته السرية! تكرر لنفسها كلمات منور: عبد الرحيم مثل الوطنيين السوريين الذين يتخفون بالماسونية ليجتمعوا ويخططوا المقاومة! قدرنا أن يكمل أزواجنا مابدأ به أهلنا! هل كانت منور تشجع أختها على البوح أم تواسيها!

رفضت منور أن تنزل إلى حيفا. لاأريد أن أراها! لماذا يامنور؟ تبقى المدن بعدنا كما كانت قبلنا! لاتريدين أن تزوري قبر أبيك؟ لاتريد؟! بل تريد لكنها تخاف أن تسقط أمامه. لاتزال ترى أباها كما عرفته حتى اليوم الأخير وهو يطلب منها الطشت، وهي تبعد أمها عنه وتعاقبها في تلك البرهة على هجره. لن تندم أبدا على انحيازها إلى أبيها، لكنها تكتشف الآن كم تحب أمها!

راقبتها شفيقة وهما تزوران قبر فاطمة في طبرية. وضعت منور غصن نخل على القبر. رمت عليه قرنفلا نبيذيا بلديا فواحا. تركت لشفيقة ظهرها، فلم تستطع

www.alkottob.com

أن تقرأ وجه منور الواقفة هناك مطرقة، مضمومة الفم، وجسمها يهتز إلى الأمام والخلف كأنها وسط ريح تؤرجحها. قالت شفيقة لنفسها: سلالة ملعونة لاتعرف البكاء! أبعدت منور زيارة قبر أمها حتى اليوم الأخير في إقامتها، كيلا تراها شفيقة في اليوم التالي وتخمن شعورها. ضاع ذلك في صخب سيرين ووداد وبنات الطبري. وأتى صدقي ليودع منور.

كانت سعاد قد فطمت ابنها فاروق عندما مرضت. صرخت في الليل من ألم في بطنها. طلب عبد الرحيم شفيقة من طبرية فوصلت في اليوم نفسه. لايجوز أن تمرض الأم! من سيعنى بالطفل؟ قالت لها شفيقة: كان يجب أن تنتظري أن يكبر ابنك لتمرضي! تداعبينني ياخالتي، الآن؟! بطني ينفجر! تركت شفيقة الطفل في بيت أخي عبد الرحيم ونزلت مع سعاد إلى حيفا. قالت لخضرا: فليلحقنا عبد الرحيم إلى المستشفى الايطالي!

انفجار الزائدة ياست شفيقة، خطر. لاندري كيف وصلت إلينا هذه الصبية سليمة! عضت سعاد طرف الشرشف من الألم. لماذا يبدو الموت ظلما؟ الموت ياخالتي رحمة! اسكتي! فكري في ابنك! عندما أفاقت سعاد تألمت. لكن هذا الألم مختلف. نجت إذن!

أجبرت سعاد أسبوعا على الراحة. قالت: ياخالتي قلبي كالنار على الصغير! فكرت فيه حتى وهي تتمنى الموت من الألم. طمأنتها شفيقة: لم يزرك عبد الرحيم لأنه مشغول به! تحركت سعاد في السرير: ماأحلى الحياة بعد المرض، ياخالتي! شعرت بأنها خفيفة. للشمس التي دخلت من النافذة دفء آخر. لاشيء ولاأحد خارج هذه الغرفة غير السماء الواسعة التي تراها من النافذة وهذا الوهن العذب!

أتى عبد الرحيم في نهاية الأسبوع. دفع ليرة فلسطينية عن كل يوم من إقامة شفيقة في المستشفى مع سعاد. وليرتين عن كل يوم من أيام سعاد فيه. وأربعة قروش ثمن الثلج!

في صفد اكتشفت سعاد أن عبد الرحيم كان مشغولا عن الطفل. وتبينت أن عينا الصغير ملتهبتين. ياخالتي، لاحق لي في المرض؟! رفض عبد أن تأخذه إلى مستشفى هداسا. فنزلت إلى حيفا وحدها. لاتريد أحدا! فلينشغل عبد الرحيم بمضافته وسياسته! قيل لها، إلى الدكتور شيمكين! لكنها سمعت صوت قلبها. ولجأت إلى الطبيب الذي كان يداويها في طفولتها: يادكتور دوخمان، ساعدني! تغيرت ياسعاد، لكني كنت أستطيع أن أتبينك من لون عينيك! نصحها: إياك أن تداويه عند شيمكين! هذا طماع يشلح الناس أملاكهم! أرسلها إلى طبيب أرمني.

www.alkottob.com

روت للطبيب أن امرأة ركبت معها في السيارة نصحتها: استعملي له زهر المرّار. دقيه وانخليه بالشاش النظيف.. ابتسم الطبيب الأرمني عندما روت له ذلك: الأدوية من الأعشاب لكن يجب أن تعرفي مايستخدم منها وكيف! شفيت عينا الطفل لكن سعاد اعترفت لنفسها بأنها مقهورة وضعيفة. لم يكن لها حتى حق المرض مطمئنة! لن ترسل تلغرافا إلى منور. تعرف أن منور ستلبيها، لكن ألم تكن منور هنا منذ أشهر!

كان التهاب عيني فاروق أهون عليها من الإسهال الذي لاحظت أنه أصيب به في غيابها. خافت. الزنطارية تميت الأطفال! ماذا أكل؟ ماذا أطعمته خضرا؟ من تمنى موت طفلها لتعود وحيدة دون سند ولتفسد علاقتها بزوجها؟ لو تستطيع أن تصل إلى مستشفى تورنس! قال لها عبد الرحيم: ننزل إلى طبرية في الأسبوع القادم! واستدعى بوينا ليداويه. نصحها بوينا: خذيه إلى حيفا! الآن، كوني دقيقة في الحمية! سقته ماء وسكرا فقط.

كم ستلوم نفسها لأنها انتظرت أن تنزل إلى طبرية مع عبد الرحيم. وضعت طراحة على طرف النافذة العريضة وأجلسته في حضنها. مد يده إلى كعكة فأبعدتها. ورأت عتبا في عينيه لايمكن أن يعبر عنه كلام. فضمته إلى صدرها وبكت. وبدا لها أنه يفهمها.

لم يعد فاروق يغرد كالعصفور عند الفجر. صار استيقاظه حزينا. هل كانت تقتله بالجوع؟ في تلك الأيام غاب عبد الرحيم ولم تسأله أين. أفاقت في الليل لتراقب تنفس طفلها وتطمئن إلى أنه مايزال حيا. أشفقت عليه لأنه صغير وعاجز لالأنه فقط ابنها. أبقته بين ذراعيها. كأنما خيل إليها أنها تعوضه بالحب عن الطعام. رأته يرتجف وسمعت على صدرها دقات قلبه. فصرخت من النافذة: نادوا عبد الرحيم من المضافة!

قالت له: فاروق يموت! رد: لاتتوهمي! عندي رجال من عمان ورجال من الناصرة. نرتب احتجاجا على الهجرة اليهودية والسياسة الإنكليزية. عاد إلى المضافة وعادت إلى ابنها. لم تر سواه. ارتجف رجفة شديدة وسكن. بقيت جالسة أمامه من الساعة التاسعة حتى منتصف الليل. كان من يحبونها ومن يكرهونها نائمين. لماذا ينامون؟ فليستيقظوا ليقيموا المأتم والاحتفال! قررت: لن أبقى في صفد! دخل عبد الرحيم. سألها: كيف الولد؟ قالت: العمر لك! رد: لاتتشاءمي! قالت: المسه! ركع وبكى. تبكي؟ كيف أميز حزنك من ندمك؟ كم أكرهك ياعبد

www.alkottob.com

الرحيم!

بكى بحرقة! فلتبك ياعبد الرحيم! لم يكن لديك وقت لتنزل إلى تورنس! أنا الآن حرّة، لاورائي ولاأمامي! سأنزل إلى طبرية! ولأبدأ في طبرية من الصفر! بيت عبد السلام الطبري يرحب بي. إذا لم يعجب خالتي أن أترك زوجي سأعيش عنده! ماذا يربطها بزوجها؟! خيل إليها أن موت طفلها قصّ مابينهما. لم تتصور أن لهفته الاولى، ورحلتهما الاولى إلى حيفا، وشعوره بأنه وجد الزوجة التي تشقى معه وتسنده، ربطت أحدهما إلى الآخر.

نظرت سعاد إليه وهو يبكي. ولم تشعر بالشفقة عليه. تزوجت كي تبني أسرة، وهاهي دون ولدها المحبوب! رأته ينزع شيال بنطاله ويشده على رقبته. سخرت منه بينها وبين نفسها: لاأحد ينتحر هكذا! يجب أن يكون المنتحر دون متفرجين! لكنها لاتريد له هذا الحزن! تذكرت أنه قال لها مرة: أريد أن يكون فاروق عالما أديبا واسع الثقافة مثل ابن عمي محمد الذي كان يفطر طوال شهر رمضان مع السلطان عبد الحميد! فكادت تضحك ساخرة من حلمه! ابنها يلبس جبة ويجلس كما جلس ابن عمه مع السلطان عبد الحميد؟! من حسن حظ الطفل أنه مات! بدا لها عبد الرحيم ضعيفا وخائرا فأبعدت نظرها عنه. كأنما تظهر حقيقة الرجال وقت الحزن! أردت ياسعاد أن يكون لك رجل يقف معك وقت الحاجة، لأنك دون أخ وأب؟ تفضلي! يجب أن تسندي هذا الرجل الضعيف! في تلك البرهة تبينت قدرها وفهمت أنها لم تعد تحتاج رجلا يحميها، بل هي التي ستكون كالرجل الذي يحمي ويعين.

رشت وجه عبد الرحيم بالماء، بللت أنفه بالكولونيا. سندته حتى وصل إلى فراشه. وعادت إلى طفلها. حدثته عما في قلبها، وفكرت في قرارها. كانت على الحدّ بين مدينتين ومصيرين. وبدا لها أنها حيثما رحلت تزرع قبرا. توزع أحباءها على المدن! ورددت لنفسها مرات: اهدئي! أجّلي قرارك إلى وقت تكونين فيه هادئة! سمعت شخير زوجها. وبدا لها في ضوء الفجر أنها لاترتبط به بل بالبيت الذي تخشاه، بالمدينة التي تتمنى أن تبتعد عنها. مايربطنا إلى أمكنتنا، ياسعاد، أكثر متانة من الحب والكره، أكبر من العلاقة برجل معين أو طفل أو بيت!

في الصباح فتحت سعاد الباب للحلاب. لا، لم نعد في حاجة إلى الحليب! ذهب الحلاب إلى بيت خضرا وقال: خذوا حليبكم وحليب الولد الذي مات، كيلا أعود به! أعطته خضرا ثمن البشارة، ولبست أحسن ثيابها وتزينت بالحلق الألماس وأتت إلى سعاد. كانت سعاد قد وضعت الطفل في الأرجوحة كأنه حيّ وجلست

www.alkottob.com

قربه. فاستندت خضرا إلى الأرجوحة وصارت تهزها. نهض عبد الرحيم حزينا وجلس قرب سعاد، وأمسك يدها. يعرض أمام أهله أنه يحبها، وسيظل يفعل ذلك حتى موته في دمشق. سألته: حزين؟ رد: وأنت! ردت كأنها تقول لخضرا: مات قدري وسعيد ونوري قبل فاروق! فهل نقف عند موت طفل؟ لاتحزن، سنعوضه! قالت خضرا في قهر: امرأة فهيمة!

كانت سعاد مبللة بالدموع بعد دفنه. وقتئذ قدر لها أن تتبين قسوة الصغارة. زارتها امرأة مختلة العقل قالت لها: ماعليه أسف، الله يخلي أولاد سلفتك. العوض بأولادها! سألتها سعاد: من علمك هذا الكلام؟ ردت: سلفتك! الله يخلي أولادها، قالت لي روحي إلى سعاد وخذي بخاطرها وقولي لها..! تذكرت سعاد ألوان ملابس خضرا ونداءاتها وحركاتها. ظنت أنها تسجل في ذاكرتها قهرها. لم تعرف أنها ستروي ذلك فيما بعد لسيرين ووداد لتضحكهما من خضرا، وأنها ستحزن على حياتها التي دفنت تحت حجارة البيت الذي ستفقده في صفد.

غضبت أم عبد الرحيم على ابنها. هذه المدللة التي كان الخدم يمشطون شعرها ويلبسونها ثيابها، وعاشت في استنبول أكثر حياتها، وتفادت أن تبدو غاضبة أو حزينة، لتبقي الرضا فقط على ملامحها، تلاحظ ماتحاط به سعاد من شماتة؟ لم تبح لها سعاد بأنها نوت أن تهجر زوجها. هي التي قالت لسعاد: ارمه لأنه لايستحقك! يترك ابنه يموت وهو جالس في المضافة؟! يدافع عن وطن؟ يدافع عن شبح! لم تقل لها إنها سحبت يدها فلم تسمح له بأن يقبّلها. لكن ياسعاد، لاتتركيه الآن في حزنه! سألتها؟ وحزني أنا؟! ردت: أنت أقوى منه! هل هذا أول الهموم التي سترمى عليها لأنها قوية؟!

بعد دفن الطفل وجد عبد الرحيم سعاد مرتدية ملاءتها. فهم أنها قررت أن تتركه. فقال لها: فلننزل إلى أهلك في طبرية، ولنسترح من صفد! طوال الطريق حاول أن يلاطفها، رغم حزنه. لكنها تفادت أن يلتقي نظره بنظرها.

في المساء حضرت إلى بيت شفيقة سيرين ووداد وبنات الطبري. طلب صدقي الطبري من سعاد: أريد أن تطعميني مثيل المتبل الذي حضّرته لي مرة في بيروت! هل يريد أن تستعيد معه سعيدا لينسيها موت طفلها؟ لماذا؟ لأني أريد ياسعاد، أن تشاركيني فرحي! غيرت مصير سلوى! من سلوى؟ صبية حلوة، يتيمة، سطا عليها رجل بعد موت أمها. خاف صدقي عليها. وجد لها زوجا من رجال العشائر. أمس كان زفافها وكنت مدعوا إلى مضارب العشيرة في حوران. هل أراد صدقي أن يعرض لسعاد مصائر نساء تعيسات كيلا تبالغ في حزنها،

www.alkottob.com

ولتفهم أن لها من يحميها من الشرور الكبرى؟ وكان يفهمها أن لها من يبوح لها!

عندما حضر عبد الرحيم كان صدقي في استقباله، كمن ينتظره. يتوسط لعبد الرحيم، إذن، دون أن يعلن عن وساطته! ويفهمها أن مابينها وبين عبد الرحيم يجب أن يبقى سليما. ستشكو سعاد بعد سنوات عبد الرحيم لخالتها لكنها لن تفكر في هجره. ستقول لها: حمّلني عبد الرحيم أكثر من طاقتي! يوم مات حسن رعد الذي حارب في الثورة السورية، تركني مريضة وسافر إلى يافا. عاد وهو يبكيه. وحكى لي أن الفرنسيين صادروا أملاكه وأنه عاش مع أولاده في يافا فقيرا، فاشتغل أولاده أجراء ليحصّلوا الخبز. لم يلاحظ عبد أني فقدت الوعي. صحوت وهو يرشني بالماء. كانت حرارتي أربعين! لو كنت امرأة أخرى لكرهت السياسة والثورة! كم عمري الآن ياخالتي؟ ستربت شفيقة على كفيها: فكري في الناس تهن عليك مصيبتك! وسترفع سعاد رأسها نحو السماء، وترى نجوما لاتعد، فتتنهد. نحن أقل من نقطة من مجرة صغيرة من المجرات. ومع ذلك نسعى من كل الطرقات لنفسد هذه الحياة الصغيرة جدا التي نعيشها! ستبقي نظرها على سماء الليل ذات النجوم، وتشعر بأنها تهدأ!

www.alkottob.com

حكى لها عبد الرحيم وهما يتعارفان في أول أيام الزواج، عن أخيه علي الذي ستذكره كتب السيرة، فيما بعد. فهل تقول له سعاد: ماأصغر الدنيا، وتكشف له ماتعرفه عن أخيه، زوج خضرا؟

أصغت إليه وهو يحدثها عنه كمن يحكي عن زمن عظيم. درس في استنبول، التقى هناك بشكري القوتلي وسعيد الغزي. كانت أول "مأمورية" له قائمقامية دوما. تعرفين، في أيام الدولة العثمانية كان الصفدي يعمل في بيروت، والبيروتي يعمل في القدس. أصبح علي فيما بعد قائمقاما في مشغرا في لبنان. ثم أخذ "مأمورية" متصرف إربد. اختلف مع الأمير عبد الله فترك الوظيفة. سألته سعاد: لماذا اختلف مع الأمير عبد الله؟ أجاب: روى لي علي أن الأمير انحاز إلى من هواهم أجنبي، كان مقابلهم علي هواه عثماني. بقي بعض رجال الثورة العربية مع الأمير، وتركه آخرون والتحقوا بالملك فيصل في العراق. يبدو أن عليا وقع في تلك البرهة! هزت سعاد رأسها كأنها تستوعب ماقاله. هل تستطيع أن تظهر الشك في كلام رجل يبوح لها بأسرار بيته؟! وأن تقول له أخوك وطني، على عيني ورأسي، لكنه ضيق النظر، متزمت، ينفر الناس منه؟ ستغفر الفظاظة، فيما بعد أيضا، وقت تصنيف الرجال! وستتظف صور الوطنيين! ففي الصراع بين طرفين لاوقت لتأمل صلة الطباع الشخصية بالمشروع الوطني. وعندما يثبت الرجال في أمكنتهم في سيرة الزمن سيقفون هناك مجموعات، لاأفرادا ذوي ملامح شخصية. لكن سعاد ستروي لزوجها علاقة سعيد بعلي، يوم تصبح قوية بالسنوات التي عاشتها معه، وبأولادها، وبقدرتها أن تسنده وهو في السجن. يوم تعرف أنه سينحاز إليها إذا حدثته عن أخيه العزيز. ويكون الزمن قد قلّم بعض فظاظة علي. وعندما سيقال لسعاد وهي في دمشق إن بدوي الجبل في الغرفة الأخرى مع زوجك وأخيه والقوتلي والغزي وغيرهم، ستفكر فقط في البلاد الواسعة التي التقى فيها رجال كانوا وجوه بلادهم. فأصبحوا موزعين بين بلاد تفرقها الحدود.

www.alkottob.com

وستتساءل وهي ترى عليا دون جبروت، هل سبب ذلك الزمن، أم أن الإنسان يفقد قوته عندما يفقد وطنه؟ ألم تقل امرأة فقيرة وهي ترى عليا يتدحرج مثلها على أوحال وادي الطواحين وقت الخروج من صفد: صار الناس سوية؟

منذ قررت سعاد أن تتزوج ثانية، استبعدت الحب والكره. ستحكم بالعقل فقط وستسير حيث يشير! لذلك تأملت زوجة علي وفهمت أنه قدر لها أن تجاورها. لكنها قررت أن تنتقل مع زوجها بعيدا عن مدينة صفد. حتى يحين ذلك يجب أن تساير هذه المرأة. مع أنها مثل زوجها، آمرة، قوية، لاطريق إلى قلبها. لايعجبك ذلك ياسعاد؟ ألم تكتشفي أنت أيضا أن عواطف القلب توهن؟ كوني إذن تلميذة عندها! لا،لا! هي ذكية لكنها شرسة، يطربها أنها مشهورة بقوتها. أحبها علي منذ كانا صغيرين. انتظرته حتى عاد من استنبول، مع أنها أكبر منه. تقول مازحة: هو تزوجني؟ بل أنا تزوجته! امرأة ظريفة تمتع الجلسة معها، لكن الجالس إليها لايشعر بالراحة. يستهويه حديثها ويتنهد عندما يفتح الباب مبتعدا عنها.

منذ بداية زواجهما وضع عبد الرحيم على كفي سعاد مايكسبه. وطلب منها أن تقدر له مصروفه اليومي. قال: دخلنا اليوم عشر ليرات. هذه أربع ليرات لنا، احكميها أنت. والبقية لأخي علي. يجب أن يبقى ديوان العائلة الذي يديره مفتوحا. لم يقل لها إنه من احترامه هيبة أخيه كان يسلم المال لزوجة علي. حتى قال علي مرة لسعاد: يمدنا أهل زوجتي بالمال. فسألته: لماذا ياعمي؟ رد: ليبقى الديوان مفتوحا! مع أن أهلها من العائلة المنافسة لنا في صفد!

أوجزت سعاد لزوجها استنتاجها: تقرب زوجة علي أهلها. وتنتقي منذ الآن لأولادها الصغار زوجات وأزواجا منهم. دخل علي من قرى أبيه في حضنها. ومنه إلى المقربين من أهلها. لو لم تكن أسرتها عدوة لأسرتكم ومنافسة لها على الوظائف لفهمت ذلك! سأسلم لعلي المال الذي تعطيه أنت لزوجته! ولاتقلق، سأجد الطريقة المناسبة!

كانت سعاد تشاور نفسها أمام النافذة المطلة على الليل. فتساءلت هل تنساق في الصراع بين الأسر والحمائل، هي التي علّمها أهلها أن خلافات الأسر والحمائل تقسم العرب أمام المهاجرين اليهود؟ أم ساقها عقلها إلى البحث عن خطوات آمنة في واقع يجب ألا تتجاهله؟ قالت لنفسها: أهلي شعراء! فشل مشروع الدولة العربية الذي وهبوه أنفسهم، وبقي الواقع الذي نحفر مكاننا فيه! وقفت إذن ياسعاد، في جانب رجال أسرة أمام أسرة أخرى! تركت النافذة وأسكتت نفسها. كسبت زوجها. استمع إليها عبد الرحيم معجبا بها. هذه المرأة كنز بجمالها

www.alkottob.com

وبعقلها!

كان الديوان الذي يضحي عبد الرحيم كي يبقيه مفتوحا، غرفة كبيرة حولها مصاطب عليها طراريح ومساند تغطى بالسجاد في الشتاء وبالقماش في الصيف. وفي الديوان مكتبة عبد الغني المشهورة، التي ستسمع سعاد ذات يوم خبر نقلها من صفد إلى تل أبيب، من راديو إسرائيل. مهمة علي أن يدير ديوان العائلة ويستقبل الناس فيه. لذلك كان الأهل يهدونه أكياس الرز والقمح وتنكات السمن والزيت. يجتمع الرجال في الديوان ويبحثون أمور البلد. وكم مرت فيه حوادث مضحكة. فيوم كان عبد الغني يدير الديوان أتى إليه جهلاء من البلد وطلبوا منه أن يتوسط لدى الله ليوقف المطر الذي كان ينهمر منذ أيام حتى دلفت السطوح وغرق الزرع. طلبوا منه هدنة "ليدحلوا" سطوحهم! في ذلك المجتمع كان الشيخ أحمد، جد عبد الغني، أزهريا متألقا. بينما كان رجال الأسرة المقابلة دنيويين، رجال سياسة.

لماذا أصبح علي دون عمل؟ هل تصرح سعاد بما في نفسها فتقول، يدفع ثمن مافعلته أسرته في أيام الحكومة العثمانية! يوم كانت ذات نفوذ سعت لعزل كل رجل من الأسرة المنافسة من المناصب المهمة. مع أن رجال تلك الأسرة كانوا زعماء أيضا في البلد!

تمنت سعاد أن ترحل بعيدا عن هذا الخلاف بين العائلات لتؤسس أسرة أخرى. وأوهمها حب زوجها أنها ستترك صفد قريبا. لكنها وهي تراه يلوب في الليل باحثا عن طريقة للخروج من مدينته، تأملت كيف تحتل الأسر الكبرى روح أبنائها. تكوم أكياس السكر والقمح وتنكات الزيت والسمن للمضافة! تتجمع وتحشد أصحابها فتجعل المآتم والأعراس احتفالات كبيرة! تحتضن المريض والعجوز والعاطل، وتفاوض كمجموعة! لكن الثمن يدفعه الفرد فهو ليس شخصا حرا بل جزء لايملك حتى أن ينتقل من مدينة إلى أخرى!

لم يترك عبد الرحيم صفد إلا كفرد من مجموعة. زار الحاج أمين الحسيني صفد ونزل في بيت علي. سهر في الديوان واستمع إلى أصحابه: أكل بيت القادر البيضة وقشرتها. فلم يبق لنا شيء منها! رتب الحسيني الصلح بين العائلتين. اتفقوا أن يكون علي رئيس بلدية، وأن يكون الشيخ أسعد القادر قاضيا في صفد. اقتسموا المراكز والمال! فخمس ليرات من كل عقد زواج ليست قليلة!

خرج عبد الرحيم ليجمع تواقيع الرجال المهمين على الاتفاق. في الحولة قال له رأس بيت الضرغام: أوقّع لك، لكن الاتفاق خطأ. ستندم البلد كلها عليه.

www.alkottob.com

وكان على حق! ظن علي أنه لايزال يعيش في زمن تركيا! قسا على الناس. أمر بسكب الحليب المغشوش على صاحبه. منع الفلاحين من فرش الخضار على الأرض. وهدد بأن يركب المخالف حمارا بالمقلوب. قالت زوجته خضرا لسعاد: تعود الناس الفوضى والوسخ والغش. لايريد الناس طرقات نظيفة. يخرب الناس ماتقدمه لهم البلدية. فقالت امرأة ماتمنت سعاد أن تقوله: تريدون بلدا دون ناس؟! الأيسر أن يكون الناس دون رئيس بلدية! قالت سعاد كأنها حكم: يريد رئيس البلدية أن يجعل صفد كاستنبول! التقطت خضرا سخرية سعاد، ولكن كيف ترد عليها أمام غرباء وهي كمن يمدح رئيس البلدية!

استعاد بيت القادر البلد، واحتفلوا بسقوط علي أكثر من احتفالهم بنجاحهم. طاف رجالهم تحت نوافذه ورقصوا هناك. لكنهم اشتطوا، فأخذوا مركز رئيس البلدية والقاضي واستدعوا صاحبهم من غزة ليكون محاميا. كأنهم أعلنوا لعبد الرحيم لامكان لك في صفد. فنزل إلى القدس وقال للحاج أمين الحسيني: من يتغطى بك يبرد! أصبحت صفد لبيت القادر! أنا وأخي دون عمل!

عاد عبد الرحيم من القدس لعلي بوظيفة ناظر أوقاف في عكا، مع أن العادة أن يكون من أهلها. قال لأخيه: تحتاج عكا ضميرك ودقتك! أوقافها كثيرة، جوامع وترب وحمامات!

سينتقل عبد الرحيم إذن إلى عكا! تساءلت سعاد: هل قدر علي أن أعيش قرب زوجته؟ في الأسر الكبيرة لاتتزوج المرأة رجلا، بل تتزوج العائلة كلها! لكني سأختار أبعد بيت عن علي! على كل حال لن تتحمله عكا!

حكى عبد الرحيم لسعاد عن اتفاقه مع علي اليشرطي، شيخ الشاذليين في عكا. "شجع السلطان عبد الحميد الشاذليين ليقفوا في وجه البهائيين في عكا. وليوقفوا الشيخ عباس أفندي عند حده، وتظل عكا مسلمة". ابتسمت سعاد! كم تختلف الحقائق عندما يحكيها الرواة! كان عباس أفندي ضيفا على أبي وخالي! تغدت أمي في بيته مع زهية العجم قبيل موتها! فهل سيفهم عبد الرحيم ماكان يفهمه أبوها وخالها: لاتتجاهل رجلا أخذ مكانه في بلد ولو كنت لاتحبه! قال عبد الرحيم: كان محامي علي اليشرطي أحمد شقير، ابن الشيخ أسعد. تركه فكلفني اليشرطي أن أكون محاميه. سننتقل إلى عكا!

تأملت سعاد زوجها. أهو من الرجال الذين لايستطيعون ألا يكونوا إلا مسنودين بشخص أو أسرة أو أخ أكبر؟ تبينت وهي تتأمله كم هي حرة. وطلبت لأهلها الرحمة! "ربّونا مستقلين، رأينا من رأسنا"! هل خيل إليها أن زوجها سيقول

www.alkottob.com

لها: هيا ننتقل إلى حيفا أو عكا؟! هي العاقلة التي تعرف أن الرجال مثله أقوياء بمجموعة، أو ضعفاء بها! فالأبواب التي تفتح له كواحد منها تغلق أمامه أيضا لأنه واحد منها! لايستطيع أمثاله أن يكونوا أحرارا يتنقلون حيث يريدون. لأن أقدارهم ومصائرهم محسوبة ومصنّفة. فالمكان الذي يأخذونه ليس مكانهم الشخصي فقط، بل مكان مجموعة! قال لها: سننزل إلى عكا قبل علي، لنؤمن بيتا ينزل فيه معنا ريثما يجد سكنا يليق به!

ياسعاد المحظوظة! ستعيشين في بيت واحد مع خضرا! ألن تنتهي الامتحانات؟ قالت سعاد لعبد الرحيم في هدوء: ليس من مقامه أن ينزل عندنا. سندبر له بيتا منذ نصل إلى عكا! سأستعين بالست فاطمة اليشرطية! دهش عبد الرحيم؟ تعرف الست فاطمة؟ وصفت له عباس أفندي، وزياراتها مع الست شفيقة إلى "ستي فاطمة" في عكا. وصفت له الزاوية اليشرطية في عكا. تبحث ياعبد الرحيم عن سند بعيد، والسند في بيتك! لكن الشاذليين ليسوا كما صورتهم تماما، ياعبد! حكت لي خالتي أن جدهم أتى من المغرب، كان يلبس عباءة مغربية ذات قبعة على الرأس. وكانت يداه كالعجين، والناس يقبلونهما. شجع السلطان عبد الحميد الشاذليين وكان منهم. حكى لي خالي عنه. كان عبد الحميد عصريا، لاكما يصورونه! كان يستقبل الضيوف ويفهم طمع الاوروبيين ببلاده. تآمر الدونمة عليه. قرأ الشيخ أبو الشامات على خالد آغا الرسالة التي أرسلها إليه السلطان عبد الحميد! كتب السلطان لأبي الشامات أنه خلع لأنه رفض بيع فلسطين لليهود. فقال خالد آغا: لم نر الخير بعد سقوط الدولة!

كم من التفاصيل يجب أن تنسج سعاد بينها وبين عبد الرحيم كي يصبح زوجها وينتقل بروحه إلى بيتهما! بمساعدة الشاذليين، أصحاب الست شفيقة استأجرت سعاد لعلي بيتا. وبمساعدتهم اتصلت بأبي عارف في سوق الحميدية في دمشق وطلبت سجادا يليق ببيت علي!

في عكا، روت سعاد لزوجها ماحدث ذات يوم بين أخيها سعيد وأخيه علي. واستمع في انتباه إليها. تفصيل آخر حجبته سعاد طوال تلك الأيام عنه وهما ينامان في غرفة واحدة وفي سرير واحد! هل يعتب عليها عتب الرجل الشرقي الذي يريد أن يملك روح زوجته؟ أم يعجب بامرأة تعرف ماتحجب ومتى تبوح؟ كيف استطاعت أن تقابل عليا طوال تلك الأيام كأنها لاتعرف مابينه وبين أخيها؟ لن يقلقه أنها قادرة على ستر روحها عنه. بل سينحني أمام امرأة حرة تقدّر ماتقول في البرهة التي تختارها.

www.alkottob.com

كان سعيد وقتذاك مدير مدرسة في إربد. ترك وظيفته في سما، وفضل أن يكون في بلد أكبر منها. التقى في إربد بمدير بنك من بيت الياسين كان صديقه في أيام المدرسة. ذكر لسعيد: كنت آخذ منك نصف بشلك، وبرغوثا من الفضة! وكان هناك سليمان باشا السودي من عشائر الروسان، صاحب قدري. انعقدت السهرات، ووصل خبرها من النساء إلى خضرا، فنقلت ذلك لزوجها. استدعى المتصرف علي سعيدا. قال له: تسهر الليالي مع أنك أستاذ ومرب! وهذا يلهيك عن عملك! من قال ذلك؟ لاأحتاج إلى من يقول لي ذلك! أعرفه! أنا في المدرسة في النهار، ولم يقرر لي أن أكون فيها في الليل! إذا كانت لديك ملاحظات على عملي في المدرسة فأنا مستعد لسماعها!

وصف سعيد لقاءه بالمتصرف لأصحابه. فقال سليمان باشا: يريد أن يحضّر العشائر بالنظام التركي! غضبوا عليه ولجؤوا إلي. قابلته فبدأ يأمرني بما يجب أن أفعل. قلت له اسمع، لاتشر علي بما يجب ولايجب! أهل البلاد يعرفون حاجاتها. يفترض أن يستمع الموظف إلينا. فرد علي: اسكت وإلا حبستك!

حمل سليمان باشا للأمير عبد الله شكوى عشيرته وأضاف إلى ذلك: يتدخل في شؤون العباد. يفرض علينا ألا نسهر في بيوتنا! طلب الأمير من علي أن يستقيل. فاستقال وعاد إلى صفد. وترك سعيد أيضا عمله وذهب إلى بيروت! قال لسعاد ضاحكا: اشتريت طقما جديدا لأستقبل به عملا جديدا! كان يستمتع بالتنقل في بلاد لاحدود بينها؟ وكان يودع بلادا لن يعيش فيها طويلا!

قالت سعاد لعبد الرحيم: تحتاج الأوقاف من يضبطها. خير رجل لها علي. شرط ألا يصطدم بالعاملين فيها!

لماذا قدر لمثل هذا الرجل أن يولد في أزمنة فوضوية وأمية؟ كان يستمتع بالنظام، ويؤمن بأن الأشياء والناس والبلاد يجب أن تسير بمثل دقة الشمس من شروقها إلى غروبها. وظف رجالا يجمعون الأوساخ من طرقات صفد، فكوم الناس الوسخ بعد مرورهم ببرهة! وضع حنفيات ماء جديدة يشرب منها الناس، فأتلفوها. في كل يوم كان الناس يرمون عليه مشكلة يضيع ليله ونهاره فيها. كيف يستطيع أن ينظم بلدا إذا كانت عشائره تقول: نحن أصحاب البلد وأنت موظف عندنا، كما قال له سليمان باشا الروسان؟ ردد لنفسه: إلى جهنم وبئس المصير! الله بنبلا ورسن!

ولكن هل كان يستطيع أن يعيش بما تركه له أهله يوم صار الإنكليز سادة البلاد؟ يوم سجلت الحكومة العثمانية الأراضي سجلت العائلات ماتستثمره منها.

www.alkottob.com

وكان لأهله بيسمون في الحولة، والجاحولة، ونصف علما في قضاء صفد. لايعرف إدارة الأراضي، لذلك ترك الأمر لعبد الرحيم. جاء هذا بيوناني زرع الأراضي تبغا، مثل الناس! لكن الحكومة الإنكليزية فرضت عليها ضريبة كبيرة. الهدف أن يضطر أصحاب الأراضي إلى بيعها لليهود! ماالعمل؟ قالت سعاد: نحرق التبغ كله! نحرق رزقنا الذي خسرنا عليه المال؟! قالت: الضريبة على التبغ ستدمرنا. احرقوه! تخلصوا من التبغ ومن الكارثة! كانت على حق! فالفلاحون الذين لم يجدوا مخرجا قانونيا استدانوا ليدفعوا الضريبة، فأفلسوا وخسروا أراضيهم!

تركت سعاد كل ذلك وراءها، في بيت كالقصر أنفق عليه ملء الحضن من الليرات الذهبية، عرض نافذته حصيرة. وبدأت حياتها مع عبد الرحيم في عكا، حالمة بأن تؤسس معه أسرة بعيدة عن العشيرة!

www.alkottob.com

نامت سعاد بعمق يوم قرر عبد الرحيم أن ينتقل مع أخيه إلى عكا. لكنها في الصباح انتبهت إلى صفد كما ينتبه الإنسان إلى المدن التي يتوهم أنه يعيش فيها مضطرا، ويكتشف وقت يودعها أنها جميلة وكان فيها سعيدا. جلست على حافة نافذة البيت العريضة وأطلت على صفد. هناك القلعة و"المنزل" والبيوت المبنية من الحجر! الجرمق ووادي الطواحين والبساتين! تكاد تلمح مناحل العسل في حدائق البيوت! تجولت في الغرف الواسعة، وتأملت ماجددته فيها، والأثاث الذي اشترته من حيفا. هل خيل إليها أنها ضاقت بصفد؟ مع ذلك توهمت أنها لن تفقد القطعة التي تركتها من حياتها في ذلك البيت الواسع كالسرايا. وتصورت أنها ستعود متى شاءت لتجلس على الأرائك المنجدة بالمخمل النيلي التي لن تنقلها معها إلى عكا. وهل كانت تستطيع أن تفهم إلا فيما بعد، أنها لاتستطيع أن تستبقي حتى ماتطوقه يداها؟

رتبت الملابس في صناديق، واختارت بعض أثاث البيت، فما أصغر بيوت عكا أمام هذه السرايا! التفتت إلى صفد والسيارة تبتعد عنها وتنهدت. استرحت، ياسعاد، من هذه البلدة الجبلية؟ ربما! لكني الآن أحبها! تبقى من المدن مهما عشنا فيها صورة، وستبقى في ذاكرة سعاد صفد التي رأتها من نافذة السيارة وهي تبتعد عنها. انشغلت سعاد يومين بترتيب بيتها في عكا. وعندما بدا لها أن أشياءها استقرت فيه، لبست ملاءتها وفتحت الباب: إلى عكا!

يوم زارت عكا مع الست شفيقة أول مرة، قالت لها شفيقة: عكا هي السور ومسجد الجزّار وفاطمة اليشرطية! استمعت سعاد إليها منتبهة. فبعد موت أمها كان كل من أخيها سعيد وخالها قدري وخالتها شفيقة يشعر بأن واجبه أن يعلمها! لعلهم تصوروا أنهم يصوغونها كما يصاغ كعك العيد! ألا يحلم الكبار دائما بأن يعجنوا ويخبزوا من الولد شخصا يتمنونه؟ تستدعي سعاد الآن ماتعلمته منهم. كانت تعود إلى سعيد لتسأله عما حكت لها عنه الست شفيقة. وتتبين أن الواقع

www.alkottob.com

يكتمل برسوم أشخاص متنوعين. هكذا بدا لها في أحمد الجزّار الظالم خلوده الآخر. وستقول لابنها فيما بعد، وهي تمسك بيده في الطريق إلى زوجها في المعتقل، مالم تقله لها الست شفيقة: "أما ماينفع الناس فيبقى في الأرض"! ذهب ظلم الجزار وبقيت أبنيته الجميلة!

أكمل لها سعيد مابدأته الست شفيقة: كانت استنبول عاصمة كبرى. لذلك بنى الجزار هذا الجامع في سنة 1781 شبيها بجوامع استنبول الفخمة، بمساحة واسعة على مرتفع، مع أن عكا داخل السور صغيرة. صمم مئذنته الرشيقة المرتفعة كمآذن استنبول، فلم تكن كمآذن الشام القريبة من الناس.

تؤهلنا الحياة لأن نرى مانعرفه بألوان جديدة! كأن المدن والأبنية تكسب روحها منا! ركبت سعاد الحنطور مع بنات العكي، لتتجول في عكا فاحصة سحرها. قلن لها: لم تستريحي بعد من ترتيب بيتك! لن تهرب عكا! بل تهرب! لايعرفن كم تشتاق إلى السماء والبحر والمدينة! مشت معهن إلى جامع الجزار. كأنك ياست سعاد، نويت الحج! نويت الحج، نويته! تجولت في الجامع، تأملت بابه الشمالي المزخرف، وبابه الشرقي، وأدراجه العريضة التي تنزل إلى الطريق. مشت في صحنه المستطيل، بين قباب أروقته، رأت في إحدى غرفها مركز مفتي عكا، وقرأت ماكتب على غرف أخرى: فيها كتب قيمة! في إحدى تلك الغرف أقام أمين، ابن قدري، يوم كان يدرس في المدرسة الأحمدية، ويأخذ منها راتبا شهريا، قبل أن تنزل أمه من طبرية لتستأجر بيتا تسكن معه فيه. أدهشت سعاد، مرة أخرى، البركة المستديرة في صحن المسجد. يتدفق الماء منها في خمس عشرة فتحة. وتفرجت على المزولة التي أهداها صالح آغا الكردي للجامع. ساعة شمسية تضبط وقت الصلاة! قصدت مدفن الجزّار وسليمان باشا. رافقتها بنات العكي إلى جامع المجادلة، حكين لها أن صاحباتهن بنات الكردي من سلالة بانيه صالح آغا الكردي. هذا جامع قديم، من سنة 1750 بجانبه بيت واسع. بقي آل الكردي مسؤولين عنه فرممه ابراهيم آغا الكردي وعمر مئذنته سنة 1810. ورممه علي آغا الكردي وأوقف له البساتين في سنة 1910 وبنى طابقا ثانيا للبيت الذي كان أكبر بيوت عكا. طرقت بنات العكي الباب. استقبلتهن سعادت خانم، زوجة سعيد باشا كامل، ابن الصدر الأعظم، صهر السلطان عبد الحميد. ستشرف سعادت خانم على الوقف حتى سنة 1948، سنة التهجير! قالت سعاد لبنات العكي بعد تلك الزيارة: فضلت سعادت خانم عكا على استنبول، فهل أفضل بلدا آخر على عكا؟!

www.alkottob.com

يوم زارت سعاد جامع الجزار كانت الست شفيقة تسعى كي يقبل أمين، ابن قدري في الكلية الأحمدية. ليست عكا غريبة عنها! في عكا صديقة شفيقة، "ستي" فاطمة اليشرطية. ومن أهم منها؟ كم استقبل قدري وجهاء عكا، العكي والسعدي وشقير! ماتزال شفيقة تحكي عن زيارة الشيخ أسعد شقير مع جمال باشا، في أيام الحرب، إلى طبرية والسجاد الذي جمع من بيوت العائلات ليمد في استقبالهما.

سألها عبد الرحيم عندما عادت متعبة من المشي: لماذا لم تستأجري تاكسي أو حنطورا؟ ياعبد، لايعرف البلد إلا من يمشي فيها! مشيت عكا من أولها إلى آخرها. عكا صغيرة وحلوة، والمشي فيها متعة! مشت سعاد في شوارعها المبلطة. شارع صلاح الدين من البوابة الشرقية حتى جامع الجزار. شارع الجزار حتى السور الغربي. مشت في السوق الأبيض الطويل المسقوف، بين صفين من الدكاكين، عابرة السبيل الذي شيده سليمان باشا العادل سنة 1816. هل تستطيع أن تعبر ذلك السوق دون أن تتذكر ظاهر العمر؟ مشت في السوق الشعبي من ساحة اللومان حتى الجرينة، بين خياطين وباعة حلويات وخضار ولحم وجرائد وأقمشة ومطاعم. مشت في السوق المعتم، بين باب جامع الجزار وقهوة الدلالين. ويوم طلبت من بنات العكي أن تذهب إلى حمام الباشا قلن: ياسعاد في بيتك حمام! ردت: أريد أن أرى الحمام! فحملن البقج المطرزة ورافقنها إلى الحمام. ورأتهن سعاد من خلال البخار، وسمعتهن من خلال رنين الطاسات والماء المسكوب على الأرض والأجسام البيضاء. وتاهت في جمال حمام الباشا الذي بناه الجزار، والنافورة التي تتوسطه، وقاعاته ومقرنصاته!

ماذا فوتت سعاد على نفسها من عكا في تلك الأيام؟ قالت لها الست شفيقة: تأكلين عكا وتشربينها! هل تقول لشفيقة بل أرشفها وأتذوقها! لعل تلك كانت لها أيام السعادة! سعادة حادة ومرهفة لأن سعاد كانت تخمن أنها موقتة! اندفعت سعاد إلى عكا ومقاماتها وضواحيها، كأنها تريد أن تمسك بأمكنة ثابتة لايمكن أن تفقدها، تسندها بدلا من أعزائها المفقودين! تبعت قناطر مياه الكابري التي بنيت في القرن السابع عشر وسحبت فوقها أقنية المياه من نبع الكابري إلى عكا. رافقتها بنات العكي إلى عين البقر، بين مستشفى الحكومة على شارع بيروت وتل الفخار. العين التي تغور مياهها في الجفاف وتتدفق في الشتاء. نزلت بدرج طويل إلى بناء مستدير يحيط ببركة ماء فوقها قبة شاهقة ترتفع عن الأرض في أعلى الدرج. واختلطت بالعائلات التي تتنزه هناك. عاتبتها شفيقة: تجرين الناس ستا وعشرين درجة كأنهم في عمرك! ردت سعاد ضاحكة: يستحق ذلك الماء الذي

www.alkottob.com

سقى منه آدم بقرته!

زارت سعاد مقام النبي صالح خارج سور عكا قرب بوابتها الشرقية. حيث سيدفن في حزيران سنة 1930 الشهداء الثلاثة الذين شنقهم الإنكليز، فؤاد حجازي من صفد، وعطا الزير ومحمد جمجوم من الخليل، الذين أعدموا في سجن عكا. وستردد سعاد والبلاد هائجة مانظمه ناصر عيسى على وزن نشيد نجيب الريس "ياظلام السجن":

يـــــاظلام القبـــــر خـــــيم إننـــــا نهـــــوى الظلامـــــا

لـــــيس بعـــــد المـــــوت إلا فجـــــر مجـــــد يتســـــامى

زارت مقام الشيخ غانم، في جوار السور الجنوبي بين المنارة وقهوة البحر، كأنها تشعر بأن آخر شهداء عكا قبيل سقوطها سيدفنون هناك! زارت مقام عز الدين، أحد قادة صلاح الدين، الذي استشهد على أبواب عكا. لذلك قالت لها شفيقة: ستنزل عندي سيدة من الشام، وسأرسلها إليك كي تريها عكا! وقبلت سعاد السخرية: سأقوم بواجبها!

هل بقي خان لم تطل عليه سعاد، متخفية بملاءة قديمة؟ خان العمدان الذي بناه أحمد باشا الجزار للقوافل التجارية في سنة 1783 قرب الميناء، وباحته الواسعة المحاطة بالأعمدة التي جلبت من خرائب قيسارية، وبركته الرخامية وسط الباحة. خان الفرنج الذي بني في زمن السلطان سليم، قرب دير الفرنسيسكان وكنيستهم. خان الشواردا، قرب مدخل سور عكا الشرقي، وأروقته وباحته وسبيل مائه، قرب برج السلطان. وخان الشونة، مقابل الحمام الشعبي على بعد أمتار من خان العمدان.

أحبت سعاد سبيل الطاسات، الباقي من أيام الجزار. نصف دائري غرب المدخل الشمالي إلى جامع الجزار. قبته على أربعة أعمدة من الرخام، مرتفعة ثلاثة أمتار. تحت قبته أربعة أجران ماء لكل منها طاسة مربوطة بسلسلة.

قالت خضرا: صارت الست سعاد عالمة في تاريخ عكا! لم يبق إلا أن تطلب زاوية في جامع الجزار تقرأ فيها دروسها، وتصبح شيخة في المدرسة الأحمدية! فردت سعاد على من نقل لها الكلام: نعيد تاريخ النساء الحافظات! لكني لن أقبل بين المستمعات إلا الذكيات! ولتعرف الست صفرا أني بعد أن انتهيت من عكا سأدرس قراها. وفي هذه النزهات لن أقبل إلا المختارات! قولوا لها زارت سلفتك تل

www.alkottob.com

الفخار جنوب المنشية لتتفرج على المدافن القديمة! وفحصت ساحل عكا من رأس الناقورة حتى نهاريا! وعبرت سهل عكا من حيفا حتى لبنان! وتفرجت على بئر ماء عذب محفور في الرمل ورأت الفلاحين يزرعون الزيتون والليمون والبرتقال! وتبعت وديان كركرة، والقرن، والصعاليك، وعيون الكابري، ووادي مجنونة، ونهر النعامين، ونهر المقطع! وصعدت جبال الجليل من جبل حيدر قرب قرية الرامة، إلى جبل عروس وتل الرويسي في ظاهر قرية دير القاسي، إلى جبل جلون شمال قرية شعب، ووصلت إلى القمة على ارتفاع ألف متر غرب بيت جن! قولوا للست صفرا إني دعوت أصحابي إلى مروج البقيعة، وسحماتا، ومجد الكروم، والبطوف وأكلنا هناك من زيتونها وشربنا من ينابيعها! وزرنا قرى قضاء عكا من البروة، إلى البصة جنوب رأس الناقورة! لكننا لم ندع امرأة سمينة مثل الست صفرا لأنها لاتستطيع أن تسرع في المشي مثلنا! لماذا كانت سعاد تكسب بلباقتها وحكمتها حتى البعيد، لكنها تشحذ سخريتها لتعلن الحرب على خضرا؟

قالت سعاد في تلك الأيام، عكا بلدي المحبوب! وكتبت لأختها منور: أنا في عكا كالسمكة في البحر!

www.alkottob.com

سكنت سعاد في عكا القديمة، قرب السيدة فاطمة اليشرطية. كأنها نفذت نصيحة تناقلتها أمها فاطمة وعمتها نفيسة وخالتها شفيقة: اعرفي البلد من مركزه لامن أطرافه!

بعد زيارة السيدة فاطمة اليشرطية تنشر بينها وبين نفسها الحوار الذي سمعته، تتوقف لتفكر في منعطفاته، وتستسلم للتأمل. تقول لنفسها: توسع السيدة فاطمة الدنيا. كأني في عالم دون سقف وجدران!

يحكي الناس أن الحصان ركع كي تركبه الست فاطمة. لاتستوقف سعاد تلك الروايات. فالناس متنوعون في فهم أمثالها. لكل مجموعة منهم عيونها! عندما قبّل الزوار الشاذليون يدها، نظرت سعاد إلى السجادة. وانصرفت إلى فاطمة اليشرطية التي لايراها من يقبّل يدها. تأملت الكبرياء والتواضع، الثقة بالعلم والرغبة في أن تمنحه، وبدا لها أن فاطمة اليشرطية تتلقى احترام المريدين الذين يقبّلون يديها كأنها أم.

استقبلت السيدة فاطمة امرأتين من سوريا قدمتهما لسعاد: نازك العابد، تبرعت بقريتها في الغوطة للفلاحين! ماري عجمي، صاحبة مجلة العروس! كم كان عمرك ياسعاد عندما أسستها في سنة 1910؟ الاولى شقراء جميلة، طويلة. والثانية سمراء، مربوعة. رأت سعاد فرح السيدة فاطمة بهما. راقبتها وخيل إليها أنها أكثر سعادة بالأنداد منها بالمريدين. وكادت تفهم الشوق إلى المثيل الذي نخاطبه مؤمنين بأنه يفهمنا كما نريد أن نفهم. والحاجة إلى حب الآخر الذي يؤمن بنا وينتظر منا العلم، ونستطيع أن نقوده بذلك الحب كي يرتفع ويصبح دوننا قويا. هل تفهم سعاد السيدة فاطمة اليشرطية، حقا؟ يخيل إليها أنها لم ترها في كمالها إلا بين ضيفتيها الدمشقيتين. حكتا عن "أصحاب القبعات" الذين ركبوا معهما في القطار. الغرباء الذين يسرقون بالمستوطنات قطعا من فلسطين! المتعصبون الذين يدخلون إلى بلاد التسامح كره الآخر الذي لاينتسب إلى دينهم

www.alkottob.com

اليهودي! قالت ماري عجمي للست فاطمة: "مشكلة فلسطين ليست إفرادية أو اجتماعية، بل سياسية دولية. وفلسطين لاتتسع مساحتها لأن تكفي اليهود وطنا بل سيتجاوزونها في المستقبل إلى سائر البلاد العربية". قالت السيدة فاطمة: هذا ماأشعر به! يفهمه من يعيش في فلسطين! ترفض ماري عجمي الانتداب وتقسيم أرض عربية واحدة. قالت: "الشرق يتحرر من عبودية الأولياء ليضع عبودية الساسة الأجانب. ولئن كان المسيح قد غدر به فبيع بثلاثين من الفضة فهو يباع اليوم بثلاثين قنطارا من الذهب".

خرجت ماري عجمي إلى البستان، واستلقت على بطنها فوق العشب، وبدأت تكتب كأنها سعيدة بالمرج والشجر وشمس الربيع! وبقيت السيدة فاطمة مع نازك العابد. تحدثت نازك العابد عن أزمنة جميلة، عن يلدز، قصر السلطان الذي زارته مع أهلها في أيام الدولة العثمانية. ترقرق كلامها كالساقية ناعما وسلسا. لماذا عادت إلى المستوطنين الغرباء ذوي القبعات؟ بدت لسعاد أنيقة حتى وهي مقهورة. حقا، من سمع ليس كمن رأى! رأيت بعيني المستوطنين ذوي القبعات!

رجعت ماري عجمي غائمة العينين. التقطت نظرة السيدة فاطمة غمها. نعم، في الحياة أيام لاتنسى. كأن حياتنا مقدمة لها، وما بعدها نتيجة من نتائجها. أمام سعاد ثلاث نساء تفهم إحداهن الأخرى من نظرة. حديثهن استمرار أحاديث سابقة. قرأت ماري عجمي الأبيات التي نظمتها:

يقولـــون الصـــبا روض خصـــيب وأيـــن الـــروض فـــي هـــذا العـــراء

فلاظـــــــل ولاورق يقينـــــــي هـــزيم الرعـــد فـــي حلـــك الســـماء

ولاأنـــــس يطيـــــب ولاحبيـــــب يـــرد بجنحـــه عصـــف الشـــتاء

ولاقلـــب يجيـــب صـــدى حنينـــي ولاعـــين تتـــوق إلـــى لقـــائي

كـــأني للنوائـــب صـــرت أهـــلا أداري داءهـــا فيعـــز دائـــي

علـى روض الشـباب نثـرت دمعـي عســـى تخضـــر أعـــواد الرجـــاء

قالت السيدة فاطمة: الكون واسع ونحن ذرة في مدار من مداراته! هل تلامح لماري عجمي طيف الرجل الذي أحبته وعجزت عن تخليصه من مجموعة المشنوقين من شهداء أيار؟ ولذلك تبعدها السيدة فاطمة إلى مدار الأفلاك؟ حكت

www.alkottob.com

ماري عجمي في هدوء عن زيارتها الجامع المعلق حيث حشر المعتقلون. تستطيع أن تخفي الآن أعاصير تلك الأيام، لكنها لايمكن أن تنساها! قرارها: لن تتزوج! وباللقرار الذي لن تشعر بثقله إلا عندما تلاحظ في حزن أن الزمن يسرق طيف رجلها المحبوب. عندما يذكره الناس يوما في السنة تزهو بأنه رفع حياتها، ثم تحطّ بما يصعب أن يحمله فرد!

تأملت سعاد الشقراء الطويلة، المسلمة، والسمراء المربوعة، المسيحية! هل تشيّد المحن الصداقة أكثر مما تشيّدها الأيام السعيدة؟ لا، لا، يابنتي سعاد! بل قولي لاتكون العواطف كبيرة إلا إذا كانت بمقدار البلاد!

عندما عادت إلى البيت كانت راغبة عن الكلام. روت لعبد الرحيم أنها التقت بامرأتين مدهشتين عند اليشرطية، ماري عجمي ونازك العابد، وصمتت. هز رأسه: أي وطني في بلاد الشام لايعرفهما! هاتان من الأشخاص الذين عاشوا جزءا من عمر عجزنا، أو لم نكن محظوظين بأن نعيشه!

ظلت أطياف النساء الثلاث حول سعاد وهي مستلقية في الفراش مغمضة العينين. كان ذلك اليوم عند اليشرطية من أيامها العظيمة. هل يعرف اولئك الأشخاص مايتركونه في روحنا، وهم يعبروننا دون أن يذكروا أسماءنا ونحن بعد في الشباب لم نشيّد حياتنا، ومانزال احتمالا، وهم قد اكتملوا حتى بأحزانهم؟ هل يتصورون أننا قد نندفع بالومض الذي قبسناه منهم وأننا نمدّ أكفنا، دون أن ينتبهوا إلينا، ونجمع حتى فترات الصمت بين كلماتهم؟

انحازت سعاد إلى الشاذليين. وسندت انحيازها. قال لها خالها قدري مرة: وضع السلطان الشاذليين مقابل البهائيين! استقبل أبوك وأمك عباس أفندي، وتبادلا معه الهدايا. غطاء الطاولة المطرز بالفراشات هديته. تذكرينه؟ أعجبا بموقف البهائية من تعليم النساء، لكنهما لم يطمئنا لدعوة عباس أفندي إلى توحيد الأديان! الصراع على فلسطين، والصراع في فلسطين، ياسعاد! لاتنسي هذا أبدا! حكى لها قدري عن الطريقة الشاذلية. مؤسسها الشيخ علي نور الدين اليشرطي ولد في بنزرت في تونس سنة 1796. وبقي في المدينة المنورة مجاورا أربع سنين. أتى إلى القدس كي يكمل حجّه في بيت المقدس فأوصلته عاصفة إلى عكا. استقر في ترشيحا في قضاء عكا ثم استقر في عكا. لكن لاتتوقفي هناك! فالرجال يبدأون كأنهم مشروع شخصي، ثم يعرفون مواقعهم وهم يفحصون البلاد والزمن والناس، فيقدرون أعداء مشروعهم ومنافسيه ومريديه. ويوسعونه بتلك المعرفة.

أحبت سعاد الزاوية الشاذلية في عكا. نعم، يسهّل المكان الحب أو الكره!

www.alkottob.com

الزاوية في عكا القديمة فسيحة، تسع المريدين والضيوف وحلقات الذكر الصوفية. كان رئيسها ابراهيم ابن الشيخ علي الذي مات سنة 1928. وستسجل سعاد في حياتها أنها زارت ابنه الشيخ محمد الهادي اليشرطي الذي درس في المدرسة الأحمدية في عكا. وستزوره في بيروت التي هجّر إليها ومات فيها، وستعزي به قبل أن ينقل جثمانه إلى عكا.

حضرت سعاد "الذكر" في الزاوية. سحرتها البرهة التي يرتقي فيها الحاضرون إلى الوجد، مبتعدين عما في حياتهم من فرح وحزن. وكأنها رأت عبور الإنسان بين عالمين وهو موجود في أحدهما! فهل كان ذلك هربا من الدنيا أم كان ارتقاء إلى جوهرها وسعتها؟ استمعت إلى "الذكر" لكنها لن تنذر روحها للصوفية! يلفحها من أبيها يوسف ومن خالها قدري حب الحياة الدنيوية!

هل أخبرت السيدة فاطمة اليشرطية بنات العكي بأن سعاد انتقلت إلى عكا ليستقبلنها باسم مدينة؟! أتين إليها بعربة بعد أيام من وصولهاإلى عكا: شرفينا لنتغدى معا! في ذلك اليوم أطلت سعاد على أهل تلك الجزيرة، أو شبه الجزيرة وقالت: ماأطيب أهلها! وصارت كالسيدة فاطمة تسمي الشابات الثلاث "بنات العكي".

ترددت عليها بنات العكي كأنهن قصدن أن يعرّفنها بأهل المدينة، لتتساءل هل يحب أهل عكا النزهات والفرح لأن فيهم بقية من طباع أهل مصر؟! وهل أخذوا من دمشق عطف الجار على الجار؟ عندما قلن لها يجب أن ننصرف، سألتهن: من تذهبن إليه يستحقكن أكثر منا؟ ياست سعاد، واجب! مات بائع الفول وواجبنا أن نعزيه! قلن واجبنا، ولم يقلن تحتاج أسرته مساعدة! لكننا غدا موعودون بالنزهة معك!

قالت سعاد: بيت العكي أثمن من الذهب! وخرجت معهن إلى الشط الغربي. ماأحلى تلك الأيام! ستتحسر عليها يوم تقيم في دمشق وتسكن بنات العكي في بيروت! عرضن لسعاد جانبا آخر من مرحهن: يقال في عكا إننا نشمس الألماس على السطح! فليتسل الناس بالحكاية! تعالي، ياست سعاد، لنريك وهج الألماس في الضوء! تستمتع بنات العكي بما يحكى عنهن. يضحكن وتضحك سعاد معهن. لاحاجة للسعيد إلى أسباب خارقة للفرح!

أخرجن الحلي المرصعة بالألماس من صندوق ونشرنها أمامها في الضوء. ففهمت في تلك البرهة ماقرأته في ألف ليلة وليلة. حقا، "يخطف البصر"! لم تعرف الألماس في جماله إلا عندما نشرنه على طاولة وسط الغرفة. لم تستطع أن

www.alkottob.com

تنتبه إلى قطعة واحدة لتدهش من أناقة صياغتها، بل رأت أمامها مجرّات من نجوم السماء. هذه القطع ياست سعاد، من جداتنا. من يستطيع أن يجمع مثل هذه الحلي المرصعة بالألماس ولو كان أبوه تاجر زيت غني!

تذكرت سعاد "مية الألماس" التي رأتها مرة على عمتها نفيسة. وتمنت أن تتزين بها. أعادت بنات العكي الألماس إلى الصندوق ووضعن الصندوق في كيس من القماش. متى يتزيّن بهذا الألماس الرائع؟ في الأعراس، ياست سعاد! ونعيره أيضا لمن يحتاج الزينة في خطبة أو مباركة!

ركبت سعاد العربة معهن: يجب أن نزور أم المهند! وحيدة ومقطوعة! أرسلن إليها امرأة لتغسل ثيابها، ورأتهن سعاد يكملن مالم تنجزه الخادمة. ثم أوصلن سعاد إلى بيتها وأكملن طريقهن: توفي أبو بائع البوظة ويجب أن نعزي أهله! عيب ألا يعنى الغني بالفقير! لاأحد يبقى مكانه، أكان فوق أم تحت! لكنهن لم يبحن لسعاد بمن يساعدنه. قلن فقط: لاأحد يعرف المقدّر له. يوم لنا ويوم علينا! فاعملي الخير وارمه في البحر!

تفتحت سعاد في تلك الحياة مع بنات العكي. هن مثلها بعيدات عن الصوفية، مع أنهن يقبّلن يديّ السيدة فاطمة اليشرطية. قلن لها: "سيدتنا" عكاوية! وفهمت سعاد عندما اضطرت إلى لقاء أسعد شقير، أن أهل عكا ورثوا تضامن مدينة محاطة بسورها تعودت أن تكون موحدة.

قالت لها بنات العكي: أهل بيروت يحبون "البسط"؟ أهل عكا يحبون "البسط" أكثر منهم! تظنين أن سليمان باشا، والي عكا، أنشأ البهجة سنة 1816 لنفسه؟ زرعها بالزهور والأشجار، لنا! بنى فيها هذه القصور الأربعة وهذه البركة والنوافير وسحب لها الماء من نبع الكابري، لنا! زاد فيها الوالي عبد الله باشا وسماها البهجة، لنا! لذلك اختار البهائيون أن يدفنوا زعيمهم بهاء الله قربها! فإذا حج أتباعهم إلى قبره كانوا كأنهم في نزهة. لكن أبي أسس للبلد حديقة أجمل منها!

أطلت سعاد معهن على قصر البهجة. سنة زرعت البهجة بالزهور ومد الماء من نبع الكابري إلى بحرتها، ولد بهاء الله في ايران! فما أشطره! اختار مكانا شيده آخرون في بلاد أخرى! لاتعرف سعاد بعد أن الرجال سينسبون إلى أنفسهم مابناه آخرون، وأن أجيالا قد تعيش على مأأنشأته أجيال قبلها!

ألّف بهاء الله الكتاب الأقدس، كأنه القرآن، لذلك نفي إلى أدرنة، ثم نقل إلى سجن عكا، ثم عاش فيها. يطل بيته على ساحة عبود وعلى الشاطئ الغربي وشارع الفاخورة مقابل السور. هناك عاش ابنه عباس أفندي زمنا. تفرجي، هذا هو

www.alkottob.com

قصر العجم! بعد هذه السنوات الطويلة، تقف سعاد أمام البيت الذي تغدت فيه أمها فاطمة مع زهية العجم وعباس أفندي، قبيل موتها؟! تجمع سعاد أجزاء أمها التي فقدتها وهي صغيرة. تتمنى أن تعرفها! فهل تملأ القلب معرفة الأعزاء ولو لم يستطيعوا العودة؟

أخفت سعاد روحها، وانشغلت بوصف عباس أفندي لبنات العكي. لم يتحمل هذا الرجل الذي تجول في اوروبا وأمريكا، أن يظهر سعيد أمامه بالبيجامة. فقال لسعيد: بيننا فرق في المقام، وفي العلم، وفي العمر. فكيف تجسر، ياسعيد، أن تظهر أمامي كما تظهر في غرفة نومك؟ يفترض في شاب متعلم مهذب ألا يخرج من غرفته إلا في ملابس لائقة! لماذا فعل سعيد ذلك هو الحريص على مظهره؟ سألته مرات لماذا أغضب أمه بسلوكه، ولم يجبني. ضحك. يبدو أنه لم يستطع أن يجهر أمام أبويه برأيه في عباس أفندي فعبر عنه بطريقة أخرى!

ياست سعاد، يخفي البهائيون قرآنا غير القرآن الذي يعرفه الناس. ويظهرون كمسلمين. هم مهذبون ونحن مثلهم. لكننا لن نصبح بهائيين! ستقول سعاد لأولادها: يوم توفي عباس أفندي في حيفا سنة 1929 زرت ضريحه في سفح الكرمل. ورأيت شوقي أفندي رباني الذي خلفه. وانحنيت له لأنه يكتب بالعربية والفارسية والإنكليزية! احترام البهائيين العلم والدراسة، هو ماأعجب أبي وأمي في البهائيين!

اصطدم العرب بالمستوطنين اليهود في يافا. وانشغل الناس بالجرحى. فلماذا اختارت بنات العكي أن يصحبن سعاد إلى حديقة البلدية؟! رفضت سعاد أن تذهب معهن. ياست سعاد، لو بقينا في بيوتنا كلما قتل شهيد، وكلما اختلس الإنكليز قطعة من أرض فلسطين وأعطوها لليهود، لما خرجنا من بيوتنا! قومي لنكسر الحزن!

من لاتعجبه حديقة البلدية! أرض واسعة تتجاوز ستة آلاف متر مربع. ثلاثة مداخل ممنوعة على السيارات والحناطير. ممرات للمشاة. حديقة مزروعة بالزهور، نظيفة يعنى بها موظفو البلدية. منظمة، تسمح لكل مجموعة بأن تخلو إلى نفسها. فيها مقهى يقدم نرجيلة وقهوة وشايا. حقا، تقوي النزهة الروح! ستعود سعاد مع بنات العكي مرات إلى حديقة البلدية. سيشوين اللحم، ويلعبن بالبرسيس. وسيكون على الخاسرة في اللعب أن تحضّر النزهة القادمة! سيفرشن الشراشف ويستلقين عليها! سيدخن النرجيلة ويغنين! ستمر في الحديقة أيام حلوة من عمرهن، وستحمّله بألوانها وعطر زهورها! آه، لو بقيت لهن صورة فقط من الصور التي

www.alkottob.com

أخذت لهن في تلك الحديقة، والواحدة منهن تتكئ إلى كتف الأخرى، والفرح والشجر يملأ الصورة! لكن صور شبابهن بقيت في عكا!

عندما رجعت سعاد من الشط الغربي في عكا، خلعت ملاءتها، تنهدت واستسلمت لإعجابها بهن. ستعرف بفضلهن أهل عكا. من يدق الباب الآن؟ بائع قال لها: أنا أبو سامر. فتح محفظة وعرض مافيها. ملابس داخلية إنكليزية. أعجبتها فانتقت منها "فانيلات" لعبد الرحيم. كأن السعادة تحتاج أن تنفق المال! أو كأنها تحتاج أن تلبس المحبوب ثوبا، أو تطعمه أو تسقيه! ألم يطلب زوج وداد منها أن تشرب خمرا لأنه اشتهاه لها، ولم يفهم أنه كان بذلك ينفرها منه؟ لم يفهمها وقت قالت له: أنت تحبها فما ذنبي أنا!

كانت سعاد تذكر دائما طبرية وتحكي عنها: لايوصف جمال بحيرة طبرية! لاتوصف حماماتها! تنزل المياه الساخنة إلى الحمامات من الجبل، ويبدو البخار أحيانا كالغيمة. الأرض مبلطة بحجارة كبيرة قديمة، لكن "المشالح"، خارج الحمام، مبلطة ببلاط جديد. عمّر البحرة السلطان عبد الحميد، بحرة واسعة قد يكون قطرها عشرين مترا، مستديرة حولها أعمدة ولها قبة زجاجية، فيها سبع يسيل من فمه الماء. بيت النار فيها للمرضى. تبرّد الماء في بحرة صغيرة وتوزع منها! كم تذكرت سعاد طبرية أمام عبد الرحيم! لكنها ستقول له سأحكي منذ اليوم لأهل طبرية عن عكا!

ياللمصادفة! أرادت أن تفرحه فأعادته إلى الهم الذي تمنى أن يستريح منه في البيت! نشرت "الفانيلات" الداخلية: اشتريتها لك! سألها: نزلت اليوم إلى السوق؟ لا، مر رجل اسمه أبو سامر، دق الباب وعرض علي بضاعته. طلب منها عبد الرحيم: صفيه لي! وصفته! طويل عريض، معه محفظة. هب واقفا: وصلوا إلى بيتي؟ نشك في هذا الرجل! ضابط يهودي يدخل إلى البيوت العربية ليعرف من فيها ومافيها! سقط قلب سعاد: ضابط يهودي؟ نعم! حكيت لي، ياسعاد، عن نعيم العسل الذي كنت تشترين منه السوس وأنت طفلة، وكان في دكانه كل شيء حتى أظافر الجن للسحرة! اشترى أرض الخلة لليهود. وصار لأولاده دكاكين مثل دكانه، ووصل إلى الشجرة! اشترى باسمه أرضا للوكالة اليهودية. وعمر خانا وفندقا مع منتش وفريتز، السكناج! البائع الذي استقبلته أخطر منه!

غضبت سعاد على نفسها. لم تبال بلوم عبد الرحيم، بل شغلها أنها وقعت في فخ! قالت له ولنفسها: يبدو أنهم يعملون ببرنامج مرتب! تشلح اليهوديات

www.alkottob.com

البولونيات والألمانيات الرجال العرب أموالهم وأرواحهم. يعرفن من قرب قوتهم وضعفهم! لايستطيع أبو سامر أن يفحصني! لكن اليهوديات اللواتي يسحرن الشباب العرب يفتحن بواباتهم! يوهم رجالنا أنفسهم بأنهم يطأون نساء العدو! أو ربما يوهمون أنفسهم بأن اللعب بالنساء لاعلاقة له بالسياسة! لكن مثلك يعرف تلك العلاقة! ويعرف أن اليهوديات شلحن الموظفين الأتراك مالهم. يقتر العرب على زوجاتهم لينفقوا على صاحباتهم.

شعرت سعاد بغضب حتى على المدارس التبشيرية: أليست للغرباء؟ حتى مس نيوتون التي تفهم أن انحياز الإنكليز لليهود يفقدهم العرب، صورت مخططات الخط الحديدي في أيام الدولة العثمانية وسلمتها لجيش بلادها فنسف لورنس جسوره! عندما نلتفت حولنا لانكاد نعرف ممن نحذر!

هدأها عبد الرحيم: نبهي الجيران من هذا الرجل، واطلبي منهم ألا يفتحوا له الباب. أفهميهم أنه ضابط يهودي! لن ألبس هذه الفانيلات. ارمها! قالت له: بل سأعيدها له وأستعيد ثمنها! وأنت نبه أصحابك! فاليهود يحملون لنا حتى البيت بضائع جيدة ورخيصة ويوفرون علينا السفر إلى حيفا! وهل تستطيع كل امرأة أن تسافر إلى حيفا وقت تريد، وفي رقبتها بيت وأولاد!

تركها ووقف أمام النافذة. يبحث عن البحر؟ تضيق الدنيا فنلتفت إلى البحر والسماء نلتمس السعة! قالت له: لولا ظلم الإنكليز وهجرة اليهود أكان يوجد أسعد مني ومنك؟ التفت إليها. لن يذكر أبدا أنها رأت غضبه إلا هذه المرة. يعرف أن أهله يقولون: سحرته، "سقته"، ويتجاهل ذلك. ليتهم يفهمون كيف تسحره! لاتفتنه بشعرها الذهبي وبياضها الياسميني وصفاء بشرتها النادر، فقط. بل بحكمتها وعقلها. هو السياسي؟ بل هي السياسية! هي الزوجة التي كان يحتاجها!

www.alkottob.com

سألت بنات العكي سعاد: لاتعرفين الشيخ أسعد شقير؟ هذا مثل سور عكا.. وسجن عكا! رجل ذكي كان أجداده المصريون مغربلين في الحواصل، تعلموا وصاروا رجالا مهمين. درس الشيخ أسعد في استنبول، مثل أبي الهدى، وتزوج امرأة استنبولية، وصار مفتي الجيش. والبقية تعرفينها! قالت سعاد: يعرفه أهلي. أتى مع جمال باشا إلى طبرية، واستقبلهما خالي. قالت خالتي، كان الشيخ أسعد يترجم لجمال باشا، ويهمس له كأنه يلخّص له من يقابله!

زارت سعاد بيت شقير أول مرة مع بنات العكي. هل تغري البيوت بأصحابها؟ قالت لعبد بعد زيارتها الاولى: لاتعرف ياعبد الشخص حتى تراه في بيته. تعرفه من أثاثه وستائره وذوقه! تعرفه وهو يقدم لك شرابه وقهوته! سألها: وهل قدمت لك الخانم القهوة بيديها؟ تقصد الخدم؟! قدمت لي الست تقيّة القهوة! لم تحجب سعاد عن عبد أنها أحبت بنات شقير. هل تخجل بذلك لأن الشيخ أسعد ضد من ينحاز إليهم زوجها؟! سألتها تقيّة: أعجبك البيت؟ ردت: البيت بسكانه! نعم، أعجبها البيت! خارج سور عكا، بينه وبين البحر طريق. فيه قاعة واسعة للاستقبال فيها "كنبايات"، وثلاث طاولات كبيرة سطوحها من الرخام. شرفات القاعة ذات قناطر تطل على البحر، فيها مقاعد. يتنقل أسعد شقير هناك بين زواره ثم يجلس على كرسيه. غرف البيت كثيرة، واسعة، مفروشة بأثاث جميل. عرفت سعاد فيما بعد حتى المطبخ والقسم الذي يعيش فيه الخدم. رافقت تقيّة سعاد، فيما بعد، إلى البيت القديم مقابل الزاوية اليشرطية، داخل سور عكا. "عندما وصل الضباط الألمان إلى عكا أنزلناهم مع أسرهم في البيت الواسع خارج السور، وانتقلنا أياما إلى البيت القديم داخل السور. حين احتل الإنكليز البلاد أخرجونا من بيتنا خارج السور، وأنزلوا فيه ضباطهم، فلجأنا إلى البيت القديم داخل السور، وكان الشيخ أسعد غائبا مع المهزومين".

سأل عبد الرحيم سعاد بعد أول زياراتها إلى بيت الشيخ أسعد: رأيته؟ هزت

www.alkottob.com

رأسها. سألها: كيف بدا لك؟ مهيب. يمكن أن يخافه من يراه! تشعر بأنه يعرف الأصول، وأنه أيضا ممثل! اعتداده بغناه وبنفوذه القديم مثل جلده عليه. قال: بتلك الهيبة خضع له الضعفاء، وقصده الراغبون في منفعة، والخائفون من شره! حوله أيضا الحالمون بالدولة الإسلامية! ألم تلمحي فيه الرغبة بإذلال الناس؟! تساءلت سعاد هل يقصد تعاليه؟ قال عبد: من مركزه كمفتي الجيش الرابع، وكمقرب من جمال باشا أضر بالناس! يقول أصحابه إنه رجا جمال باشا ألا ينفذ الأحكام بالإعدام في شهداء أيار! لاأصدق ذلك! كان في مجلس المبعوثين مع الاتحاديين الدونمة مقابل شكري العسلي! وبقي في مركزه قرب جمال باشا بعد تنفيذ الإعدام! وافق على الأحكام ثم صلى على الشهداء! سألته سعاد: صلى عليهم؟ رد: يقول الناس ذلك كي يؤكدوا المثل "يقتل القتيل ويمشي في جنازته". ويقول آخرون إنه في صلاته طلب المغفرة من الشهداء لأنه عجز عن رد الأحكام عنهم! لكن يبدو لي أنه بهلوان! زوجها، كأهلها، منحاز إلى شكري العسلي. خطر لها أن تسأله: لماذا تكرهه مع أنه يدعو إلى الجامعة الإسلامية؟ وأفرحها أن لسانها لم يزلّ.

حفظ عبد الرحيم كرجل من رجال الدول العربية ملف أسعد شقير! رأى أنه لم يكن بعيدا عن الوشاية ببعض رجال العرب الذين اعتقلهم جمال باشا. كان رئيس وفد العلماء والوجهاء الذي زار استنبول بعد شنق شهداء آب سنة 1915 لتهنئة الجيش العثماني في معارك جناق قلعة في الدردنيل. وكان معه الشيخ تاج الدين الحسني. طبع كتاب عن رحلتهم بعد شنق شهداء أيار. عندما عاد إلى فلسطين بعد الحرب اعتقله الإنكليز. لكن يبدو أنه مال إليهم وعارض الحركة القومية فألف الحزب الوطني سنة 1922 فشق الحركة الوطنية. وعارض الحاج أمين الحسيني والمجلس الإسلامي الأعلى.

أراد عبد الرحيم في أول حديث بينه وبين سعاد عن الشيخ أسعد أن تفهمه رغم صداقتها لأسرته. بحث في مكتبته عن كتاب ظن أنه ضيعه. رأته سعاد يكوم الكتب على الأرض. كانت صفوفا خلفها صفوف. في الصفوف الخلفية وجد أخيرا الكتاب الذي نشر عن زيارة وفد العلماء والوجهاء بعد إعدام شهداء أيار. كان أسوأ من "ايضاحات" جمال باشا! أمسك عبد بالكتاب كمن يمسك بدليل إلى جريمة. هاهي كلمة شقير في استنبول للوزراء والسلطان! فلتقرأها سعاد! وضع الكتاب على سريرها. ووضع فيه ورقة كتب فيها: كشف البولشفيك أن جمال باشا اتصل بالحلفاء عارضا أن يؤسس دولة! يبدو أنه باح بطموحه لعبد الكريم الخليل وطلب

www.alkottob.com

منه التأييد العربي. لذلك قال الخليل وقت إعدامه: "أعرف لماذا يعدمني جمال باشا"! أترك لك، ياسعاد، كلمة شقير لتقرئيها في غيابي!

قرأتها سعاد مع الخطوط التي وضعها تحت بعض الجمل. قال شقير: "لمّا جزم المرجفون بأن سوء الظن قد خامر قلوب العنصريين ولم يبق مكان لقلع جذوره قضت الحكمة الالهية والقدرة الربانية بإعلان النفير العام، ووافى البلاد السورية أخوكم الوزير الكبير المصلح، ووقف على أمراضها وعالجها معالجة حكيمة وأعطى أصول الحقوق لأربابها، وشيد المدارس وفتح الطرقات وعمل بروح الشريعة الإسلامية فأمن روح الخائفين وأحسن إلى الفقراء .. وقد يكون وصل إليكم أيها الوزراء ماتتداوله الألسن من ثرثرة الثرثارين بطلب الإصلاح مهولة موهمة، فإن كانت أباطيلهم أوجفت في نفوسكم شيئا من ذلك فهاهم علماء البلاد وأعاظمها وأركانها والمعتمد عليهم يحيطون بكم وهم الذين ارتبطت بهم قلوب مختلف الطبقات من أشراف وأعيان وتجار وزراع وعامة، وكلهم يشهدون بشدة تعلقهم بالدولة وشكرهم على أيادي جمال باشا وإصلاحاته وثقتهم به"!

فليكن ذاك أسعد شقير، رجل الدولة الذي جرى في مجرى الاتحاديين! لكن ماذنب أسرته؟ له من الزوجة التركية ثلاث بنات وصبيّان. ولد الأول في السنة التي عفت فيها عنه الحكومة التركية كما يقال، والولد الثاني أنور. إحدى البنات متزوجة من ابن أخيه. رأت سعاد هؤلاء الأولاد فقط. قالت لها تقيّة إن لها أخا من جارية هو أحمد، سيعلّمه الشيخ أسعد في الجامعة الأمريكية في بيروت وسيدرس المحاماة ويظهر ذكاء كذكاء أبيه ولكن في اتجاه آخر. لكن وداد خورشيد ستهمس لها ذات يوم: ابنه من زوجة تركية فقيرة، انتقل إلى بيت أبيه بعد موت أمه وزوجها! سيخطب له شابة من أسرة غنية. آه منك ياوداد! ترشّين الفلفل الأحمر حتى على الحلوى!

لم يعترض عبد الرحيم على صداقة سعاد لأسرة شقير. ولم تتح له ذلك. لكنه بقي يخز الشيخ كلما عادت من زياراتها لأسرته. قال: انطفأ الشيخ أسعد منذ رحل جمال باشا! ردت: قد لاتتفق الحقيقة مع رغبتك، فمضافته ملأى بالناس! لاتدافع سعاد عن الشيخ أسعد لكنها تنفر من الوهم. يعيش الأغنياء بكنوزهم الماضية، ويعيش ذوو النفوذ بسمعتهم الماضية. يحتفظ الشيخ بعلاقاته بالناس! لذلك يقال ينجح في الانتخابات من يريده الشيخ أسعد، ويسقط فيها من لايريده الشيخ! رد عبد: كلام! لايستطيع أن يسقط أرنبا! سألته سعاد: أنت، هل جلست معه ولو مرة؟ حديثه حلو، يحب المزاح والنكتة! قال: لاأريد تلك الصحبة! استوقفها عناده.

www.alkottob.com

عبد الرحيم طيب وسهل في المعاشرة، وفي السياسة طويل البال، هادئ. فلماذا يبدو كالصخر الأصم إذا ذكر أسعد شقير؟ لماذا يستثنيه من حكمته؟ قالت له: استمعت إلى حديثه من وراء الباب. جلست مع بناته وأصغينا إليه! يحدث أكابر القوم بلغة، والبسطاء بلغة. الجلسة معه ظريفة، ونكتته حلوة. يملك عقول مستمعيه. سمعت رجالا بسطاء يسألونه كيف يعمل التلغراف بين بيروت وعكا وبينهما هذه المسافة؟ رد: ماذا يحدث لكم عندما تكونون عند كنيسة البشارة والبنات مارّات إلى العين من بعد؟ هكذا التلغراف! ليتنا نتعلم منه! قاطعها عبد الرحيم. لايقبل أن تمدح رجلا ساعد جمال باشا! لايعترف بنقطة بيضاء في هذا الرجل! قال: مفهوم، مفهوم! رجل تعب على نفسه، درس وتعلم، كسب خبرة من وظائفه، عاش في استنبول، وكان في مجلس المبعوثين. لو كان حمارا لأفاد من تلك التجارب! قلوب الناس ملأى منه. من لايتمنى، من بيروت إلى دمشق وعكا، الانتقام منه؟!

استمعت إليه سعاد. ليته يقصقص الشوك منه! ياعبد، إذا أحببت شخصا أنزلته من السماء، وإذا كرهت شخصا دهنته بالسخام! هل قلنا إن أسعد شقير منا؟ ألم يتحدث قدري عن لؤمه في مجلس المبعوثين؟ لكننا نقول إن حديثه حلو، يعرف كيف يخاطب الناس، فتعلموا منه! سألها: نتعلم منه الخداع؟

قررت سعاد منذ سنة الزواج الاولى أنها ليست ملزمة بأن ترى الدنيا بعيني عبد الرحيم. لها نظرتها إلى الناس. تريد ياعبد الرحيم امرأة قوية تحمل حملك. اقبل البقية إذن! لمحته ينوس بين رضاه وبين عتبه. قرأت رغبته في أن تنحاز إليه كما ينحاز صديق. أين الفاصل بين فرحتنا بأن يرى من نحبه الدنيا بعيوننا، وبين فرحتنا بنضجه واستقلاله عنا؟ هل نتمنى حقا أن يكون مستقلا عنا في مانراه مركزيا ومهما؟ ألا نخشى أن نفقد حبه وقربه إذا ابتعد بروحه عنا؟ وهل يمكن أن يبقى الحب حيا إذا ابتعد أحدنا بالفكر عن الآخر؟ لن تجيبه سعاد. تترك الزمن أن يفهمه نسيج العواطف المعقد! لكنه سيبقى مؤمنا بحكمتها.

من بيت شقير كسبت سعاد صديقا أحبته. قدمت تقيّة أخاها لسعاد: هذا هو أنور! صادفته مرات في بيت أهله. دمث ومتواضع. هل التقارب في العمر بينهما يوحي لها بأنها تفهمه؟ رجاها ألا تتردد في طلبه إذا احتاجته: حتى لو شعرت بصداع، ولو في منتصف الليل، ياست سعاد!

قالت لعبد الرحيم: لو كانت عندي ابنة لتمنيت أن يتزوجها! ياسعاد، أنور مع الوطنيين! لذلك أعجبك! بل أعجبني ياعبد، لأنه مهذب ودمث ومتواضع! وهل

www.alkottob.com

الوطنيون كلهم مثله؟ لو كانت لدي ابنة لما زوجتها لشخص لأنه مع الوطنيين فقط، بل اشترطت أن يكون مخلصا ومهذبا ومستقيما. ربما يفترض أن تتقّي الوطنية روح صاحبها. لكن الواقع مختلف عما يفترض. فحتى الخطر يستولد المتزلفين! أنور صاف وطيب. أخذ من أسرته التهذيب والعين الشبعانة، ويسّر له غناها دراسة الطب في الجامعة الأمريكية، والاجتهاد ليكون كما هو الآن!

رضي عبد الرحيم على صداقة أنور وسعاد. هل يظن أنه اخترق تلك الأسرة؟ قالت له سعاد: سبحان المغيّر! وسّع روحك ياعبد، وسّعها! هل تكشف له أن في روحه زوايا معتمة؟ هل تنبهه إلى أنه لم يحرس روحه من الحقد وأقنع نفسه بأن الحقد عاطفة تسند مشروعه؟ كم أخطأ! فمن قدر له أن يكون في مكان عبد الرحيم يجب أن يمنع نزواته ويحرّم على نفسه حتى الأهواء الصغيرة. ابتسم. يبدو أنك ياسعاد أكثر مني حكمة! هدأته: اسمع ياعبد، حقك ألا تحب الشيخ أسعد كحق قدري! لم تضع نفورك من الرجل خارج السياسة!

سيجد عبد الرحيم، بعد هبّة البراق، شاهدا يؤكد أن الشيخ أسعد مستمر في سيرته السابقة. وسيقول لها بعد إحدى زياراتها إلى بيت شقير: تفضلي، خذي هذه الحقيقة! جمع الحاج أمين الحسيني مؤتمرا إسلاميا في ليلة الإسراء والمعراج في كانون الأول سنة 1931 ليرسخ حقوق المسلمين في المسجد الأقصى وحائط البراق بعد عدوان اليهود عليها في أحداث البراق. وثبتت قرارات المؤتمر حقوق العرب والمسلمين فيه، وطلبت مقاطعة البضائع الصهيونية في البلاد الإسلامية. فماذا فعل أسعد شقير وفخري النشاشيبي؟ دعيا إلى مؤتمر الأمة الإسلامية في كانون الأول. واهتما بمعارضة المجلس الإسلامي لأن رئيسه الحاج أمين، وحاولا أن يقنصا بعض الوفود إلى مؤتمرهما! فهل هذا عمل وطني؟ ومن أنفق على مؤتمرهما؟ أصحاب النشاشيبي الصهيونيون ومنهم ليفي مدير بنك أنكلو فلسطين! هذا هو إسلام أسعد شقير!

www.alkottob.com

عندما وصلت رسالة بهاء إلى شفيقة، كانت سعاد ماتزال مشغولة بأحداث هبّة البراق. لذلك تمنت أن تؤجل منور زيارتها. وبدأت تكتب لها رسالة.

البراق جزء من حائط المسجد الأقصى الشرقي طوله ثلاثون مترا تقريبا. بينه وبين البيوت رصيف عرضه أربعة أمتار، أوقف منذ سنة 1330 ميلادية للحجاج المغاربة، وهو الممر إلى حي المغاربة. سمح صلاح الدين الأيوبي لليهود في السكن في القدس، وسمح لهم محمد علي باشا بالصلاة قرب حائط البراق، شرط ألا ينصبوا ستائرهم وطاولاتهم وكراسيهم وأبواقهم. وهاهم يدّعون أن الجدار بقية هيكلهم ولايكتفون بالصلاة قربه في عيدهم في آب، بل يريدون أن يكون ذلك باستعراض يظهر أن الحائط لهم!

احتجت اللجنة الصهيونية إلى حاكم القدس سنة 1921 لأن المفتي يرمم الجدار دون إذنهم! كأن لها فيه حقا! ومن هي تلك اللجنة؟! لجنة من مستوطنين غرباء! في سنة 1925 حمل اليهود أدواتهم إلى الحائط فاحتج المفتي. وفي سنة 1928 في يوم الغفران حمل اليهود إلى البراق أدواتهم وكتبهم وستائر تفصل بين النساء والرجال، ونفخوا في أبواقهم. فاحتج المفتي، وأتى الإنكليز ونزعوا الستارة. فتظاهر اليهود محتجين على الإنكليز، وطلبوا تسليمهم الحائط. فنظم المسلمون جمعية حراس المسجد الأقصى وفروعها وعقدوا اجتماعا كبيرا في المسجد الأقصى. بيّن العرب ببرقيات ومذكرات إلى الحكومة البريطانية النتائج التي يتوقعونها من العدوان على حقوقهم. ونظموا المؤتمر الإسلامي في تشرين الثاني سنة 1928 ورفضوا أي حق لليهود في البراق، وطلبوا إبعاد النائب العام الصهيوني بنتويش.

اعترف الكتاب الأبيض الإنكليزي بوثائق الوقف الإسلامي وملكية المسلمين للحائط. فهاجم اليهود الكتاب الأبيض، ووضعوا مسألة فتح البلاد للهجرة في جدول أعمال المؤتمر الصهيوني في زوريخ. فاجتمع العرب في المسجد الأقصى

www.alkottob.com

وطلبوا تنفيذ الكتاب الأبيض، ونشرت جمعية حراس المسجد الأقصى بيانا عن خرق اليهود حرمة الجدار، وأرسل المجتمعون رسالة إلى المندوب السامي.

في الرابع عشر من آب سنة 1929 تظاهر آلاف اليهود من جماعة جابوتنسكي في تل أبيب. وفي الخامس عشر من آب طاف موكبهم في أحياء القدس الإسلامية وأنشدوا نشيدهم "هاتيكفا" وهتفوا: الحائط حائطنا! هل قصدوا أن يكون ذلك عشية المولد النبوي؟ في يوم المولد النبوي، تجمع المسلمون في المسجد الأقصى وخرجوا في مظاهرة وكسروا الطاولات المنصوبة أمام حائط البراق. وفي اليوم الذي تلاه اشتبك العرب واليهود ووصلت مصفحات بريطانية، واضطربت مدن فلسطين كلها. قتل جنكيز اليهودي في يافا أسرة كاملة منها طفل في الثالثة من العمر. ونسف الإنكليز بعض البيوت العربية، واعتقلوا عربا استبقوهم ويهودا أطلقوهم.

- هانحن، ياسعاد، وسط اضطرابات جديدة !

- ياعبد الرحيم، هذه اضطرابات؟ هذه بداية حرب!

على طاولة عبد الرحيم المعلومات التي جمعها عن جابوتنسكي. تفضلي، ياسعاد: ولد في اوديسا، وما أبعدها عن فلسطين! اتهم بالتآمر على القيصرية فسجن. أصبح مقاتلا شيوعيا ثم مقاتلا في الحركة الصهيونية. عندما حكم الدونمة تركيا ظهر في استنبول. رافق الحملة البريطانية إلى مصر والتقى فيها بالضابط القيصري ترمبلدور، وحلما بفرقة عسكرية يهودية! في الحرب العامة التحق بفرقة القناصة البريطانية، مثل بن غوريون، وقاد الحملة التي عبرت نهر الأردن سنة 1918. صار اولئك اليهود الذين دربوا في الجيش القيصري والإنكليزي فيلقا يهوديا ضم في سنة 1919 خمسة آلاف رجل، يعني خمس عسكر الحلفاء في فلسطين! بعد حوادث سنة 1920 حلّ الإنكليز الفيلق. لكن جماعة جابوتنسكي موجودة! هي التي نظمت استعراضا عسكريا في شوارع القدس، وهاجمت العرب. هذا الشقي عضو منتخب في المؤتمر الصهيوني سنة 1921

مقابلنا، ياسعاد، جيش مسلح، مدرب في دول عظمى! هو ليس عصابة دون برنامج، بل جيش مسنود بوعد بلفور، وبنص يفرض الوكالة اليهودية كمؤسسة يستشيرها الانتداب لتنفيذ الوطن القومي اليهودي! ماالعمل؟ هذه بلادنا! سنقاوم المحتلين والمستوطنين! ماأقل أعداءك، ياعبد الرحيم!

وصلت هبّة البراق إلى صفد! في صفد حي يهودي واحد، فمن يهدئها واليهود المسلحون يقتلون العرب في القدس، ويحتلون جدار البراق، وينفخون في

www.alkottob.com

أبواقهم! وصل عبد الرحيم إلى صفد. "قولوا لنا أنتم منا أم مع اليهود الغرباء"؟ لم ينتظر أحد أن يكمل عبد الرحيم حواره! صار الذين عاشوا معا في مدينة واحدة وتبادلوا الزيارات في الأعياد، أعداء. من أشعل العداوة؟ وعد بلفور؟ الفرح بالانتداب؟ رجال المنظمات اليهودية؟ حلم قديم؟ كل ذلك، والعقل الصهيوني! رأى عبد الرحيم بوينا الأب جريحا! فحماه: اتركوه! هذا عربي، عاشت أمه في صفد بيننا! حرسه عبد الرحيم حتى أسعفه ابنه الطبيب، وأوصلهما إلى حارة اليهود. لامه أهل صفد: حميته، ياعبد الرحيم، لأنه يهودي عربي! ألم يستقوي اليهود العرب بالإنكليز وبالمستوطنين ويشاركوا في قتلنا في القدس؟ ياإخواني، أعرف بوينا!

سأل عبد الرحيم بوينا الابن عندما استقبله في مكتبه: كيف وصلت؟ أرأيت، ياعبد الرحيم، كيف صار ممنوعا علي أن أمشي في مدينتي؟ لاتسلني يابوينا، سل جماعة جابوتنسكي في القدس! هذا الغريب يشعل البلد، ياعبد الرحيم! هل تذكر حديثنا عن ترمبلدور في هذا المكتب، يابوينا؟ لكنكم قتلتموه، ياعبد الرحيم، في الجليل الأعلى سنة 1920. قتله العرب، وسيمجده اليهود وسيجعلونه نبيا! ومن هو، يابوينا، لتدافع عنه؟ لم أدافع عنه. ذكرته لأبين أن قتله يستولد الأسطورة! لايصنع الأساطير أبطال فقط، بل يصنعها مغامرون، يابوينا! ويتصل ذلك بمن يحتاج الأسطورة! ومن ترمبلدور الذي سيقدسونه؟ ولد في بيتيغورسك، شارك في الحرب الروسية اليابانية وأسره اليابانيون. هاجر إلى فلسطين في سنة 1912 وهرب إلى الإنكليز في الاسكندرية في الحرب العامة. رجع إلى روسيا بعد الثورة البلشفية. نظم فرقة يهودية وأسس الاتحاد العام للجنود اليهود في روسيا، ومنظمة الدفاع الذاتي اليهودي التي ضمت مائة ألف رجل في سنة 1917. يبدو أن حلمه في القتال تحت العلم الأحمر والعلم اليهودي لم يتحقق فعاد إلى فلسطين سنة 1919. لديك معلومات كاملة عنه، ياعبد الرحيم؟ يجب أن تكون لدينا معلومات كاملة عمن يسرق بلادنا، يابوينا!

سهر بوينا في تلك الليلة في مكتب عبد الرحيم في صفد. هل كانا رجلين يبحثان مصيبة يحاولان أن يستبعداها كيلا تفرق بينهما؟ أنا يابوينا، منحاز لأبناء بلدي لأنهم ضحايا! القتلى في حوادث البراق 116 عربيا و133 يهوديا، ياعبد الرحيم! لم نكن نحن السبب يابوينا! هاجم اليهود بلادنا في قلبها! دافعنا عن المسجد الأقصى، رمزها!

استعاد عبد الرحيم مقالات جابوتنسكي: يريد يابوينا، ترحيلنا من بلادنا،

www.alkottob.com

برضانا أو بالقوة! هذا رأيه، ياعبد الرحيم. لا، هذه دعوة جمع لتنفيذها جيشا مسلحا! اسمع يابوينا، اسمع: "لايمكن أن يكون بيننا وبين العرب مصالحة، لا الآن ولافي المستقبل المنظور.. يفهم كل عربي فهما شاملا تاريخ الاستعمار، وليحاول أي منكم أن يجد مثالا واحدا تحقق فيه استعمار بلد بموافقة سكانه الأصليين. لم يحدث هذا أبدا. فالسكان الأصليون يقاتلون دائما المستعمرين بعناد وإصرار.. وسيقاتل الفلسطينيون كذلك حتى يفقدوا أية لمحة من الأمل.. أما نحن فلايمكن أن نقدم أي تعويض عن فلسطين، لاللفلسطينيين ولاللعرب". يجب أن نشكره، يابوينا، لأنه اعترف بأننا سكان البلاد الأصليين، وبأنه استعمار! ياعبد الرحيم، لم يصطدم جابوتنسكي بالعرب فقط، بل بالهستدروت! تلك خلافات تفصيلية، يابوينا! هؤلاء متفقون معه في الهدف: الوطن القومي اليهودي! الخلاف بينهما في مقدار ماقد يتركونه لنا من بلادنا، شبرا أم فترا!

أوصل عبد الرحيم ضيفه إلى حي اليهود. سلمت يابوينا في الطريق إلي، وقد لاتسلم في الطريق إلى بيتك! عندما تأكل النار البلاد لايستطيع أحد أن يحمي الصداقة والجيرة، ياعبد الرحيم! سنحاول ذلك يابوينا! ولكن هل ستحاولون ذلك، أنتم؟

أخبر عبد الرحيم سعاد: حكم على جابوتنسكي وعلى الحاج أمين الحسيني بالسجن! ساوت العدالة بين الظالم والمظلوم! اختفى الحسيني عند عشائر الأردن.

انشغل عبد الرحيم بالمعتقلين، وانشغلت سعاد بأهل القتلى وأهل المعتقلين. قالت لخالتها شفيقة: ألم تجد منور غير هذا الوقت لتنزل إلى طبرية؟! اسكتي ياسعاد! وأنت ألم تجدي غير هذه السنة لتنتقلي إلى عكا؟ آه، ياخالتي، نسيت أني انتقلت إلى عكا منذ أشهر! لولا ذلك لما قطفت بعض الأفراح!

لم تقل سعاد لخالتها إنها ستحاول أن تؤجل زيارة منور إلى طبرية. وبدأت في الليل تكتب لها رسالة. أكانت تعرف أن الأحداث ستمتد على سنة 1929 كلها، وستأكل سنة 1930، وأنها ستؤرخ هبّة البراق كحادثة في حياتها؟ وأن منور ستصل إلى طبرية خلال ذلك، وستزورها سعاد، وترافقها يوما إلى بيتها الواسع في صفد، لكنها لن تزور معها عكا، ولن تروي لها حتى ما كتبته لها في الرسالة؟!

تناولت سعاد ورقة من أوراق عبد الرحيم وجلست إلى طاولته. وبدا لها أنها تحادث أختها الجالسة أمامها. تعرفين، يامنور، أن في سور المسجد الأقصى مكانة خاصة لحائط البراق، في القسم الغربي منه. تحيط به هناك أوقاف إسلامية، منها زاوية الإمام المغربي، وحي المغاربة. لذلك يحرس سكانه المسجد

www.alkottob.com

وبيوتهم معا! تجمّع اليهود قرب حائط البراق مع أشيائهم الغريبة، رغم احتجاج المجلس الإسلامي الأعلى وغضب الناس. ومنعوا سكان حي المغاربة من الوصول إلى بيوتهم! نفخوا في البوق داعين ربّهم إلى سيادة اليهود على العالم! طبعا، استقووا بالانتداب الذي وعدهم بالوطن القومي الصهيوني، ليفرضوا نزع حق المسلمين في جدار البراق. يقول زعماؤهم إنهم سيبنون الهيكل مكان المسجد الأقصى. لذلك ذكرت لجنة الدفاع عن البراق الشريف خطر أن يكون بنتويش الصهيوني، الذي يقول إن الحائط الغربي جزء من الهيكل، موظفا كبيرا في العدلية له الكلمة في القوانين والتشريع! قال بنتويش إنه ينتظر كوروش جديدا! أليس كوروش هو الذي تعاون مع اليهود لتحطيم بابل، بلد نبوخذ نصر الذي سبى اليهود؟ نبه البيان إلى أن بنتويش يصوغ قوانين تنزع ملكية الأوقاف من المسلمين لتيسر لليهود انتزاع حائط البراق! هكذا ملأوا في عيد الغفران، الفسحة بكراسيهم وطاولاتهم ومصابيحهم وأبواقهم فبدا حائط البراق كأنه كنيس يهودي! فاجتمع المسلمون في المسجد الأقصى، وانتخبوا لجنة للدفاع عنه. انفجر الغضب في أنحاء فلسطين كلها. احتج العرب، كتبوا الرسائل إلى حكومة الانتداب، كتبوا إلى ملك الإنكليز ووزير المستعمرات، قابلوا المندوب السامي. دون فائدة! كأن الإنكليز كانوا ينتظرون أحداثا دامية ولايمنعون أسبابها! أخطأ العرب لأنهم حاربوا مع الإنكليز ليحرروا بلاد الشام من العثمانيين!

تكومت مذكرات اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني عند المندوب السامي! لايظلمنا الإنكليز لأنهم يجهلون الحقيقة! أعطوا امتياز البحر الميت لصهيوني، واحتج أمين الحسيني. ونعرف ماقال تشرتشل في امتياز الكهرباء في طبرية الذي أعطوه لصهيوني! وضعنا على باب المندوب السامي بيان جمعية حراسة المسجد الأقصى الذي بين إصرار اليهود على مظاهراتهم الدينية قرب البراق. يتفق ذلك مع مؤتمرهم الصهيوني في زوريخ. اجتمع آلاف الناس في المسجد الأقصى في الثاني من آب بعد صلاة الجمعة وأكدوا قرارهم: الدفاع عن المكان المقدس. وأرسلوا مرة أخرى برقية إلى وزير المستعمرات! نسلك السبل القانونية، مع أننا ضحايا معاملة غير قانونية!

ترين أن أحداث البراق أتت بعد مقدمات طويلة. في الخامس عشر من آب سمحت حكومة الانتداب لليهود بمظاهرة دينية كبيرة في البراق والأحياء الإسلامية في القدس. وأتى المولد النبوي بعد يوم واحد من مظاهرة اليهود، فاجتمع الناس في المسجد الأقصى. وتظاهروا ردا على الاستهانة بحقوقهم في بلادهم. أهان

www.alkottob.com

اليهود النبي فردّوا عليه في محلة البخارية. اعتدى اليهود على مزارع العرب، وزاد ذلك من الاصطدامات بين العرب واليهود. لكن اليهود مسلحون ومعهم الإنكليز! كان الجرحى العرب أكثر من الجرحى اليهود. ومع ذلك لم يمس اليهود، واعتقل البوليس العرب وحكم عليهم في ساعات بالسجن! قانون الإنكليز في فلسطين، المذنب حر والبريء سجين!

أدان المندوب السامي العرب في حادثة البراق! مع أن العرب كانوا عزلا، ومع أن اليهود أطلقوا الرصاص على العرب من سيارة عليها شعار الصليب الأحمر. يخزن اليهود الأسلحة في شركة المطاحن في حيفا. ويعمى الإنكليز عن ذلك! بل هاجم الإنكليز قرى عربية وقتلوا نساء وأطفالا في صور باهر! طوال تلك الأيام لم نعرف الليل من النهار. نام عبد الرحيم في مكتبه أحيانا. قدم المحامون العرب مذكرة وضعت الأحداث في سياق سياسة الإنكليز وسن قوانين يصوغها صهيونيون، وتسهيل بيع الأراضي لليهود. ضمن ذلك لم ير الإنكليز مظاهرة اليهود المحملين بأبواقهم وأعلامهم، ولم يسمعوا شتائمهم الدين الإسلامي. أنقل لك الفقرة الأخيرة من مذكرة المحامين لتقرئيها على بهاء وعمتي نفيسة: سوف يذكر أبناؤنا وأحفادنا ويسجل التاريخ أن جنودكم البريطانية المنظمة قد قتلت بغير ذنب النساء العربيات والشيوخ والأطفال في صور باهر، وأنكم شخصيا أهنتم الأمة العربية وطعنتم كرامتها في الصميم!

في الصباح نسيت سعاد رسالتها إلى منور، وجرت في مشاغل النهار. منذ شهر آب لم تهدأ البلاد. احتجاجات، رسائل، مظاهرات، مذكرات أطباء وصيادلة ومحامين ورجال دين، المؤتمر النسائي العربي الأول. في تشرين أعلنت اللجنة التنفيذية الإضراب العام احتجاجا على تحيز المندوب السامي، وبقاء بنتويش الصهيوني في القضاء، وحجز المعتقلين العرب وإطلاق الصهيونيين الذين قتلوا عربا والتعويض على اليهود فقط. لكن السياسيين حاولوا أن يصلوا إلى حل بالمفاوضة. انتخبت اللجنة التنفيذية وفدا ليمثلها في لندن، وقدم الوفد إلى رئيس لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف، سنة 1930 مذكرة ناقش فيها عوني عبد الهادي رسالة وايزمن إلى لجنة الانتدابات. اعترض وايزمن فيها على تحديد الهجرة وبيع الأراضي لليهود. قال: "لايمكن أن يكون في فلسطين وطن قومي دون رجال ودون أراض. تضييق هجرتنا لأسباب سياسية أو وضع قانون يجعلنا غير قادرين على شراء الأراضي اللازمة لإنشاء مستعمراتنا معناه الفعلي محو سياسة الانتداب نفسها". طلب الوفد الفلسطيني حكومة وطنية، ووقف الهجرة

www.alkottob.com

اليهودية، ومنع نقل الأراضي لليهود.. طلب ماستطلبه اللجان القادمة وسيكون مطالب الثورة بعد سنوات!

أتت لجنة بريطانية لتحقق في حوادث البراق، وتراكمت لديها المذكرات العربية. إذا أصدرت كتابا أبيض سيرفضه اليهود ويلغيه الإنكليز! وإذا أصدرت كتابا أسود سيعتمده المندوب السامي على كل حال! فهل ستضيف سعاد ذلك إلى ماسترويه بعد سنوات لمنور؟

لن تصل رسالة سعاد إلى منور، لأنها لم ترسلها! لكن الرسالة دفعتها إلى تأمل نفسها في بيت ساكن نائم. كيف تستطيع أن تفصل حياتها في تلك الأيام عن حياة نساء المعتقلين الذين دافع عنهم زوجها مع المحامين العرب؟ كيف تمسح زياراتهم الحزينة ودموعهم من بيتها، لتجلس إلى منور في طبرية؟! كن يعرفن أكثر مما تعرف سعاد من كلمات التشجيع والعزاء! لكن التماسك لايلغي الحزن على العزيز، ولايخفف القهر من الظلم. يوم عاتبتها منور بعد سنوات لأنها لم ترو لها ماعاشته طوال تلك الأيام، ردت: وهل كان لدي وقت لأمشط شعري؟ راكضة من بلد إلى بلد، أرافق نساء المعتقلين، أو أرجوهن أن يأكلن عندي لقمة. أرجوهن أن يبلعن قليلا من الشوربا وحلقي لايمر فيه الماء! الله يهدّ الإنكليز، سرقوا بلادنا! سرقوا عمرنا وشبابنا! وماذا كان يمكن أن أكتب لك؟ عن المشنوقين في سجن عكا؟ عن الأسلحة التي اكتشفنا أنها تهرّب إلى اليهود؟ لو كنت أستطيع أن أتحدث عن نزهة في حديقة البلدية في عكا لكتبت لك! مكان قلبي كان صخرة!

في منتصف آذار سنة 1930 اكتشفت أسلحة مهربة في مرفأ حيفا، من يهود باسم يهود. فتذكرنا الأسلحة التي ضبطت في لبنان مهربة في آخر السنة الماضية. احتج مؤتمر النساء العربيات في رسالة إلى المندوب السامي. الخصم والحكم! فهل تظنين أن ضميره صحا؟ مسألة مصالح واتفاقات لامسألة ضمائر! لذلك لم ترد هذه الاكتشافات الحكم بالإعدام عن عطا الزير وجمجوم وحجازي! فهل كنت أستطيع يامنور، أن أروي لك كل ذلك وأنت مشغولة بطفلك؟ كنت غارقة حتى رأسي في مصائب البلاد!

ثبّت عبد الرحيم في ذاكرته كلمة هربرت صموئيل في سنة 1919 ورآها مسارا لحكومة الانتداب في فلسطين، وذكّر سعاد بها: "السياسة الصهيونية التي تعرض اليوم على مؤتمر الصلح ويتمسك بها كل صهيوني بكل ماأوتي من قوة، تطلب أن توضع البلاد في حالة تتفق مع الهجرة اليهودية والاستعمار اليهودي،

www.alkottob.com

وأن تمنح الامتيازات والمشاريع التي تحتاج إليها البلاد للهيئات اليهودية، وأن يوسع نطاق التعليم والتربية القومية اليهودية، وأن تتمتع البلاد بالحد الأقصى من الحكم الذاتي لكي يتمكن القائمون في النهاية من تأسيس دولة مستقلة تحت إشراف أكثرية يهودية".

قال عبد الرحيم لسعاد: تذكري كلمة هربرت صموئيل لا كلمة تشرتشل الذي طمأننا في سنة 1922 "ومن الضروري أن يضمن لأهالي فلسطين كافة ألا يكون المهاجرون عبئا عليهم وألا تحرم أية فئة من السكان الحاليين من أشغالها". كرر ذلك في جوابه على رسالتي إليه. لكن هذه كلمات دون سند! فالمؤتمر الصهيوني في زوريخ رأى غير ذلك، ورأيه مرجح! ونقابة العمال اليهودية طلبت زيادة المهاجرين! ستضيع البلاد والإنكليز يلعبون بنا، يضبطون الهجرة مرة ويفتحونها مرة! مركز الخلاف بيننا هو الحق في أرض فلسطين! فمشروع اليهود احتلال بلادنا وقطعها عن العرب. بلع اليهود مائتي ألف دونم من الساحل المناسب لزراعة البرتقال! بلعوا مرج عامر والسهل الذي كان يزرعه العرب بالسمسم! حرص السلطان عبد الحميد ألا تباع أراضي الدولة لليهود. فأصبحت في يد حكومة الانتداب التي أخذتها من العرب ووهبتها لليهود، مثل أراضي الحولة. وهب الإنكليز لليهود أراضي المشاع التي تفيد منها القرى، وصادروا أراضي الناس التي لم يسجلوها بعد. وألغى هربرت صموئيل القانون العثماني الذي أجاز لمن يزرع أرضا ميتة أن يملكها.

دافع عبد الرحيم مع المحامين العرب عن المعتقلين في سجن عكا. لكنهم فشلوا في منع الحكم عليهم بالإعدام، وفشلوا في منع تنفيذه. هذه أول أحكام بالإعدام ستنفذ في العرب! رجع عبد الرحيم إلى البيت مهزوما. ادعى أنه يحتاج النوم وهرع إلى السرير دون عشاء. الحق معه! حتى الماء مرّ في هذه الليلة!

فهمت سعاد أنه أرق مثلها. سينفذ في المعتقلين الحكم! لاالقانون استطاع أن ينقذهم، ولا الرحمة! مد عبد الرحيم يده ليواسي سعاد فمست أضلاعها: كأنك لاتأكلين! تنهدت. كل منهما يحتاج أن يسند الآخر. ربما ساقهما الوهم إلى الايمان بأن السعي قد ينجح في سحب الرجال الثلاثة من المشنقة. فكان كل منهما يلقي خطابات في الدفاع ليرجح إنقاذهم! رفضت سعاد أن تصدق أن غضب الناس عاجز! رفضت التفاصيل القديمة التي أكد بها عبد الرحيم أن العقل ليس سيد الأحكام، وكذلك العدل! رأته يتبنى أحيانا تفاؤلها أو عنادها.

لايذكر أي منهما كيف كانا يغفوان في تلك الأيام كلها. لايستطيع الآن أن

www.alkottob.com

يهدئها بكلمة. عانقها ليشعرها بالأمان كما يأمن طفل في حضن أبيه أو أمه. وتبين كم هي مكسورة فنسي غمه وهزيمته. ربت على شعرها، ربت على خدها، هدهدها. ياللغرابة، سعاد كطفلة صغيرة؟ هزها كما تهز الأم طفلها في هدوء وأناة، وفهمت أنه يؤكد لها: لابأس، نمر جميعنا بمثل هذه البرهة. الحزن حق! فلنبك ياسعاد! فلنبك! أفاقت من حزنها عندما خيل إليها أن دموعا لمست عنقها فضمته إليها. في منتصف الليل غفا كل منهما معانقا الآخر. لن ينسى عبد حتى موته في دمشق تلك الليلة. عندما قال لسعاد مرة: كم كنت رائقة صافية يومذاك! ردت: في مناسبات كثيرة تكرر هذه الكلمات فأكاد أتوهم أن حياتنا معا كلها سمن وعسل! ينسى الإنسان، ياسعاد، الألم الذي فرض عليه! أو قل ياعبد، ربما يقاومه هكذا! في تلك الليلة كاد قلبي ينفجر! وكانت سعاد تكتشف بعد تلك السنوات الطويلة أن تجليات الحب متنوعة. وتفهم لماذا يلجأ الجنود اليائسون من النصر، في مستويات أخرى، إلى النساء. ولماذا يغرق الرجال همومهم في النساء. لكن دفء الجسم الآخر هناك عابر لايسند روحا معذبة، لأنه ليس في سياق عمر ممتد مع المحبوب، وليس كشفا في تجليات الحب بينهما.

مع ذلك كم كانت سعاد بعيدة عن الانكسار! بعد إعدام الشهداء الثلاثة أدهشها أنها لم تمزق ثيابها. كانت مع الناس الذين تجمعوا أمام سجن عكا. سألتها امرأة: حضرتك زوجة المحامي عبد الرحيم؟ بالله شرفيني بزيارة! أنا زوجة كايد العويس. زارتها سعاد في بيارتها بين عكا والمنشية. لكنها لم تخمن أنها ستلقاها بعد عقود في مأتم آخر في دمشق. أقامت تلك المرأة في بيتها مأتما للشهداء الثلاثة. وسحرت سعاد بزجلها وهي تندب الشهداء. حكت بالندب عن الإنكليز الذين يتحكمون في رقاب العباد، ولايرون معامل الأسلحة اليهودية، ولاالقتلى العرب، ويعدمون العربي إذا دافع عن أهله. وينتزعونه من حقله ومن أذرع أطفاله.

كنت حاضرة، ياأخواتي، عندما دفعوا فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم في السوق! تفرجوا ياعرب وموتوا من القهر! من يملك السلاح يفرض به مايريد. وأنتم ممنوع أن تكونوا مسلحين! سنظل نفتح هذه البلاد لهجرة اليهود حتى يصبح الغرباء أكثرية وتصبحون أنتم ياأهل البلاد أقلية! فموتوا مقهورين!

نزل أهل الشهداء من صفد والخليل إلى عكا ليحضروا شنق أولادهم الثلاثة. وصلوا العصر إلى المنشية وقت بدأ منع التجول. كنت واقفة في باب البيارة. رأيت نساء يبكين وعلى أذرعهن أطفالهن. سألتهم: خير؟ وسألوني: أين بيت

www.alkottob.com

المختار؟ سألتهن: أنتن من؟ قالوا: نحن أهل الشهداء الذين سيشنقهم الإنكليز. قلت: ادخلن! ولكن ماذا أستطيع أن أقدم لخمسين امرأة؟ استدنت من الجيران خبزا وطعاما، وحضّرت الشاي بالطنجرة.

نزلت معهن في الفجر إلى سجن عكا. وكل البلد نزلت، وأهل القرى نزلوا. ياويلي، حجازي والزير وجمجوم أول من يشنق في الثورة. أخذوهم أولا إلى تربة النبي صالح. أنت لم ترافقينا إليها، ياست سعاد! صعد أخو فؤاد حجازي وأنشد:

يـــــاظلام القبـــــر خـــــيم إننـــــا نهـــــوى الظـــــلام

لـــــيس بعـــــد المـــــوت إلا فجـــــر يـــــوم يتســـــامى

افرشـــــوا القبـــــر ورودا واســـــكبوا الـــــدمع هتونـــــا

رددنا معه، ياست سعاد، كما أردد أمامك الآن. ثم زغردنا نحن النساء ودموعنا على عرض خدودنا!

رجعت سعاد إلى بيتها ودموعها على عرض وجهها. وشكرت منديلها لأنه يسترها. هل كانت تستطيع أن تترك المأتم عند زوجة كايد العويس لتزور خالتها في طبرية؟!

استبقت سعاد نسخة من رسالة الشهداء الثلاثة التي وقعوها في غرفة الإعدام في السادس عشر من حزيران سنة 1930، على طاولة عبد الرحيم زمنا. بقي الرجال ستة أشهر في سجن عكا! ودعهم أهلهم وأصحابهم ومحاموهم في الأيام الأخيرة. قالت لزوجها في قهر: هذه هي ديمقراطية الإنكليز، ياعبد! يوظفون صهيونيين في القضاء، وينحازون إلى اليهود فلايعتقلون قاتلا منهم! يحكمون على هؤلاء الشباب بالموت، لكنهم يسمحون بزيارتهم، ويقدمون لهم ورقة يكتبون عليها رسالتهم الأخيرة! سمحوا لنا بالزغاريد قرب باب السجن ونحن ننتظر تسليم الشهداء لأهلهم! ولم يتدخلوا في احتفال الدفن المهيب! صدحت في عكا المآذن ونواقيس الكنائس. احتفلت البلد كلها بالشهداء الثلاثة، وبكاهم الناس في الطرقات، ورافقوهم إلى قراهم. قتلهم الإنكليز، لكن سمحوا لنا بالحزن عليهم!

خطر لسعاد وهي تنظر إلى رسالة الشهداء الثلاثة أنها تشبه عمتها نفيسة. ألم تحتفظ نفيسة بأوراق الثورة السورية وبياناتها على طاولتها حتى نهاية الثورة؟ لا، لاأستطيع أن أجمع أوراق فلسطين! لاتتسع طاولة عبد الرحيم لذلك! لكن سعاد أبقت رسالة جمجوم والزير وحجازي على الطاولة كأنها رسالة شخصية إليها. فهم

www.alkottob.com

عبد الرحيم ذلك وتركها حيث وضعتها سعاد! قتل كثير من الرجال والنساء، لكن الناس يتناولون الرمز الذي يعبر عن الكل. فلتكونوا كذلك!

رأت سعاد في وصاياهم مايتمنى الراحل أن يوفره على الباقين، ويبعد به قلقه عليهم. "أن تبقى الأمة مثابرة على اتحادها وجهادها في سبيل خلاص فلسطين من الأعداء، وأن تحتفظ بأراضيها فلاتبيع للأخصام منها شبرا... ولنا في آخر ساعات حياتنا رجاء إلى أمراء وملوك العرب والمسلمين أن لايثقوا بالأجانب وسياسييهم.. وعلى العرب أن ينقذوا فلسطين"..

سمعت سعاد صدى كلمات شهداء أيار في وصية الرجال الثلاثة. يضعون، هم أيضا، فلسطين على أيدي العرب، كقضية عربية! ارتعشت عندما قرأت الجملة التي أوصوا أن تنقش على قبورهم: "إلى الأمة العربية ، الاستقلال التام أو الموت الزؤام، باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت". مرة أخرى الموت الزؤام؟! قرأت تلك الكلمات على أضرحة شهداء أيار في مقبرة الباب الصغير في دمشق يوم أخذتها نفيسة لزيارتهم وحملت معها لهم الآس! قالت يومذاك في سرها: تحمّلني عمتي الآس وتأخذني لزيارة المقبرة وأنا لن أبقى في دمشق غير أيام؟ لكنها عندما رأت مهابة الأضرحة ونقوشها المحفورة في الحجر، وقرأت الشعر المكتوب عليها، وقدّرت أنه نداء أو بيان أو وصية، فهمت أن عمتها كشفت لها روح مدينة وهي تكشف لها روحها نفسها، وأيامها المؤلمة والجميلة التي جمعتها بخالد آغا. همست لنفسها: ياويلي، منذ عقد ونصف يكرر الشهداء الوصايا نفسها، ويكرر الناس المشروع نفسه؟! وردت على نفسها: ياسعاد، هذا ليس إشارة إلى اليأس بل إشارة إلى الثبات! أو إلى حاجة يشعر بها الناس ولن يزيلها إلا أن تروى ويفتح الأفق لحاجة أخرى بعدها!

بعد شهر سيعلن الإضراب العام لأن مائة وعشرين شهيدا عربيا قتلوا دون أن يعاقب قاتلوهم في اضطرابات سنة 1929. وفي أربعين الشهداء الثلاثة نادت اللجنة التنفيذية العربية إلى تأبينهم في كل بيت في الساعة الرابعة بعد الظهر. أضافتهم عكا إلى ذاكرتها الطويلة لتثبت حقا جديدا للعرب في المدينة!

- ياسعاد، اسمعي! يحضّر معرض في تل أبيب اسمه معرض الشرق الأدنى. وستدعى البلاد العربية إلى المشاركة فيه. فهل تتوقعين أكثر من هذه الوقاحة!

- ياعبد الرحيم، يجب أن يخطر لنا أكثر من ذلك !

- قررت اللجنة التنفيذية العربية باسم موسى كاظم الحسيني دعوة العرب

www.alkottob.com

إلى مقاطعته. ويفكر نبيه العظمة بتنظيم معرض عربي في القدس !

www.alkottob.com

عندما وصلت منور إلى طبرية كان عبد الرحيم قد اجتاز خوفه من هجر سعاد. بكى يوم مات ابنه، ولكن أكان يستطيع أن يترك المضافة الملأى بالرجال وقت طلبته سعاد؟ لام نفسه لأنه لم ينتبه إلى رعشة صوتها عندما طلبته. ربما توهم أنها كانت تبالغ في الخوف على طفلها كالنساء. خيل إليه أنها غفرت له، ولو تفادت أن يحدثها عن ذلك اليوم. مع ذلك بقيت بينه وبينها المسافة التي قطعها وحده قبل أن يتزوجها. ويالها من مسافة طويلة!

فأين كانت سعاد وقت انشغل مع أصحابه في تحضير الوفد الفلسطيني الذي قابل وزير المستعمرات ونستون تشرتشل في لندن؟ كم كان عمرها يومذاك؟! وبماذا كانت تحلم؟ كيف اختصرت الزمن إذن إليه؟ يتزوج المثقلون مثله بالهموم صبايا نضرات صغيرات يستطعن أن يهبن الأزواج المشغولين بالعمل الوطني بيتا كالزهرة، وأن يسكبن عليهم الفرح المفقود، ويحتمين من الخطر ببعدهن عن مسار الأزواج، وينصرفن بتلك الحصانة إلى إنجاب الأطفال ورعاية الأولاد. فيسندن الزوج، ويكنّ إذا احتاج، مراسلات سريات له! قال عبد الرحيم لصاحبه: هذا مستحيل في فلسطين!

هل الشفقة هي التي دفعت صاحبه إلى صيانة الزوجة بعيدا عن الصدام، أم حب النفس؟ قال ساخرا: ذلك في البداية فقط! وهاهي الحياة نفسها قد فتحت قمقم الحب ودفعت سعاد أمام عبد الرحيم حتى سبقته! ربما كان كأصحابه يوم طلبها في طبرية. أعجب بجرأتها وهي تفحصه يومذاك، واحترم نصيحة قريبه القاضي. وربما تمنى أن تكون في انتظاره وقت يعود متعبا. وربما حلم بأن يلقاها في مخبأ يتخفى فيه، وأن ينتعش إذا زارته في المعتقل. حلم أحيانا وهو يشرب القهوة في مقهى بامرأة جميلة، شقراء، يزهو بها، تمشي معه في طريقه لكنها تبقى في مأمن منه. تهبه أطفالا وتحرس بيته. تؤمن له أسرة وتربي أولادا وهو غائب أو مشغول عنهم. أين تجتمع أحلامه بأحلام أصحابه وأين تختلف عنهم؟ في التفاصيل؟ أراد أن تعرف

www.alkottob.com

زوجته ماذا تقول لمن يطلبه وتحفظ السر! وأراد أن يزهو بها إذا زاره أصحابه! وتمنى أيضا أن تحتجب عن الدنيا. لذلك سخر من أحلامه في الأوقات القليلة التي كان يستطيع أن يفحصها فيها: أردت كل شيء، ياعبد!

اختفت مساحة الأحلام التي كان يتنزه فيها، بعد زواجه. قلّمت سعاد رؤاه مرة بحزمها، ومرة بجمالها، ودائما بنظامها. أسرت الفوضى؟ أسرت الحياة نفسها بمجرى قاسته وقدرته. لكن لولا مشروعها للبيت الكبير في صفد لما يسرت له أن يصرف أشهرا في المعتقلات؟ قالت له: اسمع ياعبد! لايعيش البيت بالبرغل والدجاج الذي يحمله لك موكلوك! وساقت زراعة التبغ، وحساب أراضيه في بيسمون. كان يصحبها أحيانا لكنه كان شاهدا فقط على مهارتها في استلام البيادر وترحيلها. الحكاية طويلة بيننا وبين اليهود، ياعبد! بررت بذلك انصرافها إلى تأسيس الأمان له ليكون حرا في الغياب. قالت له: وإلا كيف يمكن أن تكون لدينا أسرة؟ فهم أنها تعني الأولاد، وأنها لم تحسبه من الأسرة التي تريدها لنفسها. ابتسم لنفسه: كأنني خروف منذور تتركه على باب ضريح من الأضرحة في جبال فلسطين!

لم يكن تزوج سعاد عندما وصلته أول رسالة من تشرتشل ردا على رسالته في سنة 1922. بين تشرتشل أن وعد بلفور لايعني أن تصبح فلسطين كلها دولة يهودية وأن يضيع غير اليهود حقوقهم فيها. مراوغة سياسية! من وهبه الحق في أن يشلحنا ولو ذرة من بلادنا؟! فليعط اليهود مقاطعة عنده في إنكلترا! انشغل عبد الرحيم منذ تلك الأيام بتوضيح حقيقة بسيطة للّجان الملكية والمبعوثة لاستطلاع الحقائق في فلسطين: الهجرة اليهودية تعني سلب الأرض من أهلها، وتأسيس وضع سيسبب حروبا وصراعا طويلا! أكدت الأحداث دائما صدق أبسط الفلاحين العرب، لكن ذلك الصدق كان يحتاج شاهدا عادلا. فماأهمية الحقائق الواضحة لمن لايراها! نحن شعب متسامح، تأتون له بمجموعات متعصبة! نحن شعب غير مسلح، تنقلون إلى بلاده عصابات مسلحة! يعيش فلاحنا من زرعه وبيادره وزيتونه وبياراته، وتدخلون أنتم مجموعات مسنودة بتمويل يهودي عالمي تسرق بيادره وبياراته! بالسلاح طرد فلاحو العفولة سنة 1924، وطرد فلاحو قيسارية في سنة 1927، والخضيرة سنة 1928 وماذا نعدّ!

لعله لم يخل إلى سعاد، بعد أيام صفد، إلا وهو في المعتقل. ماذا تقول له لو باح لها بذلك؟ أتقول له: فليطيلوا اعتقالك إذن؟ قبيل النوم، كان يستقدمها كمن يستقدم الجزء الحميم الخاص به. فنهار المعتقل محشو بالحديث والتحليل والحذر،

www.alkottob.com

لامكان لسعاد فيه. في تقشف المعتقل، يقف ذلك الجزء الحميم من الحياة كالجمال أمام القبح، والحنان أمام القسوة. بل ليعترف أن المعتقل يشتهي التفرد بما يخص به نفسه، رغم اعتداده بأنه واحد من المجموعة، وإصراره أن تتماسك تلك المجموعة كأنها فرد واحد. تنساب العواطف في الليل، يصحو فجأة كأنما ليخص نفسه بالبرهة التي نام فيها المعتقل، وهدأ فيها السعال، ولم ينقلب أحد من جانب إلى آخر. كأنما أيقظه نباح كلب بعيد، أو جندب خطر له أن يذكّر بالدنيا الموجودة خارج الأسلاك الكثيفة والبراكات. تساءل أولا ماالذي جعل الجندب يعيش في تلك البقعة الرملية التي تخلو من الخضرة والعشب والماء، على شاطئ البحر. ثم انساب في بيته، واستمتع بما لم يستمتع به: الباب الذي ينفتح، خطواته في الممر، عبق الطبخ الذي يفوح في البيت، الطاولة التي صفت عليها سعاد الصحون، الستائر التي أزيحت ليتدفق الضوء، لون المقعد الذي بهت من الشمس، وحركة ملعقة تحرك بها سعاد الطعام في المطبخ. لم يعرف قبل تلك الليلة أنه انتبه إلى بريق الزجاج الذي انعكس على البلاط! وأنه لاحظ عقدة الستائر على جانب الجدار! لمس سعاد وسمعها تقول وهي مأخوذة بالنوم: عبد، دعني أنام نصف ساعة فقط! وكانت جميلة إلى حد أنه حسب كل دقيقة ساعة طويلة. تأمل عبد علاقته بسعاد. نعم، صححتها هي والزمان! وكانت مهمته فقط أن يقبل ذلك. فيلف حلما من أحلامه بورقة ويضعه في "اليوك". صارت سعاد تقرر ساعة القرب منه والبعد عنه، دون أن تشعره بأن ذلك غضب أو رضا. لذلك صار يجلس قربها كالقطة الأليفة حيثما رآها جالسة دون مايشغلها. هل يفوته أن منور أخفت ابتسامتها يوم رأته جالسا قرب سعاد يربت على كفها؟ وهل كانت منور تستطيع أن تعرف المسافة التي عبرها عبد بين أحلامه النيئة وبين التفاصيل المبهجة والقاتمة التي استقر فيها مع سعاد؟

عندما احتشد اليهود في آب أمام حائط البراق، ولم يروا المسجد الأقصى بل الهيكل، هتفوا وصرخوا وتحدوا العرب، وسقط جرحى وقتلى، نزلت سعاد معه إلى القدس. ورآها تسجد في باحة المسجد الأقصى، ثم تسجد بعد مسافة. ظنها تصلي، ثم اكتشف أنها تركع وتسجد في الاتجاهات الأربع من الباحة. وتبين أنها نسيته عندما انساقت بين مجموعة من النساء، ورآها تحرك ذراعيها. تفرجت على قبة الصخرة كأنها لاتعرفها! رآها ترفع وجهها إلى الزخارف وتنشر ذراعيها على عرضهما. أي دعاء ترفعينه ياسعاد، من تخاطبين وماذا تطلبين؟ زارت في ذلك اليوم القدس حجرا، حجرا! تفقدت سبيل قايتباي ووقفت زمنا طويلا أمامه، لمست الحجارة،

www.alkottob.com

زارت الأضرحة والقبور قرب السور، خرجت من بوابات القدس ودخلتها، مشت في أسواق القدس العتيقة وصعدت أدراجها. هل كانت تحشد الغضب في روحها، أم تسقي الايمان بالمدينة الجميلة، أم تزور صناع بلاد الشام الذين لونوها ونقشوها وزخرفوها؟ كان عقل سعاد يبهره ويضنيه. لكن خيل إليه في ذلك اليوم أنه يلمح اتفاق الحكمة والجموح. انشغل بها حتى قالت له: صار وقت اجتماعك! سألها: وأنت؟ ردت: سأزور أصحابي ثم أعود وحدي!

هل يقدّر تفتح إنسان بيوم وتاريخ؟ أم ينتظر النبع نقطة هشة، وينتظر البرعم لسعة الشمس؟ بدا له أن سعاد سفرت في الأيام التي سميت فيما بعد هبّة البراق. وعندما سيقول لها في أول إضرابات سنة 1936: سفرت في هبة البراق، سترد عليه: سفر المهاجرون الذين ادعوا أنهم اشتراكيون واخترعوا مظاهرة العمال في أول أيار في يافا فقامت المذابح يومذاك هناك! سفر المهاجرون الذين ادعوا أنهم علمانيون فإذا بعينهم على الهيكل! وسفر الإنكليز الذين انحازوا دائما إلى اليهود الذين يستوردونهم لفلسطين فهاجموا العرب!

تذكر عبد صاحبه قدري. أيمكن أن تكون سعاد تعلمت من قدري تلخيص الأحداث بايجاز، أم يكون أورثها تلك الموهبة في الرؤية التي تحيط بالأجزاء وتجمعها في سياق؟ ثم قال: هذا شعور الناس في فلسطين نطقت به!

هاجم الناس في حيفا الثكنات الإنكليزية، وهاجموا دور الحكومة في القدس ويافا، وعرف عبد وهو في المعتقل مع المتهمين بالتحريض على الإضرابات، أن سعاد كانت في نابلس وقت هاجم الناس البلدية ورفعوا عليها العلم العربي. وكانت ممن زغرد للرجال الذين هاجموا سجن عكا. وخيل إليه أنه ميز زغردتها، وأن طيور البحر رفت في ذلك اليوم قرب النافذة المرتفعة.

سيظل عبد يكافئ نفسه بعد كل اعتقال بالحمّام. كأنه يرمي على نفسه من الماء مقدار مافاته طوال سجنه. فتكاد سعاد تختنق بالبخار عندما تدخل إليه لتفرك ظهره، فتقول له: كفاك! فيشير لها إلى منتصف الظهر، ثم إلى الكتفين. عندما خرج عبد من سجن عكا، لم يستطع أن يبقى في الحمّام زمنا طويلا! وصلت لجنة إنكليزية لتفحص أسباب الاضطرابات والصدام! وذلك من أسباب الإفراج عن المعتقلين!

رشت سعاد المرح عليه عندما رجع: محامي معتقل؟ لو كنت مكان اللجنة لاكتفيت بهذه الشهادة! أعاد لها المرح: تصوغ اللجنة مذكرة تبين فيها أنه لاتوجد أراضي دون مالك، فالأملاك الأميرية التي يهبها الإنكليز لليهود هي أراض للقرى.

www.alkottob.com

وأنه يجب ألا تكون الوكالة اليهودية كحاكم البلد! سألته: والهجرة؟ رد: يجب ألا تستوعب البلاد إلا ماتستطيع! من يقدر ذلك؟! وكيف؟ يعني لم يفهموا أن استيراد اليهود إلى بلادنا هو المصيبة! والوطن الصهيوني؟ لايعني أن يفقد العرب مكانهم! قالت: هذا كلام! يريدون أن يهدئوا غضب الناس! آه ياعبد، كم مرة سنستقبل اللجان ونودعها، ونقرأ توصياتها المراوغة! يضيع الإنكليز الوقت باللجان وخلال ذلك يتسلل اليهود بهجرة سرية وهجرة علنية وسيعطيهم الإنكليز أراضي الدولة حتى يبلعوا البلاد!

بين هبة البراق وثورة 1936 زمن سيمر كلمح البصر. لذلك تذكرت سعاد الشعر الأندلسي الذي يمر فيه الليل كلمح البصر. وسمعت صوت سعيد. لماذا صارت تتذكره دون دموع؟ أيجفف الزمن دمعنا، ياسعاد؟ بدت لها أيام اضطراب القلب بعيدة جدا. وكأنها انتبهت إلى حاجة العواطف لزمن تمتد فيه. وبدا لها عندئذ هول ألا يترك حتى للحزن على القتلى زمن يتأمل فيه الأحياء المقتول والمفقود! أي اعتداء على الموتى وعلى الأحياء! أي اعتداء على الحب! ألم تأكل الحرب موت فاطمة التي تستحق أن تحزن عليها بحرة طبرية وأشجار الماندرين وزرقة السماء؟ كان أصحابها في دمشق وبيروت وحيفا ومصر ومع ذلك ذهبت "كشربة المي" لأنها ماتت في أول الحرب العامة!

لم تهدأ البلاد. إضرابات، فلاحون مسلحون يهاجمون المستوطنات والجيش الإنكليزي. إضراب في يافا. اصطدام في القدس. من حظ عبد أنه لم يكن معتقلا عندما نزلت سعاد إلى القدس لتمشي مع النساء في مظاهرة القدس. فتفرج عليها. نعم، ميزها بين النساء! رجعت متأخرة. قال ملهوفا: قلقت عليك! نظرت إليه كأنها لاتعرفه. كيف لم يفهم أنها لايمكن أن تعود من القدس دون أن تزور المسجد الأقصى وقبة الصخرة، دون أن تسجد في الاتجاهات كلها في الباحة، دون أن تتفقد أشجار السرو العتيقة، دون أن تزور الأضرحة؟ كان يجب أن تمشي في مظاهرتها الأخرى وتهتف فيها، وتنادي الحضارة والزخارف والرسوم والألوان مؤكدة لها أنها ستحرسها! وكانت فرحة لأنها بكت هناك وكأنها استعادت قلبها، وردت على الزمن الذي يحبس حتى الحزن، ويقدم عاطفة واحدة على العواطف الملونة، هي الغضب! لفّت نفسها في ذلك المساء بعباءة شامية وانصرفت إلى الصمت. وبدا لعبد أنه يلمح لأول مرة شبها في الملامح بين سعاد ونفيسة. فتح عينيه كأنه لايصدق اكتشافه. سألته: خير؟ قال: لكن نفيسة بيضاء حلتها سوداء، وأنت شقراء! لمس إذن ماكانت تشعر به! ردت: وأنا مثلك، تذكرت عمتي نفيسة

www.alkottob.com

في هذه البرهة!

www.alkottob.com

بعد تقرير لجنة شو ولجنة سمبسون في سنة 1930 تأمل عبد الرحيم مرة أخرى الغرب الذي يمد إصبعه كحاكم على الخطأ والصواب في بلاد بعيدة عنه. وتذكر سفره إلى باريز بالقطار من استنبول. كان يومذاك طالبا يدرس الحقوق في استنبول ويشتهي أن يسوح في اوروبا، وأن يصل إلى الأندلس. لكنه اكتفى فيما بعد بالجنّة التي قدمتها له استنبول. ألم تكن عاصمة من عواصم الدنيا! واكتفى بالمدن العربية، يعود من استنبول مشتاقا إلى قبابها البيضاء وأسوارها وبساتينها. فتنته صفد المرتفعة، وجبل الجرمق، ووديان فلسطين التي تنساب فيها المياه والظلال. في استنبول كان يتذكر التين البارد الذي يقطفه في الفجر من حاكورة بيته في صفد، والقرى التي يراها من نافذته مدثرة بضباب الصباح، والعسل الذي يقطف له من خلية في الحاكورة، والحليب الذي يحلب له من الماعز ويشربه دافئا طازجا. أعجبته يومذاك باريز كما تعجب غريبا باختلافها عن مدنه. لكنه تأمل الغرب فيما بعد كحقوقي خبير بلجانه وموظفيه وعسكره الإنكليز والفرنسيين الذين صاغوا معاهدات وصكوكا، سايكس بيكو وبلفور والانتداب، وغشوا العرب بوعود غامضة. بعد إسقاط الدولة العربية في دمشق، رأى من قرب الموظفين والمندوبين الإنكليز المتغطرسين المنحازين لليهود. وقدمت له الوثائق والمعاهدات والاتفاقات فرصة لتأمل الجانب المتوحش والمتكبر في اوروبا. قال عبد الرحيم لأصحابه: نعم، جاهلة! فهل يفهم الإنكليز المسنودون بسلاحهم الفلاح المعبأ بمواويل وأهازيج وحكايا ثقافة عمرها آلاف السنين؟ كانت تذهله سطحية الغطرسة. كيف يعين في القدس، ذات الكنوز المعمارية والزخارف الأنيقة، هؤلاء الموظفون الإنكليز القساة؟ سيتذكر أصحاب عبد الرحيم كلامه عندما يرون سيكرست يتجول في الطرقات باحثا عن عربي يضربه بعصاه ورجليه، ويأمر خلوصي بك أن يجمع من الأرض المسامير. قال له خلوصي بك: أنا قائمقام! فضربه سيكرست على رأسه! لذلك سيهاجم بهجت أبو غربية وسامي الأنصاري، وهما شابان بعد، سيكرست الذي ضربهما،

www.alkottob.com

وسيموت سامي جريحا في سجن المسكوبية. وسيصلى عليه في المسجد الأقصى رغم منع التجول، ويدفن في مقبرة باب الأسباط في مدينته القدس. وعندما سيهتف التلاميذ في المظاهرات: سيكرست مات ماخلف ولابنات! سيسمعهم عبد الرحيم فيتوقف. ياأولادي تفهمون ببساطة استمرار الشعوب في الحياة؟ تريدون ألا يخلد وألا يستمر إلا الطيب والشريف؟ كان عبد الرحيم يومذاك مستعجلا كيلا يفاجئه منع التجول. مع أنه يعرف أنه يستطيع أن يطرق أي بيت ويبقى فيه، كما يطرق أي جريح أو ثائر أي بيت ويختبئ فيه.

حرص عبد الرحيم أن يبقي على طاولته في مصنفات نسخا من المعاهدات والاتفاقات الدولية. يظن الإنكليز أنهم أذكياء يضحكون على أغبياء! يشغلوننا بانتظار اللجان ثم بالشهادة أمامها، ثم بتقاريرها. كيلا نتذكر الاتفاقيات والتعهدات المركزية التي ارتبطت بها اوروبا مع الصهيونيين! مالم يعلن بنصوص واضحة التراجع عن تلك الاتفاقيات، ستطوى توصيات اللجان!

رتب عبد الرحيم أوراقه في تسلسل زمني. كانت مكتبته منظمة. لاينسى مكان ورقة فيها. فقالت له سعاد: ليتك تتذكر مكان قمصانك كما تتذكر مكان أوراقك! لكن الحق معك، أنت تسجل تاريخ بلادنا! رد: قولي أسجل مصائبنا، وعار الاوروبيين! وأكشف للغافل أصول الأحداث التي نعيشها. يعني أذكّر بأن "هذه المطرات من تلك الغيمات". وأنبه إلى أن توصيات شو وسمبسون التي فرح بها العرب ستطوى كما طويت توصيات لجنة كينغ كرين!

وضع عبد الرحيم خطوطا تحت الفقرات التي رحب بها العرب وسموها ايجابية في تقرير لجنة شو ولجنة سمبسون. كان حريصا أن يجلس سعاد على المقعد مقابل مكتبه ويقرأ عليها التقارير والفقرات. ستتذكر بعد سنوات أنها في مثل تلك الجلسات التي يبدآنها بفنجان القهوة، تعلمت منه فحص الصيغ الملتبسة، والحصانة ضد "الايجابيات" العابرة، والصحو الذي يستعيد المسكوت عنه. لاتنبهري ياسعاد بالشهامة التي تدفع بعض الرجال إلى الاعتراف بالحقيقة! تذكري أنهم موظفون في جهاز اختارهم وأنهم يبدأون من التزاماته لامن ثوابتنا. طلب تقرير اللجنة "أن يوضع حد لإجلاء المزارعين الفلاحين عن الأراضي التي يزرعونها. وأن تصدر الحكومة بيانا صريحا عن الهجرة اليهودية وأن تدرس وسائل تنظيمها ومراقبتها لوضع حد لتكرار الزيادة في الهجرة كما وقع في سنة 1925 وسنة 1926". انتبهي ياسعاد! زيادة الهجرة لامنعها! اسمعي: "نعتقد أن

www.alkottob.com

مايزيد مشاكل الحكومة خطورة، الاستياء الذي يشعر به العرب من عجزهم دائما عن حكم أنفسهم". صحيح! لكن انتبهي! فالحكم الذاتي ليس استقلالا! اسمعي! يرى التقرير ضرورة "أن تجهر الحكومة بأن المكانة الخاصة المسموح بها للجمعية الصهيونية لاتجيز أن يكون لها نصيب في حكم فلسطين كما جاء في الكتاب الأبيض سنة 1922". لنا، المسألة أن الوكالة اليهودية يجب ألا توجد! لكن تقرير شو مقيد بنص الانتداب الذي يلتزم بوعد بلفور! أرأيت كيف تسوقنا اللجان إلى التفاصيل فتبعدنا عن مركز المشكلة؟ إذا انسقنا إلى هذه التفاصيل وغرقنا في متابعة توصيات اللجان، سنكون كمن قبل المعاهدات الدولية التي سرقت بلدنا! في تقرير لجنة سمبسون "ايجابيات" أيضا! اسمعي! ذكر التقرير أن اليهود يدخلون فوق حصتهم المقررة من المهاجرين "بضعة آلاف بصفة سياح لاتنتبه الحكومة إلا إلى القليل منهم... وعددا آخر بالتهريب.. ولايمكن مراقبة الهجرة إلى فلسطين بصورة جدية مالم تتخذ الإجراءات لعقاب الذين يدخلون خلافا للقانون. فمن الواضح أن الوكالة اليهودية هي المسؤولة عن جميع الحوادث المخالفة للقانون". هذه حقائق ثبتها التقرير. واستنتج أن "هذه الهجرة سببت حرمان العرب من العمل ويجب على الحكومة المنتدبة بمقتضى صك بلفور أن تخفض أو توقف الهجرة". أرأيت ياسعاد العودة إلى المعاهدات والصكوك؟ لكني أرى أن قيمة التقرير في هذه الفقرة: "لليهود جمعيات خاصة لشراء الأراضي في فلسطين لكن هذه الجمعيات تسير كلها على نظام خاص وضع أسسه وأهدافه دستور الوكالة اليهودية. ففي المادة الثالثة من هذا الدستور: تسجل الأراضي باسم صندوق رأس المال القومي اليهودي، وتبقى مسجلة باسمه إلى الأبد، كما تظل هذه الأملاك ملكا للأمة اليهودية غير قابل للانتقال. وتنشّط الوكالة الاستعمار الزراعي بواسطة العامل اليهودي، والمبدأ العام في جميع الأشغال والمشاريع التي تقوم بها الوكالة وتنشّطها هو استخدام اليهود. وفي نص المادة الثالثة والعشرين من عقود الايجار التي تحررها جمعية كيرين كايميت لليهود الذين يستأجرون الأرض منها: يتعهد المستأجر بأن يجري جميع الأشغال من فلاحة الأرض وزراعتها بعمال من اليهود، وإذا خالف المستأجر هذا الشرط دفع عشرة جنيهات فلسطينية عن كل مخالفة، ويعتبر استخدام عمال من غير اليهود دليلا قاطعا على الإخلال بهذا العقد". لنا، المهم أن يكشف تقرير بريطاني هذه الحقائق التي تعني سلب الوطن من شعب عربي وحشوه بمهاجرين لنقله إليهم كوطن! وأن يبين التقرير أن حالة الفلاح العربي ساءت لأن "الأراضي الزراعية نقصت بمقدار مليون دونم انتقلت إلى اليهود".

www.alkottob.com

ستحفظ سعاد في ذاكرتها من الأمسيات التي جمعت بينها وبين زوجها في مكتبه أنهما جلسا دون أولاد ودون ضيوف. وسيبدو لها أنه وقتذاك فقط كان ينصرف إليها. وستنسى أنها من تلك الأيام كسبت عادة فحص الصياغات، والشك في لجان الاوروبيين، وستسبق عبد الرحيم أحيانا فيوافق مبتسما على رأيها.

قالت له سعاد يوم قرأ لها تقرير شو وتقرير سمبسون: هذا اعتراف إنكليزي بالظلم الذي ينزل على العرب! رد: يفيد السياسي من ذلك. لكننا إذا بالغنا في "الايجابيات" نسينا أن البداية صك بلفور. هذا الصك مرفوض لدينا. لأنه وهب أرضا لايملكها لغرباء عنها! صك الانتداب مرفوض أيضا لأنه نصب الإنكليز أوصياء على شعب لم يخترهم، ووكلهم بتفيذ الصك! فتح عبد الرحيم مصنفه، تناول ورقة وقرأها لسعاد. انتبهي إلى صك الانتداب على فلسطين، ياسعاد! وافقت دول الحلفاء على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ وعد بلفور "لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين". انتبهي! اعتبر صك الانتداب العرب "طوائف غير يهودية موجودة الآن في فلسطين" يجب ألا يضر تنفيذ وعد بلفور بحقوقها المدنية والدينية. هل لاحظت أنه لم يذكر حقوقها الوطنية؟ لأنه لم يعتبرها شعبا بل طوائف غير يهودية! لكن صك الانتداب اعترف "بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين وبالأسباب التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد". ستتكرر هذه الصيغة في بيانات أخرى تثبت السرقة، لاكأراض فقط بل كوطن! يطلب صك الانتداب من سلطة الانتداب أن تضع "البلاد في وضع اقتصادي وسياسي وإداري يضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي". ويعترف بوكالة يهودية تقدم المشورة للحكومة وتتعاون معها. "يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة" للتعاون على "جمع اليهود الذين يبغون إنشاء وطن يهودي". و"تسهل هجرة اليهود بالتعاون مع الوكالة اليهودية". و"حشد اليهود في الأراضي الأميرية والأراضي الموات". وتسهل سلطة الانتداب "اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهود". "وتتفق مع الوكالة اليهودية لتسيير الأشغال والمصالح والمنافع العمومية وترقية مرافق البلادالطبيعية". معنى هذا أن الانتداب أتى ليؤسس دولة يهودية في فلسطين، بالهجرة، وبالمشاريع، وبجيش يهودي يهرب له السلاح. يسهر الإنكليز على تأسيس بنية اقتصادية وسياسية وعسكرية مؤهلة لطرد العرب. أفهمت ياسعاد، لماذا يجب ألا ننشغل باللجان عن صك الانتداب؟ كشف شكري العسلي في مجلس المبعوثين أن الصهيونيين أسسوا دولة سرية ذات علم ونشيد وبريد ومدارس. قتله الدونمة لأنه كشف سترهم. وهاهم الإنكليز، بعد الدونمة، يسهلون

www.alkottob.com

هذه الدولة! القتلى والاضطرابات نتيجة الهجرة ونقل الأراضي لليهود! لذلك لاأتفق مع من يضخم أن الإقطاعيين العرب باعوا أراضيهم لليهود. بل مع التنبيه إلى ماتنقله حكومة الانتداب من أراضي القرى الأميرية لليهود! مع ذلك أوافق على قتل سماسرة الأراضي. عقوبة على خيانة الوطن!

كي تسقي قلبك كما يسقى الفولاذ، تأملي بعض التفاصيل وتجاوزيها إلى مداها. اسمعي ياسعاد! هذا رجل من طولكرم كتب في جريدة فلسطين في الرابع والعشرين من آب سنة 1930 "أبيع أرضي وممتلكاتي لأن حكومة الانتداب أكرهتني على دفع ضرائب وأعشار وأنا لاأملك ماأعيل به نفسي وأسرتي. في مثل هذه الظروف ألجأ إلى غني يقرضني أتعهد له برد القرض مع فائدة مالية مقدارها 50% بعد شهر أو اثنين. فلاأستطيع ذلك، فأضطر إلى تجديد القرض مرة تلو المرة مضاعفا بذلك قيمة الدين الأصلية، وأضطر في النهاية إلى بيع أرضي لأسدد ماعلي من ديون لم أتسلم في الحقيقة إلا جزءا ضئيلا منها".

كان عبد الرحيم يتجول في مدى يبدو كأنه ينفتح له من الحوار مع سعاد. تستوقفني، ياسعاد، جملة تتكرر: "إعادة الوطن اليهودي"! فأتساءل هل وقع السياسيون الغربيون المتعلمون في شبكة الخرافات والأساطير اليهودية؟! ليسوا مطلعين على الحضارات وإلا لما تجاهلوا صناعها السوريين والمصريين والآشوريين والسومريين والبابليين! فعلى أية أسس انحازوا لليهود وبدأوا من أساطيرهم؟! ألا يدهشك أن يصنع واقع على أساس أسطورة؟ بالمقاييس القديمة عاشت قبيلة يهودية على أرض صغيرة. لم تعرف أبدا لليهود حضارة قديمة! ولارأينا آثارها! عاش اليهود على موائد شعوب المنطقة كأقلية دينية. ألا يخجل سياسيون اوروبيون متعلمون بثبيت أسطورة؟! أليس الأفضل أن يقولوا نريد أن نضع في وسط بلادكم مركزا نؤرقكم فيه وننهبكم منه؟

لم يخمن عبد الرحيم أن الصهيونية ستمد يدا إلى السياسة والعلم ويدا إلى الخرافات لتجمع العلمانيين والمتدينين معا وتحارب بهم العرب. وأن الطرفين سيبدأون من خرافة أرض الميعاد. لم يخطر لعبد الرحيم وقتذاك إلا التكهن والاستشفاف. لأن عقله ماكان ليقبل أن تكون الخرافة قادرة على خلق واقع يستر مشروعا استثماريا واستعماريا!

في تلك الأمسيات انتبهت سعاد إلى طبع قدّرته فيه. رأته يبقى على حد اليقظة دون اليأس. ويحفظ الهدوء للتفكير في مشروع العمل. فتأملته متسائلة. أهكذا يلتزم السياسي بصفاء عقله وهدوئه رغم الظلم الذي يتبينه في الوثائق وفي

www.alkottob.com

الحياة؟ هل كان خالها قدري هكذا حتى انفجر قلبه يوم أسست مستوطنة يهودية في طبرية؟ بدا لها عبد الرحيم مختلفا عن قدري، مع أنهما من رجال الدولة العربية، وعضوين في المؤتمر السوري! هل عبد الرحيم استمرار قدري في زمن آخر؟ عاش قدري وسط يهود طبرية. ولم يعرف عبد الرحيم تلك التجربة. صفد غير طبرية! لكن سعاد ليست مضطرة أن تكبح روحها! فلتشعر بحرية امرأة ليست "سياسية"! اضبط أنت كلامك، ياعبد الرحيم، أنا حرة في الجهر بالحقيقة! ستطلق غضبها في مجالسها أمام النساء وتعبّر بطريقتها عما سمعته من زوجها: العمى في عيونهم، يسرقون أرضنا ويمنعون الفلاحين من العمل كعمال فيها! لاتقولوا لي إننا سنعيش معهم كما كنا نعيش معهم في أيام الأتراك! ستتذكر سعاد التسامح الذي استقبل فيه بيت قدري اليهود العرب، وستتذكر أن من تسميهم خالاتها، مسيحيات. ستتذكر عطف بهاء على الأرمن، واحتفاله يوم عرف أن فدائييهم قتلوا جمال باشا. دللها بهاء بالبسطرمة التي اشتراها من دكان أرمني. قال لها: هم أعز أصحابي! ومع ذلك ستستقبل الطبيب بوينا في بيتها، كأنه من بقايا صداقات اليهود والعرب القديمة!

كان عبد الرحيم يعود إلى أوراقه كلما انتصر الإنكليز واليهود. أمامه قوى عالمية. يغلق على نفسه الباب وينصرف إلى أوراقه. تجمع الوثائق على تدخل عالمي في بلادنا، ونقرأ في طياتها الغش والمراوغة. هل الشجاعة والإخلاص للوطن والفداء الذي يندفع فيه رجال كسعيد العاص والقسام وآلاف الناس الذين لايطمحون حتى إلى تسجيل أسمائهم إلا على قبر، هل هذا كله ضعف وغباء أو تقصير في فهم الواقع؟

يشعر وهو يقلب الوثائق بالقهر. ينكشف له الجانب المتوحش في المدنية الاوروبية. ويتبين في هدوء المسارات الطويلة التي قدر على شعبه أن يعبرها. لن ينجز تثبيت حقوقنا في جيل، بل في أجيال! فلنشفق على أبنائنا، ياسعاد!

تجول الصهيونيون في اوروبا كأباطرة وملاكين منذ بداية القرن! فكيف أجادوا تسديد سلطتهم وبكوا في الوقت نفسه من الاضطهاد؟ هذه رسالة هرتزل إلى وزير الخارجية الايطالي: "هدف الحركة الصهيونية أن تؤسس وطنا شرعيا للشعب اليهودي. وأنا بصفتي رئيس لجنة العمل، اتصلت بجميع الحكومات التي يهمها هذا الأمر". من معه؟ حليفتنا القديمة ألمانيا! "استقبلني القيصر في القدس سنة 1898 كمندوب للحركة الصهيونية ووعد بأن يكون معنا. وظلت الحكومة الألمانية تعطف علينا منذ ذلك الوقت وجاء التوكيد في رسالة بعث بها إلي دوق

www.alkottob.com

بادن في الثلاثين من أيلول سنة 1903.. لكن أهم مساعدة تأتينا من روسيا.. أخبرتني الحكومة الروسية أن السفير الروسي في الآستانة تلقى تعليمات كي يتوسط لدى الباب العالي لأجل المقترحات الصهيونية. بيان الحكومة الروسية في آب يعطينا أكثر مما طلبنا. نحن لم نطلب دولة مستقلة في فلسطين خوفا مما قد يسببه لنا مثل هذا الطلب من صعوبات. كل مانطلبه أن يستوطن الشعب اليهودي في فلسطين تحت إمرة صاحب الجلالة السلطان. ولكن بشرط الحماية الشرعية وأن يكون لنا أمر إدارة مستعمراتنا. واحتراما لمشاعر جميع المؤمنين تخرج الأماكن المقدسة عن نطاق الحكم إلى الأبد. وكل مانطلبه من الحكومة العثمانية هو امتياز استعمار سنجق عكا، ومقابل هذا نتعهد أن ندفع للخزينة العثمانية جزية سنوية قدرها مائة ألف ليرة تركية. لذلك فإن اقتراحنا سيعود على الحكومة العثمانية بفوائد مهمة.. إن رسالة من صاحب الجلالة ملك ايطاليا يوصي فيها بمقترحاتنا ويقدم نصيحة ودية بأن ينظر في هذه المقترحات سيكون لها الأثر الحازم في إعادة فتح باب المفاوضات".

فكر عبد الرحيم: سعوا إلى ألمانيا، وروسيا، وايطاليا.. إلى البنوك والسياسيين، فأي ضغط كان على السلطان عبد الحميد إذن؟ ومع ذلك رفض أن يهبهم فلسطين لأنها أرض الأمة الإسلامية ولايملك هو السلطان بيعها لليهود! ألذلك يشوهون سمعته؟ مستبد، ويقول إنه لايملك كسلطان أن يهب فلسطين؟ لكن انتبهي ياسعاد، يشوهون أيضا زمن الدولة العثمانية! يرمون عليها تخلف القوانين والإدارة وحياتنا، متجاهلين أن القوانين التركية كانت متقدمة في زمنها. لكن استمرار أية قوانين، مهما كانت متقدمة، في غير زمنها تخلف يلام عليه من لايجددها! وهل قانون الطوارئ الذي أعلنه الإنكليز وملاحقه قوانين متقدمة أم قوانين وحشية متخلفة؟! يبدو ياسعاد أنهم لايهاجمون بلادنا فقط كأرض، بل سيهاجمون روحنا وعقولنا وايماننا بتاريخنا! سيشوهون ماضينا لنكون ضعفاء دون ذاكرة! رحلت تركيا، لكن يجب أن ننظر في عدل إلى التاريخ الذي جمعنا بها، كما قال هنانو يوم منع تمزيق العلم التركي الذي أظلنا معا أربعة قرون! سينسوننا أننا استقبلنا العثمانيين بالحرير لأنهم أتوا ليردوا الحملات على المسلمين التي استباحت شواطئنا في شمال افريقية! وسينسوننا العمارة التي شيدناها معا!

بعد تسع سنوات، في سنة 1939، سيضيف عبد الرحيم ورقة إلى وثائقه. قرار مؤتمر الهيئة البرلمانية لحزب العمال الذي يعلن أنه يعارض الكتاب الأبيض الذي صدر سنة 1939 "بفرضه حالة الأقلية على اليهود. ولأنه يجعل دخول

www.alkottob.com

اليهود متوقفا على رضى العرب، ويحدد الاستيطان اليهودي في الأرض ويناقض التعهدات التي اشتمل عليها وعد بلفور ونص عليها صك الانتداب. إن سياسة الكتاب الأبيض تمثل استسلاما آخر للعدوان، وتقدم مكافأة للعنف والإرهاب، وهي نكسة للقوى التقدمية لدى العرب واليهود، كما أنها تفرض قيودا لاتحتمل على الهجرة اليهودية.. إن هذا المؤتمر يؤكد مرة ثانية التأييد التقليدي الذي توليه حركة العمال البريطانيين من أجل إعادة إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وتعترف بأن فوائد جلى للجماهير العربية قد نجمت عن الهجرة والاستيطان اليهوديين.. يطلب هذا المؤتمر من الحكومة أن تتجاوز سياسة الكتاب الأبيض وتعيد فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية".

ستكرر مؤتمرات حزب العمال البريطاني ضرورة الهجرة اليهودية! وسيضيف عبد الرحيم إلى مصنفاته شهادة جديدة على الجانب الوحشي المتكبر في الغربيين: تصريح حزب العمال سنة 1944. "لامعنى للوطن القومي لليهود مالم يسمح لهم بالهجرة لكي يصبحوا أكثرية". "فليشجع العرب على الخروج بينما يدخل اليهود. وليجزل لهم التعويض عن أراضيهم وينظم استيطانهم بعناية في أماكن أخرى ويمول بكرم. إن للعرب مناطق واسعة فيجب ألا يطالبوا بإخراج اليهود من فلسطين الضيقة.. وفي الحقيقة يجب علينا أن نعيد دراسة إمكانية توسيع حدود فلسطين الحالية بالاتفاق مع مصر وسورية وشرق الأردن".

سيقول عبد الرحيم يومذاك في سخرية: وطنهم عزيز عليهم ووطننا يمكن أن يستبدل؟! كان يجب أن يتذكر هؤلاء الإنكليز أن اليهود هم الذين كانوا يبحثون في السوق عن وطن، أما نحن فلم نفكر باستبدال مدينة عربية بمدينة عربية! كان يجب أن يتذكروا مذكرة السفير البريطاني في تركيا في آب سنة 1910 لوزير خارجيته: "إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفا يهوديا تركيا مزدوجا. فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر والمال والنفوذ الصحفي القوي في اوروبا. وكما يتضح من الكتابات الصهيونية منذ الثورة فإن العالم اليهودي قد تحول بناظريه إلى العراق على أنها أصلح أرض مناسبة لاستعمار اليهود وتكوين دولة يهودية ذات حكم ذاتي. إن اليهود الذين يبدون في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للثورة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركيا الفتاة، ويبدون مصممين على ألا يبدأ أي مشروع هام في العراق دون إسهامهم فيه بل سيطرتهم عليه. ولكي يصل اليهود إلى مكان النفوذ في تركيا الفتاة فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية".

www.alkottob.com

هل يستطيع عبد الرحيم أن يقترح على اولئك الإنكليز أن يهدوا اليهود الاوروبيين مقاطعة بريطانية؟!

www.alkottob.com

نزلت منور إلى طبرية، وهي ماتزال في ملابس الحداد السوداء. كان بهاء مشغولا بحركة الكتلة الوطنية منذ ظهرت في مؤتمر في بيروت في تشرين الأول سنة 1927. وكان ينقل لمنور أخبارها ليؤكد لها أن الثورة لم تهدر. خلقت الثورة واقعا جديدا: سيفضل الفرنسيون بعد خسائرهم في الثورة أن يحكموا البلاد باتفاق مع الوطنيين. مقابلهم يقدر الوطنيون خسائر البلاد في الثورة وفقد قيادات الحركة كشهداء وكمنفيين، ويسعون بالسياسة إلى الاستقلال. زعماء اليوم هاشم الأتاسي، ابراهيم هنانو، جميل مردم، سعد الله الجابري، لطفي الحفار، حسني البرازي، مظهر رسلان، فارس الخوري، توفيق الشيشكلي.. يبحث هؤلاء الوطنيون عن حل بطريقة سياسية!

كان بونسو قد كلف الشيخ تاج الدين بوزارة موقتة تمهد لحكومة دستورية ترفع الأحكام العرفية، وكانت الانتخابات للمجلس التأسيسي قد جرت في أوائل نيسان للدرجة الاولى، وأواخره للدرجة الثانية. وافتتح المجلس التأسيسي في التاسع من حزيران سنة 1928 وحضر بونسو الافتتاح، وكلفت لجنة بصياغة الدستور. وكان هنانو رئيس لجنة صياغة الدستور. وكان الدستور قد أقر بالتصويت. وفي جلسة الثامن من آب سنة 1928 طلب بونسو من المجلس التأسيسي حذف ست مواد من الدستور فرفض المجلس طلبه. فأصدر في الحادي عشر من آب قرارا بتأجيل اجتماعات المجلس ثلاثة أشهر، وطلب إضافة المادة 116 التي تلغي المواد الست فرفضت، فأجل الاجتماعات ثلاثة أشهر أخرى.

كان الوطنيون قد ردوا بمظاهرات سوقساروجا على الشيخ تاج، التي تابعتها منور باعتداد. وقالت نفيسة: لو عاش خالد آغا لرأى أن ثقته بأهل حيه في محلها! اعتمد بهاء ذلك فقال لمنور: الانتقال من الثورة إلى المفاوضة منعطف كبير. لابد فيه من اجتهادات، ولابد فيه من خلاف في الرأي بين الوطنيين. وهل لدينا طريق آخر الآن؟ قادة الثورة في المنافي معذبون ومختلفون. يجتهد رجال

www.alkottob.com

الكتلة ليفيدوا ممن بقي من الوطنيين وممن سمح لهم بالعودة، وفي مشروعهم أن يعيدوا المنفيين كلهم بعفو.

رأت منور أنها تمثل أحد شهداء الثورة السورية. ويفترض أن تقبل أو ترفض مشروع رجال الكتلة! يقبل عقلها أن يدخل الوطنيون الانتخابات شرط أن يكشفوا الغش والتزوير. ويرفض قلبها أية علاقة بالمحتلين: صار بونسو يحسب لنا مقدار مايلزمنا من الحرية؟! تساءل بهاء: ألا يسمع في كلامها صوت سعيد؟! وفكر في المسافة بين رجل المثل وبين رجل السياسة الذي يتحرك في الممكن. هل علّمه العمل مع الضباط الأتراك في أيام الحرب، رغم شنق شهداء أيار، "الحركة في الممكن"؟ ليكون ثائرا مع الثوار وقت تمكن الثورة، وسياسيا وقت يمكن أن يتحرك السياسي فقط؟! لكن كيف سيحفظ خلال ذلك علاقته بحبيبته منور؟

رحلت سنة 1928. لكن الصدام بين الانتداب وبين الوطنيين وضح للطرفين أن الصراع دون ثورة هو أيضا صراع صعب يحاول كل طرف فيه أن ينتصر على الآخر. كان آب في تلك السنة حارا في سورية. لكن آب من سنة 1929 كان أكثر حرارة في فلسطين. هزت حادثة البراق ضمير الدمشقيين. وغاب بهاء في اللجان التي تجمع الإعانات للضحايا والمعتقلين الفلسطينيين. ونزلت نفيسة مع ابن الكحال إلى السوق لتجمع من تجارها مايتبرعون به.

تجولت منور في البيت بين المشرقة وأرض الدار. وقفت على السطح تحت دالية العنب لكنها لم ترفع رأسها إلى العناقيد الشفافة. راقبت العتمة حتى تكاثرت النجوم. قدرت أن بهاء سيصل بعد قليل وانتظرته. قالت له بعد أن شرب من الجرة التي برّدها النسيم رافعا الجرة فوق مستوى رأسه: ارتويت؟ ضيعت عليك شراب عرق السوس الذي أرسله البائع مع البوظ! نظر إليها وانتظر ماستقوله بعد تلك المقدمة. يابهو، خذ صدر الألماس، للمنكوبين في فلسطين! رأت رعشته! أتتنازل عن هديته وهي تعرف أنها ستباع لشخص لاتعرفه؟! بعد الثورة حاول بهاء أن يعوض منور عن حلي أهلها التي باعتها أيام الحرب العامة في بيروت. استبقى من ثمن البيت الذي باعه بعد الثورة مااشترى به لها هذا الصدر العتيق من الألماس. وفكر في برهة لاينساها أي منهما مهما ابتعدت يذكرهما بها الصدر الألماس. كان ذلك اليوم من الربيع ناعما كالمخمل، يهب عليه نسيم من بساتين وراء الدور محمل بعبق زهر اللوز. ناما تلك الليلة على السطح. أيقظهما برد الفجر فنزل بهاء ليأتي بلحاف. استوقفته كي ينزلا معا، لكن سحر النوم استبقاها. عاد يحمل اللحاف وغطاها به. وعندما استدارت عنه واضعة ذراعها تحت خدها

www.alkottob.com

أخرج الصدر الألماس وحاول أن يضعه حول عنقها فارتعشت ووضعت كفها عليه. طلب منها بكفه التي وضعها على عينيها أن تبقيهما مغمضتين. لكنها كانت قد صحت. تابعته حتى انتهى ثم استوت جالسة. سألته: هنا؟ وأنا في قميص النوم؟ لم تنتظر جوابه، ووضعت رأسها على كتفه. كيف سمح لها قلبها بأن تتنازل عن ذلك اليوم؟! استدار عنها ليضبط أساه. لمست يده: بهو، مانتبرع به هو بمقدار مانتبرع له! لا، لن يقنعه ذلك! جرحته! لو وضعت أساورها كلها في صرة وتبرعت بها لما أحزنه ذلك. قال: كل شيء إلا هذه الصدر الألماس! ردت: لاشيء يساويه! كان يجب أن يتجول بهاء في الحارات زمنا كأبيه خالد آغا كي يستعيد هدوءه، ويصبح قادرا أن يفهمها. عزى نفسه: ذات يوم سيهديها مثله، أخاه، في مكان آخر، في نهار آخر، في هذا البيت الذي ينثر فيه قلقه وسعادته.

كان بهاء قد اتفق مع شفيقة على سفر منور إلى طبرية. لكنه تردد عندما وقعت أحداث البراق. قال لمنور: مارأيك في أن تؤجلي سفرك؟ بل يجب أن أسافر الآن لأطمئن على البلاد! كاد يضحك. يبدو أنه يسمع في منور صوت خالد أيضا! قال لها مبتسما: كأني يامنور تزوجت أسرة كاملة! لم تفهمه. لكنها قالت: إذن محظوظ! اتسعت ابتسامته: صحيح! محظوظ! هذه سخرية يابهاء؟ لا، يانوّارة، هذه حقيقة! وجرفه حنين إلى مايتجاوز هذه البرهة. ألا يتمنى رجل أن يكون له من مثل هذه المرأة ولد؟ قال: إذن سافري إلى طبرية!

بعد أحداث البراق كانت سعاد غارقة في مشاغل البلاد. فتمنت أن تؤجل منور سفرها إلى طبرية. ياخالتي، لاوقت لننشغل بها! ردت شفيقة: لن تأتي منور أبدا إذا انتظرنا الوقت المناسب! أم أنا مخطئة ياسعاد؟! الحق مع الست شفيقة! بعد الثورة السورية انشغل عبد الرحيم بالوطنيين السوريين اللاجئين إلى فلسطين. قال لسعاد: رجال ميسورون وجدوا أنفسهم دون عمل ودون مال! يبحثون عن شغل يكسبون منه، كي يستبقوا الإعانات للمنفيين في الصحراء وفي سوريا. وافقته سعاد: يتكئ أحدنا على الآخر! وذكّرها بأنهم أصحابه الذين درس معهم في استنبول أو رافقهم في المؤتمر السوري. فهل يغيب عنه مابهم؟ ترفعهم موجة وتهبط بهم موجة، ياسعاد، وهم يتابعون الأحداث في سورية، فتذهب رسائلهم وتروح في السر وفي العلن. أعرف، ياعبد! كدنا نحتفل يوم وصل خبر من سعد الله الجابري عن فوز الوطنيين في الانتخابات، والأمل في العفو عنهم. أولمنا وليمة كبرى! لكن لاتتصوري، ياسعاد، أنهم يقبلون عودة بشروط! ضعي نفسك مكانهم! يقلقهم الخلاف بين عادل أرسلان وسلطان الأطرش. يجهد صاحبنا

www.alkottob.com

شكري القوتلي كي يجمع المختلفين! أحترم هذا الرجل! لديه أراض في منشية عكا يحاول أن يساعد بها زملاءه السوريين، ويحتاج هو نفسه في حيفا المال كما يحتاجونه! سعيت لبعضهم بعمل في دكان ثم خجلت من ذلك. لولا تقسيم الشام لتاجروا بالفواكه الشامية. لكن الجمارك تقطع الطريق على المزارعين الفلسطينيين والأردنيين فكيف تفتحه للسوريين؟! لدينا مشروع للزراعة في وادي بيسان مع شكري القوتلي وأغنياء فلسطينيين. لدينا أمل بأن يدخل السوريون في مشاريع طلعت حرب. وأن يفيدوا من تأسيس عبد الحميد شومان البنك العربي. لكن هل تتحقق تلك المشاريع؟ أوصلت شيكا من رياض الصلح لنبيه العظمة بعشرين جنيها. فهل تقدرين كم يضحي الوطنيون؟! وهاهي أحداث البراق تشغلنا معهم بلجنة لإغاثة منكوبي البراق. ويلنا هؤلاء، وويلنا المنفيون السوريون الذين يجوعون في نجد!

قالت شفيقة لسعاد: سنستقبل منور! لكن ياحسرتي، ماذا نستطيع أن نقدم لها من الأفراح! البلاد حزينة على الشهداء! علقت سعاد: تأتي منور، إذن، لتشاركنا الأحزان! أسس المنفيون السوريون في فلسطين لجنة لجمع التبرعات لضحايا الأحداث. فلتنضم إليها منور! هذا وقت المزاح، ياسعاد؟ أرسلها بهاء لتبدل الجو! ياطالب الترياق في العراق، ياخالتي! اسمعي ياسعاد، لن نضع الحزن في الجرن أمام منور! لن نعيد أمامها ما نحكي عنه طول النهار!

يوم وصلت منور إلى طبرية كانت أحداث البراق طرية، وسعاد تنتقل مع عبد الرحيم من القدس إلى الخليل، لتزور العائلات التي أصيب رجالها أو اعتقلوا. وكانت توقد غضبها من بلاغ المندوب السامي، لتؤكد لمستمعيها: "مصيبتنا في اليهود أتت من الإنكليز". هل كانت تبشر بدعوة القسّام؟ فحصتها شفيقة وهي تدافع عنه. وشعرت بأنها تخفي عنها سرا. سألتها فجأة: هل تعرفينه؟ جفلت سعاد وزاد ذلك من شكوك شفيقة! هل تضحك عليها سعاد بجوابها: لست من الزعماء ياخالتي كي أقابله! تعرف شفيقة أن القسام يجتمع في جامع حيفا الكبير بالفلاحين والفقراء. وأنه يقابل النساء. ظننت، ياسعاد، أن عبد الرحيم من رجال القسّام! فحصت سعاد خالتها: هل سمعتنا نقول ذلك، ياخالتي؟ اطمئني ياسعاد، لم تبوحي لي بسر! هذا كلام قلبي لازلّة لسانك! لنقل إذن إن المندوب السامي يدفع لك كي تذيعي بيانه! أو أنك استحليت كلامه كأنه قصيدة! اطمأنت سعاد على سرها، وابتعدت عنه. ياخالتي، أردد بيان المندوب السامي ليفهم من لم يفهم بعد أن الإنكليز أعداء يجب ألا يبحث عندهم عن الدواء! لو كان سعيد حيا لألقى أمامنا

www.alkottob.com

بيان الملعون كأنه يلقيه على مسرح! هل تذكرين ياخالتي كيف كان سعيد يلقي فرامانات الأتراك كأنه يمثل مسرحية؟

لم تلتزم سعاد بوصية شفيقة. بعد ساعات من عناق الاستقبال، تصنعت الأسى وألقت أمام منور بيان المندوب السامي. وضعت مرات كفها على قلبها، وتظاهرت مرات بأنها تمسح دموعها.

"راعني ماعلمته من الأعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الأشرار سفاكي الدماء عديمي الرأفة، وأعمال القتل الوحشية التي ارتكبت في أفراد من الشعب اليهودي خلوا من وسائل الدفاع، بقطع النظر عن عمرهم وعما إذا كانوا ذكورا أو إناثا والتي صحبتها، كما وقع في الخليل، أعمال هجومية لاتوصف وحرق المزارع والمنازل في المدن وفي القرى ونهب الممتلكات وتدميرها .

إن هذه الجرائم قد أنزلت على فاعليها جميع لعنات الشعوب المتمدنة في أنحاء العالم قاطبة. فواجبي الأول أن أعيد النظام إلى نصابه في البلاد وأن أوقع القصاص الصارم باولئك الذين سوف يثبت عليهم أنهم ارتكبوا أعمال العنف... وبناء عليه أطلب من جميع سكان فلسطين أن يساعدوني على القيام بهذا الواجب.

وفاقا لتعهد أعطيته للجنة التنفيذية العربية قبل مغادرتي فلسطين في شهر يونية الماضي، تناقشت أثناء وجودي بانكلترا مع وزير المستعمرات في شأن إجراء تغييرات دستورية في فلسطين، غير أني سأؤجل هذه المباحثات مع حكومة جلالته بسبب الحوادث الأخيرة".

غام وجه منور وهي تستمع إلى سعاد. فأسرعت شفيقة وجرتها إلى البستان: تعالي، تفرجي على الزهور التي زرعتها!

هل أتت منور لتعرف هنا زوج أختها الذي لم تره إلا مرات يوم زارت أختها في صفد؟ بل لتعرف الست شفيقة! لكن آه، ليت الدنيا بقيت كما عرفتها في الطفولة! يوم كان آخرون مسؤولين عنها وعن مصير بلادها! كانت طبرية بحرة للسباحة، وبيت قدري سندا ظهره إلى الجبل وامتداده في البلدة. لانقدّر ياخالتي مايحمله أهلنا كي نسرح ونمرح في الأحلام إلا عندما نصبح دونهم!

كانت سعاد ماتزال تلبس الملابس القاتمة! لكن رغم سواد الملابس تجري الحياة في بيت قدري كأنه سيطرق الباب بعد برهة! وكأن سعيدا سيكون في رفقته! مرة أخرى أطباق من خضار البستان! مرة أخرى شراب الليمون الذي تقدمه شفيقة

www.alkottob.com

لضيوفها وتؤمن بأنه ينعش القلب! مضغت منور بصعوبة غياب قدري، وفهمت أن شفيقة تحاول أن تعوض عنه. ثم غاب كل ذلك في حديث عبد الرحيم وشفيقة. تبدو الآن آثار حوادث البراق! لا، ياست شفيقة. حادثة البراق كشفت مشروع المستوطنين اليهود ومراكبهم التوراتية. قد ترين ايمانهم باستعادة الهيكل وأرض الميعاد خرافة غبية. لكن هذا الحمق يخدم المشروع الذي وضعه أغنياؤهم ومفكروهم ويؤسس لهم جيشا عنصريا. نحن أهل البلاد، ونحن الأكثرية، ومع ذلك يهاجمون مقدساتنا ويقتلوننا. فماذا يحدث لو كانوا هم الأكثرية؟

فحصت منور أختها واستنتجت أنها غارقة في أشغال عبد الرحيم. وبدا لها أن سعاد وجدت هواها. لكن منور حاولت أن تصيد علاقة أحدهما بالآخر، العلاقة الحميمة بين زوجين، لتطمئن على أختها! ولاحظت منور أن قلبها يخفق وهي تحاول أن تتسلل إلى تلك العلاقة. كان عليها أن تخترق الظاهر الذي يلتزم به عبد الرحيم كزائر وشفيقة كمضيفة. جرى زواج سعاد الثاني بعيدا عن منور. فلم تعرف عبد الرحيم إلا يوم أتى إلى دمشق بعد مقتل سعيد، ويوم زارت أختها في صفد لتعنى بها بعد الولادة. وهل كان يشغلها وقتذاك أن تفحصه؟! رأته بعد ذلك، لكنها لايمكن أن تدعي أنها عرفته!

أوهن الكلام والطعام والوقت تحفّظ الزوار وصاحبة البيت؟ نهض عبد الرحيم وحمل فنجان القهوة لسعاد: خذي "خيتا"! حمل لها وسادة لتضعها وراء ظهرها. فقالت له: عبد، كفى! هذه هي العلاقة بينهما إذن! لم يبق إلا أن تمنّ عليه بأنها تزوجته! همست لها منور: سعاد خانم، لايرضينا الزوج الظالم، ولاالزوج الذي يدللنا؟! ابتسمت سعاد: منور خانم، لم أعد صغيرة، ولسنا في بيروت!

قلبت سعاد الحديث إلى شكري القوتلي الذي درس مع عبد الرحيم، وهاهو مع المنفيين في حيفا. نعم، يزورنا ونراه! لديه أرض في منشية عكا. يفكر في مشروع زراعي في بيسان. يشجع السوريين على الاشتراك معه في المشروع. نريد أن نواجه المستوطنات بمشاريع؟ لكن أين لنا مثيل المال الذي يجري على المستوطنات من المنظمة الصهيونية!

نشر عبد الرحيم أحزان السوريين في المنفى. يسند الفلسطينيون من عندهم من السوريين. خلال الثورة السورية أسس الفلسطينيون لجانا لجمع التبرعات لضحايا الثورة. والآن يؤسس السوريون لجنة لجمع التبرعات لضحايا الأحداث في فلسطين. وتصل المعونات إلى لجنة القدس لتسند المنفيين السوريين في الحجاز ومصر وسورية! هذه حالنا، يامنور خانم! يجوع الوطنيون الذين حملوا البلاد على

www.alkottob.com

أكتافهم! المحظوظ منهم من يعيش على مايرسله له أهله في الشام! نشاطر بعضهم بيوتنا. نصحنا نبيه العظمة بأن يشتغل بتصدير الأقمشة السورية لكن يبدو أن ذلك صعب!

اشتهت منور أن تزور بيت أختها في صفد. يوم استقدمتها سعاد لم يكن لديها الوقت لتستمتع به! وجدته يومذاك كبيرا، قصرا. فسألت أختها مداعبة: ستملأينه بالأولاد؟ وردت سعاد: ربما، يحب أهل فلسطين الأولاد! عبد مثل خالك قدري، كان من أعضاء المؤتمر السوري! يلزمني ولد لكل بلد من بلاد الشام! سعاد خانم، كلفوك بواجب تحرير البلاد من الانتداب؟ كم ضحكتا يومذاك! تنقلت منور في البيت وعبرت لسعاد عن إعجابها بعمارته. قالت لها سعاد: كلف ملء الحضن من الليرات الذهبية في أيام تركيا! مع ذلك سألتها منور: كيف أحوال زوجك؟ أحواله يامنور خانم؟ يحمل موكلوه الأجر أحيانا دجاجة، وأحيانا كيس برغل! ويدافع عن الوطنيين مجانا! واجبه! وننفق على الثورة! سعاد خانم، تعيدين سيرة أهلك! من شابه أباه فما ظلم، يامنور! لكن منور تبينت جانبا آخر: الوجاهة! أكدت لها سعاد: نحن في بلادنا محترمون! أينما ذهب عبد يقفون له ويستشيرونه!

استعادتا الحديث عن الأولاد الذين تريد سعاد أن تملأ بهم بيوتها. ولم تشعر منور بغصة. لكن شفيقة أغلقت الباب بعد يومين وقالت لها: سنستشير تورنس غدا! يجب أن يفحصك! انتفضت منور: من طلب منك ذلك؟ يامنور، لاأحتاج من يطلب مني مايجب أن أعرفه! عند ذلك شعرت منور بالجرح. وتفادت شفيقة حتى المساء. نزلت إلى شاطئ البحرة ومشت حيث كانت تمشي عادة. أطلت على الغرفة التي كان يعدها قدري للأسرة في الصيف على شاطئ البحرة. اشتهت أن تسبح. وفهمت أيام السعادة والدلال التي عاشتها في بيت خالها في طبرية. لو شعرت بذلك يومذاك أما كان مذاقه يتضاعف؟! خلال نزهتها فحصت كلمات شفيقة وفهمتها في حدودها. تقلق شفيقة على الغرباء أفلا تقلق على ابنة أختها؟ هل تستند منور، دون أن تعترف لنفسها، إلى أن أمها لم تنجب زمنا ثم أنجبت؟ هل تهرب منور من الأمومة، وثقل الأولاد، والقيود على الحرية؟ يغرها الشباب؟ وإذا مرت السنوات في سرعة وبقيت وحدك مع بهاء في بيت واسع؟ لاتهربي من تجربة الأمومة يامنور! قدّري أن بهاء لم يقل لك كلمة عن رغبته بولد. ولكن أيمكن ألا يتمناه؟

راقبتها شفيقة وقالت لنفسها: سيرجع عقل الرحمن إليها! في الصباح أتت منور مزهرة بقميص نوم أبيض. سألتها شفيقة كأنها نسيت حديثهما أمس: مازلت

www.alkottob.com

تحبين قمصان النوم البيضاء؟ ردت: كان خالي أيضا يحب اللون الأبيض! شربت منور كأس شاي، وأكلت كأس حبوب. ياخالتي، متى سنذهب إلى تورنس؟ اشتقت إليه! سيستقبلنا متى أردنا، يامنور. لم ينقطع تورنس عن زيارتنا أبدا! كأن قدري مازال حيا!

لاتحب منور هذا الفحص الطبي! متى ستشعر النساء بأن من يفحص عيونهن كمن يجوس في أعماقهن؟ لن يشعرن بذلك أبدا! كشف الحميم من الجسم صعب، لن تقبله النساء إلا وقت الضرورة! لم يتعودن بعد كشف أجسامهن على شاطئ البحر، ولم يلبسن بعد ملابس قصيرة! وهل كشف الجسم على الشاطئ مثل كشفه لطبيب ينقب فيه والمرأة تنتظر حكمه؟

ألهاها تورنس عن نفسها بالحديث عن قدري. كان مرضه يامنور، الحزن! أتعرفين أن الروح تمرض أيضا؟ مرضها يوهن الجسم فيوهم بوجع هنا ووجع هناك. لكن الدواء في مستوى الوجع! كان يجب أن أغير القدر لأشفي قدري. أغرقها في علاقاته بقدري: تصعب مداواة رجل مثل قدري. لاأستطيع أن أوهمه، ولاأستطيع أن أؤمله. مع ذلك كان يمكن أن أذكّره بواجبه نحو الحياة. احترام الحياة واجب عظيم، يامنور! لذلك نداوي الناس، ولذلك يجب أن يسعوا إلى الشفاء! لاتظني أننا نعرف كل شيء. فالإنسان مثل هذا الكون. فيه الكون! ونحن معا نكتشفه! يحيرني، يامنور، أنك سليمة. أشار لها بقبضته: رحمك هكذا! شاب ونضر! عاينت مرة امرأة تنزف ومع ذلك لاتجهض. فهمت أنها لاتريد طفلا. فقلت لنفسي ذلك سبب النزف! هل أقول لك لاتريدين طفلا لذلك لاتحملين؟! لاأدري! أخشى أن تقولي للست شفيقة إن تورنس صار كالمشعوذين. نصيحتي: كلي ونامي وتنزهي واسبحي في حمامات طبرية. اتركي هموم البلاد واستمتعي الآن بحمامات طبرية! هل كان يخمن أن الحمامات التي أدارها خالها ستصبح ذات يوم محرمة عليها!

حسبت منور سنوات زواجها من بهاء فوجدتها الحرب العامة، والمجاعة، والثورة السورية. صحيح! هل كان يمكن أن يجد الطفل لنفسه مكانا فيها؟! سألت شفيقة تورنس: أخرجتم الزير من البئر؟! تركناه معلقا بالحبل، ياست شفيقة! تركنا مصيره لمنور! تنفست شفيقة في عمق وهي تنظر من نافذة مكتب تورنس إلى الحديقة. زادت زهورها وخضرتها! بفضل حرارة طبرية هذا الجنون في الخضرة؟ لكن لو خيرت ياتورنس لسكنت في عكا مع ابن قدري!

التزمت شفيقة بنصائح تورنس. أطعمت منور من خضارها وثمارها. ياخالتي

www.alkottob.com

لست ضيفة كي تطبخي كل يوم! في الشام يامنور رطوبة. رأيت الناس يرفعون الطعام على قفص معلق في السقف. ورأيتهم ينزلونه إلى بئر البيت. طبرية حارة لايبقى فيها الطعام من يوم إلى يوم! مع ذلك لاتستطيع منور ألا تشعر بالحفاوة بها. قومي إلى الحمامات! كل يوم ياخالتي؟ قومي، يأتي الناس من بيروت والشام ليسبحوا فيها! ستشتهينها!

وصل بهاء بعد أسبوعين من غياب منور. فاجأها وهي راجعة من الحمام موردة وراغبة في النوم. غمرها شوقه ولهفته. الآن وهي لاتقوى على فتح عينيها؟ فهمت من كلمتين فقط سماوات وبحارا وسهولا من الحب. لم يستطع أن يكتم شوقه إليها أمام شفيقة: كيفك يامنور؟ كيفك؟ موهت شفيقة أشواقه لتخفي الحرج: ألاتراها سمنت وتوردت؟

بقي ثلاثة أيام فقط. غاب منهما يوما واحدا في حيفا بعيدا عن منور. يؤدي مهمة؟ فليكن! لم تسأله. قال لها: أتيت لأني اشتقت إليك! فكلفوني برسالة! فهمت؟ أضاءت عيناها أنوار زرقاء، وهزت رأسها هزة خفيفة. كان محملا بعلب الحلويات الخشبية، وبعلب مثلها من الفواكه المجففة، وبالقمر الدين الذي تحبه شفيقة. وكان يحمل تنكة فلّ مزهرة!

عندما بدأ يتحدث عن انتخابات المجلس التشريعي غمزته شفيقة ونهضت: تعال معي إلى البستان لنقطف الباذنجان والبندورة! وعندما أتت سعاد مع عبد الرحيم قالت لها شفيقة: اسمعي، لن نمضي الوقت في أحاديث توجع القلب. نعرف مايحدث! لاتملأي بيتي بالقتلى والثورة والعرب واليهود! وأفهمي زوجك ذلك!

شعرت منور أن بهاء صاح. فتحت عينيها فوجدته يتكئ على مرفقه وينظر إليها. سألته بنظرتها: لماذا؟ لمس جبينها: أتعرفين أن جبينك رائع؟ بعد هذه السنوات اكتشفته؟ رفع كفها ولمس أصابعها. مأأضيق الكلمات! أحبك فقط؟ فقط؟ اسمعي، ابقي هنا حتى تشبعي من طبرية! أنا ودمشق ندبر أنفسنا دونك!

تساءلت منور فيما بعد وتورنس يبتسم: أكانت تلك الليلة الرقيقة وبهاء يوشك أن يعود إلى الشام، هي التي بدأت فيها صياغة معتصم؟ يبدو لي، يامنور، أن الشجرة التي تزرعينها دون حب تنمو عرجاء وقد تموت. يحتاج كل شيء أن تعطيه روحك! أن تفكري فيه فقط، وأن تمتلئي به! أنت حامل، يامنور!

أرسلت شفيقة تلغرافا لبهاء. وأتت سعاد إلى طبرية فأقامت يومين. قالت منور: اسمعوا، لست عاجزة! لاأريد الحمل إذا كان يعني ألا أشتغل وأسبح

www.alkottob.com

وأمشي! وأكدت ذلك فزرعت في طرف بستان قدري شجيرة الفل التي حملها بهاء معه في تنكة. أستبقي هذه الفلة عندك ياخالتي! لعلها تصبح مثل شجيرة الفل التي كانت أمي تحبها في مزرعة أهل سيرين، وكنت تحبينها!

تذكرت منور، وبهاء يحمل تنكة الفلّ، أن الفلّ يرتبط بشكل ما بعلاقتها ببهاء. فلتقل إنه رمز لها كما ترمز الوردة الدمشقية إلى دمشق! تذكرت الكيس المليء بزهر الفلّ الذي حمله لها بهاء في بيروت. فهل أتى بتنكة الفلّ من دمشق ليذكرها به؟ أم لأنها لاتشرب قهوتها في أيام الفلّ إلا وزهرته قرب فنجانها، ولأنها تضع فلة قرب كأس الماء! يعرف بهاء أنها تحب الزنبق الشامي وتزرعه في أحواضها. فلماذا اختار الفلّ؟ كي يذكرها بيوم بيروت والناس يتفرجون عليه وهو يحمل كيسا يفوح منه الفلّ؟ لعل الفلّ سيكون أيضا رمز ابنها! للناس أبراج؟ فلتقل للناس أزهار تفوح منهم ويعرّفون بها! قال لها بهاء بالفلة مالم يقله بالكلمات. وترك لها ماتنصت إليه في غيابه!

كانت سورية ماتزال مشغولة بالجمعية التأسيسية. وغرق فيها بهاء. لكن التلغراف الذي تلقاه من شفيقة جعله يسرع إلى نفيسة ليقرأه عليها. ثم مشى في الحارات. لاتسعه الدنيا! نعم، لاتسعه! أحب الستائر التي تخفق في النوافذ، أحب أرض الحارات المشطوفة، أحب باعة البطيخ والصبار والعنب، أحب رائحة الجدران التي طينت بالأمس وفاح منها اللبن والطين. أحب الجدران المدهونة بالكلس. وأحب المقاهي والبساتين والباعة والأنهار. فليعترف لنفسه الآن بأنه تمنى ولدا من منور. تمنى ولدا؟ بل تمناه منها! فماذا يعني له ولد ليس منها؟! أرسل تلغرافا لشفيقة: ياست شفيقة أرجوك أن تعتني بمنور! هل يريدها أن تعود؟ يجب أن تستقر البلد أولا! تستقر؟! وهل فلسطين أكثر هدوءا وأمنا من دمشق، يابهاء أفندي؟! مد ذراعيه ورفع رأسه إلى السماء: هذا الولد فقط! احفظيه واحفظي منور أيتها الدنيا!

www.alkottob.com

يامنور، لاتشغلي بالك بما يحدث خارج البيت! لن تمنعي الاصطدام بيننا وبين اليهود والإنكليز! ولا الصراع بين السوريين والفرنسيين! سيبقى كل ذلك في انتظارك بعد ولادة ابنك بالسلامة!

حرّمت شفيقة على سعاد وعبد الرحيم الكلام عن الأحداث. لامتها سعاد: في هذا البيت لم تكن أحاديثنا، طول عمرنا، عن الطبخ والثياب! تريدينا أن نغرق فيها الآن، ياخالتي؟! اسمعي ياست سعاد! احكي في بيتك ماتشائين! هنا التزمي بخوفنا على منور! تحبين بهاء؟ فكري في رغبته بولد، إذا لم تفكري في أختك!

في بيت قدري ابتكرت سعاد مرة من منديل أهداه عثمان باشا لأمها، وردة وقميصا. وأظهر ذلك الثوب جمالها في العرس الذي حضرته، ونبه إليها أهل زوجها الأول حمدان. بعد طلاقها منه انشغلت بالخياطة كأنها كانت ستجعلها مهنتها. في بيت قدري سمعت شفيقة تعلم سيرين طبخ الصيادية وتنبهها إلى المردقوش في الكبة النيئة. لكن ذلك كان محطات بين حوادث البلاد. وكانت "البلاد" تمتد من بغداد إلى المغرب، تقام المآتم والأفراح في بيت قدري مع كل مأتم أو فرح فيها! تخرق الآن شفيقة تقاليد بيت قدري لأجل منور! ياخالتي، تتصورين أن الجنين يتعلق بأمه بخيط؟ ياسعاد خانم، علّميني كيف يتعلق الجنين بأمه، أنا التي ربيت أولاد قدري وتلقيتهم على يديّ! ياخالتي، يجب أن يسمع حتى الأطفال في الأرحام أنين الجرحى والمقتولين في بلادنا! أسمعيهم أنت، ياسعاد خانم، الأنين والرصاص عندما تحملين! منور في عهدتي. أنا التي أفرض مايجب أن تسمع هي وجنينها! حدقت شفيقة في سعاد متحدية. هل تذكّرها بأنها أجهضت في مستشفى تورنس؟! لا، لن تندفع شفيقة إلى ذلك بالغضب! يستغل النذل، فقط، مايعرفه لينكأ الجرح المندمل. فلو بقي الجنين أكانت سعاد تتخلص من حمدان!

لم تكن منور تحتاج تلك الحماية. أصابها نعاس جعلها تنام ساعات طويلة في النهار. لم تعان من دوار. لم تطلب فاكهة أو طعاما خاصا. لم تشتهِ كأمها

www.alkottob.com

اللوز الأخضر الذي بحث عنه يوسف بين أزهار اللوز ووجده كما يجد كنزا. استسلمت للنوم حتى في الصباح. رأتها سعاد تقاوم ثقل جفنيها لتبقى جالسة معها. فقالت لها: نامي! ولم تعترض منور فانسحبت وتركتها. ياخالتي شفيقة، لم أفهم أن النوم سلطان حقا حتى رأيت منور في هذه الأيام! لعله السلطان الوحيد الذي تستسلم له!

في الشهر الثالث من الحمل قال لها تورنس راضيا: كل شيء تمام! منذ الآن يجب أن تمشي ساعة على الأقل في اليوم! لاتقفي، بل امشي. ياست شفيقة، حرّمي عليها جلي الصحون والطبخ. احمها من الدوالي الملعونة! أريدك يامنور أن تتنفسي في عمق وأنت تمشين قرب البحرة. تنفسي هكذا!

بعد الشهر الثالث انتهت رغبة منور بالنعاس. رجت شفيقة أن تتركها تقطف الفاصولياء والبندورة من البستان! ونفذت وصايا تورنس في دقة. تذكرت أن النساء يقفزن أو يحملن أشياء ثقيلة كي يجهضن، فتركت ماقطفته من الخضار كي تحمله زوجة البستاني. عادت إلى تورنس وسألته: كم ساعة أستطيع أن أمشي؟ قدّر غيرتها على الطفل: تريدينه أن يأتي صحيحا وجميلا؟ تستطيعين ذلك بالإرادة! اسمعي الغناء. انتبهي إلى العصافير في الصباح والمساء. فكري في ماء البحيرة. انتبهي إلى الضوء والظلال. ألم تلاحظي في البحرة تيارات من الماء؟ تستطيعين أن تسبحي يامنور! أعرف أنك تحبين السباحة في بحرة طبرية! قرري أنت متى تكتفين من المشي ومن السباحة. لاتصلي إلى عتبة التعب!

وهنت مراقبة شفيقة عندما رأت حرص منور على طفلها. لم تر امرأة مثلها تهب روحها لجنينها! وبدا لها أن منور تمضي أكثر الوقت قرب البحيرة أو في البستان لتخلو بالطفل الذي تنتظره. لابد أنها تحاوره، لذلك قل حديثها مع زوارنا. هل هذه منور جديدة؟ أين كان هذا الحرص على الطفل قبل اليوم وهي ترفض أن تكلمها شفيقة عن طبيب يفحصها؟ يبدو أن كل جانب من جوانب روحنا يفتح في أوانه!

وصلت برقيات من شفيقة إلى بهاء تطمئنه: كل شيء عندنا تمام! لذلك اندفع في مشاغله طوال سنة أمضتها منور بعيدة عنه في طبرية. أرسلت نفيسة مرجانة فنظفت بيته. لكن مرجانة كانت تقول لنفيسة كل مرة: فراشه مرتب، أرض الدار مشطوفة، والسطح نظيف. أوراق الشجر في كيس قرب الباب جاهزة ليرميها. وجدت مرة فقط الياسمين في أرض الدار لم يكنس! لم تتصور نفيسة خالد آغا يكنس أو يشطف. لم يكن ذلك يناسبه في خيالها! فكيف يختلف بهاء

www.alkottob.com

عن أبيه في هذا التفصيل؟! سألته: يابهاء، لديك الوقت لتشطف أرض الدار؟! بم يرد؟ قال لها: يانفيسة خانم، يربى الرجال في بلادنا كالمقعدين. لاأحب ذلك! أفترض أن واجب الإنسان أن ينظف المكان الذي يعيش فيه. لو كنت أستطيع أن أشطف الحارة أمام بيتي لشطفتها، لكني أخشى كلام الجيران! ابتسمت نفيسة وهي تتصوره يشطف الحارة: لن يلومك الجيران، يابهاء! لكن مرجانة ستقوم بالواجب!

لمحت نفيسة أنوارا تضيء وتخبو على وجه بهاء. هل أثارت شوقه إلى منور؟ أبعد عنها نظرته. لن يقول لها إنه يشطف أرض الدار كي يشعر بمنور. وإنه يكرر حركاتها، يملأ السطل من البحرة ويسفحه على الأرض، يغسل الشجر، ويتبلل بالرذاذ. ثم ينتبه إلى أن سطل الماء ثقيل. فيلبس ثيابه ويهرع إلى التلغراف فيرسل برقية لمنور: أرجوك انتبهي! لاتحملي شيئا ثقيلا! خطر لمنور أن تداعبه في جوابها على تلغرافه: قطفنا أمس سلال البندورة. نزلت إلى السوق لأبيعها. وكانت على رأسي تنكة فيها جبن! في ذلك الفجر فلحت البستان! مسكين بهاء! ألا يعرف أن الفلاحات يحملن ويلدن في الحقل؟! لو لم أنتظر هذا الطفل طويلا لفعلت مايفعلنه!

علمتها ممرضة في مستشفى تورنس أن تسترخي على بساط: اغمضي عينيك! هذه الذراع تعيش حياة مستقلة. لاترغب في الحركة الآن. دعيها وحدها. جربي ذلك! ثم هذه الذراع! هذه الساق، ثم تلك! استرخي، استرخي! ألا تلاحظين أن ساقك متوترة؟ استعذبت منور تلك التجربة عندما استطاعت أن تحكم أطرافها كأنها أعضاء مستقلة عنها. أعجبها أن تأمر عضوا من أعضائها فيطيعها. كرري ذلك، ياست منور، في البيت كل يوم! صارت تغلق الباب على نفسها وتستلقي على بساط. سألت سعاد خالتها: ماذا تفعل منور بنفسها؟ هل تستعد لاستقبال أمير؟! ردت عليها منور: أهم من أمير! هل سميته يامنور؟ مازلت أشاور بهاء. لن نسميه باسم جده. لايوسف، ولا خالد آغا! فهذه البلاد تحتاج من ينقذها! دهشت شفيقة: سننتظر ابنك لننقذ البلاد؟! ضحكت منور: نبحث عن اسم مناسب فقط، ياخالتي! ألا ترين المنقذين يتسابقون إلى الصف الأول! ألم تري ماحدث في البلاد!

علمتها ممرضة مستشفى تورنس أن تعنى ببشرة بطنها: لم يطلب مني تورنس ذلك. لكني رأيت بطون النساء مشققة من الحمل. لاأريد لك ذلك ياست منور. علّمتها أن تمسك جلد بطنها بين السبابة والإبهام من وسط البطن حتى أطرافه. نعم، هكذا! كأنك ترسمين خطوطا بالعرض، من الأسفل إلى الأعلى، من

www.alkottob.com

الوسط إلى الجانبين! كأنك تقرصين الجلد بين إصبعيك! ادهنيهما أولا بالزيت، ثم هكذا.. تماما!

قالت لها سعاد: لو كانت النساء الحوامل ينشغلن بأنفسهن مثلك لما اشتغلن في البيت والحقل! ياسعاد، لم أستخدم أحدا حتى اليوم، فلأنشغل بنفسي سنة، لأجل معتصم! من؟! معتصم! هذا هو اسم الطفل الذي اتفقت عليه مع بهاء! اسم ثقيل على طفل! ثقيل؟! ستستنجدين به، ياسعاد خانم! من فضائل الحمل أنك صرت تحبين المزاح، يامنور خانم! كأنك تتمنين لنا أن نتحمل اليهود والإنكليز حتى يكبر معتصمك، ماشاء الله! لكن ماذا نفعل إذا كان طفلة؟ في بالي اسم طفلة، ياسعاد! لكني مؤمنة بأن الجنين طفل! صرت فوق مواهبك كلها، منجمة، يامنور؟ لا، لكني يجب أن أشعر بطفلي أكثر مما يشعر به تورنس! أعرف أنه صبي عاقل! يشبه بهاء إذن، يامنور! المهم ألا يشبه خالته التي تعرف قيمة القرش أكثر مما تعرف قيمة البشر، ياسعاد! القرش الأبيض لليوم الأسود، يامنور. لكن إذا حاسبتني على أيام الحرب، فلماذا لاتأكلين كل يوم الباذنجان المسلوق؟ لأننا لسنا في أيام الجوع، ياسعاد خانم!

تفادت منور أن تسأل خالتها عن الولادة. لاتريد من أحد معلومات تشوشها! سألت تورنس: سأتألم كثيرا؟ كشفت له هواجس شابة تلد أول أطفالها. ترك تورنس مرضاه ليوضح لها أنها لن تفيد من تمارينها وتنفسها إذا اضطربت. يخاف الإنسان مما لايعرفه، يامنور. سبب الألم ألا يصل الاوكسجين إلى العضلات. في يدك أن توصليه إليها. تنفسي بعمق واسترخي بعد التقلصات، استرخي كما علمناك لتكسبي الراحة وتستعدي للتقلصات التي ستقصر المسافة بين إحداها والأخرى. المهم ألا تضيعي أعصابك. تابعي كل تقلص وكل فترة راحة بمثل الوعي والدقة التي تابعت بها التمرين على الاسترخاء. أنت دؤوبة ودقيقة. ابقي كذلك خلال الولادة. انسي أحاديث النساء عن الولادات الصعبة، والموت في حمى النفاس. يمكنك أن تعملي بولادتك نقيضها! ستتألمين برهة واحدة فقط، وقت يضغط رأس الطفل ليخرج إلى الدنيا. لكن ذلك برهة واحدة بعدها راحة مدهشة. اتفقنا؟ لامخدر ولادواء بل الإرادة والوعي! لن نخنق الطفل بالارتباك ونحرمه من الاوكسجين! لن يولد أزرق بل سيولد متورد الوجه! موافقة؟

أمام منور مخرج واحد: الصحو والدقة! ستبقى صاحية من بداية الولادة إلى آخرها! هي المسؤولة عن طفل صحيح، تلده بنفسها! وكانت مؤمنة بأنه سيكون جميلا! سمعت في حيفا خالاتها بنات القسيس يقرأن: تلدين في الألم! وتذكرت

www.alkottob.com

أنها قرأت في المجلات في بيت أهلها شيئا عن ألم المخاض. سنعمل العكس، يامعتصم! سنبين أن الألم ليس قدرا!

كتبت منور عن ذلك لبهاء في رسالة وصفت له فيها تمارينها ونزهاتها على شاطئ بحرة طبرية. هل لمس تورنس في منور الصفات التي يستطيع أن يستند إليها طبيب يستهويه أن يؤسس نمطا جديدا من الولادة دون ألم المخاض؟ يبدو ذلك. فهل يطمئنه اكتشاف تورنس أم يقلقه؟ على كل حال ماقيمة رأيه! جرت منور في مجرى أعجبها فاختارته! ألا يستند أي عالم وطبيب في القفزة التي يصممها، إلى طبع إنساني وايمان في مرضاه ليستطيع بهم أن يتقدم بالعلم إلى أزمنة جديدة!

رجاها بهاء: أريد أن أكون حاضرا معك! أضحكتها رغبته. فعرضتها على شفيقة. رفعت شفيقة يدها إلى رأسها: ياويلي! ماذا يخطر له! لكن منور قالت: حقه ياخالتي. يريد أن يرى مولد ابنه الأول. ولكن هل نستطيع أن نؤخر مولد معتصم حتى يصل؟! أمثالكم، يامنور، يستطيعون أن يفعلوا كل شيء! عشنا وشفنا!

www.alkottob.com

رجعت منور مع معتصم إلى دمشق. كاد بهاء يدوخ عندما رأى ابنه. ثم هزّته نوبة من الضحك. ضرب كفا بكف دهشا. ثم تناول ابنه منها وبقي يوما يحوم حول منور، يتفرج عليها وهي تطعمه، وينقل لها الماء إلى البانيو لتغسله، ويتأمل فرح الصغير بالماء، وطربه وهي تمسح جسمه بالزيت. كم يلزم من العمل لهذا الصغير! نام معتصم في السرير الذي اشتراه بهاء له في غياب منور. وأضحك منور أنه اشترى له طابة ملونة كبيرة. بكرت كثيرا، يابهاء! تفرج معتصم على بهاء من حضن أمه كأنه يتساءل من هذا الغريب؟ وتمنى بهاء أن يألفه معتصم بسرعة كي يرمي نفسه عليه كما يرمي نفسه على منور.

في المساء سهرت منور وبهاء في بيت نفيسة وتركا مرجانة قرب معتصم. وخيل لمنور وهي تتابع أحاديث بهاء ونفيسة أنها غابت عن دمشق أكثر من سنة. وجدتهما يتحدثان عن معاهدة وملكية! يابهاء، قل لي هل يطمع فيصل بالعودة إلى دمشق؟ يامنور: وضعت مسألة الوحدة بين سورية والعراق وتفويض فيصل بمفاوضة الفرنسيين والإنكليز باسم السوريين. لكن هذا يشبه قصة جحا الذي رغب في الزواج من ابنة الملك! قال القوتلي هذا مشروع خيالي. تفيد من المشروع فرنسا وصاحب الحلم! ابتسمت منور. هل ستقول في نهاية السهرة مع بهاء: مافاتتني حصرما أكلته عنبا! خبأوا عني الأحداث في طبرية فتدفقت علي في دمشق!

كانت ثياب بهاء عابقة بدخان السيجارات ففهمت منور أنه كان في اجتماع. التقط نظرتها، فنهض وخلع جاكيته ورماه على كرسي في الداور. استلقى بملابسه. داعبته منور: في حالتك، لن تستطيع أن تنفذ ماطلبته منك عمتي نفيسة!

أغمض عينيه. لماذا يشعر فجأة بالحزن؟ لديه زوجة جميلة، ولديه طفل، ولديه بيت يحبه. لكن الدنيا تصخب وتسرق منه وقت السعادة. هل لديه عمران

www.alkottob.com

يضيع أحدهما في هذا الصخب، ويكرس الآخر للسعادة! اسكت يابهاء، اسكت! فالاجتماع العابق بالدخان زاد من شعورك بصفاء بيتك!

أقلقه أن بعض أعضاء المكتب التنفيذي للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة تحمسوا للوحدة العراقية السورية. وشكيب أرسلان، أيضا. بغداد اليوم من مراكز الوطنيين العرب. هذه حقيقة! والمعاهدة العراقية البريطانية التي وقعت سنة 1930 أفضل من المعاهدات السابقة! هذه حقيقة أخرى! لكن المعاهدة ليست الاستقلال، ولاتبرر الحماسة للوحدة مع العراق! تصلنا أخبار عن تعطيل الجرائد وخرق القوانين في بغداد. تغطي الحكومة ذلك بالاحتفالات. لذلك يقول نبيه العظمة: صار المناضلون سياسيين معتدلين، ولابد من حلف شعبي عربي! ويرى أن لفيصل سياسة وأفكارا بعيدة عنا. من يجهل نفور نبيه العظمة من العلاقات بالأجنبي! كأن فيصلا يظن أن المعاهدة الجديدة تسنده ليستعيد سورية! المهم يابهاء، أن تجمع الخيوط في هدوء! المهم أن تكون رائقا لتتحمل هذه السنوات صاحيا، مستقيم القامة!

استند بهاء في كلمته في الاجتماع إلى كلمة هنانو: هذه أدق المراحل، يجب أن تواجه بجبهة قوية! وأكد لنفسه في يقين أن كلمة هنانو لاتقصد السوريين فقط! لذلك قال لأصحابه: لنحيّي الحاج أمين الحسيني الذي جمع في القدس المؤتمر الإسلامي من السابع إلى السابع عشر من كانون الأول، لاستنفار العالم العربي والإسلامي بعد هبّة البراق! وانتخب لجنة تنفيذية فيها نبيه العظمة ورياض الصلح وأمين الحسيني. وسيقول بهاء في اجتماع آخر: لنحيّي أحمد حلمي باشا مدير البنك العربي في فلسطين، وعبد الحميد شومان الذي شارك في تأسيسه! هل يصيد البرق ليجعل منه شمسا؟ بالعمل نحقق التجمع في هدف ونستبعد الثرثرة التي تستولد الخلاف! لذلك سينقل لمنور أن أحمد حلمي اقترح على صدقي الطبري أن يؤسس فرعا لبنك الأمة في طبرية، مقابل البنوك اليهودية. يحتاج الإنسان أن يشعر بانتصار!

لكن كأنما لاتترك لنا الفرصة لننشغل بحدث واحد! فنظل نتنقل بين بغداد والقدس ودمشق! مرت منور قرب الباب. بهاء نائم؟ لا! يغمض عينيه كيلا يتكلم. تلمح حركة جفنيه. هل تقول له انتبه يابهاء، الكلام مع النفس في الصحو وفي النوم يرهق الإنسان، ولكن من يستطيع أن يوقفه! دخلت بهدوء، وجلست قربه. لمست شعره كما تلمس شعر طفل. بقي بهاء مغمض العينين. قال فقط: يجب أن ننصرف إلى التحضير للانتخابات!

www.alkottob.com

في السابع من كانون الأول 1931 أصدر بونسو مرسوما وزع المقاعد النيابية بين السّنة والأقليات والبدو. فأصدرت الكتلة الوطنية بعد يومين بيانا نادى الشعب إلى مواجهتها بوحدة وطنية. فليفهم الانتداب أننا نرفض تقسيم الشعب إلى طوائف وأقليات! ولكن هل نرفض الانتخابات؟ بل سنحاول أن نكسبها! لم يغرق بهاء في اجتماعات أصحابه فقط! كان الحوار معهم أيسر من الحوار مع نفيسة!

مرت المرحلة الاولى من الانتخابات هادئة. لكن التزوير في المرحلة الثانية في بداية سنة 1932 سبب صدامات دامية. قال بهاء لنفيسة: الوطنيون أقلية في المجلس! 17 من سبعين! فردت كأنها تقوّيه: ليس المهم العدد، بل العمل!

لكن آه! كأن الانتخابات فرقت الناس! لم يعجب رياض الصلح أن الكتلة الوطنية دخلت الانتخابات رغم التزوير. وانسحب القوتلي. ولم تعترف اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بالمجلس النيابي السوري! تحدث القوتلي عن تهالك "الجماعة" وعما سببه ذلك من ضرر بالكتلة! رأيي يانفيسة خانم؟ في الحركة بركة! يابهاء، لاتنقصك غير عمامه لتأخذ مكان المفتي! قاضي الأولاد شنق نفسه، يانفيسة خانم! أرى بعض الناس يبدلون آراءهم، فمن كان مع المجلس في الصباح صار ضده في المساء، ومن كان ضده في الصباح صار معه في المساء! لاتحمل الهم، يابهاء، هذا يعني أن الناس مشغولون بالبلد!

في السابع من حزيران سنة 1932 اجتمع المجلس النيابي السوري. انتخب صبحي بركات لرئاسة المجلس وسقط الأتاسي. فهدد الوطنيون بالانسحاب من المجلس. طلبوا من بونسو استبعاد صبحي بركات وحقي العظم، واتفقوا معه على انتخاب محمد علي العابد رئيسا للجمهورية، وأن يكون حقي العظم رئيس وزراء شرط أن يتعاون مع وزيرين هما مظهر رسلان وجميل مردم. كان الفرق بين العابد وصبحي بركات أربعة أصوات فقط!

تعني الانتخابات والمجلس، يابهاء، أن مشروع وحدة العراق وسورية انطفأ! ربما ولد مطفأ، يانفيسة خانم! يابهاء، لدى ابن الكحال معلومات أوصلها له التجار من بغداد! يابهاء بك، كانت الدنيا تفور في بغداد، عندما كانت تفور هنا! فرضت ضريبة على التجار والحرفيين جمدت السوق وزادت الكساد من سنة 1929 إلى سنة 1931 وأثر الكساد في بغداد على السوق عندنا. فنظمت جمعية أصحاب الصنائع التي تتصل بالحزب الوطني، إضراب أسبوعين. فحلتها الحكومة. يقال إن تلك الجمعية تتصل بالحزب الوطني. يهمنا أنها تعمل في مصلحة البلد. بعد حلها ظهرت جمعيات أخرى حملت طوال شهر مقاطعة شركة

www.alkottob.com

بغداد للتنوير والكهرباء البريطانية الملكية.

ابتسم بهاء وهو يستمع إلى ابن الكحال. تبتسم يابهاء؟ يانفيسة خانم، ألا تشعرين معي بأن هذه البلاد واحدة، من المؤتمر الإسلامي في القدس، إلى الانتخابات والاصطدامات في دمشق، إلى إضراب بغداد؟ يبعث لك الهنا، يابهاء، ماأشطرك في القفز من أول البلاد إلى آخرها! يانفيسة خانم، لكن اسمحي لي أن أعيد حوادث هذه السنة في العراق إلى أصولها. تعرفين أن الإنكليز نصبوا فيصلا في سنة 1921 على العراق. وتفادوا به الثورة عليهم. يقال إن فيصلا كان في النهار معهم، وفي الليل مع رجال الثورة العربية وضباطها الذين لجؤوا إلى العراق. اعتمد الإنكليز مقابله رؤساء العشائر في الريف والسادة في بغداد، مثل عبد الرحمن الكيلاني الذي رأى أن فيصلا "مستورد". في سنة 1922 عندما وصلت أول مسودة للمعاهدة قبلها رئيس الوزراء، النقيب، ورفضها جعفر العسكري وزير الدفاع وأعلن أنه لن ينزل الجيش ضد من رفضها. حاول فيصل أن يسقط وزارة النقيب، فتدخل المندوب السامي لدعمه. وعندما استقال النقيب تجاوز المندوب السامي الملك، وأقال متصرفي الألوية وأدب العشائر الثائرة بالقصف، وأعاد رئيس الوزراء. واضطر فيصل إلى الثناء على ذلك، وقبلت الوزارة المعاهدة بالإجماع! سنة 1925 اجتمع الأشراف وأعلنوا رغبتهم في أن يصبح السعدون رئيس جمهورية بحماية بريطانية وأن تستقل البصرة. كانت اتفاقية النفط تبحث وترتبط بالمعاهدة العراقية الإنكليزية فضغط ذلك على فيصل. اجتهد فيصل في مقاومة عبد المحسن السعدون بشق حزب التقدم وباعتماد منافسيه ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني. اتهم السعدون بأنه مع الإنكليز.

في سنة 1927 عندما استعد فيصل للسفر إلى لندن ليفاوض على معاهدة عراقية بريطانية نبهه السويدي إلى ضرورة ألا يكون جعفر العسكري ونوري السعيد الضابطين الشريفيين مرافقين له فقط، فرافقه ناجي السويدي.

في سنة 1928 وافق السعدون على بارلمان خاضع للإنكليز. مرر الاتفاقيات العسكرية والمالية كلها بموجب معاهدة 1927 التي رآها فيصل سيئة وقع عليها في ظروف سيئة. لكن السعدون فاجأ الجميع في سنة 1929 بوقوفه مع الملك ضد المندوب السامي، وطلب السيطرة العراقية على الجيش. في سنة 1929 استقال، ثم عاد إلى شبكة الوعود البريطانية واتهمه الناس بالخيانة. في تشرين الثاني سنة 1929 انتحر وترك رسالة لابنه تبين أنه ليس خائنا وعبر عن يأسه وإخلاصه.

www.alkottob.com

فكك موت السعدون جماعة "الحزب التقدمي". وهكذا وقعت المعاهدة العراقية البريطانية سنة 1930 وتراجع الانتداب سنة 1931 وقوي نفوذ الملك فيصل في المسائل الداخلية.

سألته نفيسة: كأنك يابهاء ترى أن الرجل يقرر مصير بلد! وكأنك غيرت رأيك في فيصل، مثل أصحابك الذين يغيرون آراءهم بين الصباح والمساء؟ يانفيسة خانم، يعبر الرجل عن مجموعة، عن قوة. لكن لاتستخفي أبدا بأثر الشخص في مصير بلاد! يستنبت الزمن رجاله، لكن هؤلاء الرجال يؤثرون فيه! ولذلك أحاول أن أرى فيصلا كما هو. فيصل سياسي محاصر بظروف وقوى وشخصيات، وليس قائد حزب! لاتنسي يانفيسة خانم، أن نفوذ ياسين الهاشمي لايقل عن نفوذ السعدون! ياسين الهاشمي خريج استنبول، من ضباط جمعية العهد. صار بفضل مركزه ملاك أراض. قال عنه الرصافي: دليله مصلحته. توجس فيصل منه ولم يثق فيه. مايزال اتصاله بالإنكليز في سنة 1915 سرا لانعرف حقيقته. ويقال إنه اتصل سرا بأتاتورك. موقفه من المعاهدة متردد ومتناقض. في آب سنة 1924 وافق المندوب السامي أن يكون الهاشمي رئيس وزراء فبقي حتى سنة 1925. ووقعت حكومته اتفاقية النفط التي عارضها الشعب. وفي 1930 تزعم جبهة الحزب الوطني ضد المعاهدة الجديدة وقادت الجبهة الإضراب الذي ذكره أخي إبن الكحال! في أية كفة تضعه يابهاء؟ يانفيسة خانم، يفك الزمن فقط الخيوط السوداء من البيضاء! الزمن فقط يؤهلنا للحكم في عدالة. لكننا الآن لانستطيع أن نهمل الإشارات! الإشارات ضوء!

www.alkottob.com

أتتساءل سعاد بعد هذه السنوات كلها: هل أصابت بزواجها من عبد الرحيم؟ وقفت قرب نافذة تتلامح منها أنوار زوارق الصيادين في بحر عكا. البيت نائم والمدينة نائمة، أنا والصيادون فقط في هذه العتمة! كان يمكن أن تبقى في بيروت، أو في طبرية. لكن هل قررت رغبتها فقط، المكان الذي توجد فيه، أم قرر لها ذلك قدر بلادها؟

لماذا تتصفحين، ياسعاد، حياتك في هذه البرهة؟ مازلت شابة! لم يقفر الحاضر بعد كي تستدعي الماضي! أم تشدين إليك الأطياف من سنوات الحزن ومن سنوات الفرح لتستدفئي بها؟

كم يعبر الخيال الزمان والأمكنة في سرعة! هاهي في بيروت مع أخيها سعيد بعد طلاقها من حمدان! استأجر سعيد بيتا في الرمل قرب المقاصد الخيرية، وقال لها كلي من هذا الكتف، ثم كلي من ذاك! لكنه في الأحاديث الطويلة بينهما ظل يرجوها: فكري في الزواج مرة ثانية! وكانت ترد: يبدو أني خلقت لأمر آخر غير الزواج، ولو لم أعرف بعد ماهو! وكان يجيبها: ربما، لكننا في زمن لاتعيش فيه المرأة وحدها. لاأريدك أن تكوني مثل الست شفيقة تربين أولاد أخيك! أريدك أن تكوني سيدة في بيتك، حولك أولادك! كان سعيد يقدر أنها تستعيد سعادتها وشقاءها مع حمدان الذي أحبها وعذبها. أفهمك، ياسعاد! لكن الرجال، كالنساء، أشكال! وافرضي أني مت..! فتنظر إليه: شاب بعد، وتموت؟ كانت تفتح عينيها وتتفرج على وجهه النضر، وبريق عينيه، على السلسلة التي تتدلى من جيبه، على أناقته، وتبعد خوفها عليه. كانت تتسلل إلى غرفته في الليل وتطفئ ضوءه. نام والكتاب في يده! والآن يبدو لها أن سعيدا كان يقرأ مصيره بحدس نقي!

استعادت صوته وحديثه وهي واقفة على شاطئ بحيرة طبرية، يوم خطبها عبد الرحيم! وتذكرت نصيحته. لكنها امتحنت يومذاك عبد الرحيم، قبل أن تقبله. فلماذا تتساءل الآن هل أصابت في زواجها؟

www.alkottob.com

احتضنها بيت قدري في طبرية يوم عادت من بيروت. انقبض قلبها عندما وقفت العربة أمام بيت قدري يوم رجعت إليه مطلقة. ماأصعب أن تعي أن وراءك زمنا فقدته، وأنت تائه لم تخطو بعده! عانقتها شفيقة: ألف أهلا وسهلا! حتى القوي قد يفقد الأمان أحيانا فيحتاج من يحتضنه! نادت شفيقة سيرين ووداد وبنات الطبري فنفخن الوحشة عنها وجعلنها خاطفة كضباب لبنان! في الحياة ياسعاد، الحلو والمر. فلنتحمل المر في انتظار الحلو! احمرت وجنتا سعاد في ذلك المساء، وسط مجموعة تحمل عنها همها وتساعدها!

لكن شفيقة ردت الخاطبين عن سعاد. فقالت لمدير محطة سمخ الذي طلبها: لانزوج بناتنا مرتين! أدهش زهوها سعاد. ياخالتي، لاتتعبي نفسك بحراستي كأنك قومندان! سأتزوج مرة ثانية! وضعت شفيقة كفها على صدرها. وضحكت سيرين. ياخالتي، في المرة القادمة لاتردي من يخطبني، بل قولي له سأشاورها!

تتذكر الآن أن بنت الجيران نادتها فأطلت من النافذة. وكأنها لمحت خلف بنت الجيران طربوشا. فسألتها: معك غريب، فلنترك الحديث حتى تصرفيه! كان عبد الرحيم صاحب ذلك الطربوش، في إحدى المرات التي سعى إليها. فلمحها وسمع صوتها. أعجبته في تلك اللمحة الخاطفة كنجمة تختبئ وراء غيمة. فرد على قريبته التي سألته كيف وجدتها؟ أعجبني أنها لمحت الطربوش، وأعجبني شكلها وصوتها! سألتها بنت الجيران فيما بعد: لماذا "تخبيت"! ردت: آه! لاأكره شيئا قدر ماأكره "الخبا". لكن مسايرة خالتي تريحها ولاتزعجني!

لم يخطر لشفيقة أن يطلبها الشيخ طاهر الطبري لأحد. قال لها: عبد الرحيم يريد سعاد. هذا زعيم وطني، اسمه في الجرائد. غني، عنده عشرات الأفدنة وأملاك. درس الحقوق في استنبول، وله مكتب في طبرية. نقلت شفيقة لسعاد شهادة الطبري وأضافت: أجداده في صفد معروفون. كان أبوه أحد القضاة الخمسة في تركيا! لكن عيب أن تتزوجي مرة ثانية، ولو طلبك باشا! ياخالتي، كأن الشيخ طاهر يشجعني على الزواج من عبد الرحيم! لكني لن أقبل رجلا إذا لم أجالسه وأمتحنه!

في ظلمة الليل عاد طعم الزواج المرّ إلى فمها. اضطربت وتقلبت على جنبيها. ثم ضغطت كفها على بطنها وتلوّت من الألم. لايفيد النعنع الساخن، ياخالتي! بطني كالحجر. يبدأ الألم من معدتها ويلتف إلى ظهرها ويحيط بكتفيها! في الصباح نقلت بالعربة إلى مستشفى تورنس. استبقى تورنس شفيقة عند الممرضة السكوتلندية، وانحنى على سعاد يفحصها. تركها تبكي حتى شبعت من

www.alkottob.com

البكاء. ذكرها تورنس بالحياة التي فقدتها؟ كم تعشينا على سفرة قدري! تذكرت أباها وخالها، ونادت أمها وأخاها. أيعقل أن تكون فقدت، وهي بعد شابة، كل هؤلاء الأعزاء عليها؟ رحلتم وتركتموني! قتل نوري في العراق، وقتل سعيد في الثورة السورية. قبر أبي في حيفا، وقبر أمي وخالي في طبرية. بيني وبين أختي منور حدود سوريا وفلسطين! كانت تحتاج من يعانقها، ويربت على شعرها، من يقول لها نامي، نامي نحن سنخرجك من العتمة! وفهمها تورنس. هذه صبية فقدت الأمان وكأن لامكان لها! لمس رأسها، وقال لها: نامي ياسعاد! نامي!

نامت من البكاء ومن التعب. نامت كالهاربة من الدنيا كأنها تقصد الغيبوبة. في الحلم رأت سعيدا يجلس على طرف فراشها. كانت قامته كما تعرفها، رشيقة، فارعة، وفي عروة جاكيته فلّة. أمسك يدها وقال لها: تزوجي! أريد أن أستريح! تزوجي عبد الرحيم! أريد أن أستريح!

لم تدر هل الراحة التي شعرت بها عندما أفاقت في الصباح من التعب أم من القرار الذي اعتمدته أم من الحبة التي ابتلعتها من يد تورنس. ستتزوج عبد الرحيم إذا نجح في امتحانها! في المنام لم يخف عليها سعيد أن الدنيا عذاب. "لكننا يجب أن نعيشها"!

في زواج الصبايا السعيدات يهيأ جهاز العروس قبل الزواج. لسنا في ذلك الوضع، ياخالتي! مازلت ألبس الثياب السوداء على سعيد! فليكن صدقي الطبري وكيلي في العقد. قالت لصدقي: أنت في مكان سعيد! ارتعش. لايأخذ أحد مكان سعيد، لاعندي ولاعندك! لكن إذا بقينا مخلصين للماضي بقي حيا فبقينا أغنياء به!

بعد العقد، دعا عبد الرحيم أصحابه إلى العشاء في بيت قدري. فرأت شفيقة في بيتها وجوه البلد، كأنها في زمن قدري. كانت قد أنزلت طقم السفرة من الخزانة، وأرسل إليها أهل سعيد الشيخ طقم سفرة مع خدمهم. ورتبت سعاد المناديل كما علمها "السفرجي" الذي كان خالها قدري يستدعيه من فندق غروسمن، فجعلت المناديل كالمراوح! مدت أطباق السلطات والمقبلات وأنواع الكبة والمعجنات! ليس الخروف الذي طبخ في القدور الكبيرة وفاح منه البهار والهيل، هو الذي يزين الطاولة! بل عشرات الأطباق من الخضار! العين تأكل أيضا! ساعد شفيقة في الطبخ الطاهي الذي استدعته من فندق غروسمن.

بعد الوليمة طلب أخو عبد الرحيم أن يرى سعاد. قال لها: ستنزلين عندي عندما تصلين إلى صفد، ليسلم الناس عليك. من بيتي تذهبين إلى بيتك الأبدي،

www.alkottob.com

إن شاء الله! تنزل في بيته كما نزلت في بيت الفاهوم يوم تزوجت حمدان؟ لا، ستعدّل رغبته! أحرق الزمن أيام الطاعة وأوهام الحب!

روى لها عبد الرحيم فيما بعد ماجرى في فندق غروسمن حيث أكمل السهرة مع ضيوفه. قال له الدكتور قدورة: وقعت في جنة ماكنت تحلم بها! وقال له آخر: كنت في البئر وانتشلت منه! وقال له صديق ثالث: إذا كنت شاطرا عد إلى عروسك الليلة! أعادوه إليها وودعوه وهو يركب العربة! طرق الباب مترددا. كانت سعاد وشفيقة ماتزالان ترتبان الصالة التي تعشى فيها المدعوون. فتحت له شفيقة الباب. هل أستطيع أن أرى سعاد عشر دقائق؟

تركتهما شفيقة عشر دقائق فقط. أخرج من جيبه علبة فتحها وقدم لسعاد ثلاثة أساور: نؤجل الخاتم حتى أعرف قياس إصبعك. عادت شفيقة تحمل القهوة، وبقيت جالسة معهما حتى رجع عبد الرحيم إلى أصحابه. وجد بعضهم ساهرين. سألوه: نراك عدت؟ رد: يبدو أنها أشطر مني ومنكم! في اليوم التالي حضر محاكمة في طبرية، في اليوم الثالث قالت له شفيقة: نم عندنا! فصححت سعاد اقتراح خالتها: تنام في غرفتي وأنام مع خالتي في الغرفة الأخرى!

لم تلمها شفيقة! فلتكن عاقلة ومتزنة كي يحترمها زوجها! سألتها: لكن ماذا في بالك، ياسعاد؟ في بالي أن أبقى على الأصول، ولو كان هذا زواجي الثاني! سأتزوجه في بيتي لاقبل ذلك! يبدو أنه لم يفهم، ياخالتي، لماذا اشترطت أن تكون العصمة في يدي! بل فهم ذلك، ياسعاد، لذلك لم يقبل دعوتي!

كانت غرفة القش والقماش ماتزال منصوبة لأسرة قدري على شاطئ بحرة طبرية. انزلقت سعاد منها في الماء وسبحت مبتعدة، وتقلبت على ظهرها وبطنها. قالت وداد: لم أرك تسبحين مثل هذه السباحة من قبل! غطست مرة أخرى كأنها تغسل دموعها. لو تستطيع أن تبكي! غطست ووداد تتأملها. جنّت سعاد؟ قدرت وداد أن سعاد قلقة. نعم، تضطرب العروس التي تغير بلدها وحياتها، ولو كان زوجها مثل هذا الكنز الذي وجدته سعاد.

من طبرية خرجت سعاد إلى بيت زوجها عبد الرحيم في صفد. كانت الأشجار خضراء والورد مزهرا في الحديقة، كما تركه قدري! وكان ولدا قدري في سنبل في صفد، وفي عكا.

بلع عبد الرحيم ريقه. والتفتت سعاد إليه بوجهها كله. تأمل شعرها الذهبي الذي يستدير خواتم في نهاياته. ماشاء الله، كالحوريات! سحره بياضها الناصع، وبريق شعرها الذهبي المحمر في الضوء. سحرته عيناها الزرقاوان الرماديتان.

www.alkottob.com

فتنته سعاد، وسيطيعها طوال عمره! وسيتبين كلما استشارها وتحدث معها سعة عقلها وحكمتها! من أورثها الاتزان وعلمها الحكمة؟ تسألها، ياعبد الرحيم، لتقول لك: المرّ والحلو؟!

روى لها أنه أحب يوم كان في الآستانة رومية. لكنه لم يستطع أن يتزوجها كيلا يقال: ابن فلان تزوج رومية! تلك الرومية هي كل من عرفت من النساء، ياسعاد! ابتسمت: وهل العدد هو المهم فقط، ياعبد؟! هاهو يغسل نفسه أمامها من مغامرته الوحيدة. ثم يطرق كيلا تظن أنه يطلب منها أن تحكي له عن زوجها الذي أحبها وعذبها! لم يسألها، فيما بعد، هل أحبت حمدان أو لماذا تركته. فقدرت أنه يخشى نبش الجروح والذكريات، ويتفادى أن يستثير الغضب للكرامة عندما يبدو البوح كالاعتراف. وربما فهم أن الذكريات ليست فقط خيال الحقائق إلا بمقدار، لأن الأشواق والعواطف لايمكن ألا تلوّنها. خمنت أن قريبه القاضي الذي طلقها من حمدان، روى له ماعرفه عن زواجها وطلاقها. ومع ذلك ستظل تلك التفاصيل مدفونة، ولن يتحدثا أبدا عنها. هكذا وضع عبد الرحيم في اليوم الأول المفاتيح كلها في يدها، واثقا من شهامتها. وكان ذلك أكبر من كلمات الحب التي كان يمكن أن يسكبها رجل على عروسه. فشعرت، وهي تغفو بأن المرأة الشريرة فقط هي التي تستغل الثقة فيها. وبدا لها أن عبد الرحيم، القوي الفطن في السياسة بسيط وعاجز عن إدارة حياته، وعليها أن تديرها له. وكأنها فهمت به أمثاله من الرجال. لكنها لم تقدر في تلك البرهة هول ماستتحمله.

أرادت سعاد الزواج كي تنجب أولادا تستقوي بهم. "الأولاد أهل جداد"! لكن الحمل في غير وقته أربكها. استدعى عبد الرحيم الطبيب بوينا. وروى لها بوينا قصة الصداقة بينهما. في أيام الصدام بين العرب واليهود جرح أبو بوينا، وكاد الصفديون الغاضبون على قتل العرب في يافا يجهزون عليه. فحماه عبد الرحيم، وحرس ابنه الطبيب الذي أسعفه.

لكن بوينا لم يستطع أن يرد الجميل لعبد الرحيم! لاأرى ياست سعاد إشارة تفسر لماذا تتزفين. يبدو الحمل طبيعيا. ثبتت سعاد نفسها على الفراش. ومع ذلك أجهضت. قالت لبوينا: يبدو أن الرغبة تستبقي النطفة أو تصرفها! لكنها لم ترو له أنها تذكرت مستشفى تورنس. قال لها: مازلت ياست سعاد شابة، وستنجبين طفلا آخر! أعرف يابوينا، أعرف!

أمام أهل زوجها وأصدقائه بقي بيتها مرتبا ونظيفا، بقيت سفرتها ممدودة، وبقي حديثها حلوا، واستقبالها الناس حلوا. بيتها مفتوح في كل الأوقات.

www.alkottob.com

وقفت بعد انصراف الضيوف مثل وقفتها الآن أمام النافذة. كان أصحاب زوجها قد أكلوا في غرفة الطعام وانصرفوا! كانت قد رحبت بهم كما كانت أمها فاطمة ترحب بضيوف زوجها. تفقدت مايستكمل السفرة. ثم أطلت من نافذة بيتها في صفد الجبلية على قضائها. وتفرجت على قناديل بيوتها، ولمست خطوط الجبل على الأفق. استندت إلى طرف النافذة العريض ونفرت منها آهة طويلة: صرت سيدة بيت، ياسعيد! صرت! لكن هل هذا سعادة أم شقاء؟ أجهضت، ياسعيد! يبدو أني مازلت أرتعش من ذكريات الأمس! لاأستطيع البكاء. أقول لنفسي: ابكي! وأضغط صدري بيدي. ولكن مافائدة الدموع! يجب أن أكون صافية الذهن لأستمع إلى عبد الرحيم وهو يروي لي أخبار يومه ويسألني المشورة!

عندما زارها بوينا، دون أن تطلبه، ليطمئن عليها قالت له: أقدر عنايتك وصدقك. لكن فيك علة واحدة. ضحك: أعرف ماهي! لكن تذكري، ياست سعاد، أن أمي فلسطينية. لست مهاجرا! أعرف، أعرف، يابوينا! لكن أين قلبك! معهم أم معنا؟ قتلت خالي المستوطنة التي دشنها هربرت صموئيل، ولم يخرج في جنازته صاحبه الحاخام الفلسطيني! انحنى لها بوينا: تعرفين كم أقدرك، ياست سعاد!

هاهي تقف وحيدة أمام النافذة، وعبد الرحيم في المعتقل. يتلامح لها بحر عكا وزوارق الصيادين، وتشم عبق البحر الرطب. هل أخطأت في الزواج من عبد الرحيم، ياربي؟ ولكن لو تزوجت آخر أكنت سعيدة؟ من ينجو من مصير بلده، ياسعاد، من؟

www.alkottob.com

تعرف سعاد أن عبد الرحيم لم ينتبه إلى حوارها مع نفسها أمام نافذتها المطلة على بحر عكا. فهل هذا إشارة إلى وحدتها؟ وإشارة إلى حريتها! قال لها: سننزل إلى حيفا! فكري، ماذا يلزمك منها؟ فحصته بنظرتها. منذ متى يسألها عما يلزم البيت أو يلزمها؟! خمنت: سننزل لأمر آخر! لكن ياعبد الرحيم إذا كنت حذرا مني فلماذا تريدني أن أرافقك؟! لايذاع السر قبل البرهة المقررة له؟

سرحت سعاد طول الطريق إلى حيفا متفادية الكلام معه. وصمت هو أيضا في السيارة. فهمت أنه لايريد أن يتحدث مع السائق. تتخفى ياعبد الرحيم، والسائق رحب بك: أهلا سيدنا؟ أم تريد مثلي أن تسترسل في الحديث مع نفسك؟ لو استطاع عبد الرحيم لقال لها إن مثله محروم من التخفي. لكنه مثلها يريد أن ينصرف إلى تأمل هذه البلاد التي ترتجف من الظلم. كان ممن استمع إلى الشيخ عز الدين القسّام في جامع الاستقلال، ثم اتصل به. يعتمد القسّام على الفلاحين وعلى فقراء حيفا ويحضّرهم لمشروع. لعبد مشروع آخر كان يتصل برجال المؤتمر السوري، لكن الأيام دفعته إلى القسّام. فالسياسة دون مجموعات مسلحة منظمة لن توقف مشروع الدولة الصهيونية الذي التزم الانتداب بتنفيذه! حاورنا تشرتشل وكتبنا له رسائل، فأجابنا بمراوغة. كيف تكون البلاد لنا ولهم وهم يطردون الفلاحين ويؤسسون مستعمرات مسلحة؟ تحدث عبد الرحيم مع القسّام عن هواجسه: قوة الجيش الإنكليزي، واحتلال سوريا ولبنان والأردن التي تسند فلسطين. مع ذلك لايوجد خيار آخر غير المقاومة بالسلاح! فليتحرك السياسيون كما يشاؤون! سنؤسس نحن مجموعات مسلحة! بالتنظيم وحفظ السر!

قصد عبد الرحيم في حيفا أن يمشي مع سعاد بعض الطريق. تنفست بعمق وخيل إليها أن هواء بحر حيفا يختلف عن هواء بحر عكا. لكن إلى أين نمشي ياعبد؟ وجدت نفسها في الطريق إلى حاكورة أمها. هل نقلها عبد الرحيم من عكا

www.alkottob.com

إلى حيفا كي تلمس أطياف أهلها؟! سألته وهي تقترب منها: هذا ليس موسم العنب كي تأتي بي لنجنيه، وموسم التين انتهى! بقي صامتا، لكنه مد كفه ولمس كفها. مامعنى ذلك؟

وجدت سعاد في الحاكورة فلاحين لاتعرفهم. من هم، وماالذي رماهم في حاكورة أمها؟ ردت امرأة: هذه حاكورة رجل انقطع نسله، فنزلنا في أرضه! ابتسم عبد الرحيم. هل يقول للمرأة: هذه ابنته! يعرف الحقائق المعنيون بها فقط! فهمت سعاد إشارته فسكتت. مشت إلى البناء الذي كانت تنزل فيه مع أهلها. إلى هنا هربت أمها بها وبإخوتها في أيام الكوليرا، وعاشوا على التين والعنب، فرجعت سعاد إلى البيت في حيفا مكتنزة محمرة. حرّمت فاطمة يومذاك على يوسف أن يزورها! تكاد سعاد تلمح الآن طيفه وهو ينادي من بعد فرحا: انتهت الكوليرا، انتهت، ويستعيد صحبة أحبائه! كانت يومذاك أول من ركض إليه، فرفعها بذراعيه فوق رأسه كما يرفع جميع الآباء في جميع العصور أولادهم!

أجلستها الفلاحات على طراحة على الأرض. كم يغير الناس المكان! يبدو أنهم طبخوا طعامهم وسط الغرف! لايعجبك هؤلاء الناس، ياسعاد؟ على العين والرأس، لكن تفرج ماذا فعلوا بالبيت والبستان! لاتفكري في ذلك! هؤلاء فلاحون فقراء تعلموا على القسام في الجامع الكبير في حيفا، فالتقطوا صدقه، وقد يمشون معه حتى الموت! تجتمعين معهم في قضية واحدة! سمعت سعاد ضمير عبد الرحيم. وكادت ترد غاضبة: يجب أن أقبل الفقر والوسخ كي أصبح معهم في قضية واحدة؟

وقفت سعاد مبهورة بالرجل الذي دخل. رجل مربوع القامة، يلبس قنبازا نظيفا. سحرها بريق عينيه ومهابته. كأن وجهه الأبيض مضاء بالنور الذي يرى في المؤمنين الذين يتمنون الخير للبشر، ويحمون روحهم من الحقد بالايمان. هتف قلبها: هذا هو القسام! انحنت له. وأشار عبد الرحيم له: سعاد! تحدثا إذن عنها! بدا لها القسام متواضعا، دمثا، هادئا، مستمعا، رحيما. وأربكها ذلك. ألا يضايقك في بعض الأشخاص نقاؤهم الذي يكشف الشائبة الصغيرة؟

استمعت سعاد إلى حضوره الهادئ وصوته المؤثر، أم إلى كلماته الرصينة؟ لم يصرخ داعيا لمشروعه. قال لها في بساطة كأنه خجل بما يحمّلها: لن ننجح دون نساء. تقدر النساء على مالانقدر عليه. تمنت سعاد فيما بعد أن تتذكر كلماته بدقة. وطلبت من عبد الرحيم أن يذكرها بما قاله لتنتبه إليه وتتأمله. وستظل تذكر أول لقاء بالقسّام! وستستعيد هيبته التي جعلتها تصمت زمنا.

www.alkottob.com

وخشيتها من أن تبدو له ساذجة. هل تستطيع أن توجز نفسها وتنال علامة جيدة في امتحان القسام؟

هدأتها نظرته. واستراحت إلى صوته وتواضعه. شعرت بنقاء روحه، وصدقه. لم يكلفها بمهمة، لكنها فهمت أنه أراد أن يراها ليستشف ماتستطيع أن تعمله. وشعرت بأنها اجتازت الامتحان. ابتسم في نهاية اللقاء: يظن إخوتي القساميون هنا أن هذه الأرض لرجل انقطع نسله. ولانصحح لهم أن هذه الحاكورة لك! نخاف على من يساعدنا! لكننا سننتقل منها إلى بلد الشيخ. يأكل القساميون من بلح الحاكورة ومن تينها. يشربون من نبعها الحلو مع أنهم قرب البحر المالح. نحن في ضيافة امرأة كريمة! تساءلت سعاد فيما بعد لماذا لم يسألها عن صديقتها وداد، أو يذكرها لها؟ كان يعرف أنها صديقتها؟ تزوجت وداد رجلا وطنيا من بيسان، تظهر وداد فجأة في عكا، وتعود فجأة إلى حيفا، فتخمن سعاد أنها تساعد الثوار. كم هو صارم إذن في تنظيم جماعته! ستتذكره سعاد فيما بعد عندما تقابل أبا درة الذي قال لها ياحرمة! ولولا حفظها السر لذكرت له: القسام نفسه قال لي لاتنجح ثورة دون النساء!

خرج القسام خفيفا، متخفيا كما أتى. وبقيت سعاد صامتة زمنا بعد انصرافه. أشار لهما رجل بأنهما يستطيعان الآن الانصراف. فخرجت سعاد، وتمهلت وهي تمشي في الحاكورة بين أعمدة قديمة وجدها أبوها وقت حراثة الأرض، وقت وجد نواويس وأقراطا مزينة بحجارة ثمينة احتفظت بها منور. رفعت رأسها إلى شجر النخل الذي انتقاه أبوها وغرسه. تفرجت على شجر التين ورأت العليق والصبار على طرف الحاكورة. قابلها البحر. عاشت في هذه الساعات أكثر مما تعيش في سنة! ياللزمن الذي يقصر ويمتد وهو يجري في معياره المقدر له!

كانت الحاكورة على حافة طريق حيفا عكا. على مشارف الخط الحديدي. ستسجل سعاد في ذكرياتها لأولادها: قربها المسلخ، ومصفاة حيفا! لو عرفت سعاد أن الهاغاناة ستهجم في الليل على أولاد القساميين في بلد الشيخ وتقتلهم نياما وهي تهجّر أهل فلسطين لرجتهم: ابقوا في الحاكورة! ماذا تقولين ياسعاد؟ كأن اليهود لايستطيعون أن يهاجموا أولاد القساميين في الحاكورة أيضا!

بعد ذلك اللقاء طرق رجل بابها: لدي أمانة من الشيخ نريد أن نستبقيها عندك ليلة! هل ستتعلم منذ هذه البرهة أن تفكر في سرعة وتقرر في سرعة؟ قالت: في البيت خطر عليها! لكن هناك، في الحديقة أكوام من الحطب. ضعوها تحت القش خلف الحطب! طافت نظرة الرجل بمثل سرعتها في المكان وتبين أنه

www.alkottob.com

مناسب. لكنه بدا حائرا، فسألته: طلبوا أن تضعها في بيتي أم أن تضعها أمانة لدي؟ قال الرجل: عينك عليها! ستوضع في الليل وترحل في الليل!

ياحسرتي عليهم! ماذا يمكن أن يوضع تحت القش؟! بعض بنادق ومسدسات؟ ماأقل ذلك أمام جيش الإنكليز وأسلحة اليهود! أغمضت سعاد عينا واحدة في تلك الليلة! نهضت مرات لتفحص الحديقة من طرف النافذة. هل اختارت المخبأ الآمن حقا؟ ثمن هذه الأسلحة بيادر وبيوت! دم القلب! حلي النساء! من حمل هذه الأسلحة غامر بحياته! فالسلاح ممنوع على العرب، ولليهود مخازن منه في المستعمرات! بقيت سعاد قلقة حتى عرفت أن الأمانة رحلت.

في الصباح خطر لها أنها لم تتساءل عن مصيرها إذا اكتشف السلاح. فكم من الفلاحات قتلن لأنهن هربن الأسلحة! هل انتقل إليها من القسام الشعور العميق بالأمان؟ أيقنت أن القسام لايرسل إليها إلا من يثق فيه. وأن مثله لايطلب إلا مايحتاج إليه. مايطلبه لايحملها مهمة فقط بل يعلن ثقة فيها، ويعني رسالة عامة من حركته إليها ورسالة شخصية منه إليها. فهل يستوقفها الخوف على حياتها؟ خاطب القسام شجاعتها، الشجاعة التي قد تكون موجودة في كل إنسان لكنه لايدركها إلا في مثل هذا اليوم. وقد لايريدها إلا في سياق كبير، وهاهو!

بعد نجاة الأسلحة رافقت سعاد بنات العكي إلى حديقة البلدية. دعيت وداد أيضا. قلن: سعاد "ضاوية" كأنها تحتفل بزواج شخص عزيز عليها! ردت: هل الأعراس فقط أفراحنا؟ ياوداد أشتهي أن أغني، لولا أني لم أوهب صوت منور أو صوت سعيد! ابتسمت وداد لها. هي أيضا تحس بأفراح تشبه مايجرف سعاد! في برهة ثبتت إحداهما نظرها على الأخرى، ثم ابتسمتا! كل منهما الآن في مدار القسام! فلماذا لاتكون أفراح سعاد ووداد من هناك؟ وضعت بنت العكي كفها على ذقنها وتأملتهما: تتخاطبان بالعيون! انثروا علينا من هذه الكنوز، ياأميرات! ضيعت وداد بنات العكي بالضحك. ضحكت حتى دمعت عيناها.

التقت سعاد بالقسام في المقطع الأخير من حياته. كان قد مشى في تأملاته كلها. فأسس في سنة 1922 حلقات سرية. نريد ثورة مسلحة لأننا نهواها أم لأن الهجرة اليهودية تبلع البلاد، والإنكليز ينفذون الوطن الصهيوني في فلسطين؟! ماذا يمكن أن يقاوم جيش بريطانيا العظمى والمسلحين اليهود؟ السند الروحي في الإسلام، والتنظيم السري المسلح! كيف يمكن التحضير لثورة مسلحة؟ بالأناة والدقة! ولنستخدم التقية! في سنة 1926 انتسب القسام إلى جمعية الشبان المسلمين وتستر بها. صار مأذونا شرعيا فتجول في القرى واختبر الرجال واختار

www.alkottob.com

منهم المؤهل للعمل معه. ومع ذلك أبقى حلقاته ضيقة لايكشف إحداها للأخرى.
أين وضع سعاد؟ في لجنة الأسلحة، أم في لجنة مراقبة العدو؟

www.alkottob.com

اعتقل عبد الرحيم في شهر واحد مرة أسبوعين ومرة خمسة أيام، وكان عمر ابنه ثلاثة أشهر. فصارت سعاد تتوقع إذا فتحت الباب أن ترى سيارة عسكرية يركبه فيها الإنكليز، وتظل واقفة تراقبها حتى تغيب عن نظرها. فهل بدأت منذ أول مرة اعتقل فيها عبد الرحيم تطيل الحوار مع نفسها؟

هل تستعيد سعاد أطيافا، أم تبعد أشباحا؟ ماسبب هذا القلق الذي تغلق عليه روحها عاجزة أن تخمده، جاهدة ألا تظهره؟ أهذه معاناة الأقوياء؟ يشعرون بما يشعر به الناس لكنهم لايستمتعون بعرض قلوبهم طلبا للمودة أو الرحمة أو ليرموا منها الكرب والقلق! ممن تطلبين العون ياسعاد؟ من عبد الرحيم الذي قد يعتقل غدا، أو قد يقتل غدا؟

تتفادى سعاد في الليلة التي تشعر فيها بالخطر أن تعانق عبد الرحيم. وتجره بعيدا عن العلاقة بين امرأة ورجل. لكنها هذه الليلة تتمنى أن يحتضنها لتشعر بأنه موجود وباق وأن هذا البيت دائم. هل فهمها في صمت ولذلك ربت على ظهرها؟ تمسك العلاقة بينهما، عندما يغلق الباب عليهما، كما يمسك الفارس باللجام. لاتفلت منها برهة أو حركة بخطأ أو بغفلة. تراقب نفسها وتراقب عبد الرحيم ليكون مابينهما متزنا وسلسا. لكن لتعترف لنفسها الآن بأن طيف حمدان حام في فضاء غرفتها، شامتا أحيانا ومعاتبا أحيانا، في البرهة الدقيقة بين روحين وجسمين! في بعض تلك الليالي شعرت بدموع دافئة حبستها تحت جفنيها. فرددت لنفسها أن الحياة لاتجري بين رجل وامرأة في غرفة يطيران ويحطان فيها، بل تجري في الدنيا. وأنها سعيدة بعبد الرحيم وراضية بما بينهما. وكان طيف حمدان يسألها ساخرا: راضية به أبا، أم صديقا، أم معلّما، ياست سعاد؟ فتطرده غاضبة ولائمة، وهي تعرف السعادة التي عاشتها بحبه يوم كان عشقه متوهجا، أكثره حب وأقله جنون. كانت تطمئن نفسها مواسية بأنها تخلصت من العواطف المضطربة التي يترنح فيها القلب كأنه في رياح عاصفة. فلتعترفي، ياسعاد، الآن بأنك

www.alkottob.com

تترنحين بأسباب أخرى! هاهي تتبين أن كل شيء أفلت من يديها في غرفة مملوءة بالليل! وتتبين عواطف أخرى غير تلك التي هربت منها. تريد بالوضوح الذي تصنف به عواطفها أن تفهم هل تخشى أن يقتل عبد غدا لأنها خائفة عليه أم لأنها تخشى أن تعيش وحيدة؟ نعم، في خوفها عليه خوف أيضا على نفسها وبيتها. آه، آه! لماذا قدر عليها ألا تستمتع بشبابها وجمالها فلاترسل نفسها على حب الرجل فرحة ومغرورة، وتنام بملء عينيها متوقعة أن تصحو في الصباح على رجل يسند رأسه إلى كفه متأملا سعادته بها، فتترك نفسها على غمامة النوم المترددة بين اليقظة والصحو، مستمتعة بأنها مدللة ومحبوبة، وبأن الزمن ينتظرها حتى تنهض من فراشها؟ لماذا قدر لها أن تخشى المرض لأنها لن تجد من يعنى بها، وأن تقف منذ تفتح عينيها لتطعم وتعنى ثم تنتظر الغائب أشهرا حتى يعود؟ فلتعترف بأن الحب الوحيد في حياتها كان حب حمدان المحمل بالأشواق والألم وبالصراع على الكرامة!

بقيت ساكنة قرب عبد الرحيم حتى سمعت تنفسه المنتظم. نام إذن دون أحلام أو كوابيس، مطمئنا إلى أن بيته آمن في غيابه، بها، وأنها ستقاتل كي يصله إلى المعتقل الطعام الطيب والثياب النظيفة! وأن أمه ستبقى أميرة مرتبة تستقبل ضيوفها في غرفتها وتجد من يقدم لهم القهوة والشراب! وأن ابنه سيكبر في غيابه نظيفا وكريما! غمرها عتب على الدنيا. ولاتدري كيف وصلت منه إلى الشفقة على عبد الرحيم. غفت مؤمنة بأنه سيعتقل غدا. فقالت له في الصباح: ألا تلبس بيجامتك تحت البنطال؟ رد في هدوء: لن يعتقلونا في الاجتماع، بل ربما بعده. لذلك سأعود إلى البيت! انتبه إلى شعلة ومضت في حركتها وهي تضع أمامه البيض المقلي الذي غطته بالجبن: كل، يومك طويل! نعم، أفرحها الوهم الذي نشره عليها بأنه لن يعتقل اليوم! وأمتعها أن تسرح على الوهم! فلتكسب ساعات قبل القلق عليه والبحث عنه في المستشفيات أو المعتقلات!

استعجل عبد الرحيم الخروج من البيت لينجو من الكمد الذي لمحه في عيني سعاد ورأى أنها تضبطه. وليتفادى نظرة إلى ابنه. هل يسأل طفله: يازياد، ماذا أجلب لك معي؟! وأغلق الباب دون أن يسمع جواب طفل لايتكلم بعد. داوته السعة التي قابلته خارج البيت، ثم بحر عكا الذي واكبه بعض الطريق.

وجد سينما أبولو في يافا طافحة بالناس، سلم على من يعرفهم ولاحظ أن السنوات قربت مابين الرجال الذين التقوا في مؤتمرات واجتماعات. هاهم أتوا من نابلس والقدس واللد والرملة وغيرها. تبين أن الأكثرية مع الحاج أمين. وهاهو

www.alkottob.com

الدليل! صفق الحاضرون عندما دخل جمال الحسيني والحاج أمين معا. جدول الأعمال: "اللاتعاون" مع الحكومة، والهجرة اليهودية، و"بيوع" الأراضي. في مثل هذه الاجتماعات يشعر عبد الرحيم بقوة العرب كأكثرية. لكنه يستمع إلى الكلمات فاحصا. تكرر الكلمات الأفكار نفسها. فالمهم أنها بيان عن رأي مجموعة. يقرأ فيها عبد الرحيم، أيضا، مايسميه ضغط المدن والقرى، هوى الناس الذين قد لايجيدون الكلام لكنهم يجيدون الإضراب. تساءل المتحدثون هل يستقيل الموظفون العرب كلهم؟ ومن سينفذ ذلك؟ قال أحمد شقير إن الأمة لم تضعف كما قيل لكن الزعماء العرب لايضحون للشعب. واقترح أن يستقيل رئيس بلدية القدس وألا تدفع الضرائب.

يبدو أن جماعة الحاج أمين تصوروا أن طلب الاستقالة موجه إلى الحاج أمين. كأنهم قرأوا مايتجاوز كلام أحمد شقير إلى الفتور بين أبيه الحاج أسعد وبين الحاج أمين الحسيني! اضطربت القاعة. وسمع عبد الرحيم رجالا يصيحون: الحاج أمين ممثل الأمة، لن يستقيل! وسط تلك العواطف تكلم الحاج أمين، فقال لو كنت موظفا لما كنت بينكم. واستبعد الظلال فقال: لاوجود لزعامات في أمة مظلومة يستحيل على زعمائها أن يقوموا بواجبهم! فلينتبه الحاضرون إلى ضرورة الوحدة في الرأي والموقف!

هاهو المظفّر الذي سيصل إلى الهند جامعا المال لفلسطين في الثورة القادمة! تأمله عبد الرحيم، واستمع إليه. الامتناع عن دفع الضرائب هو الوتر الحساس لأنه يشل الحكومة. وهل في البلد ولو عشرة من الملاكين الكبار غير مستعدين لعدم دفع الضرائب؟! أما "اللاتعاون" فلنقرره كمبدأ، ولنأخذ آراء المحامين والموظفين لأن المسألة لاتبحث بالحماسة فقط! تساءل الخطباء الآخرون عن "اللاتعاون" واقترح بعضهم تطبيقه في مستوى مقاطعة الحفلات الحكومية والبضائع اليهودية والإنكليزية.

عندما بحث بيع الأراضي اضطربت القاعة. قال رجل إن بين أعضاء اللجنة التنفيذية من يبيع الأراضي. وطلب آخر ألا يدفن السماسرة في مقابر المسلمين. واقترح المظفّر تجاوز الماضي وتشجيع شركة إنقاذ الأراضي. وأيد عبد اللطيف صلاح وجمال الحسيني اقتراح المظفّر: فلننس الماضي! فهتف كثيرون في القاعة بسقوط الخونة، وصرخوا لأحد يملك الحق في العفو عنهم! لو لم يكن عبد الرحيم رائق الطبع لصرخ: هل يتردد عدوكم كي تترددوا؟ ولصرخ: الحق مع القسّام ففي السياسة يطول البحث وتصبح المؤتمرات كالنوادي، وخلال ذلك نفقد أراضينا

www.alkottob.com

ويحتل المستوطنون بلادنا! ماالذي أتاه بالهدوء؟ شعوره بأن الصراع طويل، قد ينتقل من عتبة إلى أخرى، ويصبح أكثر صعوبة، لكن لن يحله إلا الزمن؟

رجع عبد الرحيم في اليوم نفسه إلى عكا. لم يفته قلق سعاد عليه. أطاع في الأمس رغبتها في بعده عنها. وساقه صبره إلى النوم. وفي الصباح بدا له من عينيها أنها أرقت. لم يخف عليه أنها حرصت ألا تتحرك كيلا يشعر بأرقها! فتظاهر بالنوم كيلا يحرجها. مثلها يكتم الصخب في قلبه كيلا يظن به وهن المحب. كم مرة تمنى أن تناديه معلنة أنها تحتاج ذراعيه لتبعداها عن الأرق! كم مرة راقب، غيورا، ثباتها على جنبها كالنائمة! وهاهو يعود في المساء فرحا بأن يثبت لها خطأ يقينها، متمنيا أن يرى سعادتها به. سيقف أمامها ملء الباب كأنه يقول: هاأنا، رجعت! لم أعتقل!

منذ بداية زواجهما ظل يجتاز الفرق في العمر بينهما، حذرا. يشعر بلهفة الكهل إلى صبية جميلة، وبخشيته أن تعرف أن العمر هرب منه وسيحاول أن يستعيده بها، ومايعني ذلك من ضعف يرمي فيه رسنه لها. كان أيضا حذرا من أن تراه معلّما يقصد أن يبهر تلميذة. وكان يكبح شوقه إليها باتزانه، ويغطي صخب روحه بحنانه. وهكذا أبقاها، كما أبقى نفسه، أسيرة صورة حرص عليها حتى آمن بأنها صورته. سأل نفسه في الطريق من يافا إلى عكا كيف يحدث ذلك؟ وبدا له أن مصادفة ما تقرر أحيانا، لمن يرانا في مزاج ما، أن ذلك هو مزاجنا فنلتزم به. وربما هذا ماينا سب حكمته التي يظهر بها في المعتقل وفي المكتب! يناسبه أن يبدو زوجا حكيما وأبا حنونا! لكنه يعترف بينه وبين نفسه بأمنيات لم يستطع أن يحملها! يعترف بأن سنواته الاولى مع سعاد، بما وهبته من سعادة لم يتصور مثلها، استنبتت أشواقا لم يعرفها. فوسط ذلك الاتزان الذي قبلته سعاد تسرب هوى رائق بدا له أنها تراقبه وترعاه. بعد أن انتقلا إلى عكا قرأ مرات فرحها بالحرية فصارت تغفل عن صوت يبوح بسعادتها ثم تدفنه بغفوتها. فهل يؤرخ أرقها بأول مرة اعتقل فيها؟ صارت تبعده عنها كلما تخيلت أنه سيعتقل، متفادية ألمه وألمها. وربما متفادية الفشل الذي لاتريد لأي منهما مذاقه أو ذكراه وهي تتصور أنهما يتقاربان أمام مراقب ينتظرهما قرب الباب مع هدير سيارته العسكرية!

لمع الفرح في بشرة سعاد فكاد يضيء عتمة المساء الذي وصل فيه إلى البيت. نقر الباب بأصابعه نقرات فرحة وعرف أن سعاد سمعتها من خطواتها السريعة لتفتح الباب. رفع كفها وقبلها. قال مستمتعا بانتصاره: رجعت! فمشت

www.alkottob.com

أمامه: لم أتوقعك! كدت أحضّر سلة الطعام للمعتقل! لايحتاج اعترافها! يعرفه! لكنه استمتع به. فلنتعش معا!

راقبها وهي تداري ارتباكها بالحركة بين المطبخ وطاولة الطعام. ماأعذب الشعور بحب هذه المرأة! وليت الدنيا هادئة كي يستمتع بالسعادة غير خائف من انقطاعها! في عتمة الغرفة أفلتت فرحها القديم فتمتمت وهو يعانقها. وعرف أنها أبعدت حراسها عن سعادتها به. لكن ذلك لم يجعله ينسى حذره من الخطأ فمشى إليها حنونا، مجتازا الخمس عشرة سنة التي تفرق بينهما. ماأجملك ياسعاد عندما تسرّحين حراسك فلاتقيسين الخطوة التي قد أخطوها إليك أو تسبقينها إلي! فلنستمتع بالحرية التي خطفناها من الإنكليز!

ترك عبد الرحيم سعاد نائمة ومشى حافيا فسخن الحليب لابنه وأطعم أمه. وضع إصبعه على فمه طالبا من زياد الصمت كأن الطفل يفهمه. واستقبل سعاد بعد ساعات وهي تتقدم إلى المطبخ بقميص النوم نضرة الوجه تخفي خجلها بسعادتها. خيل إليه أنه لمح طيف ابتسامتها وهي تستدير كالمنصرفة إلى تحضير القهوة.

قرآ في ذلك اليوم في الصحف قرارات اجتماع يافا الكبير المنعقد في السادس والعشرين من آذار سنة 1933 الذي اعتمد مبدأ "اللاتعاون" في مقاطعة الحفلات الحكومية والبضائع الإنكليزية والصهيونية. وقرر تأليف لجنة من الأحزاب واللجنة التنفيذية لبلورة مفهوم "اللاتعاون". ودعم لجنة صندوق الأمة لشراء الأراضي. واعتمد مقاطعة البضائع اليهودية والإنكليزية. ونفذ قرار "اللاتعاون" بنداء من اللجنة التنفيذية لمقاطعة حفلة ميلاد الملك جورج.

بقي عبد الرحيم مستمتعا بحريته حريصا على العودة إلى البيت مبكرا. فبدا لسعاد أنهما يستعيدان سنوات الزواج الاولى المضللة بأفراحها الهادئة. واسترخت على الوهم مع أنها تابعت الاجتماعات التي يحضرها عبد الرحيم. وفي يوم الجمعة في الثالث عشر من تشرين الأول سنة 1933 نزلت إلى القدس لتشترك في مظاهرة النساء العربيات. ورجعت في اليوم نفسه متعبة وفرحة.

لكنها لم تستعد ابنها من بيت شفيقة. لأنها خلال مظاهرة القدس قدرت أن مالم يحدث في يافا في آذار سيحدث في تشرين الأول! سيعتقل عبد الرحيم! وهاهو يلبس بيجامته تحت البنطال ويسافر إلى يافا! فلتودع هذه الأشهر الحرة!

قررت اللجنة التنفيذية مظاهرة في يافا في تشرين الأول سنة 1933. فخرج عبد الرحيم خلف أعضاء اللجنة من دار الجمعية الإسلامية المسيحية، ومشى مع

www.alkottob.com

الناس إلى صلاة الجمعة. في المقدمة رئيس اللجنة ووفد سورية ووفد الأردن ووفد من عرب الفضل. مشوا إلى حي العجمي، وبدأ الصدام. ضربهم البوليس بالعصي ثم أطلق الرصاص عليهم. خيل لسعاد أنها تسمع من عكا دويّه وهي تنهض واقفة، ممسكة رأسها بكفيها. ياويلهم! قتلوا ثلاثين عربيا وجرحوا مائتين؟ ياويلهم!

عرفت سعاد أن جمال الحسيني والمظفّر وعوني عبد الهادي ودروزة اعتقلوا، وأن الأحكام العرفية أعلنت. فغاب اعتقال عبد الرحيم وسط مصيبة فلسطين. في حيفا ونابلس والقدس أطلق الإنكليز الرصاص على المتظاهرين فتجاوز عدد الجرحى الستين توفي منهم خمسة. أطلق البوليس الرصاص على الناس من الخلف. ومنع الأطباء والممرضين من الوصول إلى الجرحى! فوق هذا يفتتح مرفأ حيفا في الواحد والثلاثين من تشرين الأول ليعطل مرفأ يافا العربي! لذلك طلبت اللجنة التنفيذية الإضراب الشامل وسترفع أعلام الحداد السوداء في يوم بلفور.

احتجت لجنة مؤتمر السيدات العربيات في القدس على الوحشية ضد العرب في القدس وحيفا ونابلس. وغرقت سعاد، من الصباح إلى المساء، في زيارة أهالي القتلى والجرحى وفي الطبخ لعبد الرحيم ونقل سلال الطعام إليه في المعتقل. ستبقى لها من تلك الأيام ابتسامته وهي تزوره كأنه يذكرها بأنهما قبل الاعتقالات سرقا السعادة من حراسهما الإنكليز. وأنها كادت تقول له وسط أصوات الزوار التي تدوي بين الأسلاك التي تفصل أحدهما عن الآخر: صار الرجل يستدين من الإنكليز حتى أيام الحرية ليلتقي بامرأته!

www.alkottob.com

كأن عبد الرحيم خرج من المعتقل ليحتفل مع سعاد بيوم ميسلون! كانت في ذلك اليوم كل سنة تضع إبريقا من الماء الشفاف في منتصف الطاولة كأنه أهم ما فيها. ويتابعها عبد الرحيم وهي تصب الماء في كؤوس شفافة كمن يصب ماء مقدسا. فسرت له ذات يوم سبب تلك الطقوس. أيمكن ألا يعطش الجرحى في تموز! أيمكن ألا يكون القتلى قد تمنوا جرعة من ماء الفيجة البارد النقي قبل أن يغلقوا عيونهم على سماء ابيضت من الحرّ؟ ألم تكن حجة الجيش الفرنسي في التقدم حتى ميسلون أنه يقصد عيون الماء فيها؟

وجد عبد الرحيم في بيته شفيقة. قالت له: كأني حضرت لأستقبلك! همس لها: لا أحد يشترك في احتفال سعاد اليوم! لماذا قصدت سعاد أن تنشد أمام شفيقة تلك الخطبة؟ قالت سعاد في مبالغة مقصودة: لم نعش أنا وعبد الرحيم وحدنا، بل عاشت أحداث فلسطين معنا. كأننا أعضاء في حزب لازوج وزوجة. صمت عبد الرحيم قليلا واستمع إليها. أهكذا تستقبل سعاد زوجها الذي خرج من المعتقل؟ أجابتها سعاد مداعبة: ياخالتي، صار عبد الرحيم يذهب إلى المعتقل كما يذهب إلى مكتبه!

عندما بدأ عبد الرحيم بالكلام جرى بعيدا عن علاقته بسعاد. انساق في رواية ما يتوقعه وانصرف إلى نبوءاته. فابتسمت منتصرة: قلت الحقيقة! صمت برهة واستمر في كلامه.

هذه ثورة، ياست شفيقة، ولو لم تعلن بعد. قد تبطئ وقد تسرع، لكنها لن تخمد. يسميها الإنكليز اضطرابات كي ينكروا أنها إجماع على برنامج وطني! من "الأشقياء" ياست شفيقة؟ نحن الذين ندافع عن بلادنا وأراضينا، أم المستوطنون المسلحون الغرباء؟ طردت الوكالة اليهودية فلاحي الزبيدات من أرض الحارثية قرب حيفا بعد اتفاقها مع اسكندر سرسق. أخذ سرسق الأرض من الدولة العثمانية، وبقي الفلاحون يزرعونها! وقت أخذها اليهود وطردوهم منها وقتلوا من

www.alkottob.com

حاول العودة إليها، قيل إنهم أشقياء! لكن البلاد فهمت الإشارة: يسرق المستوطنون فلسطين بالحيلة والقوة! فهل احتفالنا بذكرى ميسلون تحية ليوسف العظمة، فقط؟

يفسد عبد الرحيم حتى هذه الأمسية بمرافعة كأنه في محكمة! قالت سعاد: مفهوم! هذا احتجاج على تقسيم بلاد الشام! نذكّر الانتداب بموقف نجتمع فيه منذ يوسف العظمة! نقول للإنكليز إن فلسطين جنوب سوريا! لكن ليوم ميسلون معنى آخر، ياعبد الرحيم! كأنك نسيت خالد آغا! كيف فاته ذلك؟! مشغول البال، لا تؤاخذيني! لكن هذا يعني أن يوسف العظمة الذي أعرفه صار فقط رمزا، حتى كدت أنسى ملامحه! تأكلنا الأحداث اليومية ياست شفيقة! لامته سعاد: بل يعني ذلك أن البلاد صارت مسائل عامة! لا تظلمينا ياسعاد! لو فقدنا حرارة القلب لما جرينا هكذا من أول النهار إلى آخره! ألكي تكفّر سعاد عن خطأ عبد الرحيم أرسلت تلغرافا إلى عمتها نفيسة؟ كتبت فيه "تذكّرناك ياعمتي في هذا اليوم. تمنينا أن تكوني معنا"!

كانت نفيسة قد لبست ثوبا أسود، وتزينت بعقد اللؤلؤ الطويل الذي يحكي عنه أهل سوقساروجا منذ لبسته في عرس يوسف وفاطمة. وجلست لتشرب القهوة وحدها في الليوان. عرفت مرجانة أنها يجب ألا تقترب منها، وأن تقول لمن يطرق الباب: نفيسة خانم غير موجودة! وأن تنتظر ابن الكحال في المساء، وقد يلحقه بهاء ومنور. وستحضّر لهم العشاء. رأتها من خلال أغصان شجرة النارنج شاردة ترشف القهوة في أناة. كان يوم ميسلون يزيد مرجانة قربا من نفيسة. فيجعلها بحرارة الذكريات التي تستعيدها نفيسة، كأنها مشاركة في حياة عاشت في وسطها. لم تناول مرجانة التلغراف لنفيسة، حتى سألتها من طرق الباب قبل ساعة، وأنهت جلستها في الليوان.

قالت نفيسة لمنور وبهاء اللذين زاراها في المساء: تتمنى سعاد خانم أن أكون قربها في هذه الأيام! كأن ماعندنا لايكفينا! تريدني أن أشترك في الأحداث التي نسمع عنها! فقولا لها: عمتك ستأتي عندما تجد بارودة! وإن شاء الله، سأشتريها! كتمت منور ضحكتها، لتشترك بمهابة في احتفال نفيسة الخاص بميسلون. لم تذق نفيسة الكبّة النيئة التي دقتها بنفسها في الجرن، ولم تذق التبولة. لكن ابن الكحال الذي يعرف أنها أعدت ذلك لخالد آغا سكب منها، ليشارك نفيسة في "استحضار الأرواح" الذي تصر عليه في كل سنة في يوم ميسلون! ولم يفته أنها لم تحضّر الكبّة المشوية التي يحبها. يعني ذلك أن نفيسة تريد هذا اليوم لخالد آغا فقط! قال

www.alkottob.com

لنفسه ساخرا: كأن الأيام كلها ليست لخالد آغا!

أمضى بهاء الأمسية صامتا، كمن يصغي لكلام لا تقوله نفيسة إلا له. وبدا لمنور أنه يبالغ في احترام عمتها، فراقبته بطرف عينيها. مر المساء رائقا كأن أكثره حديث مع النفس، أو كأنه إصغاء لطيف خالد آغا. انحنى بهاء وهو يودع نفيسة. لم يبق إلا أن يقبل يديها!

تساءلت منور وهي تمشط شعرها أمام المرآة المصدّفة: هل يتمنى الرجل أن تخلص له امرأة وتستبقيه بعد موته كأنه حيّ؟ أم يتمنى لها أن تنساه وتفرح بعده؟ رأى بهاء وجهها في المرآة، رأى شعرها المنسدل على ظهرها، فكرر السؤال لنفسه. هل يصعب الجواب، يابهاء؟ قال لها كأنه يحدث نفسه: أين السعادة لامرأة مثل نفيسة؟ بغائب صار أكثر حياة بغيابه، أم بحيّ قد يخيّبها وستقارنه أبدا بمن فقدته؟ وبدا له عندئذ أنه لم يعرف أباه كما كان يجب أن يعرفه. كأن الأبناء يعجزون عن ذلك لأنهم يقبلون البعد عن آبائهم ويرضون بألا يعرفوهم إلا في صيغة واحدة! خيل لمنور أن خالد آغا وهب أقرباءه الحق في الزهو، ووهبهم فرصة أن يتأملوا وجوهه. وأخذ بذلك لنفسه الحق في حياة طويلة لا يستطيع أحد أن يمنعها عنه. ألا يوحي تلغراف سعاد بذلك؟ داعب بهاء منور: يبدو أن عمتك مستعدة لثورة! لكنها وسّعت مجالها من دمشق إلى فلسطين! هل أراد بهاء بهذه الكلمات أن يستبقي أسئلته الأخرى لنفسه؟ ألا تستشف أنه سأل نفسه: هل يتمنى أن تكون منور كنفيسة إذا قتل في ثورة ما، أم يتمنى لها أن تتزوج رجلا آخر؟ قالت له كأنها تحدث نفسها: المسألة يابهاء، أن الغائب لايأخذ معه الصور التي رسمها في حياتنا، ولايستطيع أن يلمّ عبقه من غرفنا، لايستطيع أن يقص مايخصه من أفراحنا وأحزاننا! قد ترى صورا قسمها شطرين رجل وامرأة طلق أحدهما الآخر. لكن الموت الكبير يمنع مثل ذلك الفراق! هل تطمئنينني يامنور؟ وضع ذراعيه حولها وتأمل وجهها الجميل، أمسك شعرها بين أصابعه وفرّقه. ثم ربت على ظهرها: يالهذا الاحتفال بميسلون!

في مقهى سوقساروجا تذكر صاحب المقهى اليوم الذي اعترض فيه طريق خالد آغا وسأله ألم يعد مقهانا يعجبك؟ تذكر قهر خالد آغا في أيام الاتحاديين. تذكر مقتل شهاب وخروج خالد آغا من المقهى إلى جامع الورد. هكذا يتيح لنا الموت أن نرى الرجل منذ اليوم الذي عرفناه فيه إلى اليوم الذي فقدناه فيه! ياشباب، لا يجلس على كرسي خالد آغا إلا من يستحقه! وحتى يأتي ذلك اليوم، تركناه فارغا، له! وقف صاحب المقهى وصاح: خالد آغا! فوقف الحاضرون

www.alkottob.com

ورددوا: عاش، عاش، عاش! هتف: خالد آغا! فردّوا: عاش، عاش، عاش! كانت نفيسة جالسة قرب النافذة فسمعت صدى هتاف الرجال. قالت لنفسها: ماأعظم الموت الذي لاينساه الناس! لكنها قالت لمرجانة في هدوء: عاش؟ شبع خالد آغا من الموت! أتعترض على غيابه الطويل، وتذكّره بأنها تتمنى عودته؟!

وصل إلى سعاد تلغراف من نفيسة: أمنيتكم عزيزة علينا. سننفذها عندما يجدّ الجدّ! فقالت سعاد لعبد الرحيم: تنتظر عمتي الثورة لتزورنا! رد عبد الرحيم: من يتمنى أن تزوره في أيام مضطربة، له هذا الجواب! على كل حال لن يطول انتظارها!

أثمرت الاتصالات بالملك السعودي عبد العزيز فأرسل ابنه سعود إلى فلسطين، ورافقه خير الدين الزركلي. رافقه فخري البارودي ونبيه العظمة إلى محطة اللد. وزاره شكري القوتلي. ورسموا له جميعا الخطر على فلسطين وتآمر الإنكليز عليها وخطر الهجرة. زار الأمير المسجد الأقصى، فأنشد له عبد الرحيم محمود:

المسـجد الأقصـى أجئـت تـزوره أم جئت من قبل الضياع تودعه

وغدا، ومـا أدنـاه، لايبقـى سـوى دمــع لنــا يهمــي وخــد نقرعــه

وأبكى الأمير والناس.

في تشرين الأول سنة 1935 قال عبد الرحيم لسعاد عندما اكتشف العمال العرب في المرفأ صناديق إسمنت منقولة من بلجيكا إلى يافا، موجهة إلى تل أبيب، في داخلها أسلحة: تستطيع عمتك نفيسة أن تلبي دعوتنا! يجرّد العرب من السلاح ويسلح اليهود! يهرّب إليهم السلاح ويتغاضى الإنكليز عن التهريب.

نزلت سعاد في ذلك اليوم إلى السوق واشترت رزا وسكرا وشايا. وأوصت أن يحمل لها السمن والبرغل والزيت من القرى. قال لها عبد الرحيم في ذلك المساء: ما أسرع ما فكرت في المؤونة! سألته: على من أترك البيت؟ عليك؟ فانتبه إلى أنه منذ زمن بعيد لم يشتر مؤونة، ثم نسي ذلك. فالبلاد تستعد للإضراب.

خرج عبد الرحيم من البيت، وسعاد ترتب غرفة المؤونة. فقالت لبنات العكي: لولا مساء الخير وصباح الخير لنسيت أني متزوجة! يعود عبد الرحيم عندما أكون نائمة. وأكون مشغولة بالبيت عندما يخرج في الصباح. رجالنا كلهم هكذا، ياست سعاد! لا أحد أحسن من أحد!

www.alkottob.com

تذكرت سعاد نفيسة عندما تحدث فخري البارودي في اجتماع كبير عن فلسطين ووعد بلفور، ووصلت برقية من صبري العسلي وكلمة من جميل مردم. كأنما قدّر علينا، ياعمتي، أن نلتقي في الهموم لا في الأفراح! رجع عبد الرحيم متأخرا في الليل. وكانت سعاد تنتظره. أخبرها: مشت في دمشق مظاهرة عظيمة ضد تهريب الأسلحة لليهود في فلسطين، وضد وعد بلفور، وتصريح وزير المستعمرات البريطاني! لا تذكره ياعبد! وزير لا يستحي! يقول لليهود لو لم يعط وعد بلفور لليهود لكان يجب أن يعطى الآن! يوزع عليهم بلد أجداده؟! ماسمه؟ كانت تحفظ أسماء الجنرالات الإنكليز وأسماء المندوبين السامين، لكنها صارت تنكر أنها تميز بين واحد وآخر. ماذا نفعتنا رسالة تشرتشل إليك، ياعبد الرحيم؟ كل مندوب سام هو هربرت صموئيل. صار علينا أن نحفظ أسماء غريبة عن بلادنا، يهودية وإنكليزية! يقطعهم! لا ينفع مع الإنكليز إلا الثورة! لا يكفي الإضراب!

تأملها في صمت. هل تعرف قرار القسّام هي أيضا وتكتمه؟ قالت: لكن من أين السلاح، ياحسرتي! قال: يشتريه كل واحد لنفسه. ويشتريه الأغنياء الذين نثق فيهم للفقراء! كثير أن يكون منا الدم ومنهم المال؟ هل يذكرها بنصيحة القسّام؟ نعم، يتساءل هو أيضا عن السلاح. تنظيم القسّام دقيق وسري. لا يعرف عبد الرحيم نفسه إلا من قدر له أن يعرفه. ويخمن أن مجموعات القسّام مثله. وتتدرب مثله على السلاح بعيدا عن القرى والمدن. ولكن هل تقوم ثورة واسعة بسلاح متنوع قليل، ببندقية ألمانية قديمة أو فرنسية قديمة! تدفعنا الأحداث وتقترح هي ما يجب. لذلك أتى القاوقجي إلى فلسطين من العراق سنة 1934، وسيمر بنا قريبا!

خمّن عبد الرحيم أن الحاج أمين الحسيني دعا القاوقجي ليحضّر، كعسكري، ثورة مسلحة! وأثار المفتي تأمله. لابد أن اتصال المفتي بالملك عبد العزيز سبب زيارة ابنه فلسطين. لكن المفتي حفظ صلات أخرى بالعسكريين العرب الوطنيين. رجل سياسة!

تابعت سعاد حديثه المعلن والسري. قالت له: لو اتفق المفتي والقسام في مشروع واحد..! قاطعتها دهشته: إياك ياسعاد، أن تقعي في التفريق بين رجلين يكمل أحدهما الآخر! يعتمد القسام على الفقراء وعلى مقاومة مسلحة. ويعتمد المفتي على الصلات بالملوك والأمراء العرب، وعلى الوجهاء الفلسطينيين! لذلك قلت، ياعبد، لو اتفق الرجلان! كي يجتمع الوجهاء والفلاحون، والسياسة مع العمليات المسلحة. ربما يرى المفتي في الواقع مالا يراه القسام! ممنوع أن نفكر

www.alkottob.com

في مانقدسه ولو لنؤكد اختيارنا، ياعبد؟! أبدا، أبدا ياسعاد! لكن يبدو أنك لا تعرفين المفتي! أظن أنه يشبه خالد آغا في بعض مقاطع من حياته! هذا رجل ربته أسرة عريقة، درس في الأزهر وفي كلية الآداب في مصر، ثم درس في المدرسة العسكرية ودافع عن الدردنيل في الحرب، عرف في استنبول رجال النهضة العربية العراقيين والسوريين، نظم مع أصحابه المؤتمر الوطني الفلسطيني في دمشق أيام فيصل، أسس جمعيات أدبية وسياسية في فلسطين وأثر في النادي العربي، وانحاز إلى "فلسطين جنوب سوريا" أمام حداد باشا الذي ذكرت لك أن الإنكليز أرسلوه إلينا من دمشق! اشترك في المؤتمر السوري وفي الاحتفال بإعلان استقلال سورية سنة 1920. يفاوض المفتي الإنكليز لكنه يرفض أن يقابل اليهود لأنه لا يعترف بحق المستوطنين في بلادنا! لا تختلط الأمور لديه أبدا! يعي المفتي دور الايمان في حشد الناس للدفاع عن المقدسات، أتعرفين أنه قدم رجل دين شيعي ليصلي في الناس في المسجد الأقصى خلال المؤتمر الإسلامي ليبين وحدة المذاهب في الدفاع عن الأقصى؟ المقدسات لديه واسعة، وطنية. لذلك اعتبره الإنكليز مسؤولا عن مقاومة مظاهرة جابوتنسكي وحكموا عليه فهرب إلى حضن عشائر الكرك. طلبه هربرت صموئيل من الملك عبد الله فنصحه الملك بأن يعفو عنه. فرفض الحاج أمين العفو لأنه ليس مذنبا وفرض إلغاء الحكم عليه. هل تخمن سعاد مايعنيه ترميم الأقصى؟ لعله أكثرنا، ياسعاد، وعيا بأن الصهيونيين يهددون المسجد الأقصى كمشيدة ورمز وطني تاريخي! لذلك حشد المؤتمر الإسلامي في القدس بعد هبة البراق، ويحشد المسلمين العرب اليوم. هل خمن ما يهدد الأقصى من احتفالات اليهود الدينية قرب حائط البراق، ومن وساطة ستورز لليهود كي يشتروه. ومن محاولة الصهيونيين رشوة المفتي؟ تنهدت سعاد. تشتهي الآن أن تسافر إلى القدس. وتتجول في باحة الأقصى الواسعة ذات الأشجار. تتذكر أنها ركعت وسجدت في المسجد الأقصى مقلدة أباها دون أن تعرف ماذا تتلو من الآيات. تتذكر جو المسجد الساحر، سقفه المرتفع، وملمس سجاده الفاخر، تتذكر أن رقبتها آلمتها وهي تتفرج على الرسوم المذهبة. هل تنتبه الآن فقط إلى أن الأقصى المهيب، وقبة الصخرة الموشاة بالألوان، والباحة المزروعة بالشجر، وسبلان القدس ومدارسها، والحجارة المنقوشة بكلمات لم تستطع قراءتها يومذاك، هي التي تهب بيتها سعته وأمانه؟ هل تنتبه الآن فقط وهي تسمع حديث عبد الرحيم عن دفاع الحاج أمين عن الأقصى إلى أن الرموز المعمارية رموز إلى هويتها الشخصية وإلى عمق اسمها وأسماء أولادها في أزمنة ماكان يمكن أن تعيش فيها وفي أزمنة ممتدة بعدها؟

www.alkottob.com

أكدت الأحداث أن عبد الرحيم كان محقا في خوفه على القسّام. عاد المندوب السامي من لندن فقابلته بلاد مضربة. لكن الإنكليز لا يفهمون العواطف المشتعلة! ولا يعترفون بحق العرب في بلادهم! قرروا غرس وطن صهيوني في فلسطين! فهل تصور القسّام أن الوقت حان لعمليات مسلحة؟

www.alkottob.com

التقت سعاد في حاكورة أهلها مرة أخرى بالقسّام. متى رتب زوجها اجتماعا قصيرا به تحضره سعاد؟ عرض له عبد الرحيم الاجتماع الكبير الذي حضره في يافا. صمت القسام كأنه يتأمل الكلمات. قال بأناة كمن يعرف أن كلماته ستحفظ وستنقل: لا نطلب من المندوب السامي الحرية للبلاد! الخصم ليس حكما صالحا، فلاتبحث هناك عن الخلاص!

في تلك البرهة تساءلت سعاد، هل كان يجب أن يسكت الناس فلايرفعون الرسائل إلى المندوب السامي بانتظار بداية الكفاح العظيم؟ ولايصاغ بيان اللجنة التنفيذية لمقاطعة معرض تل أبيب في التاسع من آذار سنة 1932 الذي سموه معرض الشرق الأدنى وكان يمكن أن تشترك فيه دول عربية؟ هل كان يجب ألا يراقب فخري البارودي في دمشق تسرب البضائع اليهودية إلى سورية أو تسرب البضائع السورية إلى المستوطنات اليهودية، وألا يحاول نبيه العظمة أن يواجه معرض تل أبيب بمعرض مؤسسات صناعية عربية في القدس؟ هل كان يجب ألا تحتج لجنة أصحاب الأملاك للمندوب السامي على زيادة الضرائب على الأملاك، وألا يصرخ العرب تنفقون على الموظفين الأجانب من موازنة الدولة؟ هل كان يجب ألا توجد دعوة إلى صندوق الأمة، لإنقاذ الأراضي، وألا يطلب من الملوك العرب المساهمة فيه؟ وألا ينشر بيان حزب الاستقلال عن الهجرة اليهودية لبناء المملكة اليهودية؟ وألا نصرخ أعطت الحكومة امتياز البحر الميت للصهيوني نوفومسكي؟

لاتحتاج سعاد إلى النبوءة لتفهم أن القسّام يقصد الدعوة إلى مقاومة الإنكليز بالسلاح! سألته: ياشيخ، ضيع الناس الزمن إذن بالاجتماعات والرسائل إلى المندوب السامي؟! انتقلوا من بلد إلى آخر ليجتمعوا، صرفوا الليل والنهار في تحضير لجنة، عبروا اختلافاتهم ليصوغوا بيانا، تركوا أعمالهم وبيوتهم ووقفوا في مساحات الخطر أمام الإنكليز والمستوطنين، بلا فائدة؟! كانت تقصد نفسها،

www.alkottob.com

وخالها، وعائلات المعتقلين، والمؤتمرات التي تجتمع في القدس ويافا ونابلس، والسوريين الذين يدعون إلى مظاهرات واجتماعات لدعم فلسطين، نبيه العظمة في القدس، وعادل العظمة في عمان، وفخري البارودي وشكري القوتلي، وربما بهاء ونفيسة في دمشق، وآلاف الناس الذين يمشون في مظاهرة قد يطلق عليهم فيها الرصاص لكنهم لايعرفون كيف يطلقون رصاصة!

أضاء طيف ابتسامة وجه القسّام. فشعرت سعاد فورا بأنها استعجلت الكلام. يابنتي، كل مايجمع الناس اليوم خير، وكل مايستنهضهم ليقاوموا الإنكليز والهجرة خير! كان عليها أن تفهم أنه لايقصد حركة الناس في المؤتمرات، بل الوهم بأن الرسائل إلى المندوب السامي والوفود إلى لندن تستطيع أن توقف الهجرة اليهودية، وأن تحمي الأراضي العربية من التسرب إلى اليهود! كان عليها أن تفهم سعة القسام الذي يرى الحق في تعبير آخر هو المقاومة بالسلاح، ويخاطب جمهورا آخر هو الفلاحين الفقراء الذين صاروا عمالا فقراء في حيفا. وأن يعتمد الايمان الذي يستطيع أن يجمعهم في جهاد وطني. ألم تجمع عائلتها قدري، عضو المؤتمر السوري، وسعيدا المقتول في الثورة السورية؟! ألم يكن قدري، الذي لايعرف غير السياسة والكلام والاجتماعات، على اتفاق مع مريود الذي قاوم بالسلاح حتى قتل؟

قال لها عبد الرحيم فيما بعد: تجول القسام في القرى كمأذون شرعي فعرف الفلاحين وانتقى من يثق فيهم. درّس في جامع الاستقلال ونبه إلى حق أهل فلسطين في الجهاد حتى يردوا خطر الإنكليز واليهود عن بلادهم. اختاره مؤتمر جمعيات الإخوان المسلمين الذي اجتمع في عكا رئيسا. لاتنسي أنه باع بيته في جبلة وخرج إلى الحفّة ليقاوم المحتلين الفرنسيين في سورية. هذا رجل وهب نفسه للمقاومة الوطنية. قالت له سعاد: فهمت أن القسّام لايرفض للسياسيين طريقهم، لكنه ربما يريد أن يفيدوا من طريقته! ألم تقل إنه يتصل حتى بمن لايتميز بالتقوى؟ ياسعاد، في الخيار بين مقاومة مسلحة وبين مقاومة سياسية، أو في مهارة الجمع بينهما، مصير البلاد! سألته يومذاك: وأنت، هل اخترت إحداهما أم جمعتهما؟ أنت من جماعة القسام، ولديك مسدس وقرآن! ومع ذلك تحضر الاجتماعات والمؤتمرات، ماشاء الله! هل تظنين ياسعاد، أن من يحضرون المؤتمرات ليست لديهم أسلحة؟! لم يروها جوابه. ولم تفهمه إلا فيما بعد، في حوار آخر، بعد مقتل القسّام. وبدا لها وقتئذ أن عبد الرحيم عاش زمنا طويلا قبل أن تلتقي به. وأنه خزن مالاتعرفه. وسمح لها بأن تزهو برأيها كأنها تملك اليقين. كي

www.alkottob.com

يشجعها، وليحفظ مايجب ألا يبوح به. كيف انتقل من سياسي وطني في المؤتمر السوري، إلى قسّامي، واختير كوجيه من الوجهاء ليجمع التبرعات لضحايا قصف الفرنسيين دمشق، ثم لضحايا هبّة البراق! تخمن الآن أنه كان عضوا في جمعيات الإخوان المسلمين! وأنه قريب أيضا من الحاج أمين الحسيني! لم يعطها عبد الرحيم مفاتيحه كلها إذن! وهل يملك أن يبوح لها بصلة المفتي بالقسّام، وصلة جمعيات الإخوان المسلمين بالسياسيين البعيدين عنها، وضرورة الجهاد المسلح مع مفاوضة الإنكليز! التقى عبد الرحيم بتشرتشل كغيره من السياسيين العرب، وكما سيلتقي الحاج أمين والوطنيون بالإنكليز. لكنه مثلهم لن يقبل أبدا اللقاء بمستوطنين يهود كيلا يهبهم الحق في وجود شرعي في فلسطين!

خبأت سعاد هواجسها، وانشغلت بقرارها. هي من الأشخاص الذين تستدعي قناعتهم العمل. حزنت على أهل المحكومين فرافقتهم إلى السجن واستقبلتهم وانشغلت بهم، وبكت معهم. حتى بدت واحدة من أهلهم. وهاهي بعد لقائها بالقسام مشغولة بحوار مع نفسها يكاد يخمنه عبد الرحيم. تسترت على الأسلحة بعد لقائها الأول بالقسّام. لكنها لن تستطيع أن تستعمل تلك الأسلحة! فهل تقبل أن تنفذ أي أمر يطلبه منها القسّام؟ تفهم أنه يهتم بالنساء ويرى أن الثورة مستحيلة دونهن. وهل كانت الثورة السورية ممكنة دونهن! لكن سعاد لاتستطيع إلا أن تجمع الخيار إلى الالتزام. فهل يمكن أن ينفذ جندي أمرا يعجبه وألا ينفذ أمرا آخر لايعجبه؟ اسمع ياعبد، لاتظن أنك تستطيع أن تجرني إلى أمر لاأريده! أعجبني القسّام، وهو على عيني ورأسي. يجب أن أشكرك لأنك أخذتني إليه مرة ثانية. لكني لاأستطيع أن أعمل إلا مايقنعني! لاتطلب، لاأنت ولاهو، مني ما لاأحب! أجابها عبد الرحيم بابتسامة فقط!

سألها في اليوم التالي هل خطر لها أن القسّام سيعطيها مسدسا ويطلب منها أن تقتل ضابطا إنكليزيا؟! فسألته: لو طلب منك ذلك أكنت تتردد؟ لم يجبها. فالخيار الصعب في بلاد محتلة لايعلن في فخر. قال: قتل أي إنسان ليس للزهو، ياسعاد. لكن يبدو أن الإنسان يحتاج كمية كبيرة من الظلم كي يستطيع أن يرد عنه قاتله! ربما عرفت ذلك يوم استنجد بي الفلاحون الذين طردوا من أراضيهم وسلمت لليهود. عجزت عن نجدتهم ورأيت أن القوانين لاتستطيع الدفاع عن الناس إلا إذا صيغت لتدافع عنهم، وإذا احترم فيها جوهر القانون لاظاهره. تجري القوانين في سياسة عامة قد ترجّح الرحمة. لكن السياسة العامة هنا منحازة لليهود، لذلك توجه القوانين ضد الضحايا. لعلني يومذاك بحثت عن القسام وعن الحاج

www.alkottob.com

أمين وعن الجمعيات، أو ربما هم الذين وجدوني! وربما لم ينضج الظلم الفلاحين المطرودين فقط، بل أنضجني أيضا لأستطيع أن أرد قاتلي بأية وسيلة ممكنة!

هل قصد أن يجيب على هواجسها، أم أن يقول لها: أنت حرة إذا لم ينضجك الظلم العام! يضعها في ذلك المكان الهشّ؟! اسمع ياعبد، لاتبعني بطولات! في أسرتي من الشهداء مالايوجد في أسرتك! بكيت على شهدائي أكثر مما بكيت أنت على موتاك! لذلك أنا واضحة! لن أكون "نفرا" عند أحد! هل أغضبها؟ ابتسم لها: أنت لست "نفرا" بل أميرالاي! جارته في مداعبته فابتسمت: كم تبدل الزمان! كان الرجل يقول للمرأة أميرتي فصار يقول لها أميرالاي!

هل كانت سعاد تقاوم سحر القسّام أم كانت تفهم زوجها أن انحيازها ليس سهلا؟ أم كانت تسأل نفسها عن الحدود التي تستطيع أن تنفّذ فيها طلب مجموعة أو ترد طلبها؟ هل كانت تقيس قواها؟ ماأعجب أن تسير على خطوات نفيسة في زمن آخر ومكان آخر! يبدو أن الدنيا لاتمشي إلى الأمام بل إلى الوراء، ياعمتي!

ربما رجح انحياز سعاد إلى القسام، الاجتماع الذي نظم في دار اللجنة التنفيذية لبحث الهجرة وبيع الأراضي، في شباط سنة 1933 وقرأت وصفه في جريدة الجامعة العربية. أضاف لها عبد تفاصيل لم تنشرها الجريدة. فخيل إليها أنها فهمت مالم يقله أمامها القسّام: لايقاوم الإنكليز إلا بمؤسسة، نظيفة، مغلقة على العدو! قالت: دخلتم، ياعبد، ببطاقات على كل منها اسم المدعو، خوفا من تسرب الجواسيس؟! انشغل عبد الرحيم بصحن شوربا العدس الذي وضعته أمامه. لايدهشها أن يحضر الاجتماع أشخاص متنوعون. لكن كيف تتنوع الآراء في السماسرة؟! من الحاضرين الحاج رشدي الخياط من عكا! رجل محترم جلس عبد الرحيم إلى جانبه! في الاجتماع روى عوني عبد الهادي قصة الاضطرابات ومراوغة اللجان البريطانية والكتاب الأبيض والكتاب الأسود. لكن صراحة الشيخ عبد القادر المظفر استوقفته. قال إن السياسة البريطانية تضع البلاد في حالة سياسية واقتصادية واجتماعية تسهّل إنشاء الوطن اليهودي. لكن إذا شكلنا وفدا ليقابل المندوب السامي ويرجوه أن يمنع بالقانون بيع الأراضي والمهاجرة فسيرد بأن الكثير منكم يبيع أراضيه. فلابد من خطة ايجابية لحمل الحكومة على سن قوانين تمنع المهاجرة والبيع، ولهذا اجتمعنا! هذا اعتراف ياعبد الرحيم! نعم، أكد جمال الحسيني أن التهمة صحيحة: يجب أن نطهّر أنفسنا من سماسرة الأراضي. وتساءل ماذا فعلت "لجنة كشف الستار" التي شكلناها؟ ياعبد، في اجتماع لبحث بيع الأراضي يجب ألا يوجد من يستر السماسرة. لكن عبد القادر شبل قال كلمة

www.alkottob.com

حق وكلمة باطل. قال إن الفلاحين لم يبيعوا الأراضي للصهيونيين، بل باعها الأثرياء العرب. مع ذلك يجب ألا ننبش قبور من مارسوا البيع والسمسرة!

هل كانت سعاد تشير إلى وحدة الروح في منظمات القسّام؟ صحيح ياسعاد، صحيح! تجمع المؤتمرات أشخاصا متنوعين! هم ليسوا رجال القسّام، وليسوا جمعيات الإخوان المسلمين، وليسوا جماعة الحاج أمين! ليسوا منظمة ولاحزبا! الهدف أن يلتقوا في برنامج عام! عبد الرحيم، أبو المسدس والمصحف يقول هذا الكلام؟! هذا مدى في زوجها، بصيرة، أم أسرار؟ هذه صلة القسّام بمؤتمرات السياسيين، أم هذه صلة السياسيين بالقسّام؟ كأنها أبعدت الخلافات الظاهرة واستندت إلى حدسها وشعرت بالرضا. وهل يمكن أن تخمن أن الثوار والسياسيين وأهل البلاد سيطردون معا من فلسطين بعد عقد من الزمن تقريبا! قالت لنفسها: القسّام مخلص، والحاج أمين مخلص، وعبد الرحيم مخلص. وماأكثر المخلصين في تلك المؤتمرات! بقي فقط معيار الخطأ والصواب! ألا يقال "مجنون رمى حجر ألف عاقل ماشاله"؟ ستحفظ سعاد حتى بينها وبين زوجها بعدا لتحكم على الخطأ والصواب! وستهمس لنفسها تحت دموعها يوم يقتل القسّام: ألم تستعجل، ياشيخ؟! وسترد مدافعة عنه بالجزء الآخر من الصواب: الإنكليز هم الذين استعجلوا! سألها عبد الرحيم أين سرحت، ياسعاد؟ مللت من الحديث عن الاجتماع؟ أنت التي فتحت السيرة! أحوم حول المكان نفسه، ياعبد! إذن، كان في الاجتماع عمر الصالح الذي قال إننا نتكلم منذ ساعة ونصف ولم نضع خطة بعد، وتساءل هل نمتنع عن تسديد الضرائب أم يكتفى بالإضراب والاحتجاج. وعبد اللطيف صلاح الذي رأى أن الأمر الممكن أن ترتفع الدعوات في المساجد على الظالمين بأن يبتليهم الله بظالمين أقوى منهم، وأن يطلق المسيحيون في الكنائس الدعوات نفسها! مع ذلك وضع المجتمعون نص مذكرة للمندوب السامي! قالت سعاد مرددة كلمة القسام: الخصم ليس حكما صالحا! صدقت ياسعاد! في جلسة بعد الظهر حكى لنا الوفد عن مقابلته المندوب السامي! قال لهم كل إنسان حر في بيع أرضه، والبلاد تتسع للمهاجرين! لذلك قرر المجتمعون تنظيم اجتماع كبير في يافا يوم السادس والعشرين من آذار يقرر أسس "اللاتعاون" مع الحكومة. وأجّلوا إعلان الإضراب إلى مابعد الاجتماع. سيبحث بيع الأراضي وصندوق الأمة!

www.alkottob.com

وصلت إلى سعاد مهمة من القسّام. همس عبد الرحيم: نشك في أن أبا صبحي سمسار للصهيونيين! عليك ياسعاد أن تثبتي الشك أو تنفيه!

ليل والنوافذ مغلقة والباب مغلق كأن الزوجين نائمان. صوت عبد الرحيم في أذنها مباشرة. سألته: هذا طلب من القسام؟ وضع كفه على فمها. القسام مشغول بالفلاحين والفقراء لابالوجهاء! وأنت ياعبد، لاتفتح مضافتك في صفد وتغيب فيها أياما لتسمع قصص الظاهر بيبرس! لمن تريدني أن أنفذ هذ المهمة، للقساميين أم لجماعتك الأخرى؟ لن تمد سعاد الليل بالحوار. ستنام والصباح رباح! تقدّر سر عبد الرحيم وتهرب منه بالنوم. هل تستطيع أن تقرر حياة أو موت إنسان! وهل تتحمل أن تقرر كما يقرر القضاة، في أنه خائن أو بريء! همس وكفه على فمها: يريدونك أن تراقبيه! تراقبه؟ كيف؟ راقب الفرنسيون في بيروت أخاها سعيدا.. وعندما وصل مرة إلى البيت حمل كرسيا، أطل من الباب ونادى رجلا: خذ، استرح! سأغيب في البيت ساعتين! سألته سعاد يومذاك: من هذا؟ ضحك: تحرّي يراقبني! لاأريده أن يبقى واقفا، حرام! قالت: يعرفون ياسعيد أنك مع الحكومة العربية، تسافر كثيرا إلى دمشق! فهل هي ذلك التحري الآن؟ بل أخطر من ذلك! سألته: ستقررون حياته أو موته؟ همس: يقرر السماسرة، هم، موت الفلاحين والأرض! صمتا. سهل أن نرمي التهم وندين فلانا أو فلانا، ونترك على الآخرين مسؤولية أن يثبتوا التهمة، ونترك للآخرين أن يبحثوا عن الدليل! همست: لاأستطيع أن أسبب قتل إنسان! قال: المسألة أن نقرر هل الخائن إنسان يستحق الحياة! من نحن ياعبد الرحيم، كي نحمل هذا القرار؟ نحمله ياسعاد باسم الفلاحين الذين يسلبون رزقهم، والناس الذين يسلبون وطنهم! آه يبدو أننا نترك الأعمال الصعبة للآخرين! يتهمها بالهرب من مهمات الثوار؟ من يملك الضمير الذي يستطيع أن يميز بين ألم إنساني مقدس وبين ألم بشري لايعترف به؟ سألته: من يملك اليقين؟ قال: كلفوك بأن تبحثي عنه!

www.alkottob.com

لم يقل لها كيف تصل إلى أبي صبحي. هي التي يجب أن تكتشف كيف ومتى! فلتفد من أنه يعرف أهلها في الشام! لماذا لاترسل إليها نفيسة علبة من حلويات الشام معه؟ أو قطرميزا من مربى الكباد الذي تدلل به أعزاءها؟ أو بعض ربطات من القمر الدين الشامي؟ أو ربما مربى المشمش البلدي الذي يبدو كالمجوهرات في صواني نفيسة المصفوفة على السطح في الشمس؟ ولتوح سعاد لنفيسة بأنها سمعت أن أبا صبحي يأتي أحيانا إلى حيفا. وأنها غالبا ماتتزل مع زوجها إلى هناك!

سألها عبد الرحيم: دبرت أمرك؟ أنت رجل سياسة، ياعبد؟ لماذا لايفهم إذن أن الصبر ضرورة كي يبدو لقاؤها بأبي صبحي طبيعيا لايثير الشك؟ يظن السياسيون أن الخونة بسطاء وحمقى! قالت: ياعبد، هم سياسيون مثلكم لكنهم في الطرف الآخر! فاتركني أشتغل على كيفي!

وصل مع ربطات القمر الدين تلغراف من أبي صبحي يناديها فيه "بنتنا سعاد"، ويبين أنه مستعد لأن يوصل الأمانة إليها لكن هذا عنوانه على كل حال. فإذا لم تجد من يمر به من أهلها في هذا الأسبوع فسيكون حرا من أشغاله في الأسبوع القادم ليأتي إليها بنفسه. نقل إليها السلام من نفيسة ومن أم صبحي التي تعرفها يوم كانت طفلة تمسك بيد نرجس وتزور الأصحاب في الشام.

اتفقت سعاد مع شفيقة: سننزل إلى بيت أبي صبحي في حيفا. ولاتسأليني الآن لماذا! لايغيب عن شفيقة الجد في اقتراح سعاد. قالت: صرت، ماشاء الله، مثل خالك قدري؟ إرث ياخالتي! يبدو أن أمراض أهلي تعدي! الله يحميك إذن، ياسعاد!

ليست سعاد مثل منور، ترفض مدينة لأن أباها تألم فيها حتى الموت. تستعيد سعاد حيفا كلما زارتها. وتسجل لنفسها فيها حقا جديدا. في هذا البيت نامت ليلة. وهناك قرب حيفا حاكورة أمها، وبلد الشيخ التي ينزل فيها القساميون. لكن لاوقت لديها الآن لتزور البيت الذي عاشت فيه طفولتها! يجب أن تبدو كمن نزل إلى حيفا ليشتري من أسواقها. طرقت بيت أبي صبحي وهي تحمل قطعة قماش اشترتها من حيفا.

لو تستطيع أن تدفن دقات قلبها وهي تنظر إلى أبي صبحي! يبدو أنها نجحت في كبح اضطرابها! ملأ أبو صبحي الباب بقامته، وهفت منه رائحة النظافة والعطر فشعرت سعاد بالغثيان. بدا وسيما أيضا! أدهشها فيه اطمئنانه واسترخاؤه. هل توقعت أن تقرأ الوطنية أو الخيانة في ملامحه؟ هل توقعت أن

www.alkottob.com

ترى رجلا بشعا قصيرا سمينا، مضطرب الروح مثقل الضمير بالخيانة؟! إياك ياسعاد أن تحكمي على الرجل من ظاهره، وإلا غشتك الوسامة، واللطف والتهذيب! لاتقيسيه بنفسك، ياسعاد! كم بدت أمامه صغيرة غرة! وكم بدا كبيرا، حكيما، واثقا من نفسه! فليكن، ستفيد من ذلك! ولكن هاهي تفهم أنها محاطة بنمط واحد من الناس! الوطنيين!

البيت واسع لأن أم صبحي تأتي أحيانا من الشام. عندما تصل هذه المرة سيزور "ابنتنا" سعاد ويتشرف بمعرفة زوجها. ياعمي، تفضل متى أردت. سنستضيفك قبل أن تأتي أم صبحي. واجبها وواجبك علينا كبير! دعته شفيقة أيضا إلى طبرية: بيت قدري مفتوح دائما للأصحاب! ولابد أنك ترغب مع أم صبحي في زيارة الحمامات. يالمهارة الست شفيقة! سحرته بحديثها واستبقته أمامها وأقسمت أن سعاد هي التي يجب أن تحضر القهوة لاهو! ألم يقل إنه يعرفها وهي طفلة؟ فلتحضر له "ابنته" القهوة. مشت سعاد وراءه إلى المطبخ ليدلها إلى البن والسكر وعاد إلى شفيقة. لمحت سعاد في طريقها غرفة فيها مكتب عليه أوراق. مكتب! وقفت حافية في المطبخ كأنها تعبت من حذائها. وضعت "الدوله" على النار. وتسللت إلى المكتب. نبشت الأوراق بنظرها. يالحظها! هذه ورقة في أعلاها كتابة بالعبرية. العبرية؟ العمى! وكأنها لمحت كلمة ايكا. قرأت المقاطع المكشوفة من ورقة أخرى. يجب أن تحفظ اسم الرجل المذكور والأرض المذكورة. يالهذه المصادفة! هذا عقد بيع بين أبي صبحي وبين.. احفظي الاسم ياسعاد، احفظيه! أسرعت إلى المطبخ وهي تسمع ضربات قلبها. حضرت القهوة وحملتها. ترتجف؟ خائفة؟ لا! هذه أول مرة ترى فيها سمسارا لليهود. خافت أن تكون اصفرت ففركت خديها بكفيها. وابتسمت لتخفي اضطرابها. لماذا تضطربين ياسعاد؟ لأنك رأيت سمسارا، أم لأنك حكمت في سرعة على إنسان؟ تعمدت أن ترن خطواتها بين المطبخ والصالون الذي تجلس فيه شفيقة وأبي صبحي.

حدقت في الرجل وهي تبتسم. يظنها أمّية لاتعرف القراءة لذلك لم يحتط فيغلق باب مكتبه؟ أم اطمأن إلى الصداقة بين الأهل؟ يقع أكثر الناس حذرا في غلطة وتودي بهم هفوة. هل قررت، ياسعاد، أنه وقع؟ وجهه وسيم، يقول من يراه سبحان الذي خلقه! دمث، يظهر أنه يحبك ويحترم نفيسة! يحكي عن زيارته التي سيرتبها مع أم صبحي لبيت "ابنته" سعاد. لم يقبل أن تحمل نفيسة إليه هذه الربطات من القمر الدين بل أقسم أن يزورها ويأخذها من بيتها. خشيت نفيسة أن تثقل عليه بالقطرميزات فحمل المربى من دمشق إلى عكا صعب. لكنه أقسم أن

www.alkottob.com

يوصلها "لبنتنا" سعاد! أي أدب ولطف! خافت سعاد أن تكون شردت. واختبأت بلباقة مثل لباقة أبي صبحي فأقسمت عليه أن يزورها في عكا. حمل لها أبو صبحي السلة التي أرسلتها نفيسة حتى الباب، وأقسمت شفيقة أن تأخذها منه لينصرف إلى شغله. ستدبر هي وسعاد عودتهما بالسيارة التي اتفقتا مع سائقها. لاتتعب نفسك، هاهي تنتظرنا على الطرف الآخر من الطريق!

قالت شفيقة عندما ابتعدت عن بيته: أقسمنا في ساعة عن سنة! أف! فهمت، ياسعاد، لماذا يقسم من يخشى ألا يصدقوه؟ هل تقول لخالتها إنها مرهقة ولن تحمل عنها السلة لأنها ترتجف؟ سألت نفسها مرات: أيمكن أن تكون وصلت إلى اليقين بمثل هذه السرعة؟ ألا يقتل أبرياء في خفة لأن قضاتهم لم يتمهلوا في البحث عن أدلة الجريمة؟ انتبهي ياسعاد، فأنت أيضا مسؤولة عن براءة إنسان! استعادت عقد البيع الذي قرأته على مكتب أبي صبحي. لاتملك الحق في أن تكتم شهادتها! بقيت صامتة طول الطريق إلى طبرية. ستنتظر زوجها في بيت شفيقة.

رددت لنفسها: لكني لاأستطيع أن أحكم على إنسان بالموت! ترتجف يداها؟ لا، يرتجف قلبها! استندت إلى النافذة. أمامها بحرة طبرية. هنا وقف قدري، ووقفت فاطمة، وقف سعيد، وقف نوري.. هل تشعرين بهم ياسعاد؟ هل تتذكرينهم؟ تصوري أن أبا صبحي اشترى هذا البيت من شفيقة لأنها في ضيق، ثم باعه لليهود. هل ترين كيف يفقد حتى الموتى ذكرياتهم وكيف يفقد الأحياء الذاكرة؟ سالت دموع سعاد وهي تتفرج على البحرة. وصحت على يد شفيقة تلمسها: اشربي كأس ليمون قطفته الآن من البستان! من الشجرة التي زرعها قدري بيده! من الشجرة التي كان يدللها أكثر من غيرها! هل تذكرين كيف كان يضيء لمبات الكهرباء على شجر البرتقال والليمون والمندرينا؟ اشربي، اشربي! وضعت شفيقة الكأس على طرف شفتي سعاد، فشمت سعاد قشر الليمون الذي نقع في العصير. لو تستطيع أن تستشير شفيقة قبل أن تنقل مارأته إلى زوجها! تفهم شفيقة رغبتها. لكنها تتفادى أن تسمع منها ماتحتاج أن تبوح به. يجب أن تتحمل سعاد وحدها السر وألا تشرك معها أحدا!

بعد أسبوع وصلت زوجة أبي صبحي. زارتها سعاد باحثة عما يؤكد يقينها. لماذا تأخرت أم صبحي عن زوجها؟ نكّلت الملاعق، ورتبت البيت. لكنها لن تبقى أكثر من أسبوع هنا. الأولاد في الشام، وشغل صبحي هنا وهي بينهما!

لم يضطر عبد الرحيم إلى لقاء أبي صبحي. ولم يتحدث لسعاد عن المصير الذي قررته "الجماعة" له. لكنه سيضطر أن يقابل فيما بعد ابنه. بعد احتلال

www.alkottob.com

فلسطين، رجع عبد الرحيم ذات يوم إلى بيته في دمشق حزينا: طار شكري القوتلي! طار رجل وطني سند ثوار فلسطين! طار صديقي وسندي وظهري! قابل بعد أيام ابن أبي صبحي لعله يتوسط له كي يزور القوتلي في السجن ويطمئن عليه. روى عبد الرحيم لسعاد: رحب بي ابن أبي صبحي وترك مكتبه ليلقاني. ظنني أتيت لأهنئه! قال لي "قلعت شكري". فقلت له "أحسن الله آخرتنا". قال: "هجمت عليه بالمسدس. فقال لي: قبلت رئاسة الجمهورية كعمل خيري، ومن حبي لبلدي، لالأجل المال! لذلك لاتحتاج أن ترفع علي هذا المسدس! تفضل خذ العرش"! روى لي ابن أبي صبحي ذلك وهو يضحك. فأدهشني ياسعاد ذلك الانتصار!

سيكرر شكري القوتلي لعبد الرحيم: لن أنسى ذلك اليوم حتى موتي! وسيصف له في ألم ودهشة كيف رفع ذلك الضابط الشاب المسدس عليه! وسيظل عبد الرحيم يحاول أن يمحو تلك الذكرى كلما تحدث شكري القوتلي عنها. لكن لماذا لم يبح عبد الرحيم للقوتلي بمصير أبي صبحي؟ يطمر السر؟ أم كان مشغولا بأمور أخرى؟ كان يتوسط في كل زيارة من زياراته لرجل من الوطنيين اللاجئين إلى سورية: ياشكري بك، هذا من أسرة كانت تصدّر الزيت والسمسم وكانت له مكانة في حيفا ومضافته تستهلك أكياسا من البن والهيل، يحتاج عملا يسنده! وهذا رجل دون عمل ودون مأوى.. ولم يكن شكري القوتلي يرد له طلبا! على مثل ذلك الرجل رفع مسدس، ياسعاد!

ولكن من كان يخمن أن أم صبحي ستطلب من سعاد ذات يوم أن يتوسط لها عبد الرحيم عند الحوراني ليخرج ابنها من السجن!

www.alkottob.com

كادت نفيسة تحقق أمنية سعاد بأن تكون لها ابنة تزوجها من أنور!

وصلت إلى سعاد رسالة من عمتها نفيسة في دمشق، نقلها أبو رياح: ستزورك ابنتي ثريا. سأنتظر أن تعود معك إلى دمشق. غرفتك ماتزال جاهزة، وثوب النوم الذي تركته قبل أن تتزوجي مايزال في الخزانة. إذا كان صغيرا عليك، سأجد لك ثوبا يناسبك! تذكري أن مربى النارنج الذي تحبينه حاضر!

قالت سعاد لأبي رياح: لن أحمّلك الجواب. منذ هذه الليلة سنكون في انتظار ثريا. فالتفت عبد الرحيم إلى أبي رياح وقال: فلنحتفل إذن! ندعوك إلى الغداء في مطعم البحر!

في الليل قال عبد الرحيم لسعاد: تمنيت أن تؤجل أختك منور زيارتها لفلسطين حتى تنتهي الاضطرابات. وهاهي عمتك تأتمننا على ابنتها! يذكّرها بأنها رغبت بأن تؤجل سفر منور إلى فلسطين؟ ردت: يعرف أهل الشام أنهم إذا ربطوا زيارتهم لفلسطين بالهدوء فيها فلن يأتوا إلينا أبدا!

في السنة الأخيرة من زواج نفيسة ولدت ثريا. كان ابن الكحال يتمنى صبيا. لم يبح برغبته أبدا لنفيسة. لكنه قال لها مرة: كنت أتمنى أن يكون لنا ابنة وابن! لم تتوقف يومذاك لتفكر في كلماته. كأنها خزنتها لتفحصها فيما بعد. ولتلوم نفسها: لم أنتبه إلى مايريده بل إلى ماأردته!

كانت نفيسة يوم حملت بثريا مشغولة بتجارتها بالحرير. وكانت ترسم لنفسها تجارة أخرى: أن تشتري أنوالا وتؤسس مشغلا ينسج أقمشة ذات حواش مطرزة لايوجد مثلها في السوق. لذلك رأت حملها في غير وقته. ورأت أن ابن الكحال غدرها. يوم نزفت في أول الحمل ثقل ذلك على ضميرها. فهمست لنفسها: ذلك يعني أنك لاتريدين الطفل! وأكد لها الطبيب جرجس الذي أنهى دراسته في فرنسا وفتح عيادة في الدرويشية: لاتوجد إشارات إلى الإجهاض. قد يكون النزف تعبيرا

www.alkottob.com

عن اضطراب نفسي!

طوت منذ زمن بعيد تلك الأيام المضطربة من حياتها. لم تقفز، ولم تطلب من مرجانة أن تقف على ظهرها، ولم تقصد الطبيب راجبة منه أن يجهضها! يجب أن تستكمل ماصنعته الطبيعة وأن تتحمل خطأها في الثقة بابن الكحال!

شربت نفيسة الحليب، وأكلت الفواكه، ونامت ساعات طويلة، ومشت كما يجب أن تمشي امرأة حامل. نفذت نصائح جرجس كلها. كأنما كان واجبها أن تأتي إلى الحياة بطفلة صحيحة وجميلة ثم تتركها لأبيها!

نسبت طلاقها من ابن الكحال إلى أسباب متنوعة. في البداية رأى كل منهما أن السبب أنه لايتحمل امرأة مستقلة. سعى إليها لأنها كذلك، لكنه لم يطق أن يواجه استقلالها عنه وهما معا في بيت واحد. اعترف كل منهما لنفسه فيما بعد بأن أحد الأسباب كان الحمل الذي رأته غدرا. قال لها ذات يوم: لولا ذلك لما قررت في عمرك أن تأتي بطفلة ثانية! فهزت رأسها وثبّتت لنفسها غدره.

كانت ثريا في الثانية من العمر عندما أخذها من نفيسة لتعنى أخته بها. لم تطق نفيسة البقاء في البيت عندما خرجت ثريا منه مع ابن الكحال. بقيت نظرات ثريا تجرحها أياما. لم تنسها حتى خلال سهرها على الشرانق. في الليل نهضت لاهثة من حلم لم تتذكره. كأنها تسمع صرخة ضميرها: أما كنت تستطيعين أن تربيها في بيتك ولديك مرجانة تعنى بها وتحرسها؟ لا، لا! ربما تلزم نفسها بمعايير صارمة لذلك ترفض أن تتحمل مسؤولية طفل!

انتقت نفيسة أجمل الثياب الجاهزة من مخزن زواي ساسون لثريا. حضّرت لها الحلوى الطيبة في الأيام التي كانت تزورها فيها، فكان بيت نفيسة يعبق باليانسون والزنجبيل والقرفة. فيقول ابن الكحال: كل هذا لك ياثريا! وتشكره نفيسة بنظرة امتنان. كان يسلك كل الطرقات ليؤكد لثريا أن أمها تحبها. لكنه يعجز عن محو مايظنه أحيانا لوما وأحيانا أسى في نظرة ثريا. غطت ثريا بالدماثة والصمت ماتشعر به. وعجزت نفيسة وابن الكحال عن تحريضها على الكلام لعلهما ينتزعان منها مايظنان أنها تخفيه في قلبها. كانت جميلة، بيضاء ذات حلة سوداء، قليلة الكلام. إذا لامها أبوها ولو بصوت رقيق لأنها وسخت أصابعها، انطوت على نفسها، ووضعت إبهامها في فمها وانصرفت إلى مصّه صامتة. جعلتها نفيسة كاللعبة بما اشترته لها من ثياب جميلة، ومانتقته لها من حلي. اشترت لها حليا لسنوات قادمة: هذا السوار ستلبسينه عندما تصبحين في العشرين من العمر! وهذه الأقراط ستلبسينها في الخامسة والعشرين! أما هذا العقد فللرابعة

www.alkottob.com

عشرة من العمر!

بدا لنفيسة ولابن الكحال أن ثريا تفحص في عمر مبكر العلاقة الخاصة بين أبيها وأمها. كيف لها أن تفهم الصداقة بين رجل وامرأة كانا زوجين لكنهما قررا أن يعيشا منفصلين، مطلقين؟ كيف ترضى بألا تستمتع بأن يكون أبوها وأمها في بيت واحد؟ تفادت نفيسة لوم ثريا لها لأنها تركتها في الثانية من العمر، وطمرتها بالهدايا والولائم والزيارات الطويلة أو الخاطفة. قال لها ابن الكحال مرة مداعبا: ياظالمة، كيف هان عليك أن تتركيها وهي في الثانية من العمر؟ ندم على كلامه لأنه شعر بأنه لمس جرحا حرصت نفيسة على دفنه. انتفضت واقفة وكتمت تنهدة عميقة: بردت قهوتك. سآتي لك بفنجان ساخن!

ربما تمنت نفيسة أن تسألها ثريا لماذا تركت أبي أو تركك؟ ولماذا تركتني؟ لكن ثريا بقيت كالأميرة المتعالية تغطي أسئلتها بالتهذيب والصمت. أفرح نفيسة أن تراها وهي طفلة تهرع إلى أبيها لتسأله هل يسمح لها بأن تخرج مع مرجانة إلى الحارة. أو أن تسأله: هل تأكل قطعة أخرى من الكعك. فتهمس لنفسها: وجدت من يعوضها عن أي أم!

لم يصحح ابن الكحال وهمها. فالحياة التي انغمست فيها نفيسة جعلته يشعر بأنه يجب أن يسهر على نفيسة أيضا. وألا يثقل عليها بالتفكير في ثريا. بل حاول أن يبعدها بالاطمئنان الكاذب: لم تأت ثريا معي لأنها ذهبت في نزهة مع أختي. وهكذا بدت ثريا لنفيسة في مجرى بعيد عن الدولة العربية ومعركة ميسلون والاحتلال والثورة السورية. فتباعدت زيارات ثريا لبيت نفيسة وندرت زيارة نفيسة لبيت الكحال. وردد ابن الكحال لنفسه وهو يتابع نفيسة في أيام الثورة السورية وفي الأحزان التي تلتها: تحتاج نفيسة الشعور بأنها حرة من الأسرة!

لعل حبه لنفيسة لم يكن هكذا في بداية علاقته بها. لعله قصد أن يتزوجها ليقول مزهوا كأي رجل: هذه المرأة لي! أنا أخذتها! ولعل أيام الصراع بينها وبينه كانت محكومة بذلك! لكننا ندفع ثمن النضج، يانفيسة! وأنا دفعت ثمنه! ربما لم أؤثر في حياتك لكنك وسّعت حياتي! آه، لاتظلم نفسك ياابن الكحال! حميت ظهري فتركتني حرة! لم أنشغل بهمّ ولد بل أنت الذي انشغلت به! لو يعرف ابن الكحال كم كانت نفيسة تحتاج الجلوس معه في تلك الأمسيات التي كانت تحتضر فيها الدولة العربية، وتجتمع بخالد آغا لتتأمل مأتم الأحلام! ماأكثر الأزواج الذين ينفردون بزوجاتهم في المخادع، ياإبن الكحال! ولكن من يستطيع منهم أن يكون الصديق في أيام الضيق، والضوء في أيام الظلمة؟! لنقل إذن إني

www.alkottob.com

كنت فانوسك، يانفيسة! لكنك كنت أنت التي تشعلينه وتطفئينه متى أردت! تندم على ذلك، ياإبن الكحال؟ أبدا، يانفيسة! ألم تشعري دائما بأن زيارتك لي في الدكان في باب البريد تزيّن السوق كله، وتعلق البالونات على المآذن كأننا في وقت الإفطار في رمضان؟ يبعت لك الهنا، ياإبن الكحال! صرت تتكلم كأنك شاعر أو كشاب يحاول أن يكسب فتاة! وأين نحن من ذلك العمر!

في آخر سنة 1930 عادت منور من طبرية تحمل صبيا جميلا واسع العينين. وصفت لنفيسة بساتين الموز والبرتقال في طبرية، والمسكوبية، والحمامات، والحدائق التي تحيط بمستشفى تورنس. خلال حملي بمعتصم منعتني خالتي الست شفيقة من السفر. لكن بعد ولادة معتصم زرت سعاد في عكا، وسافرت معها إلى بيت زوجها في صفد. زرت حيفا. نعم تغيرت حيفا ياعمتي نفيسة! كثرت فيها المخازن. زرت خالاتي بيت القسيس وذاب قلبي وأنا أتفرج على بيت أهلي في الكرمل! لن أزور حيفا مرة ثانية!

نشرت منور خضرة فلسطين وغمرت بها نفيسة. وبحماسة العائد من زيارة أهله بدت لها المسافات قصيرة وعاهدت نفسها على العودة إلى المدن التي زارتها. فقالت لنفيسة: ياعمتي يجب ألا نترك سعاد في عكا كأنها مقطوعة عن أهلها في الشام. ويجب أن نزور خالتي الست شفيقة في طبرية! الحق معك يامنور! كان أبوك وأمك "سرّي مرّي" بين حيفا ودمشق! كنا نركب القطار ونصل دون بازابورت! ياعمتي، إذا قطعوا بلادنا نقطع شرايينا التي تربطنا بأهلنا في فلسطين؟

مصادفة خير من ألف ميعاد! في ذلك اليوم سهر ابن الكحال في بيت نفيسة، ليحدثها عن ثريا. فهمت نفيسة أنه يحمل مايريد أن يبحثه معها. كان مهموما. فقصدت أن تقدم له العشاء قبل أن تسأله: خير ياإبن الكحال؟ كان يخشى أن يعود إلى بيته دون أن ينشر مايؤجل الحديث عنه. خير ياإبن الكحال؟ حرص دائما ألا يشغلها بثريا. لكن الشابة أصبحت في الثلاثين من العمر، ولم تتزوج بعد! لثريا موقع خاص في روحه لذلك لم يطلب منها أن تقبل رجلا لاتريده. يسكن في القنوات، لافي سوقساروجا، ومع ذلك سمح لها بأن ترى الرجال الذين خطبوها. هرب بعضهم منذ اشترط عليهم رضاها، ورفضت ثريا بعضهم الآخر. قد لاتوجد صبية طلبت للزواج بمقدار ماطلبت ثريا. لكنها لم تحدّث أباها ولو مرة عن الرجل الذي ترضى به، أو تحلم به. وكان يذهله أنها لاتبالي بمرور السنوات. هل كانت مطمئنة إلى بيت أبيها كأنه خالد أبدي؟ قالت مرة لقريبة رجل رآها خلال سيران في "بستان المادنة": لاأحب السفر إلى لبنان! أعيش في بيت أبي

www.alkottob.com

مستريحة! أقلقه كلامها عندما نقلته له أخته. وأرضاه أيضا. يعني ذلك أنها تستقوي به! فكيف كان يستطيع أن يقول لها: يجب أن تؤسسي لنفسك بيتا يدوم بعدي؟ كان يخاف عليها من النسيم. ويعرف أن نظرتها في ذلك اليوم البعيد، يوم أخذها من بيت نفيسة وهي في الثانية من العمر، تستعبده. لذلك كرر لأخته: لن تتزوج ثريا إلا من رجل تراه ويراها وتوافق عليه! ولن أقبل إلا أن تكون العصمة في يدها وأن يكون مؤخرها في قيمتها! هل أطمعها ذلك؟ بل يبدو أنها لم تبال به وانسابت حرة في طباعها. أكد ابن الكحال لأخته: لم تفسدها الحرية التي تركتها لها في اختيار زوجها، ويبدو أنها لاتشعر بها! كانت تدخل إلى أهل الرجل الذين يطلبونها وتفحصهم بجمل مقتضبة وهادئة. لاأدري من أين تأتي بالكلام الذي تقوله! كأنها حكيمة زمنها! شعرت يانفيسة أن الزواج محنة. وقدرت نفسي لأني طلبتك مع أنك امرأة قوية! تريد النساء لأبنائهن زوجات مطيعات ومريحات. يبدو أن ذلك لايستقيم مع ثريا. رأيت قلوب الرجال تهفّ إليها عندما تدخل متواضعة وخجولة ورقيقة. لو ترينها وهي جالسة على أقرب كرسي إلى الباب! كالبدر! كالزنبقة الشامية! تجلس مستقيمة الظهر كأميرة. فيفتتنون بها. وكم تحلو عندما تتكلم. يحمر وجهها. لاترفع أبدا صوتها. تموّجه. لكنها تسأل الرجل عن أحلامه، وتسأله أي الألوان يحب، تسأله أية الأمسيات يحب. رأيت أنواعا شتى من العواطف ترتجف على وجوه اولئك الرجال. الخيبة، القهر، الغيرة، الغضب المكتوم! مع ذلك حرص بعضهم على الزواج منها. صمدوا لأسئلتها. ورأيت أنها مالت إلى أحدهم. لكني عندما اشترطت أن تكون العصمة في يدها انسحب مجروحا! يبدو لي أني لمحت أسى على وجهها. لكني عندما قلت لها إني سأطلبه لأتنازل عن شرطي، قالت: لا، يطمعه ذلك فيك وفي! يبدو أنها تشبهك يانفيسة! وأين ستجد رجلا مثل ابن الكحال؟! ضحكت نفيسة ثم استسلمت للصمت. هل كان يمكن أن تقبل ثريا زواجا كزواج أختها؟ لا، أبدا! يمكن أن تقهر على مثله لكنها ستكون تعيسة. ولن تقوى نفيسة أو ابن الكحال على قسرها. وهاهما يتبينان أنهما، كي يعوضاها عن فراق أمها في السنة الثانية من عمرها، دللاها فتوهمت أنها تستطيع أن تختار الزوج الذي تريده!

قالت نفيسة: تعرف ثريا ماتريده فقط، ولاتعرف الدنيا! مارأيك في أن نرسلها مع أبي رياح، زوج مكرم، إلى سعاد في فلسطين؟ لاتكاد ثريا تعرف ابنة خالها، وتكاد سعاد تنسى ابنة عمتها! فحص ابن الكحال نفيسة. هل خطر لها أن ثريا قد تجد في فلسطين من لم تجده في دمشق؟ أم ترمي على سعاد مهمة أن تزوجها؟

www.alkottob.com

كانت نفيسة تسبح في الالتباس في علاقتها بخالد آغا، بحرية من تسبح وسط عواطف لاتستطيع أن تعبر عنها فتصغّرها إذا باحت بها كأية امرأة، وصعوبة أن تسجنها في صيغة تقيدها! لكنها لن تخفي ماتراه لثريا باللّبس! قالت: ياإبن الكحال، في ثريا جوهرة لاأستطيع أن أجلوها أنا أو أنت! قدر كل إنسان أن يجلو، هو، جوهرته بالأفراح أو بالأحزان. لكن ثريا عاشت في حي مغلق. ألا نقول، في سوقساروجا يسكن البكوات، وفي القنوات يسكن الأغوات؟ سيفيد ثريا أن تسافر بالقطار وحدها، وأن ترى الدنيا دوننا! ألا ترى أننا عرفنا فلسطين وبيروت ومصر، لكنها لم تعرف غير حارتها ومدينتها؟ هل كنا نحن قبل السفر كما أصبحنا بعده؟ السفر كالشمس ينضج ثمرتنا، ياإبن الكحال! فلتجلو ثريا بالسفر جوهرتها! وعندما تعود ستعرف أننا لانستطيع أن نحقق في الزواج كل أحلامنا! ولعل الزواج لها لايكون نهاية بل بداية!

www.alkottob.com

طمأنت نفيسة ابن الكحال مرة أخرى: سافرت منور إلى فلسطين بعد هبّة البراق. ورجعت بالسلامة مع أن فلسطين ماتزال قائمة قاعدة! لو انتظرنا هدوء البلاد، ياإبن الكحال، لما تحركنا من بيوتنا! نم مطمئن البال ولاتقلق على ثريا!

جهزت نفيسة ابنتها بثياب جديدة. انتبهت ثريا لأول مرة إلى ذوق نفيسة وهي تقترح عليها ثوبا بلون عشب الربيع: هذا يناسب لون عينيك. وهذه الخضرة الزيتية تناسب سواد شعرك! لكن لماذا لاتظهرين هذا التاج الذي وهبته؟ شعر الصبية تاجها! سأعطيك مشطا مرصعا بالألماس لتزينيه به! اكتشفت ثريا في قلبها خيوطا رقيقة هفهافة وهي تتنقل مع أمها من مخزن إلى آخر في سوق الحميدية. هل تقول لها إن ماكسبته من الاستعداد للسفر هو انصراف أمها إليها؟ لكن هل يسعدها ذلك؟ تعودت أن ترى أمها من بعد، امرأة مشغولة، مختلفة عن عمتها المنصرفة إلى ابتكار نكهة في الكبة باللبنية، أو أشكال جديدة للكعك بالسمسم، وإلى كبس الجبن مع المسك، وكبس الزيتون مع الزعتر، وحشو المكدوس بالجوز، وابتكار مخللات من الخضار. عرفت ثريا أن أمها آوت جرحى في الثورة السورية ونقلت للثوار رسائل وربما أسلحة. تفادت نفيسة الحديث عن ذلك: تريدون أن تكشفونا والبلاد لاتزال محتلة؟! لكن مرجانة روت لثريا أسطورة نفيسة. جمعت ثريا تفاصيل أخرى من عمتها ومن النساء اللواتي يشهقن عندما تقدم ثريا إليهن: بنت نفيسة خانم! زهت بأمها لكنها تفادت أن تتساءل لماذا لاتظهر أنها تشتاق إلي! وهاهي تستسلم لدلال نفيسة التي حملت عنها بعض الأكياس، وأدخلتها إلى مطعم في وسط سوق الحميدية لتأكل "كشك الفقرا" مع الكعك. تقدمتها نفيسة بين الطاولات، عبرتا الرجال الذين يدقون البوظة بالمدقة في براميل أسطوانية، عبرتا الطاولات ذات الرخام والكراسي الخيزران التي تجلس حولها أسر، وصعدتا درجات إلى الحديقة. وضعت نفيسة أكياس المشتريات على كرسي وطلبت من الشاب: "كشك الفقرا" مع الكعك. بعد ذلك قدم لنا بوظة بالفستق! تأملتها ثريا. "تفيد من

www.alkottob.com

التماسّ بين الربيع والصيف وتدللني بكشك الفقرا والبوظة، معا"! اكتشفت هشاشة في روحها وهي تكتشف رقة نفيسة. لماذا تصورت أن في مكان قلب أمها حجرا من الصوان؟ كادت تقول لنفسها في تلك الليلة، أجمل مافي مشروع السفر الاستعداد له! رغبة أهلها في أن تبدو أميرة أسرتها!

قصدت نفيسة السوق دون ثريا مرات. وهكذا حمل أبو رياح في سيارته علب الحلويات، وأقمشة الأغباني، والمناشف المقصّبة، وعباءات من الحرير، وفواكه مجففة، وملبسا في علب من الموزاييك، هدايا لسعاد. اكتشفتها ثريا وهي تركب السيارة إلى جانبه. أكانت تستطيع أن تسافر مع هذه الأحمال بالقطار؟!

رأت وجه نفيسة يطل عليها من نافذة السيارة: تمتعي بالدنيا! فلسطين حلوة! انتقلت نفيسة بعد ذلك إلى نافذة أبي رياح: عينك عليها! لاتحتاج أن أوصيك بها! تبينت ثريا بعض الدموع في قلبها. لكنها تبينت أيضا فرحا بأمها التي استبقتها تلك الليلة عندها في سوقساروجا. كان آخر ماسمعته وهي تغفو خطوات نفيسة الحذرة وهي تحشو حقيبة أضافها أبو رياح إلى الحقائب الأخرى في الصباح. كان النوم في بيت نفيسة مريحا لم تقطعه أصوات الباعة الجوالين في أول النهار. وكان الفطور حاضرا ونفيسة تنتظرها ومرجانة واقفة في انتظار رغبتها في أن تشرب الشاي أو الحليب أو القهوة. عزّ يتجاوز عزّها في بيت أبيها! وهاهي تخمّن قلق أمها عليها وهي تركب السيارة إلى جانب أبي رياح! تلتفت فتراها ماتزال واقفة تراقب السيارة وهي تخرج من سوقساروجا!

حمل الطريق لثريا سعة لم تشعر بها في نزهاتها في الغوطة أو في "بستان المادنة" الذي يطل على الربوة. لم تر السماء واسعة، واسعة، إلا من قاسيون عندما كانت تزور بيت أمها في بساتين الصالحية. وكانت تلك السعة التي تطل عليها من الجبل تبهجها وتذهلها. للسماء موضع لايمكن أن تقارنه بغيره! كانت تصعد إلى السطح لتتأمل السماء، وتهرع إليه في المساء لتراقب النجوم. فقالت عمتها: من يضيع ثريا يجدها تتفرج على السماء! وهاهي السماء أمامها، وكأنها تركض إليها!

برغم اهتزاز السيارة لم تشعر بالدوار أو التعب. ولم تغف رغم ثقل جفنيها. استقبلت كل ماتراه منتبهة إلى التفاصيل. بحثت عن بيت منعزل، عن أرض مزروعة وسط قفر، عن أشجار وحيدة، وغمرها لون السماء وتابعت عليها الغيوم. تذكرت أشكالها التي كانت تشغلها وهي طفلة، وسحر ألوان الخريف البنفسجية والبرتقالية والوردية عليها. كأن أبا رياح تابعها رغم انتباهه إلى الطريق، لذلك

www.alkottob.com

صمت. كانت طريق السفر له أيضا مساحة يسرح فيها. كان مشغولا في تلك الأيام بحب فرومة اليهودية الدمشقية. أتى ذات يوم إلى مكرم وجلس صامتا أمامها. ولم يكن من عاداته أن يبدو معذبا. سيقول لنفسه ذات يوم إنه اعترف لها بأنه يحب امرأة وطلب أن تساعده على نسيانها أو الخلاص منها. وستقول مكرم ذات يوم لنفيسة إنه أتى يطلب منها الإذن بأن ينصرف إلى فرومة. سيتصور أنها سحبت من أذنيها قرطي الألماس اللذين كانت تتزين بهما دائما لأنهما هدية أيام الصفاء بينهما، وقالت له: خذهما! إشارة إلى رضاها على امرأة أخرى! لكنها ستقول لنفيسة ذات يوم إن القرطين لسعاها لذلك خلعتهما من أذنيها وأعادتهما له. فقدا يانفيسة خانم معناهما! لدي أحلى منهما ألف مرة، وأحلى من الخاتم البرلنت الذي أحفظه دائما في خنصري. لكني توهمت في تلك الأيام أنهما كخاتم الزواج الذي لايخلعه من الإصبع إلا الموت! خلعتهما وقلت له: خذ! نسيت مكرم أن تعيد له الخاتم البرلنت لكنها خلعته من خنصرها. فرحت فرومة بالقرطين وتزينت بهما. لكن أبا رياح لم يتذكر مكرم وهو يراهما زينة لها. كانت فرومة تضع "بونيه" على رأسها وتمشي مكشوفة الوجه. لم تكن جميلة لكنه كان سعيدا بها. بين الناس كانت عادية، لكنها عندما كانت تخلو به كانت تفتنه بسحرها فلايتركها إلا مرغما على فراقها. حتى اقترح هو عليها أن يتزوجا. قبلت أن يكون زواجهما في السر. وبعد الزواج طلبت أن يعلنه. وقصدته مرات في بيته. فتحت مكرم الباب مرة فرأت أمامها امرأة منديلها مائل على رأسها، ولاجزء منه مخصص ليستر وجهها. امرأة بعيدة عن كل من تعرف في سوقساروجا. تذكرت مكرم مايردده الصبيان في الطرقات: "أم البونيه الرقّاصة، يبعت لك حمّة ورصاصة" وابتسمت. بدت لها "البونيه" جميلة. سألتها المرأة: أبو رياح موجود؟ لا! من حضرتك؟ قولي له فرومة. انصرفت قبل أن تسألها مكرم من حضرة فرومة؟! أفهمها الاسم أن فرومة يهودية. فهل يقصد أبو رياح التسلية هناك؟ هرع أبو رياح يومذاك إلى فرومة قبل أن يتغدى. لم يفحص وجه مكرم أو يتساءل عم شعرت به. تبع لهفته وخشيته على فرومة. وجدها سعيدة. لم تتحمل سعادتها فقصدته يومذاك لتخبره بأنها حامل. وكان الاحتفال مطرزا بأنواع الطعام والغناء والرقص.

تبع أبو رياح سعادته وهو يسوق السيارة. كان قد عبر الأيام الصعبة التي شعر فيها بالحرج من غيابه عن البيت إلى مابعد منتصف الليل. صار يقيم نصف الأسبوع في بيت مكرم ونصف الأسبوع في بيت فرومة. في البيتين يجد ثيابه مغسولة نظيفة وقمصانه مكوية وطاولة الطعام جاهزة. لكن مكرم تركت له

www.alkottob.com

غرفة النوم وخصت نفسها بغرفة أخرى جهزتها بسرير جديد وشراشف جديدة. عندما عبر تلك الغرفة رأى أنها دون أي أثر منه. كانت حتى الصور على الجدران صورها وحدها. صارت تقفل على نفسها باب الغرفة. لم يمس قرارها بكلمة. بقيت تستقبله وتشرب القهوة معه. وستسأله بعد سنوات، عندما تعرف أن فرومة أصيبت بالتيفوئيد، عن صحتها وتتمنى، بتهذيب مقتضب، الشفاء لها.

أراح صمت ثريا أبا رياح، وأراحها صمته. في السفر كان يتذوق حب فرومة ويستعيده. هل ملّت ثريا الطريق؟ أم لم يعد فيه مايسحرها؟ شعر بأنها غفت فتفادى حجارة اعترضت طريقه. وخفف من سرعته كيلا يصل إلى الحدود قبل أن تستمتع ثريا بغفوتها. ثم حاول أن يتوقف في هدوء. صحت ثريا على التفتيش. ستستمع إليها نفيسة عندما تصف الحدود، وستقول لها وهي تنقل لها دعوة سعاد: لن أزورها! لاأريد أن أرى أجانب يفحصون بازابورتي ويسألونني إلى أين أذهب ومن سأزور وكم سأبقى وهل معي ذهب! كنا نتنقل بين حيفا ودمشق وبيروت بالقطار، دون بازابورت! تريد أن تستبقي تلك الذكريات كما تركتها! لكن أكانت ثريا تعرف فلسطين لو رفضت أن تسافر كيلا تقطع الحدود التي رسمها الاوربيون؟! أكانت تلتقي بالحب الأول في حياتها؟

في فلسطين فهمت ثريا أنها رفضت الرجال الذين طلبوها للزواج لأنها كانت تبحث عن الرجل الذي وجدته في عكا!

www.alkottob.com

أوصل أبو رياح صاحب شركة السيارات بين الشام وفلسطين، ثريا إلى بيت سعاد. كانت منور قد كتبت لسعاد رسالة عن فرومة وأبي رياح. فتمنت أن يرسل ثريا بسيارة من سياراته كيلا ترى وجهه. لكنها وجدته أمامها عندما فتحت الباب. ففرضت لهفته أن ترحب به. كيف تنسى أنه جرح مكرم وتزوج فرومة، اليهودية الشامية! روت منور لسعاد في رسالتها أن أبا رياح طلب من مكرم قرطيها. "تذكرينهما، قرطان طويلان من الألماس لاينساهما من يراهما! سألته مكرم: خير، لماذا؟ شركة السيارات أفلست؟ ماذا يقول لها؟! أيقول، يقدم الأزواج هدايا لزوجاتهم، وأنا أعمل العكس؟ سكت. صدفة، طرقت الباب امرأة تضع "بونيه" مائلة على رأسها، طلبت أبا رياح. فحصتها مكرم. ليست جميلة، ويبدو أنها ليست من ملّتنا. سألتها ماذا أقول له عندما يعود؟ أخبريه أن فرومه تريده! استحلى أبو رياح قرطي مكرم إذن لفرومه! لم تغضب مكرم لأنه تزوج من فرومه في السر عنها. لكنها حتى الآن لاتستطيع أن تفهم كيف استحلى لغيرها قرطيها"!

اضطرت سعاد أن تظهر له فرحها بلقائه وقصدت أن تسأله عن مكرم! وانصرفت إلى ثريا. هفّ شباب ثريا على عبد الرحيم وسعاد. كيف فوتت سعاد على نفسها طوال هذه السنوات متعة أن تدعو إلى بيتها صبية مثلها؟ وضع أبو رياح قرب الباب علب الحلوى ومحفظتين كبيرتين. كان عبق الكوسا وورق العنب المحشو، المصفوف فوق العصعوص والشرحات، يفوح في البيت. وكانت القهوة العربية التي يحبها عبد الرحيم جاهزة في إبريق كأباريق البدو. ماأحلاك ياثريا! متى رأيتك آخر مرة؟ كيف حال عمتي نفيسة؟

انشغل عبد الرحيم بضيفيه وبدا عليه الفرح بثريا. من يستطيع ألا يعترف بسطوة الجمال! صب القهوة في الفناجين الصغيرة وقدمها لضيفيه ولسعاد. ثم أخذت سعاد ثريا إلى الغرفة التي خصتها بها. وحمل عبد المحفظتين إليها.

www.alkottob.com

استريحي ياثريا! هذا هو الحمام!

يستريح المسافر عندما يصل! ستظل ثريا طوال الليل تشعر بأنها في السيارة، لكنها لاتستطيع أن تستلقي كالعجائز! لن تضيع على نفسها يوما من هذا الشهر في فلسطين. تأملتها سعاد. يغطي هدوؤها فوران الشباب! ياعبد، تستطيعون أن تذهبوا إلى مطعم البحر! هناك الغداء، والعشاء هنا! قال عبد الرحيم لضيفيه: ستستريحان من السفر عندما تشمان هواء البحر!

بقيت سعاد في البيت لتغدي أم عبد ولترتب العلب التي حملتها سيارة أبي رياح. تفرحنا الهدايا لأن من أرسلها عرف مانحب وفاجأنا بما نشتهي! قد نستطيع شراء أكثر منها قيمة، لكن الهدية تحمل صوت المحب ونسيم البلاد التي أتت منها! ذكّرت الفواكه المجففة سعاد بسوق البزورية، وذكّرتها صفائح القمر الدين والنقوع بشجر المشمش المزهر في الغوطة، وذكّرها الملبس الطري والملبس القاسي بالأعراس. احتفت بالأغباني والصرما. لكن هل تظن عمتي نفيسة أني سأفتح مخزنا؟ مهما عنينا بك ياثريا لن نوفي عمتي حقها علينا! وهاهي تزيد ثقل دينها بالهدايا! منذ وعيت رأيت هدايا عمتي لأهلي في حيفا. لم ينقطع عنا الملبن والكنافة المبرومة!

قالت ثريا إنها ستبقى مع سعاد. فردّت سعاد: استمتعي بصحبة عبد الرحيم لأنك قد تحرمين منه غدا! تفرجي، يلبس بيجامته تحت البنطلون! لم تفهمها ثريا. لكنها خرجت مع أبي رياح وعبد الرحيم إلى مطعم البحر. وتفرجت في الطريق على عكا كمن يغرف مايراه ليحفظه. في المطعم تنهدت: ياعمي عبد الرحيم، ماأحلى سور عكا، ماأحلى بحر عكا، وماأحلى هذا المطعم! انشرح أبو رياح: منذ دخلنا فلسطين تردد ثريا: ماأحلاها! سأقول لنفيسة خانم لاتنتظري عودة ابنتك بسرعة! طلب عبد الرحيم سمكا، لكن ثريا انتبهت إلى البحر أكثر مما انتبهت إلى الطعام. أمامها سعة البحر وسعة السماء معا. لم تكن رأت البحر بعد! فاحت ثريا كالعطر في المطعم، وشعر عبد الرحيم بنظرات الجالسين في المطعم إليها. هل تفوح الشابة من السعادة؟ نعم، بدا له أن جمالها يتفتح من الفرح. لكن الفرح لم يتوهج في حركة بل انساب في أناقة. كانت نظرتها مثبتة على البحر عندما لمحها أنور من طاولة يجلس إليها مع أصحابه. من هذه الحورية التي أذهلها بحر عكا؟ آه، يعرفها عبد الرحيم! هل ينهض إليه ليسأله كيف تخفي مثلها؟ تأملها وهو يتظاهر بأنه يراقب البحر. أغمض عينيه وأبعد نظرته عنها. هناك جمال يبهر كالبرق وينطفئ. لا، هذا جمال يسحرك بهدوء فتقصده وتحبه! لايرفع عليك

www.alkottob.com

سطوته ليجعلك عبده! حاول أنور أن يوقّت خروجه من المطعم وحده وقت نهض عبد الرحيم وضيفاه. اقترب منهم: ياعمي، كيف حال الست سعاد؟ ستنشغل سعاد الآن بضيفتنا التي أتت من الشام، يادكتور أنور! لم تره ثريا عندما التفتت إليه. كانت ماتزال مشغولة بالبحر. لم يبال بانصرافها عنه. طمأنه أنها باقية في بيت سعاد. بقي واقفا بعد انصراف عبد الرحيم وضيفيه. كأنه يشم عطرها!

أدهشت ثريا سعاد بهدوئها. ألا تبالي بأنها تجاوزت الثلاثين دون أن تتزوج؟ خطر لسعاد أن رسالة نفيسة المضمرة إليها هي: زوّجيها! تبينت سعاد جمال النضج دون هموم أسرة وأولاد. وبدا لها أن ثريا في أجمل العمر، نضرة وفواحة أكثر من فتاة في الرابعة عشرة. تذكرت سعاد ساخرة الرابعة عشرة التي تزوجت فيها، محملة بنضارتها وسذاجتها. يجب أن ينضج الرجال كي يفهموا أن اختيار فتاة في ذلك العمر لايهبهم سعادة بل يؤمن لهم الاطمئنان إلى أنهم أول من تفتحت له الفتاة! هاهي سعاد تعرف اليوم أن للسذاجة جانبها الممل والسطحي. لولا حمدان أكانت سعاد تعبر ذلك العمر في سرعة إلى النضج؟! ثريا إذن في زمن الزواج الآن لابعده! شابة عاقلة لم تقع في الوهم ولم تخش اللوم أو قلق الأهل! تحتفظ بايمانها بأن الدنيا لايمكن أن تعاندها، لأنها عاقلة وجميلة! باللأوهام التي يمدها الجمال في الروح! يظن أنه يستطيع أن يحكم المصير أو يبدّله! وهو على حق إذا صاحبه الشر والمكر فأصبح مستغلا آمرا ومستفيدا! لكن ثريا طيبة، كأنها تعيش في رواية! لم تعلمها نفيسة المكر! ولم ترو لها كيف فقدت زوجها الأول ثم حبها الأخير! تلوم سعاد نفيسة التي لم تعرف ابنتها إلا زائرة؟ ربما أرادها ابن الكحال نقيضا لنفيسة التي أحبها لأنها قوية، وانفصل عنها لأنها قوية! قال ذات يوم لنفيسة: أريدها أن تكون سعيدة! لاأتمنى لها أن تعرف الحياة بل صورتها! سأزوجها رجلا غنيا يلبي ماتريد فتعيش امرأة وأمّا مكتفية ببيتها! فهمت نفيسة أنه كان يحترق وهو يقول ذلك، وأنه وهو يركض إلى نقيضها كان يعبّر عن حبه المرفوض وحرقته عليها! لكن ثريا غيرت أمنيته. عجنتها وشكّلتها في هواها. فساقته إلى عرض الخاطبين عليها لتفحصهم ولترفضهم.

بدت ثريا سعيدة بنضارتها. واستسلمت سعاد لذلك السحر. عندما أتى البرجاوي يعرض على سعاد أقمشته قالت لها: اختاري! عندي مايكفيني، ياسعاد خانم! بل اختاري، ياثريا! اختارت قطعة قماش بلون باذنجاني فيها بقع بيضاء لماعة كالشمع، دفعت سعاد ثمنها ليرتين. اشترت سعاد "جرنالا" بستة قروش، اختارت ثريا منه "موديلا" لعله أحلى مافيه. وفصّلت القماش في مهارة. تفرجت

www.alkottob.com

سعاد عليها وهي تخيطه ثوبا لبسها كأنه جلدها. ليست هذه الشابة بسيطة كما توهم أبوها! لكن العالم الذي اندفع فيه ذكاؤها عالم رخي ليس فيه غير ذوق وأناقة وأحلام. جذبت من حولها بهدوئها المطمئن. فعندما قالت: تلزمني وردة بيضاء للصدر! نزل عبد الرحيم إلى حيفا فاشترى وردة بيضاء دفع ثمنها ثلاث ليرات. قالت سعاد: يقطعهم، أغلى من قماش الثوب! فنبهتها ثريا إلى ماأكملته الوردة في الثوب: تفرجي، لايشترى مثله بعشرين ليرة!

كانت ثريا تلبس ذلك الثوب عندما زار أنور سعاد التي شعرت بدوار وأغمي عليها في ذلك اليوم. كان أنور يبحث عن طريقة لزيارة سعاد دون أن تطلبه، عندما وصله صبي يستدعيه إليها. تناول حقيبته وهرع إلى بيتها. توقف قرب الباب ليهدئ قلبه. لماذا يضطرب؟ هل خمّن أن ثريا ستفتح له الباب؟ مابك يارجل؟ تماسك! وجد نفسه أمامها. لم ينطق بل تأملها. ثم صحا: أنا الدكتور أنور، طلبتني الست سعاد! في تلك البرهة تذكرت ثريا أنها لمحته في المطعم في أول ساعاتها في عكا. هل يهبّ الحب كالريح العاصفة أو كالنسيم الرقيق؟ أيهما هبّ على أنور؟ تبع ثريا مستسلما لرشاقتها المتأنية مبهورا بنبلها. أوصى بأن تشرب سعاد قهوة. وخرجت ثريا لتحضّرها. سأل أنور سعاد: من الصبية؟ ابتسمت. أعجبتك ياأنور؟ من لاتعجبه ثريا! لاتستطيع سعاد أن تستمر في مرضها، لكنها ستحتاج عناية أنور بها! أثنى أنور على القهوة: تختلف عن قهوة عكا! وسأل ثريا عن الشام فتحدثت في بساطة عن حارات رطبة يسمع العابر فيها صوت الماء، عن سواق تعبر البيوت، وبحرات تهمس نوافيرها في الصيف، وفي بيت نفيسة في الشتاء أيضا. لكن ذلك غير البحر! خيل إليه أن بشرتها تشف وهي تتكلم. لم ترتبك وهي تتحدث كأنها ألفت الحديث مع الرجال! لكنه تبين التهذيب الذي يلزمها بأن تبعد الارتباك أو الضجر. هذه هي الشابة التي يتمناها، ولامجال الآن لأن يبعد الاقتراحات عليه بالزواج! هذه أو لاأحد! لكنه خمّن أنها ليست ممن يقبل زوجا في سرعة. لولا ذلك لكانت تزوجت منذ زمن طويل! لذلك شعر بغصة عندما خيل إليه أنها قد ترحل قبل أن يكسبها. "هل أستطيع أن أشرب كأس ماء"؟ نهضت فملأت نظره بقامتها الرشيقة. ماأجمل ظهرها! تذكر كلمة ترددها أخته "حشو جلدها". عندما قدمت له كأس الماء على صينية مغطاة بقطعة من الدانتيل رأى من قرب عينين واسعتين طويلتي الأهداب. أذهله "حجر" العين. كأن حدقتها أكثر سعة من أحداق الناس! فيها بريق وديع أنيس. التقط أنور الاعتداد الذي يصور لثريا أن الدنيا طيبة مثلها. هل يجد رجل حبيبته بمثل هذه

www.alkottob.com

السرعة؟ عاد إلى الحديث عن صحة سعاد. ضغطها منخفض. قد تكون حاملا. طالت زيارته، فلينهض! قال إنه سيطمئن عليها في اليوم التالي. فسرت سعاد لثريا: عادته أن يطمئن على مرضاه! لكنها قالت لنفسها: يريد أن يرى ثريا ويسقي عاطفة داهمته. بحر عكا يصفق الأسوار!

كان أنور في الأيام التالية أكثر هدوءا. مع أن ثريا بدت له أكثر بريقا. تحدثت عن أبيها وعن نفيسة. فهم أنها تحب الاثنين مع أن كلا منهما يختلف في الطبع عن الآخر. يسع قلبها إذن حتى المختلفين! لم يكسرها إذن انفصال أمها عن أبيها! انفصال؟ لاتشعر بأنهما افترقا! يعيش كل منهما في بيت مستقل عن الآخر، لكن من يجسر أن يمس نفيسة بكلمة! يستشيرها أبي ويسهر في بيتها! يتحدث عنها كأنها حاضرة معنا! "الله فوق، وهي تحت"! وأنت؟ ابتسمت: بينهما! تأمل أنور ماتقوله ثريا في بساطة. هل تدرك أنها تستوعب علاقات معقدة بين رجل وامرأة؟ كأنها لاتنتبه إلى ذلك! يالهذه الشابة العاقلة المتواضعة التي لاتدعي الذكاء لكنها تمارسه! ولكن هل تقبل بحب أقل من حب أبيها وأمها؟ لم يخجل أنور بأنه أطال زياراته. أراد أن يثبّت قراره! فهمته سعاد لذلك خرجت من الغرفة دقائق بدت له هدية ثمينة!

زارت أخته تقيّة، سعاد! تابعت ثريا وهي تقدم لها القهوة وتقدم لها الماء. رأت قامتها، وبشرة وجهها المضيئة، وشعرها السبط. سحرتها حدقتا عينيها. لم تفحصها كالفلاحات اللواتي يلمسن البشرة، ويستنشقن رائحة الفم، ويقرصن الذراع ليمتحن تماسك العضلة! قالت لأمها الخانم: جميلة! لم أر مثل حدقتيّ عينيها! أهلها؟ أبوها تاجر معروف في الشام وأمها عمة الست سعاد خانم! أتت وداد خورشيد لتزور سعاد قبل أن أنصرف، وحكت لي عن أهل ثريا في الشام!

عندما زار أنور سعاد كان يبدو عليه رضا من استقر على قرار. لكنه لايقبل أن يطلب فتاة قد ترفضه! بل يريد أن يعجبها! تفرجت سعاد في تلك الزيارات على رجل يحاول أن يكسب شابة برقّته وصراحته. حكى عن البيت الواسع الذي يعيش فيه مع أب معروف قوي. "لكننا نحلم بشيء مختلف عما يقدم لنا! هل نسعى إلى حياتنا بالتوق إلى نمط آخر ننشئه نحن؟ هل هذا شوق العصفور إلى التحليق بعيدا عمن علمه الطيران؟ أتمنى أن أرحل خارج عكا! أحببت بيروت يوم درست في الجامعة الأمريكية! فلنقل إني أتمنى أن أعيش في الشام، في البيوت التي تعبرها السواقي، وأن أمشي في الحارات التي وصفتها! سأنظر هناك إلى عواطفي وأشعر بأنها مستقلة عما يجاورها في بيت كبير يمتلئ بالناس! أنت لاتعرفين ذلك!

www.alkottob.com

لأنك تعيشين وسط عائلة صغيرة"!

خمنت سعاد أنه يريد الحرية. يتمنى أن يبتعد عن سطوة أبيه. فهمته لأنها رأت أباه. نعم، هناك شخصيات لاتستطيع إلا أن تظلّل من حولها إذا كانت حاضرة! فتحتاج أن تبتعد عنها كي تتنفس هواء ليس من بقاياها، وكي تثق بأنك أنت الذي تفكر وتقرر، لاهي التي توحي لك بذلك. في جوار تلك الشخصيات أنت مجذوب إلى مدارها. فابتعد لتجد مدارك!

استمعت إليه ثريا وهي تنظر إليه بملء عينيها. هنا الدنيا! لايريد شيئا خارج هذه الغرفة! استولى عليه حبها؟ ليس عاصفة، بل عاطفة عذبة، سعادة تختلف عن "السعادات" التي عرفها في بيت هو فيه المحبوب المدلل. وهي؟ متى يستطيع أن يسألها هل تستلطفه؟ تصغي إليه في انتباه ولكن ماالحوار الذي يجري بينها وبين نفسها؟ وكيف يميز تهذيبها من إعجابها، وهو يتبين أن التربية الدمشقية غلفتها بلباقة متينة، رغم هدوئها؟ بدا لثريا أن هوى أنور يدفعه إلى رسوم لن تتحقق، ولن يكون سعيدا بها إذا تحققت. لايستطيع أن يفلت من بيت أهله لينتقل إلى دمشق! تركته يتجول سعيدا بحلمه. خمنت أن خروجه من بيت أهله ليعيش في بيت مستقل عنهم في عكا نفسها مسألة! رأت تعلق أخواته به. شعرت بأنهن أحببنها، لكنهن أردنها فردا يضاف إلى أسرة كبيرة. ألذلك رسم أنور حلمه بالسفر إلى دمشق؟ انكشف لأول مرة لثريا قدر النساء اللواتي يلتحقن بالرجل المحبوب، مهاجرات من بلادهن ومدنهن مبتعدات عن أسرهن. لكنها لن تفكر في ذلك الآن، كي تستسلم لفتنة هذا الرجل المهذب الوسيم وتتدثر معه بأحلامه!

بدأت سعاد تلمح قلق المحب في أنور. فشبّ غضبها له. راقبت ثريا وهي تصغي إليه ساكنة، راضية بحضوره. سألتها عندما انصرف: إذا طلبك هل تقبلينه؟ ردت ثريا: لاأعرفه بعد! فكرت سعاد: هذا هو العذاب! يندفع أنور إلى شابة مازالت تفحصه! قالت: اسمعي، لو كنت في مكانك لما تزوجت غيره! ولو كانت لي ابنة أريد لها الخير لتمنيت أن يطلبها! لاأقول لك أحبيه، أقول لك إنه يستحق الحب! قالت ثريا في هدوء: ترى عيناك مالا أراه! فحصتها سعاد! تعني أيضا أن عينيها تريان مالاأراه! في تلك البرهة لمحت ماأورثته نفيسة هذه الشابة من الاعتداد والهدوء! ونادت بينها وبين نفسها ابن الكحال: أردت أن تبعد ثريا عن أمها، لكن ماجرى إليها بالدم تسلل في السر عنك! لم تنتبه إلى أثر سحر نفيسة! مع ذلك اعتمدت سعاد على الزمن القادر أن يعصف بروح هادئة! لكن الزمن طار مسرعا!

www.alkottob.com

كان أحمد غلاييني قد صنع في بيته قرب حيفا بعض القنابل البسيطة وأعطاها إلى صالح أحمد طه من بلدة صفورية الذي تسلل مع أحمد التوبة ومصطفى علي الأحمد إلى مستعمرة نهلال اليهودية بين حيفا والناصرة. بعد ثلاثة أشهر من الحادثة طوق الإنكليز بلدة صفورية وصادروا قنبلة، كالتي فجرت في نهلال، من بيت مصطفى علي الأحمد. عذبوا هذا الرجل في وحشية وهددوه باغتصاب زوجته، فاعترف بالحقيقة. بدأت المحاكمة وثريا ماتزال في فلسطين، وانشغل عبد الرحيم بالمحاكمة. حكم على مصطفى بالإعدام، وعلى الغلاييني بخمس عشرة سنة!

اقتحم القلق بيت سعاد وضمر سحر ثريا. رأت عبد الرحيم يعود مغموما ويقول: حكموا على الرجل بالإعدام! واستقبلت سعاد نساء ورجالا من صفورية قصدها بعضهم وانتظر بعضهم عبد الرحيم.

وصلت أخبار الاضطرابات الجديدة إلى الشام. فطرق الباب أبو رياح. يحمل لسعاد علبا من مربى السفرجل. وطلب أن يعيد ثريا إلى الشام! مر شهر كامل! أحقا مر شهر؟! مر مسرعا بأيام السعادة! تسلل خيط من قلب ثريا، وراءه خيط. لاتريد العودة إلى بيت أبيها في القنوات! تريد أن تبقى في هذه السعة التي تتصل فيها السماء بالبحر! فلتتزوج من أنور! وليبحثا معا عن المكان الذي يسكنان فيه! لكن هل ستطلب هي منه ذلك؟! ألحت سعاد على أبي رياح: يجب أن تنتظر عودة عبد الرحيم لنتغدى معا! ولامت زوجها ألف مرة بينها وبين نفسها لأنه تأخر في ذلك اليوم. أرسلت في السر عنه وعن ثريا ابن الجيران تطلب أنورا. لكن أنورا لم يصل إلا وثريا عند الباب. رأت حسرته. لم يتح له أن يتحدث معها ليأخذ منها وعدا بأن ترضى به إذا أرسل أهله إلى الشام! سألها بنظرته فابتسمت. لكنه يحتاج الكلمات! يريد أن تطمئنه! هل تؤكد له ابتسامتها أنه لم يفقدها؟ فهم أن سعاد معه. ولمس مايقربه منها: عدالتها التي تحميها من أسر رابطة الدم. تنحاز إليه هو الغريب عنها! وسيظل عقلها يقودها طول حياتها، وستزن به حتى نقائص أولادها. لكن ياسعاد، ألا يخيف هذا العقل الذي يلغي سطوة الحب ويمنع عنك مذاق عذابه؟!

www.alkottob.com

بعد سفر ثريا طرق الباب وقت الفجر. رفعت سعاد كفها لعبد الرحيم تطلب منه الهدوء: سأفتح أنا الباب، ولتستعد أنت! رأت أمامها سيارة عسكرية ورجالا يتقدمهم شرطي عربي: نريد عبد الرحيم بك! سخرت منه: بك؟ ظننت أنكم تطلبون أشقياء وقت الفجر!

اعتقل عبد الرحيم أسبوعا. ولم تسأله سعاد عندما رجع لماذا اعتقلت. داعبته: الإنكليز مهذبون! انتظروا رحيل ضيفتك ثم استضافوك!

بدا لها أنها قبلت قدرها واعتدّت به. قالت لشفيقة التي بقيت عندها يوما كاملا: عبد الرحيم ليس أفضل من المعتقلين، ولست أفضل من نسائهم! كأننا ياخالتي نعيش أياما طويلة. أهذا مايوحي به القرآن بسنوات تعدّ وسنوات لايعدّ؟

عندما روى عبد الرحيم لسعاد حياته في أول أيام زواجهما خيل إليها أنه يكتب تاريخ فلسطين. لكن حديثه الهادئ، ودقة ذاكرته استبقت انتباهها إليه. فساقت نفسها من الرغبة في الحديث بين رجل وامرأة يكشف أحدهما روحه للآخر، إلى الاعتداد بأنها تزوجت أحد زعماء البلاد. ستقول لنفسها فيما بعد وهي تتأمل بطأه في الحركة: مسكين، مثقل بالمؤتمر السوري، وأحلام الثورة العربية، ثم بأحلام الدولة العربية وهزيمتها، مثقل بالدراسة في استنبول والتعليم في مدرسة الحقوق بدمشق، مثقل بالسفر إلى القاهرة وشرقي الأردن بحثا عن لقاء زملائه المشتتين بعد ميسلون، بمقابلاته زعماء البلاد! وستقول له مداعبة: لو كنت مكانك لما أمضيت ربع ساعة فقط في المشي من غرفة النوم إلى المطبخ، بل ساعة على الأقل!

لكنها في أيام زواجهما الاولى استمعت إليه كما كانت تستمع إلى قدري. مقنعة نفسها بأنها تكتشف ماكانت تجهله. وخيالها يرسم بالألوان الأمكنة التي يحدثها عنها. كان عبد الرحيم يهيء المرأة التي قبلته زوجا لتكون مؤهلة لليوم الذي يجدّ فيه الجدّ. فتعرف ماذا تقول وماذا تكتم، وكيف تدبر أسرة في غيابه أو

www.alkottob.com

موته. لم يتساءل هل سعى إليها مفتونا بما رواه له عنها قريبه القاضي مخمنا أنها تستطيع أن تحمل ثقل حياته. ولم يخطر له أن يشفق عليها كصبية في أول العمر. لكن لم يخطر له أيضا أنه يشرفها بالزواج من رجل معروف مثله. وماكان ليستطيع ذلك وهي شابة من أسرة فيها رجال الثورة السورية وفيها قدري زميله في المؤتمر السوري، الذي قتلته المستوطنة الصهيونية في طبرية وحضر جنازته.

لكن سعاد ستسأله ذات يوم مازحة: ياعبد، لو لم تكن في حياتك تلك الأحداث الوطنية هل كانت لك حياة أصلا؟ ولن يغضب منها بل سيقبّل يدها، وستسخر منور من طاعته التي لايخفيها، فتقول لسعاد: ضبعته ياسعاد، أم سحرته، أم سقيته؟ يكاد لايتحمل فراقك ليحضر مؤتمر بلودان! سبحان المغيّر! كنت لاتنشرين ملابسك الداخلية في بيتي في بيروت كيلا نراها، فصرت تستمتعين بأن يقبل عبد الرحيم يدك أمامنا!

حكى عبد لسعاد حياته منذ درس الحقوق في استنبول، حتى صار ضابطا هرّب بعض المطلوبين لمحكمة عاليه بملابس جنود إلى الحجاز. مر بين أصدقائه شكري القوتلي ورياض الصلح. لم يبح لها يومذاك أنه يتصل بالقسّام. وبدا لها من الأشخاص الذين قابلوا تشرتشل وهربرت صموئيل وواكهوب الذين ابتلي بهم العرب. عرفت سعاد أنه التقى بالملك فيصل الذي رحل إلى حيفا بعد ميسلون، وودعه في آب سنة 1920 وهو يركب القطار إلى بور سعيد. بقي عبد الرحيم مؤمنا بأن فيصل وطني، قدّر عليه كأمير في زمن تحكمه دول كبرى ظالمة أن يحاول سحب بعض الحقوق للعرب. قال فيصل لبعض رجال الدولة العربية إنه عرف اتفاق لإنكليز مع الفرنسيين على تسليم سورية، وكشف انحيازهم منذ مؤتمر السلم في باريز، وأنه ليس كأبيه الذي يؤمن بصداقة انكلترا! رأيته، ياسعاد، يسافر من حيفا إلى لندن مع من فرض عليه أن يرافقهم! وتساءلت منذ ذلك الوقت هل للسياسي في مستواه خيار آخر غير الانتحار؟

بأحاديث عبد الرحيم عن حياته أكملت سعاد مافقدته بموت قدري. أدهشتها كثرة أسفاره رغم بطء حركته. رد عليها مبتسما: أكون حيثما يفترض الواجب! وقد أوصله الواجب إلى فندق كونتيننتال في القاهرة ليلتقي بالوطنيين الهاربين من أحكام الاحتلال الفرنسي. أعادها عبد الرحيم إلى جو بيت قدري. فرأت من جديد تلك المجموعة من رجال الدولة العربية القلقين على قدر بلاد الشام، يلتقون ليبحثوا النجاة من الانتداب الذي قسم بلادهم وليردوا خطر الهجرة اليهودية إلى فلسطين. رأت في أحاديثه نبيه العظمة وعادل أرسلان وسلطان الأطرش وشكري

www.alkottob.com

القوتلي ورياض الصلح وعوني عبد الهادي وأحمد مريود. ومن تعدّ؟! حضرت بأحاديثه المؤتمرات الفلسطينية. وبهرها أن يجتمع في فندق شبرد في القاهرة فيصل وعبد الهادي مع شكري القوتلي وعادل أرسلان. ويكون سعد زغلول في تلك الساعة في الفندق نفسه خطيبا في مجموعة من الوطنيين. لكن عبد الرحيم أيقظها: ألا يستوقفك أن اولئك الرجال الذين جمعهم مكان واحد وهاجس واحد لم يلتقوا!

هل كانت سعاد تتضج كما ينضج التلاميذ في مدرسة؟ حرص عبد الرحيم أن يمشي بها في التفاصيل. تكشف التفاصيل لك الحقائق التي تقرأينها جافة ومقتضبة ورسمية في البيانات والقرارات! تكشف لك الناس أيضا! أتعرفين ماذا رأيت في حذر عادل أرسلان لأن بعض أعضاء المؤتمر الفلسطيني الذي عقد في حيفا في سنة 1920 ميزوا الاحتلال الإنكليزي من الفرنسي، لأنه سمح بالمؤتمر؟ رأيت وطنية السوريين! ولعل أرسلان لم يطمئن حتى عرف قرارات المؤتمر.

نبهها عبد الرحيم: قد يجتمع بعض السياسيين العرب بالصهيونيين! أنا لن أقابلهم لأن الحوار لن يغير مشروعهم! كنت في فندق كونتيننتال عندما التقى فيه عوني عبد الهادي بوايزمن. لبس وايزمن دائما، منذ لقائه بفيصل، وجه من يطمئن العرب إلى أن الهجرة الصهيونية لن تمس حقهم في فلسطين ولن تضر بهم. فلماذا يخشى العرب اليهود الذين سيظلون مهما كثروا قلة، يحيط بهم العرب من الجهات الثلاث؟ رد عليه عوني يجب أن ينسوا مشروعهم في فلسطين كيلا يأتي يوم يقولون فيه للعرب ماقاله طارق بن زياد! تذكري، ياسعاد، أن بن غوريون يطلب من العرب مايطلبه وايزمن، لكن بصيغة أكثر صراحة: أن يعترفوا بحق اليهود في الهجرة إلى شرقي الأردن وفلسطين! واحذري ماغنس، مدير الجامعة العبرية! لأنه يحمل بن غوريون من زعيم عربي إلى آخر، لعله يسحب لليهود اعترافا بحقهم في استيطان الضفة الشرقية والغربية! المقابل؟ أن يقبل بقاء العرب في أراضيهم! فهل تفهمين مشروعه الشرير؟ تذكري دائما أن الصهيونيين يحتاجون إلى اعترافنا بحقهم في فلسطين ولو ملكوها! يرعبهم مصير الفرنجة! فعلّمي أولادك ألا يهبوهم هذا الحق ولو أبعدونا عن بيوتنا إلى آخر الدنيا! قولي لهم إياكم أن تتنازلوا عن حقكم التاريخي! آه، الوصية وداع ياعبد الرحيم! ومازال الوقت مبكرا على الوداع! ستربي أولادك في حياتك! آه، لم يقصد أن يذكرها بالفرق بين عمرها وعمره! بل يسكب حياته بين يديها ليجعلها بالنضج في مثل عمره! ثمن العمر خطوط محفورة في الوجه، ثقل الخطوة، وربما ثقل الحكمة،

www.alkottob.com

فلتأخذ ثماره لشبابها ولتكمل بها نضارتها! أردت الوصية فقط، ياسعاد، لاالوداع! اسمعي!

كنت أشرب القهوة مع شكري القوتلي في الكونتيننتال في القاهرة فأخبرني أن الأمير عبد الله وصل من الحجاز إلى معان ليستعيد ملك أخيه من الفرنسيين. كنا في شهر تشرين الثاني سنة 1920. فقلت لن يرضي ذلك الإنكليز. لكني أتمنى أن ينتزع طموح الأمير عبد الله شرق الأردن من خطر الصهيونيين! يمكن أن نفيد من طموح الأمير إلى عرش، ومن الالتباس الذي يصوغه الإنكليز! سيصل تشرتشل إلى فلسطين وفيصل في الطريق إلى العراق لينصب ملكا عليه. فلماذا لايطلب عبد الله شرق الأردن؟

وصف عبد الرحيم لسعاد تشرتشل. وسيقدر لها أن ترى رسالته إلى عبد الرحيم. يتحدث، ياسعاد، والغليون في فمه. بارد وداهية. لكنه معنا لم يكن وقحا كما كان مع الأمير عبد الله. لم يخف علينا الأمير أن لقاءه به في القدس في الرابع والعشرين من آذار سنة 1921 كان مرا. منّ علينا بأنه تحمله لأجل المصلحة العربية! عرفنا أن لورنس أمر سائق السيارة التي نقلته مع عبد الله ألا يتوقف في الطريق كيلا يحيي عبد الله الناس ويسمعهم. فغضب الفلسطينيون منه وسيحفر من هنا خلاف بين الطرفين. عرفنا أن تشرتشل انتقد قدوم عبد الله إلى معان، وأنه أفهمه أنه لايريد ثورات من شرق الأردن على الفرنسيين في سورية. وياويل من سيعارض فيصل في العراق! نقل عبد الله لتشرتشل خوف العرب من تأسيس دولة يهودية في فلسطين. استخدم الأمير لغة أدبية. قال إنه يخشى من قطع أشجار فلسطين. فرد هربرت صموئيل عليه: لن تقطع بريطانيا أشجار فلسطين بل ستزيدها بأنواع أخرى! لو قال صموئيل لنا ذلك لقلنا له من أنت لتزيد أو تنقص من أشجار فلسطين! سيستعيد عبد الرحيم فيما بعد ذلك الحوار ليؤكد لسعاد أن عز الدين القسّام وجد الجواب المناسب الوحيد على الإنكليز! في ذلك اليوم طمأن تشرتشل عبد الله: عدد المسلمين نصف مليون وعدد اليهود ثمانون ألفا فقط ولن يزدادوا بسرعة تهدد العرب! فهل صدق تشرتشل نفسه وهل صدقه عبد الله؟! لم يكن الأمير عبد الله يستطيع أن يرد على تشرتشل كما نرد نحن الذين لانطمح إلى ملك! فماذا يستطيع لنا غير السجن؟! لكن المهم أن تشرتشل ترك شرق الأردن منطقة للإنكليز مستبعدة من وعد بلفور والهجرة الصهيونية. انتبهي، ياسعاد، إلى التفاصيل لتعرفي الناس والمسائل، ولكن تعلمي ألا تضيعي الجوهر! حديث عبد الله عن بحثه المبكر عن حلف مع الإنكليز، تفصيل.

www.alkottob.com

الجوهر أنه سحب شرق الأردن. الشرط ضباط إنكليز ومستشار إنكليزي، ولامتاعب مع الصهيونيين ولامع الفرنسيين! قطع الطريق إلى فلسطين وإلى سورية! ولكن في شرق الأردن رجال الدولة العربية! حبك الإنكليز الرسن لكن الوطنيين سيحاولون أن يمسكوا به، لا أن يساسوا به! لايستطيع عبد الله أن يتجاهل رجال الدولة العربية. من أحمد مريود ورشيد طليع وعلي خلقي أسس حكومة.

في أيام الزواج الاولى خشيت سعاد أن تعلن رأيها في مايرويه عبد الرحيم! خشيت أن تخطئ! لكنها قالت لعبد فيما بعد: خرب الشريف حسين وأولاده بلادنا! بدأوا من الخطأ فغرقوا وأغرقونا فيه! والخطأ أن نحالف الإنكليز. كنت طفلة عندما دخل الإنكليز إلى طبرية. تقدمهم خيالة اوستراليون. لم يحتف الناس بهم. قالت خالتي شفيقة يومذاك عندما صرخت: دخل الإنكليز: "فال الله ولافالك"! وظلت فيما بعد تردد: "الإنكليز دواهي. مصيبتنا كلها من الإنكليز"! وعندما مر الأتراك المنسحبون أمام بابنا راجين: ايكميك، ايكميك! حزنت خالتي عليهم وقدمت لهم الخبز والطعام على أطباق!

بقي عبد الرحيم الذي عرف فيصلا من أيام المؤتمر السوري منحازا إليه. كان أحيانا يشفق عليه. قال: "من يعد العصي ليس كمن يذوقها"، ياسعاد. عاش فيصل مرارة أن ينصّب على عرش العراق بقرار إنكليزي، لكنه قبل ذلك كي يحمي بقايا ضباطه ورجاله ويوقف ضرب الوطنيين فيه. مع أن ذلك في مصلحة الإنكليز الذين خسروا كثيرا في ثورة العراق عليهم! فهم فيصل سعة المشروع العربي وقلة الإمكانيات لتحقيقه! ظل عبد الرحيم يؤكد لها نقاء فيصل: جمع حوله الوطنيين السوريين. به هدأت الثورة على الإنكليز، فساومهم على ذلك. سند الوطنيين وبهم كسب حقوقا من الإنكليز. حتى أن السوريين طلبوا من فرنسا معاهدة كمعاهدة الإنكليز مع العراق!

عندما سيموت فيصل في سويسرا سيقول عبد الرحيم لسعاد: مات مسموما! وستضيف إلى حديثها كلما ذكرته: لاتجوز على الميت غير الرحمة، لكنه قتلنا وقتل نفسه! قرر عبد في تلك الأيام: يناسبك، ياسعاد، أن تكوني مع الثوار في الجبال، لاأن تكوني سياسية. وكان مخطئا. فالأيام اضطرتها أن تكون سياسية دون أن تبرأ من دقتها في الحساب.

لم يوفر عبد الرحيم سعاد وهو يعرض لها العلاقات المعقدة. وأدهشها أن يتناول كل ذلك في هدوء. لم تلاحظ فيه الأسى الذي كان يفتت قدري. أتعرفين أن

www.alkottob.com

الياهو ساسون دافع في جريدة المقطم عن حق اليهود في الاستقلال، ونشر خلال هبة البراق مقالة يدافع فيها عن اليهود الذين حملوا أبواقهم وأدواتهم في مظاهرتهم الدينية السياسية أمام حائط البراق؟ في مصر صحف صهيونية.. جريدة إسرائيل، وكالة الشرق للأخبار، شركات الدعاية أيضا صهيونية. ورئيس الحكومة المصرية اسماعيل صدقي صديق دانييل كورييل الصهيوني! في يد اليهود التجارة والصيرفة. حضر افتتاح الجامعة العبرية في القدس سنة 1925 ممثل دائرة المعارف المصرية. ولعب في فلسطين فريق كرة قدم مصري مع اليهود في تل أبيب. لكن في حضن مصر الثوار السوريون المحكومون! هنا الجوهر! أما الحكومات فتزول!

بدت حياة عبد الرحيم طويلة جدا يوم رواها لها. نعم، ياسعاد، قد نكون محظوظين لأن الأحداث عبأت حياتنا! حضر عبد الرحيم المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس، الذي دعت إليه الجمعيات الإسلامية والمسيحية في سنة 1919. وصاغ ميثاقا قوميا يرفض الهجرة الصهيونية والانتداب ووعد بلفور ويؤكد وحدة فلسطين مع سورية ويسميها سورية الجنوبية. وشارك في تحضير المؤتمر الثاني الذي لم ينعقد. وحضر المؤتمر الفلسطيني الثالث في حيفا في كانون الأول سنة 1920. لم تعجبني، ياسعاد، المقدمة: استنادا إلى حلف بريطانيا مع الحجاز، وحرية الشعوب الخ! لكننا ثبتنا مشروعنا: حكومة وطنية ومجلسا نيابيا. ورفض اعتماد الانتداب الوكالة الصهيونية كهيئة رسمية، والهجرة الصهيونية، وتوظيف صهيونيين في المراكز العليا. اليهود سبعة بالمائة فقط، ياسعاد، لهم اثنان فقط من الثروة فكيف نقبل لهم حقوقا أكثر من حقوقنا؟

سألته سعاد يوم قدمها للقسّام: كيف استطعت أن تتحمل مراوغة السياسيين وتقبل مرونة مقدمات المؤتمرات، وأنت تحمل مشروع القسّام الواضح حتى الصرامة! سيقول لها: عندما تغوصين حتى الرقبة، وتملأين وجدانك بمشروع، ستتخفين بما يطلبه! لم أجد مكاني ضيقا كأمكنة من سيقدر لهم أن يخرجوا إلى الجبال! فرمحت في مساحته الواسعة لأفيد أولئك المكشوفين لقصف الطائرات!

أكملت سعاد مع عبد أحداث حياته فصارت أحداث حياتها. فهل جرت هبّة البراق سنة 1929 خارج بيتها؟ هل تستطيع أن تنسى دموعها على حجازي وجمجوم والزير يوم إعدامهم، وهل تستطيع أن تنسى أنها رددت الزغاريد يومذاك باكية؟

من سجن عكا وطلعت جنازة محمد جمجوم وفؤاد حجازي

www.alkottob.com

جــازي علــيهم يــاربي جــازي المنـدوب السـامي وربعـه العمومـا

استقبلت قبل الإعدام نساء المتهمين الثلاثة، طبخت لهن وأطعمتهن. مسحت دموعها ودموعهن. غضبت معهن. لكنها لم تخمن أنها سترد زغاريد النساء بعد إعدام الرجال في ذلك الثلاثاء الدامي:

ايه وايها وبالمشنقة تاجك!

ايه وايها والقيد إلك خلخال!

ايه وايها والموت عن بلادك عزّ!

ايه وايها ويازينة الرجال!

كاد عبد الرحيم يكرر لها ماقالته له ذات يوم: لولا تلك الأحداث أكانت لك حياة خاصة؟ في أيام هبّة البراق زارت بيوت القتلى والجرحى، وحملت لهم التعزية وأكياس الرز والسكر. لكنها لم تهتم كعبد الرحيم بلجنة شو. قاض وثلاثة أعضاء من مجلس العموم البريطاني سيقررون من الجاني في أحداث ثورة البراق؟! الجاني من يحرس هجرة اليهود ويعطيهم أراضي الدولة! كيف جمع جابوتينسكي المسلحين اليهود، لولا الإنكليز؟ تركت سعاد عبد الرحيم يتابع يومذاك مقابلات اللجنة، واستمعت إليه بأذن واحدة. ادعى فريمان، محامي اليهود، بأن فيصل اعترف بحق اليهود في فلسطين. فكذبه عوني عبد الهادي، محامي العرب. قالت سعاد: ياعبد، لايهمني لاالكتاب الأبيض ولاالعفريت الأزرق! لاأقبل أن يقرر غرباء من آخر الدنيا حدود حقي في بلادي!

كانت منور في تلك الأيام حاملا في طبرية. وكان لورنس يعنى بها، وشفيقة تدللها. عندما ولدت معتصما زارتها سعاد وزغردت فاحمر وجه منور. كانت سعاد في دنيا بعيدة، مشغولة بما بعد أحداث البراق لذلك لم تستمتع بالصمت الذي فرضته شفيقة على الأحداث. وكانت منور نفسها كالخجلى بفرحها بطفلها.

هاهي سعاد تزور المعتقلات، متابعة عبد الرحيم من معتقل إلى آخر. قالت له في إحدى زياراتها إلى سجن عكا: تذكرت أحاديثك في أيام زواجنا الاولى فهل كنت تحضرني لهذه الأيام؟ ابتسم. فداعبته: كنت تستطيع أن تحدثني أحاديث أخرى في تلك الأيام الهادئة، وتترك لهذا اليوم دروسك! كانت قد حملت له في تلك الزيارة طنجرة كبيرة من الفاصولياء الخضراء باللحم ومن الفول بالزيت تطعم مهجعا. تركت له تلك المداعبة، فتذكر أنها منذ وصلت معه إلى صفد لم تعش

www.alkottob.com

كعروس! فهل يستطيع الآن أن يعوضها عما فقدته؟ فات الوقت!

www.alkottob.com

بعد عودة عبد الرحيم من المعتقل، نزل مع سعاد إلى حيفا. ماالذي يضغط قلبها والسيارة تعبر الحواكير وشجر فلسطين وتلالها؟ تنفست في عمق. يالهذه البلاد الجميلة! لاينقصها إلا الأمان! أن يرحل الإنكليز وألا يأتي اليهود الغرباء! لكن لم التفكير في الغد وفي الأمس إذا كنت تملكين هذه البرهة، وزوجك حر، جالس إلى جانبك في السيارة، والهواء يفوح بعبق التراب! عندما قال لها عبد الرحيم: لننزل إلى حيفا، خيل إليها أنه قال لها تعالي لنبقى معا وحدنا! قال: ستشترين ثيابا لنفسك، وتختارين لي قماش بذلة وقمصانا. مأأقل حيلته! لذلك تردد سعاد مازحة: نساؤنا يربين رجالا معوقين، ينتقلون من حضن أمهاتهم إلى أكتاف زوجاتهم! تتمنى سعاد أحيانا أن تمشي معه في حيفا، أن يجلسا في مطعم، أن يتنزها في الكرمل، لكنها كلما رافقته كان مشغولا بمهمة!

خطر لها أن تبحث عن ثوب بلون بنفسجي. وكادت تسأله: ألا يناسبني هذه اللون. ثم خجلت بسؤال لم تتعود مثله فبقيت صامتة تتأمل ماتعبره بالسيارة! خطر لها أن عبد الرحيم سيقودها إلى لقاء كاللقاء بالقسام، أو يطلب منها مايشبه ذلك، ورددت لنفسها: أعرفه! ومع ذلك بدا لها أن أمامهما نهارا واسعا سيمدّانه حتى الغروب.

مشيا في السوق. تصل إلى حيفا بضائع الدنيا! ألم يحمل نوري حجارة الفيروز من البواخر؟ فجأة، اضطرب السوق حولهما. أغلقت الدكاكين وتراكض الناس. من همس بالخبر الذي انتشر في برهة ورده الناس: قتل القسام! ضرب عبد الرحيم جبهته بيده، ونطت الدموع إلى عيني سعاد، ثم نفر الدم من أنفها!

كأنما أعلن عن مأتم، عن حزن عام، عن مصيبة! صاح رجل: "الله أكبر من الظالمين" وركض مع الناس! هل يكتشف الآن من خشي على أهله وتجارته فلم يلتحق بالقسام، أنه أحبه وتمنى له النصر، وقال بينه وبين نفسه يعوض القسام عن تقصيرنا؟!

ناولها عبد الرحيم مصحفا صغيرا ومسدسا ملفوفا بمنديل فخبأتهما تحت ملاءتها. قال لها: "عودي حالا إلى عكا"! واختفى كأنه ملح ذاب! لمست سعاد

www.alkottob.com

المسدس! مشيت معي، ياعبد الرحيم، وأنت تحمل مسدسا، علي الآن أن أخفيه والدنيا قائمة قاعدة؟!

أسرعت كالناس. ثم تبينت أنها كادت تفقد اتجاهها. أضيع في حيفا؟! ضغطت المنديل على أنفها، ومشت مسرعة حتى ابتعدت عن السوق. حاولت أن تتذكر أقرب بيوت أصحابها، ثم قررت: بل يجب أن أعود إلى عكا!

في السيارة تركت سعاد دموعها تنساب حرة. قال السائق: الله أكبر منهم مهما تجبروا! كان غضبه أكبر من حزنها. لكنه لم يضيع شعوره بأنه يجب أن يبتعد عن حيفا بسرعة ليصل إلى عكا. خيل لسعاد أن الصمت ينسكب على الطريق والبيوت والحواكير. وأنها تسمع في ذلك الصمت صوتا قويا مفردا يصرخ: قتل الشيخ الذي أتى من جبلة السورية عندما لم يعد يستطيع أن يقاتل الاحتلال في بلده! قتل الرجل الذي سحر المستمعين إليه في جامع حيفا الكبير! قتل الذي ربى من اصطفاهم أصدقاء في مشروع، لامريدين تابعين! قتل من انتقى الفقراء لثورة طويلة، واعتمد النساء، فقال دونهن لن تنجح الثورة على الإنكليز والصهيونيين!

استعادت سعاد في السيارة لقاءها الأول بالقسّام! برّد وجهها النسيم الذي فتحت له نافذة السيارة، وجفف دموعها. تساءلت: هل تسحر في مثله من الرجال مصائرهم التي يخمّنها من يلتقي بهم؟ هل قرأت سعاد فقط حكمته واتزانه وصدقه، التي تنساب من الايمان بجهاده؟ أم قرأت أيضا مصيره؟! كان يلبس صاية، كالفلاحين. تتذكر الآن السحر الذي لفحها منه وجعلها تشعر بالذنب لأنها وادعة وهانئة. السحر الذي أفهمها أن الدنيا الواسعة ليست هناك! كأنه اكتشف جوهر السعادة! ومع ذلك كان وديعا وهادئا ومتزنا، كأنه يفهمها أن مايحضّره ويدعو إليه ليس مغامرة بل مشروع واسع. وبدا لها وهي تستمع إليه أول مرة أنه لايدعوها لتفهم مايعمله الظالمون، بل لتفهم أن فيها قوى خارقة هي التي يخاطبها.

مسحت سعاد دموعها بطرف ملاءتها وهرعت إلى أنور وبيت العكي والسيدة فاطمة اليشرطية لتنقل لهم الخبر. وعرفت في كل بيت أن الخبر وصل قبلها. وأن الرجال ينزلون من عكا ومن طبرية والناصرة ومن أصغر مدن فلسطين وقراها إلى حيفا. نزل شباب لايعرفون القسام ورجال عرفوه وكانوا ممن استمع إليه في جامع حيفا الكبير.

لم ينتظر الناس الجرائد وبيان الحكومة! بل تناقلوا أخبارهم من فم إلى أذن إلى جميع البيوت في القرى والمدن! نشر الموت الأسرار، وتوج الشهداء بالحب. هذا زمن من الأزمنة التي ينحاز فيها الناس للضحايا، ويتوّجونهم كأبطال! تناقلوا أن

www.alkottob.com

الإنكليز تابعوا القسام، فاضطر أن يترك حيفا مع مجموعة من أصحابه ليحضّر للثورة. هل وصلت إليه الخيوط التي جمعها البوليس منذ سنوات؟ ألم تكن المجموعة التي هاجمت المستعمرات الصهيونية والدوريات الإنكليزية في سنة 1931 إحدى مجموعاته؟ استقدم البوليس يومذاك الضابط المصري حليم بسطة، وأوصلته المعلومات إلى صفورية. اعتقل في صفورية أحمد الغلاييني ومصطفى طه وأبا ابراهيم الكبير. أعدم مصطفى طه الصفوري وحكم على الآخرين بالسجن. سكنت العمليات حتى اكتشف العرب الأسلحة المهربة إلى اليهود ببراميل في تشرين الأول سنة 1935 فطلب القسام من جمعيات الإخوان المسلمين وعلماء الدين دعمه بالأسلحة، وترك حيفا. تنقل مع مجموعته بين القرى متخفيا شهرا. عندما اكتشفهم الإنكليز اتجه القسام مع بعضهم إلى جنين. قرب قرية يعبد طوقوه ولاحقوه بالطائرات. حاربوه من الفجر حتى الساعة التاسعة. قتل القسام وبعض أصحابه. جرح نمر السعدي. جنين قائمة قاعدة. ستسلم جثث الشهداء لأهلهم. فشلت الحركة؟ لا! تركت جمرة!

في العشرين من تشرين الثاني سنة 1935 أعلن بلاغ رسمي إنكليزي أن البوليس طوق "عصابة من الأشقياء" وقتل رئيسها عز الدين القسام. رد عليه الغضب في فلسطين كلها. وسنرد عليه! ستحضر جنازة القسام وفود من أنحاء فلسطين كلها، وستبكيه بلاد الشام كلها!

حكى لها عبد الرحيم وأنور شقير وبنات العكي والست شفيقة عن الجنازة العظيمة. لم ينسوا تفصيلا، ومع ذلك تذكروا مالم يحكوه لها أول مرة. كأنها مشت معهم وسط خلق كثير! آلاف من الناس أتوا من فلسطين كلها. حملناه كما هو، في ثيابه المدماة. خيل إلي أن وجهه مضيء بنور لم أره فيه من قبل. استطعت أن أتأمل ملامحه الوسيمة الهادئة. في وجهه رضا لاترينه إلا في وجوه من آمنوا بقضية وهبوها روحهم ولم يعانوا من الشك فيها أبدا. أية أذرع لم تمتد كي تحمل نعش القسام! مشى به الناس إلى مسجد الجرينة، حيث كان يحدثهم. صلّوا عليه هناك، وكان الناس خارج المسجد وفي داخله حشودا. كان مقدرا أن ينقل إلى مقبرة بلد الشيخ بالسيارة لكن الناس استبقوه على أكفهم ومشوا به إلى المقبرة. حملناه على الأكتاف من الجامع الكبير في جرينة حيفا إلى المقبرة، مع نعوش الشهداء. تزاحمنا على حمله كمن يتبارك به، وضاع النعش وسط البشر. مرت الجنازة بدائرة البوليس فهاجمها المشيعون وكسروا السيارات الواقفة أمامها. وهرب البوليس. في شارع الملوك مررنا بنصب الملك فيصل فقرأ بعضنا الفاتحة عليه ولعنوا الإنكليز الذين لعبوا عليه

www.alkottob.com

ثم سمّموه. رجم المشيعون محطة السكة الحديدية. بدا أنهم يرجمون كل ماينقل جنودا أو تحميه حكومة! رأينا كتيبة إنكليزية يبدو أنها سيقت لتواجهنا، فهاجمها الناس وجرفوها. ومشينا إلى المقبرة. هناك ياسعاد تشعرين بقوة الجمع ولو دون سلاح! هكذا رد الناس على بيان الحكومة عن اشتباكها بعصابة من "الأشقياء"!

من يستطيع أن يوجز بكلمات جنازة القسام! ملأت سعاد الفراغات التي تركها الرواة. سمعت الأناشيد والأهازيج. أطلقت مع المشيعين الهتافات. استعادت الأغاني الحزينة وندب النساء. هزها هدير أصوات الناس تحت السماء. رأت المخازن مغلقة في مدينة حزينة، والشوارع والحارات تفرغ من المشاة الذين انصبوا في اتجاه واحد هو اتجاه الجنازة. هرول الفلاحون الذين وصلوا متأخرين، أمسكوا بأيدي أولادهم كيلا يضيّعوهم في الزحمة. وصل الناس من الخليل ونابلس. من صفورية وصل كثير من الناس. وقفت النساء بملاءاتهن السوداء على جانب الطريق، ولمحت سعاد الفلاحات بأغطيتهن البيضاء وثيابهن المطرزة. بدا لها أنها ترى غابة من أغصان النخل تغمر المقبرة، وأن أجمل الآيات القرآنية تليت في محيطها بأجمل الأصوات، وأن السماء كانت صافية الزرقة كما لم تكن أبدا، وأن بحر حيفا استمع هادئا ساكنا إلى الأصوات التي وصلت إليه من المشيعين. دفن القسام في بلد الشيخ. حيث أصحابه من الفلاحين الفقراء. لكن حياته بدأت من موته. سيبقى كالرموز طرفا في الصراع. فستسمى باسمه بعد ستين سنة كتائب الفدائيين في العمليات الفدائية. وسيجد العرب على قبره بعد ستين سنة رأس خنزير أراد به المستوطنون الإسرائيليون أن يهينوا ترابه و"ينجّسوه".

عندما بدا أن سعاد كالناس قدمت للشهداء مايستحقونه من الحزن، طلبت: ياعبد، أعد لي ماقلته عن أحمد النايف! أطرق عبد الرحيم: رأى جريح من القساميين الضابط أحمد النايف، تلميذ حليم بسطة، يضع قدمه على رقبة القسام ويقول له وهو يحتضر: أتيت لتعمل ثورة عندنا يا...؟ عندما وصل الجريح إلى القساميين نقل لهم مارآه. أجابت فلسطين هذا الخائن! فلسطين طلبت القسام واحتضنته! فلسطين أرادته ونادته! ماتزال فلسطين جنوب سورية! لكن للخائن جوابا آخر! عرفنا أيضا أن حليم البسطة، مساعد مدير البوليس في حيفا، كلف بالتحقيق مع الجرحى القساميين. وسيكون له أيضا جواب!

سمعت سعاد في كلام عبد مايشبه الإنذار. وشعرت بأن الرجلين سيقتلان كخائنين. قالت: هذا رجل صغير، ياعبد! رد: صحيح، ذاك يتجسس على الثوار ويلاحقهم وهذا يحقق معهم!

www.alkottob.com

مسحت سعاد دموعها. منذ عادت من حيفا لبست ثوبا أسود: لن أخلعه حتى أعرف أن من وشى بالقسام شرب عقابه كله! انساقت سعاد إذن في ماتفترضه الثورة من البهجة والانتقام! اصطفيت ياسعاد فردا من مجموعة فيها إنكليز؟ لا، ليس فردا عاديا! هذا رجل قاتم القلب، أهان القسام وهو يموت! أخفت سعاد مسدس عبد الرحيم في حديقة البيت يوم عادت من حيفا. فهل سيقتل به الخائن، وتكون شريكة في القتل؟

سألت عبد الرحيم بعد صمت طويل: والآن؟ لم يجبها إلا بعد أيام طويلة: اجتمع المندوب السامي مع رجال الأحزاب ومع وايزمن. اقترح مجلسا تشريعيا قسمه بين اليهود والعرب. وهرب من الجوهر: طلبنا أن تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فلم يجبنا إلى ذلك! قالت: الأمور إذن على حالها! ويبدو أنها ستظل كذلك حتى تروح البلاد!

بحثت سعاد عن صوت القسّام وهي تتجول في بيتها. بدا لها أنه هتف كلمته الأخيرة الباقية في الزمان! بكّروا عليه! قصفوا ماحضّره سنوات! لكن فلنفحص كل ذلك! ستحكي لأولادها عن معركة القسام في أحراش يعبد. وستصل الكلمات إلى أولادهم كأمانة. كيف يحرر الناس البلاد دون خبرة المقاومة وحلمها، قوتها وضعفها؟ قتل القسام لكن الانتفاضة الشاملة ستبدأ. هل سيتناولها الأغنياء من فقراء القسام ويقودونها ثم يفاوضون عليها الملوك العرب والإنكليز؟ البلاد معبأة بالثورة على الإنكليز الذين يفتحون البلاد للصهيونيين وينقلونها من أصحابها إلى الغرباء. تناول الشيخ أمين الحسيني القيادة! فهل سيوحد الفلاحين والمدينة!

لم تخبز سعاد في عيد الفطر كعكا. وفي دمشق لم تخبز نفيسة معمولا كان دائما من علامات العيد في بيتها وفي بيت أهلها. وعندما حمل لها ابن الكحال كنافة مبرومة في علبة من الخشب، لم تفتحها لتتذوقها وتقدم له منها. صبت له القهوة المرة وقالت: لاتؤاخذنا لدينا عزاء!

بعد تشييع القسّام وقفت مصفحة أمام بيت عبد الرحيم. فتش العسكر الإنكليز الخزائن. رموا الثياب على الأرض، قلبوا الادراج ونثروا الملابس الداخلية. اكتشفت سعاد منديلا من مناديل أمها ظنت أنها ضيعته، وأدهشها التطريز فيه. تناولوا بعض أوراق من كتب عبد الرحيم. فكرت سعاد وهي تنظر إلى المصحفة من النافذة، ماذا يفعل المسدس الذي خبأته بين الحطب في طرف الحديقة. من حظ عبد الرحيم أنهم لم يكتشفوا المسدس!

www.alkottob.com

ترك عبد الرحيم مكتبه ليخبر سعاد: منعت سلطة الانتداب تأبين هنانو في احتفال فأضربت دمشق، ثم بدأ في سورية إضراب عام. يبدو أن السوريين، ياسعاد، وضعوا الإضراب في مشروع واسع!

نظم الفلسطينيون اجتماعا عن سورية في فلسطين! فأبّنت حيفا القسّام وهنانون في صالة زهرة الشرق في حيفا. تحدث نبيه العظمة، وأبّنت القسّام منظمة الشبان المسلمين، ونقابة المحامين، وأحمد شقير، وعجاج نويهض. وصلت إلى الاجتماع وفود منها سعيد العاص من الأردن، وممثلو الكتلة الوطنية في دمشق، وممثلو المدن الفلسطينية. وقفوا دقيقة صمت على الشهداء في بداية الاجتماع، خطبوا وألقوا شعرا، وصاغوا في نهاية الاجتماع برقيات احتجاج وقرارات. خرج المجتمعون في مظاهرة ليلية ينشدون الأناشيد الوطنية ويسقطون الاستعمار الإنكليزي والفرنسي. من القرارات برقية إلى عصبة الأمم، وبرقية إلى الكتلة الوطنية، وهاشم الأتاسي، وإلى جرائد دمشق، وإلى المفوض السامي في بيروت، وإلى الملوك العرب.

كتب عبد الرحيم مقالة عن بسالة نساء دمشق في مقاومة الاحتلال، وأكد أن الاحتلال راحل لاريب في ذلك. وكان يقصد في مقالته، بصيغ متنوعة، الاحتلال الإنكليزي، وتقسيم بلاد الشام. وبيّن ضرورة الإعانات لسورية المضربة. عندما قرأ لسعاد المقطع الذي ذكر فيه النساء قالت له: تلزم النساء لاستنهاض النخوة، ثم يغبن في النسيان!

في الرابع من شباط أضربت مدن فلسطين تضامنا مع سورية. ووصلت رسالة من شكري القوتلي تبين أنه استلم مئة وستين جنيها من فلسطين معونة للمنكوبين.

لم يكسر الإضراب سجن الرجال والطلاب. سجن حتى بديع ابن جيران نفيسة. وحملت نرجس الخبر لنفيسة: ياويلهم! سجنوه لأنه صرخ في مظاهرة

www.alkottob.com

مدرسته! ابتسمت نفيسة. ماذا صرخ يانرجس خانم؟ أنشد نشيد الحماصنة في المظاهرات، "الشيخ تاج يابومة، هات لي شعرة من ذقنك لخيّط هاالتاسومة"! كانت نفيسة لاتزال في ملاءتها قادمة من بيوت التجار الذين جمعت منهم معونة للمستورين الذين أضرّ بهم الإضراب.

انصرفت نرجس وخلعت نفيسة ملاءتها. ماأزال ألهث يامرجانة. يعني ذلك أني كبرت! لم أعد أتحمل ساعة من المشي؟ ياخسارتك يانفيسة! لم أركب الترام إلى الصالحية. البلد مضربة، وأنا كالناس أقاطع شركة الكهرباء والترام! مشيت ساعة فقط، يانفيسة خانم؟ خرجت من البيت منذ الصباح! صحيح يامرجانة، جمعت مساعدات للناس من التجار، ثم قصدت الصالحية!

حملت نفيسة تحت ملاءتها أرغفة خبز من فرن يوزع الخبز على البيوت دون أن يفك الإضراب. يدبر الناس أنفسهم هكذا، شيء من هنا وشيء من هناك. كي تبقى البلد مضربة. كسرت حكومة الانتداب أقفال التجار لكنهم لم ينزلوا كي يبيعوا ويشتروا! في هذا اليوم فقط لم تسمع نفيسة الرصاص. قالت لمرجانة: تذكرت أيام الثورة السورية، يوم كنت أصعد إلى السطح لأعرف في أية جهة علقت الاصدامات. قلبي على الشباب! كم شيعت المدينة من الجنازات! صارت الأم تطمئن على ابنها إذا كان في السجن!

لم تكن قد استراحت بعد عندما أتت منور، فوجدتها تنفض ملاءتها المبللة بالمطر. صحيح، "خبّي حطباتك الكبار لعمك آذار"! مدت كفيها فوق جمر المنقل، مع أن مدفأة الحطب كانت مشتعلة. فابتسمت منور. تحتفظ نفيسة بالمنقل لأنها تحبه لالتتدفأ به! كما تحتفظ بالفانوسين على طرفي الليوان وتشعلهما يوميا رغم الكهرباء! تركت نفيسة منور ومشت إلى الفوقاني مع مرجانة: سأبدل ثيابي، يامنور. يبدو أنها مبللة من المطر!

اكتشفت مرجانة أن جوارب نفيسة مبللة أيضا. خذي هذه الجوارب السميكة، يانفيسة خانم! سأنزل لأحضّر لك الشاي بالزنجبيل ليدفئك. هل قصدت نفيسة أن تأتي بالخبز من الصالحية؟ أم لأنها قالت "ضاق صدري"، وخرجت لتوسعه بالمدينة! لم تعد تستطيع أن تصحح حياتها أو تغيرها. وماكانت لتغيرها! هل يفوتها أن أية امرأة عادية في سوقساروجا أكثر سعادة منها؟ أية امرأة تطبخ في النهار ويجتمع أولادها وزوجها حولها وقت الغداء، وتخصص بعد الظهر للزيارات، وتستمتع بالسهرة! بينما تلوب نفيسة في أطياف شبابها الذي صرفته في العمل في الحرير، وطرزته باستقبال الثوار، مخاطرة بحياتها. أيمكن أن يكون

www.alkottob.com

جوهر حياتها تلك اللمحات الخاطفة فقط، وتكون عاشت سنوات قبلها وبعدها في انتظارها! لتعترف بأنها لم تسع إلى الخبز في الصالحية، بل لتطمئن على مدينتها. قلدت خالد آغا في جولاته في المرجة وعلى ضفاف بردى. لكنها مشت في الصالحية التي لم يكن يقصدها أبدا، لأنها اتصلت بها بأنواع من الوجع ومن أفراح من يشيد بيتا في ذوقه الرفيع ليمسك ببساتينها المشهورة!

حملت مرجانة صينية الشاي لها ولمنور: ليت للصبايا همّتك، يانفيسة خانم! تنهدت نفيسة: صرت أنعس بعد الغداء يامرجانة، هذا يعني أني كبرت! ابتسمت منور. فعمتها كمن تعود العمل من الصباح إلى الليل، لم تحسب الساعات التي تمضيها في مساعدة من ضايقهم الإضراب. جمعت من أغنياء السوق طحينا ورزا وسكرا وزعتها على من تعرف أنهم في ضيق. قسمت مع نرجس الأرزاق في أكياس ووضعتها أمام أبوابهم في الفجر. قالت لها نرجس: ذكرتني، يانفيسة خانم، بجنة خاتون يرحمها الله! فردت نفيسة التي ترفض أن تشبه أحدا: نعمل واجب الناس علينا في إضراب عام!

أعاد إليها الإضراب طوال ستين يوما أيام الثورة السورية. فأصبحت للنهار والليل تقسيمات أخرى. الفجر لوضع التموين قرب أبواب من أضر بهم الإضراب. والصباح والمساء لمقابلة الأغنياء وجمع المال والمؤونة. وأول الليل للعشاء مع ابن الكحال ومرجانة وبهاء ومنور. كسر "الغلق" في مخزن ابن الكحال كما كسر في مخازن السوق. فنزل وتفرج مع أصحابه على المخازن المفتوحة بالقوة. وتركها مثلهم في أمان الله. لم تنقص منها إبرة! قيل إن الكتلة الوطنية وضعت حراسا يروحون ويجيئون في مناطق الأسواق. وقيل إن "الحرامية" مضربون أيضا. وقيل شهامة، كيلا ينكسر الإضراب.

قالت نفيسة: لولا الإضراب لم أدخل البيوت التي دخلتها، ولاعرفت الناس الذين عرفتهم مع أنهم في حارتي نفسها! صارت البلد على قلب واحد! ينقصك رغيف خذه مني. ينقصني برغل آخذه منك. هاتي بعض السمن وخذي بعض الزيت. أغلقت المخابز والدكاكين لكن البيوت انفتحت أحدها على الآخر. داعبتها منور: صحيح ياعمتي! ماأكثر ماتغدينا أنا وبهاء عندك، وماأكثر ماحضرنا العشاء. عندي مؤونة تفيض عني. أعطي منها الغرباء فلماذا لاتأكلان عندي دائما؟ لأجل عيني معتصم أدللكما!

تعودت نفيسة معتصما وألفها. لكن لتعترف بأنها لاتستطيع أن تعنى بطفل من الصباح إلى المساء! أعطت منور مفتاح بيتها فقد تحتاج منه شيئا في

www.alkottob.com

غيابها. وكيلا تنزل الدرج هي أو مرجانة لتفتحه!

لم يخف على منور أن نفيسة التي ترفعت على العلاقات بالولد والزوج لاتخفي حبها لمعتصم، كأية امرأة يمكن أن تفرح بأحفادها. رغم الكبرياء الذي تكبح به ذلك الحب. الكبرياء؟ قال بهاء: لا، يامنور! لم تتعود نفيسة أن تعبّر عن الحب، وربما لم تتعود أن تعبّر عن أية عاطفة شخصية. ألا تلاحظين أنها تخفي قلبها دائما، مظهرة أنها تهتم فقط بعملها أو ببلدها؟! لكن امرأة مثلها هي التي تملك كنوز الروح.

وجدت منور أخيرا الفرصة للكلام: ياعمتي، قال بهاء إن المندوب السامي دو مارتيل طلب هاشم الأتاسي إلى بيروت، ووافقت الكتلة الوطنية.

استمر الإضراب ستين يوما. سحب الفرنسيون في نهايتها الشيخ تاج الدين الحسني وأوكلوا الوزارة لعطا باشا الأيوبي. حضّر الوطنيون وفدا سوريا للمفاوضة في باريز. انتهى الإضراب! واستقبل عبد الرحيم في فلسطين رياض الصلح الذي مر في طريقه من لبنان إلى فرنسا ليلحق الوفد السوري.

رددت نفيسة فيما بعد: منور هي التي حملت لي الأخبار المفرحة. نهاية الإضراب الستيني، والاتفاق بين الوطنيين والفرنسيين على استقلال سورية ووحدتها. لم أزغرد منذ عرس منور. وقفت وزغردت. تخّت قلوبنا من الحزن. يمكننا الآن أن نفرح! هكذا انشغلنا بأخبار جديدة بدلا من المظاهرات والسجن والقتلى، فصرنا نتابع سفر الوفد إلى باريز، ووزارة عطا باشا الإيوبي. ضحكت نفيسة: لكن زمن سوقساروجا انتهى! بيت عطا باشا الأيوبي في الصالحية! وأنا سأنتقل إلى هناك! سألتها منور دهشة: صحيح ياعمتي؟ تأملتها نفيسة زمنا حتى أرخت منور نظرتها. يامنور، نبقى في بيوتنا لنحرس أطياف عمرنا ومحبينا. نصغي إلى الأمكنة التي جلسوا فيها، ونستعيد من الجو كلماتهم التي تركوها. في هذا البيت أفراح فاطمة ويوسف ونفيسة وأحزانهما. فيه هشاشة قلبي يوم كنت صبية، وقوتي التي طويت بها ضعف امرأة مفجوعة بزوجها. وفيه الأمسيات مع خالد آغا! بيوتنا؟ لو ترين، يامنور، مايميز بيتا من آخر! ليت منور تفهم ذلك! قالت نفيسة: لن أترك بيتي مقابل الشامية إلا إلى القبر! ومن الدحداح سأحاول أن أشم عطر شجر الكباد في أرض الدار!

احتفلت نفيسة مع أم بديع بخروج ابنها من السجن. وقالت: انتهت أيام الحزن! وكانت مخطئة! ففي حزيران أتت إليها منور مع ابنها لتخبرها خبرا آخر. تلقت نفيسة معتصما مفتوحة الذراعين قبل أن تحيي منور. ورمى معتصم نفسه

www.alkottob.com

عليها. أفرحها أنه ترك أمه ليرتمي عليها. وانشغلت بتدليله. ابتسمت لها منور. لولا هذا الطفل ماكان أكثر حلكة تلك الأيام! أمتعها حتى أن يجر معتصم غطاء الطاولة فتقع الصحون وتتكسر. وتابعت طعامه: أكل اليوم أكي دنيا! أحب خشاف الجانرك! لم يعد يحب الفوسفاتين! يحب المهلبية مع الكعك الطري! ذاق الدوندورما! سألتها نفيسة بنظرتها: مابك يامنور؟ ياعمتي، أشعر بأن بهاء سيذهب إلى فلسطين مع أصحابه في الثورة السورية! كبحت نفيسة قلقها: فلسطين بلادنا، والواجب نجدة أهلنا! لكنها قالت لنفسها ماقالته منور لنفسها: لاأحتمل موتا جديدا!

لم تبح نفيسة لبهاء يومذاك بهواجس منور. لكنها طبخت الطعام الذي كان يحبه خالد آغا تكريما لبهاء. ورددت بينها وبين نفسها: لكن عش أنت، يابهاء! ارجع بالسلامة! رأى بهاء نفيسة في لياقتها، كأنها تطمئنه. وشكرها برقته ودماثته. قالت له مداعبة: لو كنت من المتطوعين الذين قد يذهبون إلى فلسطين كيف ستحارب الإنكليز واليهود بهذه الرقة، يابهاء؟ رد: كما حاربت الفرنسيين في الثورة السورية! أصوّب جيدا، يانفيسة خانم! وأرى المنطقة التي أتحرك فيها كلها وأنا في جزء صغير منها! وسيعتمد أصحابي على معرفتي فلسطين، لو ذهبت مع المتطوعين!

تأملته منور وهو يتحدث مع نفيسة وتنهدت. هكذا، يكون أحباؤك ملء ذراعيك وفجأة تصبحان فارغتين! مرت الأيام الجميلة مسرعة! مرت كأنها مسروقة! هل حرّم علينا أن نعيش دون خوف على أحبائنا؟ في برهة بدا لها معتصم حملا ثقيلا تريد أن تهرب منه، وفي برهة تالية بدا لها أنها لاتملك سواه. في تلك الليلة نامت من التعب، أو كمن يتمنى الهرب من نفسه. ظنت أنها لاتستطيع النوم من التوتر، لكنها قالت لمرجانة التي أتت تستقدمها إلى العشاء: أفضل النوم! وغفت مع ابنها.

هل سيعبر بهاء حوران إلى بيت سليمان باشا السودي في قرية سما، ويجد أطياف أصحابه؟ ألن يقول له سليمان باشا: كان سعيد يحب أن يجلس هناك! وكيف سيتركه الإنكليز يعبر النهر مع المتطوعين ليساعد الثوار عليهم في فلسطين؟ أيجتمع حقا في فلسطين متطوعون من العراق وجبل الدروز وجبل لبنان والشام وشرقي الأردن؟ ليت الإنسان يستطيع أن يقرأ حياته قبل أن يعيشها ليستدير عن منعطف إلى آخر، ليغير قدره أو ليستعد أن يقابله في لياقة !

www.alkottob.com

كانت بنات العكي يحضّرن نزهة لسعاد في حديقة البلدية، منتصف نيسان. الربيع دافئ والزهر يطرز العشب! فهل نفوّته ياسعاد؟ لكن الشيخ فرحان السعدي، من جماعة القسّام، رتب كمينا صاد فيه بعض المستوطنين اليهود. برّر عبد الرحيم له ذلك: وصل ضيق الناس بالهجرة الصهيونية حتى الحلق! سطا اليهود على الأرض الزراعية. جبل كنعان وقف إسلامي يحاول اليهود أن يستولوا عليه. تدل الأسلحة التي اكتشفناها في الميناء في عبوات الإسمنت أنهم يحضّرون أخذ البلد بالقوة. البلاد معبأة بالثورة! فكّت سعاد زوّادتها وبقيت في البيت. من يستطيع أن يضحك ويأكل والناس في غمّ؟! أي همّ نزل بهذه البلاد!

قتلت مجموعة فرحان السعدي مستوطنين على الطريق من حيفا إلى بلعا. وقتل يهود عمالا عربا في تل أبيب. فعلقت الاشتباكات في يافا. اجتمع رجال الأحزاب والطوائف فيها وأعلنوا الإضراب العام. أعلنت المدن الأخرى الإضراب. ونظمت لجان قومية. قالت بنات العكي: يابختك ياسعاد! فردّت: أكثر من القرد مامسخ الله! السجن وعرفناه، والمعتقل وذقناه!

غاب عبد الرحيم يومين في القدس. رجع متعبا وجائعا، لكنه نقل لسعاد فرحه: اختار ممثلو الأحزاب لجنة عربية عليا، وانتخبوا الحاج أمين الحسيني رئيسا. سيعلن الإضراب العام! لكنه لم يتوقع أن يستمر الإضراب ستة أشهر وأن الاشتباكات المسلحة ستصبح ثورة!

نشرت اللجنة العربية العليا بيانها: سيستمر الإضراب حتى منع الهجرة اليهودية، ومنع انتقال الأراضي إلى اليهود، وحتى تشكيل حكومة وطنية ومجلس نيابي. وصار عبد الرحيم يخرج من البيت مرتديا بيجامته تحت البنطال. وينثر في الصباح على سعاد الأخبار التي لم ينقلها لها في المساء ويلحقها بتأملات. اسمعي برقية شكري القوتلي: اعتداءات الصهيونية على العرب حجة لنا على

www.alkottob.com

فساد وعد بلفور وفشله! قال: ستكون دمشق سند الثورة! وأخبرها أن صدقي الطبري نظم اللجنة القومية في طبرية. ثم أوصاها: ثقي بمن قد يرسله يوسف أبو درّة. هذا رجل وطني، كان مزارعا ثم اشتغل في حيفا في السكة، ثم في المصفاة. جلف لكنه مخلص! كانت سعاد في ذلك اليوم تحلم بأن تنزل إلى الحمّة. ما أحلى الحمّة في الربيع! ما أحلى مياه البلسم الكبريتية الفاترة وشجر الموز!

سألته سعاد: صحيح أن الثوار يصيدون من يلبس برنيطة! ولن نرى في الطريق غير رجال بطرابيش! رد: وبحطّة! سألته: صحيح أن الفلاحات اكتشفن أن الفلفل يضيع الكلاب البوليسية التي تدل الإنكليز إلى الثوار، فموّن بيوتهن بالفلفل الأحمر؟ لم يجبها ولم تسأله لأنها تطلب جوابا. تعشت معه داوود باشا ورزا. قالت: خمّنت أنك ستتعشى في البيت لافي المعتقل! ترك عبد الرحيم كلامها معلقا في الهواء وشغلها بأخبار يجب أن تعرفها. حكى لها عن مظاهرات طالبات نابلس! ومظاهرة حيفا التي خرجت فيها النساء! ومؤتمر اللجان القومية في القدس الذي تكلم فيه الحاج أمين الحسيني وتحدث فيه عوني عبد الهادي. خذي: "قرر المؤتمر بالاجماع الامتناع عن دفع الضرائب اعتبارا من الخامس عشر من أيار 1936 إذا لم تغير الحكومة البريطانية سياستها تغييرا أساسيا تظهر بوادره بايقاف الهجرة اليهودية". حضر المؤتمر صدقي الطبري، وعلي رضا النحوي، وأحمد شقير وصبحي الخضرا. وروى لها أن الجامعة السورية والمدارس السورية أضربت متضامنة مع فلسطين، واحتجت للقنصل البريطاني في دمشق. كتب فخري البارودي مدير المكتب العربي في دمشق: "لايمكن أن تخرج سيارة من سورية إلى فلسطين إلا إذا كانت حاملة وثيقة من المكتب العربي يرخص لها بالسفر". لذلك لا يمكن أن تشحن بضائع يهودية من فلسطين إلى سورية، ولا خضار وفواكه من سورية إلى مستوطنات فلسطين!

انتبهت سعاد إلى صوت عبد الرحيم، وقالت لنفسها: قد لا أسمعه غدا. فكرت لأول مرة بحلاوة "دفء البيت". ولكن هل هي من يقرر له الاستمرار! سألت عبد الرحيم كأنها ترجو أملا: ماذا يمكن أن يكون قرار الإنكليز الأخير؟ رد: اتصل المندوب السامي باللجنة العربية العليا، وأجاب بقانون يعاقب من يحمل سكينا!

لن تسأله طوال أيام الثورة عن قرار الإنكليز! بعد نسف يافا القديمة قالت هؤلاء وحوش وليسوا بشرا. سيفجعها أن ينذر الجنود الإنكليز أهل يافا القديمة في الساعة الرابعة صباحا بالمكبرات، وأن يخرجوهم من بيوتهم ويطوقوها بالأسلاك،

www.alkottob.com

وينسفوا المدينة القديمة. فتطير أحياء كاملة وحمامات ومدارس وأضرحة.. ستتساءل: "مشروع تجميل يافا"؟ رحيلهم يجمل فلسطين كلها! قالوا: "أبنية قذرة كانت مركزا للخارجين على القانون". الإنكليز المتوحشون هم الخارجون على القانون. صدق المثل يقعد في حضنا وينتف ذقننا!

في بداية الثورة قالت سعاد للست شفيقة: نظمني عبد في حزبه! وظفني في القيادة! لا يكلمني إلا عن الثورة. يسألني عن رأيي في الأحداث، لكنه لا يسألني حتى عن أمه ولا يرى ابنه إلا نائما!

عندما سيحدثها عبد الرحيم عن نفي بعض أصحابه إلى عوجة الحفير في الصحراء في أكواخ من الخشب، وعن اعتقال نبيه العظمة، ستقول له مداعبة: طمأنتني إلى أنك ستعتقل! وسيرد: لكن تذكري أن العرب معنا! دعا شكري القوتلي إلى اجتماع كبير في دمشق، ونظمت لجان في البلاد العربية لإعانة فلسطين. ووصلتنا رسالة من فخري البارودي! عندما غفا عبد الرحيم نهضت سعاد وحضّرت له في محفظة صغيرة بعض الثياب. وكان حدسها صحيحا. اعتقل في الصباح.

أخبرها أنور فيما بعد أن نوري السعيد اجتمع بوايزمن، وبدأ وساطة لفك الإضراب. اقترح اتحادا فيديراليا مع اليهود شرط وقف الهجرة، فرفض وايزمن اقتراحه. وفشلت وساطته. يريد اليهود كل شيء! والإنكليز اختاروا اليهود. قالت له سعاد: مصائبنا منهم! قبلهم لم نسمع بأن أذن الإنسان تشد بحبل حتى تقطع! ماذا تعدّ من جرائمهم! كسروا أبواب البيوت في القرى وخلطوا مؤن الفلاحين! قصوا شجر الزيتون! شلحوا البيوت أثاثها لتفي بالغرامات. سرقوا حلي النساء!

في منتصف تموز قدم قضاة المحاكم الشرعية مذكرة للمندوب السامي. وكان عبد قد خرج من المعتقل.

عندما استعادت سعاد فيما بعد أيام الثورة وهي تزور صدقي الطبري في درعا، اختارت فقط اليوم السابع من آب الذي قتل فيه أحمد النايف. قالت: تصور ياصدقي، أنا التي لا أستطيع قتل نملة، احتفلت بقتل أحمد النايف أكثر مما احتفلت بعودة عبد من المعتقل! باحت له بأنها كانت في حيفا يوم قتل القسّام. وأنها أخفت مسدس عبد الرحيم تحت ملاءتها. قال أحمد النايف للقسام وهو يموت: أتيت تعمل لنا ثورة؟ أخذ النايف الجواب: مات كالكلب! منع العرب الصلاة عليه والسير في جنازته وحرموا دفنه فدفنه الإنكليز.

www.alkottob.com

خطر لسعاد في أول أيام الثورة، وهي تلجأ إلى بيت قدري مرة، وتطلب بنات العكي مرة، أن أيام السعادة فقط تجعل الإنسان مستقلا لا يحتاج أن يتكئ على آخر. شجعتها شفيقة: لا تقلقي ياسعاد، ندفع جميعنا ثمن الثورة!

شكت سعاد لها: لا تمر سنوات السعادة فقط مسرعة، ياخالتي! لولا قامة زياد لما وعيت أن ثلاث سنوات مرت كلمح البصر، وأننا صرنا في سنة 1936! خمنت شفيقة أن سعاد أتت إلى طبرية كما تأتي صبية من بيت زوجها إلى بيت أهلها. وقدمت لها عصير الليمون الذي تكرم به الضيوف: اشربي، ينعشك الليمون! وبدا لسعاد أن ليمون خالتها يختلف عن أي ليمون آخر. سألتها: وضعت فيه قشر الليمون كالعادة؟ ياسعاد: ذوقي هذا! مربى خليط من الليمون والبرتقال والنارنج! أعجبك؟ تعلمته من ضيفة لبنانية. خمس برتقالات، وليمونتان وحبة نارنج، لكن ضعي البذور في شاش واغليها معها!

فتحت شفيقة النافذة فامتلأت ببحيرة طبرية! رفعت سعاد زيادا ليطل منها. هذه هي البحرة التي تفرجت عليها من هذه النافذة في طفولتي وصباي! حلوة؟ مدت ذراعها: وهناك سبحت! غدا ستريه الصيادين مع شباكهم وسمكهم!

سرحت سعاد في بيت قدري، وشكرت شفيقة لأن الأثاث ما يزال في أمكنته التي تعرفها. لم تطو شفيقة حتى سرير قدري، وتركت فوقه غطاءه الأبيض المطرز. وقفت سعاد قرب السرير زمنا، متأملة الكرسي المغلف بكتان أبيض. متى كان قدري يجلس عليه؟ وهو يسرح بنظره في البحرة ويفتح صدره لنسيمها؟ وهو يبعد نفسه عن أحاديثه مع هربرت صموئيل وحاخام طبرية؟ وهو يستريح من سفره إلى جلسات المؤتمر السوري في دمشق؟ مازال الكرسي في مكانه مقابل السرير، لكن أين صاحبه؟ تعيش الأشياء أكثر مما يعيش الناس! ونريدها أن تبقى بعدهم. لنقرأ فيها حياتهم التي أخذوها معهم وتركوا أطيافها! لم تجسر سعاد أن تجلس على الكرسي، وردت زيادا عنه. فقالت له شفيقة: تعال، عندي كرسي

www.alkottob.com

صغير يناسبك! لم تطلب شفيقة من أحد ألا يجلس على كرسي قدري، أو ألا ينام في فراشه، ولكن هل كانت تحتاج أن توصيهم بذلك!

لبست سعاد ثوبا أبيض من القطن، وشعرت بالراحة في بيتها القديم. بدا لها غريبا أنها ضاقت به في فتوتها وتمنت أن تتزوج لترحل عنه! نامت مبكرة تاركة زيادا لشفيقة. وأفاقت بعد الفجر بقليل فرأت من النافذة التي تركتها مفتوحة في الليل، السماء ملونة بحمرة خفيفة. استمعت إلى حركة شفيقة في المطبخ وخمنت أنها جمعت بيض الدجاج من القنّ وقطفت الخضار من البستان، وبدأت تحضر الفطور. وصل إلى سعاد عبق الخبز الذي تخبزه زوجة البستاني في التنور. فنهضت مستريحة، نضرة. قالت لشفيقة في المطبخ: ياخالتي، كأني نمت يومين! لم ترفع شفيقة رأسها عن البيض المسلوق وصحون الزيتون والجبن والمكدوس والمربى التي كانت تصفها في صينية واسعة: تعالي كلما تعبت ونامي قدر ما تشتهين!

بعد الفطور رجعت سعاد وشفيقة إلى هموم البلد. قالت سعاد: قدّر علينا ياخالتي أن نركض مع رجالنا طول العمر؟ تفرجت شفيقة عليها في سخرية: التعب لأجل البلاد راحة، ياسعاد خانم! تعودناه منذ كنت طفلة صغيرة تجلسين في الحضن! من يسند الرجال غيرنا؟ على كل حال، هذا فرض لا ينوب فيه أحد عن أحد!

هل غضبت سعاد؟ داعبتها: كان يجب أن ننتبه، ياحبيبتي، إلى خطر ضم شرق الأردن إلى فلسطين لأن ذلك يعني فتحه للهجرة اليهودية! وأن نتحمس لاحتجاج اللجنة التنفيذية على اعتداء مستوطنين من مستعمرة ناتانيا هاجموا بالأسلحة عشرة من الكشافة العرب كانوا في مخيم نصبوه على شواطئ طولكرم لحراسة الحدود من الهجرة غير الشرعية ومن تهريب الأسلحة لليهود! وكان يجب أن نفكر في اعتداءات اليهود على العمال العرب! وأن نهتم بمؤتمر الشباب العربي الثاني في حيفا الذي طلب إنقاذ الأراضي، والاهتمام بمشروع البطيحة، وزيادة المخصصات للمدارس، وضرورة الرياضة، ومقاومة الزواج المبكر! فهل نحن أقل من الشباب الذين وضعوا مشروعا يحتاج تنفيذه إلى دولة؟!

تمزحين ياخالتي! لكن ما قتله صحيح! روت سعاد لها أنها نزلت إلى القدس في الثلاثين من نيسان فحضرت اجتماع النساء العربيات. قالت: كنا أربعمائة امرأة! طلبنا "منع الهجرة وتسرب الأراضي، وتشكيل حكومة وطنية". وأرسلنا برقية قوية إلى الملك إدوارد الثامن. نزلت مرة أخرى إلى القدس في السابع من أيار.

www.alkottob.com

طلبنا في اجتماع السيدات العربيات تجريد اليهود من السلاح، وإطلاق سراح المعتقلين، وحكومة وطنية. وطلبنا أن تقاطع الهيئات واللجنة العليا الحكومة وترفض مفاوضتها.

فحصت شفيقة الشابة التي تتحدث عن سفرها بين المدن، وتنقل بيانات الاجتماعات التي لم تشترك فيها. أهذه هي الصبية التي جرفها هوى حمدان وانساقت مسحورة فيه؟ أهي الصبية التي رجعت من الناصرة مكسورة الروح، معذبة؟ صحت سعاد على نظرة شفيقة الرحيمة. سألتها: مابك، بم تفكرين ياخالتي؟ أفكر ياسعاد في أنك صرت أحلى! تنهدت سعاد: أنحن هناك الآن، ياخالتي؟!

كانت سعاد في محطة للراحة، بعد مؤتمر اللجان القومية. كم استقبلت من ضيوف عبد الرحيم خلال التحضير له! قالت لشفيقة: ساهمت في المؤتمر بتحضير الغداء والعشاء! ذات ليلة حضرت عشاء لعشرين شخصا! ابتسمت شفيقة: كنت أستضيف في بعض الليالي ثلاثين شخصا من ضيوف قدري! وكان يجب أن "أبيّض" وجهه أمامهم!

اجتمع مؤتمر اللجان القومية في القدس في أيار تلك السنة. نزلت سعاد بعده إلى طبرية. ونقلت لشفيقة ما رواه لها عبد الرحيم عن المؤتمر. حكى أمين الحسيني الحكاية كلها. من أيام تمثيل فلسطين في مجالس الدولة العثمانية، إلى الوعد الذي أكدت به بريطانيا سنة 1918 أنها ما تزال تحترم عهودها للعرب. قال للحاضرين: لدى بريطانيا وعدان متناقضان، واحد للعرب وواحد لليهود! في جلسة عقدها الوفد الفلسطيني سنة 1930 مع رئيس الوزارة ماكدونالد وباسفيلد وزير المستعمرات، أبدينا رأينا فقلنا إن "تقارير اللجان التي ليست في مصلحة الصهيونيين" لا تنفذ. فأكد لنا ماكدونالد بشرفه وشرف بريطانيا أنه سينفذ توصيات الخبير سمبسون. لكنه، رغم ذلك القسم، ألغى بنفسه الكتاب الأبيض!.. وهاهم اليهود يؤلفون قوى عسكرية منظمة، وينوون بناء هيكل سليمان..! وجه أمين الحسيني كلمته للعالم العربي والإسلامي: نستنجد بكم كيلا تصبح هذه البلاد أندلسا ثانية! قال عبد الرحيم لسعاد يومذاك: لم أتوقع أن تحترم الحكومة البريطانية تقارير لجنة شو ولجنة سمبسون. تذكرين أن لجنة شو ثم لجنة سمبسون وصلتا للتحقيق في أسباب اضطرابات سنة 1929. اتفقت اللجنتان على أن سببها انحياز الإدارة الإنكليزية لليهود. ذكر تقرير لجنة سمبسون أن أراضي الفلاحين العرب سلبت منهم. لذلك "من الضروري وقف الصفقات المتعلقة

www.alkottob.com

بامتلاك الأرض لإنشاء مستعمرات زراعية للمهاجرين المتزايدين". "بمقدار ماتتعزز المواقع الاقتصادية للرأسمال اليهودي في البلاد يزداد عدد العاطلين العرب عن العمل. لكن الاحصاء عن البطالة غائب فعليا، والإدارة الإنكليزية غير مدركة خطر هذه المشكلة بكاملها، أما في الدوائر اليهودية فيعتبر ذلك أسطورة". استنتج التقرير سبب يقين العرب بأن: "نية الزعماء اليهود ترحيل السكان العرب الفلسطينيين من فلسطين". فماذا استنتجت الإدارة الإنكليزية؟ أنها يجب أن تزيد عدد البوليس لتحمي المستوطنات اليهودية! بعد تقارير اللجنتين صدر الكتاب الأبيض الذي كرر التزام حكومة الانتداب بأن يتناسب حجم الهجرة مع وضع البلاد الاقتصادي، والمساواة في الالتزامات البريطانية نحو العرب واليهود. فقاوم زعماء المحافظين الإنكليز الكتاب الأبيض، وقاومه الزعماء الصهيونيون، فاضطر الوزير ماكدونالد أن يكتب لوايزمن في شباط 1931: "تتعاون الزعامة الصهيونية بحماسة في تنفيذ سياسة الانتداب. أما نشاط الشعب اليهودي البنّاء في فلسطين فيقوم بالتأثير الخير على تطور البلاد ورفاهها بشكل عام". أمين الحسيني محق في نبوءته يوم اجتمع مع ماكدونالد! لايمكن أن تنفذ بريطانيا توصيات لجنة سمبسون ولجنة شو!

استشفت سعاد من حديث زوجها إعجابه بأمين الحسيني. فسألته: هل أخذ أمين الحسيني عندك مكان المرحوم القسام؟ يعني:

حج أمين لو ضرب لندن بكفه

لاهتز التاج والكرسي انقلب!

صمت عبد الرحيم زمنا حتى شعرت بأن سؤالها في غير مكانه. أخطأت! ففي هذه المسائل لا تجوز أبدا السخرية ولا الاستخفاف! في هذه المسائل لا يجوز أن ترمى كلمة دون حساب، ولو كانت في حديث مع الزوج! قال عبد الرحيم: هذا غير ذاك! لا يتكرر إنسان، ياسعاد! الاثنان في المجرى نفسه! أمين الحسيني تلميذ محمد رشيد رضا. ضابط في الجيش العثماني. دافع عن القدس في أحداث سنة 1920 وحكم عليه الإنكليز بالسجن فذهب إلى دمشق. حضر المؤتمر السوري الفلسطيني والمؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سورية. بعد ميسلون عاش في الصحراء حتى ألغي الحكم عليه في فلسطين فرجع وصار مفتي فلسطين في سنة 1921، انتخب بعد سنة رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى. ألم يقل لك خالك قدري إنه التقى به في دمشق؟ أعجبتني في الحسيني منذ التقيت به نظرة واسعة فهمت أن الصهيونية مشروع سياسي يعتمد الدين، فيجمع قوى عالمية

www.alkottob.com

سياسية وجماهير يهودية. ولذلك يجب أن يرد بقوى عالمية وبقوى عربية وإسلامية. وظف الحاج أمين مركزه الديني لجمع القوى الإسلامية والعربية في مقاومة الصهيونية. ولذلك دعا إلى المؤتمر الإسلامي في القدس سنة 1931. نظم مقاومة الإنكليز واشترى الأسلحة للثورة. وحاور خلال ذلك اللجان البريطانية معتمدا العقل والحجة. وتعرفين أنه اشترك في الوفد الفلسطيني إلى لندن سنة 1930. الحسيني ذكي، وطني، يقدر بدقة ما يمكن أن يكون ضعفا وما يمكن أن يكون قوة! ويفهم سعة المشروع الصهيوني وعلاقة الإنكليز باليهود. لذلك يهاجمه الطامعون بالزعامة، ولاتستبعدي منهم الراغبين في صداقة الإنكليز. فهمه الخطر الصهيوني وعداوته للبريطانيين يجعلني منحازا إليه! لكنه يحسب حساب الملوك والحكام العرب، لأنه رجل سياسة يزن محيطه وحلفاءه! يبدو لي أن المرحوم القسّام لم يبال بهذا الجانب! لو كنا نستطيع، ياسعاد، أن نرسم زعماءنا لأخذت من صفات القسّام وأضفتها إلى الحسيني، ولأخذت من الحسيني دقته في الحساب وأضفت ذلك إلى القسّام! لكن انتبهي! ستصادفين أمس واليوم وفي المستقبل أيضا من يقزّم الزعماء الوطنيين، ليبدو الزعماء الصهيونيون العنصريون كبارا! وليفقد الناس الايمان بتاريخهم، ويصبحون دون ماض! لا تستصغري أبدا مايمكن أن يفعله الرعاع! يستطيع الرعاع أن يدمروا أبنية شامخة شيدها العقلاء والمخلصون بعمرهم وتضحياتهم وتعبهم! سمعت في دمشق من قال إن يوسف العظمة تركي، وإنه قرر الانتحار لذلك ذهب إلى ميسلون، وإنه شرب قبل أن يرحل إلى ميسلون! قيل أيضا إن المتطوعين خرجوا إلى ميسلون كمن يخرج إلى سيران! ونعرف نحن كم يحتاج الرجل إلى تركيز الفكر والقوة الروحية والصحو ليواجه قوة عظمى، في أول صدام عسكري بين العرب وبين الغرب في تاريخنا الحديث! من يستطيع أن يجهل ذلك، من يستطيع أن يهين المقدسات غير الرعاع؟!

أصغت سعاد إلى عبد الرحيم كمن يصغي إلى معلم هادئ مثقل بحكمة العمر. هاهي تفهم جانبا آخر من الأيام التي عاشتها مع أهلها لكنها لم تحملها مثلهم، فانبهرت بضوئها ولم تغص في عتمتها! هل بدا لها كزوجة محبوبة وصغيرة أنها تستطيع أن تتطاول على رجل يحترمه زوجها ولو لم تقصد أن تهينه؟ لعلها استسلمت برهة لغواية الشعور بأنها صغيرة ومدللة حقها أن تفلت كلامها كيفما تشاء! عندما استمعت إلى عبد الرحيم صامتة شعرت بما بينهما من العمر. لكنها تعلمت منه في ذلك اليوم احتراما لن تخونه أبدا للسياسيين والفلاحين الذين قاوموا الغربيين والمستوطنين. ولذلك ستتحمل فظاظة القائد أبي درة وستحزن

www.alkottob.com

عليه عندما يعدم. وستكون موهوبة بأن تذكر تاريخ الإنسان الذي تقابله، لذلك لن تنسى وهي تستقبل شكري القوتلي في بيتها أنه ليس فقط رئيس جمهورية سورية أو سياسيا سوريا، بل هو الرجل الذي اشترى السلاح للفلسطينيين في سنة 1947، وسند الثوار في سنة 1936، وزار أمين الحسيني في لبنان مخترقا الرقابة الفرنسية. سترى الإنسان الذي تقابله وسط موكب حياته، عندما تكون قد خزنت هي ومن تقابلهم، التاريخ الحزين والغني في بلاد الشام، في ثلاثة عقود متوترة ظالمة ومجيدة.

قبل أن ينصرف عبد الرحيم سألها ملاطفا: قلت إن الناس يرددون:

حج أمين لو ضرب لندن بكفه

لاهتز التاج والكرسي انقلب!

أفهم ذلك بشكل آخر، ياسعاد! لا يجهل أهل بلادنا أن الطائرات الإنكليزية قصفت الثوار، وأن عسكر الإنكليز هاجموا قرانا وكسروا أبواب بيوتها وخلطوا مؤونتها، وأعدموا رجالنا في ساحاتها! لذلك يتمنون العكس! وسيؤكد لها عبد الرحيم فيما بعد رأيه: كان ذلك مثل أهازيج السوريين:

ديغول خبّر دولتك،

باريز مربط خيلنا!

تلقت سعاد ابتسامته وفهمت أنه يخفي بها خجله لأنه بدا كمعلم أمامها. هل أتعبها كل ذلك؟ بل تحتاج أن تترك عبد الرحيم وعكا لتستعيد الأحداث السريعة التي ركضت فيها، لتشعر وهي تتأملها بأنها عاشتها حقا! لتثق بأن الدنيا لم تخطف منها هذا المقطع من عمرها الذي مر مسرعا ومكتظا! رتبت بسرعة ثياب ابنها وثيابها ونزلت إلى طبرية.

سيبدو اليومان اللذان أمضتهما في طبرية جزيرة واسعة من الراحة في ذكريات سعاد عندما تستعيدها في دمشق مع خالتها. ستقول إن شهر أيار في تلك السنة جعلها كمن يعيش على الطرقات بين يافا والقدس وعكا! في شهر أيار نزلت مع عبد الرحيم إلى يافا يوم نظم فيها مؤتمر لجان طلبة المدارس. وفي أيار استقبلت ضيوف عبد الرحيم القادمين معه من نابلس من اجتماع ممثلي اللجان القومية في قراها في الثاني عشر من أيار وقرأت قرار المؤتمر "الامتناع عن دفع الضرائب. واستنكار إقامة مخافر بوليس في بعض القرى على حساب أهلها". وفي الرابع عشر من أيار حضرت سعاد اجتماع السيدات العربيات في يافا الذي

www.alkottob.com

طلب "منع الهجرة، ومنع انتقال الأراضي إلى اليهود، والاستمرار في الإضراب". وفي ذلك اليوم أعلن بيان اللجنة العربية العليا قرار المؤتمر المنعقد يوم الخميس في السابع من أيار: "الامتناع عن دفع الضرائب اعتبارا من منتصف أيار! لاضرائب بلا تمثيل"!

دعا المندوب السامي اللجنة العليا إلى مقابلته. أعلن لها أن الحكومة البريطانية لن توقف الهجرة اليهودية. قال: بعد إنهاء أعمال العنف ستعين الحكومة لجنة ملكية لتبحث الموقف! بينت اللجنة العربية أنها، من تجربتها، لا تثق بأية لجنة. تعرف حكومة بريطانيا جيدا أسباب القلق العربي دون حاجة إلى لجنة! "فالمسألة ليست مسألة بحث وتحقيق، لكنها مسألة تغيير السياسة الحاضرة تغييرا يضمن كيان العرب في البلاد".. السياسة التي تريد أن تجعل اليهود أكثرية في البلاد!

تنهدت سعاد: كأننا أمام جدار أصم! أغلقت نوافذ بيتها كلها، فشعرت بأنها كالسجينة. همست: مثل هذه البلاد! خرجت إلى الحديقة المعتمة. ما تزال تشعر بأنها في سجن رغم نسيم البحر! البلاد كلها سجينة، ياسعاد! "صحيح لا تقسم، ومقسوم لا تأكل، وكل حتى تشبع"! أوقفوا الإضراب والاضطراب كي نرسل لجنة ملكية! لكننا لن نحترم تقرير أية لجنة! لن نوقف الهجرة اليهودية، وسنهب الأراضي المشاع لليهود ! ما مصيرنا ياربي؟ ما مصير زياد؟ ما مصير بيت قدري على شاطئ طبرية؟ يدفعنا الإنكليز إلى مصير أسود. إذا لم ينشغل عبد الرحيم بالمؤتمرات انشغل بالدفاع عن الفلاحين المضروبين والمعتقلين!

احتجت اللجنة العربية العليا بمذكرة للمندوب السامي في الثاني والعشرين من حزيران على تصرفات البوليس والجند خلال التفتيش. لم تبالغ المذكرة! فما حدث وحشي وهمجي! كسر الأبواب في الليل، ضرب أصحاب البيوت، كسر الخزائن والأواني وتمزيق الأثاث وخلط المؤونة، وسرقة النقود والحلي. حدث ذلك في وادي الجوز في القدس وقرى الذيب وقاقون وذنابه. ضرب الإنكليز الناس في الطرقات، واعتقلوا حتى رجال الدين. أصدرت الحكومة ملحقات لقانون الطوارئ، وأهانت رجالا محترمين كعجاج نويهض. وانتقمت من يافا! هدمت يافا القديمة. ياويلي على يافا! فرضت غرامات كبيرة على القرى والمدن العربية. عوضت اليهود عن خسائرهم في الأحداث، ولم تعوض العرب عن خسائرهم في مزارعهم ومخازنهم التي أحرقها اليهود! لهذا سيستمر الإضراب حتى تمنع الهجرة، ويمنع نقل الأراضي إلى اليهود، وتؤسس حكومة وطنية!

www.alkottob.com

ستتذكر سعاد مع شفيقة في دمشق، المذكرات التي كتبها العرب إلى المندوب السامي، وإلى الحكومة، وإلى وزير المستعمرات! وستتساءل ماذا أفادنا أن نكتب تلك الأكوام من الورق للخصم؟ وستقول لها شفيقة: سيفيدنا ذلك في المستقبل! المستقبل ياخالتي؟ أين هو؟ صرنا لاجئين في سورية! سرق اليهود بيوتنا ومؤونتنا وسجادنا وأسرّتنا، نهبوا أشجارنا وبيادرنا! وسترد شفيقة بحكمة عجوز: سيعود أولادنا أو أحفادنا إلى البلاد مهما طال الزمن! ويجب أن تكون في أيديهم تلك الرسائل والبيانات التي تبين كم صبر العرب وكم نبهوا، وتبين أن الهجرة اليهودية التي حرسها الإنكليز هي التي جعلت فلسطين يهودية! وليعرف أحفاد أحفادنا أننا لم نسكت على قهر، وأننا عملنا كل مافي أيدينا العزلاء أمام دول قوية قررت غرس الغرباء في بلادنا رغما عنا!

كانت الأوراق التي ذكرتها شفيقة على طاولة عبد الرحيم يومذاك. مذكرات رئيس المجلس الإسلامي الأعلى إلى وزير المستعمرات. وتعليقه في السادس والعشرين من حزيران على تصريح وزير المستعمرات في مجلس العموم في التاسع عشر من حزيران. وضح له أنه لايمكن لأمة أن تقبل إنشاء وطن صهيوني في بلدها. ونبهه أن اليهود يفكرون بإعادة بناء هيكلهم مكان المسجد الأقصى، ويتناقلون صور أحلامهم بذلك! وعد له جرائم حكومته في فلسطين: "أطلقت النيران ليلة الرابع عشر والخامس عشر من حزيران من الرشاشات على جامع الجزار الشهير بعكا، فتركت آثارا واضحة في الجدران والنوافذ وغرف طلبة العلم. وهدمت السلطة أثناء هدمها المنازل في يافا جانبا من جامع الشيخ رسلان وتشعث القسم الباقي منه. واحتلت المحكمة الشرعية بنابلس وجعلتها مقرا للجنود البريطانيين، فعبث هؤلاء بقيود المحكمة الشرعية وسجلاتها وجميع موجودها، وأتلفوا قسما من أوراقها ووثائقها الشرعية الإسلامية".

قال عبد الرحيم لسعاد وهو يراها ترتب نسخ المذكرات على طاولته: نعم سنحفظها! لكن على طاولة المندوب السامي أكثر منها! بين سنة 1933 وسنة 1936 دخل 175 ألف مستوطن إلى فلسطين. لهؤلاء الغرباء وصلت في هذه السنة التي لا تنسى، شحنة الأسلحة المهربة إلى ميناء حيفا، من بلجيكا. ونظم العرب مجموعات مسلحة لمراقبة الشواطئ! فهل جهل المندوب السامي أن ذلك كله هيأ البلاد للانتفاضة؟ وصلته اليوم مذكرة موظفي الدرجة الاولى العرب إلى الحكومة البريطانية! يبينون خطر الهجرة اليهودية التي تحرسها بريطانيا، وأن تعيين لجنة ملكية لن يزيل قلق العرب على مصيرهم! قالوا "يفقد أقرباؤنا حياتهم

www.alkottob.com

فتضطرنا ضمائرنا أن نحتج على سياسة العنف". ستكون على طاولة المندوب السامي اليوم مذكرة جمعية العمال العرب في يافا عن البطالة والهجرة. كتبوا ماثبتته لجنة سمبسون: تزيد الهجرة اليهودية عدد العمال العاطلين وتخلق أسبابا للثورة.

بين النداءات التي احتشدت في بيت سعاد في سنة 1936، نداء من مسيحيي فلسطين إلى العالم المسيحي لإنقاذ الأماكن المقدسة من الخطر الصهيوني. قالت لعبد الرحيم إنه ذكرها بصديق أبيها، ميخائيل حبايب، وبخالاتها المسيحيات بنات قسيس! "تنفيذا لوعد جائر من بلفور تعمل الحكومة البريطانية لتأسيس مملكة يهودية باسم وطن قومي لليهود في فلسطين. فتحت أبوابها لجموعهم المتدفقة فأتوا جالبين معهم المبادئ الهدامة المغايرة لكل الأديان السماوية.. عينت عدة لجان لكن مستر ماكدونالد حوّل الكتاب الأبيض إلى أسود لإرضاء عزيزه وايزمن. وسيستمر الإضراب لإظهار سخطنا على إجلائنا عن بلاد أجدادنا. أيها المسيحيون! في السنة الماضية دخل شبان اليهود وشاباتهم إلى كنيسة المهد في بيت لحم محل مولد المسيح، له المجد، ودنسوها بأعمال مغايرة للآداب، الأمر الذي أدى إلى تدخل القوة لإخراجهم.. إن مشروع روتنبرغ قد غير مجرى نهر الأردن في بعض أقسامه وشوّه جمال بحيرة طبرية الطبيعي، أفلا يحق لنا أن نفسر هذا العمل بأنه محاولة لمحو أثر من الآثار التي تذكرنا بحياة السيد المسيح.. ننبهكم إلى الخطر على البلاد التي تحوي مقدساتكم، من مغارة المهد إلى بستان الجثمانية حيث أدى المسيح صلاته الأخيرة قبل أن يسلمه اليهود للصلب، إلى طريق الآلام، إلى مكان الجلجلة.. إذا أسست المملكة التي يحلم بها اليهود ستتلف الآثار التي تذكركم بالناصري".. وضعت سعاد بيان مسيحيي فلسطين في مصنف أزرق وسجلت عليه السنة واليوم. نعم، فلنحفظ كل ذلك!

سمع عبد الرحيم في تلك الليلة صرخة سعاد، فتح عينيه فرآها تجلس لاهثة. قالت: حلمت بأن السقف يسقط فوقي! احتضن كتفيها، وشعر بأنها شابة، غضة، فأشفق عليها. وفي برهة سريعة قال لنفسه ما كان يجب أن أتزوجها! كان يجب أن تتزوج رجلا بعيدا عن المعتقلات والأحداث السياسية. رجلا غنيا يتركها تسرح في الدنيا بعيدا عن أحزانها! ربّت على شعرها، ربّت على خديها وردد: اهدئي، اهدئي! وكاد يقول لها: ياابنتي! عندما ملكت نفسها سألته: ألا تعطيني كأس ماء؟! سألها مداعبا: ماء في كأس، أم ماء في "طاسة الرّعبة"؟ تذكر طاسة أمه الشامية المزخرفة بآيات قرآنية حفرت عليها بالفضة؟! لا، اترك تلك التحفة

www.alkottob.com

معروضة مع الصحون القيشاني في الكتبية!

سألت شفيقة سعاد في دمشق بعد أكثر من عقدين: تركت بيانات اللجنة العربية العليا ورسائل الحاج أمين مرتبة في مصنفات؟ ردت سعاد: وكتبت على كل مصنف ما فيه وسجلت التاريخ! كأني رتبتها لليهود!

www.alkottob.com

مر بهاء في المساء بالمكتبة العمومية. قلّب الجرائد الفرنسية وتحدث مع صاحب المكتبة. حول المكتبة مقاه ومشارب ومطاعم. اخترت المكان المناسب ياأديب خير! في طريق الصالحية، قرب المرجة والسراي وفندق فيكتوريا. مطلك على خط الترامواي، خلفك البحصة وسوقساروجا، وواجهتك على النازلين من محطة الحجاز والمهاجرين! وقربك مطاعم ومشارب على ضفة بردى! هل قصد بهاء أن يستر بتلك المقدمة الطويلة سبب رسالة أديب خير إليه؟

تابع بهاء أحداث فلسطين. عرف أن القاوقجي زار فلسطين في سنة 1934 ثم في سنة 1935، وزار القدس في نيسان سنة 1936. دخل إلى المكتبة العمومية الجنرال كوله. تصفح الصحف والمجلات الفرنسية. واختار بعضها. بعد انصراف كوله خلا بهاء إلى أديب خير، وتحدثا عن اضطرابات فلسطين. ينقل أديب خير لبهاء أخبارا لاتنشرها الجرائد. يصل مابين الوطنيين في سوريا وفي الأردن والعراق. ويوزع الأخبار من مكتبته التي يقصدها الفرنسيون. ابتسم: يابهاء، لكم الأخبار بالحبر السري، ولهم بالحبر العادي! على كل حال، لاتغب عن عيني في هذه الأيام! عرف بهاء أن القاوقجي يحضّر مساعدة المقاومين الفلسطينيين بمتطوعين عرب ينقلهم إلى فلسطين! وانتظر أن يتصل به الرسول الذي سيكلفه القاوقجي بجمع الضباط الذين رافقوه في الثورة السورية وخرجوا منها أحياء!

يستطيع بهاء، وقد اطمأن إلى حل ما في سورية، أن ينصرف إلى التفكير في أحداث فلسطين! وأن يرى كضابط في الثورة السورية، أن هجوم المجموعات الفلسطينية المسلحة على المراكز العسكرية الإنكليزية والمستوطنات يجب أن يرفع إلى مستوى مقاومة ذات قيادة واحدة. تنظم في محورها العمليات الصغيرة، وتسند مشروع السياسيين الفلسطينيين: إلغاء الانتداب، ومنع الهجرة اليهودية، وتأسيس حكومة وطنية ذات مؤسسات شرعية. فهل الحاج أمين متفق مع القاوقجي؟ ماهي

www.alkottob.com

صلاحيات السياسيين الفلسطينيين وصلاحيات جيش المتطوعين؟ هل سنوفق في دمج المسلحين الفلسطينيين والمتطوعين العرب في جيش؟ وهل لدينا الزمن لذلك؟

أعلن بهاء لمنور طرفا من حواره مع نفسه: ترين يامنور اتصال سورية بفلسطين! أشعل تأبين القسام وهنانو الإضراب العام في فلسطين. هناك، خطر الهجرة اليهودية ونقل الأراضي إلى اليهود، وهنا الضرائب والانتداب! بدا لبهاء أن منور لم تنتبه إلى بقية حواره مع نفسه: ننجز خطوة إلى الاستقلال هنا، فهل نستطيع أن نوقف الخطر على فلسطين بتجمع عربي؟!

فكر مرات في أن شرق الأردن اليوم ليس شرق الأردن الذي عرفه في الثورة السورية. قوّى الإنكليز مراكزهم فيه. يسهر أبو حنيك على تأسيس عازل بين فلسطين والعرب. أهل شرق الأردن؟ لابد أنهم يرتعشون من احتلال فلسطين واستيطانها كما نرتعش هنا. وسيظل شرق الأردن بين اندفاع شعبه وكبح ذلك الاندفاع ليكون الأردن فاصلا بين فلسطين والعرب!

أخيرا وصلته رسالة القاوقجي. همس أديب خير: سيسند المتطوعون الإضراب العام والعمليات المسلحة في فلسطين! كأنما هبّ على بهاء نسيم الدولة العربية التي طويت في ميسلون! كم نحتاج إلى فضاء نسعى منه إلى حلمنا! فهل تلامحت فلسطين كأنها الآن ذلك المكان؟ تساءل بهاء: هل عاش في الضمائر قرار كقرار المؤتمر السوري، وحدة بلاد الشام ورفض الوطن الصهيوني؟! رد أديب خير: عاش لأنه صوت ضميرنا الشخصي! سأله بهاء: والسلاح؟ رد: مهمتي أن أيسّر السفر! ستجدون السلاح في منطقة إربد. وأنت يابهاء، ألا تستطيع أن تشتري سلاحا من زحلة؟ تعرف أي باب تطرق هناك!

دخل ضابط فرنسي وزوجته ليشتريا كتبا وصحفا فخرج بهاء. ركب الترام من المرجة إلى الميدان. وعرف بعض التفاصيل من محمد الأشمر: اتصل الحاج أمين الحسيني بعادل العظمة ومعين الماضي، فاتصل نبيه العظمة من عمان ينادي المتطوعين. دفع أمين الحسيني ثمن السلاح من تبرعات المسلمين لجامعة القدس التي قرر لها أن تقابل الجامعة العبرية. سيحمل القاوقجي بعض السلاح من العراق، وسيشترى بعضه من العشائر في شرق الأردن. وسننقل السلاح الذي استعملناه في الثورة السورية إلى فلسطين!

لقاء المتطوعين السوريين والعراقيين واللبنانيين والأردنيين في فلسطين، في شهر آب! سيذهب محمد الأشمر مع متطوعي دمشق. وسيجهز سليمان وعبد الهادي المعصراني متطوعي حمص. وسينظم منير الريس المتطوعين. اختار

www.alkottob.com

القاوقجي منطقة نابلس – الخليل لأنها مناسبة. ولكن كيف سيصل القاوقجي والمسلحون العراقيون إلى فلسطين، وقوات أبي حنيك ترصد الحدود العراقية؟ كيف سيقطع الصحراء؟ كيف سيتخفى المتطوعون من الإنكليز في العراق؟ ومن أين السلاح؟ سيجد الأجوبة على ذلك عندما يلتقي بالقاوقجي. لكنه يخمن أن ياسين الهاشمي يغمض عينيه عن تسرب السلاح من الجيش العراقي، وأن الضباط العراقيين الوطنيين يساعدون القاوقجي. يعرف القاوقجي، كعسكري خبير، كيف يصل إلى فلسطين في أمان!

بقيت منور مقابل ذلك كله! انتبهت إلى انصرافه إلى معتصم. حمله، قبّله، دلّله، اشترى له غزل البنات، أخذه معه وغابا نصف النهار. أطلت منور على نداء صاحب صندوق العجائب فرأت بهاء ومعتصما جالسين على المقعد وكل منهما يحيط العدسة بكفيه، يتفرجان على الصور التي يعرضها الرجل ويستمعان إليه. ضحكت. وانتظرت أن يحدثها معتصم عن الظاهر بيبرس، وفاطمة المغربية! هكذا نبدأ إذن، يابهاء؟ تربيه ليكون مثلك؟ بل ليكون أفضل مني! سينتظر إذن معركة عظيمة! لا تقلقي، ستبقى في هذه البلاد معارك تنتظر رجالا! قالت له: في الحر، لا تتجول به تحت الشمس! رد: مشينا بين بساتين وراء الدور! وحدثها معتصم عن السواقي التي مشى على حافتها، وعن "الأرة" التي قطفها منها، وعن السمك الصغير الذي حاول أن يمسكه. يامعتصم، هذا ليس سمكا، هذا "بلعط"! في يوم آخر خطر لبهاء أن يركب معه العربة إلى الربوة. وعاد معتصم سعيدا بنقر حوافر الخيل على الأرض، وبالشجر الكثيف الذي يكاد يمس العربة، وبأشجار الجوز الباسقة على طرفي الطريق. وكان يحمل ورودا صفراء وحمراء وبيضاء. من أين قطفتها؟ قطفتها لي فلاحة أوقفنا العربة قرب بستانها في دمر. حدثها معتصم عن شلالات رآها في دمر، عن قصر شمعايا، عن نهر بردى ومائه المتدفق. يامعتصم، كأنك نسيت "السيران"، يوم جلسنا في الربوة على حافة النهر! بدا لمعتصم أن كل مارآه مع أبيه مختلف عما حرصت منور أن يعرفه. ففهمت أن بهاء وشّح مساراته مع معتصم بعباءات من الأساطير.

أي موال تنوي أن تغني، إذن، يابهاء؟ راقبته كما راقبته ذات يوم وهو يتهامس مع سعيد ويتفقان على الالتحاق بالثورة السورية. قالت لمعتصم: تعال! لنطعم السمكات الحمراء! انشغل معتصم بالسمك الأحمر في قطرميز مستدير، وقالت منور لبهاء: ترى هل تعرف هذه السمكات أننا نتفرج عليها وهي تدور في

www.alkottob.com

قطرميز؟ وبدا لها أن وجه بهاء احمر.

كان القمر بدرا في تلك الليلة. نزلت منور مع معتصم بعد العشاء تحت الدالية. أوصلته إلى فراشه وعادت إلى السطح. رأت بهاء واقفا ووجهه إلى القمر. تناول كفيها وقبلهما. أصب لك فنجان شاي آخر؟ لمس كفها وهي تصب له الشاي كأنه يريد أن يقدّر كم تصب له. لكنها فهمت أنه يرغب في لمسها. بدا لها أن كل ماقاله في تلك الساعة ليس مايريد أن يقوله أو مايجب أن يقوله. حتى أنها لم تتذكره. كان حديثه بينه وبين نفسه هو الحديث الحقيقي. لست مضطرا إلى الكلام، يابهاء! فلنستمتع بالصمت!

هل فهمها، ولذلك قبّلها على البساط تحت القمر دون كلام. استمعت إلى رؤوس أصابعه، إلى تنفسه، إلى بشرته، إلى حنان ذراعيه، إلى شوقه، وتبينت في تلك السعادة بها أسى لاحد له. ألأنه يعرف أن تلك البرهة تمضي وهو يستمتع بها؟ ما الذي يجعله يشدها إليه كأنه سيفقدها؟ في منتصف الليل غفت وهو يربت على شعرها من منابته حتى نهاياته.

طوال تلك الأيام قلّب في فكره الوداع. وبدا له أنه في الثورة السورية أسهل مما هو الآن. وقرر أخيرا أنه غير قادر عليه. ما أعجب أن يندفع إلى موت محتمل في فلسطين وربما على الطريق إليها، وأن يرتجف من وداع امرأة وطفل! سيهرب في الفجر عندما تكون منور مستسلمة لنوم عميق! وضع ملابسه في غرفة الطعام التي تواجه المطبخ قرب الباب. نظر إليها واقتلع نفسه من الغرفة على رؤوس أصابعه. تفادى أن يفتح باب غرفة معتصم. فلهذا الباب صوت يخشى أن ينبه منور. سيذهب الشيخ الأشمر مع جماعته، وستذهب الجماعات الأخرى من سورية لتلتقي في قرية سما عند سليمان باشا السودي الروسان. قال بهاء: سأذهب وحدي! وليتنا جميعا نذهب فرادى! لسنا فرقة تخرج من سورية في العلن مع قائدها وسلاحها! الانتداب الفرنسي حليف الانتداب الإنكليزي! في أيام الملك فيصل ذقنا مرارة ذلك التحالف!

رتب بهاء سفره بالسيارة كأي مسافر. سينزل في درعا ويسير إلى تل شهاب. وسيعبر منها إلى شرق الأردن. يعرف الطريق من أيام الثورة السورية! مانزال في بلاد الشام الواحدة، رغم الخطوط على الخريطة! سيسبق المجموعات السورية التي ستلتقي عند سليمان باشا في سما، وتنتظر الأسلحة التي سيرسلها عادل العظمة من عمان، وبعد ذلك ستعبر نهر الأردن حيث يختار لها الدليل العبور.

كم مرة مزق الرسالة التي أراد أن يتركها لها منذ السطر الأول! كم مرة دار

www.alkottob.com

حول الكلمات وفهم أن الكلمات تضيق عما يريده، وتتسع فتوحي بما لا يقصده! بعد أن مزق رسائل كثيرة وصل إلى رسالة رضي عنها. انساب يعتذر لمنور عن جبنه ويرجو أن يشفع لها حب فلسطين ودينها عليه. ألم يولد حبه لها في حيفا؟ ألم يتزوجها في طبرية؟ ألم يولد ابنه معتصم في تلك المدينة؟ التمس قبور أبيها وأمها وخالها ليعتذر لها عن السر الذي حجبه عنها. ليس ذلك لأنني لا أثق فيك يامنور! ولا لأني أخشى أن تردّيني عن قراري، أو لأني أتصور أنك لا تشاركينني فيه. بل لأني خفت الوداع! واعذريني لأني اخترت ماقد يكون أسهل علي مما هو أسهل عليك! تساءلت ماذا ستقولين لمعتصم، وتركت ذلك عليك! هل مهدت له بالظاهر بيبرس؟ هل قصدت أن يرافقني إلى الحكواتي لأفهمه أن الرجال يجب أن يدافعوا عن أوطانهم في زمننا أيضا؟ يالسذاجتي! تلك الرموز صعبة على الراشد فهل يلتقطها طفل! لذلك أترك لك أن تفهميه أني ذهبت إلى فلسطين مع أصحابي لأدافع عنها. أخمّن أنك ستصفين له بحيرة طبرية، وجبل الكرمل الذي نشأت فيه. أعرف كيف سترسمين له تلك المدن البيضاء المطوقة بالخضرة، وأسوارها القديمة، وقبابها، والبيت الذي عشت معك فيه على سور طبرية، وفرحك بالماء الذي تدفق فوق السجاد يوم اضطربت البحيرة! لديك من الألوان أكثر مالدي، فأنت التي سبحت في البحيرة، وأنت التي رأيت بحر حيفا كل يوم، وأنت التي جلست تحت شجرة الخرنوب العتيقة أمام بيتك في حيفا. قلت لنفسي وأنا ألوب بين أخبار فلسطين في المكتبة العمومية، إني ذاهب لأمر شخصي أيضا! فالاستيطان سلب أباك أرضه فقتله. قد أوقف مع أصحابي هذا الموت المفروض على آخرين! ألم يقتل المستوطنون فلاحي الحارثية؟ ألم يقتل رجال مثل أبيك في هبّة البراق؟

www.alkottob.com

بقي بهاء مرتعش القلب حتى عبر جوزة الحدباء إلى البحصة وخرج من سوقساروجا. أفاقت منور عندما شعرت أنها وحدها في الغرفة. نهضت صاحية وقفزت من السرير. نظرت من الداور. لا أحد في أرض الدار. نزلت قفزا على السلم. قدّرت أن بهاء ينوي السفر وأنه يدور باحثا عن برهة مناسبة يبوح لها فيها بقراره. قالت نفيسة لمنور منذ أيام: هل ينوي بهاء أن يسافر مع الأشمر الذي يجمع رجاله للجهاد في فلسطين؟ فأكدت شك منور. لكنها أبعدت البرهة القاطعة التي ستتألم فيها وهي تودع بهاء لكنها لن تستبقيه! واستمتعت بالأمسيات التي كان يعود فيها مبكرا. رأته يتذوق اللبنة مع الخبز التنوري الذي يأتي به ساخنا من فرن سوقساروجا. ولم يفتها أنه لمس يدها وهي تصب الشاي وتذوقه رشفة رشفة. استسلمت لتلك المتع، مؤجلة الحديث الذي سيفتح بوابة الوداع. وقدّرت أنها ستحضّر له القمصان المناسبة. وأنه سيسألها ماذا ينقل لسعاد ولشفيقة من الأخبار والسلام. لكنها عندما رأت الرسالة في غرفة الطعام ارتجفت ولم تلمسها. كأنها جمرة! تركتها وأسرعت إلى المطبخ. فتحت حنفية الماء وانحنت عليها لتشرب، وتركت الماء يسيل على عنقها. سمعت ضربات قلبها. عادت إلى الرسالة وجلست مقابلها على الكرسي. غمرها غضب: غدرتني يابهاء! ثم شعرت بقشعريرة في ظهرها، وانحنت على الرسالة وتأملت خطه: إلى منور! أرادت أن تركض إلى نفيسة، أو أن تصرخ. خافت، وشعرت بأنها وحيدة وأنها فقدته، وأنها لاتستطيع أن تعيش دونه. أغلقت فمها بطرف كفها: يامنور، عيب! تماسكي! صرخت: إلى متى يارب، إلى متى؟ وضعت خطوات معتصم حدا لتلك العواطف المضطربة. عانقته في حب كأنه كان ضائعا ووجدته. يجب أن تجيب الآن على أسئلته.

كم تعيد الأعمال التافهة إلينا الهدوء والعقل! فتسخين الحليب يطلب انتباها كي يكون فاترا فقط كما يحبه معتصم. وصحن اللبنة يجب أن يغمر بالزيت وترش

www.alkottob.com

فوقه النعنع اليابس. والمكدوس يجب أن يستخرج حبة، حبة من القطرميز. ومربى السفرجل، الذي يحبه معتصم كما يحبه بهاء، يجب أن يسكب في صحن أبيض ليبدو لونه المورّد. جلست منور إلى جانب معتصم وهو يأكل. هل يعي الطفل في هذا العمر حركة الروح؟ طلب منها أن تأكل. تحب المكدوس فلماذا لاتمد يدها إليه؟

نشرت منور الرسالة وقالت له: سافر بهاء وترك لنا رسالة لنقرأها كلما اشتقنا إليه. سيعود، لكنه لا يعرف بعد متى.

طوال أيام لم يذكر معتصم أباه ولم يسأل عنه. غاضب منه؟ ربما! فكيف يعبر طفل عن الغضب إلا بالنسيان؟ عنيت به منور لكنها تفادت أن تبالغ في ذلك، كي يبدو غياب بهاء كأنه نزهة سيعود منها. وتفادت أن تتحدث مع نفيسة عن غياب بهاء أمامه. أعادته إلى مرجانة لعلها تشفيه بالحكايا وبرفقة أولاد الحارة. لكنه أتاها وقال: أعرف أين بهاء! في فلسطين! كيف عرفت، يامعتصم؟ من أولاد الحارة! بحثت منور في مكتب بهاء عن خريطة ووجدتها. قالت له هذه فلسطين!

في الأيام التالية صادفته يقف على كرسي ليتفرج على صورة بهاء التي وضعتها بعد سفره في إطار على البيرو. هبّت خائفة عليه: خذ! وضعت الصورة على الطاولة ليتناولها كلما أراد. كان بهاء في الصورة بملابس الثورة السورية. سألها معتصم: يلبس بهاء هذه الملابس الآن؟ ربما يامعتصم! نفّذت عندئذ وصية بهاء. فحدثته عن مدن فلسطين البيضاء، عن خضرة بساتينها، عن بحيرة طبرية التي سبحت فيها. حدثته كما ستحدث ليلى فيما بعد، عن أسوار القدس وبواباتها والمسجد الأقصى، وقبة الصخرة التي تلمع في الشمس، وألوان زخرفتها. وحدثته عما كانت تراه من نافذة بيت أبيها على جبل الكرمل في الفجر. قال لها: فلنسافر إلى هناك! ردت: ذلك صعب! لكننا ذات يوم سنزور سعاد. وسأريك طبرية والمستشفى الذي ولدت فيه!

في المرة التالية صادفته أمام الخزانة، وكان يغمر وجهه بالقميص الذي كان يلبسه بهاء في آخر يوم رآه فيه. ماذا يشم فيه؟ رائحة بهاء، يامنور! آه، كم نجهل الأطفال!

في ذلك اليوم بكت في بيت نفيسة كما بكت يوم سافر بهاء وترك لها الرسالة. قالت لها نفيسة: اسمعي يامنور! اعرفي من أنت، لتكوني في قدّ حزنك وفرحك! مثلنا لا يعول ولا يندب! من سمعني أبكي يوم قتل خالد آغا في ميسلون؟

www.alkottob.com

هل تفهم منور الآن فقط أن أمها فاطمة كانت في قامة الحزن الكبير لذلك لم تبك يوسف ولم تعول؟ قالت نفيسة: هذا لايأتي من الثروة أو المال! بل لأننا عشنا مع المقاتلين والشهداء! هذا شرف لا نستطيع أن نخونه بالبكاء والصراخ! شرف يفرض علينا أن نضبط حبنا وغضبنا وحزننا! هل أخفي عليك أن بهاء سيكون في خطر؟ هل أخفي عليك أنه قد يقتل؟ لكن هل يليق بمن عاشت معه أن تبكي كزوجة مسكينة؟ اسمعي وافهمي! واجبك ليس أقل من واجبه في أن تحمي كرامة البلاد التي يدافع عنها! وأن تحملي القدر الذي جعلنا وسط أحداث بلادنا! قبل أن أرى سعيدا في ساحة المرجة، رأيت كثيرا من الشهداء. لهم، هم أيضا، أسر وأحباء وأولاد. وربما هيأني ذلك لأتحمل مقتل سعيد! تذكري أن بهاء واحد من مجموعة، لكل من فيها أهل ومحبون!

انشغلت نفيسة ومنور بعد ذلك اليوم بأحداث فلسطين. نقلها لنفيسة ابن الكحال، ورسائل سعاد إلى منور، وقصاصات من الورق وجدتها منور مرات تحت بابها. لم تحجب منور عن معتصم الأخبار التي تصلها. خيل إليها أنها تجلسه أمام عدسة صندوق العجائب لتعرض له رجالا مثل بيبرس بملابس كالتي يلبسها أبوه في الصورة. تدفقت زغاريد الفلاحات في استقبال المقاتلين العرب، ومدت المناسف احتفالا بهم، عوت الطائرات فوقهم في الجبال، لكنهم صادوا بعضها بالبندقية التي يحمل أبوه مثلها في الصورة. فلاة ممتدة، ليل، لكنهم شعروا وهم ينصتون إلى الحجارة بدبيب غريب. كان الإنكليز يطوقونهم فمشوا في خفة الثعالب، إلى قمم الجبال. احتموا بالزيتون العتيق. طالت المعركة من الفجر إلى المساء. انتظروا العتمة ليجمعوا الجرحى، وليدفنوا الشهداء. شربوا في الوادي من الماء الذي خبأه لهم فيه أهل القرى. أحاط بهم الرجال والنساء وهم يدفنون قتلاهم، وحمل الفلاحون الجرحى على البغال إلى بيوت آمنة يداوونهم فيها. بهاء واحد من اولئك! تصور يامعتصم، عرب من أنحاء سورية كلها، اجتمعوا في فلسطين! هل ترى بهاء بينهم كما أراه؟

سمحت نفيسة لنفسها ولمنور بالبكاء على سعيد العاص، قبيل عودة بهاء في تشرين الثاني. قالت: هذا واجبنا نحو البلاد! وليتنا نستطيع أن نروي قبره في قرية الخضر! عرفه بهاء من أيام الثورة السورية، وكان ممن حدث منور عنهم. بعد الثورة السورية عاش في عمان. روى لها بهاء أنه يحاول أن يعيش من بيع كتابه "الثورة الحمراء". وروى لها ما نقل له: قميصه مهترئ، وليس لديه سواه! الكرامة! اشترك سعيد العاص في اجتماعات التضامن مع سورية في بداية الإضراب

www.alkottob.com

الستيني. وانضم إلى قوات الجهاد المقدس في محور القدس. اختار منطقة صعبة. قدّمه عبد القادر الحسيني ليكون قائدا مكانه ويكون هو نائبه. فقالت نفيسة يومذاك: يتسابقان على الخطر، لاعلى المناصب! اولئك رجال! لكنه قتل، يامنور، وخسرناه! أخفاه المقاتلون ثم هيأوا جنازته في قرية الخضر. وأية جنازة يامنور، أكاد أراها! باحت لها قصاصة من الورق بأن بهاء رآه قرب القدس. أراد سعيد العاص أن يستبقي بهاء لكنه قال له: مكاني مع القاوقجي. اتفقنا على ذلك! أترى يامعتصم كيف ينام العرب في أرض بلاد الشام، لنزور فيها أمكنة كثيرة؟

لامتها نفيسة: اسمعي، "شيء ومنّه"! هل تعدّين ابنك في هذا العمر ليكون مقاتلا؟ اتركيه طفلا! يامرجانة، خذيه معك إلى بستان الكركة وخذي أولاد الجيران معه. وأوصي الفرن أن يحضر لكم صفيحة، وخذي لهم سطل لبن، ولاتنسي الفواكه والحلويات.

تساءلت منور وهي تلوب على السطح في غياب معتصم: وأنا؟ أتحمل قرار بهاء، وأنتظر عودته؟ لن تغرقها كلمات نفيسة! فالواقع أنها زوجة رجل يقرر متى يشترك في ثورة أو حرب، ويفترض أن يجدها في انتظاره عندما يعود. وتنفق في غيابه مما تركه لها. اكتشفت أنه تنازل لها عن البيوت الباقية من جدته جنة خاتون قبل أن يسافر إلى فلسطين. ارتعشت عندما أخبرتها نفيسة بأن ابن الكحال ساعده في تحضير ذلك التنازل، وأن ابن الكحال لم يخبر نفيسة عن ذلك إلا بعد سفر بهاء. استسلمت في تلك الليلة لشوقها إليه. مدت ذراعها على الفراش وتفقدته، وهمست تحت اللحاف باسمه. ولم تعرف متى غفت، لأنها تقلبت زمنا طويلا في فراشها معذبة بشوقها إليه وبحزنها عليه. تفادت أن تضيء النور لترى الساعة، وبدا لها أنها سمعت مؤذن مسجد الورد يعلن الفجر. في الصباح تبينت في المرآة ثنايا تحت عينيها، ورأت كدرا في نظرها. وتفادت أن تنظر إلى شعرها وهي تمشطه. وفي النهار خنقت شوقها إليه. تبينت نفيسة أن منور كئيبة وصامتة ففهمت أنها مشغولة بحديث طويل بينها وبين نفسها.

نعم، ترفض لها كرامتها أن تكون زوجة تعيش لتودع رجلا وتنتظر عودته. لماذا لا يناسبها أن تكون هي التي تسافر إلى فلسطين؟ ضحكت نفيسة. يامنور كأنك في الخامسة عشرة من العمر! فالمرأة التي عرفت الفرح بالولد، وسادت على البيت، وذاقت السعادة بالرجل، لا يمكن ألا تنتبه إلى هذه التجليات التي تملكها! خيل لنفيسة أنها تحدث منور لتهدئها! وتبوح لها بأنها تشفق على ابن الكحال! ماذا للرجل؟ دنيا الرجل بسيطة ومقتضبة، يامنور! لايتجول الرجل حتى في دنيا

www.alkottob.com

العمل بعواطف واسعة كما تجولت. تاجر ابن الكحال بالحرير لكن هل استسلم مثلي لروعة الطريق في الفلاة، وهل سهر مثلي على الشرانق مع الفلاحين؟ أبدا! رأى الحسابات، لكنه لم ير روح شجر التوت ونعومة الحرير ومساراته الطويلة! قد يوهب بعض الرجال بحب فاتن لكنه محدود بامرأة! أما حب الدنيا فالمرأة هي الماهرة فيه! أظلم الرجال؟ أبدا! ربما أعتب عليهم لأنهم هكذا! ليتك تفهمين ذلك، يامنور!

هل سمعت منور حديث نفيسة إليها؟ انتبهت منور عندما خلت بنفسها إلى وجوهها. انتبهت إلى الحرية التي تسبح فيها بالأمومة، والزواج، والسيادة على البيت، وعواطف من أقصى القلق إلى المتعة. لم تر في بيتها كرسيا لم تختره، أو ستارة لم تنتق لونها ومكانها. بدا لها بهاء ضيفا لديها فأشفقت عليه. لكن ذلك لا يرويها. في روحها عطش يطلب أن تلبيه! لا تهدئها نصائح نفيسة. تبدو السعة التي تتحرك فيها ضيقة إذا لم تكملها بما ينقصها.

قالت لنفيسة: ياعمتي، أريدك أن تطلبي من الرسام الذي تعرفينه أن يعلّمني الرسم! فتحت نفيسة عينيها دهشة. متى قررت منور ذلك؟ أهذه إذن ثمرة حديثها الطويل مع نفسها؟ توقفت منور وهي تلوب في البيت أمام لوحة معلقة على الجدار. نساء بملابس أندلسية في قصر مزخرف. استهوتها تلك اللوحة التي اشتراها بهاء، وقصدت أن تضع مقابلها المقعد الذي تجلس عليه. لكن اللوحة بدت لها بابا واسعا إلى الدنيا التي تضيق عليها. قالت لها نفيسة: سأطلب منه أن يعلمك الرسم، ولكن كل إنسان موهوب بشيء! كنت أتوقع أن تقولي لي إنك تريدين من يعلمك العزف على العود لتتذكري ماتعرفينه ولترتقي إلى أعلى منه! العود؟ دعيه ياعمتي! هذا عود سعيد! يوجعني قلبي كلما وضعته في حضني!

www.alkottob.com

وصل بهاء إلى تل شهاب راكبا عربة يجرها حمار. برد الهواء في المساء فتلقى برودته في رضا. بالهذا الحر! ابتسم لنفسه: ألم تجد يافوزي القاوقجي غير آب اللهّاب تدعونا فيه إلى الوليمة؟! بل أحسنت الاختيار! تأخذنا لنصطاف في جبال فلسطين!

غفت الثورة السورية بعد سنة 1927. وعاد بهاء إلى ملابسه وحياته في سوقساروجا. وهاهي الفلاة والسلاح وملابس الثوار والفلاحين تعود! نزل بهاء أمام بيت عرفان في تل شهاب. هل سيعرفه صاحبه؟ سمع بهاء زوجته تناديه: ضيف! وسمع رده: ياهلا بالضيف! ثم رأى عرفان يشبّ ويعانقه. خلع بهاء نعليه ومشى على بسط مخططة وجلس على الطراريح في الصدر. استند إلى مساند بيضاء أطرافها مطرزة. وهبّت عليه رطوبة بيت من الطين والحجر. شرب القهوة المرة. إلى أين يامسهّل؟ لا أظن أنك جئت لتزورني! أطرق بهاء كالمذنب: إلى شرق الأردن ياعرفان! الضيافة ثلاثة أيام على الأقل، يابهاء! في غير هذا الوقت، ياعرفان!

سهرا وأهل بيت عرفان نيام. تذكرا الثورة السورية. لاتقنعه المفاوضات! نفاوض عدونا، يابهاء، وقادة الثورة منفيون، جائعون ومعذبون؟ ربما بحث رجال كثيرون في أزمنة متنوعة ما نبحث فيه أنا وأنت، ياعرفان. وسيستمر زمنا طويلا التردد بين مايمكن أن يؤخذ كخطوة إلى الهدف، مع أنه مكسب لعدوك أيضا، وبين الثوابت التي لايجوز أن تنزلق عنها! خذ وطالب! لكن لا تفرط بالثوابت! اترك الباب مفتوحا أمام من بعدك، وقل هذه مرحلة فقط، وليعترف لك عدوك بأنه محتل راحل!

في آخر السهرة خمّن عرفان أن بهاء من المتطوعين الذين يعبرون تل شهاب والقنيطرة في طريقهم إلى فلسطين. فكاد يعتب عليه لأنه لم يصارحه. ثم أبعد عتبه وسأله: كيف تقبل المفاوضات لسورية وتذهب لتقاتل في فلسطين؟

www.alkottob.com

لأبرهن لك، ياعرفان، أننا بالسلاح وبالمفاوضة نسعى إلى الاستقلال! هل تأخذني معك، يابهاء؟

صمت بهاء زمنا. هل لديه صلاحية أن يضيف رجلا لا يعرفه من اتفق معهم! ستعبر معي إلى شرق الأردن لنصل إلى سما. تعرف سليمان باشا الروسان من أيام الثورة السورية! سنبحث ذلك هناك!

نام بهاء على فراش نظيف مدّ على البسط. ترك النافذة مفتوحة فانساب منها برد الليل حتى كاد يحتاج غطاء. أيقظه الديك في الصباح الباكر ونهض صاحيا كأنه نام عشر ساعات. غسل وجهه غارفا الماء البارد من خابية تحت السماء. وكان عرفان ينتظره. تغديا عند شلالات تل شهاب. وتناول بهاء في فرح رذاذ الماء على وجهه. شكّا اللحم بقضبان نحيفة من الأغصان، وأشعلا نارا بين حجرين. عبق عرفان بالدخان. ثم فاح اللحم المشوي والبصل. رش بهاء الملح على البندورة وقضمها. منذ متى لم يذق مثل هذا الطعام الشهي العابق بالدخان والرذاذ والأعشاب؟ هل هذه درجة يصعد بها من بيت منور المرتب في سوقساروجا إلى البرية؟ استلقى بهاء على صخرة وملأ عينيه بالسماء. وخيم عليه هدوء غريب. لايريد أن يفكر بالموت والحياة، لايريد أن يقلق على منور ومعتصم. لديه هذه البرهة للحياة وقد لاتكون لديه برهة أخرى مثلها في الصفاء! سكتت حتى الضفادع! غنى عرفان بصوت صاف:

تلات غزلان ناح العين ماضين
بقلبي ناصبات جراح ماضين
كشف جرحي الطبيب وقال ماظن،
ماظن يطيب مجروح الهوى

عن أي هوى تغني ياعرفان؟ عن الهوى الذي تركناه لنلحق هوى آخر دعانا شرفنا إليه؟ لأي شطر من الروح تغني، ياعرفان؟ قال له: سمعت هذا الغناء الشجي مرات، في غوطة دمشق. سمعته ونحن في الثورة! بدا لي أول مرة غريبا لأننا كنا نتوقع هجوما. لكني فهمته في المرات التالية في القلمون! فالكلمات لاتحمل فقط مايبدو منها، والهوى ليس في الحدود التي تنشده! ترتوي الروح بالكلمات التي تناقلها الناس ولايعرف من وضعها! والآن يبدو لي، وياللغرابة، أني سمعت هذه الكلمات أول مرة في طفولتي وأنا في الطريق من مرعش إلى دمشق!

قرر عرفان الوقت المناسب للمشي: بعد منتصف الليل! الطقس مناسب،

www.alkottob.com

ولن نجد دوريات. مع أننا لن نسلك الطرق المألوفة! مشيا في العتمة. ميز عرفان الاتجاه دون أن ينظر إلى النجوم. وقال لبهاء الذي أثنى عليه: بلدي! أم صدّقت أن شرق الأردن انفصل عن سورية؟! نصف أسرتي في إربد، وبعض نساء إربد متزوجات من رجال في بلدي! ومع ذلك حرص أن يتكلم همسا. ينتقل الصوت في الليل أكثر مما تتوقع، يابهاء! أنستك المدينة ذلك؟ سمعا صوت واوي. اقشعر جسم بهاء من ندائه الطويل الشاكي، وانسل أسى ناعم إلى روحه. ماهذا النداء الباكي؟ ألا يشبه الواوي الذي أبكاه أنه لم يصب دجاجة، شخصا يشكو إذا لم يوفّق في الأذى! ثم علت أصوات الجنادب فآنسته. لمحا نارا من بعد تفاداها عرفان. مع ذلك ليست قريبة كما يبدو لك، يابهاء! آه، يذكّره بأيام الثورة السورية! لكن تلك التضاريس ليست كهذه! ماأكثر تنوع بلادنا! هناك، لم تكن لدينا هذه المسافات المستوية! سنترك الأرض المستوية عندما ننزل إلى الغور لنتجه إلى فلسطين، يابهاء! كان عرفان مؤمنا بأنه سيقبل كمتطوع في بيت الروسان! معي بندقيتي، لاأحتاج أن تدبروا لي سلاحا! هل يقول له بهاء: لاتقلق! سنجد السلاح في مغاور في منطقة إربد!

عبر بهاء حوران في أواخر آب إلى بيت سليمان باشا السودي في قرية سما. هل يكافئ نفسه في الطريق بالاستسلام إلى وجده! لكن أيليق برجل مثلك ذاهب إلى معارك فلسطين أن يرتمي في الوجد؟ رد على نفسه: وماذا يدفعني إلى هناك غير الحب؟! حب هذه البلاد، وحب العدل! لو يدري من لا يعرفنا إلى أية قمة نصعد على الخط بين الحياة وبين الموت! اسكت يابهاء! اسكت! لا تتحدث فقط عن سعيد العاص وعبد القادر الحسيني والرجال الذين جمعوا شجاعة الفرسان وحكمة السياسيين ووجد الصوفيين! ألم يكن في الثورة السورية من جنى المال لنفسه! ألم تردد أنت شعر علي عبيد:

الـبعض ماخسـروا عليهـا متاليـك ولابات ليلـة فـي الحرايب قلـوقي

وعنـد انتهـا الشدّات أضحى هو البيك ويقـول ثورتنـا وضـاعت حقـوقي

رفع بهاء كفه كمن يبعد حواره مع نفسه. وصل إلى سما في بداية النهار. واستسلم لتأمل مضافة سليمان باشا السودي. في كل مكان نقصده نبحث عن أطياف أصحابنا! قال له سليمان باشا: كان سعيد يحب أن يجلس هناك! ابتعد طيف سعيد عندما تحدث الأشمر عن الأسلحة التي أرسلت إلى السودي من عمان: تفقدتها. عتيقة! يجب أن تستبدل! رد سليمان باشا: سنتصل بعمان! لكن

www.alkottob.com

يجب أن تبتعدوا حالا عن سما! عرف الإنكليز أن سوريين عبروا الحدود في طريقهم إلى فلسطين، اتصلوا بالأمير عبد الله، واتصل الأمير بحكومة إربد التي أعلمتني أن المطلوب منها أن تعتقلكم. سيرافقكم رجالي إلى الغور. سأستبقي بهاء وأوصله إليكم غدا! بيننا ذكريات نحب أن نستعيدها!

قال سليمان باشا لبهاء: أرسل عادل العظمة من عمان خليطا من أسلحة عثمانية وألمانية وإنكليزية. ذلك ما وجده! هل يتأوه بهاء؟ يغامر الرجال بأرواحهم كي يصل السلاح إلى فلسطين، ياسليمان باشا! يعرف بهاء وسليمان باشا مسارها. وصلت مسدسات في سلال من الفواكه والخضار إلى اسماعيل أبو خضور، مدير محطة السكة الحديدية في درعا. وأعادت اسماعيل إلى اليوم الذي سقى فيه الملك فيصل القهوة بعد ميسلون. "أردنا أن يبقى الملك فيصل أياما ويعود من درعا إلى دمشق، لكن الطائرات رمت علينا المناشير وهددت البلد بالقصف فرحل الملك إلى حيفا". تنهد اسماعيل. وأعطى الأسلحة لسائق القطار عبد الرحمن الرجا المسالمة. ثبّتاها بين المقطورات. وصلت الأسلحة سليمة إلى سمخ. ووصلت سليمة إلى عمان. استلمها عادل العظمة. نجا سائق القطار عبد الرحمن. لكن هل يخمن بهاء وسليمان باشا أن سائق القطار حسين متوالي لن ينجو. وسيعدمه الإنكليز في فلسطين!

رفض بهاء أن ينزل في بيت سليمان باشا: خوفا عليك وعلى نفسي! لاأريد أن يلتقطوني قبل أن أصل إلى فلسطين، ولا تريد ذلك لي! انسحب إلى مغارة اختارها عرفان. واقترح أن يسبقا مجموعات المتطوعين إلى مركز التجمع في جبل الزيتون. ليت المجموعات تتسلل مثلنا خمسة إثر خمسة، ياعرفان!

مشى بهاء وعرفان في المسار الذي سيعبره المتطوعون. فنزل عند عشيرة الغزاوية التي تحكم معبر نهر الأردن في زور الغور. كنت تخشى، يابهاء، على الأردن من الإنكليز؟ استقبلتك العشيرة وذبحت لك خروفا وأطعمتك من المنسف، صبت لك اللبن والزبدة وآوتك! حامت طائرات إنكليزية ترصد المتطوعين فحمتك العشيرة وسطها. تفرجت مع العشيرة على الطائرات التي حددت مكان المتطوعين. طلب الإنكليز من الضباط الأردنيين أن يصيدوهم لكن الضباط أرسلوا تحية للمتطوعين وتمنوا لهم التوفيق في الدفاع عن فلسطين!

ماأكثر مارأى بهاء في تلك الساعات! هز رأسه. وتذكر خلف التل الذي درس في مكتب عنبر في دمشق، وتخرج من مدرسة بعلبك الحربية، وكان ضابطا في الجيش العربي، وعيّنه أمير لواء دمشق في عجلون، وحارب في ميسلون مع

www.alkottob.com

يوسف العظمة، ثم قاتل مع رجال الدولة العربية في حوران. وماذا تعدّ يابهاء من هؤلاء الرجال والضباط؟ لن يصبح الدم ماء! يسهر هؤلاء الرجال على تسلل الثوار ونقل الأسلحة! لكن علينا أن نحمي هذه القربى والشهامة بصيانة السر!

في مضارب عشيرة الغزاوية والطائرات ترصد المنطقة، شعر بهاء بأنه لم يخطئ لأنه كتم عن منور سفره. التزم بالسر، وسيلتزم به دائما. لأن هذا الجزء من حياته لايخصه وحده، بل يخص آخرين!

حرص بهاء أن يعبر إلى فلسطين مع أربعة رجال فقط. قد يوحي ذلك بأننا مهربون لامتطوعون! نصحهم شيخ الغزاوية: اعبروا المخاضة في النهار. في الليل يطلق مشروع روتنبرغ المياه فيرتفع النهر ولا مجال لعبوره! ودّعهم وأرسل معهم الدليل إلى المخاضة. يقطع مشروع يهودي الطريق علينا، ياعرفان! هل أذكّرك بماذا قال فيه تشرتشل عندما رجحه ومدحه؟ قال إن العرب رجال كلام ولو ترك الأمر لهم لما أنشأوا مثله. وأهمل أن مشروعات العرب منعت وألغيت قصدا! لدينا إذن تفصيل جديد يدفعنا إلى الصدام بالإنكليز! عنصريتهم!

كان عبور النهر صعبا في منتصف النهار في آب اللهّاب! فعزى بهاء نفسه بالمزاح: الله يصلحك، ياقاوقجي! اخترت لنا أكثر الشهور قسوة! ترك بهاء رجال الغزاوية على الضفة الشرقية، وكان الفلسطينيون على الضفة الغربية في استقباله. سقوه الشنينة، فشرب حتى ارتوى. ومشى مع أهل طوباس إلى بلدهم. أراد أن يصرخ: صرنا في فلسطين! نجونا من الإنكليز! وكاد يضحك: نجونا، ياعرفان، من الفرنسيين حتى قطعنا الحدود إلى شرقي الأردن. ونجونا من الإنكليز في شرق الأردن، لنواجه الإنكليز في فلسطين! فما أعجب هذا العبور! كنت أركب القطار من دمشق إلى حيفا. عدت مرة مع منور من طبرية بالببّور إلى سمخ، وركبنا منها القطار إلى دمشق! بدأ بهاء حديثه تلك الليلة من هناك! وختمه ببلاغة أطربته: هانحن، ياأهلنا، نتسلل كي نعبر من بلادنا إلى بلادنا!

انتقل بهاء من طوباس إلى رابا فوجد فيها السوريين واللبنانيين والأردنيين، المتطوعين الذي وصلوا في أمان إلى فلسطين. أسعده الجمع. حملت النساء الفلسطينيات الطعام والماء لهم. نسي بهاء منور ومعتصما ودمشق. اجتمعت بلاد الشام، وهذه هي الحقيقة العميقة التي تملأ روحه الآن. قال لعرفان: مافي السطح موقت كزبد البحر! استسلم للفرح وقدّر من فكر في تنظيم هذا التجمع! القاوقجي في الطريق إلينا! فهل قصد القصف القوي روح هذا التجمع؟ وقصد أن يكسر تلك البرهة المتوهجة التي ملأت بهاء حتى أنسته منور؟

www.alkottob.com

قصف الإنكليز العراقيين بالطائرات! لكن اطمئنوا! لن يسمح الفلسطينيون للإنكليز بتطويقهم! سدوا الطريق على الإنكليز! وصل القاوقجي! قطع شرق الأردن على فرسه! هكذا أصبحنا، ياعرفان! كي تدافع عن فلسطين يجب أن تتخفى في حضن الناس! نزل الليل. نستطيع الآن أن نمشي إلى العراقيين لننقل جرحاهم إلى بيوت آمنة، قبل أن ينشغل القاوقجي باستقبال المجموعات المسلحة الفلسطينية!

www.alkottob.com

في زور الغور، بدأ بهاء يكتب مذكراته التي سيكملها في فلسطين سنة 1948. ليحاور منور، أم ليترك شهادة يريد أن يستكملها الأحياء؟ أم لأن الفضاء الممتد يغري بالحديث مع النفس وييسر صفاءها؟ قد يكون هذا آخر حوار مع نفسه، ومع منور! كم تصفو الروح في الخطر فتسقط رغباتها الصغيرة ويبقى فقط توقها إلى الصدق مع النفس ومع الآخرين! أسند ظهره إلى شجرة زيتون عتيقة، وأسند إلى ركبته دفترا صغيرا. وسجل على ضوء النجوم وصوت رجل يترنم بموال جبلي بعض كلمات شطبها. سيرسم إشارات لا يفهمها سواه، وسيترك فراغات سيكملها إذا عاش! حذر؟ نعم! فقد يدفن دون أن ينقب أحد في جيبه! وقد تفتش جيوبه! فليترك من الكلمات مالا يضر صديقا ولا يفيد عدوا!

رفع رأسه إلى النجوم. نعم، تربكه الأسطر الاولى! فمنذ الثورة السورية لم يشعر بحاجة إلى الكتابة عما في روحه. ألأنه كان مشغولا بالسياسة، ومشغولا بمنور؟ يبدو أن الفلاة أو الخطر ينعشك، يابهاء! رد على نفسه: ربما! لكني أكتب رسائل إليها. كي يبقى لها شيء إذا رحلت؟ اسكت! يصعب أن تحبس في سبب واحد رغبتك في الكتابة في هذا الدفتر. فأنت تريد أن تبوح وأن تعرض وتسجل!

دار القلم بين أصابعه دون أن يكتب حرفا. يخشى أن يفلت كلمة تكشف وضعا. كن حذرا، فأنت هنا أمام احتمالين متكافئين: الحياة والموت. كتب في الصفحة الاولى: يسلّم هذا الدفتر في حالة قتلي إلى السيدة منور. العنوان: دمشق، سوقساروجا، حارة قولي، قرب بيت العابد. اطمأن بعد تسجيله العنوان، كأنه أنجز وصية. لكنه انتقى بعد ذلك ما رأى أنه حقه في أن يدونه كرسالة لاتضر بأصحابه. عواطفه؟ فليقرأوا فيها، إذا وقعت جثته في أسر الإنكليز، رأي رجل من بلاد الشام في الاحتلال الإنكليزي الذي يلتزم بسلب فلسطين من العرب للمستوطنين اليهود!

توقفنا بعد منتصف الليل في زور الغور على ضفة الأردن، قرب منازل

www.alkottob.com

الغزاوية. حولنا شجيرات الطرفة. ما أحلى برد الليل يامنور! لماذا لا يخطر لنا أن نخرج من بيوتنا إلى الفلاة إلا وقت يضطرنا الزمان؟! هل أصبحنا أسرى المدن؟ حلقت فوقنا طائرة بريطانية فانسحب بعض المتطوعين الذين لمحناهم من بعد إلى منازل الغزاوية. واختفى بعضهم وسط الشجيرات. لم يدرس المتطوعون المنطقة التي يفترض أن يمروا منها، كمن اعتمد أن هذه البلاد لنا! ألا يغرر بنا شعورنا بأن الغريب لا يجسر أن يملك أرضنا؟

حلقت الطائرة مرات فوق من بقي مكشوفا من المتطوعين. أخبرنا شيخ الغزاوية أن الإنكليز رأوا مجموعة مسلحة فاتصلوا بالأمير عبد الله. فاتصل الأمير بحكومة إربد فأرسلت قوة. قال الرسول لي: ستتظاهر القوة بأنها لم تر المتطوعين، وتتمنى لهم السلامة! لذلك طلبت ممن بقي مكشوفا أن يأتي إلى منازلنا. وعينت لهم المغاور التي يضعون فيها السلاح الذي سيصلهم من عمان. فهمت من كلامه أن الإنكليز يتابعون المتطوعين منذ اجتمعوا في سما.

نصحنا شيخ الغزاوية أن نتفادى القرب من أنابيب نفط العراق التي تصل من كركوك إلى حيفا. قال: يحرسها بدو لقاء المال فلاتقتربوا منهم! تساءلت يامنور، هل ورث الإنكليز من العثمانيين دفع "الصرة" للبدو ثمن عبور قافلة الحج آمنة؟ دلنا الغزاوية إلى معبر في نهر الشريعة. قالوا: اعبروا النهر في النهار، لأن مشروع روتنبرغ يطلق الماء في الليل فيستحيل عليكم العبور.

لم نخطئ يامنور في ايماننا بهذه البلاد! ودعنا الغزاوية وتمنوا لنا النصر. قطعنا الشريعة. ماأقوى الشمس! تعممت بقميصي. جفت ثيابنا علينا. مقاومتنا التعب والعطش والشمس أول المعارك التي نخوضها! بدأنا نصوغ أنفسنا كجنود بمشقة الطريق! فهمت فرح رجال الصحراء بالواحات عندما استقبلنا الفلاحون الفلسطينيون وسقونا اللبن. أنزلنا أهل قرية رابا ضيوفا عليهم. فحصت عيونهم: لا يخافون أن يعاقبهم الإنكليز على استقبالنا؟!

سجل بهاء تحت شجر الزيتون اليوم الذي وصل فيه في أواخر آب إلى منطقة تجمع المتطوعين العرب في جبل جريش قرب قرية طوباس. كتب: "استقبلتنا نساء القرى بالزغاريد، واستقبلنا رجال القرى بإطلاق الرصاص. وقّروا الرصاص، ياشباب! ونشكركم على الزغاريد! استمعت إليها، يامنور، وبدت لي شاهدا على حضارة هذه البلاد. من صاغ هذه الزغاريد، من أضاف كلمة هنا وكلمة هناك؟ كم من الأجيال تناقلتها من قرية إلى أخرى! استسلمت لزغاريد النساء وتطريز ملابسهن، وشعرت بتفاهة الاتفاقيات وبتنميقها وغربتها. أموال

www.alkottob.com

اليهود ووعودهم بأن يفيدوا فلسطين ويحضّروها؟ أي رقي يبرر قتل العرب ونسف بيوتهم وسرقة أرضهم وقطع شجرهم؟! ألا يثير السخرية أن تدعي بلاد حديثة أنها ستحضّر بلاد حضارات عريقة! هنا بلاد الحضارة الأصيلة! من يحفر بئرا أو قبرا أو مكان غرسة في ترابنا يجد لقية تشهد على عراقتها!

حملت النساء لنا جرار الماء، وسقيننا. وما أعذب الماء في حر أواخر آب الذي ينضج العنب والتين! استسلمت للفرح. سنفكر فيما بعد كيف سننظم من هؤلاء المتطوعين وأسلحتهم المتنوعة، ومن العواطف جيشا! وما أقصر الوقت!

في نهاية الصفحات الاولى خطر لبهاء أن يفسر لمنور لماذا سجل يوم وصوله. تبدو لنا الأيام التي عشناها مقدمة فقط، مدخلا، ممرا كممر بيتنا في سوقساروجا، إلى باحة واسعة. كأن ما عشته في السنوات الماضية بعد الثورة كان انتظارا في ذلك الممر لهذا اليوم! ثم فكر: هل ستفهمني منور، أم سيغضبها أن تتصور أن السنوات التي عشناها معا كغرفة انتظار في عيادة طبيب، مملة وغير مستقرة؟ هل ستفهم قصدي الآخر؟ محور الحياة الذي يستقر فيه الحب والولد والفرح؟

قريبا منا على جبل الزيتون العراقيون. بعضهم ضباط وجنود في الجيش العراقي. هتفنا: فلننتقل إليهم لنصبح بتجمعنا قوة! قلت كبعضنا: بل فلندرس موقعهم أولا. ليس التجمع دائما قوة، فالحكمة أحيانا أن نتفرق كيلا يأخذنا العدو معا! لكن هذا الهتاف يدلك إلى جهل بعضنا بالعمل العسكري، وإلى ماقد ترمينا فيه الحماسة! أعجبني حذر الأشمر رغم ما يبدو من بساطته. قال: الطائرات أكبر الأخطار علينا. ووافقه رفاقه من مجاهدي الثورة السورية. قال أحدهم: رغم كثافة شجر الغوطة، كانت الطائرات تدل إلينا!

صدق حدسنا! كشفت الطائرات الإنكليزية المتطوعين العراقيين. فأنجدناهم مع الفلسطينين. انشغل القاوقجي الذي اجتاز بادية العراق والأردن بالتخطيط لمعركة مع الإنكليز، ورتب الاتصال بالمجموعات الفلسطينية المسلحة. فكرت وقتذاك بالحاج أمين الحسيني. تذكرت حاجتنا في آخر معارك الغوطة إلى اتفاق السياسيين والثوار! وأضيف هنا: إلى اتفاق زعماء البلاد والمتطوعين!

في الصفحات التالية التي سجلها بهاء، فكر في ما أنجز. خطر له أن يروي لمنور كيف نظم جسم مركزي للمقاتلين، ومجموعات من الفلاحين تشترك في المعارك وتعود إلى قراها. لكنه ترك ذلك حوارا منثورا في الهواء بينه وبينها. هل يريد أن يكسبها حتى وهو يكشف لها نجاحه وفشله؟ هل الفرق بين عمره وعمرها

www.alkottob.com

سبب آخر في رغبته أن يستبقيها مواكبة قريبة؟ يخزن في روحه القلق الذي يوقد حبه وهو معها، فيحرص أن يسعدها بالحب كشاب في عمرها. لكن الخمسة عشرة سنة بينهما تبقى كشوكة تخزه. أبعد الشوكة، وأقنع نفسه بحاجته أن يبوح لها بما يملأ روحه وهو يتسلل في أرض واسعة ليسجل انتصارا ويتفادى هزيمة. هذه ليست خططا نضعها في انتباه، مستندين إلى استطلاعنا، وإلى دراسة المنطقة! هذا حب، مغامرة، عقيدة وايمان. نستلّ كل ما أنجزناه وما بقي حلما. نجمع وعينا وعواطفنا كأن كل ذلك مسدد في هذه المعركة وهي غايتنا وبدايتنا. مع أنها خط في مشروعنا! نسف الإنكليز بيتا في نابلس؟ نرد هنا! أعدم عربي لأنه يحمل رصاصة؟ نرد هنا! مع أن حكمتنا يجب ألا ترتجف من التفاصيل. مشروعنا أن نوقف الهجرة اليهودية ونلزم الانتداب بالاعتراف بحكومة وطنية!

نحن الآن في نهاية آب، فصل العنب والتين! قطفت بعض ثمار التين طازجة عليها ندى الفجر! هل نستطيع في سرعة أن نجعل من المتطوعين مجموعات متناسقة كجيش؟! بخبرة القاوقجي والضباط نظمت لجان للتموين وللمالية. سيعين الموقع المناسب للمعركة، ستدرس الاحتمالات، وترسم خطوط الدفاع، وتعيّن مجموعات الأجنحة والقلب والدعم، وأصول الانسحاب، والتغطية. نحن هنا ونوري السعيد ضيف على المندوب السامي في القدس، يتوسط ليفك الإضراب العام ويقرب ما بين العرب والإنكليز! يبدو أنا سنمنع كسر الإضراب! أتى إلينا المجاهدون. إذا وجد محور جذب التضحية والشهامة وسددها. فضيلة التنظيم أنه يقلل الخسائر!

نحن الآن في أيلول. كل شيء جاهز لمعركة بلعا! اخترنا المكان المناسب. تطل بلعا على الطريق بين حيفا وتل أبيب. تتعرج بين جبال وسفوح ترتقي إلى قمم تشرف على وديان. ستعبر الطريق المصفحات الإنكليزية التي تحرس قوافل اليهود بين المدينتين. وزّعنا المجموعات، وغرسنا كمين الفلسطينيين. زرعنا الألغام في الطريق. نكاد نخمن أين ستقف قافلة السيارات الإنكليزية القادمة على الطريق من طولكرم. وقدّرنا كيف سيلحق الإنكليز رجال الكمين. لكننا نضع دائما احتمالات أخرى. وهانحن نمشي إلى مشروعنا، معبئين بحماسة وبانتباه وهدوء. في برهة الترقب بدت لي الفلاة واسعة، والجبال مدهشة، وبدا لي أني أمشي في تلك البرهة القاطعة بين حياتي وموتي. أرسلت لك تحية، وأوصيتك بمعتصم وأوصيته بك! هل تستطيعين أن تخمني أني ناديتك؟ يخيل إلي أنك سمعت صوتي!

www.alkottob.com

خرجنا من بلعا فبتنا في السفح المشرف على الوادي. رتبنا خط الدفاع. سيبدأ الفلسطينيون المعركة كأنهم كمين من الكمائن التي تعودت المجموعات الفلسطينية المسلحة اعتراض الطرق بها. اعترض الكمين القافلة. دوت طلقات المصفحات والرشاشات. انسحب الفلسطينيون كما تنسحب كمائنهم عادة. فلاحقهم الإنكليز. وعندئذ تقدمنا. حمد صعب مع المجموعة الدرزية، منير الريس مع المجموعة الحمصية الحموية، محمد الأشمر مع المجموعة الشامية. وصلت الطائرات. أصبنا ثلاث طائرات سقطت أمامنا. وصلت نجدات إنكليزية، فانسحبنا. رفض بعض الحمويين والحماصنة الانسحاب فسقط وصفي المعصراني جريحا. أقدّر أنه سيختلق حكايات كثيرة مستندا إلى هذه الحادثة التي نقل بعدها إلى سوريا ليسلي مستمعيه! أما قريباه سليمان وعبد الهادي المعصراني اللذان اشتركا في المقاومة والثورة وسجنا مرات فلن يتركا سجلا أو وثيقة! رأيت رشاش الطائرة التي سقطت، رشاش برن.

احتفالا بالانتصار على الإنكليز جاءنا أهل القرى بالطعام والفواكه. وحذرونا من الجواسيس. فنظم القاوقجي محكمة من منير الريس وحمد صعب وسليمان السعدي. واجبهم حمايتنا! رأيت مذكرات الطيار المقتول! هل ستقع هذه المفكرة في يد عدو؟ لن أسجل فيها إلا إشارات يفهمها فقط من يستطيع أن يخمّن المضمر فيها! أنت يامنور، وربما معتصم عندما يكبر، وأنا إذا بقيت حيا!

أضاف بهاء فيما بعد: التحضير في الأول من أيلول. معركة بلعا في الثالث من أيلول. زهونا بالأسلحة الاوتوماتيكية التي أتى بها الضباط العراقيون! أسقطنا ثلاث طائرات، فهل يمكنك أن تتصوري فرحنا؟ انتصرنا يامنور! أرأيت؟ رسمنا خطة ونفذناها كعسكريين. يلزمنا السلاح لاالمهارة! لو كنت معنا لتبينت كيف أثبتنا أننا لسنا عصابات "أشقياء" بل ثوار ذوو كفاءة!

لو يستطيع أن يروي لها مامأ روحه في ذلك اليوم! الانتباه المشدود، الهدوء والمراقبة التي تفترض الإحاطة بمساحة واحدة يوجد فيها من يتراجع ومن يتقدم. الدقة التي تقرر بسرعة الحركة المناسبة وتوصل التوجيه الجديد إلى المجموعات، ولا تسمح للعدو بأن يكون بينك وبينها. تصارع على المرتفعات ومسارب النجاة في الجبال! وتندفع وأنت بخيل بأرواح مجموعاتك! كيف يحدثها عن الراحة المدهشة بعد المعركة، والفرح الذي يشبّ كالمجنون، وأنت تحمي انتباهك وتحرس يقظتك! والحزن العميق وأنت تقوم بواجب ذلك اليوم فتدفن القتلى! في الليل نزلنا مع أهل بلعا ودفنا الشهداء ونقلنا الجرحى إلى بيوت آمنة!

www.alkottob.com

يصعب، يامنور، أن أحدثك عن القرب الذي يجمع في أيام قليلة بين رجال تصطفين منهم القريب منك وتأسفين لأنك لم تعرفيه من قبل! وعدت نفسي بأن أقترب من محمود أبو يحيى الذي رافقته مرات في الثورة السورية، وأن أزوره في الميدان إذا عدنا أحياء. ففقدته في بلعا!

في جبع في نهاية أيلول رمانا الإنكليز بنيران الدبابات. وطاردنا بالطائرات. صارعنا لنصل إلى المرتفعات والزيتون. وأنجدنا الفلسطينيون المسلحون. شعرنا بخوف أهل القرى علينا وهم يراقبون المعركة. بعد الدفاع صرنا مهاجمين. انقلب التوجس إلى فرح. اندفعت الفلاحات إلينا حاملات الماء: "ياشباب، مين ماشربش"؟ لكني في ذلك اليوم فقدت عبد الحميد المرداوي الذي رافقته مرات في الثورة السورية، ومنيت نفسي بصداقته! دفنا الشهداء. خذي يافلسطين! سنصف لأهلهم المكان الذين دفناهم فيه! فداك يافلسطين!

أتت النساء حاملات على رؤوسهن الطعام: "ياشباب مين ماتعشاش"؟ نظرت إليهن. سيدفعن ثمن هذا الماء والطعام والعطف علينا! وصدق تخميني. طوق الإنكليز قراهن، جمعوا الرجال والفتيان وضربوهم واعتقلوا من اختاروا منهم، خلطوا الزيت والبرغل والسمن، ونسفوا بعض البيوت.

اختلط ما كتبه بهاء وما أرسله من أحاديث شفافة في هواء منور. فلتخمن بقية الكلمات. ولتسأل عن المساحات التي تركها فارغة بعد الإشارات! إذا عاش سيملأها هو، وإلا فليملأها لها من سيوصل دفتره! ومع ذلك يجرفه ايمان هذه الليلة بأنه لن يموت. نعم، نقتطع من الحياة لأنفسنا قطعة، قطعة! وعندما نلمح الفجر يجب أن نرفع كأس الماء في الفضاء ونقول للفجر شكرا على الحياة!

أحب أيلول يامنور. تعرفين ذلك. يسحرني لونه الأشقر! فلعلني أحببته لأني أحببتك! توهمت أنه لونك، يملأه العنب والتين والرمان كما تمتلئين أنت بمذاق الثمار! لكن ليالي أيلول قاسية في الجبال. وليس لدينا مايحمينا من البرد.

انتقم الإنكليز من قرية بلعا. نسفوا بعض بيوتها! وفشلت وساطة نوري السعيد فرحل. واستقدم الإنكليز الجنرال ديل واستقبلوه بطبل وزمر. مشروعهم أن يفكوا الإضراب بالظلم والشدة وأن يدمروا المتطوعين!

أمس الثاني عشر من أيلول، كانت معركتنا الكبيرة في وادي عرعرة. تساءلت أين أرض أهلك هناك، يامنور؟ أهناك تعلمت من الفلاحات صنع طباخ من الطين، وتفرجت على حياكة أطباق من القش؟ أصبنا طائرة هناك ورأيناها تسقط! قلت: هدية للجنرال ديل! لكن معركة وادي جبع كانت صعبة. لم نجمع

www.alkottob.com

الجرحى وندفن الشهداء إلا قرب منتصف الليل. عانينا من العطش والحر. لكن سقوط الطائرات الإنكليزية دعم الإضراب العام، ونشر التفاؤل. فوصل إلينا متطوعون من شرق الأردن وسورية.

يبدو أنهم سيأخذوننا من طريق أخرى! وصلت رسالة شفوية للقاوقجي من الأمير عبد الله: لن يتعاون الإنكليز مع اللجنة العربية العليا لذلك يقترح إبعادها. ويطلب أن يعرف قوتنا ومن معنا وكيف وصلنا. وصلت رسالة خطية من الأمير تؤكد رسالته الشفوية. تبيّن أن الإنكليز أقوياء، وتغري بالمفاوضة، وتلمح إلى أن اللجنة العربية العليا خطرة على البلاد. لو كنا نقاتل مؤمنين بأن السياسيين يحمون ظهرنا لكنا أكثر قوة! نقل الرسالة رسول من الأمير عبد الله. قال: يجب أن تؤسس لجنة عربية عليا أخرى! ففهمنا أن الأمير غاضب على أمين الحسيني. سأل الرسول القاوقجي كيف أتى، ومن جهزه بالأسلحة، وماذا ينقصنا منها. لو تركت نفسي على حبلها لسألته: تريد أن تثير مجموعة عربية على أخرى؟! وتريد أن ترصد الطريق الذي قد يسلكه المتطوعون الذين طلبناهم؟ قال: بالمفاوضة لابالحرب ينال العرب مطالبهم! ففهمنا أنه يبشرنا بوساطة الملوك العرب التي نقدر أنها لن تثمر!

بعد انصرافه تمنيت أن أغتسل. لكن خبرا غسل الغم عني: طوق الثوار معسكر نابلس في الليل!

في ليلة الخامس والعشرين من أيلول رتبنا اشتباكا في منطقة نابلس قرب قرية عصيرة. نجحنا. وانسحبنا إلى بيت إمرين. ساعدنا أهل القرى في جمع الجرحى والشهداء. دفنا في تراب فلسطين ثوارا سوريين وأردنيين.

قلب بهاء صفحات دفتره. تساءل هل نسي أن يسجل التطويق؟ لا وقت لديه كي يتصفح دفتره! كتب: في نهاية أيلول حوصرنا بقوس، ثم بدائرة. كنا وصلنا بيت إمرين. وصارت جبهتنا في الوادي هدفا للرشاشات. تقاتلنا على القمة. لو تعرفين قيمة الصبر، يامنور! يجب أن تستشفّي روح عدوك وسط النار! ينعكس انتصار صغير في طرف على الأطراف الأخرى. ما الذي دفع إلى ذلك الانتصار الصغير؟ لاحقنا الإنكليز على الطريق العام وكسبنا منهم أسلحة! وما أشد هزيمة المحارب الذي يخسر سلاحه! لسنا مجموعتين عسكريتين! نحن مشروعان، رؤيتان! بيّنا للإنكليز أننا لسنا ثوارا يعتمدون العواطف والحقوق فقط، بل نحن ضباط وجنود أكثر كفاءة وشجاعة منهم! ومن نحن، يامنور؟ نحن ضباط دولة شرقية كانت كبيرة، ضباط جيش عربي في دولة لم يسمح لها بأن تعيش، ضباط

www.alkottob.com

عراقيون يحاولون أن يحموا كفاءتهم العسكرية ولو تحت حكم مضطرب ومعاهدة انتداب! ضباط يحتاطون من الظروف المعقدة ليحموا كفاءتهم ويستبقوا مشروعهم!

مرة أخرى ساعدنا أهالي القرى في جمع الجرحى ونقلهم إلى بيوت آمنة. ومرة أخرى دفنوا معنا الشهداء.

فكرت هذا اليوم في وضع شرق الأردن! وصلنا منه متطوعون وسلاح ومؤن. احتالوا حتى وصلوا إلينا. احتالوا؟ كأننا لم نكن بلادا متصلة واحدة! عرفنا أن أخبارنا انتشرت في شرق الأردن. قدر شرق الأردن أن يكون ممرا للثوار، وأن يراد له أن يكون حاجزا بين فلسطين وبين العرب. فأي من القدرين سيغلب الآخر؟ وكيف سيحكم هذا القدر العلاقة بين شعب شرق الأردن وبين حكومته؟

أخبار أخرى محزنة. انتقم الإنكليز من أهل القرى وأقاموا مراكز حولها للمراقبة. نحتاط من مخابرات العدو ومن الجواسيس، ويجب أن نحتاط بعد اليوم من هذه المراكز!

نتنقل! مشينا في الليل. احتفت بنا القرى وقدمت لنا العشاء. ودعتنا وحرستنا. احتفت بنا قرية الطيبة وبقينا فيها حتى الفجر. من تسلل بين المحتفين لينقل خبر مسارنا إلى كفر حور؟ وصلنا إنذار حراسنا: أرتال من المصفحات الإنكليزية! صعدنا إلى القمم وانحدرنا إليها ففاجأناها. تجربتنا ضد الدبابات ناجحة. وصلت الطائرات! ذكرتني بالطائرات التي كانت تطاردنا في الثورة السورية! هذه هي الفروسية، يامنور!!

نفكر دائما بأن نحمي ظهرنا وتراجعنا مهما تقدمنا! ضحكت من نفسي. هل أريد وأنا أحدثك عن القتال أن أعطيك خبرة تفيدك في معارك قد تشتركين فيها؟ تخيلتك بملابس مقاتل وضحكت. تناسبك لكن البوط سيضايقك! فاجأني أحد أصحابي وأنا أضحك فدهش. طمأنته: لايزال عقلي معي!

نتابع الحركات السياسية! يبدو أن الملوك العرب كلفوا بقطع الإضراب الذي أضر باليهود، وبمنع الاشتباكات التي خسر فيها الإنكليز. ويبدو أنهم يخططون طرد المتطوعين من فلسطين!

في الثامن من تشرين الأول. وصلتنا أخبار عن دبابات في الطريق إلى معسكرنا في كفر حور. فخربنا الطرقات التي توصلها إلينا. وفاجأنا الإنكليز. وفرقنا المجموعات المهاجمة. استقبلتنا القرى بحماسة. لم تعد تخشى الإنكليز.

في أواسط تشرين ينفذ برد الليل إلى العظام. لكن النهار مشمس وحلو.

www.alkottob.com

يناسب هذا الطقس إنسانا سعيدا، يناسب رحلات المحبين والأصحاب، للاستمتاع بدفء تشرين وبرده! بسحر سمائه العميقة الزرقة! ولكن أين نحن من ذلك!

لدينا أهم شروط الثورة: عطف الناس علينا، بل حفاوتهم بنا. مع أن اعتمادنا في التموين عليهم يؤرقني. يتحمل الفلاحون ما تحتاجه الثورة، ويدفعون ثمنها الثقيل: انتقام الإنكليز منهم! ولكن لا تظني أن المدن لا تتحمل الانتداب! نسفت بيوت في صفد ويافا والقدس ونابلس.. وفي السجن سياسيو المدينة، منهم زوج أختك عبد الرحيم! احزري من أخبرني عن ذلك؟ حمدان! لكني سأحدثك عن زيارته فيما بعد!

قد تتساءلين هل أنا راض؟ حدثتك عن كفاءة الضباط. لكني لم أحدثك عن صعوبة أن يصنعوا مجموعات منضبطة من أشخاص متنوعين في زمن لا يملكونه. لكن لا تظني أن العمل مع السياسيين أكثر سهولة. فاجتماعاتهم مرهقة. يستطيبون الاجتماعات الطويلة والكلام وسرد التفاصيل. لا يكتفي الواحد منهم بما قاله زميله، بل يكرره بشكل آخر كي يثبّت موقفه. ومع ذلك يجب أن تكوني حذرة لترصدي تفاصيل أمزجتهم كيلا تثيري عاطفة قد تصل إلى العداوة. أما الدخان الذي يعبق في القاعات المغلقة فلن أحدثك عنه. كان يفوح من ملابسي، وكنت تنشرينها لعل الهواء يبدد ماعلق بها! كان ينجدني الصيف عندما تنعقد الاجتماعات في أرض الدار وأحيانا في البساتين! هل تقولين إني رجل عمل؟ ربما، لكن كل ما نعمله يصب في حضن السياسة!

www.alkottob.com

عندما عرف حمدان أن المتطوعين وصلوا إلى فلسطين، توقع أن يكون بهاء معهم! أتى رجال الثورة السورية لينجدوا فلسطين، ولابد أنه معهم، ولكن أين؟ أكد لنفسه: يرجّح مقتل سعيد في الثورة السورية اشتراك بهاء في ثورتنا! فالجرح العام يصبح جرحا شخصيا. إذا لم يأت بهاء سيشعر بأنه غير مخلص لقريبه! عرف حمدان الشبكة من الشرايين الدقيقة التي غذت بهاء. في حيفا أحب منور، وفي طبرية تزوجها. ولد ابنه معتصم في طبرية. عاش في فلسطين أهل حبيبته منور والأعزاء عليها. فمن يستطيع أن يفهم بهاء أكثر مما يفهمه حمدان؟! من يفهم أكثر من حمدان الحب الذي يوصل إلى الوجد ويتمنى أن يتوّجه الموت؟ فلسطين جنوب سورية، على عيني ورأسي! لكن فلسطين بلاد من أحبهم بهاء! بلاد هواه! في طبرية قبر فاطمة التي أعطته حبيبته منور! فيها أوصله الحب إلى هجر زوجته نرجس دون أن يحس بأنه أخطأ. من يستطيع أن يفهم أخطاءنا التي يغفرها الحب غير حمدان؟

اتفق مع راع أمّن له ثلاثين خروفا مدموغة بألوان ملاكيها الحمراء والسوداء، وقرر أن يسوقها معه من أقرب القرى إلى علار. قدّر لنفسه أن يمشي ست ساعات في الجبال، كما يمشي الحجاج طالبين الثواب بالمشقة. لبس قنبازا، ولف رأسه بكوفية، ويامسهّل! من يخاف وماذا يخاف؟! المعتقل ذقناه، وسعاد فقدناها! البلاد تسحب من العرب وتعطى لليهود الغرباء. وحمدان لا يستطيع أن يشترك في الثورة كالرجال، فلا هو يستطيع أن يمسك بندقية، ولا هو قادر على الحياة مع مجموعات. يضع توقيعه كالوجهاء حيث يطلب منه ذلك، لكنه لا يسعى إلى صياغة رسالة كالرسائل التي تعرض عليه! فات الوقت! في أيام كثيرة يشعر بأن الحياة أصبحت ثقلا فيشرب ليغيب عن الوعي. ويلعن الشراب لأنه لا يوفر له الغيبوبة المرتجاة. مشى مع الراعي، لمح طائرة تحوم فوقه، رفع رأسه مرات إليها وهو مستمر في المشي: إذا قصفتنا متنا شهداء، فأمّنا الجنة التي لانستحقها! رفع

www.alkottob.com

الراعي رأسه ليرى الطائرة، لكنه لم يرتعش. انتظر كحمدان أن يرمى عليه "قازان". لكن يبدو أن الطائرة لم تشكّ في الراعيين فابتعدت. وربما كانت تبحث عن الثوار فلم تجدهم! بصق حمدان: حرمونا أن نكون شهداء! تنهد الراعي، وانساب حمدان في وجده في نهار مشمس من الشتاء. كان كمن يمشي إلى موعد مع سعاد! خيل إليه أن عبقا هفّ عليه فتوقف ليستنشقه بعمق. أمتعه أنه يسوق قطيعا ليهديه. وابتسم: فاتني أن أهدي سعاد مثل هذه الهدية! وتصور أنه يسوق قطيعا إلى بيت قدري ليسترضي سعاد! كان يستمتع بجنون لايستطيعه غيره. تلك هي الحرية! الجنون؟ يسمون قدرتك على الانطلاق جنونا! يسمون الحرية التي تحمي نضارة العواطف جنونا! فليسمحوا لشخص واحد أن يعيش في الفلاة كالزنبقة البرية، جميلة بشوكها وزهرها!

لم يبال حمدان بدهشة الحراس الذين لاقوه. بدوا كفلاحين. لا تغشونني ياشباب! انقلوا أن حمدان من الناصرة يحمل هذا القطيع هدية للثوار، وأنه يريد أن يقابل بهاء إذا كان بينكم! كانت أخبار القطيع قد وصلت إلى المقاتلين منذ طلب حمدان وهو يشتريه أن ينتقى لأنه هدية للثوار. عندما نقل لبهاء أن شخصا يسأل عن رجل اسمه بهاء، همس لنفسه: من يختار قطيعا ويمشي به إلى الثوار غير حمدان! أين أنت ياسعاد!

اندفع حمدان وعانق بهاء، وبقي برهة ساكنا في عناقه. فهم بهاء دموعه، فأمسك بكفيه وشغله بتقديمه لأصحابه دون أن يذكر أسماءهم، وتركه يستمتع بالحفاوة، ثم مشى به إلى زيتونة عتيقة سجل تحتها بعض كلمات في دفتره في ذلك اليوم. ما أكثر الزيتون العتيق في فلسطين، ياحمدان! وكم أحبه!

سكب حمدان ما في قلبه تحت الزيتونة أمام بهاء. وجد إنسانا يستطيع أن يفهم الوجد الذي لا تطفئه أحداث كبيرة وأيام مضطربة بل يلتهب بها. من يفهم ذلك غير بهاء! صحيح ياحمدان، لاأحد أكبر من الحب! دفعنا الحب إلى هنا، وما أعجب أن تدفعنا الرغبة المشتعلة بالحياة، حتى الموت! لكن ياحمدان.. مد حمدان ذراعه ووضع كفه على فم بهاء. لايريد أن تفسد "لكن" سعادته بأنه وجد من يفهم وجده! دع "لكن" للآخرين، وما أكثرهم!

حدّث حمدان بهاء عن عبد الرحيم. روى له نقمته عليه لأنه دون سعاد. أوقفه بهاء: هذا رجل وطني! رد حمدان: من قال غير ذلك؟ لكنه دبّ، وهي كالعصفور! هذا الرجل لا يناسبها! اسمع ياحمدان، لم يجبرها أحد على الزواج منه. بل أعرف العكس! عندما أطرق حمدان مجروحا، ندم بهاء على ماقاله. أتى

www.alkottob.com

هذا الرجل ماشيا، عبر الخطر، كي ترمي عليه حكمتك؟! رمم بهاء ماقاله: على كل حال، لاأحد يعرف مافي النفوس، ياحمدان! صحا حمدان من أساه واندفع في حماسة: أعرف مما وصلني عنه أنه دب، وأنه رجل جامد كالصخر، لذلك قلت لك إنها لا يمكن أن تكون سعيدة معه!

انساق بهاء إلى التفكير في علاقة رجل بامرأة يصعب أن يخمنها رجل من الخارج. يعرف أن سعاد تكتم ما في روحها! أخفت موت سعيد على أهلها وهي تعيش معهم في بيت واحد، وأخفت تعاستها وسعادتها مع حمدان، أشفق على حمدان لكنه نظر إليه نظرة طويلة متسائلا ألم تشقها ياحمدان حتى اندفعت رافضة علاقة حب برجل، واختارت أن تكون فقط زوجة؟! أرعشت حمدان نظرة بهاء وخيل إليه أنه فهمها. فانسابت دموعه. أشفق بهاء عليه. لا مجال غير أن نقبل مثل هذا الرجل، كما نقبل طفلا جميلا وشقيا! فالتعاسة التي يسببها لنفسه ليست أقل من التي يسببها لغيره!

انتبه بهاء إلى الأثر الذي تركه حمدان فيه. وقدر لماذا بقيت سعاد أسيرة سحره زمنا ولماذا كتمت أذاه. وخيل إليه أنه يتبعها على مسارات الحنين التي أنستها الفرح بالطلاق الذي تمنته. وبدا له بعد انصراف حمدان أن العلاقة بين رجل وامرأة كحمدان وسعاد غنية بالألوان المتناقضة، إلى حدّ أنه يصعب الانحياز فيها إلى أحدهما. لكنه فهم القدر الذي يمنع أن يجتمعا كإنسانين يناسب أحدهما الآخر ويناقضه. يحتاج حمدان العقل الذي يثقل سعاد. وتحتاج سعاد العواطف المتوهجة التي تطلق حمدان. يحتاج حمدان اتزان سعاد الذي يحفر مجرى منظما للحياة ليفيد من دقائقها. وتحتاج سعاد جموح حمدان الذي يشب كالمهر فيستبقي نضارة العواطف. ومع ذلك يصعب أن يتحمل أحدهما الآخر ولو استبعدا التوافه التي صغّرت حب حمدان لتسجن سعاد. يليق بهما هذا الفراق الذي يجعل الآخرين متفرجين ذاهلين وغيورين أمام حب يعلنه حمدان وتكتمه سعاد. كأنهما يعيدان إلى الحياة حبا ظنوا أنه لا يوجد إلا في الأساطير. يعرف أن سعاد تزوجت لتؤكد استقرارها بأسرة، ولتغرس لنفسها مكانا حرا بين الناس. لكن لو استطاعت ألا تتزوج لاقترح عليها: لا تضيعي ياسعاد هذا الحب، ولكن إياك أن تعيشي مع حمدان! ابقي قريبة منه وعلى بعد منه، ليستطيع أن يقف ساعات تحت نافذتك محاولا أن يسمع تنفسك وأنت نائمة، وليستطيع أن يراقب ضوءك من بعد كما يراقب الراصد نجوم الليل. ولا تلتقي به إلا عندما يصعب عليك وعليه تحمل وجع الأشواق. وتحملي بعد ذلك وجع الفراق.

www.alkottob.com

وصف له حمدان الوجع الذي يشعر به. روحي تؤلمني يابهاء! ويخيل إلي أني أرى الدم يسيل من جروحها. تعال نمشي ياحمدان! فلنمش يابهاء، مع أني أعرف أن المشي حتى تنسلخ القدمان لا يهدئ روحي. التفت بهاء إليه: ياحمدان انشغل عن سعاد بعمل صعب، يستهلك الانتباه من مطلع النهار إلى مطلع الليل! عانقه حمدان في لهفة: كأنك سعاد! كانت تقول لي هذا الكلام! وجدت دواء آخر! أشرب كل ليلة فأستسلم لحزني وأصبح وحيدا معه. فتختلط علي الحقيقة بالأحلام. توصلني النشوة من الحزن إلى نوع من السعادة!

كتب بهاء لمنور في دفتره: ترك حمدان وراءه رغبتي في زيارة سعاد. لكن هذا مستحيل، يامنور! فهي كنزهة في حرب، هي كالهرب من مصير عام! فزوارنا يتحدثون عن سعي الإنكليز من خلال الملوك العرب إلى إخراجنا من فلسطين. ترك لي حمدان غناءه:

قال المثل عمر الأسى مابينتسى وع شط بحر الحب مركبنا رسا

هلطير هللي بالأمس جنحه انكسر بيحاول الفرار لو ريشه كسا

www.alkottob.com

كتب بهاء في مفكرته: بعد أيام من وداعي حمدان، زارنا أعضاء من اللجان القومية، استشارونا في فك الإضراب. قالوا: تعب الناس من الإضراب ستة أشهر متصلة! يكاد موسم قطف الزيتون والبرتقال يضيع على الناس! ومن يعيش عليه طوال السنة؟ الفلاحون والتجار والعمال الذي يعبئونه، والمعاصر، والبواخر، وسائقو الشاحنات! استنتجنا أن الإنكليز احتالوا على الملوك والأمراء العرب، وأن هؤلاء ضغطوا على أمين الحسيني: لن تأتي اللجنة الملكية لتحقق في أسباب الاضطرابات إلا إذا أبعد المسلحون العرب عن فلسطين وهدأت البلاد!

نعرف ضيق أحوال الناس. وما يقاسي منه المزارعون والعمال إذا ضاع موسم البرتقال فلم يعبأ في الصناديق ولم يصدّر! لكن ليس الدافع إلى فك الإضراب هذا السبب فقط. بل الحرج، وربما الخطر، الذي تسببه الثورة في فلسطين للأمير عبد الله، والضرر الذي تنزله بالإنكليز. يريدون أن تنطفئ الثورة دون أن يغيروا مشروعهم. رأينا؟ لا ضرر من فك الإضراب العام شرط أن يفيد السياسيون مما أنجزه الإضراب، ومن العمليات العسكرية. وأن يبقى المسلحون جاهزين حتى تنتهي المفاوضة وتنفذ الوعود! يجب ألا نفجع أهل القرى الذين يستقوون بنا. لكننا هنا بمال الهيئة العربية العليا وبطلبها!

سمعنا نداء الملوك العرب، وبيان اللجنة العربية العليا! لعلع الرصاص في بلعا احتفالا بنهاية الإضراب! تساءلت: ونحن الذين تركنا بيوتنا وحملنا دمنا على أكفنا؟ نحن الذين تركنا رجالا أثمن من الذهب في تراب فلسطين؟ أتت وفود القرى تهنئنا لأننا أوجعنا الإنكليز! لم يفتنا شعورها بالمرارة. كم يتفوق الناس على قادتهم، لكن كم هم مربوطون إليهم! وياللحزن لأن القادة العرب دون شعوبهم! ربما يكون ذلك أيضا ذنب الزمان!

هذا نداء الملك عبد العزيز إلى رئيس اللجنة العربية العليا وشعب فلسطين في الثامن من تشرين. افحصيه، يامنور، في انتباه! "نحن بالاتفاق مع إخواننا

www.alkottob.com

ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد إلى السكينة حقنا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل". وهذا نداء الملك غازي من بغداد في التاسع من تشرين الأول: "نحن بالاتفاق مع إخواننا الملوك والأمير ندعوكم للإخلاد إلى السكينة حقنا للدماء معتمدين على حسن نوايا حليفتنا الحكومة البريطانية المعلنة من تطبيق العدل". وهذا من الأمير عبد الله في التاسع من تشرين الأول: "نحن بالاتفاق مع إخواننا الملوك نرجوكم الإخلاد إلى السكينة حقنا للدماء، معتمدين على حسن نيات الحكومة البريطانية في تطبيق العدل". وهذا بيان اللجنة العربية العليا: "تعتقد اللجنة اعتقادا جازما بأن أصحاب الجلالة والسمو لم يأمروا أبناءهم إلا لما فيه مصلحتهم وحفظ حقوقهم. لذلك فاللجنة امتثالا لإرادة أصحاب الجلالة والسمو والملوك والأمراء... تدعو الشعب العربي الكريم إلى إنهاء الإضراب والاضطرابات". وهذا بيان آخر منها إلى الشعب: "قررت اللجنة العربية العليا بالإجماع وبعد استشارة مندوبي اللجان القومية والحصول على موافقتهم باتفاق الآراء التي تلبي أصحاب الجلالة ملوك العرب، إنهاء الإضراب والاضطرابات".

تبدأ الرسائل بالألم على الشعب. وتنتهي بالوعد بمساع تنجد الشعب الفلسطيني! كلام كضباب جبل لبنان! وليت الصيغ متنوعة كيلا نشعر بأن من أملاها واحد، هو الحكومة البريطانية والمنظمة الصهيونية! أهانت بريطانيا حتى الملوك العرب بتلك الصيغة الواحدة! استخفت بهم وبنا! صديقتنا بريطانيا؟ حاربنا من إذن؟؟ من سفك الدم الفلسطيني؟ من كسر أبواب المخادع وخلط المؤونة ونسف البيوت؟؟ وماهي "الاضطرابات"؟! جذبت فلسطين في هذه الأشهر المتطوعين العرب، أتى ضباط الثورة العربية ورجال الثورة السورية، لأن مقاومة عربية تلامحت لرد المشروع الصهيوني وتقسيم سايكس بيكو. لكن مقابلنا كان الملوك العرب الذين ابتكرهم تقسيم بلاد الشام والانتداب الذي ينفذ الوطن الصهيوني. انتصروا بالخدعة! استشهد أفضلنا! ونحن الباقون ننتظر أن نكمل الصراع مع هذا الظلم الذي يهيننا! ولكن متى، وأين؟

كنا في جبال بلعا عندما سمعنا إطلاق الرصاص وعرفنا أنه احتفال بنهاية الإضراب العام. أعلنت اللجنة العربية العليا فك الإضراب، دون أن تبلغنا! سجّلي يامنور هذا الخطأ! شعرت بالحزن. قلت لنفسي فشل الإنكليز بالقوة فبحثوا عن الانتصار بحل سياسي! وسينجحون! سيضيعون وقت العرب باللجنة الملكية ومشروعات لاتنفذ. فهمت أن مهمتنا انتهت!

www.alkottob.com

لكني تساءلت وأنا أرى فرح بعض الناس بفك الإضراب هل فرحهم من الضيق أم من الوهم؟ لاضرر لو قيل هذه خطوة في مسار الصراع. لكن الخطأ أن نتوهم بأن الحل في يد الملوك العرب. رسائلهم تسهّل الدأب الصهيوني لبلع فلسطين، وحاجة الإنكليز إلى كبح الشعب!

يامنور، انتصار ثورة عمل كبير، تجتمع عناصر كثيرة ومتنوعة فيه، كعزف في تخت موسيقي. يجب ألا يخلّ فيه أحد بنغمة. لذلك يجب أن تحرس الانتصارات. فلا انتصار نهائي! قد يكون الانتصار سهلا في تفصيل، لكن الانتصار الشامل عمل كبير، كبير، يصوغه الناس والزمان!

فكر بهاء في الغدر. هل تمنعه الفروسية من الغدر؟ نعم! لأنه لم يكن في الثورة السورية أو هنا جنديا مكلفا بأن يسير أو يتوقف في حروب لم يخترها. بل أتى متطوعا ليدافع عن مشروع. هل يجهل الملوك أن إنكلترا هي التي أعطت وعد بلفور، وهي التي اتفقت مع فرنسا على تقسيم بلاد الشام، وهي التي تسهر على تأسيس الوطن الصهيوني؟ لابد أن مستشاريهم يروون لهم نصوص الانتداب! ومع ذلك أرسلوا الرسالة التي أمليت عليهم. هذا غدر! وهاهم الإنكليز لايكتفون بطرد المتطوعين من فلسطين بل يرتبون تدمير المنسحبين!

رجانا أهل القرى ألا ننسحب. لكن التزام اللجنة العربية العليا بمشروع الملوك والأمراء العرب فرض أن تطلب اللجان والهيئة انسحابنا إلى شرق الأردن. انسحابنا سيضعفكم ويكشفكم، لكن هل نستطيع أن نعصي مؤسسة البلاد القومية؟ وهل تستطيع هي أن تعصي الملوك العرب؟

وصلت في السابع عشر من تشرين الأول رسالة من القدس إلى المتطوعين. أنجزتم مهمتكم! مع السلامة؟ ما أصعب السلامة لمنسحب مثلهم! كتب بهاء في دفتره: طلب القاوقجي من المتطوعين أن يحفظوا سلاحهم ويكونوا حذرين. ورتبنا استعراضا في ميدان قرية صيدا. ولكن ماذا بعد؟

انسحبنا من بلعا إلى علار. استقبلنا الناس بالأهازيج والماء والطعام. تدفقت علينا الوفود من القرى لتهنئنا بالنصر. آه، آه! أي نصر؟! ما أطول الطريق إليه! لكن كان يجب ألا نستسلم لنشوة أفراحهم وأن نفكر في الغدر.

بعد الاجتماع ابتعدت قليلا. فكرت في القتلى اللبنانيين والسوريين والعراقيين والأردنيين. هل هم ضيوف أيضا، مثلنا؟! لماذا يطلب رأي الملوك والأمراء العرب في مصير فلسطين ولا يطلب رأي المقاتلين العرب؟ لكني فكرت في أمر آخر: قد يكون تبديد المتطوعين سهلا، لكن جمعهم والعبور بهم إلى فلسطين، وتأسيس

www.alkottob.com

مجموعات مقاتلة، قد يكون فيما بعد مستحيلا! لن نبحث فقط عن سلامتنا على الخطوط الحرجة كمجموعات مسلحة، بل سنمشي على الخطوط الحرجة بين المفتي وأمير شرق الأردن ورجال الانقلاب في العراق الذين أفقدونا سند المتطوعين.

صدق تقديرنا. طوق الإنكليز قباطية. وطارت فوقها الطائرات. فهرع المقاتلون الفلسطينيون إلينا. ونقل لنا أهالي طوباس الماء. كنا نحتاج القرار السريع والشجاعة لننسحب من قباطية مجموعة إثر مجموعة ونحن نكاد نلامس الدبابات الإنكليزية. وصلنا إلى رابا بعد منتصف الليل. وهرع أهل القرى إلينا في رابا. رأينا منها الطائرات فوق قباطية والإنكليز يتقدمون إليها. لم يبال الإنكليز حتى بالحرج الذي يسببونه لأصحابهم لو استطاعوا ذبحنا في قباطية!

أستطيع أن أقول لك، دون مبالغة، قامت فلسطين عندما شاع خبر تطويقنا. خفّ أهل القرى إلينا فوجدت نفسي وسط مرج في الربيع! طوق الناس الإنكليز وصاروا بيننا وبينهم. وفي المدن هبّ الناس ليحتجوا على غدر الإنكليز. هكذا بان المكتوب من عنوانه!

خلعت فلاحة طوقها الفضي وقدمته لي: "هذا من فلسطين لأم الأولاد. وقل لها كثّر خيركم رفعتم راسنا"! كتمت دموعي ولحقت رفاقي. عندما ابتعدنا قال لي رجل من الفلسطينيين المسلحين الذين رافقونا: أعدم الإنكليز ابن هذه المرأة. عمره ستة عشرة سنة، لكن القضاة قرروا أن عمره أكثر من ذلك! أصبح لعقد المرأة قيمة أكثر مما يفترضه جماله. هكذا أعود من فلسطين، يامنور، بذكرى ثمينة.

كتب بهاء في مفكرته بعد صفحات مشطوبة: لا ترد الألم عنا حماسة أهل القرى والمجاهدين الذين هرعوا إلينا ليحمونا من الغدر! احتاط القاوقجي كعسكري خبير وصلته أخبار التطويق الإنكليزي. فتسللنا في مهارة. وفجعناهم. فلم يجدونا حيث توقعونا! لكني أحدثك عن الألم الآخر! ألم الروح! سألت نفسي أول مرة: هل كنا نتوقع ألا نخرج من فلسطين إلا بعد انتصار العرب على الانتداب؟! أم أتينا كي يفرض السياسيون حلا يحقق بعض الانتصار؟

سهرنا الليل تحت سماء باردة. ركزت قواي في سمعي. ذاك حفيف أغصان الزيتون! بدت لي النجوم باردة. كم تختلف سماء الشتاء عن سماء الصيف! لكن الصفاء غمر روحي رغم حزن لا أعرف كيف أداريه. في هذه البلاد أحببت منور، لكني لا أستطيع أن أزور حيفا وأبحث عن عريشة العنب التي مدت منور ذراعيها إليها. مع ذلك هل أحببت جنين وبلعا وقرى نابلس أقل مما أحببت طبرية وحيفا؟

www.alkottob.com

نثبّت صورة الأرض في البرهة التي نعرفها فيها. فتظل حاضرة وتهب مابعدها السحر والحزن. هنا هتفت عندما أسقطنا طائرة، وهنا بكيت على المرداوي. هكذا دفعت ثمن الحب لهذه البلاد فلم أشعر بأني غريب فيها!

حملت لنا نساء القرى الزيتون والبيض. وقرر رجالها أن يحرسونا. إلى تلك القرى كان يدخل الجنود الإنكليز ويهينون أهلها ويكسرون أبواب بيوتها، ويخلطون الزيت بالبرغل والطحين والدبس. أمام أهلها جعلنا اولئك الجنود يهربون من القرى، وأصبنا طائراتهم. نتركهم الآن في أمانة الملوك العرب!

عرفنا أن اللجنة العربية العليا احتجت على تطويقنا. وأن برقيات أرسلت إلى المندوب السامي تحمّله مسؤولية حصارنا في جبال قباطية وتطويق قرية رابا. وأن مظاهرة احتجاج مشت في جنين. نعم، هرع الرجال من قرى نابلس مع نسائهم وأولادهم لنجدتنا. وتوافد في شرق الأردن الفرسان إلى الضفة الشرقية.

سجل بهاء في دفتره يوم الخامس والعشرين من تشرين الأول ورسم دائرة حوله كتب تحتها: تدفق الناس إلينا مسلحين وغير مسلحين، مشاة وعلى الدواب وبالسيارات! وسجل يوم السادس والعشرين من تشرين الأول ورسم دائرة كتب تحتها: احتجت الوفود إلى موظفي الانتداب، ومع ذلك رصد الطيران مجموعاتنا التي تنسحب. وحاول الإنكليز أن يسدوا طريقنا. يصرون على ذبحنا لتحرّم مجموعات عربية مسلحة أن تجتاز النهر، وليشعر الفلسطينيون بأنهم مقطوعون عن العرب!

روانا أهل طوباس قبل العبور، فمتى نذوق مرة أخرى ماء فلسطين؟ هل تعرفين، يامنور، قيمة أن تسألنا النساء "مين ماشربش، مين ماأكلش"؟ ذلك أثمن من الرصاص أحيانا.

رأيت فرسان العشائر ينتظروننا على ضفة نهر الشريعة فدمعت عيناي. اختلط بهم المسلحون الفلسطينيون الذين رافقونا. على عرض النهر وقف الرجال مع خيولهم يحمون عبورنا. هل هذا انسحاب أم تكريم؟ انتفض قلبي ونحن نجتاز النهر. رأيت فرسان العشائر الأردنية على الضفة الأخرى جاهزين لحمايتنا. الماء مرتفع لأن الإنكليز واليهود أفلتوه علينا! لاأثر للفجر بعد لكني ألمحه في الماء. يدفعني تدفق النهر، لكننا نعبره مجموعة بعد أخرى. لم أشعر ببرد ليل تشرين وبرد الماء إلا عندما صرت على الضفة الشرقية. عندئذ كبحت رعشتي ودموعي. تقدمنا إلى منازل الأمير صالح الفرسان الأردنيون. ولمحنا الإنكليز من ضفة فلسطين. نجونا بالمسلحين الفلسطينيين، بأهل القرى وغضب المدن التي أبرقت

www.alkottob.com

إلى المندوب السامي غاضبة من حصارنا وملاحقتنا! نجونا برجال العشائر الأردنية الذين حمونا وحرسونا! نجونا بلهفة الناس! ولأننا كنا حذرين. كم يختلف قدومنا عن انسحابنا! أتينا مجموعات، ونعود كجيش! أتينا متطوعين يرتبط كل منهم بزعيم، ونعود والواحد منا أعز على الآخر من أخيه!

في مضارب العشائر جففنا ملابسنا على النار، وشربنا الشاي. لم أذق في حياتي أطيب منه! لكني شعرت بوجع وأنا أرى بيسان مقابلنا. لو أستطيع أن أنفرد بنفسي لأبكي!

خلعت الثياب العربية التي لبستها عندما جففت ملابسي وعدت إلى ثيابي. حذائي مهترئ من المشي في الجبال والتلال. بنطالي مهترئ أيضا.

في المساء أتى سليمان باشا السودي وعادل العظمة إلى منازل الشيخ صالح. عانقني السودي. نعم، عبر رتل مصفح إلى عمان ولاشك في أنه سيطاردكم! طلب الإنكليز من الأمير وطلب الأمير منا أن نتفرق كأفراد ونخرج من شرقي الأردن. سننتقل إلى كفر أسد في منطقة إربد، وسيكلم سليمان باشا السودي صاحبها ناجي باشا عزام في استقبالنا. كان واثقا من استقبال ناجي باشا لنا في كفر أسد. قال لي السودي: لك عندي ملابس أخرى في سما! وألح علي لأنزل عنده ريثما نتدبر عودتنا. قلت له لن نتبدد ياسليمان باشا بسرعة! أطرق. قال لي: أعرف.. يركّز القدر أحيانا أنواع الفراق في مقطع صغير جدا من الزمن! وفهمته. فراق فلسطين، فراق مشروعنا فيها، فراق المجموعة التي عاشت معا أشهرا عظيمة وغنية بالعواطف والخطر. جمعنا ياسليمان باشا، على الأقل، دفن أصحابنا! وهانحن نحضّر أنفسنا لتوزيع ماتركوه لأسرهم! خاتم هذا، وكوفية ذاك، وعلبة سيكارات من المعدن! وهانحن نخجل من الفرح بأننا لم نقتل! ونعزي أنفسنا بأن سلامتنا ستفيدنا في العودة إلى فلسطين يوم تطلبنا مرة أخرى! نعم ياأخي بهاء، صار أهل الشام ينامون مع أسلحتهم، ليخفّوا إلى هذا الأخ أو إلى ذاك! هذا مافعله بنا التقسيم! رحم الله زمان الدولة العثمانية!

كتب بهاء في أوراقه: نستند إلى تقاليد الضيافة والحماية في منازل العشائر! هؤلاء أصحاب البلاد، لذلك يرون أن القرار لهم. فهل تستطيع هذه المروءة أن تفرض بقاءنا في شرق الأردن؟ لا! عرفت أن الأمير عبد الله بلغ القاوقجي: لاتعتمد على الشيوخ والزعماء! الاقتراح أن تذهب إلى العراق!

هكذا رحلنا من فلسطين التي يحكمها الإنكليز إلى شرق الأردن الذي يحكمه الإنكليز! في شرق الأردن قائد الجيش أبو حنيك. لذلك قرر لنا أن نرحل عن

www.alkottob.com

الأردن متفرقين، كل منا إلى بلده! لكن لا العشائر ولا ضباط الجيش العرب يريدون لنا ذلك. يسندنا الناس. لذلك خطر للقاوقجي أنه يستطيع أن يشعل ثورة على الأمير عبد الله ليحرر شرق الأردن من الإنكليز. ثنيناه عن ذلك. لا يرسم المشروع بالغضب!

في ديوان السودي في سما سمع بهاء بعض الأسرار التي لن تنشر إلا بعد نصف قرن: اتصلت الوكالة اليهودية بديوان الأمير عبد الله واقترحت تدخله لفك الإضراب الذي أضر باليهود. فدعا الأمير اللجنة العربية العليا إلى عمان. اشترطت اللجنة وقف الهجرة أولا. فبين الأمير أن الشرط المسبق غير منطقي، واستمال النشاشيبي. بعد معركة وادي عرعرة وصلت رسالة من الأمير عبد الله إلى اللجنة العربية تعلمها أن الملوك اقترحوا التوسط لحل مشكلة فلسطين حلا يناسب أماني العرب. وفي السادس من أيلول كتب للحاج أمين رسالة عن ضرورة ألا يتمسك بالأفكار التي تنفخ بيننا "الآمال التي لا ترتكز على الواقع... فسعينا وراء الخيال.. هو أصل أخطائنا ومصائبنا"!

سرق بهاء دقائق ليكتب في دفتره إشارات سيفككها فيما بعد: تأملت الأمير طلال الذي بلّغ القاوقجي رسالة شفوية من أبيه. رتبت عودة القاوقجي إلى العراق باتفاق الأمير عبد الله والملك غازي والإنكليز. عزاه أن أصدقاءه الضباط هناك، ولو كان بكر صدقي وحكمت سليمان حاكمين في العراق! يجب أن نفترق! سألته: إلى العراق، بعد انقلاب بكر صدقي على حكومة ياسين الهاشمي؟! قال: لامفر! سيرافقه في الانسحاب مستشار الملك، وشيوخ القبائل، ومجموعة من المتطوعين العراقيين والسوريين، كيلا يقصفه الإنكليز!

بقيت أياما في كفر أسد مع مجموعة من أهل الشام، حتى عبر القاوقجي الحدود إلى العراق مع مرافقيه. رجع أهل الشام إلى مدنهم، ونزلت عند الروسان. أخبرني سليمان باشا أن بعض العائدين اعتقلوا في درعا، وحجزني عنده.

فكرت في القاوقجي. وبدا لي أن سبب التماسك الروحي في أمثاله ثقتهم بأنهم، بما أنجزوه، يملكون الحصانة. قد يرتب اغتيالهم لكنهم لن يعتقلوا كما يعتقل رجل عادي. فالناس يحاسبون من يمسهم! قدّم له العراق كمنفى لكن هذه الهدية مغلفة بالتكريم! وسيقبلها، فلا مكان يذهب إليه! في سوريا محكوم بالإعدام منذ ترك الجيش الفرنسي والتحق بالثورة السورية. ومن شرق الأردن مطرود. فكرت في أن الرجل الذي لا طعم ولا رائحة له يمكن أن يتجول دون أن توقفه حتى الحدود الجديدة بين بلادنا. أما نحن الذين نهبها روحنا فبلادنا تحتنا كالنار،

www.alkottob.com

ولامكان نلجأ إليه! فهل دلّني حدسي إلى التنكر باسم غير اسمي؟ لو قتلت لما استطاع غير رئيس مجموعتي أن يدلّ إلي! تنكرت كي أستطيع أن أعبر الحدود التي وضعوها بين بيروت ودمشق وشرق الأردن وفلسطين! يؤلمني أن أتذكر أني كنت أعبرها في أيام الدولة العثمانية دون أن يستوقفني غير مراقب القطار!

لماذا لم أهرع إليك، يامنور؟ كنت أحتاج أن أطمئن على القاوقجي وأصحابي معه. وكنت أحتاج أن أعود إلى نفسي!

هكذا جمعتنا فلسطين من أنحاء بلاد الشام. وتركنا فيها شهداءنا. انتصرنا فيها على الجنرال ديل. وانتصر أمراء العرب علينا!

سيعرف بهاء فيما بعد أن القاوقجي استقبل في بغداد كبطل. وأن الضباط زاروه، وهنأوه وعزوه. وأن حكومة بكر صدقي نفته إلى كركوك!

كتب بهاء في آخر ورقات دفتره: مشيت إلى تل شهاب. لكني لم أجسر على زيارة بيت عرفان. ماذا أقول لأهله؟ تركته هناك ولم أحضر حتى دفنه؟ جلست قرب الشلالات، دون زاد، وأنا أرتجف من البرد والحزن. وهاأنا أطوي دفتري في جيبي كما طوي مشروعنا. قدّر عادل العظمة ورجال الدولة العربية أن إضراب سورية سيوصل إلى ثورة، لذلك اتصل بياسين الهاشمي في بغداد فوافق على تأمين السلاح لها. اتصل بالقاوقجي، وبسلطان باشا الأطرش. لكن الفرنسيين فاوضوا السوريين. وعندئذ طلب الحاج أمين الحسيني أن ترسل إلى فلسطين الأسلحة التي اشتريت للثورة المتوقعة في سورية. وطلب فوزي القاوقجي المتطوعين العرب. كان الملوك العرب يتوسطون لإطفاء التمرد. وكان نوري السعيد قد حضر إلى فلسطين. ولذلك سافر عادل العظمة إلى القدس ليثبّت الثورة المسلحة. هكذا أبعد المتطوعون العرب المصالحة أشهرا. وليت المصالحة تكون في المشروع الذي اقترحه نبيه العظمة في رسالته من معتقله في الصرفند إلى عبد العزيز آل سعود! بيّن نبيه له أن فلسطين ستصبح دولة يهودية وستضيع القدس، وسيتسرب نفوذ اليهود إلى الجزيرة العربية بما لديهم من "نفوذ وتنظيم أعجزا جميع دول الأرض". إذا لم يقابلهم مشروع عربي. لذلك يجب التأثير على بريطانيا من موقع القوة، بما لدى العرب من مصالحها كأنابيب النفط والمواصلات. لمنع الهجرة اليهودية ومنع نقل الأراضي إلى اليهود ولتأسيس حكومة وطنية.

نزل بهاء في بيت متطوع من أصحابه في درعا. يجب أن يرتب روحه قبل أن يعود إلى دمشق! يجب أن يجيب على التساؤل هل انتصر أم هزم! قال لنفسه: حكايتنا طويلة، ومازلنا في أولها! وانصرف إلى تأمل الناس. راقب لهفة

www.alkottob.com

أهل البلد الذين استقبلوا صديقه. ذبحت الخرفان ومدت المناسف، وانعقد الرقص وانطلقت الأهازيج. كأنهم يجيبون على تساؤله فيقولون: يعطيكم العافية! تداوي العشيرة الجروح، ولكن ياللأسى، لا عشائر في دمشق!

في ذلك المساء، كتب في مفكرته: نستطيع الآن أن نتذكر المحن التي غلبناها. نستطيع أن نتأمل ما أصبح ماضيا.

ركبت عربة من قرية إلى قرية حتى الكسوة. ومنها ركبت سيارة إلى دمشق. هاأنا أحمل دفتري في جيبي بنفسي. وكنت قدرت أن آخرين سيوصلونه إليك، يامنور!

لماذا ردد في الطريق إلى دمشق ما سمعه من أحد أصحابه في ثورة 1925؟ ألأن المنايا الآن وراء الظهر؟!

ياحاضرا سوق المنايا عيبا على اللّي مايبيع

www.alkottob.com

قصد بهاء القدس في إجازة سريعة، خلال وجوده في فلسطين، ليلتقي بسعيد العاص. اكتشف في الممرات التي عبرها بلادا يحكمها الفلسطينيون ويخشاها الإنكليز. هل يوهمه ذلك بضعف المحتلين؟ أم يصارح نفسه: لم يجتاحوا القرى كلها بعد؟ زار المسجد الأقصى، وجلس في ساحة الحرم ساكنا، مستمتعا بشجر السرو العتيق. وخيل إليه أنه يصغي إلى حفيف الزمان. يصعب أن ينقل لمنور ما يشعر به! للعصور هيبة وللمقدس سحر! كأنما يمتزج في الصلوات نداء إنساني يجتاز آلاف السنوات! في المسجد الأقصى التقى بهاء بمن نقله إلى سعيد العاص.

مرة أخرى نجتمع في الثورة، ياسعيد! نحن "عصابات من الأشقياء"؟ فهل نقول بل قطاع الطرق هم السادة الذين قرّروا من يأخذ سورية ولبنان ومن يأخذ فلسطين! يذهلني ياسعيد، أنهم يحترمون بارلمانات بلادهم، ولا يعترفون بهيئة شرعية عندنا! يدهشك؟ هؤلاء محتلون، لايؤمنون بأننا بشر مثلهم!

وصلني كتابك عن الثورة السورية، ياسعيد. لا تكشف به فقط لمن اشترك فيها كيف حدثت ولماذا أطفئت، ليتعلموا منها. بل تثبّت الحقائق لمن لن يعرفها إلا من الحديث عنها. لأبنائنا! اتهمنا نحن أيضا بأننا "أشقياء"، كما اتهم بذلك القسّام. أنت رسمت رجالها وعملها. أعجبني ما كتبته عن القاوقجي، ياسعيد. أنصفته دون أن تغمض عينيك عن طموحه. تساءلت هل ستحميه شهادتك مما سيتهم به أو ماسيخطئ فيه؟

جلسا تحت شجرة زيتون تتسع لخمسة رجال يستندون إليها. وتأمله بهاء. في برهة الصمت تجول في جانب الثورة الذي لا يمكن أن تسجله الوثيقة. الحب والقلق، والعتب والأمل. كان سعيد ببنطال يوشك أن يتمزق. فأخفى بهاء دمعته. يتفادى سعيد أن يثقل على الفلاحين حتى بطعامه! لم ينس أن يسجل في كتابه حاجة الثوار إلى دعم الفلاحين وتموينهم، وضيق حال اولئك الفلاحين. ياسعيد،

www.alkottob.com

وضعت إصبعك على نقطة مركزية عندما أشرت إلى خطر المال المزدوج. يفقدنا الفلاحين، سندنا، حيث تفرض الأتاوات عليهم. وينشر الفساد حيث يوظف في تأمين الولاء لشخص! لكن يجرح الفلاحين الفلسطينيين ألا نقبل طعامهم وماءهم! لانطلبه منهم، بل تحمله النساء إلينا!

تأمله بهاء في اللقاء الموجز بينهما. كم يتمنى أن يستعيد معه تفاصيل الليل الذي كانا ينصتان فيه إلى الأصوات، وبرهة الراحة العذبة، وبرهة النجاة العظيمة! لكن من أين لنا الوقت للقاء الأصدقاء!

ابتسم بهاء وهو يستعيد تهمة الإنكليز: "الأشقياء". فالمشتركون في الثورة ضباط أتوا مع القاوقجي من العراق. عسكريون من ضباط الدولة العثمانية، والدولة العربية. سعيد منهم. من حي الحاضر في حماة. عاش في عمارة أصيلة. درس في الرشدية العسكرية في دمشق. وفي الكلية الحربية في استنبول. اشترك في حروب الدولة في البلقان. أسره اليونان وأفلت منهم. أسس مع عزيز علي المصري وأمين لطفي الحافظ جمعية العهد. حوكم في المحكمة العرفية في عاليه وحكم عليه بالإعدام، ثم استبدل الحكم عليه بالسجن. فقد رفيقيه، الضابط سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ، اللذين أعدما في ساحة البرج في بيروت. حارب في معركة جناق قلعة. وهكذا عرف حرب العصابات والحرب النظامية. وتنقل بتلك الخبرة كضابط في جيش الدولة العربية من الزبداني إلى جسر الشغور. واشترك في ثورة القسّام في سسورية. ثم ترك سورية إلى الأردن. هل أخطأت، ياسعيد، في دفاعك مع جيش ابن الحسين ضد ابن سعود في سنة 1923؟ أنا لن أشترك في حرب مع ملك عربي ضد آخر! أعادتنا الثورة السورية إلى سكتنا! وضعت خبرتك في الثورة السورية وكسبت منها أحكامك: دون تنظيم لا تنجح ثورة! يجب أن نخلع الولاء لزعيم لنضع الولاء للوطن!

تصفح بهاء ما أحبه في سعيد العاص. وأشبع منه عينيه. هل سيلتقي به مرة أخرى، وأين؟ يومض السؤال كالبرق في خاطره، ويطويه. واجه سعيد العاص حملة غاملان في جبل العرب. كان قائد الجبهة الشمالية في الثورة السورية. واشترك في آخر معاركها مع عز الدين الجزائري في الغوطة سنة 1927. هناك عرفه بهاء. نعم، في عمان أتيح لي التفكير في أسباب الثورة السورية، وأسباب الثورات، وفي بنيتنا نفسها! كان سعيد العاص ممن اجتمعوا في سقبا في غوطة دمشق في الخامس والعشرين من تشرين الثاني سنة 1925 ورأوا ضرورة حكومة وطنية، وقيادة للثورة مرتبطة بالقيادة العامة، ومبدأ إعدام الجواسيس، ومنع

www.alkottob.com

الأعمال الفردية. المشروع الذي بقي طموحا! لابد من ثورة مسلحة كي ننجو! ولكن لابد لها من تنظيم! هل فات بهاء أن من يعمل مع رجال كعزيز علي المصري وطه الهاشمي وفوزي القاوقجي يضع ضوابط رفيعة؟ مع ذلك كان سعيد العاص جذابا ومتواضعا. جمع الفلاحين وحاورهم، فكان بين قطبين يكمل أحدهما الآخر: عادل أرسلان، رشيد طليع، دروزة، ياسين الهاشمي، والفلاحين. وهاهو يقدم خبرته لثورة فلسطين. ويترأس ثوارا من بلاد الشام! أعجبتني كلمتك ياسعيد: من لايؤتمن على أموال الثورة لايؤتمن على أرواح المتطوعين! لم يقصر الناس في التضحية أبدا، لكنهم يحتاجون زعماء نظيفي اليد!

وصلت إلى بهاء فيما بعد أخبار معركة سعيد العاص مع الإنكليز في صفد. أحرقت مصفحتان وأسقطت طائرة في أيلول. وفي أيلول كان العاص في معركة مع الإنكليز على طريق القدس _ الخليل. والمهم أن العاص نظّم مجموعات من الثوار الفلسطينيين. يدرب الإنكليز اليهود، فلندرب نحن إخوتنا العرب!

سيذكر بهاء زمنا طويلا حزن الرجل الذي نقل إليه خبر مقتل سعيد العاص في السابع من تشرين الثاني. انتفض بهاء، عندما انتبه إلى أثر قتل القائد في رجاله. ألذلك يصوّب العدو دائما على الرأس؟ يجب أن يقفز رجل آخر دائما ليأخذ مكان القائد القتيل! ولكن كيف نربي مجموعة يستطيع من فيها أن يأخذ مكان القائد ويكون مثله، موهوبا بدقة الصائغ، وسعة النظرة، وكبح صراخ القلب؟ كان مقتل سعيد العاص نقطة أخيرة للمتطوعين العرب في فلسطين، بدأت بعدها جولة اللجان الملكية!

كتب بهاء في دفتره: في تشرين تشقّر الدوالي في فلسطين، وترين أشجارا ذهبية. يعرف جمال فلسطين، يامنور، من يتجول فيها. تجمع ألوان الصخور ونضرة الأعشاب وخضرة الزيتون القاتمة، وخضرة الخرنوب والصبار، وأعشابا لم أعرف مثلها يتناولها الفلاحون ويقولون لي كلها، طيبة! رصد الإنكليز سعيد العاص، وأرسلوا إليه قوات، وطاردوه بالطائرات. فأبعد ثواره ليؤمن نجاتهم وبقي مع مجموعة صغيرة. في هذه الأحوال نقصد المرتفعات! ولكن سعيد العاص قتل. هرب به رفاقه ليدفنوه في قرية الخضر على مشارف القدس. وجرح عبد القادر الحسيني.

وقفت مجموعة من الثوار العرب بملابس جيش الدولة العربية. دروز من جبل العرب ومن لبنان. أردنيون من إربد وعجلون وعمان. سوريون من حماة وحمص ودمشق. فلسطينيون من القدس ونابلس والخليل وصفد. سددوا بنادقهم

www.alkottob.com

نحو السماء وأطلقوها في برهة واحدة. تحية للعسكري الشهيد! هل تخيل بهاء ذلك أم حدث ذلك حقا في محيط القدس؟ مسح بهاء دموعه: لكني عاتب عليك، ياسعيد! نجوت من البلقان ومن جناق قلعة، نجوت من الثورة السورية، فلماذا تقتل الآن! ألا تعرف أننا سنعود إلى فلسطين؟

تابع بهاء أخبار جنازة العاص. نعم، مهيبة. حمله أهل بيت جالا وبيت لحم، ومن استطاع أن يأتي من القرى والمدن الأخرى. استقدمتهم حرارة الحب، دون التنظيم الذي كان يستهوي سعيدا! كان الحب على عرض الفلاة في قرية الخضر!

قال رجل ملثم بكوفية للمجموعة التي أحاطت به: كان عسكريا ماهرا. كان إنسانا موهوبا بالاستماع والصمت. إذا تكلم سدد كلماته إلى مكانها. كان يتفادى الصغائر لكنه لايتساهل فيها، ويبين خطرها. وكان يقدّر أولا ضرورة التنظيم وخطر الفوضى. تأوه الرجل الملثم. آه، يقول عن إنسان كان أمس حيا: كان! فكم الفاصل واه بين الحياة والموت!

تساءل بهاء من كان ذلك الملثم الذي قام بواجب التأبين لسعيد العاص مع مجموعته المسلحة؟ أقام بهاء بينه وبين نفسه تأبينا آخر لسعيد العاص. سقطت ثمرة زمن واسع كانت فيه دولة شرقية، وكليات عسكرية، ومعاهد، ومحطات وقطارات، وفيه محاور صراع غير هذه! سقطت حضارة! تغيرت الأحلام والخرائط! لكن القسّام وسعيد العاص سجلا أن بلاد الشام مازالت متصلة في وجداننا! ما تزال هي خريطتنا!

عبر بهاء بخياله الطرقات التي مشى فيها خالد آغا، من أولها حتى ميسلون. كان سعيد العاص ذا مشروع آخر. لكنهما التقيا في نهاية الدولة العربية. تابع سعيد العاص مشروع رجال أيار، مشروع جمعية العهد، والثورة السورية. فهل تكون نهاية ذلك المشروع في فلسطين؟ بل نبدأ من فلسطين بداية أخرى!

فلتقو نفسك بالحزم، يابهاء! أوقد تصميمك بالغضب! متى أخمد القتل والقهر الشوق إلى الحرية! لكنك لن تستطيع أن تمسح وجعك! تذكر بهاء مقتل عز الدين الجزائري، وأحمد مريود. ما كان ليشعر بأن موتهما اكتمل لو بقي سعيد العاص حيا! جلس في العتمة، وتحدث مع منور كأنه يلتمس منها أن تعزيه. قتلت بسرعة، ياسعيد!

قريبا منه غنى متطوع من المجموعة التي تعود إلى الشام، واستمع بهاء إليه. هل يبكي بطريقته على سعيد العاص، أم على الشهداء العرب كلهم؟ يبكي على بلاد مظلومة!

www.alkottob.com

ياعسكري ياللي قطعت الميّه
ماأدري عزب ولاّ وراك بنيّه
ياعسكري ياللي قطعت الوادي
ماأدري عزب ولاّ وراك اولادي
في ايدي تفاحة وفي ايدك تفاحة
ومن السفربرلك ماشفنا الراحة

سمع بهاء من سليمان باشا السودي أن سيدات القدس وعمان يجمعن تبرعات ليشترين بيتا لسعاد، ابنة سعيد العاص. قدّر لهذا الرجل أن يعيش في العوز لأنه تفادى أن يهب ولاءه لأمير أو زعيم! قدّر له أن يفقد زوجته، فحرم من الحوار الذي أستطيع أن أهون به على روحي المرارة، يامنور! هل تسمعينني، يامنور، كما أسمعك؟ كاد بهاء خلال حديثه يتوهم أن منور تصغي إليه، وتراءت له واقفة أمام النافذة. ألذلك حلم العرب ببساط الريح، وخاتم لبيك! كان يحتاجها برهة فقط، متحررا من الخوف عليها. كفى، فلينصرف إلى الفجر.

www.alkottob.com

في عكا وصل عبد الرحيم في ذلك اليوم إلى البيت مكدر العينين! لم تطلب منه سعاد أن يروي لها ماحدث. فليهدأ أولا ولتهدئ هي أيضا قلبها! انثنى على نفسه كطفل، وسمعت لأول مرة صوت بكائه: استشهد سعيد العاص، ياسعاد! قتله الإنكليز! سمعت في صوته المرارة والعجز! وفهمته. يجب أن تعيش المُثُل كأنها عصية على الموت!

استعادت ما رواه لها عبد الرحيم بعد لقائه به في حيفا: دون معطف في عز برد "كوانين"، قميصه مهترئ، وبنطاله ممزق! أخذت نسخا من كتابه عن الثورة السورية ودفعت له ثمنها. كيف أستطيع أن أساعد هذا الرجل الذي لام أمامي الزعماء الذين يتمتعون بالمعونات المخصصة للثوار المنفيين، ونسيب البكري يبيع مسدسه ليقتات بثمنه؟!

انصرف عبد الرحيم مسرعا. كأنه أتى ليبكي في البيت! تجولت سعاد كالسجينة في الغرف. قتلوا العاص وقهرونا بموته! عادت سعاد إلى أيام الثورة السورية، وأيام طبرية، إلى خالها قدري وأخيها سعيد. من هناك بدأ هذا الموت والعذاب! بدا لها أنها تضيق حتى باللون الرمادي. فلبست ثياب الحداد السوداء. لن تتوقع عودة عبد الرحيم هذه الليلة! فلتستسلم للحزن ولتستنفد دموعها قبل أن تقيم العزاء للمحبوب! أغلقت على نفسها غرفتها وغطت وجهها بالوسادة، وبكت.

وصلت شفيقة قبل العزاء. وجلست مع سعاد في صدر البيت. هذا مأتم فلسطيني، وليس عصرية صامتة على طريقة أهل دمشق! فلتندب كل امرأة سعيد العاص كما تشتهي! وليندبن فيه كل من فقدنه! يانساء فلسطين المعروفات باختراع الشعر لتزيين المقتول، صفنه كما تشتهين، وصفن أحزانكن عليه! ذكرنني بأخي سعيد، سميّه، كما تتذكرن أحباءكن المقتولين! آه يانساء عكا، لاأبكي على مجاهد عظيم، بل على إنسان دمث ومستقيم! على رجل كان يستطيع أن يستقر على القمم التي رفعته إليها كفاءته ووظائفه. لكن أخلاقه لم تسمح له بأن يتجاهل

www.alkottob.com

هموم البلاد! ابكينه معي يانساء عكا لأنه نعى امرأته الشابة التي ماتت من الفقر، نعي المحب. أفي عمر الشباب تمرض بروماتيزم في القلب؟! ابكينه لأنه بكى عليها أمام الناس وأعلن أنها كالنساء الشهيدات، زوجات الوطنيين! ياويلي عليك ياسعيد، وأنت تذوق حزن أب على طفلته اليتيمة المريضة، سميّتي سعاد، وأنت لاتملك لها كأي فقير ثمن الدواء والغذاء! ومن هذا الفقير الحزين، يانساء عكا؟ هذا سعيد العاص، الضابط الذي تخرج في استنبول، رجل جمعية العهد، رئيس شعبة التجنيد العام في أيام الدولة العربية في دمشق، المسؤول عن منطقة الزبداني، المقاتل في الثورة السورية من جبال العلويين حتى جبل العرب والغوطة والقلمون ولبنان! نام هذا الرجل، ابن معاهد استنبول، على الأرض في أيام الثورة السورية، ومشى كالمشاة لأنه أعار فرسه لمن لايتحمل المشي! يتحمل الرجل الكبير فقط المشقة ولو كان ابن العز! مسحت سعاد دموعها، وكادت شفيقة الجالسة قربها تظن أنها تعني أخاها سعيدا! ألم يكن تحت ملابس الفلاح التي قتل فيها قميص الحرير؟ ومن كان مع العاص؟ نزيه المؤيد العظم، الأمير عز الدين الجزائري، سلطان باشا الأطرش، عادل أرسلان! لكن من فهم أكثر منه أنه دون الناس لاتمكن ثورة؟! أشارت إلى كتابه الموضوع على الطاولة أمامها، ورفعته بيدها!

قالت صاحبات سعاد، فيما بعد، إنها أفضل من نعاه! وصفن كيف جلست في صدر البيت والغطاء الأبيض على رأسها، في ثياب الحداد السوداء! روت للنساء أنها صادفته مرة واحدة، لن تنساها. يوم أتى من شرق الأردن ليحضر في نابلس اجتماع التضامن مع دمشق التي أضربت ستين يوما واشتبكت مع الفرنسيين. دعاه عبد الرحيم إلى الغداء وكنت معه. لو تعرفن كيف كان يأكل خفيفا، رشيقا، كالعصفور! لم يهجم على الطعام كما يهجم الجائعون، ولم يغص فيه حتى كمّيه كما يغوص من يطلب كسب لقمة من سفرة غريب! تعرفن الرجل، يانساء عكا، من طعامه! ومن حظي أني رأيت ذلك الرجل ينكشف كالقمر من تحت الضباب!

قالت لها شفيقة، فيما بعد، أقمت مجلس عزاء وهذا واجب علينا، ولكن هل كان اللائق أن تخطبي في النساء كأنك زعيم حزب؟ فهمت سعاد أن ذلك لم يكن لوما. لأن سعاد لم تقل كلمة لم تكن مبللة بدموعها. ولأن حقها أن تنعي من رافقه أخوها ولو وقتا قصيرا في الثورة السورية. تحركت سعاد مرات إلى اليمين واليسار كما تتحرك الثكالى معبرات عن وجع الروح بحركة الجسم. حكت عن هذا السوري

www.alkottob.com

الذي تنقل في أرض العرب التي قسّمها الأوربيون. وجمعت كل ما عرفته عن سعيد العاص من أخيها سعيد ومن بهاء وقدري. أحاط كل واحد من هؤلاء بجانب من رجل متسع. روى لها قدري أنه رآه في استنبول كضابط متخرج متفوق في الكلية الحربية. كان من أصحاب سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ وعزيز علي المصري. نفذ مهماته كضابط عثماني غيور على الدولة، وكجامع خبرة لمشروع خمّن أن الدولة التي يهددها الغربيون بالتقسيم ستقع فيه. عاش السنوات الصعبة، سنوات خلع السلطان وبداية تقسيم الدولة العثمانية وتنفيذ مشروع الدونمة في فلسطين، وسنوات أول صدام عسكري حديث بيننا وبين اوربا. ياقلبي عليه! فصله الاتحاديون من دورة أركان الحرب، ولولا الحاجة إليه في سنة 1913 لما جعلوه مسؤولا عن المهمات الحربية في دمشق، فكسب المعرفة التي أفاد منها للثورة. لكنهم أبعدوه عن دمشق ورموه وقت الحرب في "جناق قلعة". ومن كسب النصر هناك على الإنكليز؟ الضباط العرب! فهل كان يعرف هو الذي نجا منهم هناك أنهم سيقتلونه هنا؟ كافأه الدونمة على بطولته يومذاك، فاعتقلوه ورموه في سجن عاليه! ويلي عليه! رأى في سجن عاليه أصحابه، زهرة شباب العرب. استبدل حكم الإعدام عليه بالسجن، لكن أصحابه في جمعية العهد أعدموا. كيف تحمل إعدام صديقيه سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ؟ كيف تلقى شنق شكري العسلي الذي كشف تسلل الصهيونية إلى فلسطين؟ لابد أنه كتم حزنه بالصبر والأمل وهو سجين وحرّ!

هل كانت سعاد تسرد قصة أهلها وبلادها؟ هل كانت تتجول في الزمن الذي عبرته في دمشق وبيروت، ولمحته في حيفا، وعاشته في طبرية وصفد وعكا؟ كانت ترثي بلادها المظلومة! وكانت تروي للنساء ما تعرفه ولا يعرفنه. وكأنها رسخت لنفسها هي الباكية الحزينة مكان زعيمة! فقالت لها شفيقة فيما بعد: لو يستريح عبد الرحيم قليلا في البيت وتأخذي مكانه! فردت سعاد: وهل أخذت أنت ياخالتي مكان قدري؟!

يوم قرأت كتاب سعيد العاص، تذكرت ما رواه بهاء لها عن الثورة السورية، وفهمت ما أخفاه عنها. فلماذا لا ترمي الحزن الذي لم يستطع سعيد العاص أن يرميه من قلبه؟ كرجل متزن وكقائد لم يكن ليصرخ. فلتصرخ سعاد عنه! ويلي عليه، ألم يفتت قلبه صغر الزعماء الذين انشغلوا بالخلاف بين النبك ودير عطية وحشدوا هناك قوتهم، وتركوه دونها في معركة مع جيش! فكيف حمل قلبه، وكيف حمل أمله حتى وصل إلى القدس؟ اختار القتال في قلب فلسطين! لكن ياويلي

www.alkottob.com

عليه! وضع دمه على كفه متنقلا من بلد إلى آخر من بلاد العرب، يسأل من يحتاج مكافحا، والعرب لم يلبسوه قميصا بدلا من قميصه الممزق، ولم ينقذوا امرأته الشابة من الفقر والمرض! ولي على المال إذا كان ليس في مكانه! إذا صرفه أولاد الأغنياء على النساء اليهوديات! إذا لم يكن للدفاع عن البلاد!

نثرت سعاد غضبها حتى ظنت المعزيات أنها تقصدهن أيضا. ولكن هل أخطأت سعاد؟ كان سعيد العاص يبحث عن الموقع الذي يدافع منه عن بلاده. انتقل إلى البيطار والعلي في جبال اللاذقية، وإلى الغوطة، إلى النبك والقلمون، وإلى جبل العرب. محاولا أن يرتب الثوار بمعلوماته وأن يحمي الناس من تطاول الثوار. فمن بحث عنه ليسأله كيف يعيش ولماذا يبيع كتابه عن الأيام الحمراء كي يأكل خبزه، ومن سأله كيف ماتت زوجته؟ كأننا انتظرنا مقتله كي تتبنى نساء القدس وعمان جمع التبرعات لابنته سعاد! فياويلي على العرب!

قدرت شفيقة ما يجب ألا تتجاوزه سعاد. فتناولت منها الندب: الله يعين العرب! منذ سنة الحرية وهم يتبرعون بحلي نسائهم، مرة للأسطول العثماني ومرة لشراء السلاح للثوار، ومرة للنفقة على الأرامل واليتامى! ياقلبي على العرب! منذ أيام حروب الدولة وهم يحتضنون الفراريّة، ويودعون أولادهم في جيش الدولة، ويساعدون جرحى الحرب، ويطعمون المهزومين! بكينا على شهداء أيار، زهرة بلادنا، وعلى قتلانا في العراق والترعة! جعنا في أيام السفر برّ، وهرّبنا القمح للجائعين في لبنان! استضفنا الضباط والولاة والموظفين الأتراك والألمان والألبان، وحميناهم أيضا مهزومين، من شهامتنا ولأننا نقدّر الخبز والملح! حملنا الرز والسكر لأهل الجرحى، وندبنا مع أهل القتلى شهداء بلادنا، وطبخنا للمعتقلين في سجون الإنكليز، وتبرعنا بأساورنا للسوريين في أيام الإضراب الستيني! الله يعين العرب على بلواهم، ويذلّ الإنكليز والصهيونيين!

فهمت سعاد أن شفيقة تمدّ لها فسحة تكبح فيها حزنها ليجري في مساره. لكن شفيقة ستسمع فيما بعد كثيرا من النساء الثاكلات يرمين غضبهن على العرب، وستتذكر سعاد في يوم العزاء بسعيد العاص!

انصرفت شفيقة إلى طبرية وأخذت معها زيادا: انشغلي أنت بما بعد العزاء! فهل قدرت أن الإنكليز سيعتقلون الرجال بعد الجنازة؟

انشغل عبد الرحيم بكتابة كلمة يلقيها في جنازة سعيد العاص. كتب في أعلى الصفحة وداعا، وركض القلم في يده. كان يجب أن ينجز كلمته قبل الجنازة. لكنه عندما قرأها خيّبته. ما أوسع المسافة بين شعوره وبين الكلمات! شطبها وصححها،

www.alkottob.com

فهل يستطيع أن يقرأ هذه الفوضى متابعا الأسهم التي تنط فوق الأسطر وتحتها؟ انتبه إلى أنه يستنجد بالنداء. "هانحن نستطيع أن نراك ياسعيد، في سعتك كلها، في حياة كنت تزيد فيها كل يوم، التصميم على مقاومة الإنكليز والفرنسيين! نستطيع الآن أن نراك طفلا ولد في حاضر حماة، ودرس في رشدية دمشق، وتخرج من الكلية الحربية في استنبول عشية سنة الحرية التي قلبت البلاد! ونراك في حرمانك من مدرسة أركان الحرب عقابا على وطنيتك! ثم نراك تتعلم من حروب العصابات البلغارية والألبان والصرب، وحدة المقاتلين والمدنيين، وتنبه إلى ضرورتها فيما بعد في الثورة السورية! كأنك في مراحل حياتك كلها كنت تخزن الخبرة لتفيد منها في ثورة بلادك! كأنك كنت في مهماتك تدرس الجبال والمدن والفلاة لتحفر فيها مجاري الثورة! يارجل جمعية العهد! يارجل معركة "جناق قلعة"! فهمت أن تعصب الدونمة فكك الدولة العثمانية فدعوت إلى التسامح بين القوميات والأديان لتقاوم التقسيم الذي فرضه المحتلون. وكسبت رفاقك بالتسامح دون أن تتنازل عن المبادئ. دفعت ثمن استقامتك حتى بين رفاقك، فعشت فقيرا، نظيف اليد. ونبهت إلى خطر الفساد على ثقة الناس في الثوار وأثره في انفضاض الناس عن المشروع الوطني. لكنك كنت محظوظا برفاق العمر الذين قاتلوا معك، أحمد أبو محي الدين شعبان ورشيد بقدونس. عشت في محيط رجال كبار منهم القاوقجي وعبد القادر زهرا وسليم الجزائري وعزيز علي المصري ونزيه المؤيد العظم وعادل أرسلان. لذلك يذهلنا الفرق بينك وبين الصعاليك الذين قتلوك. هؤلاء المتوحشون، مجندون يقتلون بأجر رجالا ضحوا بأموالهم ومناصبهم لبلادهم! ويسجنون رجالنا ويعذبونهم بأجر. أيها الناجي من الموت في الثورة السورية من اللاذقية إلى القلمون إلى الغوطة وجبل العرب وشمال لبنان! أيها الناجي من آخر معارك الغوطة! أيها الناجي من الديوان العرفي في عاليه! هل حفظت حياتك كالقسّام لتقدمها لفلسطين؟ يارجل الدولة العربية، الساهر على شعبة التجنيد فيها، هل استشهدت على مشارف القدس لتؤكد لنا أن فلسطين قلب سورية؟ هل أكدت بتنقلك في بلاد العرب من شمالها إلى جنوبها وحدتها في الروح والتاريخ ومشروع الحرية، وغربة الوطن الصهيوني عنها؟ هل أكدت بالاشتراك في مقاومة حملة غاملان على جبل العرب، وبمقاومة الإنكليز في محيط القدس، وحدة المقاتلين العرب مقابل وحدة المحتلين؟ يارفيق عمر البيطار وعز الدين القسام وصالح العلي وعز الدين الجزائري، وداعا! يامن حملت الغصة من الصغائر لكنك فهمت تنوع قوى الثورة، وداعا! ياحامل الألم من وداع الرفاق القتلى، هاأنت تضيف لنا الألم بفقدك! وداعا!

www.alkottob.com

يأأهل فلسطين، عبر سعيد العاص نهر الأردن ليشترك مع قوات الجهاد المقدس في ثورتنا على الإنكليز واليهود. أوجع سعيد العاص الإنكليز في معركة صفد وفي معركة حلمون على طريق القدس الخليل، وهانحن نفقده. قتله الإنكليز لكنهم لن يستطيعوا أن يتخلصوا من شعبنا العربي! سنبقى أوفياء لمشروعه"!

أمام القبر في بلدة الخضر قال عبد الرحيم لسعيد العاص وهو يدفن: احرس من مستقرك الأخير القدس من الصهيونيين! وانصرف وسط المشيعين. سيرتب القادرون فرار عبد القادر الحسيني، نائب سعيد العاص الجريح، من السجن!

رجع عبد الرحيم متعبا ومستعدا، مع ذلك، لأن يمشي في حشد غاضب. وجد سعاد تقرأ كتاب سعيد العاص. مرة أخرى؟ نعم! تتجول في مدى لم تنتبه إليه يوم قرأته أول مرة! قالت: يوم نقتل أو نموت وتأتي أجيال أخرى لا تعرف الأحداث التي عشناها ستتبدد. سيرحل الشهود عليها فتنسى، وستطوى أفراحنا وأحزاننا. وإذا خطر لآخرين أن يكذبوا، كما يكذب اليهود اليوم مدعين أن بلادنا أرضهم الموعودة، فسيصبح الكذب حقيقة. ألذلك خاف سعيد العاص على الذاكرة خوفه على مصير البلاد؟ ألذلك سجل في مذكراته الثورة السورية وثبّت رجالها ووقائعها ومشاغلها؟ يمكن أن تتأمل كل تفصيل وحده. لكن التفاصيل ترسم لك بلادا في زمن مهم! تفرج! نبه العاص إلى الماسونية التي يجهل الوطنيون الذين ينتسبون إليها أن امتدادها العالمي قد يصل إلى اليهود. التفاصيل، ياعبد الرحيم، سجلّ الذاكرة. هذا ما يقصده! يتوقف كل منا عند مايلزمه منها! لكننا يجب أن نتأمل قصده الأول: حماية الذاكرة! حماية الحقيقة! نظر إليها عبد الرحيم. صحيح! هذا الكتاب للثوار اليوم مثل كتب المدارس! لكن هل لدى قادة الفلاحين وقت لقراءته؟ أو هل لديهم نسخ منه؟ آه، أخشى أن نبدأ دائما دون الذاكرة! انتبهت سعاد إلى الخطوط التي وضعها عبد الرحيم تحت ما يهمه في الكتاب. وقرأت ملاحظاته في الهوامش: أهمية التنظيم والقيادة! ضرورة وحدة القيادة! ضبط الثوار في هيئات وقيادة، والالتزام بخطة تناسب المكان لكنها يجب أن تنضبط في خطة عامة. المجموعات ضرورة والمبادرة الفردية ضرورة، ولكن لابد من قيادة عليا تلزمها بنسق العمل! هل قرأت سعاد زوجها في تلك الملاحظات؟ كتب عبد الرحيم في الهامش: هذا رجل مختص في العلوم العسكرية، خبير في حرب العصابات! قال لها: كأنه يمس مشكلتنا! يجب أن تضبط الثورة قيادة سياسية وعسكرية واحدة. وإلا وقعنا في فوضى. الفوضى؟ اسمع ماكتب عنها العاص: "الفوضى في جميع أطوار الحياة البشرية سم زعاف ومعول هدم في سعادة

www.alkottob.com

البشر"! لكن عبد الرحيم لن يعيش ليشهد أحداث نهاية القرن التي سترت فيها الفوضى التخريب المنظم!

وضعت سعاد خطوطا تحت فقرات أخرى دون أن تكتب تعليقا في الهوامش. رأت أن سعيد العاص قصدها حيث نبه إلى أن المدنيين امتداد المقاتلين. تجذب القيادة الناس أو تنفرهم بسلوكها! لذلك أحبت القسّام. قالت: لاأستطيع أن أنسى صرخة سعيد العاص في مذكراته، كيف تؤتمن القيادة على أرواح المتطوعين إذا لم تؤتمن على أموال الثورة! كم أوجعه إذن فساد الزعماء! قال عبد الرحيم في أسى: كان يجب أن يعمل مع تلك القيادات في مرحلة تاريخية! لكننا سنحفظ منه أنه نبه مبكرا إلى ما يبعد الناس عن الثوار: استغلال المناصب وكسب الثروة من النضال الوطني، وفرض الأتاوات باسم الثورة! وضع لنا قاعدة: لا أهمية للدعوة إذا خالفها صاحبها بسلوكه! يفقد ذلك الناس الايمان بها! دعم سعيد العاص أفكاره، فعاش متقشفا، مستقيما. قاتل بثمن خبزه!

صرفته سعاد إلى مساحات أخرى: "حب الذات" في الزعماء، وخشية سعيد العاص من غلبتها على المشروع الوطني. فذكّرت عبد الرحيم بأن الحاج أمين الحسيني قرر أن يزور بلدة يستضيفه فيها زعيم من رجالها. غار الزعيم المنافس فدعا أهالي القرى إلى الوليمة كي تنفد المناسف قبل أن يشبع الناس! روت لي النساء أنهن تعبن في ذلك اليوم وهن يطبخن اللحم والرز! لكن ياعبد، توقفت عند الطموح. دونه لايتحرك الإنسان! فكيف انتبه العاص إلى وجهه الآخر!

هل أضاف سعيد العاص بمقتله مدى إلى كلماته؟ تتصل الكلمات في الحياة وفي الموت بكاتبها! ثبّت سعيد العاص حقائق استنتجها كرجل متنور صاحب مشروع وطني، لاكداعية لمشروع غيبي! لكن ماذا تفهم ياعبد، من اندفاعه إلى آخر معارك الغوطة بعد انطفاء الثورة؟ حق القائد في أن يخترع معركة في زمن لا يلائمها؟ خسرنا عز الدين الجزائري فيها! فهل كان ذلك خطأ كالانتحار؟ بل حاول أن يقبس من الجمرة، ياسعاد! ويعني ذلك، المثابرة! ولذلك لم ينسحب من المعركة التي عرف أنه سيقتل فيها! بل سحب قواته! وهذا أيضا مثل كتابه عن الثورة، يمد الفرصة للتأمل. ويفيد من سيحمل الثورات التالية.

روى لها في آخر المساء ماعرفه عن مقتله: طوقه الإنكليز فطلب من قواته أن تتسلل لتبقى سليمة. قاوم مع صفوة من أصحابه. شيعناه في احتفال. ضريحه في مرتفع. كأن عينه على القدس!

ستؤبنه حماة فيما بعد في احتفال وستؤبنه السويداء وصلخد، وسيقول عمر

www.alkottob.com

أبي ريشة في تأبينه:

كلمـــا لاح للكفـــاح صـــريخ صـــحت لبيـــك ياصـــريخ الكفـــاح

كان عبد الرحيم وقتذاك في المعتقل الذي شيده الإنكليز على شاطئ عكا. اعتقل بعد جنازة سعيد العاص.

www.alkottob.com

بهاء اثنان، هذا الذي في أوراق دفتر في جيبه، وهذا الذي يسمع دقات قلبه في أذنيه وهو يمشي إلى سوقساروجا. قرر أن يمشي من المرجة إلى بيته كي يهدئ روحه. كم يختلف عن بهاء الذي قطع هذه المسافة نفسها في صباح مبكر، يوم سافر إلى فلسطين دون أن يودع منور! هل الدنيا التي نرحل فيها، يابهاء، هي أرض تتسع رحلتنا فيها بمقدار مساحتها؟ أم بما نعبره من العواطف ولو في رقعة محدودة؟ قطع مسافات طويلة ماشيا في فلسطين، ولكن كيف قطع تلك المسافات! يشعر الآن بأنه ذو حق فيها، كمن ثبّت ذلك الحق فبقي في ترابها.

رسم بهاء عشرات الأشكال من اللقاء بمنور وهو في الطريق من إربد إلى دمشق. كان مشتاقا إليها ومشتاقا إلى البوح لها. واعترف لنفسه بأن ذلك الشوق كان وجعا في الأيام التي أمضاها في سما وإربد. بقي أرقا في الليالي الأخيرة، يرجو أن يراها في أحلامه. ومد يده كمن يتوهم أنه سيلمسها.

لم يحمل من دمشق غير صورتها ومفتاح بيته. تساءل مرات كيف نسي صورة معتصم، ولام نفسه على ذلك. تمنى ألا يصادف أحدا من أهل سوقساروجا كي ينصرف إلى تحضير نفسه للّقاء بها. ومع ذلك التقطه أبو بديع والحلاق في جوزة الحدباء، عانقاه وقبلاه. انصرف مسرعا لكنه لم يستطع منع نفسه من الانحناء على الفيجة التي وضعت في زمن أبيه، ليشرب من ماء الفيجة الذي فارقه في غيابه. فهرع إليه صاحب المقهى وتبعه الجالسون في المقهى. أحاطوا به وهزجوا. ثم رأى بهاء نفسه محمولا على أكتافهم. مشوا ببطء كأنهم يرافقون عريسا إلى عروسه. ضحك أحدهم واقترح أن يدخلوه حمام الجوزة كما يدخلون العريس. صدحت الأهازيج في الحارة وكثر المحتفون به. فأطلت مرجانة من النافذة وهرعت نفيسة: يوه، هذا بهاء! حرمتني فاطمة من عرس منور، لكن ثورة فلسطين جعلتني أرى عريسها على الأكتاف بعد أن أصبح عمر ابنها خمس

www.alkottob.com

سنوات! يامرجانة، تعالي نحضّر العشاء له ولمنور وإبن الكحال!

غاب الجمع مع بهاء عند منعطف حارة قولي. ما أعجب الدنيا! هنا البلبانية التي دفن فيها سودون أمير العساكر الشامية الذي التقى تيمورلنك قرب حلب. بعد هذه القرون الطويلة يرفع أهل سوقساروجا بهاء على الأكتاف لأنه حارب في فلسطين مع الثوار! يانفيسة خانم، سيصل الخبر إلى الفرنسيين ويعرفون أن بهاء بك كان في فلسطين! يامرجانة، الفرنسيون مشغولون الآن بأمر آخر. ولن يغضبهم أن يحارب السوريون الإنكليز! حضري السرير الذي ينام فيه معتصم عندما يزورنا!

كانت منور في الجهة الأخرى من البيت، عندما سمعت الزفّة. زفّة في عز النهار؟ عندما أطلقت سؤالها شعرت بأن قلبها يهوي ولا يصل إلى قاع. دوّت دقات قلبها في أذنها. ركضت في الداور وفي آخره أمسكت بالكرة الخشبية التي تزخرف الدرابزين. كانت تلهث كأنها ركضت مسافات طويلة. نزلت راكضة على الدرجات الحجرية، ووقفت في أول الممر الذي يوصل من أرض الدار إلى الباب. خيل إليها أنها سمعت قفزة بهاء من الأكتاف إلى الأرض. كم دام وداع الرجال له؟ كم يحرجها هذا اللقاء الذي حضّره لهما أهل سوقساروجا! خيل إليها أن وجهها احمر والتهب. ثم سمعت المفتاح يدور في قفل الباب، ورأت بهاء يغلقه وهو ينظر إليها. انتظرته حتى قطع الممر. كانت عاجزة عن المشي إليه. رمى على الأرض كيسا صغيرا يحمله، وربما سقط الكيس من يده. ومشى إليها. لا تدري من عانق منهما الآخر. وكم بقيا من الوقت واقفين. شعرا بأنهما يهتزان إلى اليمين واليسار، كأنهما يهدهدان عتبها واعتذاره وايمانهما بأن الحقيقة الوحيدة أنه حي وأنهما يلتقيان. كان يتمنى أن يبعدها عنه كي يتأمل عينيها ووجهها وشعرها. وكانت تتمنى أن تبعده عنها كي تتبين ماتغير فيه. لكنهما بقيا واقفين زمنا لايستطيع أحد منهما أن يحسبه. ولم يضيقا به. نسي كل مارسمه للّقاء. رفع كفه ولمس شعرها، لكنه فهم أنها لاتريد أن تبتعد عنه. وفهم ما لن تقوله له بكلمات. شوقها الذي لن تعبر عنه من الكبرياء. وعذابها الذي لن تبوح به. أرقها الذي بحثت فيه عنه. وبحثها عن طيفه في البيت الذي يذكرها كل مافيه به. وكبرياءها الذي ستر تلك الأشواق لأنها أكبر من أن يفهمها من حولها، ولأنها تخشى أن تبدو كزوجات الغائبين. ألهذه الدرجة ترفعين حبك يامنور، لتجعليه في مستوى الأسرار!

كان معتصم يغوص في الألوان التي وضعتها منور له. تعود أن ترسم معه. كانت تناوله الريشة ليغمسها في الألوان فيرسم بها خطوطا واسعة وهي تحضّر له

www.alkottob.com

الريشة الثانية. وكانا يستمتعان بذلك ساعات. وهاهو يكتفي من خلط الألوان بنفسه ويسأل عن منور. سمع بهاء خطواته على الدرج وانتقل شعوره إلى منور. وعندئذ تركت له يدها وعبرا أرض الدار إلى الدرج الحجري. تناول بهاء معتصما قبل أن يصل إلى الدرجات الأخيرة، ورفعه فوق رأسه. قال له معتصم: طوّلت! وغابت كلمته في عناق بهاء. هل شعر بهاء بسعادة مثل هذه من قبل؟ يامنور، ما أكثر أنواع السعادة إذن! وجدت هناك سعادة ما؟ نعم! نعم! وسط الخطر، وأنت تعرف أنك قد لاتعود إلينا؟ هز رأسه: نعم. وكان يعرف أنها فهمته.

لم ينتبه بهاء إلى تريث معتصم، فرفعه على ذراعيه كما كان يرفعه وهو صغير. ثم أجلسه على ركبتيه. وتجولت منور في عيني ابنها. يفحص أباه! سأله بهاء: ماذا فعلت في غيابي؟ ياللسؤال المرتبك! لا يعرف بهاء كيف يبدأ الكلام مع ابنه! ماذا جرى، يامعتصم؟ كنت لا تسكت وأنت تحدثني في هذا الصباح! لم تقل له منور تكلم! لامت بهاء لأنه اتخذ قراره دونها مع أنه يمس عائلته كلها. لكن يبدو أن معتصما لامه أكثر مما لامته. تبينت أنه يتأمل الفرق بين ملابس بهاء في الصورة التي تفرج عليها طوال غياب بهاء وبين ملابسه التي يلبسها. فسألت بهاء: من أين لك هذه الملابس؟ رد: من سليمان باشا السودي. هبّت أحزانها. تذكرت زيارات سعيد إلى مضافة السودي في سما، ورحلاته معه إلى إربد. كم مر الزمن مسرعا! وكم نتنقل فيه كالومض! ركض بهاء إلى الحديث عن فلسطين ليبعد منور عن سعيد: فلسطين حلوة، حلوة، يامعتصم! جبال وخضرة، ينابيع ومياه، سهول ووديان. قال معتصم: أعرف. حكت لي منور عنها! أعرف حتى طبرية وحيفا! دهش بهاء، وكان عليه أن يدهش فيما بعد أيضا. سأله معتصم: قلعت اليهود من فلسطين؟ التفت إلى منور. حرام عليك يامنور. حدثته عن هذا أيضا؟! ماذا يستطيع أن يقول له الآن، وكيف يفسر له المسار المعقد الذي عبره؟ وضعتني، يامنور، في ورطة لا أستطيع الخروج منها. انتظر معتصم جواب بهاء فقال: لا، ليس بعد! فسأله معتصم: ستعود إليها إذن؟ متى؟ لا أعرف يامعتصم، ولا أحد يعرف. لكن إذا كان يجب أن أعود إليها سأخبرك.

هاهو يهدي لمعتصم ولمنور انتصارا! لكن هاهو يفهم أن ما علمته منور لمعتصم في غيابه لم يبعد عنه الخوف على أبيه. عرف ذلك من عناق معتصم، ومن التصاقه به طول السهرة. تعشى وهو جالس ملتصقا ببهاء. جره معتصم معه إلى الحمام وظل يلتفت إليه وهو يغسل وجهه وذراعيه. خلع ملابسه وأخرج رأسه بسرعة ليرى بهاء، كأنه يخشى أن يختفي خلال تلك البرهة، واستبقاه قربه على

www.alkottob.com

الفراش، وظل ممسكا بيده حتى غفا. ولاحظ أنه ارتعش في أول غفوته ففتح عينيه وشد راحته على يد أبيه. فلم يسحبها بهاء إلا عندما استرخت.

تركتهما منور حتى خرج بهاء من غرفة معتصم. أكتشف معك يابهاء ابني. أتبين الآن ما خبأه في قلبه من القلق عليك، ومن خوفه ألا تعود. كأنه يظن أني سأختفي فجأة، يامنور! لكنك اختفيت فجأة، يابهاء! آه، لو تعرف منور كم خاف الوداع، لذلك هرب منه! هربت، وهاهو معتصم يخشى أن تهرب مرة أخرى!

غمرته عواطف متنوعة وغيرت ما كان يتوقعه في اللقاء. بدا مرتبكا وقلقا، فتقدمت منور لتعيده إلى فرحه وأشواقه. لدينا أيام طويلة لنفكر في ذلك! الآن أنت في بيتك، سليم وحر. والشام في هذا اليوم لا حارة ولا باردة. كأنها تحتفل!

سمع بهاء بعد كلام منور الصمت في البيت. وبدأ يألف أنه في بيته. فاجأته الستائر الملونة في غرفة معتصم، والرسوم المعلقة على جدرانه. أعجبته لكنه شعر بأنه غريب عنها. بدلت منور في غرفة معتصم حتى لون غطاء سريره. لكنها هنا، في غرفنهما استبقت كل شيء كما تركه. لمح بيجامته على المقعد. تذكر فجأة أنه تركها هناك وهو يتسلل من الغرفة ومنور نائمة. وعندما اغتسل بدا له أن المنشفة في الحمام بقيت كما تركها. لم يقل لها أردت يامنور أن تبقيني معك، كيلا يمس مالا تحب أن تعترف به. قال: أردت يامنور، أن ينساني معتصم؟ يامسكين! بل أردت أن أعوضه عنك بالألوان وأن أشغله باهتمامي به. بدا لي أني غرست بيني وبينه صداقة في غيابك، لكني اكتشفت من لقائه بك أني وسعت مكاني لديه لكني لم أملأ مكانك. وفهمت أن لكل منا يابهاء دوره ولا أحد يأخذ دور الآخر إلا كممثل عنه في غيابه.

بقي بهاء يتوقع أن يفتح معتصم باب الغرفة عليه حتى أطفأت منور النور. أبقت ضوءها المحبوب قرب الفراش مشتعلا زمنا. فرأى مقابله على الجدار ظلال شجرة النخل التي تعلو الضوء، ولمعت الزنجية التي تجلس في ظلها. انساب مع الضوء ما بينه وبين منور من حب شهد هذا الضوء عليه. كان يرى الزنجية من زوايا متنوعة ويكاد يرجو منور أن تغير ذلك الضوء لأنه يشعر بأن الزنجية التي تلتفت إليه تراقبه. وهاهو الآن يستعيد صوره كلها منها، كأنه علق على بريقها الليالي الأخيرة التي حاول أن يملأها بحنان خشي أن يكشف أنه يحضّر سفرا يخشى ألا يعود منه.

تحدث تحت ذلك الضوء عن اللقاء بينه وبين حمدان، كأنه يفرش مقدمة للقرب من منور، وللثقة بأن معتصما لن يطلبه. آه، يتكرر دائما الأمر نفسه!

www.alkottob.com

نستدعي الآخرين كي يوصلونا إلى من نريد القرب منه ونخشى القرب منه! كيلا يكشف اندفاعنا إليه ضعفنا في الحب. فنتأنى على العتبة ونحن نتدرب على كتم أشواقنا كي نحبسها بين ضفتين!

وصل حمدان كما يمكن أن يصل مثله، يامنور! أخبرنا رسلنا أن طرشا من الغنم يتسلق مع راع الجبل إلينا، ومعه دواب يسوقها رجل. تناولت المنظار ورأيت القادمين! هذه هي هدية يارجال، فاتركوها تعبر إلينا! جمع الراعي غنمه حتى تلاصق. انتظر الراعي الرجل الذي يسوق ثلاث دواب حتى تقدم إلي. أنزل الكوفية عن فمه وفي تلك البرهة عرفته. قال: أنا.. فأكملت جملته: حمدان، من الناصرة! عانقني، وخيل إلي أنه يلتمس فيّ رائحة المرأة التي أحبها. وفهمت على ذلك الحدّ الذي التقينا فيه، كم كان يحب سعاد. لو كنت امرأة، يامنور، لغفرت له كل ذنوبه، ولغسلها الحب الذي حفظه نضرا أربع عشرة سنة. هل رأيت كيف أمسك بي معتصم؟ أمسك بي حمدان بمثل ذلك الإصرار. شكره الرجال على هديته. أنزل الراعي تنكات السمن والعسل والزيت التي حملتها الدواب. لسنا مستقرين في مكان، ياحمدان، كي نرتب مؤونة في الخوابي! وأين نذهب بالغنم؟ سلموها لأهل القرى الذين يستضيفونكم، يابهاء! جاء حمدان إذن بواجبه نحو الثورة! تركنا الرجال يتدبرون مع الراعي نقل الغنم والمؤونة، وشربنا القهوة المرّة مع حمدان. ثم انفردت به. هل يحدّث منور عن الرغبة التي تلهب قلب العاشق كي يبوح بحبه؟ وهل تفهم منور أن تلك الرغبة بالبوح معذبة ولذيذة كالحب نفسه؟ لأنها تستحضر المحبوب وتسمح بالتعبير عن الوجد، وتطلب انحياز الشهود إلى المحب؟ رغب أن يتحدث معي. فجلسنا حتى العتمة. لاأعتقد أن أمثال حمدان كثيرون في هذه الدنيا! شعر بالمساء كأنه منشور له. وخيل إلي أن النسيم البارد يهزه. نوقف، نحن، كل ما حولنا وما في داخلنا عند حدود ونفتح لها البوابات بمقدار ما نريد. لديه لا أبواب ولا حدود، كأنه أوراق الأشجار في الفلاة. بكى ولم يخف دموعه. تركها حتى غسلت وجهه. بدا لي حبه غريبا في تلك الفلاة. قال: سعاد يابهاء، قتلتني! سألته: تحبها ياحمدان حتى اليوم؟ أدهشه السؤال. ألا تعرف أنها زوجة رجل آخر ولن تتركه؟! أبعد كلامي بحركة من يده. ما علاقة هذا بالحب، يابهاء؟ حمل لنا الرجال منسفا يليق بالهدية والضيف. راقبته. أكل قليلا. سألته ستبقى معنا الليلة إذن، ونأمل أن تكون آمنة. بدا لي أنه لا يبالي بالأمان أو بالخطر. سهرت معه. سألته: عرفت أني هنا؟ قال: توقعت ذلك لكني لم أعرف أين سأجدك. ففي منطقة القدس متطوعون من سورية أيضا. والسؤال عنكم

www.alkottob.com

لا يجوز. لكن لقائي بك هدية لا تقاس بها هديتي. أتيت أؤدي واجبي، يابهاء. لاأصلح للسلاح. أجلس إلى نفسي كل ليلة وأغلق على نفسي الباب لأشرب وأفكر في الدنيا التي تجولت فيها مسرعا وعرفت فيها أكثر مما يتيحه لي عمري، وعندما التقيت فيها بالمرأة التي تملأ روحي عجزت عن استبقائها. أحرقت انتصاراتي والمتع التي أعتد بها وجعلت ذلك كالدخان. ياحمدان، عد إلى الدنيا! لاتحرق امرأة دنيا رجل! تأملني في ترفع ثم استدار إلى هواجسه. يابهاء، نزلت إلى حيفا، وانتقيت امرأة جميلة شقراء، لكني عندما اقتربت منها شعرت بالغثيان. وقفت سعاد بيننا وسمعت سخريتها. فهربت مسجلا عجزي، غير مبال بما يقوله أصحابي الذين رتبوا لي تلك السهرة. أنا الآن قانع بطيفها. هل سمعت رجلا يعيش مع طيف؟ أنا ذلك الرجل!

لم يطلب مني حمدان رأيا. كان من اولئك الرجال الذين يعرضون على مستمعيهم حالتهم ليشعروهم بها، لكنهم يرفضون أن يردّهم أحد عنها. قلت لنفسي لو كان عناده في أمر آخر لأصبح مقاتلا أو شاعرا أو سياسيا عظيما. مشى نهارا وقطع أخطارا كي يقدم هديته. وعندما وجدني قرر أن يبقى الليل، دون أن يبالي بما يحمله الفجر من معارك! لابد أنه إنسان نادر. ربما كان يصعب على سعاد أن تتحمل أهواءه. مع ذلك ما أصعب أن نقيس ما بين رجل وامرأة بمقاييس بعيدة عنهما! يجب أن يضعا، هما، المعايير التي يقاس بها قربهما وفراقهما.

لم ينم حمدان، ولم يتركني أنام. يبدو أن الحياة معه صعبة بمقدار ماهي مدهشة. روى لي شعرا حفظه، وحكى لي حكايات ونكتا طريفة. بكى مرة أخرى وهو يذكر سعاد. وكاد يوهمني أنها ستعود إليه. قالت منور: هذا عشق، لازواج. أرادت سعاد الزواج أن يكون مستويا! سألها: حياتها الآن مستوية؟! قالت: هذا قدر بلادها!

ثقل جفنا منور. ما أطول هذا اليوم! أتعبتها أشواقه. شعر بهاء بالشفقة عليها. غفت على كتفه، فلمس شعرها لمسا رقيقا. وبدأ يغفو. ما أجمل الحياة التي تمتد، وإلى جانبك امرأتك المحبوبة، وأنت في بيتك، وفي الغرفة الأخرى طفل!

بقي بهاء أياما أسير ابنه معتصم. فهم أن الطفل لم يقدّر معيار الزمن. فظن أنه فقد أباه. بقي معتصم أياما يمسك بكف بهاء وهو يغفو. وينتظره أمام باب الحمام وهو يغتسل. فنصحت منور بهاء: ابق معه حتى يطمئن! ربما ظن أنك هجرته! بعد سفرك سأل عنك أياما ثم تجاهلك. لكنه فتح الخزانة وأمسك بثيابك ومرغ بها وجهه. اضطرب أكله ونومه. وصار يخاف أن أتركه حتى عند نفيسة.

www.alkottob.com

لاتظن أن الأطفال دمى نضعها حيثما نريد!

استبقى بهاء ابنه قربه حتى غفا. وحدّث منور وهو يربت على شعره. نشر أسئلته كي يسمعها وتسمعها. تحدث عن الغرور المحب الذي أوهم جيش المتطوعين بأنهم سيقدمون الانتصار لفلسطين. وتساءل هل بدا أننا جيش مستقل عن أصحاب البلاد؟ ألم تثر قوتنا خشية الأمير والمفتي؟ ألم يشط بيان القاوقجي الذي وقعه باسم حكومة الثورة العربية؟ هل كان ذلك صراعا بين العسكريين والسياسيين؟ لكنه لم يرو لها ما لمحه من التنافس الصغير والخلافات بين النشاشيبي والحسيني، وبين الحسيني والأمير. قال فقط: يمكن أن تدمر الصغائر بنيانا شاهقا! سألته: والحاج أمين؟ رد: لا تحكمي على رجل لأنك قررت أن تظلميه أو تمدحيه، بل كي تفهميه. دعا الحاج أمين القاوقجي والعاص والأشمر، لكنه لايستطيع ألا يتصل بالقادة الرسميين. حوله مجموعات متنوعة يجب أن يسايرها.

صمت وفهمت منور أنه يكمل حديثه مع نفسه. فانصرفت إلى النظر إلى لون وجهه الذي اسمر من الشمس، وإلى يده التي خشنت. في تلك الليلة خيل لبهاء أنه اكتشف خيطا رقيقا بين الجمهور وبين الغوغاء. خيطا رفيعا يمسك به السياسيون! فالثورة التي تجلو النقي في روح الناس، مناخ مناسب لانفجار الثأر والنزوات وحب المنفعة والظهور. كما هي مناسبة للسياسيين كي يدمروا خصومهم ويساوموا عليهم ويملكوا كل شيء. ألذلك تلقى بهاء الثناء في حذر، متوجسا مما يقصد به؟ قال للمرداوي قبيل استشهاده: بين الانبهار بالقدوة وبين غربة المبهورين عنها، خيط رفيع! يجب أن نكون كمن يمشي على الصراط، كيلا نخون ما يرونه فينا. دون أن نبتعد عنهم أبدا!

www.alkottob.com

مر الاحتفال بعودة بهاء من فلسطين سالما، في سرعة. انشغلت نفيسة بضجة المعاهدة السورية الفرنسية. وغرق بهاء نفسه، في فحص المعاهدة. لايوقّع الرجل على ورقة لم يدرسها، فهل يوقّع السياسي على معاهدة تتناول بلادا دون أن يبحثها وينخلها؟

قال: لا تقهرنا الأحداث، يانفيسة خانم! بل تجعلنا نكتشف أنفسنا! كأن الحياة اليومية تسكب الغبار على جوهرتنا فتنتظر ريحا تبدده! تأملت نفيسة بهاء وتنهدت. لا تحب الكلمات الضخمة التي يسترسل فيها أحيانا، كأنه خطيب على منبر. مع أنه سندها بحياته! كم يبتعد كلامه عن الحياة التي تستسلم نفيسة لتفاصيلها! قالت له: يابهاء، خسرنا القتلى، وخربت بيوتهم! فهل كانوا يحتاجون الرصاص كي تظهر جوهرتهم، أم كنا نحتاج أن يعيشوا؟! لا تبرر الخسائر أبدا! قل فقط هذا قدر سنواجهه! أردت أن أقول، يانفيسة خانم، أن الإضراب الستيني الذي ركضت فيه من الصالحية في شمال دمشق إلى الميدان في جنوبها، أثمر! صحيح، ركضت نفيسة من الثامن من كانون الثاني حتى الخامس والعشرين من شباط سنة 1936 التي لن تنساها! بحثت عن أسر القتلى، وزارت أهل الجرحى والمعتقلين، ونقلت لهم المال والمؤونة! وهاهو الانتداب عاجز! فماذا يدير في بلاد ترفضه؟! اضطر المفوض السامي دو مارتيل إلى إقالة الشيخ تاج في الرابع والعشرين من شباط وعين وزارة انتقالية رئيسها عطا الأيوبي. واستدعى في أول آذار رئيس الكتلة الوطنية هاشم الأتاسي إلى بيروت. فطلب الأتاسي: إعادة دستور الجمعية التأسيسية كاملا، وإلغاء الانتداب، ومعاهدة مع فرنسا، وإعلان وحدة سورية، وعودة المبعدين السياسيين، وتحرير المعتقلين، ومعاقبة المسؤولين عن الأحداث الدامية! قائمة طويلة تتجاوز صلاحيات المندوب السامي! اقترح دو مارتيل أن يسافر وفد سوري إلى باريز ليبحث في صياغة معاهدة. وعرض الأتاسي على الشعب ماجرى.

www.alkottob.com

أوصل ابن الكحال وبهاء، يومذاك، الأخبار طازجة إلى نفيسة خلال غياب الوفد في باريز. وصارت منور تستمتع بالغداء والعشاء في بيت نفيسة. وكأنما رجعت أيام الدولة العربية التي كانت تجتمع خلالها نفيسة كل ليلة بخالد آغا وابن الكحال! لكن منور التي رافقت نفيسة في أيام الإضراب انصرفت عن أخبار قرارات الحكومة والمندوب السامي! فتركت بهاء يتحدث مع نفيسة وتجولت على السطح. تابعت أسراب الحمام إلى السطوح التي تنطلق منها، ولاحظت الطيور التي تتردد فتضيع في سرب آخر، وأمتعتها رؤية بحرات البيوت وأشجارها من السطح، والأفق الذي يمتد حتى الغوطة، وصفاء السماء.

نفّذ المندوب السامي وعوده فأطلق المعتقلين في الثامن من آذار. وروت نفيسة لبهاء أنها مرت من تحت أغصان الكينا والسجاد التي زينت الأبواب، عندما هنأت أسرهم. كأنهم رجعوا من الحج، يابهاء! عيّن رئيس الجمهورية الوفد السوري، يانفيسة خانم، وسافر الوفد في الحادي والعشرين من آذار بالقطار إلى باريز وسيصل إليها في السادس والعشرين من آذار. أخذ القوتلي مكان الأتاسي في غيابه. يانفيسة خانم، بدأ الوفد السوري في الرابع من نيسان المفاوضة مع وفد فرنسي يمثل جنرالات الانتداب. روبير دوكيه سكرتير غورو، شوفنر مندوب السامي في دمشق وحاكم جبل العلويين، سان كنتان رئيس ضباط الاستخبارات في الشرق، وباستيد الموظف في الخارجية! مع ذلك صمد! في عطلة الفصح زار الوفد شكيب أرسلان سكرتير اللجنة السورية الفلسطينية والشهبندر ورياض الصلح، في جنيف. كيف يقبل الوفد الفرنسي وحدة الأراضي السورية، وإعادة منطقة العلويين والدروز واسكندرونه والأقضية الأربعة التي ألحقها غورو بدولة لبنان الكبير؟! لولا مجيء حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم في أوائل حزيران 1936 ورئاسة فيينو الوفد الفرنسي لما اتفق الوفدان على حل وسط: بقاء الأقضية الأربعة في لبنان، مقابل إعادة جبل الدروز وجبال العلويين إلى سورية. اعترفت فرنسا بأن اسكندرونه لسورية شرط إعلان نظام خاص لها فيما بعد.

يوم رحل بهاء إلى فلسطين ترك لابن الكحال أن ينقل لنفيسة أخبار الوفد. وبشّرها ابن الكحال: ستستمر المفاوضات حتى أوائل أيلول! فاحتفلي يانفيسة خانم! وقع الوفدان بالأحرف الاولى على المعاهدة في احتفال رسمي في وزارة الخارجية الفرنسية في التاسع من أيلول. وسيوقع عليها في سورية مجلس نيابي ينتخب دون تدخل فرنسي. وهاهو المجلس النيابي الذي فازت الكتلة بأكثريته! تتنهد نفيسة وتقول له: نحتفل وبهاء غائب في فلسطين، لانعرف مصيره إلا من

www.alkottob.com

قصاصات تجدها منور تحت بابها؟! لم تتوقع أن بهاء سيعود من فلسطين مع المتطوعين الأحياء قبل توقيع المعاهدة!

أصدر دو مارتيل في الثاني من كانون الأول سنة 1936 قرارا يلحق جبل الدروز بسورية وقرارا في الخامس والعشرين منه يلحق جبال العلويين بسورية. استقال محمد علي العابد من رئاسة الجمهورية، وانتخب المجلس في جلسته الاولى في الحادي والعشرين من كانون الأول سنة 1936 فارس الخوري رئيسا للمجلس، وهاشم الأتاسي رئيسا للجمهورية السورية. وكلف جميل مردم برئاسة الوزارة. وسيصادق المجلس في السابع والعشرين من كانون الأول سنة 1936 بالإجماع على المعاهدة. وستصادق عليها الحكومة السورية. وترسل نسخة منها إلى الحكومة الفرنسية ونسخة إلى دو مارتيل الذي سيوقع عليها. لن تعود النسختان موقعتين إلى الحكومة السورية! لكن الحكومة السورية ستعتبر أن المعاهدة نافذة لأن المندوب السامي وقع عليها. فتعين مظهر رسلان محافظا على اللاذقية، ونسيب البكري محافظا على جبل الدروز.

هل تفوت نفيسة ذلك الحدث؟ قال ابن الكحال لها: ستعرض المعاهدة بين سورية وفرنسا على النواب، فلنحضر الجلسة مع المتفرجين! تعرف نفيسة أن المدن احتفلت بالوفد الذي رجع من باريز. استقبله الناس في محطات القطار التي مر بها من حلب إلى دمشق. لكن الكلام كثير، يمدح بعضه المعاهدة ويحذر بعضه منها. لن تتردد نفيسة في حضور الجلسة!

بقيت نفيسة على عاداتها، تزين يدها بسوار وأصابعها بخواتم، وتلبس أحيانا عقدا من اللؤلؤ أو الألماس. ظلت تحب الزمرد والياقوت وتهوى أحيانا الفيروز المخضر. لكنها لم تلمس حليها منذ الإضراب الكبير. وهاهي المعاهدة تنهي الاضطرابات، وتسمي فرنسا حليفة! وهانحن نعود، يانفيسة! تأملت نفسها في المرآة وهي تضع المنديل على رأسها. ماتزال تربطه في أناقة. من حظها أن خديها مستديران مرتفعان يوحيان بالشباب! ومن حظها أن القدر ترك لها ابن الكحال! تهبّ عليها نظرته كنسيم في مساء الصيف.

أطربها صوت الماء الذي سكبته على نفسها في الحمام. خرجت ملفوفة بالمناشف المقصّبة، وشربت فنجان القهوة وهي ملفوفة بها. راقبتها مرجانة من بعد. أين سرحت نفيسة خانم، بم تفكر، ولماذا تهز رأسها؟

أغمض ابن الكحال عينيه مستسلما لعطر الصابون الذي هفّ منها عندما رآها تنتظره مرتدية ملاءتها. وأسعده أن يمشي معها. هدأت خطوته، وكانت حتى

www.alkottob.com

في الشباب هادئة. لكن خطوتها ماتزال خفيفة. كيف تحفظ شبابها؟ بالعناد؟ لم يرها مرة دون مشروع يشغل بالها. في الشباب كان ذلك يثير غيرته، وربما تمنى مرة أن تترك تجارتها، حالما بالاستئثار بها. ثم فهم أنها، لو حدث ذلك، لما كانت نفيسة. على كل حال، تمردت على أحلامه! وتعوّد أن يتابعها من بعد كمطلّق، وتعلّم أن صداقتها حلوة. فهل قصدت أن تفهمه أن في الدنيا عواطف ليست أقل عذوبة وعمقا من الحب؟ رغم القرب بينهما بقيت أسئلته كأسرار يستعذب التفكير فيها أحيانا وهو جالس في مخزنه في باب البريد، مستريحا على كرسي مغطى بسجادة من الحرير. كأن تلك الأسئلة أطياف من هوى قديم لايستطيع، في هذا العمر، أن يبتعد أكثر منها!

شعرت نفيسة وهي تمشي معه بنعومة رزانته، كما تشعر بنعومة ملاءتها. ياإبن الكحال، أصبحت هذه هدايانا؟! أدعوك إلى العشاء، وتدعوني إلى جلسة مجلس النواب! ابتعد زمن الفلّ والورد! تذكرت نفيسة وهي تمشي معه مانسيته طوال السنوات الماضية. ذات يوم أفاقت على عبق وردة جورية. فتحت عينيها فوجدت وردة على الوسادة، قرب وجهها. قطف لها وردة من المشرقة، وانتظر أن تصحو، لكنها كانت مستسلمة لنوم عذب. بدت له نفيسة يومذاك أحلى من الوردة الجورية. كان شابا منتصرا باكتشافه الحب! خيل إليه في تلك الأيام أن حبه يعبق في البيت ويغطي عطر الياسمين والفلّ والورد! أين ذهب ذلك الشباب فنسيت متى يفتّح الورد؟ كاد يلومها: أنت أخذته ورميته! لكن ماذا يعطّر حياته اليوم غير اللقاء بها؟ يعبر عمله وطعامه ونومه كما يعبر الطريق بين باب البريد والقنوات، منتظرا المساء الذي يجمعه بها. صارت هموم التجارة أكثر من فتنتها. خنقتها الضرائب والممنوعات. لايصدر ولايستورد ماتحتاج البلد بل مايقرر لها. وقف السوق! لولا نفيسة لكانت حياته في مثل عتمة مخزنه. كيف استطاعت نفيسة أن تحمي روحها من العمر ومن جروح موت الأحبة؟ كيف تستطيع أن تقول له حتى اليوم: "هل وصلت إليك رائحة الياسمينة"، كأنها تكتشفها في تلك البرهة؟! تغمره بأضواء فانوسيها في أرض الدار، بأناقة حركتها وملابسها، بعبق طعامها. كان حتى في شبابه قنوعا متقشفا فجرّته نفيسة إلى وهج المتعة بالماء والطعام والملابس والحلي والزهور. وفتنته كمتفرج بعطشها الأنيق إلى الدنيا. أتعبه ذلك يوم كان يعيش معها. فوجد نفسه وسط دوي من الصباح إلى الليل. لكنه، من بعد، استمتع بمتابعة حركتها وأناقتها فإذا ارتوى عاد إلى هدوء بيته. يتمنى أحيانا أن يفيق على صوت قبقابها في أرض الدار! وأن يتفرج عليها في المساء وهي

www.alkottob.com

تحبك عقدا من أزرار الياسمين! أوجعه مرة أن يتذكر أنها لم تكن تترك لمرجانة أبدا شطف أرض الدار في الصباح، وكانت تسكب الماء من البحرة في هوى، وتغسل البنفسج في الأحواض وأصص النباتات. وتحبك عقود الياسمين في المساء. وكأن الشوق إلى تلك الأيام نسل خيوطا من قلبه. لكنه صدق مع نفسه فاعترف بأنه ماعاد يستطيع أن يستسلم لسطوة حياتها في النهار والليل! وكأنها نطقت بما في قلبه. فقالت له يوم أظهر لها أنه يعود إلى بيته كالمرغم: ماعاد أحدنا يطيق أن يسمع حركة إنسان آخر في غرفة نومه! فليكن! هاهو يمشي معها منتشيا بهواء دمشق النظيف، برطوبة بساتين الكركة وبساتين وراء الدور، وسيعود كل منهما إلى غرفته التي لايسمع فيها حفيف الآخر!

قاست نفيسة وابن الكحال، خير المعاهدة وشرّها دون أن يعرفا بدقة هذا من ذاك. فكانت تأخذ مكان المعارض إذا أثنى على المعاهدة، ويأخذ موقف المعارض إذا أثنت على المعاهدة. وهاهما معا أمام الحقيقة! سيفحصانها ليعرفا هل انتصرت المعاهدة للتضحيات السورية أم فرّطت بها! أمامهما الرجال الذين تثق فيهم البلاد! لاتشك فيهم نفيسة، لأنهم سجنوا ونفيوا وضحوا لبلادهم. لكن جلّ من لايخطئ! لايطوّب الوطن لهم ولا لغيرهم! همس ابن الكحال: لو لم تتغير الحكومة الفرنسية لما استطاعوا أن ينجزوا المعاهدة! لن يغريها كلامه، ستستمع لتعرف خير المعاهدة من شرها!

سجلت نفيسة نهاية كانون الأول سنة 1936 في عمرها على صخرة مرتفعة كصخرة الربوة! هل انتهى الاحتلال الذي قلب حياتنا منذ ميسلون، حقا؟ خطف ابن الكحال نظرة إليها فوجدها جادة، صارمة. فشطره لمعان كالبرق. كيف فاته أن يتذكر في تلك البرهة خالد آغا! كيف غاب عن باله أن نفيسة تحضر الجلسة باسمه متسائلة هل نسوه أو هان عليهم دمه؟!

وقّع المعاهدة في التاسع من أيلول، في باريز، دو مارتيل عن فرنسا، وعن سوريا جميل مردم رئيس الحكومة السورية، وسعد الله الجابري وزير الداخلية والخارجية، وشكري القوتلي وزير المالية والدفاع. كلف المجلس لجنة منه بدراسة المعاهدة لعرضها على المجلس النيابي والتصويت عليها. رئيس اللجنة فائز الخوري، ومن أعضائها صبري العسلي، الشاب الذي نجا من معركة جباتا، حيث قتل أحمد مريود وبقية آل العسلي، أسرة الشهداء! فهل يمكن ألا تثق في هؤلاء؟!

عبرت بسرعة كلام فارس الخوري، رئيس المجلس، وأمين السر ناظم القدسي، وانتبهت إلى فائز الخوري. استبعد الفرنسيون كل هؤلاء! ألا يثير السخرية

www.alkottob.com

إذن أن يبرر الانتداب بأنه "لتحضير" البلاد! أليس هؤلاء الرجال متعلمون درسوا في الجامعات العثمانية والغربية؟! ستظل تذكر مداخلات منير العجلاني في تلك الجلسات، وتقول أخذ هذا الشاب علومه من باريز، فلاتضيقوا به إذا عرضها! ستهدئة الأيام! في المساء ستتحدث مع ابن الكحال عن منير العجلاني، ابن الشيخ الذي كان يسكن في حي سيدي عامود، صاحب الأراضي في دوما، وعن قريبه الذي كان رئيس بلدية دمشق وعضوا في مجلس المبعوثان. درس منير العجلاني في كلية الحقوق في دمشق، ثم في فرنسا، وتابع في جامعة السوربون دروس الأدب والفلسفة، وكتب مقالات في جريدة "المساء" الفرنسية انتقد فيها السياسة الفرنسية في سوريا، فأبعد عن الجامعة وعن باريز. بعد إقامة قصيرة في سويسرا، أخذ شهادة في الحقوق وشهادة في الصحافة. وهاأنت يانفيسة خانم، تقرئين مقالاته في القبس. منير العجلاني من "الشباب الوطني" الذي تربيه الكتلة. لكن تطلعاته واسعة. يريد نقل السياسة من رجال الأحياء إلى المثقفين، ويحلم بأن يحكم البارلمان البلاد. قالت نفيسة: المستقبل لهؤلاء الشباب. فهل سنكون أحياء لنعرف صوابهم من خطئهم؟ هز ابن الكحال رأسه. أتتحدث نفيسة عن الحياة والموت؟ قد يكون الموت قدر أي منا، لكنه لايمكن أن يكون قدرك، يانفيسة خانم! نظرت إليه ساخرة: يوه! الموت قدّر حتى على الأنبياء! يبدو أنك تضعني بين الملائكة ياإبن الكحال، فهات صحنك لأسكب لك بامياء!

في المجلس استمعت نفيسة إلى حديث فائز الخوري عن مقدمة المعاهدة. فيها اعتراف بالطرف السوري، فالاتفاق موقّع بين الحكومة السورية والحكومة الفرنسية! هذا انتصار، يؤكده في متن المعاهدة التشاور في السياسة الخارجية. في المعاهدات والاتفاقات التجارية والقضائية وغيرها الحكومة السورية حرة. مع الالتزام بالعقود الدولية مع الجارات، ومن هذه العقود معاهدة أنقرة بين فرنسا وتركيا سنة 1921 التي تتعلق باسكندرون. معروف أن أكثرية سكان اللواء عربية وأنه قطعة من سورية، ومن كان من سكانه تركيا باللغة فهو سوري! نمنح حكومتنا الثقة للدفاع عن هذا الحق!

كادت نفيسة تصفق كالنواب المصفقين، وكادت تغص أيضا! لمست يد ابن الكحال وقت عرض التحالف الدفاعي. تسهيلات لفرنسا! مدة التحالف خمس وعشرون سنة؟ تتجاوز المدة مابقي من حياتنا، ياإبن الكحال! تسهيلات خلال مدة التحالف فقط، وليست أبدية كما في المعاهدة العراقية مع إنكلترا! لكن الملاحق تجيز تعديل المعاهدة. همست نفيسة: يقول الفلسطينيون نريد معاهدة مع إنكلترا

www.alkottob.com

كالمعاهدة الفرنسية مع سورية! اسمعي، يانفيسة! "وهذه المادة تنفي ماخامر بعض النفوس من القلق عند الظن بأن المعاهدة آية منزلة لايأتيها الباطل ولايجوز تعديلها. ولايخفى أن المحالفة بين الدولتين تعني التفاهم والاتفاق، ولايعقل أن يأبى أحدهما إعادة النظر في معاهدة بينهما إذا تبين أن في ذلك مصلحة ومنفعة.. وقد حددت المادة السابعة موعد وضع المعاهدة موضع العمل يوم دخول سورية في جمعية الأمم، أي بعد ثلاث سنوات من تاريخ تصديقها. ولايخفى أنه إذا زالت جمعية الأمم من الوجود يزول معها انتدابها حتما".

هذا رجل قانون يكشف تفاصيل دقيقة، ياإبن الكحال. لكنه كمن يؤمل إبليس بالجنة! هل ننتظر أن تزول جمعية الأمم؟ اسمعي، اسمعي، يانفيسة! في حالة الاختلاف يلجأ الطرفان إلى التحكيم وهذا يمنع فرنسا من كل تدخل مباشر في شؤون سورية! اسمع أنت، ياإبن الكحال! ما أحلى الصراحة! "والحقيقة أيها السادة أن الضامن الوحيد للحق هو القوة.. ونحن نرى في هذه المادة ضمانة حقوقية خالية من القوة المؤيدة لنا، ولسنا منفردين في هذا الموقف، فكل معاهدة تعقد بين فريقين تضع هذا الأسلوب السلمي القضائي لحل المنازعات..إن عزيمة الشعب تعلن حق القوة، وإذا ذكرنا أن جهاد السوريين هو وحده الذي أوصلهم إلى هذه المعاهدة.. فهؤلاء السوريون أنفسهم مستعدون للجهاد كل يوم لتأييد استقلالهم وفرض احترامهم". صفقت نفيسة وهي تشعر بحرارة دمع محبوس في عينيها. تذكرت صوت القنابل، ودمار حي سيدي عامود وخرائب السنجقدار، وتنهدت. بدا لابن الكحال أن عتمة مرت على وجهها، فأغضى. خطر له أنها تتذكر سعيدا وخالد آغا! هل تعرف أيها المتكلم ماذا لمست؟ خراب البيوت وفقد الأحبة! لو تستطيع أن تقول له تعال تفرج على مايبس في قلبي! كأنك تقول اقطعوا شجركم ودوسوا وردكم! ومع ذلك، صدقت، هانحن هنا!

كانت نفيسة تزهو بأن قدميها في هذا العمر ناعمتان. لكن أيام الإضراب الستيني غيرت ذلك! خشن كعباها، وبقيت أثر جروح على أصابع قدميها من المشي طول النهار! هل أريك قدمي، أيها المتكلم؟! أم أروي لك حزن النساء اللواتي قدمت لهن أيام الإضراب مؤونة تعود أن يقدمها لهن أزواجهن المعتقلون؟

ستستلم الحكومة السورية الجيش! سيحمي هذا أبناءها من نقلهم إلى حروب في بلاد غريبة. ستبقى لدينا بعثة فرنسية ذات صفة استشارية. لن نرسل بعثاتنا إلا إلى معاهد فرنسية. وستحرس سورية مطارين تختار فرنسا موقعيهما. وخلال ثلاث سنوات تكون القوات الفرنسية قد جلت عن سورية وما يبقى منها خمس

www.alkottob.com

سنوات أخرى ليست له صفة المحتل في المعاهدة. وستضم محافظتا اللاذقية وجبل الدروز إلى الوطن الأم. مع لبنان سنعمل على "تثبيت الوحدة الأخوية قبل حرصنا على الوحدة السياسية".

أعجبت نفيسة الصراحة التي عرضت بها المعاهدة. أعجبتها الأخلاق التي عرضتها! وضع السياسي السواد والبياض أمام النواب. لم يدّع الكمال! التعهد باحترام سورية الحقوق المكتسبة وضع "غلا ثقيلا في عنق البلاد.. والحقيقة أن هذا التعهد شرّ لابد منه، ومصيبة لامرد لها، ويكفي لإدراك ذلك ذكر أن البنك السوري وامتيازه ومقاولات الخطوط الحديدية التي عقدتها حكومة الاتحاد سنة 1925 لمدة ثمانين سنة، وعقود الماء والجر والتنوير في دمشق وحمص وحماة وحلب التي عقدتها رئاسة الوزراء بعد ذلك التاريخ، يشعر السوري بالغبن الفاحش الذي يصيبه من احترام هذه المنافع تحت ستار الحقوق المكتسبة. ولكن يجب أن نذكر أن هذا الوضع الدولي أوجدتنا فيه جمعية الأمم ومثّلتها فيه فرنسا وأقرتها على أعمالها جميع الدول.. على أن حكومتنا استطاعت أن تحتفظ بحق طلب تعديل هذه الحقوق مع مراعاة حالة البلاد الاقتصادية والمالية".

أتعرف، ياإبن الكحال، ماهي سمة العقلاء؟ أنهم يضعونك وسط العالم، لكنهم لايضعونك فيه عاجزا أمام هذه الدنيا غير العادلة، بل يحفزونك على طلب حقك! ولايرون الشهداء والهزائم تضحيات ضائعة بل مساحات كسبوها ويمكن أن يوسعوها! ياإبن الكحال، هذه المعاهدة سكّر مرّ، ولن تبقى! لكن إذا صاغ رجال آخرون مثل هذه المعاهدات بيننا وبين الغرباء الأقوياء هل سيصوغونها بمثل هذه الكرامة والغيرة؟ هل سيفحصون كل كلمة، ويحتاطون من كل فخ، ويفتحون الأفق حتى لإلغاء المعاهدة التي يوقعونها؟! رد ابن الكحال وهما يمشيان عائدين إلى سوقساروجا: المعاهدات في قامة من يوقعها ومن يصوغها، يانفيسة خانم! لكن اطمئني فالناس لن يقبلوا إلا الصحيح! تنهض هذه البلاد كلما بدا لك أنها غفت! صال الفرنجة وجالوا وظلموا وحكموا، فأين هم؟! يبدو أن السيد المسيح على حق فلن تبقى في الدنيا إلا البذرة الطيبة!

يوم نزلت قيمة الليرة شعرت نفيسة بأن فرنسا تسرقها. منذ اشترط غورو النقد الورق وجمعت العملة الذهبية والفضية من الناس سرقت البلاد! منحت فرنسا مصرف سوريا ولبنان حق إصدار أوراق نقدية دون احتياطي ذهبي. لكنها منحت بنك فرنسا حق إصدار الورق مقابل احتياط ذهبي. فاشترى الذهب بالورق. وخفضت قيمة الفرنك فربح البنك من الخفض الأخير سبعة عشر مليارا من

www.alkottob.com

الفرنكات. اسمع ياإبن الكحال، هذا الكلام الصحيح! "ليس التعادل في العملة بين دولتين ضارا بمصالحهما وإنما الضار هو القواعد الجائرة التي يبنى عليها هذا التعادل. ولذلك لابد من معالجة هذه القضية"!

ختم رئيس اللجنة عرض المعاهدة بأسلوب أحبته نفيسة. "نحن ياسادة لانقول إن معاهدتنا هي الهدف الأعلى وإنها خير مايؤتى به. ولكننا نقول إنها خطوة اولى واسعة مباركة ستتبعها خطوات سديدة ثابتة"..

تأملت نفيسة المتكلمين في هدوء. الشخص بفكره وكلامه! وبسلوكه يانفيسة خانم! هذا فخري البارودي! عرفته من صوته! لاتزال المعاهدة حبرا على ورق، والعبرة في النفوس لافي النصوص. بل العبرة في النصوص أيضا، يافخري بك! يريد فخري البارودي أن يفهم الأمة أن عملها لم ينته بعد. ألاّ تتخدر أعصاب الشعب بهذه الجرعة الصغيرة من الحرية للقطر السوري.. ومالهدف الكامل إلا تحرير الأمة العربية وجمع شتاتها في دولة واحدة.. استقلال العرب في كل قطر من الأقطار يظل ناقصا مبتورا مادامت تلك الأقطار منفصلة بعضها عن بعض ولم ينتظم شملها في دولة متحدة واحدة!

ستسمع نفيسة ذات يوم ليلى، ابنة بهاء، تنشد:

بـــلاد العـــرب أوطـــاني مـــــن الشـــــام لبغـــــداد

فتسألها أتعرفين من كتب هذه الكلمات؟ فترد: لا! فتتأوه نفيسة: نسينا بسرعة فخري البارودي؟! لاتضيعي ياليلى ذاكرة بلدك! كانت نفيسة في تلك الأيام مهتمة بقراءة الأغاني وتاريخ الطبري.

ذكر فائز الخوري والبارودي، المبعدين. ذكرهم المتكلمون الآخرون. وقرر لهم المجلس نفقات عودتهم. ذلك يصون كرامتهم بدلا من التبرعات التي تجمع لهم في فلسطين والأردن! واجب علينا، يانفيسة خانم!

ستقول نفيسة لابن الكحال في الطريق إلى بيتها: سمعنا أمنيات! لولا المناقشة لما عرفنا بلادنا! الله يعين الحكومة على مايجب أن تحمله! أتى الانتداب ليحضّرنا؟ خرب بلادنا، وياوطنيين تعالوا صححوا ماخربه! مشروع الدولة العربية هو الذي كان لخير البلاد! لم تبال نفيسة بالأقضية الأربعة. قالت: ماالفرق بيننا وبين لبنان؟! المهم ألا يدخل بيننا الغرباء! لكن اسكندرون غصة في الحلق. أخذوا فلسطين والأردن من بلاد الشام فهل يقطعون رأسها في اسكندرون؟! هذه نتيجة تفكيك الدولة العثمانية! هل نغرس فوق قبور الأتراك في سورية رايات

www.alkottob.com

تركية، وتغرس فوق قبور العرب في تركيا رايات سورية وعراقية؟ وأية رايات نغرس فوق القلاع التي شيدها العرب، وفي ديار بكر واورفة وعينتاب؟

خيل لابن الكحال أنه يسمع خالد آغا! أيمكن أن يعيش إنسان في آخر طوال هذه السنوات؟ التفت إليها فابتسمت. فهمته؟ ياإبن الكحال، نكتشف متأخرين مايقوله أنبياؤنا مبكرين! كأنما كان يجب أن تقدم لنا الأيام الشواهد كي تقنعنا بما استشفوه قبلنا! ينبع نهر الفرات من تركيا ويجري في سورية وفي العراق. كان ينساب كما انسابت حياتنا. واليوم يجب أن يعبر الحدود! أتعرف من فهم هذا أكثر من غيره؟ فهمه من رأى البلاد متصلة خلال أسفاره، وقرأ مصيرها ببصيرته! قال ابن الكحال: سبقت البارودي، يانفيسة خانم! أراد أن يوحد بلاد العرب، وتريدين أن تعيدي الدولة العثمانية! ردت: المصيبة أن بلاد العرب قسمت لأن الدولة العثمانية اقتسمت. أم أنستنا ذلك المعاهدة والحلم باستقلال سوريا؟ ولكن لم الغمّ اليوم؟ اليوم احتفال!

انسابت ضحكة نفيسة كأنها تبعثر الهم: خيل إلي أن عدة نواب تطوعوا ليظهروا كآباء لمنير العجلاني. بالنقد، وبالعطف! هو فتح لهم الباب، يانفيسة خانم! بدأ كلمته بإعلان: أرجو ألا تحرج صدر أحد من النواب الكلمات التي يقولها شاب مثلي يدخل المجلس النيابي مزودا بأعلى درجة علمية من أرقى جامعة في العالم! ضحكت، واستمع ابن الكحال إلى عذوبة ضحكتها. لكنه، ياإبن الكحال، سأل سؤالا لم يخطر لأحد: إذا وقعت فرنسا على معاهدة غير معاهدة أنقرة ثم صدقنا على معاهدتنا نكون صدقنا على معاهدة غير التي تعترف بوضع اسكندرون الراهن! يانفيسة خانم، يحب الشباب أن يخترعوا موضوعات ليظهروا علمهم! يحتاجون الزمن ليصبحوا أكثر ثقة في أنفسهم! الدنيا ملأى بموضوعات حقيقية. لذلك أجابه ناظم القدسي إن الخلاف هو بين تركيا وبين عصبة الأمم لابينها وبين فرنسا. أعطت معاهدة لوزان الخيار لمن تحت الانتداب فاختار ثمانون ألفا الجنسية السورية. يعتقد ناظم بك أن تركيا لن تفقد سبعين مليونا من العرب المخلصين للأتراك! احلم ياإبن الكحال، كأنك تعرف الغيب!

في آخر كانون الأول، بعد جلسات المجلس النيابي، احتفلت نفيسة مع ابن الكحال فحضّرت عشاء فاخرا ذكّره بالأيام التي كانت تدلّل فيها خالد آغا. هانحن، يانفيسة خانم، قد احتفلنا معك بإعلان الدولة العربية، وعشنا معا في أيامها، ورأينا إلغاءها، وهانحن نخرج إلى الاستقلال! لاتستعجل، ياإبن الكحال! "لاتقل فول حتى يصير في العدول"! نسيت حذر التجار؟! آه، يانفيسة خانم، من حذرك!

www.alkottob.com

ضيعتني به! كان يحب اليلنجي الذي تحضّره، ويضعه أعلى من الكبة المشوية. لكنه فوجئ بصحن من الكبة النيئة يعرف أن خالد آغا يحبه. لم يجسر أن يمد يده إليه. رفعت صحن الكبة النيئة وهي تراه يتحاشاه: تفضل! تساءل بصمت فهزت رأسها: تفضل! لكنه لم يرها تلمسه إلا في آخر السهرة. وبدا له أنها تغص به. لنقل، ياإبن الكحال، هذه خطوة إلى استقلال منطقة في بلاد الشام!

في آخر المساء سألها: أتذكرين الرسالة التي قرئت على المجلس ووقعها النائب عبد الله فركوح؟ لاتعرفينه! أنا أعرفه! رجل يعنى بملابسه! يفوح منه العطر! يأتي إلى صاحبه سليمان المعصراني راكبا عربة الحنطور. فيركض أولاد مضيفه ليحضروا له أرجيلة بتنباك عجمي. لايشرب غيره! لم يتزوج، بل يقول كلما ذكر أمامه شخص تزوج: جنّ! ماذا تقصد ياإبن الكحال؟ ابتسم: رويت لك حكاية، يانفيسة خانم!

بعد التوقيع على المعاهدة انشغل منير العجلاني بترتيب مكتبة المجلس النيابي، وانشغلت الحكومة بما رمي عليها! وأطفأت نفيسة أنوار أرض الدار التي تركتها مضاءة طوال الليل، وجلست مع بهاء. تأملت معه من رأتهم وسمعتهم من قرب. ألم يكن فيه شيء من أبيه، خالد آغا! روت له أن لطفي الحفار أوكل لفائز الخوري أن ينبه إلى أن تصديق المعاهدة بسرعة يخلص البلاد من المادة 116 فنتخلص من "ذلك النير الذي مازلنا نئن من وضعه على رقابنا". معه حق، يانفيسة خانم! ألا تذكرين أن الفرنسيين أضافوها إلى الدستور ليحفظوا بها الصلاحيات التي وهبها لهم الانتداب؟ أنسيت أنهم حلّوا الجمعية التأسيسية لأنها رفضت إضافة تلك المادة إلى مشروع الدستور الذي وضعته لجنة رئسها فوزي الغزي؟

حاول بهاء أن يبعد نفيسة عن انحيازها وقت قالت له: شعرت بأن جميل مردم، داهية! لم أسترح إليه! يانفيسة خانم، لايعبر الظاهر دائما عن الباطن! قال جميل مردم إنه يعتد بالوحدة بين الطوائف والأديان والقوميات. ونبه إلى مسألة النقد، والحق السوري في اسكندرونة! فلنبق معه! قال "في عقد المعاهدة الافرنسية السورية لم نعمل عملا سياسيا فحسب بل عملنا أيضا عملا وطنيا". كلامه سليم! هل كان بهاء منزها كالقديسين فاستبعد حتى حدس الضمائر الصافية، كي يبعد الشك في رجل من الكتلة الوطنية؟ لم يجسر أن يتنبأ بأن ابنه سيقتل بأمر الرجل الذي رفض أن تصفه نفيسة بالدهاء! مع ذلك أظهرت نفيسة عواطفها وقت تحدثت عن توقيع المعاهدة. قال فخري البارودي إن لحظة التوقيع على المعاهدة

www.alkottob.com

لحظة رهيبة، فبدا لي ذلك مبالغة وأنا لاأحب المبالغات. لكن عندما عرض فائز الخوري نص التوقيع شعرت برهبة. اقرأ! "تصدق معاهدة التحالف والصداقة المعقودة بين الحكومتين السورية والفرنسية والموقعة بدمشق في الثاني والعشرين من كانون الأول سنة 1936 من قبل مندوبي الجمهورية السورية جميل مردم بك رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد الوطني، والسيد سعد الله الجابري وزير الداخلية والخارجية، والسيد شكري القوتلي وزير المالية والدفاع، ومن الكونت دو مارتيل مندوب الجمهورية الفرنسية". كنت أتمنى أن يخرج الفرنسيون كما دخلوا. دون اتفاقات ومعاهدات! فهل سنتحمل خمسا وعشرين سنة مطارات عسكرية فرنسية، ونتحمل أن يستعملوا طرقاتنا في حروبهم؟

عزى فارس الخوري النواب بالحلاوة في المعاهدة: لم تكن الحكومات تستطيع أن تبدل موظفا صغيرا وهاأنتم أبدلتم رئاسة الجمهورية والوزارة دون أن يعترضكم أحد.. وستوقع المعاهدة في البرلمان الفرنسي في كانون الثاني لتصبح مبرمة! هكذا صدقت المعاهدة بالإجماع، يابهاء. وقدم فخري البارودي المحبرة والقلم اللذين أهدتهما له الجالية السورية في البرازيل ليوقع بذلك القلم على الرسالة التي سترسل إلى الحكومة، واقترح أن تقدم الهدية للمتحف كذكرى! ستسأل ليلى ذات يوم نفيسة أين المحبرة والقلم التي حكيت عنهما؟ فترد نفيسة في سخرية: تسألين عن قلم ومحبرة ومحافظة دمشق تكفلت بهدم حي سوقساروجا واستملاك بيتي وبيت خالد آغا؟! آه، ياليلى، ستنفذ البلدية مالم ينفذه المندوب السامي سنة 1936! نسف الإنكليز في سنة 1936 يافا القديمة ليتخلصوا من الثوار. ولم يقدر الفرنسيون أن ينفذوا هدم سوقساروجا في تلك السنة. فترك ذلك للسوريين!

نثرت نفيسة التفاصيل لبهاء كأنها ترسم لوحة بالفسيفساء. وتأمل بهاء تلك القطع وهو يضع كلا منها في مكانه المناسب. في الجلسات التي تلت التوقيع على المعاهدة، يابهاء، صبت في المجلس طلبات الناس من الحكومة وشكاواهم! بحث المجلس كيف يؤمن مساعدة المبعدين. بينت رسالة النائبين سليمان معصراني وعبد الله فركوح أن الحكومة الإنكليزية زادت البطالة في حمص بمنع السودان ومصر من استيراد منسوجات حمص. وطلبا تخصيص مال لتشييد ضريح هنانو وضريح يوسف العظمة وقبة للشهداء في دمشق. فتساءل النواب في أي بند يضعون تلك النفقة، وكيف يؤمنون موازنة في ظروف غير قانونية. رأى شكري القوتلي اعتماد 1200 ليرة لإعادة المبعدين، و1500 ليرة لضريحي هنانو والعظمة وقبة الشهداء. واقترح منير العجلاني فتح اعتماد استثنائي بقانون خاص

www.alkottob.com

يحال على المجلس للمبعدين والأضرحة لأنه لايحق للحكومة اعتماد تلك النفقات. يابهاء، أمام الحكومة والمجلس مشاكل لاتعد، وقوانين يجب أن تصاغ. كأننا نؤسس كل شيء من الصفر! أترى كيف لايسمح لنا بأن نراكم الخبرة فوق الخبرة؟ لو عاشت الدولة العربية..! يانفيسة خانم، لو استطاعوا أن يرجعونا إلى العصر الحجري لما ترددوا! وأين ذلك، يانفيسة خانم؟ في البلاد التي نبت فيها أول قمح زرعه الإنسان، وأزهرت فيها أول حضاراته، وشيّدت فيها أول مدنه! يابهاء، وصلت إلى المجلس برقيات من بعض العشائر تطلب المساواة بعشائر أخرى. وشكوى من حالة الطرقات في الجزيرة التي تؤخر البريد عن التجار شهرا، ومن نقص المدارس والمعلمين هناك. شكا نائب من حلب من الضرائب. اسمع! قال محجم بن مهيد إنه يتبرع براتبه كنائب، للجيش. فقيل له الجيش أسلحة وهي غير موجودة بعد، فلمن تتبرع! ثم قيل ستكون هناك جمعية طيران فأعلن أنه يتبرع لها! وطلبت جوقة القمصان الحديدية بدمشق أن تكون جوقة موسيقى الجمهورية السورية! بحث المجلس حتى في رواتب أعضائه وفي ثمن القرطاسية وفي نفقات رئيس الجمهورية، وقرر للنائب راتب مائة ليرة، ومائة وخمسين ليرة لكل دورة. انتبه معي، يابهاء، إلى منير العجلاني! عندما نوقش حق الحكومة في مراسيم اشتراعية خلال عطلة المجلس ثلاثة شهور، قال العجلاني إننا أمام مشروع نتنازل فيه عن سلطاتنا وحقوقنا، ولايجوز أن تمنح الحكومة ذلك بهذا الإطلاق، ونحن في بداية حياة دستورية يجب ألا نخلّ بها. أريد أن تمنح الحكومة الدستورية حقوقا وصلاحيات، ولكن يجب تحديد هذه الصلاحيات وإسنادها إلى مواد في الدستور. فقال جميل مردم إنه لم يطلب تلك الصلاحيات شهوة في الحكم وإنما حرصا على المصلحة العامة. قال: تقدمت إليكم بهذه المادة لأن الحكومة تواجه الصعاب، لاسيما مشكلة اسكندرونه. فرد منير العجلاني: ماعلاقة قضية اسكندرونه بالمراسيم الاشتراعية؟ أعجبتني دقة هذا الشاب. وتساءلت، هل بدأ باسم الوطن تجاوز الهيئات الدستورية؟!

لم تكن نفيسة من الأشخاص الذين يضيعون في التفاصيل! لولا بصرها الساطع الذي يستشف الجوهر أكانت تستطيع أن تسحر خالد آغا يوم حدثته عن علاقة لم ينتبه إليها بين الحرير والاحتلال؟ فماذا قصدت من حديثها لبهاء عن التفاصيل؟ تنهدت: اختتم المجلس النيابي الدورة الاستثنائية باسم رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، والحكومة! كل شيء على الأصول، ونحن دولة مستقلة! فهل تصدق ذلك، يابهاء؟ ليس لدينا بعد سوى الورق، يانفيسة خانم! لم تقدم المعاهدة

www.alkottob.com

لسورية استقلالا عسكريا واقتصاديا! لم تستعد الجمارك، ولم تحرر النقد من بنك سوريا ولبنان! مع ذلك هي خطوة خارج الانتداب إلى الاستقلال. أعرف أن فارس الخوري بالغ في محاسنها يوم حاضر في الجامعة السورية. لكنه قال لأصحابه في صراحة لم نستطع أن نأخذ من الفرنسيين أكثر من ذلك. تنهدت نفيسة: وضعوا لنا سايكس بيكو، يابهاء، وصرنا نسعى لنستقل في أقطارنا التي حددوها لنا!

www.alkottob.com

في عكا، رأت سعاد القهر على وجه عبد الرحيم. ومع ذلك يكبح غضبه! ياله من جبار! وضعت أمامه فنجانا من القهوة: روّق! قال: يفرض التنازل دائما علينا! هانحن أوقفنا إضرابا عاما في فلسطين كلها دام ستة أشهر، وقدمنا شهاداتنا للجنة الملكية البريطانية! وما هي النتيجة؟ في اليوم الذي عادت فيه اللجنة الملكية إلى لندن وافقت الحكومة البريطانية على استقدام 1800 مهاجر يهودي إلى فلسطين سيصلون بين تشرين ونيسان سنة 1937. قررت اللجنة العربية العليا ألا تتعاون مع اللجنة الملكية، فتدخل الملوك العرب! فقلنا: لنقدم إذن شهادات قيمة للجنة يصوغها السياسيون والمحامون! ولنقتسم الموضوعات! لكن هذه الأشهر ضائعة، ياسعاد! فرض علينا، أن "نلحق الكذّاب لوراء الباب"!

طوال التحضير للشهادات وخلالها قلما اجتمعت سعاد بعبد الرحيم على غداء أو عشاء. كان يصادفها نائمة فيحرص أن ينسحب إلى طرف الفراش. وتنهض مبكرة فلا توقظه، مقدرة أنه متعب من اجتماعات الأمس. يفطر مسرعا ويقول لها: لا تنتظريني وقت الغداء! وتعرف دون أن يوصيها، أنها لن تتوقعه.

تابعت سعاد شهادات العرب أمام اللجنة الملكية. فليفهم الإنكليز أننا رجال متعلمون يعرفون حقوقهم! أضحكتها شهادة رئيس بلدية غزة. "أزعج نسلنا اليهود فقاموا بضجة في صحفهم.. يطلبون من الحكومة تعقيم أهل البلاد كيلا يتزايدوا فيضروا بسياسة الوطن القومي اليهودي. ألا ترون أننا أصبحنا في بلادنا كالهنود الحمر في أمريكا"؟

وسط تلك المشاغل وصلت شفيقة مع زياد: اشتاق إلى أمه وأبيه! لاحظت سعاد أنه بقي ممسكا بشفيقة. قبلته: أنا، مثلك، مشتاقة لأبيك! أمسكت بيده: تعال معي، خبزت الكعك الذي تحبه! عاتب لأني تركتك عند شفيقة؟ قدرنا ياولدي. هل يفهمها؟ انحنت عليه. تعرف إذن أني مضطرة أن أتركك عند الست شفيقة!

www.alkottob.com

وضعت أمامه صحن الكعك. هذه كعكة كشجرة، وتلك كأرنب، وهذه كقطة. كانت تترك له العجين ليشكله. فشكلته له في غيابه كما يشتهي! هبت عليه رائحة اليانسون وأغرته. في أسبوع نسيتني يازياد، أم غضبت علي؟ تأملها. حلوة! نعم، تعجبه! ليتها تنصرف إليه كما انصرفت إليه شفيقة! سيتذكر تلك البرهة، بعد عقود، وسيستعيد أمه الجميلة وهو مستلق تحت سماء واسعة يخترقها هدير القنابل الإسرائيلية. وسيشعر بأن سعاد تلك اللحظة، سعاد الشابة، سعاد عكا، تضع رأسه على ساعدها. وسيخيل إليه أنه يشم عبق اليانسون في الكعك!

ياخالتي، سمعت شهادة المطران غريغوريوس الحجار أمام اللجنة الملكية؟ لو رأيته لقبّلت خده! خذي الجريدة! ميتروبوليت عكا وحيفا والناصرة والجليل يقول للجنة الملكية: "اليهود هنا ليسوا من عنصر واحد ولامن دم واحد فمنهم بولونيون وروس وتشيكوسلوفاكيون وفرنسيون وإنكليز وألمان.. لا تجمعهم إلا رابطة الدين، لذلك لا نفهم معنى الوطن القومي الذي وعدوا به"! أعجبني المطران، ياخالتي شفيقة. ردد ما تقولينه: أفسد مشروع روتنبرغ جلال طبرية!

راقبت سعاد الشهادات! هل قصر الشهود بكلمة؟ هل كتموا حقيقة؟ لا، أبدا! اقتسمت اللجنة العربية العليا الموضوعات. ذكر أمين الحسيني البيان الذي أذاعه اللنبي في الثامن من تشرين الثاني سنة 1918 في المدن الفلسطينية "الغاية التي رمى إليها الحلفاء من خوض الحرب في الشرق هي تحرير الشعوب من حكم الأتراك وتأسيس حكومات وطنية تستمد سلطتها من رغبة السكان واختيارهم، وليس لبريطانيا العظمى ولا لفرنسا أي قصد في وضع نظام خاص لهذه الأقطار". قصد البيان فلسطين كما قصد بقية البلاد السورية! يعرف الحسيني أن الحلفاء لم يحاربوا ليحررونا.. لكنه يقدم النص وليقولوا كذبنا! تساءل الحسيني أي الوعود نصدق، هذا الوعد أم وعد بلفور؟ ذكر قرار مجلس اللوردات في سنة 1922 عن ضرورة تعديل دستور فلسطين ليتفق مع رغبات العرب. ذكر وعد ماكدونالد له في لندن سنة 1930 أقسم له بشرفه أنه سينفذ توصيات لجان التحقيق، لكن ماكدونالد نقض قسمه بالكتاب الأبيض فأهمل توصيات لجنة سمبسون! ذكر أمين الحسيني أن مشروع روتنبرغ غير طبيعة طبرية كمدينة تاريخية. قال إن الحكومة البريطانية "تخضع للمطامع اليهودية". أسباب الاضطرابات؟ حرمان العرب من حقوقهم، وإصرار الحكومة البريطانية على تأسيس وطن قومي يهودي. طلب منع الهجرة، وحل قضية فلسطين على الأساس الذي حلت فيه مشكلة العراق وسوريا: إنهاء الانتداب. قال عبد الرحيم لسعاد، كأنه يذكرها بحديثهما القديم عن الحسيني

www.alkottob.com

والقسام: رجل سياسي، ذكي، ثابت المبدأ!

عندما تصفحت سعاد شهادة جمال الحسيني قالت لعبد الرحيم: آه، لا يعنيني إهمال ما اشترطه وعد بلفور من حماية حقوق العرب! أرفض الوعد نفسه! ياسعاد، لا تستعجلي، اسمعيه! "الانتداب بموجب المادة الثانية منه يعطي ذلك الشعب الغريب حقا في أن تضع له حكومة الانتداب البلاد في حالات إدارية واقتصادية وسياسية تسهل له إقامة وطن قومي فيها.. فماذا ترك للعربي صاحب البلاد الأصلي وساكنها؟.. في صك الانتداب النصوص المتعلقة بمصالح الفريق الآخر وأموره واضحة جلية، بينما النصوص التي تشير إلى مصالح العرب غامضة وغير صريحة.. فهل استعمال هذا الغموض طريقة للتملص". قلبت سعاد الصفحات. وقالت لعبد الرحيم: أمام اللجنة يهود يشهدون على المساعدة الانكليزية وضرورة الانتداب. وعرب يشهدون على ضرورة إنهاء الانتداب! فلمن ستنحاز اللجنة؟ تصفحت كلمات الحسيني عن خنق الفلاح العربي بالضرائب، ومنع القروض عنه، ليبيع أرضه. توقفت عند فقرة من شهادته بدا لها أنها تخاطبها. قرأتها مرات. "كان من يتجول في فلسطين قبل الحرب يرى مشاهد لا يراها اليوم. خذ مثلا رحلة من حيفا إلى جنين ومن جنين إلى طبرية وبيسان. كنت أمر من قرية عربية إلى أخرى وأجد من حسن الضيافة وبساطة المعيشة وكرم الفلاحين ما يبهج ويفرح. كنت أرى وجوه الفلاحين الراضية، وكثيرا ما كانوا يتنافسون على إكرام الضيف.. أما اليوم فإن تلك القرى الجميلة لم تعد موجودة، انقرضت وقامت مكانها المستعمرات اليهودية.. وقفت مرة بجانب السيارة ولما رأيت ما حدث لتلك القرى العربية تأثرت جدا وقلت لنفسي هذه هي الصهيونية وهذه هي ويلاتها.. دخل البلاد واحد وثلاثون ألف مهاجر يهودي عام 1933 علاوة على المهاجرين المهربين. والهجرة المهربة اختراع جديد من الوكالة اليهودية.. ودخل البلاد اثنان وعشرون ألف مهاجر يهودي سنة 1934 واثنان وستون ألف مهاجر سنة 1935 علاوة على المهاجرين المهربين الذين بلغ عددهم رقما عاليا خطرا.. وخضعت الحكومة لنفوذ اليهود وسمحت للمهاجرين المهربين بالإقامة في البلاد بصورة نظامية".

نقلت سعاد لشفيقة فرحها بشهادة عوني عبد الهادي. هذا من رجال الدولة العربية ياخالتي! نعم، تذكر شفيقة أيام تلك الدولة التي خنقوها! شهد ياخالتي كعضو في اللجنة العربية العليا! أمضينا المساء كله أنا وعبد الرحيم ونحن نستعيد شهادته! قال، ضاع أربعة آلاف سائح مهاجر في فلسطين بينما لا يمكن أن

www.alkottob.com

أضيع أنا الفرد في باريز أو لندن!.. وذكر نفوذ اليهود على الموظفين الإنكليز في فلسطين. فالموظف البريطاني لا يستطيع أن يدخل بيت يهودي ليفتش عن السلاح، لكنه يستطيع تفتيش أي بيت عربي. الدليل على التحيز البريطاني لليهود أن على النقد والطوابع كلمة أرض إسرائيل بالعبرية! بيّن عبد الهادي أن مستندات اليهود لإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين هي أنهم مشتتون ومضطهدون في العالم، وأنهم يحبون فلسطين. اسمعي ياخالتي ما أحلى حجته! "العرب يأسفون لأن يكون اليهود مشتتين ومضطهدين، ويشكرونهم على حبهم لفلسطين، ولكن لا يمكن لأي شخص في العالم ولا لأي صاحب وجدان أن يقبل أن يكون هذان الأساسان كافيين لهدم كيان شعب آخر". عندما قال إن العرب في البلاد العربية أسعد حالا مما هم في فلسطين سأله السير هاموند لماذا لا ينزحون عن فلسطين؟ رد "الإنسان ليس آلة يوضع فيها بنزين وزيت فتسير في أي مكان! الإنسان روح يعيش في أماكن يحبها، وأعتقد أن لدى حضرات الأعضاء الشعور نفسه نحو بلادهم! أما إذا كان المعتقد أن العرب وحوش رحّل يتنقلون بخيامهم من مكان إلى آخر فهذا خطأ. العرب متحضرون يحملون أقوى شعور وطني تحمله أرقى شعوب العالم". رفع رأسنا ياخالتي! لو ترين فرح عبد الرحيم بأن عبد الهادي قال للجنة إن قوانين السلطان عبد الحميد أرحم من قوانينهم. قال عبد الهادي "كان عبد الحميد أرحم من أي ملاك في فلسطين. قبل الحرب بسنتين صدر قانون يمنع الشركات من شراء الأراضي، وكان المقصود منه عدم التنافس بين الشركات والفلاحين. حمت الحكومة التركية الفلاح من الأفندية باشتراطها أنه إذا اشترى الأفندي أرضا يحق للفلاح أخذها بحق الأولوية". لماذا جمعت الحكومة ديون البنك الزراعي العثماني ولم تفتحه؟ ولماذا لم يطبق قانون سنة 1921 الذي يساعد الفلاح؟ لأن مستر بنتويش، اليهودي الصهيوني، كان رئيس اللجنة التي تألفت سنة 1929 لتشرف على القوانين. فغيّر المادة التي تعطي الفلاح أرضا بدلا من أرضه، إلى التعويض عليهالمال! الهدف سلب الأرض من الفلاح! أين سرحت ياخالتي شفيقة؟ أين؟ أفكر في صاحباتي اليهوديات! أفكر في الشابات اللواتي ساعدنني في البيت، في اليهودية المغربية التي صنعت لي الشعيرية! في من أكلوا خبزي وملحي! تزورينهم ياخالتي؟ لا أثق بمافي قلوبهم، ياسعاد! كأنك ياخالتي، عبد الهادي! قال "أريد أن أؤكد هذه الحقيقة. إن جميع إخواننا العرب في سوريا والعراق وسائر البلاد العربية يوافقون معي بأنه لايمكن أن تنشأ أية صداقة أو محبة بين العرب واليهود مادامت هناك سياسة صهيونية، سياسة وطن قومي، وآسف أن أقول إن اليهود الذين عاشوا بسلام مع العرب قد سببوا هذه الحالة

www.alkottob.com

المؤسفة وأوجدوا العداوة بين الطرفين". سأله مستر هاموند ألا يمكن الحل بإعطاء اليهود قسم من فلسطين فردّ: "لم ترض فرنسا أن تعطي الألزاس واللورين لألمانيا. والعرب يؤمنون أن هذه البلاد بلادهم ولن يعطوا مترا واحدا منها لليهود".

فحصت الست شفيقة سعاد بنظرة طويلة. وتذكرت قدري الذي لم يتحدث مع زوجته عن اجتماعاته في استنبول أو عن المؤتمر السوري. فلم تعرف عنه غير ولعه بزراعة الورود في حديقة البلدية وحديقة البيت. كانت شفيقة مؤتمنة على سره، تعرف اتجاه سفره، وهي التي تدعي أنه نزل إلى الشام "شمام هوا قطاف ورد". لكن ألم يحفظ ذلك للأولاد حنان أمهم؟ ألم يجعل قدري يجد بيتا يريحه من هموم النهار، ويهيء له الطعام الطيب والملابس النظيفة والسرير الأبيض؟ سألت شفيقة سعاد: بينك وبين عبد الرحيم حديث آخر غير الشهادات أمام اللجنة الملكية؟ التقطت سعاد سخريتها. لكن ألا تنبهها إلى مالم تنتبه إليه؟ معك حق ياخالتي، إذا التقينا في هذه الأيام تحدثنا فقط عن البلاد! اسمعي ياسعاد! اغمضي عينا افتحي عينا تجدين نفسك محاطة بأولاد، أو تجدين أنك حرمت بيتك منهم! لن تهدأ هذه البلاد! وسيبقى لك الوقت لتنشغلي بمصائبها. فكري بإخوة لزياد! يستورد اليهود الناس من اوروبا. نحن يجب أن نلدهم هنا!

احمر وجه سعاد. لكن شفيقة لم تبال بحرجها: قلت لك البارحة وأقول لك اليوم، اكسبيني طالما كنت في قوتي. لم آت كي أترك زيادا عندك، بل أتيت لأقول لك لا تتركيه دون إخوة وأخوات! هذه ليست الشام التي تضيق فيها النساء بالأولاد، هذه فلسطين التي تزهو بهم! فهمت؟ لم تنتظر شفيقة جواب سعاد. نهضت إلى المطبخ: ماذا عندك للغداء؟ أم سنأكل ونشرب الشهادات للجنة الملكية؟! ستبقى كلمات شفيقة في أذن سعاد. فهذه المرأة رفيقة قدري، سترت اجتماعاته، وحرست سره، واستقبلت رجال الدولة العربية، وحمت الفتيات في أيام جوع الحرب العالمية، وخبزت للعسكر الأتراك المهزومين، ووزعت قمح البلدية وزيتها على الناس قبل أن يدخل الإنكليز.

لم يصل عبد الرحيم مبكرا في ذلك اليوم. فرحل زياد مع شفيقة دون أن يرى أباه. كان عبد الرحيم مشغولا بمذكرة المحامين العرب إلى اللجنة الملكية. بيّن العمال ما نزل بهم من الهجرة، فلنبين كمحامين ما غيره الانتداب في وضع المحامين العرب! كيف سلب العرب صلاحياتهم في المحاكم، وكانت محفوظة في المحاكم العثمانية! في زمن الحكومة العثمانية كان من العرب رؤساء محاكم نظامية، ومنها المحاكم المركزية والاستئناف. سلبت منهم حكومة الانتداب هذه

www.alkottob.com

الصلاحيات وحصرتها في القضاء الإنكليزي. أنقصت في محكمة الجنايات عدد القضاة العرب فأبقت فيها قاضيا فلسطينيا واحدا بدل اثنين! حرمت العرب من رئاسة جلسات المحاكم التي كانت لهم في زمن الحكومة العثمانية! اخترعت وظائف لم تكن موجودة لحكام صلح بريطانيين برواتب كبيرة! ولعبت بالقوانين لتشرع نزع الملكية.. فنزعت ملكية أرض عربية بالقوة على جبل الزيتون أعطتها لليهود فشيدوا عليها جامعة عبرية. ونزعت أرضا عربية في القدس أعطتها لشركة تجارية يهودية هي شركة شل. وفتح الباب لانتساب المحامين اليهود ليصبحوا أكثرية.

وضع عبد الرحيم في جيبه شهادة جابوتنسكي التي وصلته متأخرة! مقابل العرب الأصيلين في بلدهم هذا الغريب المتعجرف المهاجر من روسيا! قال جابوتنسكي للجنة الملكية في لندن في شباط 1937: أعني بفلسطين المساحة التي تقوم على ضفتي نهر الأردن.. ليس طلبنا أن تكون لنا أكثرية يهودية أقصى مانريد بل هو خطوة لإنقاذ شعبنا.. لا نقول بطرد العرب.. لكني لا أنكر مطلقا أن هذه العملية ستؤدي بالضرورة حتما إلى أن يصبح العرب أقلية في فلسطين.. قيل لكم إنه كتب على العملة والطوابع بدلا من أرض إسرائيل الحرفان العبريان أ.إ. فلماذا الرموز؟ لماذا لا تكتب أرض إسرائيل بنصها الكامل؟.. كان يعوز الحكومة الصدق والصراحة فلم تعلن للعرب: إنكم تواجهون قرارا اعتمده العالم، ولابد من تنفيذه ولن تصبح هذه البلاد أ.إ بالرموز ولكنها في الواقع هي أرض إسرائيل. وسيعاد إنشاؤها وطنا قوميا لليهود.. على العرب واليهود أن يعلموا ماهي الدلالات الحقيقية لصك الانتداب. لتوضع خطة ندعوها خطة السنوات العشر تتضمن إصلاحات الأراضي والضرائب والمكوس والخدمة المدنية وفتح أبواب شرق الأردن للتغلغل اليهودي وضمان استتباب الأمن بإقامة فرقة يهودية وسن تشريع يخول اليهود حق الدفاع عن النفس... فلسطين كلها ضئيلة بالنسبة إلى ما نحتاجه من أغراض إنسانية. لا، لن نقبل بكانتون، بمقاطعة في فلسطين. وإذا أقسمنا لكم أننا نكتفي بها فإننا لمن الكاذبين.. نظام الكانتونات حلم، والتقسيم أكذوبة ولن يتاح لأي منهما أن ينفذ.. قولوا للعرب بصراحة لابد من دولة يهودية تكونون فيها أقلية.. قال هربرت صموئيل سنة 1919 حين كان مستشارا مؤتمنا للحكومة في الشؤون الفلسطينية: في الوقت المناسب يجب أن تصبح فلسطين كومونويلث ذات حكم ذاتي تحت رعاية أكثرية يهودية.

هل هذه الوقاحة سبب رغبة عبد الرحيم عن العشاء؟ وصل قبل أن تنام

www.alkottob.com

سعاد. لكنه فضل النوم على الطعام. لم تخبره سعاد أن شفيقة أتت بزياد كي يراه. يكفيه وجع القلب! لم يحدثها عن شهادة جابوتنسكي. بل قال لها وهو يكاد يغفو: وصلتنا نسخة من مذكرة الفلسطينيين في مصر إلى اللجنة الملكية. تركتها على مكتبي. خيل لسعاد أنها ستقرأها في الصباح، لكنها أرقت في تلك الليلة. أرقها كلام شفيقة! فشغلت نفسها عنه بقراءة المذكرة. "إذا دخل فلسطين مهاجرون يهود مهربون غضت الحكومة النظر عنهم. لكنها تفتش عن العرب كالحوارنة والمصريين والدمشقيين وتطردهم من البلاد. لايرى بوليس فلسطين عشرات الألوف من اليهود الذين يدخلون فلسطين بطرق غير قانونية بل يرى الأفراد العرب".

غلت سعاد ماء وحضرت لنفسها كأسا من اليانسون. لاتنقبي عن سبب الأرق! تعرفينه! استعادت كلمات شفيقة. صحيح، يمر العمر مسرعا، ياخالتي! يمر دون أن نستمتع بأولادنا، ويمر دون أن ننتبه إلى ما نستطيع أن نقطفه في هذا العمر من الفرح. منذ بدأ الإضراب الكبير لم تجلس سعاد إلى مرآتها لتسرح شعرها فتملأها ببريقه الذهبي! لم تستمتع بانتقاء ثوب من خزانتها وتتأمل خصرها الرقيق وتشعر بالرضى لأنها حمته رغم الحمل والولادة! مر الصيف والخريف دون أن تستسلم لظلال شجرة الخرنوب الكثيفة، ودون أن تقطف حبة تين مغطاة بالغبش، أو تستمتع بملمس عنقود عنب تتناوله من الدالية! يسلبوننا عمرنا لابلادنا فقط، ياخالتي!

www.alkottob.com

ما أعجب الإنسان! كأن الصيف والشتاء فيه معا! وربما يدافع القلب عن نفسه، فيمد الإنسان يده ليزيح الستائر عن نافذة تملؤها العتمة لكنه ينصرف إلى بريق نجومها!

لم يخطر لسعاد أو لعبد الرحيم أن نهارا مخنوقا مثل ذلك النهار يمكن أن تليه مثل تلك الليلة! وسيظل عبد الرحيم زمنا طويلا يتذكر ذلك المقطع من عمره، مستعيدا قسوة النهار ورخاء الليلة. وسيبعد نظره عن سعاد، كالحريص على صندوق كنوزه، وهو يستعيد ما فاجأه فيها وفي نفسه.

تابع عبد الرحيم في النهار تقرير ألفرد روك، عضو اللجنة العربية العليا أمام اللجنة الملكية. فشهادته نبهت إلى خطر جديد. سمحت حكومة الانتداب لليهود بإنشاء ميناء في تل أبيب. وسيكون ذلك الميناء كارثة على العرب. بمعيار الحقوق، سيسحب الحركة التجارية من ميناء يافا العربي وسيعطل آلاف الرجال عن العمل. يفهم عبد الرحيم هذه الضربات المسددة إلى يافا! نسف الإنكليز يافا القديمة مرتين في سنة 1936 لأنها مركز الاجتماعات والمظاهرات العربية! ويضربون اليوم ميناءها الذي التزم بالإضراب! كان ميناء يافا التاريخي طوال عصور ميناء فلسطين الوحيد. أكسبه قدمه حصانة، وجعله من هوية البلاد. فهل يلغى ببساطة، بميناء يجاوره؟ هذا اعتداء واضح على هوية فلسطين! وضح ألفرد روك الخطر الآخر: لا يطمئن العرب مطلقا إلى مرفأ يهودي بعد أن اكتشفنا مرات أن اليهود يهربون الأسلحة والمهاجرين! وسيضر ميناء تل أبيب بخمسين ألفا من أهالي يافا يعتمدون على الميناء. وبستة وعشرين ألف عامل بحري يقصدونه للعمل. سيغير مرفأ تل أبيب هوية البلاد، وينفذ مشروع اليهود: تهويد فلسطين. ومع ذلك سينفق على المرفأ من أموال أهل فلسطين! أليس هذا انحياز واضح إلى اليهود ضد العرب؟ يشيد وطن قومي لليهود بأرضنا وبأموالنا!

طلبت سعاد أنور شقير في الصباح. وجدها مربوطة الرأس بعصبة بيضاء:

www.alkottob.com

يكسر رأسي صداع! لم أعرف في حياتي وجع الرأس! الألم في أي مكان من الجسم أهون من هذا الألم! ابتسم: لذلك يقال "هذا يوجع الرأس. ويقال، بلا وجع رأس"! لكن الطبيعي أن نصاب بالصداع، ياست سعاد! يحتفل اليهود بانتصارهم! سيكون لهم مرفأ يهودي يستقبل الأسلحة والمهاجرين دون رقابة! مرفأ في تل أبيب! نعم، هذا سبب الصداع! منذ سمعت الخبر شعرت بما يشبه البرق في رأسي!

رآها عبد الرحيم تتنقل قلقة من غرفة إلى غرفة معصوبة الرأس. قال لها: تضعين عمامة؟ لا تقلقي! لن يقرر مصير البلاد اليوم! ما تزال أمامنا سنوات طويلة! يهدئها؟ تركته. هذه الأيام ثقيلة عليه أيضا! شهادة وايزمن أمام اللجنة الملكية كالحجر. كذب ومراوغة! ومع ذلك قبلت حتى لجنة الصلح ذات يوم أن يشهد أمامها، قبل أن يقر الانتداب! غمره قرف من الاوروبيين ومن اليهود. وكان يجب عليه كسياسي، أن يستعيد صفاء عقله. قرر أن يبقى في تلك الأمسية مع سعاد. لن تخرب الدنيا إذا غاب عنها هذا المساء! جلسا في مكتبه فتذكرت أنهما جلسا مثل هذه الجلسة قبل ست سنوات تقريبا. أهكذا مرّ عمرنا ياعبد؟! ومازلنا حيث كنا! ابتسم: لا، ياسعاد، في موقع أسوأ!

كان المساء رائقا نيليا، ما أحلى النزهة فيه. لماذا نفسده بشهادة وايزمن؟ هو الذي أفسده! تكلم ثلاث ساعات أمام اللجنة الملكية. كلمته نموذج يناسب الدراسة! يجمع المراوغة والكذب والبكاء والسطوة. من يشرفه أن يكون مراوغا مثل وايزمن رائد وطنه القومي؟! قال إن المشكلة "عدم وجود وطن للشعب اليهودي" لليهود الشرفاء المسالمين! بدأ من ذلك التواضع ووضع اليهود فوق الجميع! "نحن اليهود لا يمكن أن نسمح بأن يكون بيننا ولو شخص واحد مجنون يرتكب جريمة. لأن الشعب اليهودي بأجمعه أينما كان وحيثما وجد سيتحمل نتائج تلك الجريمة وينال العقاب الصارم عليها". تعرفين ياسعاد، أن سجل اليهود مليء بالجرائم! وأن التوراة تربي على قتل غير اليهود! لعله كاد يبكي اللجنة لأن اليهود حاولوا الاندماج في الشعوب وعجزوا عن ذلك! وهاهم يريدون وطنا "ليقدموا للثقافة الإنسانية نصيبهم من الخدمات"! الاستيطان وسرقة الأرض بالمكر والتآمر، الربى، القتل والهجوم على حائط البراق، واستفزاز أهل يافا العربية بعرض في وسط المدينة في أول أيار سنة 1921 خدمات للثقافة! تزوير التاريخ خدمة ثقافية! ليت سعاد لم تطلب من عبد الرحيم أن ينقل لها كلمة وايزمن! أرقتها المرارة في صوته. قال إن الشعب اليهودي ذو ذاكرة قوية لذلك "استطاع أن يحفظ الشخصية اليهودية خلال قرون

www.alkottob.com

مقرونة بسلسلة لا تتصور من العسف والإرهاق". أرأيت كيف يجمع التكبر مع الاسترحام؟ ليصل إلى الهدف! "ارتباطنا الروحي والنفسي بفلسطين". زوّر طبعا، تاريخ المدن الفلسطينية! كتب التاريخ على كيفه! "أتى اليهود بعد طردهم من إسبانيا وشيدوا مدينة يهودية على أطلال خربة، هي طبرية.. بعد مائة عام هدمها العرب بصورة لا تختلف عما يقومون به الآن من هدم. فعاد اليهود بعد مائة سنة ثانية فشيدوها.. تحولت أربع بلدان منذ ذلك الوقت إلى مراكز يهودية عظيمة هي القدس، صفد، طبرية، والخليل وقامت فيها جامعات دينية كبرى". سلبنا مدننا ببساطة، وهو يبكي عذاب اليهود! أترين خطر الصهيونية على العقل البشري وعلى الحقيقة التاريخية؟ ولا تعجبي من فخر رجل "علماني" بجامعات دينية وبأسس دينية كي يبرر مشروعا استعماريا! أترين تداخل الدين بالمشروع الاقتصادي السياسي، ياسعاد؟ وكأنه "لخم" اللجنة فعرض الشخصيات الإنكليزية التي دافعت عن وطن قومي يهودي قبل بلفور! بل رجع إلى كورش ملك فارس، الذي سمح لليهود "بالعودة من بابل إلى فلسطين ليشيدوا فيها من جديد هيكلهم المقدس"! لم يقل إن استير مهدت لذلك عند كورش، وإن خيانة اليهود مدينة بابل أسقطتها أمام الفرس فكافأهم كورش على الخيانة. ستمهد استر اليهودية دائما لخيانات حكام آخرين في العالم، ياسعاد! بيّن وايزمن أن غاية وعد بلفور: "بلد يهودي". وكذب بعينين مفتوحتين: لم يمس اليهود حقوق الطوائف غير اليهودية طوال ستين سنة! "وإني لأعلن هنا على مسمع من اللجنة ومن كل شخص في العالم أنها لن تجد في أعمالنا أي شيء يمس كيان الطوائف غير اليهودية، بل الأمر بالعكس فقد عادت أعمالنا بطريقة غير مباشرة بالخير والبركة على سكان فلسطين". هبّت سعاد واقفة: من قتل العرب قرب البراق؟ من قتل الشباب الكشاف النائمين في خيمة على شاطئ البحر؟ تذكرين ياسعاد، لجنة شو وسمبسون! بيّنتا أن الاستيطان سلب العرب أراضيهم وأعمالهم فسبب لهم أزمة اقتصادية. لكن ميناء تل أبيب أخطر من ذلك! سيكون ميناء يهوديا دون مراقبة، ميناء لدولة قادمة! أسف وايزمن، طبعا، لأن "العرب لايزالون ينظرون إلى فلسطين كبلد عربي". أدهشتني وقاحته! "حاولنا في دمشق وبيروت والقاهرة أن نوضح للعرب نظريتنا وطلبنا منهم أن يشتركوا معنا لتنفيذ مهمتنا، لكنهم رفضوا دائما مصافحة اليد التي ظلت أبدا ممدودة لهم". يطلب تأييدا عربيا لسلب فلسطين! لايريد أن يتذكر تقرير لجنة كينغ كرين: أجمعت الوفود العربية التي التقت بها اللجنة في سورية كلها على وحدة فلسطين مع سورية! هذا هو وايزمن الذي يراه بعض العرب معتدلا! "لا يجوز أن يعني وعد بلفور أن تقيّد هجرة اليهود إلى فلسطين بعدد

www.alkottob.com

العرب وألا تزيد عليه"!

كادت سعاد تقول له: كفى! لكنه رفع كفه وقال: اسمعي عدوك! يحاسبنا على مالنا في بلادنا! "خرج الشعب العربي من الحرب العامة ولديه ثلاثة بلدان هي الحجاز والعراق وشرق الأردن.. أعطيت لنا فلسطين لنعمل فيها فقط، ولم تعط لنا بكاملها.. ويجدر باللجنة الملكية أن تعرف أنه عندما صدر وعد بلفور وفي السنوات الخمس التي تلت صدوره، وكنا منهمكين خلالها في العمل، كانت شرق الأردن جزءا من فلسطين". يريد شرق الأردن أيضا! المهم أنه يعلن أن اليهود موجودون "بفضل الحكومة البريطانية".

ستدهش سعاد دائما قدرة اليهود على الكذب. نظرت في ذلك اليوم إلى ما كتبه بن غوريون: "إننا لم نثر ولن نثر في يوم من الأيام الماضية أو القادمة أية حرب على العرب، اقتصادية كانت أو عسكرية أو سياسية". سيكتب بن غوريون في تموز سنة 1937 عن أحداث ثورة 1936: "لم نطالب فيما أدلينا به أمام اللجنة، بدولة يهودية. لكننا ركزنا على النضال من أجل مستوى للهجرة يتفق مع قدرة البلاد على الاستيعاب، وذلك وحده كفيل بأن يؤدي إلى خلق دولة يهودية". أليس وطنكم القومي، أيها المهاجر الغريب، حربا سياسية وعسكرية واقتصادية على العرب؟!

على مكتب عبد الرحيم رأت سعاد النشرات التي أصدرتها الوكالة اليهودية باللغة العربية. يبدو أننا سنمضي المساء في قراءة الأكاذيب، ياعبد الرحيم! ابتسم: مع أنك تضعين هذه العمامة! اسمعي هذا فقط، ياسعاد! تطمئن الوكالة اليهودية أهل فلسطين إلى أن غاية الحركة الصهيونية "إنشاء ملجأ أمين للشعب اليهودي في فلسطين تقرّه علنا كافة الشعوب"! وأنها تريد رضا العرب على مشروعها ففلسطين تتسع لليهود والعرب! لكن ألم يبح بن غوريون، رغم المراوغة، بأن الشهادات الصهيونية أمام اللجنة الملكية لم تطلب وطنا لليهود لكنها طلبت مايؤسس ذلك الوطن؟!

قالت سعاد لعبد الرحيم: كفى! كيف تكوم هذا الكذب على مكتبك؟ أمسك يدها: اسمعي هذه الأوراق فقط! أخذ العرب الأموال اليهودية من ثمن الأراضي التي باعوها فاغتنوا وازدهرت حياتهم! لولا الهجرة اليهودية التي جاءت بالأموال اليهودية لبقيت أراضي فلسطين مهملة كأراضي البلاد العربية! كفى! ارم هذه الأوراق ياعبد، ارمها! وضع عبد الرحيم كفه فوق الأوراق كأنه يحميها من سعاد: حتى الكذب وثيقة تفيدنا في صراعنا الطويل مع الصهيونية! يجب أن نبعد قلوبنا

www.alkottob.com

عندما نقرأها، كي نراها بعيون الباحث الهادئ! قال موسى شرتوك إن إضراب سنة 1936 انتحار عربي، لأن العمال العرب المضربين سيفقدون أعمالهم في المؤسسات الاقتصادية اليهودية! لكنه لم يظهر الغيرة على بحارة يافا وهو يقول في اجتماع في آذار سنة 1936 إن إنشاء ميناء في تل أبيب هو حق بلدة يهودية. وإن التحرر من ميناء يافا "فاتحة تحرر أكبر يعقبه.. لأن ميناء يافا هو إناء مشعور لايصلح لهجرتنا وتجارتنا.. وليس الميناء وحده إناء مشعورا فقط فبلدة هذا الميناء أيضا مسرح للفتك باليهود.. إن لنا حصة في بحر البلاد ومن حقنا أن نحوزها ونستثمرها.. لم يعد ثمة ضرورة بعد اليوم ليدخل المهاجر اليهودي والسائح اليهودي البلاد ويخرج منها عن طريق بلدة غير يهودية". عينوا هوفين، مدير بنك أنغلو فلسطين، رئيسا في مصلحة ميناء تل أبيب. فاسمعي ما قال: ميناء تل أبيب فاتحة مشروع أكبر يربط جنوب فلسطين وتل أبيب بالبحر.. لا نريد أبدا تكرار وقائع أيار سنة 1921 وآب سنة 1929 وسنة 1936! وهاهو بن غوريون يحتفل بانحياز الحكومة الإنكليزية إلى اليهود: "لم يحدث أن وقع علينا اعتداء واحد وكنا فيه من الخاسرين أو لم نخرج منه أكثر قوة في الميدانين الاقتصادي والسياسي. فبعد اضطرابات القدس في سنة 1920 فتحت أبواب الهجرة اليهودية، وبعد اضطرابات يافا في سنة 1921 نشطت حركة العمران في تل أبيب، وبعد اضطرابات آب سنة 1929 اتسعت الهجرة. أكسبتنا الاضطرابات الأخيرة مراكز اقتصادية جديدة. بعد مذبحة يافا سنة 1921 أقام اليهود مدينة يهودية قربها هي تل أبيب، وبعد مذبحة 1936 وإضراب ميناء يافا أقاموا ميناء يهوديا هو ميناء تل أبيب، وهكذا تحرروا من عبودية مفعمة بالأخطار والخضوع لنير الآخرين". يزهو بن غوريون بانتصارات اليهود! ولكن هل كانت ممكنة لولا حكومة الانتداب؟

أكلت عبد الرحيم وسعاد تلك الأيام. وقعا مرغمين في ما حذرا منه: يضيع وقت العرب بتفاصيل اللجان! ملأت تلك الأشهر صياغة الشهادات، اقتسام الموضوعات، حشد الشهود. بدا الفلسطينيون في لياقة أمام اللجنة الملكية! لكننا ياسعاد لا نخاطب حكما عادل ذا ضمير. لو رغب الإنكليز في الحق لنفذوا توصيات لجنة شو وسمبسون! لكننا في كل معركة نكسب خبرة، نكتشف أنفسنا ونعرف عدونا. حملت اللجنة الملكية أوراقها ورحلت. ولم ننتظر منها حلا يعترف بحقوق العرب في وطنهم!

لكن عبد الرحيم لم يتوقع أن تقترح اللجنة تقسيم فلسطين! فكر مرة أخرى في الاوروبيين. وتساءل كيف يهبون أنفسهم، في تعال، الحق في أن يقسموا بلادا لا

www.alkottob.com

يملكونها! وهبوا بلادا لا يملكونها لغرباء يوم صاغوا وعد بلفور، وأكدوا ذلك الخطأ يوم صاغوا صك الانتداب. ويستمرون اليوم في الخطأ. استعاد عبد الرحيم وجوه أعضاء اللجنة الملكية. وتذكر وجوه أصحابه الذين قدموا شهاداتهم. فبدا عصيا عليه أن يضع في مرتبة واحدة هؤلاء واولئك. من هذه اللجنة الغريبة المتكبرة لأضعها إلى جانب أمين الحسيني وعبد الهادي وألفرد روك والمطران؟!

ستستمر الثورة! ستستمر طلقات الرصاص، وهدم البيوت العربية وتفتيشها، واعتقال العرب، وهجوم الإنكليز على القرى، وإعدام الفلاحين!

التقطت سعاد أمام نافذة معتمة، مع نسيم البحر، خيطا رفيعا من الأمل الغشاش تجاهلته وخبأته. استلته من مخبئه ومزقته ورمته. نعم، تمنت أن يصرخ ضمير في اوروبا ليوقف هذا العذاب! لتستعيد نزهاتها على أطراف الينابيع، وتجمع أنواعا من الأعشاب تطبخ بعضها وتأكل بعضها نضرا! لتستعيد الأيام التي كانت تتمطى فيها في فراشها في الصباح مستمتعة بنعومة ثوب النوم القطني، ونعومة الشراشف القطنية الدمشقية، مرددة لنفسها نعم أنا سعيدة، وهي تتذكر الحب الذي حاول عبد الرحيم أن يستره بالظلام. هل كان عبد الرحيم يخجل بحبه لها، أم كان يتهيب المسافة بين عمريهما؟ لكن تلك المسافة كانت تحمل لها شعورا بأنه يتمنى رضاها، وكانت تقبل منه خجله وهو يقترب منها كأنه يتوقع أن ترفضه. فهمت حرصه على العتمة منذ وضع يده قرب يدها فتبين أن لونها الياسميني كشف سمرته وأن نضارتها كشفت التجاعيد قرب رسغه. قالت له: أحاول أن أتبين هل أنت بجانبي أم هناك إنسان آخر! لكنه أهمل ملاحظتها. فليبق فقط طيف الضوء المتسرب من النافذة متداخلا في عتمة تستر ما بينهما من فرق في العمر! لكن ما أدهش عبد الرحيم أن سعاد كانت تزداد نضارة. قال لها: كأنما يناسبك التعب! نظرت إليه معاتبة فتساءل ألم تفهمه! "ما أحلى غزلك ياعبد"! آه، معنى ذلك أنها فهمته!

وقعت سعاد في الوهم وقت تمنت صرخة تقلب الدنيا؟ بل كتمت ذلك الأمل عن نفسها، ولم تجسر أن تبوح به لعبد الرحيم! لكنها سرحت في حكايا ألف ليلة وليلة التي تمد حدائق وقصورا في ليلة، وتستقدم الجنّي! أليس غريبا أن يكون الألم والقهر قدر هذه البلاد التي رسمت السعادة في الحكايا، وبشّرت بالجنّات، واستمتعت بالحب؟

خطر لها وهي واقفة أمام النافذة أن حياتها تسرق منها! أحبت المقطع الذي تحدث فيه عبد الهادي في شهادته عن علاقة الناس بالمدن! وأحبت المقطع الذي

www.alkottob.com

تحدث فيه جمال الحسيني في شهادته عن جولته بين القرى أمس واليوم! هذا ما تشعر به! أليست رحلتها مع عبد الرحيم إلى محمود الفاعور مستحيلة اليوم؟ من يرحل في بلاد يقطعها الإنكليز والثوار؟! منذ متى لم تتنزه سعاد مع بنات العكي في حديقة البلدية؟! منذ متى لم يشوين هناك اللحم ويحضرن هناك القهوة، ويلعبن هناك البرسيس؟!

لكنها في الليلة التي غمرها الغضب على قرار اللجنة الملكية تقسيم فلسطين، عانقت زوجها في شوق. أهملت دهشته، وتجاوزتها. خمنت أنه يتساءل، كيف، ونحن في برهة أنهت الهدوء المغشوش وستشعل الثورة! تاه وهو يشعر بذراعها حول كتفه، وبكفها على خده. ثم فهم ما تفادت أن تقوله. قد يكون هذا ردّا على قلقها! قد يكون ردّا على رجال غرباء ينكرون أن لديها عواطف وأهواء تجعلها تعيش بمحبيها ومدينتها وأصحابها! قد يكون اقتحاما أمام جهنم التي ستفتح أبوابها! هل خيل لسعاد أنها تستعيد بليلة الأشهر التي سرقت منها؟ هل تودع زوجها الذي سيعتقل، دون شك؟ عجبا، لم يرها عبد الرحيم عذبة وفاتنة كما رآها في تلك الليلة، بملمسها، بصمتها، باستسلامها لهواها، بخروجها من العالم ونسيانها ما كان وما سيكون. بأية قوة استطاعت أن تلغي عقلها المشغول بالشهادات والمذكرات والمؤتمرات؟ كاد يرتعش خوفا منها. لكن فتنتها ساقته إلى حيث تريد، ووجد نفسه ينسى حتى الخوف على بيته وعليها. ساقته ليشعر بأن الليلة آخر الأيام التي تجمعهما، فأظهر لها الحب الذي كان يخبئه كأنه سيجد يوما آخر ليقدمه لها. انتشل الهوى الذي ستره متصورا أنه لايليق به. وفي تلك البرهة اكتشف أن المفترض ألا يخجل بأشواقه بل بصمته، وخاف أن تلومه سعاد لأنه حجب عنها ما يستطيع أن يظهره. وتساءلت أتكتشف الآن فقط بعد هذا العمر معه، أنه كالرجال يخشى أن يطمعها فيه؟ لكنها في تلك البرهة نفسها شعرت برضا المنتصر لأنها استلت منه ما يخفيه.

على ضوء الفجر رآها منشورة الذراعين على عرض السرير، ورأى نفسه منسحبا إلى طرفه. وخطر له أن يتأمل السعادة في ملامحها الرائقة، في شعرها الذهبي المحمر المبعثر على هواه، في ساقها التي دفعت الغطاء على الأرض. أية مكافأة له أعظم من أن يغطيها بهذا الأمان! وبهذا الرضا الذي تشعر به امرأة رواها زوجها بحبه كمن يسكب سطلا من الماء على شجيرة ورد ولا يبقي فيه قطرة واحدة!

أراد أن يحفظ صورتها رائقة، منشورة الذراعين في ذلك القميص الأبيض،

www.alkottob.com

فخرج من الغرفة على رؤوس أصابعه. وتمنى ألا تعود إلى ثوب النهار. ثم نسي ذلك،كما نسيت سعاد نعومتها التي سكبتها على الليل. وتجاهلت بجدّها الليلة التي سيتذكرها عبد الرحيم في سنوات قادمة.

www.alkottob.com

كانت اللجنة الملكية قد أعلنت توصياتها في نهاية حزيران سنة 1937. صاحت سعاد: أهذا ثمن الإضراب الذي امتد ستة أشهر؟ أتوقع من اللجنة أن ترى الأحكام بالإعدام قليلة، وعقاب "المجرم" ضرورة والعقوبات الجماعية ضرورة! وأن ترى إقامة البوليس التأديبي على حساب القرى! وأن ترى أن سبب نقص الأرض الزراعية تكاثر العرب لاسرقة اليهود الأراضي العربية! وألا تلام حكومة الانتداب لأنها تفي بالتزاماتها! تؤسس وطنا يهوديا ولابد لذلك الوطن من المهاجرين!

اقترحت اللجنة الملكية تقسيم فلسطين. "إن الحدود المقترحة تستلزم إدخال أراضي الجليل الجبلية الواقعة بين صفد وعكا في المنطقة اليهودية، وهذا القسم هو الذي احتفظ اليهود بمقام لهم فيه منذ بدء تشتتهم حتى هذا اليوم بدون انقطاع... عواطف اليهود العالمية متعلقة كل التعلق بمدينتي صفد وطبريا المقدستين. ثم إن يهود الجليل كانوا فضلا عن ذلك يعيشون بسلام ومودة مع جيرانهم العرب حتى الآونة الأخيرة".

يافا مدينة عربية ويجب أن تكون جزءا من الدولة العربية.. الوصول إلى البحر الأحمر مفيد للتجارة العربية واليهودية. في المشروع وضع شرق الأردن في الدولة العربية! نقل السكان العرب من المنطقة اليهودية إلى العربية مشكلة لأنهم كثرة؟ لكن المشكلة تحل بمشاريع ري في شرق الأردن والغور! الهجرة اليهودية؟ يقرر حجم الهجرة استيعاب المنطقة اليهودية! تثير هذه التوصيات غضب العرب؟ الخصومة بين العرب واليهود "ليست من الضغائن الطبيعية القديمة، والعرب لم يكونوا طيلة تاريخهم مجردين من كره اليهود فحسب، بل إنهم برهنوا على الدوام على أن روح التساهل متأصلة في عروقهم. فإذا أخذنا بالاعتبار احتمال ايجاد ملجأ في فلسطين يأوي إليه آلاف المضطهدين فهل تكون الخسارة التي يتكبدها العرب من جراء التقسيم على فداحتها، فوق مايستطيع السخاء العربي أن يتحمله؟

www.alkottob.com

إن أهل البلاد ليسوا وحدهم من يجب أن يحسب حسابهم في هذه المسألة وغيرها من المسائل المتعلقة بفلسطين. فالمشكلة اليهودية ليست أقل شأنا من المشاكل العديدة الأخرى التي تعكر صفو العلاقات الدولية في هذه الأوقات العصيبة وتقف حائلا في سبيل السلام والرفاهية. فإذا كان بإمكان العرب أن يساعدوا على حل هذه المشكلة متحملين في سبيل ذلك بعض التضحية فإنهم لايكسبون بذلك ثناء اليهود فحسب بل ثناء العالم الغربي بأسره".

تأمل عبد الرحيم توصيات اللجنة. كم هي مراوغة وماكرة ومتكبرة! ترتد عن استقلال شرق الأردن، منفذة رغبة أكثر الصهيونيين تطرفا! يخيل للعاقل أن اللجنة كان يجب أن تطرد جابوتنسكي! لكنها انحنت لتوصيته! وغلفت هذا الظلم بورقة سكاكر: تطلب الكرم العربي! لاتفهم اللجنة أننا نضحي بالنفس والمال، بالزوجة والولد، لابالوطن!

أشعلت توصيات اللجنة الملكية غضب العرب! هذه هي اللجنة التي أوصانا الملوك العرب بفك الإضراب وانتظار عدالتها! أيمكن ألا يغيب عبد الرحيم في الاجتماعات للرد على قرارها الظالم؟ أيمكن أن يعود مبكرا إلى بيته وينتبه إلى جمال سعاد ويتذكر ابنه؟

بحثت اللجنة العربية العليا "تقرير اللجنة الملكية وسياسة الحكومة البريطانية المتضمنين تقسيم البلاد وذلك بوضع الأماكن المقدسة تحت انتداب بريطاني دائم وإنشاء دولة يهودية في أخصب قسم من البلاد وأهمها، بما فيها أقضية حيفا وعكا وصفد وطبريا. وحشد العرب فيما تبقى من الأراضي الجبلية ومدينة يافا. ولما كانت هذه البلاد لاتخص عرب فلسطين فقط بل العالمين العربي والإسلامي قاطبة، وكانت تسير في الأزمات بإرشاد أصحاب الجلالة والسمو ملوك العرب وأمرائهم وزعماء الأمم الإسلامية وهيئاتها، ولما كانت هذه السياسة تناقض مطالب العرب وحقوقهم، فاللجنة ترى في هذا الموقف العصيب الذي تواجهه البلاد أن تبادر حالا للاتصال بهم، كما ترى من واجبها التشاور مع أصحاب الرأي من هيئات البلاد ورجالاتها في السياسة التي يقتضي السير عليها. واللجنة العربية العليا ترجو من الشعب العربي الكريم المؤمن بحقه الثابت على مطالبه أن لايؤخذ بالإغراء وزخرف القول، وأن يظل محافظا على عهده وميثاقه الوطني، وأن يحتفظ برباطة جأشه ورزانته وسكينته واثقا كل الثقة من الفوز في النهاية بحقه وغايته".

رفض رئيس وزراء العراق التقسيم. ورفضه رئيس وزراء سورية جميل مردم. ورفضه المجلس الإسلامي الأعلى في بيروت. استنكر الشيخ أسعد شقير التقسيم.

www.alkottob.com

لايتصور أن يدفن في بقعة يهودية! كتب إلى الأمير عبد الله: "إن الله ورسوله والمؤمنين يأبون أن يوافقوا على التقسيم وإنشاء دولة يهودية ماأنزل الله بها من سلطان". وأبرقت زوجة صبحي الخضراء إلى هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي المصري: اسألوا حليفتكم مامصير الأربعمائة ألف مسلم والخمسمائة مسجد؟ ماذا سيحل بجامع الجزار ومدينة الجزار؟ وأبرق نبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية إلى سكرتير عصبة الأمم في جنيف: سورية بأجمعها تقف بجانب عرب فلسطين، الجزء الجنوبي من سورية، مستصرخة العالم المتمدن لدفع عدوان التقسيم. مشت مظاهرات في سورية والعراق. وصلت برقيات من مصر وشباب نابلس. وبرقية من هدى شعراوي.

منع الإنكليز المظاهرات! وطوقوا مكتب اللجنة العربية العليا ليعتقلوا المفتي، لكنه شعر بذلك فخرج من باب خلفي واعتصم بالمسجد الأقصى.

سيحضر عبد الرحيم مؤتمر بلودان في دمشق، في أيلول. وفي السادس والعشرين من أيلول سيغتال الثوار أندروز حاكم لواء الجليل. وفي الأول من تشرين الأول سنة 1937 سيذاع من إذاعة فلسطين بيان حكومة الانتداب عن قلقها من الإرهاب. ويعلن أن اللجنة العربية العليا واللجان القومية غير شرعية. وأن المفتي أمين الحسيني عزل من منصبه كرئيس للمجلس الإسلامي الأعلى ورئاسة لجنة الأوقاف. وبعد شهرين تقريبا، في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة 1937 سيعدم الإنكليز الشيخ فرحان السعدي وهو صائم، وهو في الثمانين من العمر.

www.alkottob.com

جلس بهاء ساهما. حامت منور حوله. وضعت له فنجان قهوة على الطاولة. لكنه لم يرفع رأسه. وعندما رأته يتناولها باردة، حملت له إبريق ماء فيه ورق الليمون. تريد أن تقول لي إن إبريقا كاملا لن يطفئ قهري؟ صحيح يامنور! اجلسي!

أخرجنا الإنكليز من فلسطين بالمراوغة ووساطة الملوك العرب. لاأنسى رسالة الملوك: "ندعوكم للإخلاد للسكينة حقنا للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل"! وصلت لجنة بيل الملكية، التي أوقف لأجلها الإضراب! قدمت تقريرها في حزيران سنة 1937 وهاهو! أخرج "الزير من البير"! وضعت مشروع تقسيم فلسطين بين العرب واليهود! أعطت السهول الساحلية والمدن العربية والأراضي العربية لليهود. كم عدد اليهود الغرباء، وكم يملكون مما وهبتهم من بيوت الناس وأراضيهم ومدنهم؟! وإلى أين يرحل العرب من المنطقة التي قدمت مجانا للمستوطنين الغرباء؟! توجع قلبي، يابهاء! من يقبل أن يقال له صار بيتك في دولة يهودية أهلها مهاجرون روس وبولونيون ومجريون؟! يامنور، هم الذين يفرقون بين العرب واليهود، لا نحن! نحن نطلب حكومة وطنية تساوي في الحقوق بين الأقلية اليهودية والأكثرية العربية! لكن اليهود لا يقبلون أن يكونوا أقلية! ويسندهم الإنكليز!

روى بهاء الأحداث كأنه يرتبها لنفسه: في نيسان اغتيل حليم بسطة، نائب مدير بوليس اللواء الشمالي، الذي ربي على يديه أحمد النايف قاتل القسّام! في حزيران اغتيل سبايسر، مدير الأمن العام، الذي لوع أهل القدس! لم تستنتج حكومة الانتداب ما يقهر أهل البلاد. بل العكس! في السابع عشر من تموز طوق الإنكليز دار اللجنة العربية العليا خلال اجتماعها واعتقلوا أعضاءها. أفلت منهم الحاج أمين، تسلل إلى الحرم واعتصم في بيته. في آب عرضت بريطانيا مشروع التقسيم على عصبة الأمم في جنيف فرفضتها لجنة الانتدابات. فقدمتها لعصبة

www.alkottob.com

الأمم. رفضها وزير خارجية مصر والعراق وايران وغيرهم. يعني هذا التسلسل أن الإنكليز مصممون على اختراع وطن صهيوني! تعرفين أن المظاهرات نزلت إلى الشوارع في البلاد العربية، وأن الملك سعود ومصر والعراق واليمن رفضوا التقسيم. بعد خراب البصرة يابهاء؟! لن نترك البصرة تخرب يامنور، طالما كنا أحياء!

ماذا يخطط بهاء؟ فحصته. التقسيم الذي أشعل غضب الناس، معروف. والإنكليز نعرفهم! ما الجديد إذن؟ انتظرت أن يتكلم. قال: الثورة في فلسطين أشد مما كانت! فكيف سيصل السلاح من سورية للثوار! تساءلت منور هل هو مكلف بأن ينقل لهم السلاح؟ كيف؟ سينقله بنفسه؟ استمعت إليه وقلبها يضمر. يبطش الإنكليز بالناس لينشروا الخوف! لكن البطش ما يزال في أوله. يفرغ الإنكليز البلد من قيادة الثورة بالسجن والنفي. بقي فقط القادة الميدانيون. أتوقع أن يعتقلوهم ويعدموهم! في دمشق الآن قيادة الثورة. في بيت البارودي مركز الإعلام العربي. هذا جيد وسيء! نحن ظهر فلسطين. لكن الثورة في مكان وأكثر قيادتها في مكان وبينهما حدود يحرسها الفرنسيون والإنكليز!

استمعت منور إلى دقات قلبها، متسائلة: هل يتطوع بهاء مرة أخرى في الثورة؟ ما أصعب أن تقول له اذهب، وما أصعب أن تقول له لا تذهب! هذا هو بهاء! لا يفهم الدنيا إلا من الوطن. والسياسة له ليست حزبا ومناصب! أمضى أيام بيروت في المكاتب، لأن أقدار البلاد تصاغ فيها. لكن لابد أنه ساح خارج مكتبه وإلا كيف ساعد على تهريب القمح للبنان؟! يبدو أنه منذ أيام الثورة السورية رجح السياحة بين الناس! كأن الضابط فؤاد سليم سحره!

استعادت منور رقته عندما يعبر عن وجده كأن الحب ما يزال غضا جديدا بينهما. وتساءلت كيف يستطيع أن يسرح عاشقا إلى ذلك المدى، وأن يهجرها وينسى ابنه المحبوب عندما تشغله الأسلحة والثورة! كم تساءلت عن ذلك وهي تلمس كفيه الخشنين بعد عودته من ثورة فلسطين! أبعدت تساؤلها بالانصراف إلى أشواقه إليها وإلى ابنه، وإلى لهفته وهو يتمنى أن يكون ولده الثاني بنتا! بعد الليالي التي يترك فيها أشواقه تنساب حرة نضرة، يفيق قبلها. يعصر لها البرتقال. تفتح عينيها فتجده راكعا قرب سريرها يتأملها. يلمس عندئذ رأسها وشعرها. يسألها: شبعت من النوم؟ فتبتسم: هل تترك أحدا يشبع من النوم؟ يضحك ضحكة رائقة وماكرة ويضع خفّيها أمام السرير، وينتظر أن تمد ساقيها ليضعهما فيهما. كيف يستطيع أن يفكر فيها كأنها الوحيدة في الدنيا لديه، ثم يفكر في السلاح للثورة كأنه شغله الوحيد، مهملا أنه قد يموت، وأنه قد يترك ابنه يتيما ويتركها أرملة؟!

www.alkottob.com

بدت لها من النافذة سماء قاتمة. يجتاح مثل هذا اللون قلبها!

فحصت بهاء بنظرتها في هدوء. وخمنت أن الأمر الآن ليس جمع المتطوعين. مع ذلك بدا لها أن السنة الماضية التي رحل فيها بهاء والمتطوعون إلى فلسطين كانت أسهل من هذه السنة. لذلك بدا بهاء كأنه في شبكة محبوكة. يستعيد خدعة الإنكليز بوساطة الملوك، وخطر التقسيم كمشروع سيستعاد ولو فشل الآن في لجنة الانتدابات. يامنور، تسند اليهود قوى عالمية، وأموال. نحن دون سند هناك!

قالت له: يحدث ذلك أحيانا! فتساءل بنظره: ماذا تقصدين؟ صبت له الماء العابق بماء الزهر: نشعر بالقهر عندما نفكر بأن غرباء قرروا مصيرنا وأغلقوا الباب علينا! لكننا عندما ننشغل بتفصيل معين، نبعد القهر! يعني هذا أننا نجزئ الهم! لنتساءل ماذا نعمل الآن! وضعت كفها على قلبها، كأنها تقبض عليه. ماكان يمكن أن تقول غير ماقالته! لكن ألا يعني هذا أنها تذكّر بهاء بما قرر أن يعمله، وأنها تدفعه إليه، وتعلن موافقتها على رحيله الممكن؟! ربّت بهاء على كفها. لا، لم يربّت عليها، بل دقها مرات بسبابته كمن يفكر في أمر. ثم خرج من هواجسه وأشرقت ابتسامته: ستصل سعاد وعبد الرحيم فاستعدي! هل نفي عبد الرحيم؟ بقيت جالسة تنتظر أن يكمل كلامه. لاتحب المعلومات التي تعطى مجزأة! فهمها فأسرع في الكلام: لم ينف عبد الرحيم، بل سيحضر مؤتمر بلودان. أرسل لي مع شخص خبرا، قال إنه عضو في المؤتمر، وستأتي سعاد معه.

انتبهت منور إلى فرحها وفحصته. اجتاحها شوق وحزن. وشعرت بما ترميه عادة وراء ظهرها. بينها وبين أختها الوحيدة حدود و"باسابورت"! في صباح الأعياد يزور الناس قبور أهلهم. هي محرومة من تلك الزيارة! قبر أبيها في حيفا، وقبر أمها وقبر خالها في طبرية. قبر أخيها الأول مجهول في تراب العراق. أخوها الثاني في القبر الذي صممه خالد آغا لنفسه في مقبرة الدحداح. في الأسر أشخاص أقوياء يعوضون عادة عن الغائبين. ولو بقي خالد آغا لكان الخيمة التي تظلّها في غياب أهل تبعثروا في بلاد الشام أحياء ومقتولين! لكن لم يبق من خالد آغا غير قبر تركه لسعيد! نفيسة هي المحظوظة الوحيدة! تعلق على جدارها سيفه، وتلبس في إصبعها خاتمه! في بيته لن تبقي رابية خانم حتى الكرسي الذي جلس عليه! ألم تهمس نرجس لنفيسة: ستبيع رابية خانم أثاثه؟!

في عشية العيد الأخير تسللت منور إلى المقبرة حاملة بين ذراعيها حزمة من الآس. وضعت الآس غصنا، غصنا، على شاهدة القبر حتى غاب اسم سعيد.

www.alkottob.com

أسندت الآس على الشاهدة من الخلف، أيضا، وهي تعرف أن أحدا لا يفعل ذلك. ثم ربطت الأغصان إلى الشاهدة بشريط أحمر، وجلست قرب القبر. أيعقل أن تكون أنت فيه؟ لعل الخيال رحمة للناس ياسعيد! فلو لم أستحضرك بالخيال لسألت نفسي كيف يمكن أن أستمر في الحياة. تسألني: وبهاء؟ لا يأخذ أحد مكانك! تركته مبكرا ياسعيد! عندي ولد، نعم، صحيح! لكن ذلك ليس الأهل! لولدي أنا الأهل! تركتموني مبكرين جدا، ياأخي! اخترت بهاء وتزوجته مبكرا؟ صحيح، لكن كان يمكن أن تبقوا لأشبع من الأهل! لم أشبع من الأم والأب والإخوة! انتبهت منور إلى أنها تهز جذعها وهي تحدث نفسها، فوقفت. صبت الماء من قنينة في صحن القبر. هذا الآس كثير؟ لك ولخالد آغا! فالرب يعلم أين هو في ميسلون!

رجعت من مقبرة الدحداح ساكنة في ذلك اليوم. كان البيت ما يزال عابقا برائحة الكعك الذي دورته وصقلته ورسمته. رآها بهاء من المشرقة ورأى كيف فكت ملاءتها ورمتها على الدرابزين كأنها تضيق بها. لم ترفع رأسها ففهم أنها لم تنتبه إليه. ورآها تصعد الدرجات الحجر ثم تتوقف في منتصفها. ثم تكمل طريقها غارقة في روحها. ما بك يامنور؟ أين كنت؟ يجب أن يكتم أسئلته في قلبه ويترك منور لنفسها! لاب في المشرقة قلقا. انتظر أن تمر ساعة. ثم أتى إليها كأنه وقتئذ فقط اكتشفها. سألها: أتعبك كعك العيد؟ خشي أن يقول لها إن عينيها تبدوان رماديتين وقت الحزن، وما أحلاهما! قطعت عليه سؤاله المكتوم وهي تنهض: كنت في المقبرة! فتح عينيه. قالت: تركت صباح العيد لعمتي نفيسة، وأخذت عشيّته! كيف فاته أن خالد آغا وسعيد يشتركان في قبر واحد؟ هيأه أحدهما لنفسه، لكن الآخر أخذه كهدية منه! غرس خالد آغا الخبيزة الحمراء والبيضاء حول قبره، وسقاها حتى أصبحت ترى من بعد، وما كان ليعترض على هذا الدلال الذي خصّ به سعيدا! كان يخيل لسعيد أنه سينتصر حيث هزم خالد آغا! لم ينتصر، ياخالد آغا، لكنه خطا خطوة بعد ميسلون!

لم يحدد عبد الرحيم اليوم الذي سيصل فيه. لكن بهاء قدر أنه سيصل قبل مؤتمر بلودان بأسبوع. في آخر يوم من آب كانت إحدى غرف الفوقاني جاهزة لاستقبالهما. مدت منور غطاء من القطن الأبيض على السرير المزدوج وغطاء من القطن الأزرق على السرير المفرد. غسلت الستائر البيضاء التي طرز عليها بخيوط بيضاء طاووس وزهر. كوت الوسائد ذات الكشكش. واختار بهاء من سوق علي باشا تفاحا لبنانيا ملفوفا بالورق البنفسجي والسّكري، وحمل سلة من التوت

www.alkottob.com

وسلة من التين الملوكي. هل نفذ نصيحة منور فشغل نفسه عن الغم الذي كان يخنقه منذ أيام؟! صدقت يامنور، المهم ألا أكون ساكنا وسط الشبكة! قال: بقي أن تصل سعاد!

كان بهاء واقفا أمام بائع الجرائد في سوقساروجا عندما أتى إليه ولد يركض: عمي، وصلوا ضيوفك! التفت فرأى سيارة قرب ضريح الشيخ عثمان.

تناول المحفظة من السائق فهرع إليه رجال السوق وحملوها عنه: "ولو، بها بك"! أحرجه أن يظهر أشواقه لسعاد. فشغل نفسه بزياد. حمله: صرت طولي! همس له عبد الرحيم: يجب أن أرى شكري بك الليلة! مشت سعاد إلى جانبه بملاءتها مكشوفة الوجه. تكاد بشرتها تشف. معنى ذلك أنك متعبة من الطريق! تعب الطريق لاشيء، يابهاء! أعلنت له إذن مباشرة هموم فلسطين! فوق ذلك، كاد الفرنسيون يعيدوننا من النقطة الفرنسية في جسر بنات يعقوب!

في البيت قرب الباب، رفع بهاء كفي سعاد وقبلهما: تهون ياسعاد، تهون ياحبيبتي! لايهون شيء، يابهاء! روحنا أو روحهم، لاحلّ غير هذا! استقبلناهم في بيوتنا، زرناهم، اشترينا منهم، ولازلت أذكر نعيم العسل. فخانونا وباعونا. عيونهم على بيوتنا وأراضينا! الله يأخذهم! يركضون وراء غرباء لا يعرفونهم، ويتركوننا نحن الذين عشنا معهم. الله يقطعهم! لاتقل لي يهودي عربي ويهودي اوروبي! هم رفضوا ذلك! لماذا لم يركض المسيحيون إلى الإنكليز ولم يقولوا ديننا من دينهم وأنتم الغرباء؟ لأنهم أهل بلادنا! لأنهم ليسوا مثل اولئك الذين لا بلاد لهم غير دينهم ومستوطناتهم!

استمع إليها بهاء كأنه أبوها. هذا غضب خزنته شابة بعيدة عن أهلها! تركها ترمي له ما يثقل روحها. سكب لها ليمونا خصّها به وحدها. هاتي ملاءتك! وكأنما لمسها نسيم ذلك اليوم الذي سبق أيلول، عندما خلعت ملاءتها! تنفست وهي تشرب الليمون. ما عندكم شراب عرقسوس؟

روت له في هدوء كمن يعاتبه: تزور دمشق، وربما غيرها من بلاد العرب، بعثات صهيونية وتنتقي الشباب اليهود الأذكياء وتستقدمهم إلى مدرسة شفيّا الداخلية. وتربيهم فيها تربية صهيونية ليصبحوا مستعمرين. المدرسة على الطراز الروسي الاشتراكي، يخدم فيها الطلاب أنفسهم، مجهزة بصفوف ومطاعم وملاعب ومسابح وآلات للغسيل. يتعلمون فيها العبرية ويؤهلون للعمل في الزراعة أو الصناعة. يعجنونهم فيها بالايمان بوطنهم الصهيوني. ينشدون فيها نشيدهم "هاتيكفا" في خشوع! هل تعرفه؟ اسمع! وقل لي هل يعني ذلك غير طردنا من

www.alkottob.com

بلادنا؟!

لانزال نذكر بيتنا المقدس المهدوم،

لكننا لن نبكي بعد الآن،

فياإخوتي استمعوا إلى صوت أنبيائنا،

لن يخبو أملنا حتى يصل آخر يهودي إلى أرض الميعاد،

وهاهو صوت أرضنا المقدسة ينادي،

أين أبنائي؟

ذاك هو نشيد أملهم! ومن في تلك المدارس اليوم؟ يهود يمنيون وسوريون وعراقيون! ولاتسل عن المجريين والبولونيين والروس في المستعمرات! فهم بهاء أنها غاضبة لأن الهجرة الصهيونية تتسلل من بلاد عربية، أيضا. وشعر بالغم. ذكرته بأنه كان يبحث عن طرق آمنة يوصل منها السلاح للثوار في فلسطين. الحدود مغلقة علينا وعليكم، ياسعاد، ومفتوحة للصهيونيين! لا يلام الوطنيون! يحاربون على ألف جبهة. أكد البارودي أن اللجنة الوطنية ستشرف على كل سيارة تحمل فواكه أو خضارا إلى فلسطين وستمنعها إذا كانت موجهة للصهيونيين! لكن هل في يدنا منع المتسللين؟ أهذا سبب غضبك علينا، ياسعاد؟ لا يخفى عليه أنها سارت دروبا طويلة في غيابها عنه. فهم ذلك في لون عينيها وفي خطين ناعمين حول فمها. أصبحت امرأة مبهرة! لكن غضبها كشف براءة شابة نضرة تنتظر اللقاء بأهلها لتبوح لهم بما في قلبها وتطلب منهم أن يحملوا همها عنها. فترقرق في قلبه حنان ناعم تمنى أن يغمرها به! كأن أمامه طفلة ضاعت من أهلها فتبناها ويجب أن يدللها! ابتسمت منور وهي ترى طيفا من الألوان يحوم على وجه بهاء. هاهو ينصرف إلى سعاد كأنهما وحدهما. يالهذا العشق العجيب الذي عتّقه بهاء واستمتعت به سعاد عائدة إلى طفولتها! عندما اطمأن إلى هدوئها التفت إلى عبد الرحيم. خلعت سعاد إذن همومها ورمتها مع ملاءتها! تلفتت في أرض الدار: كثرت تنكات الفل عندك، يامنور! وماأحلى الأرطاسيا! سقيتها بالنيلة، ياسعاد، فغيرت لونها! والشمسية صارت كبيرة! كم غبت إذن عنا! قطفت منور زهرة من الفلّ ومدت يدها بها لسعاد: كي تتذكري مافعلته في بيت قدري ذات يوم! ضحكتا! ماأحلى الأخوة! تكفي كلمة لتمد ذكرى! غامرت سعاد بحب خالها قدري ذات يوم لأجل الفل! كان في بيت قدري سبعة عشر حوضا من الخشب زرع فيها الفلّ، يرعاها البستاني محمد الصيداوي الذي

www.alkottob.com

كانت سعاد تناديه في طفولتها الشيداوي. أخذت سعاد سكين المطبخ وقصت أغصان الفل وزرعتها في أصص من الفخار. كاد الصيداوي يجن، وخافت شفيقة من غضب قدري. وماذا حدث؟ ابتسم قدري، وزادت أصص الفلّ!

انتبه بهاء إلى زياد الذي وقف قرب أبيه يفحص معتصما. هذا ابن خالتك! أي منكما أطول من الآخر؟ قف إلى جانبه! هل سيغار معتصم على أبيه من هذا الولد الأشقر؟ أجلسه الرجل الغريب في حضنه! ماهذه اللهجة الغريبة؟ خطفته سعاد من عبد الرحيم: ياحبيبي، كبرت! ممتع أن يحبه هؤلاء الأقرباء الذين لا يعرفهم. بل كأنه يتذكرهم! صورهم في "الصاليا"! همس معتصم لأبيه: لماذا لايعيشون في سوقساروجا؟ ركض بهاء في السؤال الذي لم يكمله معتصم: إذا كان أحدكم يحب الآخر فلماذا لاتعيشون معا! أمسكه بيده ومشى إلى مكتبه. نشر خريطة وأشار بسبابته: هذه فلسطين! هذه طبرية! في هذه البلدة على شاطئ البحيرة تزوجت أمك. وفيها ولدت أنت! وهذه اسمها حيفا! أمك ولدت فيها. وهذه اسمها عكا! خالتك وزوج خالتك أتيا منها. عكا مدينة حلوة سأحكي لك عنها وسأصف لك سورها. ابن خالتك زياد ولد فيها! سألته منور مداعبة فيما بعد: لماذا لم تشر لمعتصم إلى الجبال التي تجولت فيها؟!

سيتذكر معتصم حتى مقتله الخريطة الموضوعة على مكتب أبيه، والدوائر الحمراء التي أشار إليها. سيتخيل بحرة وبحرا وسورا، وسيرسم بخياله، بألوانه التي تشبه قوس قزح، مدينة اسمها القدس، رأى أباه في الصورة واقفا في باحة واسعة أمام قبّة مذهبة، قرب أشجار سرو عتيقة، وسيتذكر ضريحا عجيب القباب اسمه ضريح "أبو نبّوت"، وينابيع وأنهارا، ونوافذ تطل على البحر أو تشرف من الجبال على الوديان. وعندما سيتأمل الدفتر المبقع بالدم في يد أمه ويفهم دون كلام أن ذلك الدم دم أبيه، سيقول لنفسه: لأجل تلك المدن الجميلة التي أشار لي إليها ذات يوم في الخريطة! وعندما سيندفع في الصف الأول من المظاهرات مرددا مع طلاب الجامعة غضبا يتجاوز ذلك الشارع وتلك المدينة، ويطلق عليه أول رصاص سوري بعد الاستقلال، سيعرف وهو يغمض عينيه على سماء بعيدة خلف وجوه زملائه، أنه قدّم من دمشق حصته لفلسطين!

كم كان الطقس جميلا في ذلك اليوم! كأن أيلول وصل! بكّرت ذهبيات الشام! مدت منور غطاء الايتمين المطرز بزهور ملونة على طاولة في أرض الدار. وحملت من المطبخ أنواعا من الطعام استنشق عبد الرحيم عبقها في شهية. إمام بايلضي، ورق العنب والكوسا، فتة مكدوس، وأهم من كل شيء: فتوش! لمن

www.alkottob.com

هذا الطعام كله؟ تناول معتصم ورق العنب بأصابعه وقلّده زياد. مص إصبعه مثله أيضا! ماهذا؟ اجلس هنا يامعتصم، اسكب له يابهاء!

أين هرب الشقاء الذي يغمر البلاد؟ أين القلق والهموم وأين مؤتمر بلودان؟ روت سعاد الأحداث، كأنها تروي أخبارا يجب أن يعرفوها. وروى عبد الرحيم كيف حوصرت الهيئة العربية العليا وطوقها المسلحون الإنكليز ليعتقلوا الحاج أمين وأعضاء الهيئة. كانت سفينة حربية تنتظر الحاج لترحّله إلى المنفى. أخطره أصحابه فتسلل ولجأ إلى بيته في المسجد الأقصى، المشرف على حائط البراق. أصبح في الحرم في حماية حراسه المجاهدين. حاصر الإنكليز أبواب المسجد وأبواب القدس القديمة. هل يقول لهما عبد الرحيم إن المفتي احتاط من الاعتقال، وسينجو من ممر بين بيته وبين مدرسة قايتباي؟

في المساء جلس بهاء مع عبد الرحيم وأغلقا عليهما الباب. أسلحة الثورة السورية جاهزة لتنقل إلى فلسطين! درسنا الطرقات الممكنة! ستمر من سوريا ولبنان والأردن! أسلحة قديمة؟ سيدبرها الثوار! تلزمهم! ابتسم بهاء: اقبلوها هدية من الثورة السورية! تمنينا لو نكون معها، لكن طلبتم منا الانسحاب! في السنة الماضية كان عبد الرحيم مسؤولا عن جمع التبرعات من صفد للسوريين المضربين. وهاهو يتلقى هدية الثورة السورية لفلسطين!

فتح بهاء الباب، ففهمت منور أن الجزء السري من اجتماعهما انتهى! قال بهاء: ياسعاد، سأسهر مع عبد الرحيم في المقهى ليذوق أرجيلة بتنباك عجمي! لن تبالي سعاد بغياب عبد الرحيم في دمشق. لكن منور ابتسمت. يأخذه إلى المقهى؟! على هامان يافرعون؟!

استمتع عبد الرحيم بالمشي مع بهاء في أمان! مشى في دمشق التي يحكمها الآن نبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين، وهاشم الأتاسي، وسعد الله الجابري، وشكري القوتلي، وجميل مردم. وصلا إلى المكتب العربي للدعاية والنشر الذي أسسه البارودي في بيته في القنوات، بتبرعات الفرنك. دخلا من باب واسع يتوّجه إطار من الحجر المنقوش إلى أرض دار واسعة فيها شجرة "كريفون" وارفة، وبحرة واسعة. استقبلهما مدير المكتب، فؤاد مفرج الذي ترك عمله كأستاذ في الجامعة الأمريكية ليتفرغ للمكتب. هنا مركز لجنة الدفاع عن فلسطين! مركزها أيضا مكتب الكتلة الوطنية! فرق القمصان الحديدية، والكتلة الوطنية نفسها مكرسة لما تطلبه اللجنة. التقى بهاء وعبد الرحيم بالفلسطينيين اللاجئين إلى سورية من أحكام الإنكليز، وبمن وصلوا من لبنان. راقب بهاء الأشواق والأحزان جالسا مع

www.alkottob.com

أصحابه حول بحرة أرض الدار الواسعة في بيت البارودي. بلاد الشام موجودة رغم التقسيم! قصد التقسيم اقتطاع فلسطين، لكن أيمكن أن يتحقق ذلك؟! ألسنا، نحن، حقيقة حية أقوى من الخرائط؟

www.alkottob.com

كان نبيه العظمة قد أسس لجنة الدفاع عن فلسطين في دمشق. المناخ مناسب! رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، رئيس الوزراء جميل مردم، وزير الداخلية سعد الله الجابري، وزير المالية شكري القوتلي! من تبرعات الفرنك نظم فخري البارودي مكتبا في القنوات سماه "المكتب العربي للدعاية والنشر" وأعطاه للجنة الدفاع عن فلسطين. تفرغ له فؤاد خليل مفرج، الأستاذ في الجامعة الأمريكية. وضع نبيه العظمة مكتب الكتلة الوطنية نفسه لنشاط لجنة الدفاع عن فلسطين. ودعت اللجنة إلى المؤتمر القومي العربي في بلودان في الثامن من أيلول سنة 1937 لمقاومة الخطر الصهيوني.

أثمرت اتصالات نبيه العظمة وهانحن في مؤتمر بلودان! من لم يبق له مكان في فندق بلودان نزل في مخيم الكشّاف! سجّل يابهاء هذا اليوم العظيم! في القاعة الكبرى في الفندق الكبير افتتح نبيه العظمة المؤتمر في الساعة الرابعة بعد ظهر الأربعاء في الثامن من أيلول سنة 1937.

وقف الحاضرون حدادا على "شهداء الأمة العربية". ثم تكلم فؤاد مفرج مدير المكتب العربي للدعاية والنشر. غاية المؤتمر أن يضع الأساليب التي تساعد فلسطين في صراعها ضد الصهيونية والإنكليز.. لا نطلب الحرية مستندين إلى الوعود، بل ننكر أصلا حق أي إنسان بالتصرف بوطننا كاملا أو مجزأ.

شكل مكتب المؤتمر: السويدي رئيسا للمؤتمر، علوبة باشا وشكيب أرسلان والمطران أغناطيوس حريكة، مطران حماة، نواب الرئيس. رياض الصلح مراقب، عزة دروزة أمين السر، صبري العسلي مساعد أمين السر، فؤاد مفرج مساعد أمين السر.

وقت المؤتمر قليل! ليتنا نقيم هنا أسبوعا على الأقل! ليس لدينا الوقت لنتأمل سهل الزيداني الأخضر والجبال الجرداء المهيبة! كم نحتاج الهواء والأمان! سنعود إلى بلودان مع سعاد ومنور، ولكن متى؟! وهل سيتكرر في أيلول آخر

www.alkottob.com

مانراه اليوم، وهذا النسيم العذب؟ كم وعد المسافرون أنفسهم بالعودة إلى مايعبرونه مسرعين، لكنهم لم يعودوا أبدا إليه! في الردهات والممرات عمل، لقاءات، اقتراحات. لكن يجب أن نعود إلى القاعة!

قال السويدي: أرى أن الوقت حان لنفهم الأمم الغربية عامة والشعب البريطاني خاصة أننا قد وصلنا مع الامبراطورية البريطانية إلى مفترق الطرق. فعلى الإنكليز أن يختاروا إما محالفتنا أو محالفة الصهيونيين. واقترح علوبة باشا انتخاب المفتي رئيس شرف فوافق المؤتمر. أولى الأقطار في الدفاع عن فلسطين مصر.. وجود أمة يهودية في فلسطين يهدد كيان مصر الخاص كما يهدد كيان العرب أجمعين.. ولا يظن ظان أن اليهود سيقتصرون على هذه البقعة التي يراد إعطاؤهم إياها. كلا، بل إن استعمارهم الممقوت سينتقل لا سمح الله إلى شرق الأردن وسورية ولبنان والعراق ومصر. قال عبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبان المسلمين ورئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في مصر: يعتقدون أن الشرق لهم، يستوي في ذلك الاعتقاد محافظهم وحرهم واشتراكيهم وغنيهم وفقيرهم.. أيها العرب لا تعتمدوا إلا على سواعدكم! وقال المطران أغناطيوس حريكة: إن رجال الإكليروس أحق الناس بالدفاع عن فلسطين. وسخر من رجال الحروب الصليبية الذين ادعوا الدفاع عن فلسطين. فالعرب أشرف من حافظ على قدسية الأماكن المقدسة واحترامها، لافرق في عهد عمر بن الخطاب أو في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي دفع بسيفه الفاتحين المستعمرين عنها. وقال رياض الصلح مداعبا، إذا كانت الكلمات تقاس بحجم الدول فلن تطول كلمته. ونبه: يجب أن يعلم لبنان أن هذه الدولة التي تقوم على حدوده ليست الدولة اليهودية الصغيرة بل تلك الامبراطورية العظمى.. ولكم من سجين وجريح وشهيد وقع في صيدا وبنت جبيل وجبل عامل وبيروت وطرابلس في سبيل فلسطين! وذكر عزة دروزة أن المؤتمر الصهيوني الأخير في زوريخ ثبّت المطامع الصهيونية في فلسطين وشرق الأردن. وبيّن أن العرب مستعدون لقبول اليهود كأقلية ذات حقوق.

في المؤتمر كثير من التفاصيل! جف قلم عبد الرحيم مرات وعبأه من محبرة أخرى ففسد الحبر واضطر أن يغسل قلمه. سجل التفاصيل كقطع فسيفساء إحداها إلى جانب الأخرى. لا نفكر فيها اليوم فقط بل نرسم منها برنامجا للسنوات الآتية. ولا نكتبها فقط لهذا الزمن! شكر المؤتمر الحكومة السورية، والكشاف العربي، والقمصان الحديدية! انتخب اللجان: السياسية والاقتصادية والمالية ولجنة الدعاية. تليت برقيات تأييد للمؤتمر من حسن البنا في مصر، ومس نيوتون في حيفا..

www.alkottob.com

وبرقيات من نيجيريا والبرازيل وغيرها. تليت تقارير اللجان. ثم قرأ صبري العسلي مقررات المؤتمر: فلسطين جزء لا ينفصل من الوطن العربي! نرفض ونقاوم تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها! نطلب إلغاء الانتداب ووعد بلفور وعقد معاهدة مع بريطانيا تضمن للشعب العربي الفلسطيني استقلاله وسيادته، ونطلب حكومة دستورية! على هذه الأسس فقط تقبل الصداقة مع بريطانيا والائتلاف مع اليهود! وستبلغ هذه القرارات لعصبة الأمم. وسترسل برقيات باسم المؤتمر للبابا ولفوزي القاوقجي وللدول الإسلامية.

لن ينسى عبد الرحيم ولن ينسى بهاء أبدا هدير أربعمائة وخمسين رجلا من الوطنيين العرب أعلنوا في مؤتمر بلودان قرارهم: "فلسطين جزء لا ينفصل من الوطن العربي، والعرب جميعا يرفضون مشروع التقسيم وإنشاء دولة يهودية فيها". أقسموا واقفين أن المؤتمرين "يتعهدون أمام الله والتاريخ والشعوب العربية والإسلامية بأن يستمروا في الكفاح إلى أن يتم إنقاذ فلسطين".

لم يكن رجال صفورية قد سمعوا قسم مؤتمر بلودان! ولم يعرفوا كيف ارتعش عبد الرحيم وهو يسمع صوته واضحا ومدويا وسط أصوات رفاقه. لكن مجموعة من رجال صفورية رددت القسم نفسه في فلسطين عندما طوق أندروز حاكم الجليل صفورية وأهان رجالها.

كرر مؤتمر الشباب القومي الذي اجتمع في مقهى في الزبداني، قرارات مؤتمر بلودان! ومع ذلك سيعلن ايدن وزير خارجية بريطانيا في نهاية سنة 1937 في عصبة الأمم اعتماد مقترحات اللجنة الملكية لمشروع التقسيم! سيعارض وزير خارجية مصر وممثل العراق التقسيم، وسيعارضه مندوبو ايران وايرلندا وألبانيا وممثل الأفغان. سيقول توفيق السويدي في عصبة الأمم: لماذا تكون فلسطين العربية مرغمة على ايواء اليهود؟ إذا كانت اوربا تريد أن تكافئ اليهود على خدماتهم فلماذا لاتمنحهم ولاية فيها؟ هل تقبل اوروبا أن تعيد في بلادها أوضاعا ترجع إلى ماقبل ألفي سنة؟

بعد مؤتمر بلودان بدل الإنكليز جنرالا فاشلا بجنرال يرتجى أن ينجح في ضبط العرب. نقل الجنرال ديل من فلسطين وعين في مكانه الجنرال ويفل. لم ينفع ديل نشيد نوح ابراهيم:

دبّرها يامستر ديل، بركي على ايدك بتنحل

www.alkottob.com

جيت فلسطين الحرّة، حتى تقمع الثورة
ولما درست الحالة، لقيت المسألة خطرة
بدنا تفهم بريطانيا، حتى تكفينا شرها
وتصافي الأمة العربية، بمنع البيع والهجرة
دبّرها يامستر ديل، يمكن على ايدك تنحل

ماذا تغير بعد ويفل؟ سيدفع أندروز ثمن عدوانه، في الشهر نفسه، في الناصرة.

لا تمشي حكومة الانتداب بالبلاد إلى الأمان! أعلنت أن اللجنة العربية العليا واللجان القومية جمعيات غير شرعية. اعتقلت أحمد حلمي باشا وفؤاد سابا ويعقوب غصين. نفت المعتقلين إلى سيشيل. ستعزل في أول تشرين الأول أمين الحسيني من منصبه في الإفتاء والأوقاف. "أمين الحسيني غير لائق لمنصب رئيس المجلس الشرعي الأعلى. جرد من عضويته في لجنة الأوقاف العامة".

سيهبط الحاج أمين من أعلى السور في القدس وينتقل بقارب إلى لبنان. سيعتقله الفرنسيون لكن اللبنانيين سيتظاهرون ويحمونه. وسيقيم في بيروت. سيجمع الكشاف والطلاب في الشوارع التبرعات في يوم فلسطين في سورية. وسينشغل شكيب أرسلان ونبيه العظمة وغيرهم في فندق اوريان بالاس بالبحث في مساعدة ثوار فلسطين. ولن يشغلهم عن ذلك السيول التي جرفت في تشرين الأول الضمير والمعظمية!

استقال واكهوب وعين ماكمايكل مندوبا ساميا في فلسطين وشرق الأردن. وستنفذ مؤسسته توصيات اللجنة! أعلنت المحاكم العسكرية في فلسطين، وسيحسب إطلاق النار جريمة يعاقب عليها بالإعدام! ستحاكم محكمة حيفا العسكرية فرحان السعدي وستحكم عليه بالإعدام شنقا في تشرين الثاني! لذلك سيغضب بهاء أن يقول الشهبندر إن نسبة اليهود 29% من السكان ولذلك "فاتخاذ مثل هذا الأساس في تعيين النسبة بين العرب والصهيونيين هو أمر معقول وقائم".

www.alkottob.com

تغمض زوجة محمد الموعد عينيها وتفكر بشجرة الزيتون التي ستقطفها غدا. تشم عطور البرية، تشم القندور ذا اللون الأصفر. والمصاص ذا الزهر الأبيض، زهرته حلوة كالعسل! والنوار الأبيض، زهرته حلوة كالقطر! في صفورية اثنا عشر لحاما تطلب منهم ماتشاء. وفي بيتها، ككل بيت في صفورية، طابون يفوح منه الخبز وقت الفجر. تتسلى زوجة محمد الموعد بالملّ، ثمار البلوط الممتلئة بالحلاوة مع بعض المرارة، تشويها أو تسلقها. السرّيس في صفورية كالشجيرات. الخرنوب ضخم وارف. الرمان صغير لكنه دون بذر. ستطلب ذات يوم أن يحملوا لها ولو رمانة منه! الصبار لايباع فهو سياج الحواكير، تقطف منه بمقدار ماتريد! هل تعوّض صفورية؟ أبدا! ومع ذلك سينشئ من سيبقى من أهلها بلدة يسميها صفورية قرب الناصرة. تجمع زوجة محمد خبيزة، عوّينة، لوفا، وتطبخها. تجمع النرجس البري والدحنون وعصا الراعي. وترتوي من نبع القسطل الذي يسقي صفورية وبساتينها ويجري حتى البحر. وتسمي "مسيلة" النبع الذي يظهر وقت المطر فيستقي الناس منه. تقطف القرّة والنعنع من حوافي الساقية. وتقطف الحمص والفول والثوم والسبانخ ذا الورق العريض، والبقدونس حتى الخصر. تهبّ الرطوبة على صفورية من الغرب، وترطب الخضار البعل. فهل تستطيع أن تنسى طعم البندورة البعل! ستملأ قبل الرحيل حضنها من الفاصولياء البعل. لكن هل كانت تستطيع أن تنقل معها الندى الكثيف على أوراق التين؟ لن تنسى أبدا الندى الذي يسقط من ثمرة التين عندما تقطفها في الفجر!

استمتعت زوجة محمد الموعد بالضباب الذي يدخل من نافذتها ويخرج من بابها. ستبدده الشمس، وسيبدو لها عندئذ جبل الشيخ. مدت ذراعيها على عرضهما. هل تستطيع أن تقول إنها سعيدة، لأنها جميلة وغنية وذات زوج وأولاد، تتنفس هواء نظيفا وتشرب من الينابيع، وتتناول الخضار من أرضها؟ ولأنها

www.alkottob.com

تستسلم أحيانا للنوم تحت السماء؟ يمتد سهل البطوف من بلدتها إلى قرى الرينة وكفر كنا والمشهد... ويمتد فيه نظرها، فتلمح زوجها على فرسه التي تذكر في صفورية بين الخيل الأصيلة.

هذا كله يسعدها! لولا الإنكليز! قالت: الله يأخذ الإنكليز! في صفورية دير كاترينا. يقال إن سيدتنا مريم انتقلت من الناصرة إلى كفر كنا ثم إلى صفورية، وبكرامتها بني الدير. أهل صفورية أخوال سيدنا المسيح عليه السلام. ومع ذلك يحاصرها الإنكليز! في الدير راهبات ايطاليات يعلمن بناتنا، والبلدية تتبرع للدير بالزيت والزيتون والمال. فهل هؤلاء "الأوادم" مسيحيون واولئك الإنكليز، الله يأخذهم، مسيحيون؟!

فليحاصرنا الإنكليز، الله يأخذهم! لدينا مانحتاجه! البرية والحشائش والهواء النقي وماء الينابيع! نعيش على "الخوزة". نقطع بها الحشائش ونطبخها. نعمل من الطحين والسمسم "قراقيش" نأكلها مع البطيخ. لدينا الفطر الكبير الذي نأكله، والفطر الصغير السام الذي نسميه فطر كلاب! وفي أيام البيدر نذري القمح على الهواء. وماأحلى الهواء الغربي! لدينا دواؤنا! نقطر من الشومر في العين فتشفى!

هل كانت زوجة محمد ترش ملحا على الجرح؟ لم يكن ابنها الأصغر قد ولد عندما رعت صفورية مجموعة من مجموعات القسّام. مصطفى علي الأحمد، حسن عزام، صانع القنابل، الذي كان يعمل في الموتورات في حيفا في شركة حمور الألمانية، وأحمد التوبة، وابراهيم أحمد الحاج خليل، وعبد الله الحيفاوي. كانت أول عملياتهم في مستعمرة نهلال اليهودية والمعسكرات البريطانية. اعتقل ثلاثة منهم حلمي البسطة والإنكليز. قالوا إنهم وجدوا في بستان مصطفى علي الأحمد قنبلة من نوع القنبلة التي استعملت في العملية. أتوا بزوجته وقالوا له نعتدي عليها. فاعترف بأنه ألقى قنبلة على نهلال، فأعدموه. لن يهدر دمه! سيقتل الثوار فيما بعد حلمي البسطة كما سيقتلون أحمد النايف الذي دل إلى القسّام.

عانت صفورية من الإضراب والثورة أقل مما عانت قرى فلسطين. فالمحل في صفورية من كثرة المطر لامن قلته! يخرب المطر البيادر! لاتوجد جبال تحجب البحر عن صفورية. تشعر صفورية برياحه وتقبل غزارة أمطاره. ترتفع خضرة الربيع فتغطي الراكب على حصانه. مياه نهر المقطع من ينابيع صفورية. هذا الغنى بالمياه جعل صلاح الدين الأيوبي يعسكر فيها. وجعل جمال باشا ينزل فيها مع عسكره، ويحجز ماء القسطل لعسكره ويمنع أهل البلد من الاستقاء منه.

www.alkottob.com

تطعم صفورية أهلها. لكن الإنكليز ينزلون الطحين معبأ بالأكياس، نظيفا، ورخيصا، في موسم القمح ليضربوا الفلاحين. وينزلون السمسم في موسم السمسم فيضاربون عليه في موسمه! لم يرغم ذلك أهل صفورية على بيع أرض لليهود! ستبقى على حدود صفورية مستعمرتان ألمانيتان: بيت لحم وأم العمد. ولامستعمرة يهودية!

قد يحط الثوار في صفورية وينطلقون منها. فيضعون سلاحهم في أكياس ويدفنونه في الحاكورة، يستخرجونها عندما يذهبون إلى معركة. وقد يبقون في أطرافها. فتعرف زوجة محمد الإشارة إذا وصل رسول يخبر أنهم اقتربوا. يحتاجون طعاما! تطبخ بالقدور الكبيرة وتخرج مع النساء حاملات الطناجر إليهم مع الزغاريد. لا خوف! لا توجد حكومة الانتداب إلا حيث يوجد العسكر! وستستقبل قواد الثورة في المنطقة: أبا ابراهيم الكبير، أبا ابراهيم الصغير، أبا محمود الصفوري.

في أول الثورة جرح في معركة في طبريا، ابن محمد الموعد. انسحب الثوار من طبريا إلى صفورية مع الجرحى واستقبلهم المختار الشيخ صالح الموعد. وألقى الشاعر نوح ابراهيم قصيدة عن امرأة تبيع سوارها لتشتري السلاح للثوار.

كانت جريدة الدفاع وجريدة فلسطين تصل إلى المختار فيقرأها في الديوان. وكان لدى المختار راديو يعمل بالبطارية، تركه له الإنكليز، تسمع منه فقط محطة الشرق الأدنى. لكن أخبار الثوار كانت تنشر في القرى بمراسلين متنقلين. حاول المختار أن يجد محطة أخرى. عبثا! قال له محمد الموعد: لاتهتم يامختار! للناس إذاعتهم الخاصة!

هكذا عرف محمد الموعد أن أحد إخوته، عبد المعطي سليم الموعد، قتل. فخرج مع ابنه الذي لا يزال تلميذا في المدرسة، ومع أهله وشباب البلدة، ليأتوا بالشهيد. أخذوا "كارّة" حملوه عليها وعادوا وهم يهتفون "شهيدنا يابو سليم". البرية لهم حتى يقتربون من البلد! وهناك تختفي الأسلحة في أكياسها وتدفن حتى الليل.

ينقل حتى النهار الأصوات. لكن زوجة محمد الموعد تقول: صار الناس يسمعونها في أيام الثورة أكثر مما كانوا يسمعونها قبلها. فيستطيع الخبير الذي يضع أذنه على الحجارة أن يسمع خطوات الثوار أو حوافر دوابهم. وياحسرتي عليهم، أكثرهم يمشي وقلة منهم تركب الخيل والحمير والبغال! لكن الإنكليز، الله يكسرهم، يركبون السيارات والمصفحات. فنسمع هديرها ونستعد للتطويق.

سمع أهل صفورية هدير الإنكليز! صفورية أكبر قرى الجليل بعد بيت لحم.

www.alkottob.com

بلد حمولات كبيرة بينها علاقات نسب. ولاء أهلها للحاج أمين الحسيني، بصفته القومية وصفته الدينية. الأحزاب؟ جديدة لم تصل إلى صفورية بعد! وسط هذا الترابط يصعب أن يعيش جاسوس. فهل يغدر رجل بعشيرته؟! مع ذلك جرب الإنكليز فيها غدرهم بطريقة صارت معروفة: تركوا على مغلف في مركز الشرطة اسم رجل من صفورية، ليلمحه بوليس عربي يخمنون أنه ينقل الأخبار للثوار. فهل سيغتال الثوار ذلك الرجل دون محاكمة؟! يقصد الإنكليز بالاغتيالات أن ينفّروا الناس من الثورة، وأن يبعدوا عن الثوار عشائر وأسرا مهمة! فهم أهل صفورية الحيلة! لايقع عاقل في حفرة مرتين! قال محمد الموعد: لن يثمر عندنا دهاء الإنكليز. يقتلون القتيل ويمشون في جنازته! قتلوا الوجيه الوطني الفاهوم، الغني، ابن الناصرة، الذي كان يقدم للثوار المال والمأوى. وكان له بيت في قرية إكسال ملأه بالمؤونة، يستريح فيه الثوار. وكان إذا اشترى شيئا دفع ضعف ثمنه ليساعد المحتاج. اغتاله الإنكليز وأشاعوا أن الثوار قتلوه لأنه خائن. فأوقدوا خلافا بين أهله وبين الثوار. أعلن ابن عمه ميلاد أنه سيقتص من الثوار. أتى مع الإنكليز عندما طوقوا البلد وأخذوا الناس إلى البيادر، وأشار لهم إلى الثوار الذين يعرفهم. بالطريقة نفسها اتهم مختار صفورية بالخيانة. فأتى الثوار مع الشيخ عارف ليقتلوه. في صفورية ثوار مسلحون. فهل يستطيع ثوار الشيخ عارف أن يأخذوا المختار؟ طوق ثوار صفورية مداخل البلد. دخل الشيخ عارف مع ثواره فاستقبله المختار وتحادثا. واجب المختار أن يستقبل الإنكليز عندما يأتون! لكنه يستقبل الثوار أيضا ويساعدهم! قال المختار: "أنا مش خايف على حالي لكن عندي عشيرة تساعد الثوار فهل تستبعدونها عن الثورة"! بعد الحوار بين المختار الشيخ صالح وبين الشيخ عارف، قال الشيخ عارف: الخائن من يقول عن الشيخ صالح خائن! وقال محمد الموعد: كفى! لن يتكرر ذلك في صفورية!

هل شم الإنكليز أن الثوار مروا أمس بصفورية؟ كان فرحان السعدي قد أتى إلى صفورية. واستدعي سمسار لليهود من قرية قرب حيفا فأرسل إليه. حاكمه السعدي، فبكى الرجل واعترف بذنبه وتاب على يدي السعدي. وترك للقيادة أن تقدر العقاب الذي يستحقه! فهل أتى الإنكليز ليعتقلوا الثوار؟

في طريقهم إلى صفورية صادفوا يوسف عبد الله الموعد، ابن عم محمد الموعد، نازلا إلى الفلاحة ومعه طرشه فأطلقوا عليه النار وقتلوه. ووصلت المصفحات والسيارات التي سمع أهل صفورية هديرها. نزل منها العسكر، وطوقوا البلدة. لن يستطيع أحد الخروج منها، وسيتفادى العائد إليها القرب منها! ثوار

www.alkottob.com

صفورية في القرى والجبال مع قوات الجهاد المقدس، فمن سيعتقل الإنكليز؟ أخرجوا الرجال والفتيان من البيوت إلى البيادر. مع الإنكليز مقنّع يدعي أنه يكتشف الثوار! لم يفت أهل صفورية أن الإنكليز كرّموهم بالتطويق لما عرفوا به من الشجاعة، فرافق حملتهم أندروز حاكم الجليل نفسه! سدد العسكر الأسلحة إلى ظهور الناس وصدورهم. يخيفوننا؟! من يخشى إذن الثوار؟ نهق حمار والرجال في البيادر والأسلحة مسددة إليهم وخلف الجنود مصفحاتهم. فبدا نهيق الحمار وسط ذلك التجهم مضحكا. هل يسخر الحمار من الإنكليز أم يحتج؟ لم تخف على أندروز النظرات التي تبادلها الرجال. فقال: ياشيوخ صفورية "شو بيقول هادا حمار؟ ردّوا عليه"! رد موعد سليم الموعد على أندروز: "حمار بيضرب بيرزان للجنرال، بيقول حاجة رذالة يإنكليز، اتركوا البلد وانسحبوا"! احمر وجه أندروز: "أنت بيقول هيك؟ أنت بيشوف شو بيصير"!

لم يكن الشيخ موعد سالم الموعد بين الرجال والفتيان الذين اعتقلهم الإنكليز. لكن مصفحة وعسكرا أتوا في الساعة الثالثة بعد الظهر واعتقلوه.

صار الإنكليز يطوقون صفورية مرتين في الشهر على الأقل. يكسرون هيبة البلدة التي تستجير بها قرى الجليل فتنجدها! البلدة التي تعتد بأن صلاح الدين الأيوبي نزل فيها أيام حطين! يجب أن يكون ردها في مستوى الإهانة التي رماها أندروز عليها! في صفورية قال أسعد لأنور باشا: "خذ العفو وأنت من آله، ولنا عندك معروف وآن حمله، تبصّر فينا وازرع جميلك، فصنيعك لايضيع في محله"! لم يزرع أنور باشا المعروف ولم يحصده! والإنكليز مثله! منذ وصلوا لم نستقبلهم ولم نقل لهم شعرا! يعرفون أن صفورية أعلنت الحداد ثلاثة أيام يوم أعدم الإنكليز جمجوم وحجازي والزير في سجن عكا. واستقبلت التعازي في المضافات فأتى الإنكليز يومذاك واعتقلوا من صادفوه من الشباب! فماذا أفادوا؟ من صفورية نزل وفد إلى حيفا ليشترك في جنازة القسام. وأنشد: "عز الدين، ياخسارتك، من ينكر شهامتك، يارئيس المجاهدين"! فهل تسكت صفورية على إهانة أندروز؟

يستقر أندروز في الناصرة عاصمة الجليل. يعرفها أحمد التوبة كما يعرف صفورية. نزل إليها فصادف على الأرض رجلا مقتولا مر به الناس كأنهم لايرونه. سمسار أراض أخذ عقابه، لايجوز أن يحمله أحد، ولاأن يصلى عليه، ولاأن يدفن! انتظر ياأندروز هذا المصير مع أنك لن تحرم من جنازة يرتبها لك أصحابك!

رصد أحمد التوبة أندروز في الناصرة وقدّر أن يوم الأحد مناسب لاغتياله.

www.alkottob.com

خرج مبكرا مع ابراهيم محمد موسى والسعدي من صفورية إلى الناصرة في اليوم الموعود. وانتظر أندروز قرب الكنيسة التي يصلي فيها. دوى الرصاص عندما خرج منها أندروز. لن يعرف أحد الملثمين بالكوفيات الذين قتلوا أندروز ومعاونه. فأهل المدن كانوا قد تركوا الطربوش ولبسوا، كأهل الريف، الكوفية ليحموا الثوار! لن يبوح من قد يكون عرفهم. ولن يبوح أحمد التوبة بالعقاب الذي أنزله بأندروز إلا بعد نهاية الانتداب! سيخمد سنوات، الرغبة في أن يعلن مجده، وسيبقى مستمعا من المستمعين الذين يظهرون إعجابهم بشجاعته. ولن يروي شوق أهل بلده إلى اكتشاف من تحمل مجد الرد على أندروز. لكن اسمه سيتردد فيما بعد في مضافات أهل صفورية وبيوتهم في المهجر. وعندما سيتحدث عنه ابن أخيه أبو محمد سيضيف اسمه إلى أفواج جديدة من الشباب يصعب أن يتذكر أسماءهم في انتفاضة الأقصى.

بعد مقتل أندروز طوق الإنكليز صفورية وأخذوا الرجال إلى البيادر. تفتيش واعتقال! أخفت زوجة محمد الموعد مسدسه في ثيابها. وخرجت إلى الحاكورة لتدفنه في الأرض. في الحاكورة بصل وفجل وبطاطا وخضار متنوعة. فتراب صفورية الخصب لا يرد بذرة أو شتلة. تبعها جندي إنكليزي: "شو بيعمل هون"؟ قالت: "هون بيحفر لأطلع بطاطا عشان ياكل! غور من وجهي"! انسحب الإنكليزي فدست زوجة محمد المسدس الملفوف بالأقمشة في الحفرة. كانت جميلة، فاتحة الشعر، بيضاء، طويلة. ولعل ابنها الذي كان في الرابعة عشرة من العمر يومذاك وسيسمى "أبو محمد"، لم يرها في أي يوم سابق أو لاحق أجمل مما كانت في ذلك اليوم. مع أنه كان يزهو بأن الناس يتفرجون عليها لجمالها. هل قالت له في ذلك اليوم: "يمّا، خذ"، قاصدة البطاطا فقط؟ أم قصدت المقاومة التي سيحملها بعد عشر سنوات، في آخر أيام فلسطين يوم سيستقر في صفورية قائد الجهاد المقدس محمود غزلان؟

فرض الإنكليز على الناس الهويات. قالوا: للإحصاء! وقال أهل صفورية: كذابون، هذه مصيدة لالتقاط الثوار والمطلوبين! لايمكن النزول إلى المدن دون هوية! يقطعون القرى عن المدن!

حمّلت مصيدة الهوية النساء واجبات الرجال. فنزلت زوجة محمد الموعد إلى الناصرة، كالنساء، لتشتري ما تحتاجه للبيت. لم تستبقها الناصرة برغم جمالها. استطاعت أن تعرف فيها رمان صفورية المشهور عندما لمحته في السوق. ولو رأت الزيتون لميزت زيتون صفورية من غيره. من يعش في صفورية لن يستطيع

www.alkottob.com

أن يعيش في غيرها. ماذا تقول؟ ستعيشين في غيرها! سترحلين عنها! وستكونين هناك مهما طال الزمن كالمنتظرين في المحطة، تترقبين العودة إليها، فإذا مضى العمر أورثت حلمك لأولادك ووصفت لهم البلد وجعلتهم يعرفونها وينتسبون إليها!

www.alkottob.com

بعد العودة من مؤتمر بلودان، استقبل عبد الرحيم ضيفا لم تره سعاد من قبل. لم يدعه إلى مطعم، بل ستره في البيت! وضعت سعاد كفها على قلبها ولامت عبد الرحيم عندما عرفت الضيف: هل بيتك آمن كي تستقبله فيه؟ كان يمكن أن نلتقي به في بيت الست شفيقة في طبرية!

رجاها عبد الرحيم: حضري له غداء يستحقه! ابتسم: ضيف سيعجبك! هل فهمته؟ استمعت إلى قلبها! ففي هذه الأيام تختصر الكلام كأنها تخشى أن يسمعها شخص قد يكون تسلل إلى حديقتها وألصق أذنه على نافذتها! نعم، تكتشف أن الإنسان في أيام السعادة يرفع صوته وقد يكثر من الكلام! قال قلبها: هذا الضيف يحمل رسالة من أزمنة عزيزة، فهل يصدق؟!

وصل الضيف! طويلا، نحيلا، يلبس بذلة كحلية. ليختلط بالعتمة؟ استوقفتها عيناه. قد تكتم القامة رحلة العمر، لكن لابد أن تبوح بها العينان! في عيني هذا الرجل عتمة وضوء! رغم دماثته شعرت بأنه كمن يتساءل: هل هي في مقام من يستحق أن يستمع إليه؟ قدمت له قهوة أهلا وسهلا، وتركته مع عبد الرحيم. عادت عندما ناداها عبد الرحيم: تعالي، اسمعي! وظلت بعد ذلك تنهض لتأتي بإبريق من الماء عطرته بورقة برتقال، أو لتحمل قهوة جديدة، أو كعكا خبزته بالأمس مع المحلب. تدلل الضيف وتعطي نفسها فسحة تتنفس فيها قرب نافذة المطبخ. فهم عبد الرحيم ذلك فسحب ضيفه إلى الهامش في غيابها كيلا تفوّت سعاد شيئا من حديثه! يريدها أن تكمل صورة الزمن الذي عبره أهلها وكانت صغيرة على ضفته!

عندما تجاوزنا القنيطرة، ياست سعاد، امتدت أمامنا جبال فلسطين وبحيرة الحولة وسهول الجولان ووادي التيم وجبال لبنان. وما أجمل ذلك المدى من السهول والجبال! اتصلت في الحقيقة بلاد الشام التي قررت سايكس بيكو لها التقسيم! كأنما أكد لنا المكان نفسه ما جئنا لأجله! لذلك لم نبال بأننا دون مال وأرزاق ولكن علينا مهمات كبرى! كان الأمير فيصل وقتذاك في اوروبا والأخبار

www.alkottob.com

تصلنا عن ألعاب الاوروبيين وخيانتهم العرب. كنا في سنة 1919، على بعد خطوة من إعلان الدولة العربية، وعلى بعد خطوة من معركة ميسلون! جاء إلينا في القنيطرة علي خلقي الشرايري الذي كنت أعرفه منذ نزلنا في العقبة كمجموعة مسلحة ترفد الثورة العربية.

انتقلنا إلى سفح جبل الشيخ. لو يستطيع أن ينقل ذلك الزمن السريع كومض البرق، الطويل كليالي الشتاء، لهذه المرأة التي تستمع إليه بانتباه، كابحة خفقان قلبها متظاهرة بالهدوء! لو يستطيع أن ينثر لها البرد المنعش وقرب السماء قربا يوهم بأن القمة في ملمس الكفين! ما أجمل ذلك المكان، ياست سعاد! يناسب أن تتأملي منه عمق السماء وصفاء المدى الذي تطلّين عليه! شربت من نبع ماءً باردا كالثلج، وكان الرغيف الذي حملته من عين فيت والجبن الأبيض الطازج أطيب من أي خبز وجبن ذقته في حياتي. وكان معي زعتر دون زيت. من هناك نظمنا الهجوم على مستعمرة المطلّة، وعلى المخافر الفرنسية والإنكليزية. كان علي خلقي قد اجتمع بشكري القوتلي في بيته في دمشق واتفق مع الإخوان هناك على العمليات ضد المحتلين. وأتى الرجال من نابلس وصفد والأردن ودمشق، نزلوا في قصر الأمير محمود الفاعور، ثم انتقلوا إلى القنيطرة حيث انتظرناهم.

في ليلة عاصفة من ليالي كانون الثاني هاجمنا مخافر الفرنسيين في لبنان. كنا من عشائر الفضل، ومن جماعة أحمد مريود، وعرب الحولة، والشركس، والدروز. انقسمنا إلى مجموعات، على كل منها ضابط مرتبط بمجلس استشاري عسكري. ولديها معلومات دقيقة عن حركة القوات الفرنسية من ضابط من السلط يقيم في حاصبيا. ترين ياست سعاد، أننا لم نكن نهاجم على طريقة "يالله عليهم"! كنا ضباطا درسوا في الكليات الحربية في استنبول وبرلين! لكن لا تظني، ياست سعاد، أن أيامنا هناك كانت قتالا فقط! احتفلنا حتى قبل معاركنا! كنا نقدر أن بعضنا قد لا يعود منها، فلماذا لا نحتفي بالحياة؟ أخذنا على تلك التخوم كل ما يخطر لك من أفراح! تنفست بعمق حتى الهواء البارد، واستمتعت حتى بملمس تراب الأرض، وخيل إلي أني أرى الزنبق الذي سيبزغ منه. وعندما وصلتنا قوة من الفرسان فيها محمد العجلوني وضباط أردنيون آخرون، احتفلنا احتفالا مبهرا. وتخمنين ياست سعاد كم يرفع المعنويات أن يرفدك قواد مثلهم! ولعلك تقدرين، وأنت تعيشين في ثورة فلسطين اليوم، عمق أفراحنا يومذاك!

امتدت عملياتنا من المستعمرات قرب صفد إلى الحدود اللبنانية. وتحملنا الردّ. قصفتنا المدافع، وهدمت بيت الأمير محمود الفاعور في قرية الخصاص.

www.alkottob.com

لكننا عبرنا نهر العنجر وهاجمنا القوة الفرنسية التي ضربتنا، ووصلنا إلى مستعمرة المطلّة وحاصرناها. فاستدعيت قوات من مرجعيون لتردنا.

بعد معركة الحولة احتللنا مرجعيون ورفعنا العلم العربي فوق السرايا وتابعنا طريقنا إلى النبطية. انسحبنا عندما استدعت القوات الفرنسية أسلحتها كلها.

عندما اكتمل الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا على تنفيذ سايكس بيكو وتعديلها انتقلت الدولتان من لوم الحكومة العربية التي تسندنا إلى تصفية تلك الدولة. وتعرفين قصة إنذار غورو. في تلك الأيام عيّن علي خلقي الشرايري قائدا للواء السادس، وتحرك ليسند يوسف العظمة في ميسلون، لكن معركة ميسلون كانت قد انتهت عندما وصل إلى دمشق. أنا كنت محظوظا لأني وصلت إلى ميسلون مع المتطوعين، ورأيت من قرب الشجاعة التي لاتصنع انتصارا عسكريا، لكنها تسجل موقفا تاريخيا. ومازلت أرى أن الدولة العربية تناولت من شهداء أيار مشروعهم ورفعته حتى ميسلون، وأن الثورة السورية تناولت من ميسلون جمرتها! وتناولتم أنتم ثورتكم من إضراب سنة 1936 في سوريا! نعم، ياست سعاد، هذا قدرنا! نستعير من نارنا جمرة لنوقد نارنا! تعرفين أن العشائر تتمنى للصديق ألا تنطفئ ناره!

كسر عبد الرحيم الأسى الذي خمن أنه غمر سعاد عندما ذكرت ميسلون والثورة السورية، ففي كل منهما قتيل من أسرتها. قال: أعرف أن علي خلقي الذي فشل في الوصول إلى ميسلون، رافق فيصلا إلى حيفا. قدم له حلي زوجته ليستعين بها. وداعبه: ستعيدها إلى زوجتي، عندما يرفدك أبوك بماله!

تركتهما سعاد لتحضّر قهوة جديدة. وقفت قرب النافذة ومدت نظرها في الليل! لماذا جاء هذا الرجل؟ ليضع في صندوق الروح مانرويه لأبنائنا؟ لنبكي معه على بلادنا التي اقتسمها الغرباء؟ ليقول لنا إن مصائبنا اليوم صيغت من اليوم الذي قسموا فيه بلاد الشام وخانوا فيه وعودهم لنا؟ كان قدري محقا، ومثله خالد آغا، لأنهما قدّرا أن تفكيك الدولة الشرقية سيوقع المصيبة الكبرى على العرب. فهما أن مهمة مشانق أيار وظلم الاتحاديين الدونمة ووعود الإنكليز، أن تبعد العرب عن الأتراك وتفكك الدولة! لكن كل ذلك ليس سياسة! ذلك حياتنا! أصدقاء خالي، رجال الدولة العربية، مقاتلو ميسلون، رجال المعارك التي تحدث عنها هذا الرجل، مشردون في مصر والحجاز، أو موجودون في قبضة سوميرست الإنكليزي في عجلون! خيارهم الوزارة أو السجن! أحمد مريود، الرحمة عليه، وزير العشائر، كاد يسلم لفرنسا! علي خلقي الشرايري، حاكم دولة عجلون، اعتقل في سجن المحطة!

www.alkottob.com

دخلت سعاد بصينية القهوة. جلست وتأملت الرجل الذي لم تعرف بعد اسمه. بدا لها أنها تشم عبق أخيها سعيد. مع أن سعيدا، بعمره ومزاجه، كان شريكا في مرحلة قصيرة من الأحداث التي عاشها هذا الرجل كلها. بدا لها الرجل على القمة التي ترسم منها المصائر، وفي السفح! فهاهو مخيّر، كأصحابه، بين أن يكون موظفا كبيرا دون سلطة، أو في السجن! تمنت أن تنحت كلماته لمن سيعيشون في بلاد مقسمة جاهلين حتى ما عرفته سعاد من وحدة بلاد الشام! تمنت أن توقفه على منصة وتنادي: ياأهل عكا، تعالوا اسمعوه!

قال لها عبد الرحيم: إياك أن تقولي لأحد إنه في عكا! سنحميه حتى يصل إلى المكان الذي يقصده! فكادت تضحك: تحميه ياعبد، أنت الذي تحتاج من يحميك؟! قال كمن يسخر من نفسه: بل أنت! سترافقينه، ياسعاد، إلى نابلس! بدت لها المسافة واسعة بين هيبة الرجل التي فاضت عليها، وبين حاجته إلى حمايتها حتى يصل إلى نابلس! وأدهشها أنه غير حزين على نفسه. بدا معتدا بحياته اعتداد الأمراء بنسلهم! كانت فيه أبهة أمير عشيرة، وسعة رجل عرف نعمة استنبول، وصفاء سماء بادية الشام، وحضارة مصر، وتقشف المقاتلين في الجولان. رأت فيه جلال من عبر الموت من الحرب العالمية الاولى إلى جبال لبنان، وزها بالنصر على مستعمرة صهيونية، وقاتل جيش دولة عظمى في ميسلون، وانسحب من مكان ليرد الهزيمة عن مكان آخر. كم فشلا ذاق؟ ومع ذلك يرتفع فوق الخيبة ويستصغر الظلم. ويفحص في هدوء الخيار الذي رمي لرجال الدولة العربية: المناصب في أمارة مقتطعة من بلاد الشام، أو السجن والمهانة! ابتسم الرجل لعبد الرحيم: لا، ياأخي! ليس الخيار هو السجن أو المنصب! بل النسيان أو المنصب! في العراق كانت مهمة فيصل أن يكبح ضباط الثورة العربية من الجموح. ولعله قتل لأنه كان يحميهم قدر ما يستطيع. هناك أصبح الأمر بعده للإنكليز ولنوري السعيد! وهنا، بقي لضباط الثورة العربية هذا الخيار!

ومن هم اولئك الضباط، ياست سعاد؟ درسوا في معاهد استنبول وبرلين، وتدربوا في جيوش الدولة، ومارسوا مقاومة معسكرات المحتلين والصهيونيين! آمنوا بالوطن وصرفوا من مال أهلهم وعشائرهم على العمل الوطني! ليتك رأيت بنطال سعيد العاص المهترئ وقميصه الممزق! كان علي خلقي يستطيع أن يصبح من الأثرياء! لكن ثروتنا غير ذلك! اجتمعنا من بلاد الشام كلها في مشروع الاستقلال والنهضة. تذكري أن رجال الدولة العربية انشغلوا بغرف القراءة والمدارس والمعاهد العلمية وحضروا المسرحيات! لكن الغرب الذي يدعي أنه انتدب علينا ليحضّرنا لا

www.alkottob.com

يريد لنا أن ننصرف إلى العلوم! لا إبداع دون حرية، والغرب لا يريد لنا الحرية! وأية سخرية! تحكم بريطانيا مصير الضباط العرب الذين هاجموا مستعمرات اليهود، وهي ترتب فلسطين لتصبح وطنا صهيونيا!

لا يخفى على مثله أنه يجب أن يبتر الأسى حيث يجب أن يبتر! انتبه إلى العتمة التي عبرت نظرة سعاد، ولعله انتبه إلى ندى في عينيها عندما عادت وهي تحمل شراب الرمان له. قال عبد الرحيم وهو يبتسم: ذروة التكريم عند سعاد أن تقدم لضيفها شراب الرمان الذي تعصره من ثمر شجرتها! رفع الرجل كأس عصير الرمان: كأنه الكهرمان! وحاول أن يصرف سعاد إلى حادثة طريفة. تعرفين، ياست سعاد، أن الرجال الذين يعرفون قيمة أنفسهم مهما تواضعوا، لا يقبلون أن يرفع فوقهم من هو أدنى منهم خبرة أو رتبة. وهذا ما حدث عندما قابل علي خلقي زميله جعفر العسكري في العقبة في سنة 1917. كان يعرف أن جعفر العسكري سافر في غواصة ألمانية إلى طرابلس الغرب ليسند السنوسيين ضد الطليان، فلقبوه باشا. وكان قد انضم وهو أسير عند الإنكليز إلى جيش فيصل، وأخذ مكان عزيز علي المصري الذي ترك جيش الشريف حسين محتجا على نفوذ الإنكليز. وكان جمال باشا قد شنق صديق جعفر العسكري وصديقنا، الضابط سليم الجزائري مع شهداء أيار. لم يظهر علي خلقي مايجب أن يظهره لمن أرفع منه رتبة. فسقط من قائد حامية إلى السجن! ولم تكن تلك العداوة بينهما ضرورية!

مدت سعاد صحون الطعام على الطاولة. وضعت في الوسط الدجاج بالسمّاق والبصل، ملفوفا بخبز التنور. والملوخية على الطريقة المصرية. أكل الضيف لقيمات فقط. ياللأناقة! لكنها لن تقبل ذلك! خمنت أن دربه طويل، طويل، وقد لا يجد بيتا يستطيع أن يطعمه، وقد ينام في مغارة، هو الذي يبدو ابن عشيرة كبيرة تحشد السجاد والوسائد في خيامها! قالت: حضّرت هذا الدجاج بالسمّاق، وهذه الملوخية لك! أرجوك خذ! تناول منها قطعة فقط من الدجاج وردّ البقية: هاأنت حضرت الدجاج بالسماق والبصل، والفطائر بالزعتر، طعام أهل البلد! فهل يتذوق ذلك غريب من الغرباء الذين استوطنوا المطلّة؟ روى لها أنه مرّ بمستعمرة المطلّة. وأين اليوم من الأمس! لابد أن مستوطنين جددا وصلوا إليها بحماية الإنكليز كمهاجرين شرعيين سمحت لهم حكومة الانتداب بالهجرة، وكمهاجرين غير شرعيين تسللوا بالزوارق أو عبروا الحدود من تركيا ولبنان! بلادنا، ياست سعاد، تسرق منا بحماية اوروبية! هل رأيت قبل ذلك غريبا يهب

www.alkottob.com

بلادا لا يملكها لغرباء، رغم أنف أهلها؟ يشفقون على اليهود؟ فليقدموا لهم وطنا من بلادهم لا من بلادنا! المستوطنون اوروبيون لا علاقة لهم بحضارتنا! لا طعامهم من طعامنا ولا عاداتهم من عاداتنا! سيشعلون هذه البلاد، وسيبقى الصراع قائما مابقيت مستوطناتهم! ولايغرك الظاهر! الغرب كله متفق علينا، ياست سعاد! نعرف أن الألمان اتفقوا مع المنظمة الصهيونية على تهجير اليهود إلى فلسطين! ليست لدينا نصوص الاتفاق، لكننا نعرف جوهره! يبيح اتفاق "الهافارا" لهم أن يهاجروا من ألمانيا إلى فلسطين وأن يستبدلوا أملاكهم! وتعرفين اتفاقهم مع الإنكليز! والأمريكيون تركوا مبادئ ولسون وأحرقوا توصيات لجنة كينغ كرين وتقريرها! يحكم المستشارون اليهود قدرنا من هناك أيضا! اعتمدنا على مبادئ ويلسون حتى انسحب منها. وماذا كان يحدث في الحقيقة؟ في سنة 1914 ناقش لويس برنديس، زعيم الصهيونيين الأمريكيين، عضو المحكمة العليا في الولايات المتحدة، مسألة فلسطين مع الرئيس ويلسون ثم مع سفيري إنكلترا وفرنسا في الولايات المتحدة. واستمر في المحادثات في السنين التالية مع ممثلي الخارجية الأمريكية وممثلي "القوى الحليفة". وفي أيار سنة 1917 اجتمع في البيت الأبيض مع اللورد بلفور رئيس البعثة الحربية الإنكليزية، وتباحث مع ويلسون وبلفور، وكان يتصل بزعيميّ الصهيونيين الإنكليز وايزمن وروتشيلد. لذلك أيد ويلسون تصريح بلفور بتأثير صديقه ومستشاره الصهيوني برنديس! فأبعد لأصحابه الإنكليز آخر عقبة أمام تصريح بلفور! وأبعد فيما بعد تقرير لجنة كينغ كرين! لكن لاتظني أنهم سيكسبون. سيفرضون على أجيال منا العذاب والقهر، سيسرقون منها السعادة والأمان، لكن في النهاية لن يصح إلا الصحيح!

نظرت إليه. يالايمانه الذي لا تهزه خيبة ولا هزيمة! ماذا يرى أكثر مما نستطيع أن نراه؟ يعرف هذا الرجل روح البلد فلا يستوقفه الحاضر. فهل يهب الايمان قدرة على رؤية الأفق وراء الأيام المعتمة؟

لمست سعاد سوارها الذهبي. هل أقدمه له؟ كم مرة قدمت النساء حليهن لهذه البلاد الحزينة؟ لتسند سياسيا أو لتشتري لثائر طعاما أو سلاحا؟ ولكن هل تجرؤ على هذه الهدية، والحلي دائما لقضية أو مجموعة لا لفرد؟ هل تجسر أن تنحني له وترجوه: اقبل هذا السوار من فقيرة، أنت الغني بما أنفقته على البلاد من حياتك ومالك؟ أم تجسر أن تعطيه "صرة" من المال الذي وفرته؟

سألت عبد الرحيم بنظرتها وهي تلمس سوارها، فردّها: لو كان يقبل المال لقدمته له! هذا قدرهم، ياسعاد! هذا قدرنا! أن نرفض المناصب والثروة ونحن

www.alkottob.com

نحتاج القليل منها! لا نمد أيدينا إلى المال إلا لنجمعه كي تقتسمه مجموعة! جرح الثورة السورية في أواخرها أن المال جبي باسمها! فإياك أن تخطئي هنا!

عندما رجعت سعاد من نابلس فتح عبد الرحيم لها الباب قبل أن تمد يدها بالمفتاح. رأت قلقه عليها في لون وجهه. أكان رماديا؟! لكن كلا منهما تفادى أن يتحدث عن ذلك. هل كان يستطيع أن يوصل الرجل إلى نابلس فقصّر؟ هل دفعها، مع أنه مازال يشعر بأنها شابة، إلى الخطر بيده؟ لاب في البيت في غيابها، ولام الزمن الذي يضطر فيه محب إلى دفع زوجته إلى الخطر ليبعده عن رجل ثمين! وهي، ألا تحتاجها الثورة أيضا؟ قدم ذلك الرجل على زوجته، فما أثر هذا الخيار في قلبها؟ نظرت إليه في هدوء كأنها تسخر من هواجسه. ألا يفهم أن النساء يستخدمن "غفلتهن وضعفهن وغباءهن" ليوصلن رجالهن إلى الأمان؟! قالت له في جد: تذكرت عمتي نفيسة التي نقلت الرسائل للثوار! قد تكون نقلت لهم أيضا أسلحة! فحتى اليوم تراوغ في الجواب كلما سألتها، كأنها ستضطر إلى ذلك مرة ثانية! فهم عبد الرحيم إشارتها. رفع كفها إلى خده فرقّت نظرتها. قال لها: أتعرفين من الرجل الذي أوصلته؟ هذا ضابط رائع اسمه النعيمي! درس في استنبول، وأصبح من ضباط الدولة العربية. جمع حلي نساء عشيرته واشترى بها سلاحا للثورة العربية. درّب أول كتيبة للجيش العربي والتحق بها في العقبة سنة 1918. حضر مع مائة وعشرين رجلا من عشيرته، عشيرة المهيد، ليسند المسلحين في معركة الجولان سنة 1919. رافق الأمير محمود الفاعور وأحمد مريود في المعارك. وأدار عمليات معركة الجولان. كان أركان حرب في اللواء السادس، وحضر معركة ميسلون. كان من حكومة عجلون، وحضر معاهدة سوميرست في أم قيس. وعارض معاهدة سنة 1928.

ياسعاد، ليس الممنوع فقط الرصاص والسلاح، بل الممنوع أن يضع الضباط العرب أنفسهم في خدمة الثورة! ممنوع أن يقدموا للثوار خبرتهم في الانتصارات وفي الهزائم! لكن لا تحزني! تعلّم هؤلاء الضباط الصلابة حتى في بيت الأهل! فهموا أن العدو ليس فقط الغريب! لكنهم قدروا بدقة مستويات العداوة! سجن علي خلقي في جدة شهرين بعد خلافه مع جعفر العسكري! وفي سجن المحطة في عمان! لدى هؤلاء الضباط خبرة ثمينة في العلاقات بالناس! عرفوا علاقات العشائر وأفادوا منها الدولة العربية ومقاومة الانتداب. لكن هذه التفاصيل اليوم على كف البريطانيين الذين يسوقونها في رياحهم. لذلك يتعلم الضباط الإنكليز لهجة البدو ويحضرون أعراسهم ومآتمهم!

www.alkottob.com

حاسب المعتمد البريطاني في عجلون، هذا الضابط على عداوته للفرنسيين، وذكّره بأنه ممن حكمت عليهم حكومة الانتداب في الشام بالإعدام، ولذلك لا يجوز توظيفه في حكومة تشرف عليها بريطانيا! يفصّلون ويخيّطون لنا ما يجب أن نلبسه! تمنيت أن أكون مكانه لأقول للبريطاني الذي حاسبه: ونحن لا نريد أن نوظفك في بلادنا لأنك تخدم المندوب السامي في فلسطين، الذي كلف بأن يخترع وطنا لليهود الغرباء! فوّت على نفسي شرف كل مالم أوفق فيه في العمليات!

يجب أن يبقى هذا الرجل في بلده، لعله يغير اتجاه الريح. لذلك يجب أن يتقن التقية! ويجب أن نحميه! فهل عرفت من أوصلت إلى نابلس؟ وضع كفيها بين كفيه: نادمة؟ هزت رأسها كما تهز طفلة متعبة رأسها. تركها: نامي! وفهم وهو يغلق عليها الباب أنه يحبها حبا لا يستطيع أن يتحدث عنه، حبا فيه كثير من الشفقة والأسى، حبا يدفعه إلى التهيب من لمسها!

بكت سعاد زمنا في فراشها. ولم يفتح عبد الرحيم عليها الباب. تركها تتجول في أحزانها على أهلها، على القتلى، على الأحياء، على هذا الرجل، على الذين توثقهم كرامتهم إلى الشرف والفقر، وتوثقهم سمعتهم إلى قدرهم فيتمسكون به. بكت على الذين يكنزون خبرة واسعة يمنع على الناس أن يفيدوا منها في العلن. فيتسللون إلى الثوار ليعلموهم كيف يدافعون عن أهلهم وبلدتهم! من الظالم الذي يحكم قدر الحرية وقدر السجن في هذه البلاد، فيترك الأشرار أحرارا آمنين، ويمد المساحات للظالمين، ويحمي الجشعين، ويحرس المستوطنين الغرباء، ولا يرى أسلحة اليهود كلها ويشنق العربي إذا لمح لديه بندقية صيد؟ من هؤلاء الإنكليز الغرباء الذين يدعون أنهم أتوا ليحضّرونا ففتحوا بلادنا لغرباء متوحشين متعصبين؟ فليعلنوا على الأقل أنهم مستعمرون نهابون وأنهم يعيشون على حسابنا!

تذكرت سعاد وهي تغفو عيد النبي موسى، ألوان الأعلام وألوان الثياب، بداية موكب العيد من نابلس واكتماله في المسجد الأقصى في القدس. تذكرت الفرح الذي يخلع القلب ويزدحم في بيوت فلسطين كلها. تذكرت الحلوى والأطعمة التي تعدّ في ذلك اليوم، وأنواع الكعك والفطائر. وعندما غفت وهي تبكي كانت الأقمشة الملونة تتطاير حولها، ولم تعد تشعر ببرودة الوسادة المبللة بالدمع.

www.alkottob.com

يوم رجع صدقي الطبري من الجامعة الأمريكية في بيروت مختصا في العلوم السياسية والاقتصادية، كان في الخامسة والعشرين من عمره. لكنه لم يستقبل بالمزامير والطبول كيوم "أخذ" جده منصب الإفتاء، وحملت إليه الجبة المرصعة بالذهب من استنبول. كان ذلك عزّا تمناه الشيخ عبد السلام الطبري لابنه. لكن صدقي رغب في الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت.

استقبل صدقي في طبرية دون طبل وزمر. سيدير أملاك أبيه. إلى الشغل، ياصدقي! أفدنا بعقل شاب وبعلومه في السياسة والاقتصاد! يابا، أنت الأصل! تعلم صدقي من المفتي مسايرة رجال البلد. إذا كنت فظا غليظ الطبع انفضّوا من حولك! احفظ هذا ياصدقي! لا تسخّر الناس لينفذوا ما تعلمته، بل سخّر علمك ليخدم الناس! وتذكر عادة أسرتك: في رمضان تمد أطباق الطعام للفقراء. واجبهم علينا! وتذكر واجب الوساطة للناس. يجب أن يجد الضعيف سندا ياولدي! انزل إلى حيفا وقابل القاضي لتوقف حكما ظالما على هذا الرجل! تأمل صدقي أباه. هل استوقفته فيه الرحمة؟ أم شعوره الدائم بأنه مدين للناس؟ تذكر أن أباه ساعد ذات يوم رجلا من بيت الخوري من صفد، أتاه يستشيره. فاستبقاه في طبرية ووهبه أرضا من أراضيه.

يجب أن يأخذ ابن العائلة الكبيرة مكان أبيه! والقيادة، ياصدقي، في هذه الأيام أن تساير، وأن تواجه. فتح الإنكليز بلادنا للهجرة اليهودية. ومنعوا حتى احتجاج العرب على هذا الظلم.

استخدم صدقي منطقه، وجرأته، غضبه، ووجاهته. وستدهشه، يوم يستعيد حياته، العواطف المتنوعة التي كانت تجري خلف هدوئه. وسيتساءل أكان حقا يتنقل في يوم واحد بين تلك الأمكنة واولئك الأشخاص!

بماذا احتفظ لنفسه من أيام بيروت؟ استطاع أن يبقى أنيقا! يحب الملابس النظيفة الجميلة. كأنه يعرف واجب الوسامة عليه. هل يتذكر صداقة سعيد،

www.alkottob.com

وزهوهما بالساعة ذات السلسلة الذهبية التي تتدلى على طرف الصدر؟ كم يمر العمر مسرعا! أيسرع إلى هذا الحد في بلاد أخرى، أم يطول فيها فيتذوقه الإنسان في هدوء كما يرشف فنجان قهوة في صباح الربيع؟! تزوج صدقي، وصار أبا، وكبر أولاده! لم يعد لديه وقت حتى كي يتنهد ويقول كم يمر العمر مسرعا!

كان الشيخ عبد السلام الطبري يشتري الأراضي التي يضطر أصحابها إلى بيعها كيلا تصل إلى اليهود. فليجعل صدقي ذلك سياسة! يحاول اليهود أن يصبحوا أكثرية في طبرية، ياصدقي! لكن الأرض ما تزال لنا. احمها ياصدقي! قلب الإنكليز "عيشتنا". كان اليهود العرب يأكلون وينامون في بيوتنا. كانوا يستأجرونها منا ويعيشون معنا. ميّزناهم من اليهود الغرباء المتعصبين. تعرف السكناج، ذوي الضفائر، الذين يشترون السمكة من الصيادين ويضعونها في عبّهم! انتقل اليهود إلى حي مستقل سمّوه هزات باين. واشترينا منهم البضائع الإنكليزية والفرنسية، حتى هبّة البراق. فصرنا نقصد بيروت والشام لنشتري ما نحتاجه. وصار يقتل من يبيع أرضا لليهود.

استعاد صدقي وصايا أبيه وهو يمشي في جنازته. كان الناس على مد العين خلفه. هل كان سبب الحزن أيضا أننا نخسر فردا في أحداث يجب أن نكون حاضرين فيها جميعنا؟ لكن الوصايا لم تعد طلبا من صدقي، ولم تعد نصيحة. صارت مسار حياته.

أصبح صدقي رئيس الهيئة العربية العليا في طبرية، ومدير بنك الأمة. وكم ساعدته لغته الإنكليزية في حواره وفي خصامه! نعم، تعطيه الأسرة الكبيرة قوة! رئيس البلدية يهودي. صرخ صدقي في التلفون: هل تمثل اليهود أم تمثل البلد؟ مات رئيس البلدية بالسكتة القلبية، فقيل: خوفا من صدقي! رد صدقي: بل قتلته ذنوبه!

بيت صدقي على تلة اسمها جبّ البان، يشرف على البحرة. حوله أشجار باسقة، وحدائق مزروعة بالورود، تحيط بها أملاك المفتي التي ورثها صدقي من أبيه عبد السلام. منها أخذت شركة روتنبرغ الأرض التي أقامت مشروعها عليها. ومنها أرض محطة تنقية مياه البحرة القريبة من بيته! في أول الشارع شركة روتنبرغ الملعونة! يمتد الشارع حتى بيت الطبري. زرعه المفتي بأشجار النخيل. البيت من طابقين، الأول لاستقبال الضيوف ولنومهم، فالضيف يجب ألا ينزل في الفندق. والعلوي للأسرة. يعنى بالورود والحمضيات في حدائق البيت بستاني مصري. يستمتع بها الزوار والعابرون ويقصدها الناس للفرجة. استقبل صدقي

www.alkottob.com

مساعد حاكم اللواء الإنكليزي في بيته. ومد له طاولة غداء فاخرة كأنه يقول له: هانحن! تأمل الضابط من الشرفة ورود الحديقة. "وندرفول مستر سودكي"! سمعت ابنة صدقي زوجة الضابط الإنكليزي اليهودية تقول له: ما أحلى طبرية! اعطها لأهلي! هل تصدق ما سمعته؟ أيستطيع رجل أن يهب مدينة لليهود وأهلها يعيشون فيها؟ لن تنقل لأبيها ذلك اللغو. ذلك دلال سكبته امرأة على زوجها! أطلت من نافذتها على الحديقة واستسلمت لعبق الورد. لن تتساءل هل سيبقى البيت كما تحبه! أيمكن ألا يبقى أبوها وبيته؟!

يستقبل صدقي أولاده في فرح عندما يعودون من رام الله. ويتركهم متنقلين بين البيت والحديقة. تدرس بنات صدقي الطبري في مدرسة فرندز في رام الله. مدرسة أمريكية داخلية، بعد الصف السادس، يشرف عليها الكويكرز. تبعد رام الله ساعات عن طبرية لذلك يعدن إلى البيت في الأعياد فقط. وليدرسن الكتاب المقدس في المدرسة، أليس المسيح ابن بلدنا! في البيت سندرسهن القرآن!

حضر صدقي اجتماعات اللجنة العليا. ورجع إلى بيته. نعم، يحب بيته! يتجول في حديقته في الصباح الباكر. يستمتع بالرطوبة على أوراق الورد، وبخضرة أوراق الحمضيات. ويقول للبستاني: الحديقة أجمل ما في البيت! فيرد البستاني: طوّل عمرك يابيه! الست جعلت البيت مثل الجنة!

بعد الاجتماع يحلو البيت. يعد صدقي نفسه بطراوة الفراش وبنسيم البحرة الذي يأتيه من النوافذ المفتوحة. لكن ماهذه الهسهسة؟ قال لزوجته: يبدو أن البيت مطوّق! حضّري بسرعة محفظتي! نعم، يجب أن يكون للرجل في بلادنا الحسّ الذي يلتقط إشارة لا تسمعها الأذن! طرق الباب. وجد صدقي أمامه ضابطا إنكليزيا وجنودا. قالوا له: يريد المندوب السامي أن يلتقي بك! سألهم: معتقل؟ قالوا: لا. سأل: آخذ حقيبتي معي؟ ردوا: يفضل ذلك! باللتهذيب الإنكليزي! نقلوه إلى سجن عكا، بكل احترام! سبب اعتقاله؟ قتل حاكم اللواء، أندروز!

أرسل صدقي إلى الست شفيقة، زوجة أخيه المتوفى، ورقة يطلب فيها عدة فرشات، وأغطية، وملابس وطعاما. من حظه أنها كانت تقيم في بيت سعاد في ذلك الأسبوع! أرسلت له شفيقة حتى القهوة! ستشرف على الطعام الذي يرسل إليه، ليكفي المعتقلين معه! ستصل منه الرسائل إليها، لتوصلها إلى المقصودين! وستخيط الرسائل إليه في قبات القمصان، أو تدسها في الخبز، مثل سعاد! اطلب ياصدقي ما تحتاجه، لاتتردد!

قال للست شفيقة: سجن أكابر! يمكن أن تقولي إقامة جبرية عندهم! مازحته

www.alkottob.com

سعاد: لك سجن أكابر، ولعبد الرحيم سجن شقاء! أما كنت تستطيع أن تأخذه معك؟! رد عليها بعد نفيه إلى رام الله ونفي عبد إلى الحولة: يستمتع عبد الرحيم بالحولة، وتفرض الإقامة الجبرية علي في رام الله! هل يريحك هذا، ياسعاد؟

قال صدقي في الاجتماع: لا نستطيع أن نتفادى بيع الأراضي بالنصيحة والتوصيات. ولا بالتهديد! يجب أن نشتريها ممن يحتاج أن يبيع أرضه! هكذا أنشأ على أرض من أراضيه البنك. وطلب من الميسورين أن يساهموا فيه، ليقرض الفلاحين، ويشتري الأراضي المعروضة للبيع. وهل كان يتوقع أن تحتل إسرائيل الأراضي وتصادر البنك؟!

في المعتقل التقى صدقي بعبد الرحيم، ثم افترقا عندما خرج عبد الرحيم من المعتقل. وقالت سعاد لصدقي: كأن عبد الرحيم رجع إلى البيت ليرتب أوراقه ولينقل إلي بعض الأخبار. وتجاهلت أنها احتفظت في ذاكرتها من تلك المرة التي رجع فيها إلى البيت بصورة أخرى فيها الحلو والمر!

www.alkottob.com

سألت سعاد عبد الرحيم: خير؟ لم يعد البيت يريحك بعد المعتقل؟ تنتظر أن أمد له السجاد لتسكب مايحيرك! يحتاج الرجال، مهما عققوا شواربهم، أن تكون المرأة التي يعشقونها أمّا لهم! يتقدم الفلاحون زوجاتهم في الطريق أمتارا، لكنهم يلجؤون إليهن، حتى عندما يطلبون أن يزوجنهم من امرأة ثانية! فليردد الناس المرأة من ضلع آدم!

خطر لسعاد وهي تراقب قلق عبد الرحيم، أن زوجها الأول كان يحتاج أن تحنو عليه حتى وهو يظهر صلفه وقوته. لكنها لم تفهم ذلك لأنها كانت صغيرة، تحتاج هي نفسها الحب والدلال. يبدو أنها الآن تفهم أن غرور زوجها الأول وزهوه بنسائه، إنما كان ردا على حاجته إليها وتعلقه بها! قالت لنفسها: ياللمجنون، أعلن بعد فراقنا تصوّفه في الحب أمام مدينة نسيت أسطورة قيس ليلى!

أعادت سعاد فنجان القهوة إلى مكانه أمام عبد وسألته: خير؟ ياسعاد، يقطع الإنكليز فلسطين عن بقية أرض الشام بالأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة. يمدون جدارا هائلا مكهربا، سخروا الفلاحين الذين ساقوهم من القرى بالقوة! ثم اعتمدوا عمالا من اليهود! ليمنعوا تسرب الثوار والأسلحة. لكني أرى هذا القطع برنامجا قديما. اسمعي! ذات يوم وصل جبرائيل حداد من دمشق إلى فلسطين. فدعانا موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس، إلى بيته لنجتمع بجبرائيل حداد، مدير الأمن العام في الحكومة العربية. تفادى المندوبون إلى مؤتمر القدس الاجتماع به، لأنهم عرفوا أنه يريدهم أن يلغوا قرار المؤتمر: فلسطين جنوب سوريا! لكنهم أرسلوا من يحضر الاجتماع به. حلّوا المشكلة خير حل! بدا اقتراح جبرائيل حداد كأنه رغبة فيصل! فقلنا لا يملك رجل المخابرات الإنكليزية، لا هو ولا فيصل أن يفكا شمال سورية عن جنوبها! لانحتاج من يعلّمنا هل بلاد الشام وحدة متصلة أم مقاطع مجزأة!

اجتمع الرجال في مؤتمر القدس لأنهم رأوا خطر وعد بلفور الذي ينفذه

www.alkottob.com

الإنكليز. ولأن الحكومة العربية في سورية ظهرهم وأملهم. ذكّروا بوحدة بلاد الشام التي لعب عليها الإنكليز في وعودهم للشريف حسين! باسم مودتنا لفيصل أراد ذاك الجاسوس أن يلغي مؤتمرنا قراره! وكان جبرائيل حداد مدير الأمن العام في الحكومة العربية! قالت سعاد: كانت الجهات الأربع كلها في دمشق يومذاك!

رشف من كأس الماء كأن حلقه جف: نفذ الإنكليز بالأسلاك الشائكة المكهربة وأبراج المراقبة، فصل فلسطين عن سورية! سألته: ألم تعرف من فيصل هل كان جبرائيل حداد ينفذ مهمة؟ استدعاني فيصل يومذاك مع من استدعى إلى دمشق ليعلّموا في معهد الحقوق! كانت دمشق حلما ورهانا. وكان فيصل يتجول كأمير عربي أنيق وسيم، والإنكليز يتصورون أنهم يمكن أن يحكموا به، والفرنسيون يتحاشونه. كان لورنس معه، يترجم له، ينقل همسه، وربما يوحي له ويلعب عليه. كم مرة سنعود إلى تلك السنوات لنحدّق في جذور مأساة بلاد الشام، ياسعاد! لذلك استقبل قدري جمال باشا الصغير، وحمل أهل طبرية السجاد العجمي من بيوتهم ومدوه له، ياعبد. كبسوا الجرح بالملح، وتمنوا أن تنتصر الدولة على الإنكليز في الحرب. لكن الدونمة باعوا الدولة. ورأينا الإنكليز يحتلون البلاد واليهود يدخلون معهم من مصر. وهاهم المهاجرون ينزلون بالبواخر!

يرفع الإنكليز الأسلاك الشائكة على طول الحدود مع سورية ولبنان. والمحاكم العسكرية تحكم بالإعدام على الوطنيين وينفذ الإعدام في سجن عكا! كان عبد الرحيم في برهة الألم التي قد تبعد الحكمة. هل سيطل الصباح عليه وهو في بيته؟ كان يعرف عندما يلجأ إلى سعاد أنه يطلب عقلها الهادئ. لكنها رغم حكمتها التي تستبقي شعرة معاوية، تصنف أصدقاءها وأعداءها، لا يتداخل أحدهما في الآخر. هناك تمتنع لباقتها. هل ينسى يوم اختلفا على الموقف من أمين الحسيني وراغب النشاشيبي؟ كانا يتحدثان ورأسها على زنده. وكانت مضيئة الوجه في غرفة معتمة، كأن وجهها يجمع الضوء من أنوار بعيدة، أو من شروق وردي. كانت على زنده صبية مستسلمة لزهوها بأنها تستطيع أن تصعد إلى قمم من الرضا، فتجر عبد الرحيم وراءها مرة، وتلحقه مرة، كأن بينهما سباق لكنهما معا، يسعيان إلى ذرى لا تتلامح بعد. سألها: سعيدة؟ هزت رأسها. لا تريد أن تحبس شعورها بكلمات! ما قطعاه قبل هذه الليلة أصبح في السفح البعيد. وهاهي تكتشف تضاريس أخرى، فتنادي الكون منشورة الذراعين: هبني لغة جديدة، ومسافات جديدة! هبني مجاهل أركض فيها، وأفهم أن المرأة جنية! وأن الإنسان وهو في غرفته قد يعبر الدنيا! كانت تتجول في ولهه كأنها تبحث عن مكان تقف

www.alkottob.com

فيه كتمثال تشعل له الشموع. "لو تعرفين كم أنت جميلة الآن، ياسعاد"! ابتسمت. لن تنظر إلى المرآة! لاتريد أن تحبس الخيال! استند إلى مرفقه ونظر إليها. وخيل إليه أنها يجب أن تشعر بانعكاس ضوئها على وجهه. لكنها لاتبالي بذلك، مستسلمة للسعادة! كم تختلف هذه المرأة عن امرأة النهار! كان منتصرا بتورد خديها، بضوء وجهها. نهض وجرها إلى المرآة. أغمضت عينيها. لماذا لا تريدين، ياسعاد، أن تري هذه المرأة المذهلة، لماذا تخفينها وتخبئينها؟ تخافين منها؟ شوش صفاءها بكلامه. همست: هس! عانق كتفيها: انظري! انظري! فتحت عينيها ورأت على ضوء الفجر رجلا وامرأة، وكتمت شهقتها. ما أجملهما! رأت شعرها الأشقر المنثور وأغمضت عينيها. لو تراها رفيقاتها ويراه أصحابه في هذه السعادة! أشار إلى كتفيها. هل تبين الآن فقط أنهما جميلان؟ كأنما حاول كل من صور النساء أن يلتقط خطوطهما الناعمة، بشرتهما الطرية، لونهما، طرواتهما، لينهما، وقصّر! لذلك لايزال النحاتون والرسامون ينحتون ويرسمون. لو يستطيع أن يثبت الصورة التي يراها! يفقدها وهو يشعر بجمالها، ويعرف أنها ستصبح ذكرى باهتة. لكنها ستوثقه إليها، وتجعله رغم شفافيتها غير قادر على الإفلات منها. في ذروة فرحه شعر بالأسى وهو يفكر في العمر الذي يفقده الإنسان وهو مزهو بأنه يعيشه. حاولت سعاد أن تعود إلى السرير، لكنه ثبتها أمام المرآة. لاتهربي، ياسعاد، من هذه المرأة الفاتنة. حاولت أن تغمض عينيها. مجنون! لو تركت نفسها تتوغل هناك لما كان لها الوقت لتصبح زوجة وأما! ولأصبحت غانية! تريدني أن أطلق نفسي إلى هناك وأنت تعرف أني في الصباح يجب أن أسندك وأكون أمام من يحتل بلادنا! تحتاجني هنا أكثر مما تحتاجني هناك! لا، لم تقل ذلك! عادت إلى السرير، مدت ذراعه ووضعت رأسها عليها. لكنها تركت بينه وبينها مسافة كأنها أرادت أن تكون قريبة منه وبعيدة. في مثل هذه اللحظات يشعر بالغيرة عليها ومنها! يفهم أن لديها معبدا لا تسمح بالاقتراب منه. هي ونفسها والباب مقفل عليهما! وهو على العتبة ينتظرها! كم مر من الوقت وهي في معبدها؟ وكل برهة له سنة، عقد، قرن! وهو خائف من أن يهرب السحر ويخبو الضوء. تثبت سعاد على قباب معابدها متوازنة، لكنه يحتاج قوة خارقة كي يبقى على فراشه متوازنا! بعد زمن عادت إليه، وسألته عن الأسلاك التي تنصب لتحجز فلسطين عن سورية ولبنان. أخطأ بعد ذلك فقال لها إن الخلاف بين النشاشيبي والحسيني خلاف بين أسرتين. صحت اللبوة! خلاف بين أسرتين؟ هما أسرتان! لكن النشاشيبي يغازل الإنكليز. رفض أن يقال فلسطين جنوب سوريا! يعني يتركها للإنكليز واليهود! ألم يسمع عبد الرحيم أن جماعة النشاشيبي يشترون

www.alkottob.com

أراض من العرب ثم يبيعونها لليهود؟! وأنهم يزهون بأنهم معارضة! عبد الرحيم، الوطني، لا ينتبه إلى ذلك؟ بل ينتبه إليه لكن طبعه اللّين يجعله يتفادى أن يدين النشاشيبي! قالت له: يبدو أنك أضعف القسّاميين! من يرغب في الصراع بين العرب؟! لكن هذا صراع بيننا وبين الإنكليز واليهود! اسمع ياعبد الرحيم، ستبين لك الأيام أن النشاشيبي يضيع فلسطين!

ابتعدت عنه. لاتزال ساحرة، لم يختف الضوء من وجهها، ولايزال شعرها الأشقر يجمع بريقا من كون خفي تراه وحدها. وربما فيها سحر آخر وفتنة أخرى لذلك لا يجرؤ على الاقتراب منها! خيل إليه أنه سيفقدها، وأنها إذا نهضت ستلبس ملاءتها وتخرج إلى الست شفيقة ولن تعود أبدا. قال لنفسه هجرت أمها فاطمة أباها يوسف سنتين، لكن هذه قد لا ترجع! ورثى نفسه: ما الذي أوقعني في بنت فاطمة! قرر أن يستعيدها. عانقها فقاومته كلبوة ضارية. قالت له: بالقوة لن تأخذ شيئا! ظلت جامدة، فهمد. لا تضعفها مداعبات الحب، ولا تفتح أية بوابة إليها! قال مستسلما: الحق معك! انتفضت: لاتقل مالا تؤمن به ولو لأجل امرأة تحبها!

انتهت تلك الليلة نهاية سيئة. لم يكن يريد أن تكون مشوشة في ذاكرتها. ما كان أجملها! بقي يحوم حولها وهي تستدير عنه. فهم أنها تريده متزنا. تستطيع أن تكون لبقة ولطيفة ومتسامحة إلا في ما يمس بلدها. قال لها في اليوم التالي: كان يجب أن تكوني زعيمة سياسية! ردت: لاأصلح لذلك! فالزعماء يهادنون ويساومون! تخزه؟ قال في ألم: تمنيت ألا ينغص حتى صوت شحرور ليلة الأمس! كم كنت جميلة ورقيقة! احمر خداها. لمحت أساه فقالت: لاتضع لي نهايات تلزمني بها! جن من الفرح. تعده بليال وأيام أجمل منها! لكنه بقي حائرا. يحلو له أن يبوح لها وهي على زنده، عندما يخيل إليهما أن الشوق يحتاج أن يستريح قليلا. وفي البوح يحتاج أن يكون صادقا أمامها. فكم مرة ستهرب منه الجنة مرة أخرى؟!

همست سعاد لنفسها: انتبهي! إذا ضعف القوي أمامك فاحفظي سره! احفظي كرامته وتظاهري بأنك نسيت مارأيته! كشف لك وجعه لأنه يعرف أنك تحمينه! وياحزن من يسقط مرة واحدة أمام نذل كشف له روحه!

لكن ليلة القدر لم تتكرر. انشغل عبد الرحيم بالاجتماعات، وصار يعود من المعتقل متعبا، نحيلا، وانشغلت سعاد به وبأهل المعتقلين والمحكومين بالإعدام في سجن عكا.

www.alkottob.com

في دمشق، فحصت منور بهاء وهو يدلل ابنه. رفع كفيه معتصم إلى فمه وقبّل أصابعه. الخنصر ما أصغره! والبنصر الذي يجاوره، ما أبهاه! هل غمسته بالعسل؟ الوسطى أحلى من الخيار! والسبّابة كأنها الكنافة البلّورية! والإبهام، يالهذا الطعم! كأنه الدراق الزهري! تصفحت منور في ذاكرتها عشية اليوم الذي انسل فيه بهاء من البيت إلى فلسطين. دلل بهاء ابنه يومذاك! فإلى أين تنوي الرحيل الآن، يابهاء؟! ظننت أنك غارق في دمشق حتى أذنيك! قالت له: تستعيد، يابهاء، طفولة معتصم؟ وأنت، يامعتصم، تستمتع بذلك؟ قال لها بهاء: نمثل، يامنور! ردت: أنت، حر! لكن معتصما عودني أن يكون ظاهره مثل باطنه! عاتبها بهاء بنظرة: نلعب يامنور، نلعب! اللعب ممنوع؟ ردت: أبدا! شرط أن تقول لي إني أتفرج على تشخيص!

أمسك بهاء بيد معتصم وقال مداعبا منور: أمّنا غيورة! ودخلا إلى غرفة معتصم. ستخلو إليه قبل أن يغفو؟! تؤكد، يابهاء، أنك مسافر! انتظرته حتى خرج من غرفة معتصم. نظرت إليه بملء عينيها وسألته: إلى أين، يامهوّن؟ إلى فلسطين في الفجر، مرة أخرى؟ تنهد: إلى لبنان! سأغيب يوما أو يومين! سمعت دقات قلبها. سألته: ستكون في أمان؟ وخطر لها أنها تستطيع أن تستره إذا ذهبت معه: يمكن أن نرافقك، أنا ومعتصم! رد بسرعة: لا، لا! قد أعود غدا مساء إذا وفّقت! لديه مهمة إذن! قال لها: طلبت عدة علب من الكنافة المبرومة، لأصحابي الذين لم أرهم منذ تركنا بيروت! سألته: بيروت؟! خشي أن تستعيد أيام بعدها عنه فقال: لن أصل إلى بيروت! لنقل إني سأجلس في مطعم على البردوني وأستعيد مذاق الكبة اللبنانية! هل اطمأنت؟ قالت له: تذوّقها إذن عني وعنك! وسلم على الأصحاب إذا بقي منهم في زحلة أحد! نبهها: لكني أمام الناس نازل إلى بيروت!

أراح بهاء في تلك الليلة أنه طمأن منور. وابتسم لنفسه: ما أعجب الإنسان! لم تسألني أية أخطار ستعبر، ولست أستطيع أن أقول لها إني في أمان. لكننا

www.alkottob.com

نريد أن نعرف حتى الأرض التي يموت فيها عزيز علينا لنجلس إلى قبره! ما أعجب الإنسان!

كانت الحلويات قد رتبت في علب من الخشب، اعتدادا بدمشق، وواجبا نحو أصحابه الذين اشتغل معهم في لبنان، وغطاء له. ليته يستطيع أن يصل إلى صاحبه عارف ابراهيم في بيروت! استصفى بعض الأصحاب وسيبدأ زيارته بأقربهم منه، وسيتغدى في مطعم على نهر البردوني كالمشتاق إلى زمن قديم. وسيطلب من المصور الأرمني أن يصوره، وسيستمتع وهو يراه يدخل رأسه إلى الكيس الأسود، وسينتظر في فضول صورته! بعد ذلك سيهتدي إلى عنوان الرجل الذي سيشتري منه سلاحا لثوار فلسطين.

استسلم بهاء لطريق بيروت. تكاد السيارة تمس أشجار الجوز الباسقة على طريق الربوة! ويكاد يشم عطر بردى قرب دمر ويتقلب مع ورق الحور والصفصاف! يهف إلى شمعايا ثم إلى انحناءات الطريق بين دمر وقدسيا! لو يستطيع أن يوقف السيارة ليتأمل البيت الذي أمضى فيه صيفا مع منور في قدسيا! هاهو البيت، طابق واحد من الحجر على مرتفع، قرب النهر! وهاهي أشجار التين والزعبوب والتوت! أغمض عينيه على جبل الشيخ البعيد. تسحره مهابة تلك الجبال الشاهقة المكللة بالثلج! فتح عينيه على الديماس وانتظر ميسلون. هب عليه نسيمها! ونزل من السيارة مع الركاب. منذ متى يتوقف الركاب في خان ميسلون يطلبون الماء والرطوبة؟ لعل يوسف العظمة توقف هنا كي نشعر دائما بأيام ميسلون! ونستعيد قصيدة شوقي ورجفة الروح. ونقبس من المدى الذي يستشفه إنسان أو مجموعة في برهة، يفهمون أن موقفهم كلمة زمن لأزمنة قادمة! كرر بهاء لنفسه: المقاومة موقف تاريخي يتجاوز الحياة والموت كمسألة شخصية! فهم ذلك أبوه خالد آغا، وخيل لبهاء أنه يتأمله. تناول خالد آغا من يوسف العظمة ورفاقه، حقه في أن يرفد نداءهم للأزمنة القادمة. وهاهو بهاء يتناوله منهم في ميسلون: الاحتلال غير شرعي، لم يأت برضانا! قتل عبد الرحمن باشا اليوسف في خربة غزالة لأنه حمل طلبات المحتلين لأهل حوران؟ بل لأنه اقترح أن يدخل المحتلون دمشق دون مقاومة، فيسلبنا الحق في مقاومته بعد ميسلون! سرح بهاء بعيدا عن الركاب إلى ضريح يوسف العظمة. وخيل إليه أن خالد آغا كان يحتاج من يبوح له بما في قلبه قبيل ميسلون. وأن بهاء كان يمكن أن يكون ذلك الرجل! لكن أبا مثل خالد آغا ما كان يستطيع أن يبوح لابنه بما يعصف في روحه. وابنا مثل بهاء تعود احترام أبيه ما كان ليستطيع أن يعبر

www.alkottob.com

الاحترام إلى أبيه. وخطر لبهاء أن خالد آغا كان أسير هيبته، وأن أمثاله لابد أن يكونوا وحيدين. وبدا له أن نفيسة وحدها استطاعت أن تكون قريبة منه لأنها في هذا الوجه تشبهه، وربما لأنه أحبها!

انتظر الركاب أن يستدير بهاء عن الضريح إليهم. هل خمن أحد أن علاقة بهاء بميسلون علاقة خاصة؟ هل انتبه أحد إلى رعشته؟ في مكان ما من هذه الروابي بقي أبوه! اختار خالد آغا لنفسه القمة التي تناسب مسار حياته، ورد بذلك ما أنزله به الاتحاديون من مهانة العزل! كان كالضباط الذين خرجوا إلى ميسلون، متخرجا من أفضل الكليات العسكرية في زمنه. كان يكنز الخبرة العسكرية والمعرفة بالبلاد العثمانية. لكنه أبعد، وبقي مهجورا مع أوسمته وسيفه حتى أيام ميسلون! استعاد عندئذ مكانته وفرض المكان الذي يهبه خبرته ويهديه حياته!

توقف الركاب في الجديّدة. الحدود التي اخترعها الانتداب! وانقبض قلبه. في شتورا ترك السيارة المسافرة إلى بيروت، وانتظر سيارة تنقله إلى زحلة. تبع العلامات التي وصفها له تاجر العباءات في سوق مدحت باشا. وطلب الرجل الذي يقصده في زحلة.

فاوض بهاء تاجر السلاح وهما جالسان إلى طاولة عامرة بصحون المازة والعرق الزحلاوي. من يستطيع أن يخمن حديثهما وهما يرفعان الأنخاب؟ سيصل السلاح إلى الحدود السورية. واجب بهاء أن يدبر نقله من هناك!

تدفق على بهاء فرح منعش بعد إنجاز مهمته. مشى على ضفة البردوني. تفرج على واجهات البيوت التي تطل على النهر. ما أجملها! ألذلك أحب زحلة؟ ولماذا يتذكر ذلك الآن؟ عبر الجسر الضيق على البردوني إلى بيت تتقدمه شرفة مظللة بالأشجار. فتحت له الباب صبية. من يريد؟ ومن هو؟ بل أسألك أنت من؟ لم تكوني قد ولدت عندما كنت أزور أهل هذا البيت! أطل من خلفها رجل: لم يتغير صوتك، بابهاء بك! تعال أعانقك! ياخواجة الياس، لم أنتبه إلا الآن إلى أن هذه الشرفة أمام بيتك صممت ليجلس فيها من لا يجدك في البيت. مع أني جلست على هذا المقعد منتظرا عودتك ذات يوم! قلت لي يومذاك اسبقني، وتبعت شابة سحرتك رأيناها مع أهلها في المطعم على البردوني. كدت أغفو على هذه الشرفة وأنا أنتظرك! رنت ضحكة الياس، وانتبه إلى علب الحلو التي تركها بهاء على الأرض: حلويات الشام! احمليها ياسوزان!

لم يقبل الياس أن يعود بهاء إلى دمشق في اليوم نفسه. ستبقى الليلة عندي! قل لي، كيف خطرنا ببالك؟ لا تسلني، ياخواجة الياس! ترمينا الدنيا مرة إلى هنا

www.alkottob.com

ومرة إلى هناك! رجع الماضي في المساء، فمشى بهاء مرة أخرى في زحلة على شاطئ البردوني حتى وصل إلى المطعم الذي يحبه وجلس تحت الأشجار، وصفّت المازة الزحلاوية على الطاولة. لو كنا نعرف أننا سنستعيد حياتنا لكنّا زوّقناها، ياخواجة الياس! يبدو أننا زوّقناها، يابهاء بك! هل اكتشفا في ذلك المساء قرب البردوني أن الحياة الماضية تصبح حقيقة وقت يستعيدها الإنسان؟ وأن ما نتصور أنه تبدد في الهواء موجود لأننا عشناه وصنعناه؟ ما أعجب الذاكرة! تخزن الحياة كي تجعلها واسعة تتجاوز الأفراد، وتجعلهم نهرا دفاقا وخالدا كهذا النهر! ياخواجة الياس، يبدو أننا بذكرياتنا نستمر في الحياة أكثر مما قدر لنا من عمر!

رافق الخواجة الياس بهاء إلى أصحابه. ليتبينهم خلف السمنة أو النحول، خلف السعادة أو الهدوء، وراء الأولاد الذين كبروا والأحفاد الذين درجوا حولهم. وتألق بهاء في ذاكرة النساء: مازلت وسيما، يابهاء بك! ولكن لماذا لم تزرنا منذ زمن طويل وزحلة على بعد حجر من الشام؟

غفا بهاء في الطريق سعيدا. صحا في شتورة كيلا يفوته صفان من شجر الحور على الطريق، ظل يحبهما وظلا يرمزان في ذاكرته إلى شتورة. فاتته اللبنة التي لابد أن يطلبها من يمر بشتورة! لابأس، يابهاء، ستتناول اللبنة ابنتك التي لم تولد بعد! وسيمد كل من يمر بشتورة يده ويغرف منها! عبر بهاء الجديّدة وانحناءات وادي الحرير. من هنا عبر الجيش الفرنسي إلى ميسلون! لو انفجرت الألغام أكانت معركة ميسلون انحرفت عن مصيرها؟ لا، يابهاء! كانت طالت فقط! فالطيران والدبابات قررت مصيرها. كانت الكفاءة العسكرية العربية هناك دون سند في السلاح ودون سند في العالم! رأى بهاء ميسلون غارقة في الظلمة. فبدت له النجوم براقة. شعر بالغم، وتذكر أنه يجب أن يفكر في نقل الأسلحة من الحدود إلى دمشق.

سمعت منور مفتاحه في قفل الباب فهرعت إلى النافذة التي تطل على أرض الدار وأطلت عليه عندما خرج من الممر. قلبي قال لي إنك ستصل هذا المساء! سخنت لك الماء، مع أن ماء البراميل دافئ من شمس النهار! رجع بهاء سالما، وصدق ما أكده له قلبها. تذكر بهاء عندئذ أنه لم يحمل لها من لبنان شيئا! كان يستطيع أن يحمل لها، على الأقل، بعض اللبنة من شتورة! كاد يعتذر فسألته: أنجزت ما ذهبت لأجله؟ آه، ذكرته بما بقي عليه أن ينجزه! هز رأسه: ما تزال زحلة حلوة! أعجبتني واجهات البيوت التي تطل على البردوني! ابتسمت منور:

www.alkottob.com

كانت دائما تعجبك! نسيت؟ لكن آه، لو يستطيع أن يقول لمنور الآن كم يحبها، وكم هو سعيد بها! قالت: تعال، عشاؤنا ينتظرنا! فهمت أنه وفّق في سفره. وأنه سيرمي سعادته عليها كالغطاء. وفكرت في أن السعادة بالدنيا والنجاح فيها يفتّح الحب بين رجل وامرأة كما يفتّح الربيع الزهر. لكن كرامتها أبت أن يلبس فرحه ملابس أخرى! لنحتفل بأنك حققت ما سافرت لأجله، لكن لا تخلط به حبك لي! آه، يامنور، ليتك تفهمين أن الأشواق تزهر في الفرح! أريدك يامنور، لأني أستحق أن أحتفل بأني مازلت أعيش وأستطيع أن أحتفل بحبي لك! عاتبته بنظرة: يعني أنك كنت في خطر؟ نعم، ربما كنت في خطر، لو خانني الرجل الذي قصدته، أو لو خانني الرجل الذي أرسلني!

قررت منور مسار تلك الليلة في حزم ظاهره اللين والغيرة على بهاء. ادخل الآن إلى الحمام، سيريحك الماء الفاتر من التعب! نادني وقت اللزوم لأفرك لك ظهرك! فركت ظهره بليفة خشنة وخرجت: سأحضر لك فنجان كركاديه! وجدها تنتظره: نم واسترح! سنتحدث غدا عن أصحابك في زحلة! مع ذلك لن ننسى، حتى أمام عمتي نفيسة، أنك سافرت إلى بيروت لا إلى زحلة! لو تعرف أنه سيقصد نفيسة!

في الصباح سأل نفيسة عمن تثق فيه من الفلاحين الذين كانت تسهر معهم على دود القز؟ لماذا؟ كي ينقل الأسلحة التي اشتريناها لثوار فلسطين! يحتاج خبرتها في تهريب الأسلحة أيام الثورة السورية! قالت له مفكرة: نقلناها بعد معركة ميسلون إلى البساتين لنخفيها! وقت الثورة السورية استعدناها من البساتين للثوار! لكنك تريد أن تنقل "البضاعة" من حدود لبنان إلى قلب دمشق. والدوريات على الطرقات، والمخافر تطوق دمشق! اسمع يابهاء! سننقلها في النهار لا في الليل!

بدا لبهاء أنه فهم ملامح يجهلها في نفيسة. هبت قوتها عندما وضع لها واجب صعب. وبدا له أنها ممن يذبلون دون مهمات تتصل بمصير كبير. هل يخلق هؤلاء الأشخاص هكذا أم يرعون أنفسهم في كل منعطف كيلا يتشردوا في المنحنيات، فيبقون محصنين من الصغائر، يسوقون أنفسهم في مجرى واسع فقط؟ كأنها امتشقت نفسها! لبست ملاءتها: هذا المساء سأرسل لك مرجانة لتطلب منك أن تتعشى معي!

في المساء طرقت مرجانة الباب وطلبت بهاء. قالت منور: يابهاء، أنت محظوظ بحب عمتي! استمتع به، وسأسهر أنا على السطح مع البدر! نام معتصم فصعدت منور الدرجات الخشب إلى السطح وجلست تحت الدالية.

www.alkottob.com

استمتعت بوحدتها. استمتعت ببريق الكأس في ضوء القمر. استمتعت بأن اللبنة بدت أكثر بياضا في ضوء القمر، وبأن السماء بدت مستسلمة لسطوة البدر. استمتعت بدفء الشاي في برد المساء. تلقت رعشة أوراق الدالية عندما هب النسيم. هل تخجل بسعادتها لأن الدنيا مضطربة؟ لا، لا! ترمي نفسها على شعورها الذي يقول لها: هذه البرهة لك، عيشيها كلها ولا تفكري في الغد! كوني مثل هذه المدينة المنبسطة للقمر! تعيش الورود حياة قصيرة، فاقطفي مثلها هذا النهار! فوحي وعطري بيتك وتناولي ضوء البدر وافرحي لأن بهاء حي وحر، ولأن معتصما يغفو على حلم حلو!

ألذلك عانقت بهاء عندما عاد وغمرته بعطرها؟ ألذلك أدهشته بأفراح تخاف من ذروتها ومن نهايتها؟ احتضنها بهاء وهو يتبين أن الفرح، أيضا، يتضمن الخوف والحزن. وفهم أن الفرح في بلاد مضطربة لا يمكن أن يكون إلا هكذا إذا كان صادقا فوارا. رمى عليها الحب الذي استبعدته يوم عاد من زحلة موفقا في مهمته، ورمى عليها أردية فوق أردية من الاطمئنان ليؤكد لها أن الأخطار مرت وانتهت. أخافه أنها قبلته كمن سيفقده غدا. وتمنى أن يعيد الحب بينهما إلى عاداته القديمة. لمح رعشة جفنيها ودمعة نفرت منهما. ولم يجد أخيرا غير أن يربّت على رأسها كما يربت الأب على رأس ابنته! وأن يبقيها بين ذراعيه كأن الهواجس مرئية مجسدة ويستطيع أن يردها عنها! وكان يعرف أن الخطر عليه وربما عليها وعلى نفيسة أعظم مما كان في الأمس!

وقت الظهر وصل بغل محمل بأكياس الحطب، يسوقه فلاح. طرق الباب فهرع بهاء ليفتحه له. راقبته منور وهو يجر الكيس في أرض الدار. ما أثقل الكيس! وصل بغل آخر بعده. وكان بهاء ينتظر البغال المحملة بالحطب! نقل الفلاح الأكياس إلى أرض الدار. تأملته منور من الفوقاني: هل نحتاج هذا الحطب كله للشتاء؟! في الليل سمعت بهاء يرتب الحطب في غرفة الحطب في طرف أرض الدار. وسمعت أيضا قطعة معدن سقطت على الأرض. بدا لها أن قلبها وقع على الأرض. تفادت أن تنزل إلى التحتاني. لكن هل ارتاب أحد من الجيران كان مصادفة في النافذة عندما وصل هذا الحطب كله إلى بيت بهاء؟ قالت له عندما صعد: أتمنى ألا يكون أحد من الجيران مثلي، يابهاء! لم يقل لها كلمة. يجب ألا يقول لها إن ما خمنته صحيح! وفهمت أنه يحمي السر وقبلت ذلك، لكن هل ينجيها هذا من الخوف عليه وعلى البيت؟

في اليوم التالي احتفى بهاء بأحمد نامي بك في بيته في سوقساروجا. قال

www.alkottob.com

له: فلنلعب الشطرنج في بيتي، وسنتعشى معا! راقبت منور الضيوف يعبرون أرض الدار إلى الصاليا. كانت قد صرفت النهار في طبخ الطعام وساعدتها نفيسة ومرجانة. فحصت منور نفيسة التي انصرفت إلى تحضير الكبة وحشو الباسماشكات. ترى هل تعرف نفيسة سر الحطب؟ تذكرت دعوتها بهاء إلى العشاء. وهمست لنفسها: يبدو أن السر بينهما في بئر عميق! أطلت منور من الفوقاني بعد انصراف نفيسة، على طاولة فاخرة في أرض الدار، ملونة بالمقبلات. بقيت مرجانة لتنقل الأطباق وتغير الصحون، وتمد الطعام ثم تنقل الحلويات والفواكه.

عرف الجيران أن بهاء استضاف صاحبه أحمد نامي بك في بيته! لايلام بهاء، مع أن أحمد نامي بك كان يحلم بعرش البلاد، ولاتخفى على أحد علاقته بالفرنسيين. لكن من يجهل في سوقساروجا أن الصداقة لاتعني الولاء! بهاء ابن خالد آغا الشهيد في ميسلون، لايمكن أن يبيع دم أبيه! ومن يجهل من أهل الحارة أن نفيسة خانم، قريبته، ساعدت الثوار في أيام الثورة السورية؟

سألت منور بهاء: قل لي كيف ستنقل "الحطب" الآن من البيت إلى مقصده؟ نظر إليها صامتا. يامنور، اسرحي وامرحي فأنا لاأستطيع أن أبوح بكلمة! قالت له: سهر أحمد نامي بك، قرب الحطب! ألم يخطر لك أن تكلفه بنقل بعضه؟ ضحكت مستمتعة بصمته. ترقرقت ضحكتها ثم اندلعت فلم تستطع أن توقفها. تخيل يابهاء، أحمد نامي بك ينقل الحطب! ضحكت ورآها بهاء دامعة العين من الضحك. تقطعت كلماتها بالضحك: يابهاء، سهر أحمد نامي بك، صاحب الفرنسيين، قرب حطبك؟ يناسبك أن تكون أميرالاي أركان حرب! آه، يؤلمني بطني من الضحك! لو تعرف منور، أن نفيسة هي التي تصلح أن تكون أميرالاي أركان الحرب!

www.alkottob.com

عندما فتحت منور الباب فرأت سعاد، خمنت أنها أتت إلى دمشق في مهمة. خطر لها أن أختها تنقل رسالة وتتناول رسالة. لم يخطر لها أن سعاد واحدة ممن ينقلون السلاح الذي اشتراه بهاء من لبنان إلى فلسطين. كان زياد معها. قالت لمنور: أتركه عندك، سأعود بعد ساعة، ساعتين. طلبت ماء لنفسها، وانصرفت. كانت شفيقة يومذاك مشغولة بابن أخيها المريض فاضطرت سعاد أن تأخذ ابنها معها إلى دمشق.

جلست سعاد مقابل شكري القوتلي في بيته في الجسر الأبيض. وعدها: اطمئني! لكن خيل إليها أنه نظر إليها نظرة طويلة. يخاف عليها؟ ذكّرها بأنه درس مع عبد الرحيم، واستمرت صحبتهما في أيام الدولة العربية. اشربي قهوتك أولا، ياسعاد خانم! ولا تشعري بأن أحدا يمنّ عليك! تذكري أننا لجأنا إلى فلسطين بعد الثورة السورية!

شغلها بذكرياته ليبين لها أن أهل بلاد الشام شعب واحد؟ درست مع عبد الرحيم، واستمرت صحبتنا عندما أتى عبد الرحيم عضوا إلى المؤتمر السوري، ثم عندما طلب فيصل من الحقوقيين العرب أن يدرّسوا في كلية الحقوق السورية. كان معه الغزي والأسطواني وحقوقيون من نابلس. لم يسمح الاتفاق بين الإنكليز وبين الفرنسيين بدولة عربية فيها معاهد علمية وبارلمان ونهضة، فقال الملك فيصل لأخينا عبد الرحيم وأصحابه: اذهبوا إلى بلادكم وجربوا أن تستلموها! يستلمونها؟ واليهود والإنكليز أمسكوا بها؟!

لا تحتاج سعاد أن يروي لها أنه رأى بعينيه المستوطنين الغرباء، يوم كان في فلسطين. وأنه عرف أن مشروعهم يتناول بلاد الشام كلها. أي سياسي عربي لا يفهم أن وعد بلفور أدخل الدب إلى الكرم! لكن ماذا يستطيع أكثر مما في يده ليرد خطرهم عن فلسطين! مع ذلك، لعل الفروسية تسند طالب النجدة وتنعش روحه! قال لها: اطمئني، ياسعاد خانم، سنؤمن ما طلبه أخونا عبد الرحيم!

www.alkottob.com

حاولت منور أن تستبقي ابن سعاد: أشعر بأن الطفل مريض. اتركيه عندي! تتركه عندها؟ يعلم الله متى تستطيع العودة إلى الشام! قالت لمنور: قدّروا على كبارنا وعلى صغارنا العذاب، ياأختي!

رتب الرجال الأسلحة في سيارة فيها تابوت. وركبت فيها سعاد مع ندّابات مسربلات بالسواد. ارتعشت؟ يحكم على من يجد الإنكليز في بيته بندقية بالإعدام. وقد يفتشها الإنكليز أو يكتشفها اليهود! فما مصير سعاد، وهؤلاء الرجال والنساء؟ تهون المصيبة بين الجمع! وتصعب أيضا! تعترف بأنها ارتعشت. لكنها جرت لتنفذ قرارا هو أيضا قرارها. بكى زياد فاحتضنته. منور على حق، فليتها تركته عندها. جبينه حار كالنار! قالت: "ساخن! ياويلك وياسواد ليلك ياسعاد"! لكنها لن تترك المأتم. قالت لها امرأة من الندّابات: استلقيت مرة على مسدسات في تابوت. ندبوني طول الطريق وبكوا علي. عندما أتى الرجال لينزعوا عني الشرشف ويأخذوا السلاح لم أستطع أن أنهض. ظننت أني مت! نظرت إليها سعاد. تخفف هذه المرأة عني؟ تروي ببساطة تلك الحادثة، كأن حياتها ليست على كفها! قالت المرأة: ياست سعاد، خافي على الكبير إذا ارتفعت حرارته. حرارة الصغير ترتفع حتى إذا التهب إصبعه! مضى الكثير من الطريق وبقي القليل! لاتعرف سعاد هذه المرأة، لكنها تخمن من لهجتها أنها من جنين. قيل لسعاد ستقابلينها في دمشق عندما يعرف محمد خير صاحب المكتبة العمومية أنك وصلت، وسترافقك مع النساء.

أشفقت المرأة على سعاد. مسكينة، شابة خائفة على طفلها! قالت لها: يابنيّتي، لاتخافي على ابنك! اسمعيني، هذا كلام أمّ ربت ثلاثة شباب وثلاث بنات! كانوا مثل هذا الصغير، أخاف عليهم من النسمة. وصاروا شبابا مثل الوردة، طول وعرض والوجه مثل البدر. لكن آه، يابنيّتي، لم يأخذهم المرض، أخذهم الإنكليز وحكموهم بالإعدام. التفتت سعاد عن ابنها إلى المرأة. نعم، ياحبيبتي، نفذوا الحكم فيهم! تناولهم من المشنقة شباب البلد. رجوتهم، اتركوني أراهم! مالي حصة فيهم؟ قبلتهم، ياعيوني، أخذوهم ودفنوهم. حملوهم وداروا بهم في البلد كأنهم يدورون بعرسان. هل رأيت، يابنيّتي، بلادا غير بلادنا تحتفل بموت شهدائها كما تحتفل بالأعراس؟!

شدت سعاد ابنها إلى صدرها. وندبت النساء التابوت كأنهن يندبن المشنوقين

www.alkottob.com

والمقتولين والبلاد التي تسرق منهن. بكت سعاد على ابنها، وعلى نفسها. هل طمأن الإنكليز أثر الدموع على وجهها؟ عندما عبرتهم تنهدت وهمست لزياد: ياحبيبي، هل تعرف أنك اشتركت في الثورة؟

ندبت النساء التابوت حتى وصلن إلى بيت في البروة. استقبلتهن النساء بالندب. هرعت سعاد وطلبت ماء وخلاّ، غمست فيه منديلا ووضعته على رأس ابنها. ومشى المأتم بالتابوت إلى المقبرة. دفن الميت في سرعة ستر له!

عادت سعاد إلى بيتها: "دخيلكم نادوا الدكتور أنور.. قولوا له ابن سعاد مثل النار"! غمست منشفة بالخلّ والماء، عصرتها ووضعتها على جبين الصبي. حاولت أن تسقيه ماء بالملعقة. ياحبيبي ظلمتك! أتى أنور مع حقيبة الطبيب. حصبة ياست سعاد! لاتخرجي بالطفل من البيت هذا الأسبوع! اتركي كل شيء وابقي معه! هل يلمّح إلى سفرها به إلى دمشق؟ كاد يخرج، لكنه عاد وجلس. هل تشكره لأنه فهم أنها تحتاج إنسانا يقويها! يفهم أنها ركزت قواها طول النهار وحزمت جرأتها، وفجأة شعرت بأنها منهكة عندما ابتعد الخطر؟

قال لها: كنت في نابلس. ورأيت طفلا اسمه صبحي، لعله في السابعة من العمر. استمع مع أهله إلى خطاب من خطابات زعيتر في بستان. حمّل أهله الحمار بالقنابل التي تعبأ في نابلس، وضعوا فوقها البندورة وأركبوه على الحمار. استوقفه جندي إنكليزي وتناول حبة بندورة وقضمها. لم يخطر له أن الحمار محمل بالقنابل. لا يعرف الطفل الطريق. لكن الحمار يحفظه. قصد أنور أن يخفف عنها التعب فذكرها بطفل دفعه أهله إلى الخطر ليلبوا حاجة الثورة! قالت: ياأنور، ابني أصغر من ذلك الطفل، ومع ذلك اشترك اليوم في الثورة!

رجع عبد الرحيم متأخرا في الليل وهي تغفو وتصحو قرب زياد. لم تنظر سعاد إلى عبد الرحيم. لا يخاف على ابنه كما تخاف عليه! ردت نظرتها إلى ابنها واستسلمت لغضب هادئ. استعادت رحلتها إلى الشام. لم تبق في بيت منور إلا نهارا. ناولتها ابنها لتذهب إلى بيت القوتلي. لم يؤخرها القوتلي. ولم تترك المأتم حتى بعد وصولها إلى البيت المقصود في البروة لتمنع الشك. فهل يفهم رجل مثل زوجها ما عانته في هذا اليوم؟ هل توجد حقا أبوة؟! وهل يعرف الرجال ما هو حب الطفل؟

لمح عبد غضبها وخشي منه. قال: استريحي، أنا سأسهر على الصغير. وعندئذ نظرت إليه. ورأت أنه متعب ومسكين. فتنهدت. "جيت لك ياعبد المعين تاتعيني، لقيتك ياعبد المعين تتعان"! سألها: تعشيت؟ من يفكر في العشاء!

www.alkottob.com

تذكرت أنها لم تأكل طول النهار. جلس على الأرض ليكون أخفض منها. أخبرها: سينقل الرجال الأسلحة بعيدا عن البروة. نتوقع أن يفتش الإنكليز البيت والحواكير!

قالت له: نحن كمن يفرّغ البحر بكشتبان! ياسعاد! لو تعرفين كم يحتاج الرجال هذا القليل! سألها عن سعيد الغزي، وعن القوتلي. وتذكر أيام الدراسة. لم نكن نعرف أن تلك أجمل الأيام! حكت له أن القوتلي رحب بها. قالت: وربما خاف علي أكثر مما تخاف أنت علي! لم تشف سورية بعد من الإضراب ستين يوما. لكن الخلاف بين الفرنسيين والإنكليز يسهّل الآن المساعدات من سورية إلى فلسطين. هل ينسى الإنكليز أن تجار ليون طلبوا ضم الساحل السوري كله إلى الانتداب الفرنسي؟ قال: لاتقلقي عليهم! سيتفقون!

أطل عبد الرحيم على زياد، واستمع إلى تنفسه. طمأنها: نائم! وعاد إلى الماضي! كأنه بين أصدقائه الذين درس معهم الحقوق! كان معه أخوه علي، وقريبه محمد، وأحمد خفاجة.. بقي بعض أصدقائه في دمشق! قال لسعاد: ذكرتني بعريضة أهل الناصرة التي قدموها إلى السلطات الإنكليزية سنة 1919. احتجوا على فصل فلسطين عن سورية! لم تكن العريضة صياغة سياسية، بل حقيقة يعاني منها الناس! جمعنا المؤتمر السوري، والدولة العربية. لم يكن ذلك سياسة فقط ياسعاد، كان حياة! سهرت في الشام مع عبد السلام الطبري وقدري ولم أكن أعرفك بعد!

يحدثها عن ذلك الآن؟ خيل إليها أنه لا يعرف الكلام إلا في موضوع واحد: الثورة! قالت له في هدوء: نربي الأولاد ونطبخ، ونهرّب السلاح أيضا! كان يجب أن تلبس أنت ملاءة لتساعدنا! سألها: هل يناسبني أن أتنكر بملابس امرأة؟ نظرت إلى طوله وعرضه. ابتسمت: لا يصدق أحد أن عندنا نساء في حجمك! يجب أن تنحف!

ينحف؟ يخرج من المعتقل نحيفا، ويسمن خارجه. يجب أن يدعو الناس وأن يقبل دعواتهم. تذبح الخرفان ويشوى الدجاج وتمد المناسف ويصب عليها السمن. رغم الضرائب التي تأكل الفلاحين، بلادنا بلاد خير. لا يكتشف من يرى الولائم السخية علاقتها بالإحصاءات. يحمل الفلاحون سلال البيض وأقفاص الدجاج هدايا للمحامين المدافعين عنهم! يحملون أطباق اللبن وسطول الحليب! أكياس البرغل والعدس والطحين والقمح! يستند الوجهاء الذين يشتغلون في السياسة، إلى ثرواتهم وأراضيهم، وينفقون من مالهم في الدفاع عن بلادهم. لكن قادة الفلاحين مضطرون إلى ما تقدمه لهم القرى. وكان القاوقجي والعاص متقشفين لأنهما عاشا

www.alkottob.com

على سفرة الفلاحين الفقراء وعبرا أحيانا ولائم الوجهاء.

زياد نائم. كأن حرارته انخفضت! سعاد مستعدة الآن لنسيان ما اتهمت به زوجها! مستعدة لنسيان رحلتها الخطرة من دمشق! تفكر فقط بنجاحها في نقل السلاح. قالت لعبد الرحيم: كان هذا اليوم طويلا، طويلا! فتنهد. معنى ذلك أنها رضيت!

www.alkottob.com

بدا لسعاد أنها تستمتع بشفاء زياد، وتشم عبق النظافة في بيتها. كانت قد أكملت طبخ الغداء، ورمت وسائد بلون نبيذي على المقعد، وقالت لنفسها: سأشرب الآن القهوة رشفة، رشفة! لكنها أغمضت عينيها كمن يغفو. سمعت المفتاح في قفل الباب. بكّر عبد الرحيم اليوم، ليقطع عليها متعتها بهذه البرهة!

أسندت رأسها إلى الوسادة وبقيت مغمضة العينين. كانت مسترخية، راضية. ما أبعدها عن أي عمل خارج البيت! فكيف يكلفها بالمهمة الجديدة التي يكرّمها بها؟ رأته حائرا عندما فتحت عينيها. خير؟ أسرع في كلامه: يجب أن ننتقل أياما إلى بيت الحاج رشدي في البناء الذي يسكن فيه رباح! وقفت: اسمع ياعبد الرحيم، ألا يوجد غيري لديكم؟ اتركوا لي فرصة للراحة! لو التقطني الإنكليز في الطريق بين دمشق وفلسطين وأعدموني فيتّمت ابني، أما كنت تتزوج بعد شهر امرأة أخرى، وتقنع نفسك بأنك تزوجتها لتعنى بزياد؟ أطرق. يعرف أنها سترمي غضبها على الدنيا، ثم ستحمل المهمة.

انتقلت سعاد إلى بيت في بناء يملكه الحاج رشدي. أكد لها عبد الرحيم: إقامة موقتة! فسألته: ننفذ تعليمات؟ ابتسم. سكنا في الطابق الأول. فوقهما مباشرة رباح. يظن الحاج رشدي أن عبد الرحيم يستطيع أن يتفاهم مع هذا الرجل، لكن عبد الرحيم أتى لأمر آخر! فهل يطمئنها أن تكون مع رباح في البناء نفسه؟ أيضحي بها عبد الرحيم؟

وقت فتحت الباب رأت أمامها فلاحا طويلا أسمر. قال: صباح الخير. رحب به عبد الرحيم لكن بدا لها أنهما خصمان! قال رباح: جئت أشرب قهوتك! لا ضرورة للمقدمات. أشكو لك أصحابك! قتلوا شابا من رجالي. ذنبه أنه يقتل الخوارج! قتل السماسرة الذين يهربون اليهود إلى البلاد. فهل هذا ذنب في ديوانكم؟ صرت أرى شبابي الذين جمعتهم ودربتهم قتلى بيد الثوار! ألا ترى أني محق إذا قررت أن أقتل مقابلهم رجالا من جماعتكم؟ لا، ياراباح! تخطئ إذا اتهمت الثوار.

www.alkottob.com

لابد أنك تعرفهم كما أعرفهم!

تناول عبد الرحيم القهوة من سعاد وقدمها له: يسرني أنك أتيت لتشرب قهوتي. فلننه هذه القصة على خير بينك وبين الثوار! تأمل عبد الرحمن رباحا. ما أخطر أن يكون الرجل بسيطا ساذجا! فقد تكون بين السذاجة والغوغاء خطوة. وهب بعض القادة الفلاحين في هذه الثورة سعة الرؤية، لكن العاطفة الوطنية أقوى في بعضهم من الحكمة! من طيبتهم يدخل من يستطيع أن يشعل النار بين الثوار. والحق معهم، فالوحشية التي يرونها تضيع الصبر!

قال عبد الرحيم: يارباح. لا أخفي عليك أن بعض الجماعة يرى أنك لا تميز الخائن من الوطني فتصفي أبرياء. فهمت أنهم قد يصطدموا بك. فابتعد الآن عن العين! تأمله رباح صامتا. أهو حذر من رجل المدينة، أم متهيب لأن عبد الرحيم يعرف مالا يعرفه؟ هل يرجّح كفة عبد الرحيم أنه كان في المعتقل؟ قال رباح: ابني مريض، لولا ذلك لما رأيتني في هذا البناء. طفل صغير لا أستطيع أن أنقله إلى الجبال. عندما يشفى أنا في أمرك ياأبا زياد، سأغيب عن العين. ليس لأن أصحابك على حق. بل لأني أحفظ أنك ساعدت كمحام بعض رجالنا!

طرقت سعاد الباب. كانت تحرس عبد الرحيم فسمعت ماقاله عن الطفل. دخلت وجلست أمام رباح. قالت: هات الطفل إلى بيتي مع زوجتك! سيفحصه عندي طبيب أثق فيه. هاته، أم أصعد أنا وآخذ الطفل؟! خفض عبد الرحيم نظره. فاجأته سعاد بقرارها. ماذا يقال عنه هو المكلف بأن ينذر رباحا ويحذره؟ فهم رباح أن هذا قرار سعاد لم تستشر فيه أحدا. نهض ذلك الفلاح الطويل ووضع كفه على صدره. قالت: ولو، الناس للناس أم نسينا ذلك؟ في خلافكم لا تدخلوا الأطفال والنساء! هات الطفل، لا تقلق! لن يعرف الطبيب أنه سيداوي ابنك!

كانت غاضبة لكن غضبها بدا متعاليا هادئا. أعلنته على الطرفين معا وهي تنحاز إلى الأب القلق على طفله، وتفهم دون كلام زوجها: قف! ولا كلمة لأصحابك حتى يشفى الطفل!

اعتمدت أن أحدا لن يهاجم البيت دون رأي عبد الرحيم. وأن من يراقبه من جماعته أو جماعة رباح لن يرى زوجته تحمل طفلها وتنزل إلى بيت سعاد وهي تسلك الدرج داخل البناء. لبست ملاءتها وخرجت إلى بيت أنور. تعال معي لتداوي ابن ضيفة لدي! تأملها أنور. ترسلين عادة إلي من يطلبني فهل الطفل عزيز عليك إلى هذا الحد؟ ردت: أسبقك أم تسبقني بالعربة التي تنتظرني؟ فهم أنها أتت لتأخذه معها فحمل حقيبته وخرج خلفها.

www.alkottob.com

بقيت يومين صامتة. تشرب قهوتها وحدها، وتنظر من النافذة بعد انصراف عبد الرحيم كأنها تتوقع هجوما. نامت على ديوان تاركة السرير لعبد الرحيم، ولم يجسر أن يسألها لماذا. بعد يومين سألها: تشكين في ياسعاد؟ أوصلنا إلى هنا؟ لم يفهمها. كانت تفكر في الثورة كلها. لا يتحمل ضميرها الخطأ! قال لها: لا توزن الثورات بأخطائها الصغيرة بل بإنجازاتها الكبرى. هبّت واقفة: أخطاؤها الصغيرة قتل إنسان بريء هنا أو هناك؟ وموت طفل أو يتم طفل؟ خراب بيت أو بيوت؟ قال في هدوء: وحدت الثورة الناس ضد الهجرة وضد الاحتلال الإنكليزي. لا تنظري إلى خلافات القيادات أو وهنها بل إلى الناس، الشعب! هذا ما قصدت بإنجازاتها! قالت له وهي تنظر في عينيه: اسمع، ستنهار هذا الثورة إذا كان من سيقرر مصيرها لا يستحق شعبها! قتل القسام، وياحزني عليه لأنه قتل، كي تفقد قائدها! أتقول ذلك سعاد التي تتفوق عليه بعدلها؟ سعاد التي رأت أهل الزير وجمجوم وحجازي ومن بعدهم من الشهداء وبكت عليهم؟ يعرف أن الغضب هو الذي ينطقها بهذا اللوم، وذلك لأنها عادلة.

عندما شفي الطفل أجلسته في المطبخ أمامها وأطعمته. رآها عبد الرحيم سعيدة ورائقة. في الليل طرق رباح وزوجته الباب. قال لها: أتينا لنودعك ياست سعاد! قالت لهما: انتظرا، تريد أن تطمئن إلى خروجهما من البناء سالمين. ابتسم رباح! نحمي أنفسنا، ياست سعاد، فلا تقلقي علينا! وعندما رجع عبد الرحيم قالت له في برود: طمئن أصحابك، رحل رباح! لكن ألا يخطر لكم أن الإنكليز يقتلون رجلا من هذه الجماعة ورجلا من تلك الجماعة ليتهم كل منهما الآخر بأنه القاتل فيشعلون النار بين الثوار! ما ذنب رباح إذا اختلف معكم؟ لم يجبها.

جلست وحيدة وأغلقت على نفسها الباب! هل قدر لها أن تفهم في تلك البرهة أن الصراع الصعب ليس مع العدو، بل مع مئات الصغائر التي تضيع القوة والوقت؟ يرتمي الناس في القتال من الحقد أو الخلافات فيوزعون عدوهم في مئات الأعداء. ويتوهمون أنهم سيصلون إليه بعد أن ينجزوا النصر الذي لن ينجز أبدا هناك! هذا مثل حرب خضرة علي! مثل حرب حمدان وأهله! مثل القتال بين الأسر والحمولات! ضغطت رأسها بكفيها. ممن تطلب العون؟ لمحت وجهها في زجاج النافذة. شابة تتفادى أن تلاحظ جمالها وشبابها! كادت تندفع في الشعور بأنها تعيسة، وأنها في هذا العمر اكتفت من نصيبها من الشقاء. وقفت وقالت لنفسها: اسكتي!

مقابل بناء الحاج رشدي حديقة مزروعة بشجر الكينا، فيها بحرة. زرعت

www.alkottob.com

بعض الحديقة أخت أبي علي كي تعيل أسرته وأسرتها. أبو علي من قواد الثورة في قضاء عكا، وأولاده معه في الثورة. خرجت سعاد إلى الحديقة وقصدت أن تتحدث مع أخته. فلاحة بثوب طويل، وزنار عريض، ورباط على الرأس. اعتقل زوجها وأصيب في ساقه. كيف تقول سعاد لها: تروا قبل عقاب رباح؟

يحاكم أبو علي، مثل أبي درة، المتعاونين مع اليهود والإنكليز! فوجئت سعاد به يطرق الباب. رأت فلاحا طويلا قويا، كتفاه عريضان، جبينه عريض، وأنفه كبير. تسحر من يراه عيناه البراقتان. قال لعبد الرحيم: حذّر كعوش! قال عبد: هذا رجل فقير، قد يتجسس من الحاجة لا من الهوى. قال أبو علي: ياأبا زياد، وهل كل فقير يتجسس علينا؟ خرب بيوت الناس! وعده عبد الرحيم: كعوش يحبني، وسأحذره. اعطه مهلة!

طلب عبد الرحيم خروفا من صفد: أرسلوه مع كعوش! وصل كعوش مع الخروف إلى بيت عبد الرحيم، وجلس عبد معه: أنت شهم وفي أول عمرك. لا تحرق شبابك! أهلك معروفون بالوطنية! خسارتك! ولنغفر ما مضى!

شرب كعوش القهوة في بيت عبد الرحيم. وخرجا معا، مشى عبد الرحيم في اتجاه المحكمة، وكعوش في اتجاه آخر. كان عبد الرحيم في المحكمة الشرعية عندما أطلق الرصاص قرب حرش الكينا. همس له القاضي، ابن قدورة: قتل الآن رجل قرب حرش الكينا. آه، لابد أن يكون كعوش! نصحه ابن قدورة: ابق في المحكمة!

شهد القاضي الشرعي أن عبد الرحيم كان يرافع في المحكمة وقت قتل كعوش. لكن هل يفوّت الإنكليز هذه الفرصة؟ الثورة في عزها والوحشية في قمتها!

لبست سعاد ملاءة قديمة وأسدلت المنديل على وجهها وقصدت أخت أبي علي. عينت أخته لها موعدا معه.

سألته: أكان يجب أن يقتل كعوش قرب حرش الكينا بعد أن خرج من الاجتماع بعبد الرحيم؟ اتهم أهله عبد الرحيم بقتله والدليل أنه اشترى له خروفا من صفد! كيف يفهمها أبو علي أنه لا يستطيع أن يوقف أمرا أو يعدّله بعد أن بلّغ لمن ينفذه؟ هل تظن أنه يحمل تلفونا في جيبه؟

بعد سنة ونصف سيخرج عبد الرحيم من المعتقل. ستكون سنة 1939 نهاية الثورة. يجب أن تهدأ فلسطين كي ينصرف الإنكليز إلى حربهم العالمية العظمى ليقتسم المنتصرون الأرض مرة أخرى! سيسافر عبد الرحيم إلى دمشق ويغيب عن

www.alkottob.com

سعاد. وستلد توأمين في غيابه. وسيحمل لها في عودته بعد هزيمة ثورة الكيلاني في العراق سجادة من الحرير. ستلفها وترسلها لأبي علي. هدية لمن بقي حيا من قادة الثورة! سيطلبها أبو علي ويقول لها: ياست سعاد، ماهذا؟ وسترد: لتجلس عليها! سيقول لها: هذه تناسب حاكم اللواء! ليس لدينا مكان يناسبها! وستقول: تحتاج ثمنها لضحايا الثورة!

www.alkottob.com

بعد مقتل كعوش اعتقل عبد الرحيم من بيته. كان زياد يلعب مع محمد الخضرا ورونالد، ابن يوركين. ثلاثة أطفال شقر أمام حديقة بيت سعاد على الطريق إلى المنشية، في المنطقة الجديدة التي نظمها المهندس الألماني شوماخر. البيت طابق واحد وسط حديقة.

في الجانب الخلفي من البيت باب. قدر الإنكليز أن عبد الرحيم قد يهرب منه. وكان حقا حاضرا للخروج منه إلى بيروت ليلتقي برياض الصلح. وقفت مصفحات إنكليزية فالتفت الصغار إليها. هل لدى عبد الرحيم الوقت ليتناول لباسه الداخلي الصوفي؟ هرعت سعاد وأحضرته. كأنها توقعت ألا يسافر بل أن يعتقل! قالت له كأنه راحل برغبته: الله معك! لم يتوقف عبد الرحيم ليودع ابنه، ولم يركض زياد ليمسك به! هل شعر بأن أباه ليس أبا فقط؟ سيرافقه هذا الشعور طول عمره. وسيقدر أن ذلك بدأ منذ تلك البرهة التي رأى فيها المصفحة تأخذه. هذا أبي الذي يجلسني على ركبتيه، لكنه ليس فقط أبي!

رآه زياد يركب المصفحة مع الجنود الإنكليز. تفرج على ذلك أيضا رفيقاه ابن الخضرا ورونالد. قال رونالد بعد انصراف المصفحات: سأحكي عن ذلك لأبي! لم يستمر الأطفال في اللعب، بل جلسوا على إفريز الحديقة تحت شجرة.

لم يؤخذ عبد الرحيم إلى سجن عكا في القلعة حيث يعدم الشهداء. سيق إلى الكامب. بين عكا ونهاريا. معتقل ألفه عبد الرحيم! براكات محاطة بالأسلاك الشائكة. المسؤول عن المعسكر مستر بايك الذي تزوج من أخت مس نصار مديرة مدرسة البنات في عكا. يكره مستر بايك عبد الرحيم لأنه يناقشه في حقوق المعتقلين. ويكرهه لأنه سياسي وابن مدينة. لا يخفي أنه يحتقر العلاقات المتخلفة التي تجمع أهل مدينة أو قرية! لكنه لا يحب اليهود أيضا. ويرى أن فلسطين كالهند يجب أن تبقى إنكليزية. لذلك يبدو ليّنا مع المعتقلين العرب أحيانا. لينا؟ قال عبد الرحيم: لنقل ليس شرسا!

www.alkottob.com

قصدت سعاد أن يحمل حشد من مرافقاتها طناجر الطعام. فليكن كما يشتهيه الرجال في بيوتهم! وليطقّ الإنكليز من القهر وهم يرون طعامنا! سلّى النساء أن يتصورن قهر الحراس الذين سيرون الطعام الفاخر! لن يفهموا أن هذه وليمة! حملت سعا والنساء طناجر الطعام. ورأت سعاد عبد الرحيم على بعد خمسة أمتار، من خلال الأسلاك الشائكة!

يجب أن تتعلم سعاد نوعا آخر من الصبر! الزيارة ممنوعة هذه المرة، لكن نقل الطعام للمعتقلين ممكن، سنوصله لهم! الطعام والزيارة ممنوعان هذه المرة! هذه المرة يسمح بالزيارة، وهاهو زوجك! يسألك عن حالك وعن الأحوال لكنك لا تقولين إلا ما يجوز أن يسمعه المراقب. تتعلمين ياسعاد دسّ الرسائل في أسفل قفة الأكل. تخيطنها في القفة، ويقرأها عبد الرحيم. لكنك تحسبين أن الرسالة قد تقع في يد الإنكليز، فتزنين كلماتك وتقيسينها وتتعلمين المهارة في الإشارة.

عرفت محفوظة النابلسي أن عبد الرحيم اعتقل، فزارت سعاد: ياحبيبتي، يابنتي، ماذا تحتاجين؟ قولي واطلبي! الأصحاب يابنتي سعاد، أهل! لعلها هي التي اقترحت على أخيها نمر السعدي أن يختار عبد الرحيم محاميا له.

أرسلت محفوظة من نابلس إلى سعاد صندوقين من الصابون الذي صب في قوالب كالمعمول. الصابون الذي كانت سعاد تصادفه في البزورية في الشام! كانوا يسمونه صابون مفتاحين! في زيارتها لبيت محفوظة غسلت يديها بصابون مستدير. وقالت لها محفوظة يومذاك: هذا كسارة الصابون! قالت سعاد: ياست محفوظة، أحببت كسارة الصابون الذي تفوح منه رائحة الورد!

www.alkottob.com

حكت زوجة صبحي الخضرا للنساء عن التعذيب في المعتقلات، واستمعت إليها سعاد. يرفس الإنكليز المعتقلين بأرجلهم، يغمسون رؤوسهم بالماء، يعلقونهم من أذرعهم أو أرجلهم، يلفون أقدامهم بكيس من القش ويشعلونه بالنار، يضعونهم على الخازوق، يرمونهم في البحر حتى الغرق. أضافوا إلى ذلك أنهم بلّغوا زوجها أنه حر، أخرجوه من معتقل المزرعة وخطفوه على الباب!

اصفر وجه سعاد وهي تستمع إلى زوجة الخضرا، أخت الشهيد فؤاد سليم. وبدأ الألم في معدتها. تعرف معتقل المزرعة. برّاكات تشويها الشمس ويبردها الليل. فهل أرادت أن تبعد عنها القلق؟ قالت: عذاب الناس خارج المعتقل ليس أقل من عذاب المعتقلين! اختار الإنكليز بعض رجال من قرية الذيب، أركبوهم في سيارة سارت أمام سيارات الجنود، فانفجر فيهم اللغم الذي زرعه الثوار! فرش الإنكليز الصبار ورموا عليه فلاحين من قرية السميرية قرب عكا! هاجموا البروة ونسفوا بيوتها لأن لغما انفجر قربها! هانحن نقاطع شركة روتنبرغ اليهودية ونسهر على ضوء الكاز، فتصادر الحكومة مستودعات الكاز!

عاد الحديث إلى مؤتمر نساء الشرق ومؤتمر البرلمانيين العرب للتضامن مع الشعب الفلسطيني. صحيح أن مؤتمر نساء الشرق كان في آب اللهاب في القاهرة، لكن النساء العربيات اجتمعن، والفضل لهدى شعراوي. قالت نازك العابد في المؤتمر إن الصهيونية تطمح إلى بناء الهيكل. وبينت خطر الصهيونية الاقتصادي على مصر. وقالت ابنة القسام: "الحمد لله الذي أعزني بموته ولم يذلني بهوان وطني واستسلام أمتي". وذكرت قريبات الشهداء الحاضرات في المؤتمر مثلها، طرب ابنة سليم عبد الهادي، وثريا ابنة أمين الحافظ، وفطينة ابنة أخ يوسف العظمة، وقريبات عز الدين الجزائري. تكلمت في المؤتمر ساذج، زوجة نجيب نصار. واختتمته هدى شعراوي بتحية الثوار والثورة. كرمت أم كلثوم المؤتمر بحفلة تبرعت بها لفلسطين. كل شيء تمام، لولا اغتيال حسن صدقي

www.alkottob.com

الدجاني. أغمي على زوجته ونقلت بالطائرة من المؤتمر لتحضر دفنه. ربما لم يعط الدجاني قلبه كله للثورة، ولكن هل يجب اغتياله؟! أكملت ذلك الصهيونية في مصر! نشر جورنال ديجيبت الصهيوني مقالة تتهم ثوار فلسطين بأنهم قطاع طرق وإرهابيون. لم تسكت هدى شعراوي فذكرت في ردّها القنابل التي رمتها يهوديات إرهابيات في أسواق فلسطين. تساءلت سعاد: قلن لي ماذا تغير منذ السنة الماضية؟ ما تزال الإرهابيات اليهوديات يفجرن القنابل في الأسواق العربية، وما يزال الإنكليز يعتقلون العرب ويتهمونهم بالإرهاب!

رجعت سعاد قلقة من بيت زوجة الخضرا، تضع كفها على معدتها وتكتم ألمها. رمت ملاءتها وأسرعت إلى المطبخ. حضّرت لنفسها فنجانا ساخنا من الميرمية. همها عبد الرحيم، وهمها الثورة! عبد الرحيم في المعتقل لأنه من الثورة، فكيف يمكن أن يحمل وزر قتل إنسان بريء؟ هل تصفى الثورة بالإرهاب الإنكليزي وبالاغتيالات؟ فهل المؤتمرات العربية أكثر فائدة من عمليات الثوار؟

لجأت إلى عقلها لتهدئ نفسها. هل كان نجاح المؤتمر البرلماني في القاهرة يستطيع أن ينجدها؟ زهت سعاد بوفد سورية الذي جمع فارس الخوري ومظهر رسلان وتوفيق الشيشكلي وبدوي الجبل وصبري العسلي ونسيب البكري. وبوفد العراق ومنه مولود مخلص، وبالوفد المصري الكبير، وبالوفد الهندي، لكنها ظلت منثنية على ألمها. أغمضت عينيها كمن يستمع إلى بدوي الجبل يلقي شعره الفخم في حفلة النادي الشرقي، وإلى عزف سامي الشوا، وتمثيل جورج أبيض. وإلى المظاهرات التي هدرت في الشارع وفرقها البوليس. طلبت قرارات المؤتمر البرلماني إلغاء وعد بلفور، ومنع الهجرة الصهيونية، ورفض التقسيم وعروبة فلسطين. فهل ذلك قليل ياسعاد؟ هل بدأ شراب الميرمية يهدئها، أم الشال الدافئ الذي لفت به بطنها؟

كان عبد الرحيم في معتقل المزرعة يزن في هدوء معطيات الواقع. استشهد القائد أبو خالد، أحد أصحاب القسّام، وهو يحضّر لمؤتمر قادة الثورة. واستشهد القائد أبو عبد الله الذي أخذ مكانه في قيادة منطقة نابلس والقدس. هاجمته الطائرات وحاصره الجيش. أسقط الثوار طائرة، وليته بقي حيا ولم يسقط طائرة! واستشهد الشاعر نوح ابراهيم في شمال فلسطين. يعني ذلك خسارة في القيادة الميدانية! وأين القيادة السياسية؟ في المعتقل أو في المنفى!

ينام عبد الرحيم عادة عندما يضع رأسه على الوسادة القش. لكن هذا الواقع يقلقه. كانت سنة 1938 قمة في العمليات الثورية العربية، وقمة في وحشية

www.alkottob.com

الإنكليز. فهل كانت قمة الثورة بداية انحدارها؟ يضيف إلى ذلك الاغتيالات. محاكمة الجواسيس واجب، لكن الخطأ لا يجوز في الثورة. فهو ليس خطأ حكومة راسخة بقواتها. قوة الثورة من الناس، إذا شكّوا فيها أو خفت حماستهم لها كان مقتلها. يكفي الناس ما ينزله بهم الجيش الإنكليزي!

انصرف عبد الرحيم إلى تأمل الواقع. وضع في كفة الانتصار وفي كفة الخسائر. يوم طلبت قيادة الثورة من الرجال أن يتركوا الطربوش ويلبسوا الكوفية والعقال لأن الإنكليز يطاردون من يلبس الكوفية، لبّوها واختفى الطربوش. فرضت حكومة الانتداب أن يحمل كل رجل هوية لتصيد الثوار. فطلبت قيادة الثورة من الناس ألا يطلبوا الهوية، فلبّوها. مقابل ذلك لاحظ عبد الرحيم زيادة الأحكام بالإعدام. قصد الإنكليز قتل الأبرياء. اختار الإنكليز ثلاثة شباب من قرية سيلة الظهر وقتلوهم أمام أهل القرية. وكرروا ذلك في حطين. في عتيل حبسوا ثلاثة فلاحين في مستودع حطب وأشعلوا فيه النار. فرض الجيش غرامة على قرية رأس الأحمر، في قضاء صفد فلم تدفعها فحاصر القرية ونسف بيوتها وقتل بعض أهلها. لبس الإنكليز واليهود كوفيات فكشفهم أبو درة واشتبك معهم. في تلك الحسابات بدا لعبد الرحيم أن الشهداء كثيرون من تلاميذ القسام. صحيح، انتصرت المقاطعة ففشلت لجنة وودهيد للتقسيم وأعلنت صعوبة تحديد مناطق التقسيم الإدارية لذلك ستواصل إنكلترا مسؤوليتها عن فلسطين! لكن اللوحة التي رسمها عبد الرحيم من التفاصيل مقلقة. لا وقت لخفقان القلب أو الاستسلام لرومانسية الحزن بل لفحص الواقع. ومن هذه التفاصيل ملاحقة الفلسطينيين في سورية واعتقالهم في سجن القلعة. تدخل سعد الله الجابري. ومنع الوطنيون تسليمهم للإنكليز. لكن إلى متى؟ ألا يدفع الوضع المتلبد في اوروبا الفرنسيين إلى الاتفاق مع الإنكليز علينا؟ ألا يكسر هذا ظهر الثورة؟

صحا عبد الرحيم من حساباته على نشيد. بدأ الصوت خفيفا كأنما ينشده معتقل لنفسه. ثم ارتفع فأصبح صوت مجموعة. رفع عبد الرحيم رأسه وانساق مع الأصوات. هدر المعتقل كله بالنشيد الذي تناوله فلسطيني من سوري وأضاف إليه نكهة فلسطين. نظمه نجيب الريس في سجن جزيرة أرواد، وبدل بعض كلماته الشاعر الفلسطيني ناصر عيسى يوم أعدم جمجوم وحجازي والزير في الثلاثاء الدامية. أنشد عبد الرحيم مع المعتقلين:

يـــاظلام الســـجن خـــيم إننـــا نهـــوى الظلامـــا

لـــيس بعـــد المـــوت إلا فجـــر مجـــد يتســـامى

www.alkottob.com

حســـبوا الإخـــلاص ذنبـــا والوفـــــا أمـــــرا حرامـــــا

مـــــارعوا فينـــــا عهـــــودا خفـــــروا فينـــــا الـــــذماما

حســـبوا الإعـــدام يفنـــي ذلـــك العـــزم الهمامـــا

ويحهـــم بـــالحق لســـنا نرهـــب المـــوت الزؤامـــا

يـــابني قـــومي وداعـــا واحفظـــوا ذاك الـــذماما

علمـــوا الأجيـــال أنـــا فتيـــة مـــاتوا كرامـــا

تذكر عبد الرحيم أن سعاد قرأت على شاهدة قبر الزهراوي في دمشق أنه لم يخف "الموت الزؤاما"، وقالت له: إلى متى قدّر على العرب أن تكون شجاعتهم أمام الموت الزؤام؟ آه، لولا الإنكليز ولولا الصهيونية، كم كنا سعداء في هذه البلاد الخضراء الجميلة التي تجمع الجبل والبحر والسهل! يستطيع عبد الرحيم الآن أن يردد ما قالته سعاد!

في شهر تشرين الأول كان عبد الرحيم ما يزال في معتقل المزرعة عندما كتب بن غوريون: تكلمنا تلفونيا مع ثلاثة بلدان، جوهانسبرغ ونيويورك ووارسو وحذرناهم من الخطر، وطلبنا مساعدتهم الجدية. وفي إنكلترا جندنا أصدقاءنا السياسيين في البارلمان والصحافة والحكومة.. بالإضافة إلى جهودنا في إنكلترا نحاول أن نجند مساعدينا خصوصا رئيس الولايات المتحدة.. يعمل وكلاء النازيين بنشاط في مصر والعراق وفلسطين وسورية وغيرها من البلاد العربية، ولكن العرب يعملون أيضا بوحي أنفسهم... لنا الأكثرية في القدس وحيفا وتل أبيب، والصناعة في أيدينا، ولنا ميناء تل أبيب، ويصبح ميناء حيفا يهوديا يوما بعد يوم، ونمتلك معظم الأراضي الزراعية، ومحطات الكهرباء والبحر الميت، وتنمو قوتنا العسكرية وقد جندنا عشرة آلاف يهودي بمساعدة الحكومة.

سيتساءل عبد الرحيم فيما بعد، ألم يكن ماكدونالد، وزير المستعمرات ممن جندهم بن غوروين؟ فهل يمكن أن يرى رجل عاقل الواقع ويستنتج ما استنتجه ذلك الوزير البريطاني؟ أعلن ماكدونالد يومذاك: انتظرنا تقرير لجنة وودهيد لذلك حصرنا جهدنا في إعادة الأمن للبلاد. وحدث خلال أيام البطالة في الصيف التي لم يكن فيها للعمال ما يشغلهم في الحقول أن نمت حملة اغتيال وعنف أعلنها

www.alkottob.com

الإرهابيون فأصبحت بمثابة ثورة عربية منظمة واسعة ضد السلطة البريطانية.. يشتمل الميدان على فريقين: أولا اليهود. كانت فلسطين موطنا لهم منذ ألفي سنة، لكنهم منذ ذلك الزمن شتتوا في أنحاء الأرض. إنهم شعب بلا وطن، لكن كثيرا منهم عاد خلال السنوات العشرين الماضية إلى فلسطين مستندا إلى صك الانتداب. ولا أعتقد أن أي مخلص يمكن أن يدعي أن بريطانيا لم تقم خلال السنوات العشرين بالتزاماتها في تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين. فمنذ سنة 1922 دخل فلسطين ما يزيد على ربع مليون يهودي واستوطنوها. وكانت أعمالهم فيها توجب الإعجاب.. ولم تبلغ مأساة أي شعب من الشعوب التي لا وطن لها ما بلغته مأساة اليهود في هذا الأسبوع.. أما الشعب الآخر فهو الشعب العربي.. الذي عاش في تلك البلاد منذ قرون عديدة ولم يؤخذ رأيه في وعد بلفور وصك الانتداب.. وقد شاهدوا تسرب أراضيهم منهم.. من اشتركوا في الإضراب أشخاص لا يعفّون عن الجرائم.

لكن ماكدونالد اعترف لمجلس العموم بصعوبة أن يوضع العرب تحت نفوذ اليهود! كذّب، طبعا، من سأله عن الجرائم التي يرتكبها الجيش. في تلك المناقشات في مجلس العموم قال هربرت موريسون إن وعد بلفور يشمل شرق الأردن لكن في سنة 1922 أخرجت منه الأردن مع أنها جزء من فلسطين. ولاحظ بيكثورن أن تقرير ماكدونالد أشار قليلا إلى العرب. وقال آخر إن حركة العرب وطنية. واقترح تشرتشل الحل: تسليح اليهود واعتماد القوة العسكرية اليهودية. واقترح آخر إعلان حكم عسكري في فلسطين!! واقترح آخر أن تدير فلسطين شركة!

قال عبد الرحيم يومذاك: يفصّلون تاريخ بلادنا ومصيرها على هواهم! لكن قادة الثورة، عبد الرحيم الحاج محمد، حسن سلامة، عارف عبد الرازق، يوسف أبي درّة، عبد الرحمن الصالح، ردوا يومذاك على بيان وزير المستعمرات بصيغة أخرى: للعرب ميثاق معروف تؤيده الحكومات العربية والمؤتمرات واللجان، يتلخص بمنع الهجرة اليهودية منعا باتا وإبدال الانتداب بمعاهدة تقوم بموجبها حكومة وطنية مستقلة..

صفي هؤلاء الرجال. فما العمل الآن؟ الاستسلام لحاجة الإنكليز في هدوء فلسطين كي تتفرغ للحرب العالمية؟

www.alkottob.com

في كفر حارم نزل الثوار في مضافة أبي عبد الله. يأبا عبد الله، الثورة في ذروتها! يحتل الثوار مدنا وقرى ساعات أو يوما فيفهم الإنكليز أن البلاد لأهلها! دون عطف الناس، أمثالك، لا تستمر الثورة! رفع أبو عبد الله نظره إلى المتكلم. منع الإنكليز نشر أخبار الثورة في الجرائد، وحرموا الكلمات التي تتصل بها. فلا تنشر إلا بلاغاتهم عن العمليات. لكن الناس يتناقلون أخبارها. قال: أهلا وسهلا، يأبا محمد، أنت ومن معك من أهلنا! ترفعون الرأس! وضع أبو محمد كفه على صدره: نستريح في حماك، ونتشرف بضيافتك! أطرق أبو عبد الله. فهل فهم الثوار أنه بدوي يتوجس من هذه اللباقة؟

في كفر حارم يستريح الثوار عادة على التخوم، ويأوون آمنين بعد العمليات. من كفر حارم تتسرب الأسلحة إليهم في فلسطين. هنا تتصل على شاطئ طبرية، السمرا، والنقيب، ومزرعة عز الدين، على بعد خطوة من الحمة، وتمتد اليد إلى سمخ. تتصل الأشجار والسهول والمياه في بلاد الشام التي سمي قسم منها فلسطين وسمي قسم آخر سورية. يعي الثوار تلك الصلة بوجدانهم وخطواتهم ونظرهم وأقربائهم، فلا يفهمون الحدود التي نصبت بين أصحاب وأهل! تنطلق في مضافة أبي عبد الله أحيانا دهشته أو دهشتهم، من الخطوط الوهمية، يشعرون بالقرابة والجيرة واللغة وسلسلة الأجداد التي تجمعهم، وينسون الخرائط التي يتبحر السياسيون في انحناءاتها. لا علاقة لهؤلاء الرجال إلا بالحياة في البلاد التي توارثوها وعاشوا فيها! أما الحدود فأطياف مرسومة بين الإنكليز والفرنسيين. مخافر ملعونة نصبها محتلون زائلون!

من هنا عبروا جسر المجامع، وعبروا سمخ، وركبوا الزورق إلى الطرف الآخر من بحيرة طبرية! على رمية حجر من تلك الجهة، كفر كنا. وعلى رمية حجر من هذه الناحية، النقيب. يسكن في النقيب البهائيون. رجال ونساء متعلمون ومهذبون. تزور أم عبد الله نساءهم ويزرنها. علاقتهم بجيرانهم جيدة. لكن أبا عبد

www.alkottob.com

الله يأخذ على ابن أحدهم أنه يصاحب اليهوديات في طبرية! لا، لن يعذره لأنه "جاهل"! لا يجسر أحد على ذكر اسمه أمامه! ضيع اسمه بصحبة اليهوديات، ولن يجد له أبو عبد الله اسما غريبا يلفظه بلسانه! لا تظلم الشاب ياأبا عبد الله، يحبك! نحن في غنى عن حبه، فالشاب بين الإنكليز واليهود!

سهر الثوار في مضافة عبد الله. شربوا القهوة المرة. رووا له باختصار عملياتهم. ثم ابتعدوا عنها. فتذكروا أيام الربيع الحلوة. وقت شربوا الحليب دافئا من الماعز، ومشوا بين صخور الجولان وزنبقه. تذكروا برودة الماء الذي رواهم من نبعة صادفوها وسط الصخور المكسوة بالخضرة. من ينسى صفاء الماء الذي تدحرج فوق الحصى بين صخرتين تحت شجرة تين، وشدو عصفور التين الذي سمعوه ولم يجدوا أثره عندما رفعوا رؤوسهم عن الماء باحثين عنه؟ من ينسى متعة الماء الذي بللوا به وجوههم وأذرعهم؟ هل تصدق أني لم أرتو من الماء إلا من تلك النبعة؟ هذه البلاد جنة، ياأبا عبد الله! جازى الله من أفسد حلاوتها! مع ذلك، لن يعودوا هذه الليلة إلى الحديث عن المعارك مع الإنكليز، ولن يتذكروا الموت الذي قد يقابلهم وهم يتسللون عائدين إلى المناطق التي سيصلون سرا إليها! تشعرهم الأرض بالأمان كما يشعر طفل في حضن أمه. وما أصعب ألا يطمئنوا إلى ذلك! فليستسلموا للحراسة التي نصبها لهم رجال البلد ليرصدوا الغريب على تلالها! سلم بعض المخاتير الثوار الذين استراحوا في بيوتهم للإنكليز وخرقوا حرمة الضيف! لكن الثوار ينامون مطمئنين في كفر حارم. لن يصل الإنكليز إليهم إلا إذا قتلوا أهلها!

قررت، دائما، الحاجة عبورهم كفر حارم أو استقرارهم فيها أياما! لم يسألهم أبو عبد الله مرة كم ستبقون! وهل يسأل من ينزل في بيته! كانوا يقررون برهة الرحيل فجأة كأنهم تلقوا هاتفا من الغيب. لكن مابال أبي عبد الله هذا المساء؟ يخرج ويدخل قلقا. خير، ياأبا عبد الله؟ سلامتكم! نسلم إذا عرفنا مافي خاطرك! الولد.. عبد الله، مريض! خير، إن شاء الله سيكون في خير!

يداوي مستشفى تورنس في طبرية الثوار الجرحى. بين تورنس الإبن والثوار اتفاق على كلمة السر التي تفتح الأبواب لمن يرسلهم الثوار إلى المستشفى من الجرحى. بالله لا تقلق على الولد، ياأبا عبد الله، سيكون في عهدنا! سنوصله إلى مستشفى تورنس!

هيأ أبو عبد الله عربة يجرها حصان، رتب فيها فراشا للولد. وساق المركبة أحد الثوار. لمس أبو محمد ركبة مضيفه: بالله لا تخف ياأبا عبد الله، ابنك أمانة

www.alkottob.com

عندنا! خرجت العربة من كفر حارم وهبطت الدرب حتى وصلت إلى طريق السيارة في المنحدر، وحمل رجل الطفل إليها وأسند رأسه على كتفه. من يشك في أنه أب يحمل طفله المريض إلى الطبيب؟!

فتح عبد الله عينيه على بناء نظيف، حديقة وممرات نظيفة، وغرف بيضاء، ذات رائحة خاصة. لم يكن لديه صحو كامل كي يخاف الغربة. لكنه سيتبين فيما بعد أنه التقط الهمس الذي فتح له البوابة، وشعر بأن رجلا في قميص أبيض خف إليه وتناوله. وأن الكلام الذي سمعه كان لطيفا. ألبس ثوبا أبيض خفيفا، وشعر بلمسة على بطنه وصدره وظهره. أسندته سيدة في ملابس بيضاء، وسقته دواء. وكأنما غفا وهي قربه. نام نوما عميقا على الشراشف البيضاء، بين الجدران البيضاء. في الصباح صحا في غرفة يملؤها الضوء، على ابتسامة شابة شقراء تقف مقابله. سقته بالملعقة دواء مرا خجل أن يظهر أمامها قرفه منه. عندما خرجت لمح على الجدار مقابله صورة وجه مكلل بالشوك، أنيس، ساجي العينين، طويل اللحية. وبدت له الحديقة من النافذة فتذكر أنه عبرها في العتمة. بعد يومين وصلت أمه وبقيت في الغرفة معه. وصلت بطريق أخرى. قالت لها أختها: تركت الولد وحده؟ "حدد" بيني وبينك! قومي إليه! فقامت إلى أصحابها البهائيين في النقيب. فحملوها إلى مستشفى تورنس.

في الغرفة التي تجاور غرفة عبد الله جلست الست شفيقة قرب سرير زياد. لم تخبر سعاد أن الإسهال والإقياء طول الليل جعله كالخرقة، فحملته في الصباح إلى مستشفى تورنس! طلبت تورنس نفسه. ياتورنس، هذا ابن سعاد! وفوق ذلك هو أمانة عندي. يجب أن تشفيه! بعد الظهر بدأ زياد يتحسن. هذا تسمم ياست شفيقة، فاسأليه ماذا أكل وماذا شرب في غفلة عنك! شف يازياد، حياة الإنسان وموته في فمه! ولكن كيف يفهم هذا الطفل أن الثمار التي تبدو جميلة على شجرة قد تسممه؟ هل خمن تورنس ما فعله زياد؟ قطف حبات حمراء من شجيرة في حديقة قدري وأكلها!

في المساء نام زياد وخرجت الست شفيقة إلى الممر. تستطيع الآن أن تمشي في الحديقة مطمئنة. شعرت بالتعب. يبدو أنها لم تعد تليق بتربية الأولاد! لا تقولي ذلك ياشفيقة! فما تزال سعاد في أول الطريق. يجب أن تساعديها! أنجزت واجبك نحو أولاد قدري فقط! في الممر صادفت الست شفيقة أم عبد الله. من أين أنت ياأختي؟ من كفر حارم! من كفر حارم؟ قرب النقيب وفيها أصحابنا البهائيون! وأصحابنا! من تعرفين منهم.. وجدت شفيقة نفسها تدخل غرفة عبد الله

www.alkottob.com

وتطمئن عليه وتشجع أمه. لو رأيت زيادا وقت أتيت به في الصباح، لقلت إنه ميت! لاتخافي على ابنك! ما شاء الله، دقي الخشب، وجهه كالورد!

ركب عبد الله مع أمه زورقا صغيرا عبر به بحرة طبرية. وعاد إلى كفر حارم معافى. عندما رجع الثوار بعد أسابيع، ناداه أبوه: تعال ياعبد الله، اشكر الإخوان الذين حملوك إلى طبرية! يجب أن يتعلم الولد أنه مدين بحياته للناس والدنيا وهو يعتد بكرامته، كي يفيهم بخيره ويفيها! كان عبد الله يجلس قرب الباب في مضافة أبيه ليستمع إلى حديث الرجال ويكبر بهم تحت عيني أبيه. لكن هاهو أبو محمد يدعوه ليجلس إلى جانبه، ويكشف له فرحه بشفائه. ثم يستمر حديث الرجال عن الإنكليز والثورة والأسلحة. تلزمنا أسلحة، ياأبا عبد الله!

نزل أبو عبد الله في الصباح إلى دمشق. كان يقصد مقهى الكمال الشتوي قرب البلدية كلما نزل إلى دمشق، ويلتقي هناك برجال العشائر. سيجده في المقهى من سيأتمنه على السلاح! كاد يبتسم، فما أغرب أن يكون ذلك قرب "الداخلية" التي تواجهه! ما أغرب ذلك؟ لا! لا يملك المحتلون حتى من يعمل في ذلك البناء!

طلب كأس شاي بالقرفة لضيفه. من كان يستطيع أن يخمن أني سألتقي بك، هنا؟ الزمان، ياأبا عبد الله! همس: الأسلحة جاهزة! لكن انتبه! يشد الفرنسيون قبضتهم الآن، اتفقوا مع الإنكليز لأنهم يخافون من هتلر. تتجمع الإشارات إلى حرب كبرى! مصلحة الفرنسيين أن يتفقوا مع الإنكليز!

لم يتردد عز الدين الشركسي صاحب المزرعة الواسعة التي يتوسطها بيت صغير، على بعد خطوتين من الحمة، في نقل السلاح مع أبي عبد الله. لديه سيارة أمريكية كبيرة! صف السلاح في صندوقها وغطاه بشادر. ركب أبو عبد الله إلى جانب عز الدين. وفكر في الشهامة. لماذا تنظر إلي هكذا، ياأبا عبد الله؟ أتفرج على ملامحك الشركسية! الخدان العريضان المرتفعان، والبشرة البيضاء المحمرة، والعينان اللتان تغيبان إذا ضحكت! هل يثق عز الدين بأن المتطوعيين الشركس لن يوقفوه في الطريق؟!

فكر أبو عبد الله في الشهامة! لاتستوقفه هذه الصفة في نفسه أو في من حوله، فهل ينتبه الإنسان إلى أنه يتنفس؟! لكنه يقيس بها الغريب ليصوغ حكمه عليه! بهذا المعيار قرر أن "الشاب" الذي يسهر مع اليهوديات منحط، دون شهامة، خارج عن أهل البلاد! فكانت الشهامة تساوي الشرف! وكان حكمه صارما! لاتردد فيه أبدا!

www.alkottob.com

ذات ليلة طرق ذلك الشاب باب أبي عبد الله قادما في سرعة من طبرية. ياخالتي، يجب أن يبتعد عمي أبو عبد الله عن البيت في هذه البرهة! الإنكليز قادمون ليعتقلوه! اختفى الشاب. ونظرت أم عبد الله إلى زوجها متسائلة، هل مازال يرى هذا الشاب دون شهامة؟ ابتعد أبو عبد الله عن بيته، ونجا من المعتقل يومذاك. رسم خطا حول ذلك الاستثناء المقلق. لكن أم عبد الله انتبهت إلى أنه مازال يتفادى ذكر "الشاب"، لكنه لايرميه بالصفات التي تعود أن يرميه بها.

لف أبو عبد الله سيجارة وقدمها لعز الدين. لو يستطيع أن يدلل هذا الرجل الشهم بأكثر من سيجارة "لف"! خرج الرجلان من دمشق في الوقت الذي عين لهما. قبل أن تنصب مخافر المراقبة على الطريق. تبين أبو عبد الله موهبة عز الدين في تخمين مزاج المخافر من حركة الطريق. وتبين أنه معروف كصاحب مزرعة ألفوا أن يحمل ما يلزمه لمزرعته. كانت لديه سلال من فواكه مزرعته وخضارها يوزعها في عودته، فلماذا لا يرحبون به وهو ذاهب إليها! راقبه أبو عبد الله وهو يتحدث مع رجال المخفر الذين استوقفوا سيارته، وبدا له أنه أطال الحديث معهم. كم بدت الدقائق طويلة! المشكلة ياأخي عز الدين، أن ينبت فجأة أمامنا فرنسي لايعرفك!

وراء عز الدين، خاله صبري العسلي، أبناء العسلي الشهداء في الثورة السورية! وراءه سنوات نقل فيها أسلحة، وخبأ أسلحة! استقبلت مزرعة عز الدين المتطوعين الذين التحقوا بالقاوقجي في سنة 1936. أنزلهم كعمال في مزرعته. خبأ أسلحتهم في المغاور القريبة منه. وستره أصحابه وأبناء جنسه. لكن الفرنسيين سيعتقلونه سنة 1939 مع الوطنيين! وسيعتقل الإنكليز أبا عبد الله وينقلونه إلى بيسان! فهل سيقول إن الحدود التي رسمها الفرنسيون والإنكليز أطياف غير موجودة؟ أم سيشعر بالبرهان على وحدة السوريين في الروح؟

في سنة 1948 عندما احتلت فلسطين وأعلنت المستوطنات دولة ذات جنسية غريبة ولغة غريبة، ثبتت الحدود الوهمية وصار اجتيازها مستحيلا، فطويت بلاد الشام التي استمرت رغم الانتداب حتى تلك السنة. وسيصل أهل عبد الله كمهجرين إلى درعا، وسيتفرق في سورية أهل القرى التي كانت على شاطئ بحيرة طبرية.

في نيسان سنة 1967، قبيل حرب حزيران، سيقصف الطيران الإسرائيلي مزرعة عز الدين. وسيجعل البيت الذي بني فيها كومة من حجارة. وفي حزيران سنة 1967 سيحتل الجيش الإسرائيلي الجولان، وستصبح مزرعة عز الدين أرضا

www.alkottob.com

سورية محتلة. سيتذكر عبد الله الثوار والمزرعة والسلاح، وسيبحث عن جمعية المقاصد ويتبرع لها بعشرة آلاف ليرة! لعله يعين المهجرين أصحاب البيوت والمزارع والقرى التي عبرها في طريقه إلى طبرية! وسيتمنى أن يصادف عز الدين، وهو يعرف أنه لو رآه لهرب من الخجل!

www.alkottob.com

رجع زياد إلى أمه بعد شفائه. قالت لها شفيقة: سأبقى يوما واحدا في عكا لأنجز شغلي، دلّلي زيادا في غيابي! تدلّله؟ بعد ساعة نسيت سعاد خالتها، وضاقت بابنها لأنه تبعها من غرفة إلى أخرى. ما به؟ يريد مرة ماء، كأنه نسي أن يشرب بنفسه. ويطلب مرة أن تقشر له برتقالة. ويسألها مرة: ألا نزور أبي. قالت له: لا تطلب مني شيئا يازياد! روحي وصلت إلى أنفي!

رفع رأسه وتأملها. رجع مع الست شفيقة من طبرية. وستستعيده الست شفيقة بعد زيارة ابن أخيها. فهل ضاقت به أمه؟ فهمت سعاد بعد برهة نظرته. تركت الخضار التي تقطعها وأمسكت بيده ومشت إلى الديوان. أجلسته قربها. لا تؤاخذني ياحبيبي! نظرت إلى عينيه. ما أوسعهما! رفعت كفها إلى صدرها. كأنما وخزتها شوكة! خيل إليها أنها لم تعش معه طفولته. لم تغن له كالأمهات كل ليلة جالسة على طرف سريره. لابد أنه رأى منور في دمشق تجلس كل ليلة على طرف سرير ابنها وتحكي له حكاية أو تحكي معه حديثا طويلا لا يتبينه من يراهما من النافذة وهو يعبر الداور أمام غرفة نوم معتصم! لابد أنه رأى منور في الضوء المتسرب من خارج الغرفة ولمح يدها على شعر معتصم، وخمن أن بينهما سرا! ولابد أنه تحسر لأنه يفتقد إلى ذلك الحنان المسائي! بدا لسعاد أنها لم تحتضنه بل حملته أو جرته من يده معها في زيارة المعتقلات التي سجن فيها أبوه. كأنها قررت له مبكرا أن يكون كالرجال المعذبين. لم يفتها حنان منور وبهاء عليه يوم زارت دمشق خلال مؤتمر بلودان. خصّه بهاء بالنزهة، وأطعمه "فوسفاتين" اشتراه من صيدلية ميشيل في أول حارة قولي في سوقساروجا، ورسمت منور اسمه على الكعك الذي خبزته. في بيت منور عرف حنانا لاوقت له في بيت أمه وأبيه. وعندما رجع من دمشق كان مكتنزا مورد الوجه. هل غاب عن سعاد حزنه يوم ودع منور وبهاء ومعتصما حتى قالت منور: اتركيه عندنا في الشام؟!

www.alkottob.com

تنهدت سعاد. ليست له طفولة، ولكن هل هذا ذنبها أم هما معا ضحيتان؟ هل تستطيع أن تفهمه سبب غضبها منذ الصباح، فتغرقه في مايجب أن تبعده عنه؟ أتقول له ما كان ينقصني اليوم إلا هذه الأخبار! وضع الإنكليز فلاحين بين الحطب وأشعلوه فأحرقوهم! فتشوا شابا في الطريق فوجدوا في جيبه صورته وهو يحمل بندقية فقتلوه! وفي حيفا رش الجيش بالرصاص الرجال الذين يستمعون إلى حكاية عنترة في مقهى رويال. ينهون السنة ياولدي بقتل كبير!

آه، لا تستطيع أن تقول له ذلك! قالت: أتعبني تقطيع الخضار. هل تساعدني؟ ملأت وجهه ابتسامة. ومع ذلك خيل لها أنه لم يبتسم كما يبتسم الأطفال. تفكرين ياست سعاد بالهموم البعيدة عن بيتك ولا تنتبهين إلى هموم هذا الصغير! نقلت سعاد الخضار من المطبخ على طبق، وضعته بينها وبين زياد على الديوان، وقالت له: قطّع أنت الفاصولياء! هل تحب الفاصولياء بالزيت كما تطبخها الست شفيقة؟ روى لها زياد شيئا آخر. يعجبه طعام الست شفيقة، لكنه لا يحب حرّ طبرية! سهرت الست شفيقة عليه مرة وهي تحرك مروحة من القش على وجهه. لكنها في يوم آخر أغلقت النافذة ومنعته من عبور عتبة البيت إلى الحديقة لأنها سمعت فحيح حيّة. قالت: مسكينة، تفحّ من الحرّ! رأى الحيّة من النافذة. كم طولها؟ مقدار نصف الشجرة! سألته سعاد وهي واقفة: قتلوها؟ رد بإشارة من كتفيه وملامحه. لا يعرف! تذكرت سعاد الحيّة التي رأتها في حديقة قدري مرة. طبرية أمّ الحيّات! فكيف أترك ابني فيها؟ لن أرسله مع الست شفيقة!

أبقت سعاد ابنها قربها طوال اليوم، كأنها فرحة بنجاته من لدغة الحيّة. لم تكرر لنفسها ما يقوله الناس: لا تؤذي الحيّة من لا يؤذيها. في الليل جلست على طرف فراشه كما تجلس منور على طرف فراش معتصم، وحكت له حكاية عنترة التي لم يسمح الإنكليز للناس بأن يسمعوها في مقهى رويال. اخترعت لعنترة شجاعة لا يستطيعها إنسان. أطلقته على الفرس، وأنشدت شعره الذي أنشده سعيد لها ذات يوم. وأدهشها أنها تحفظ ما ظنت أنها نسيته. هل ضاقت في البداية بالجلوس إلى طفل صغير في الليل وهي تحتاج أن تجلس إلى نفسها؟ هاهي تتبين أن زيادا أعاد إليها صباها ونزهتها مع سعيد والشعر الذي غناه لها وهما في التريلاّ وفوقهما سماء واسعة وحولهما أرض شاسعة! وهاهو يجعلها تفكر في عنترة كأنه شخص حي! غضب عنترة لأن عشيرته لم تعترف به، فابتعد وقال فلتدافعوا عن أنفسكم دوني! لكن ضميره لم يسمح له بأن يرى الناس يهزمون والنساء يحزن، فهرع إليهم. تحرك جفنا زياد، ففهمت سعاد أنه يستمع إلى الحكاية مغمض

www.alkottob.com

العينين ليشجعها على الحديث إليه. كانت سعاد تجري مبتعدة عن الأحزان، وتتبع الحب الحزين تحت سماء واسعة في صحراء تختلط أحيانا بمدى فلسطين وإلى جانبها في التريلاّ سعيد.

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ياربي، ما أحلى عنترة! هل شعرت بأنها قوية به؟ هل ستقاوم الحاضر به؟ تنهدت: أتى الانتداب ليحضّرنا؟ كان يفترض أن يحترم الناس الذين يخزنون مثل هذا الشعر! هل تستطيع أن تنقل لزياد ذلك المدى الذي تذكرته الآن وهي تسترجع ما أنشده لها أخوها بصوته الرخيم الحلو؟ هل تستطيع أن تسكب عليه الفرح الذي عاشت فيه رغم أحزان أهلها، يوم كانت هذه البلاد أرضا متصلة من بيروت إلى دمشق إلى حيفا، ليس فيها إنكليز ولا فرنسيون؟ آه، آه! أيمكن أن يسلب الناس الفرح، وأن يخرب الحياة إلى هذا الحد انتداب هنا وانتداب هناك؟ كيف تفهم زيادا أن الدنيا لم تكن دائما كما يراها اليوم، وأننا كنا نغني ونرقص ونفرح في الأعراس ونجلس في حديقة البلدية ونشوي فيها اللحم ونأكل "الدوندورما"؟

لمست شعره كما لمست منور شعر معتصم في تلك الغرفة في الفوقاني في دمشق. لو لمحها أحد الآن لبدت له كما بدت لها منور من النافذة في الشام. ربما تجلس الأمهات في الأزمنة كلها هكذا قرب أطفالهن! لكن سعاد حرمت من هذه السعادة، أو من هذا الواجب الذي تضيق به الأمهات أحيانا! عندما شعرت بأن زيادا غفا بقيت قربه زمنا. تأملته، وبدا لها جميلا جدا. غمرها حزن عليه وعلى نفسها. لكنها فهمت أنها غسلت روحها بانصرافها إليه. نهضت على رؤوس أصابعها، ووقفت قرب نافذتها زمنا لم تقدّره، وهي تتفرج على النجوم. وكأنما نسل خيوطا من قلبها قلق ممزوج بالأسى. لماذا قدّر علينا، يارب، أن نبتلى بهذه المصائب ونضيع عمرنا في البكاء على القتلى وعلى السجناء؟ نلبس السواد إذا مات رجل في الحي، ونحزن على مصيبة في المدينة، ونفرح لعرس فيها، فهل يعاقبوننا بتجمعنا في الأفراح والأحزان؟ أيقولون لنا تناسب العقوبات الجماعية عاداتكم واجتماعكم في التآلف وفي حماية الضيف وستر الثوار؟

ركبت سعاد حصان عنترة. لو تستطيع أن تتناول قوته الأسطورية لتدافع عن الجالسين في مقهى رويال! بحثت في ذاكرتها عن المقهى ووجدته. مقهى من المقاهي التي يجلس فيها الرجال كما كان يجلس خالد آغا في مقهى سوقساروجا!

www.alkottob.com

مقهى قد يكون أبوها جلس فيه مرة، وقد يكون أخواها سعيد ونوري مرّا به! ربما كان يومذاك يحمل اسما آخر! لكن الكراسي القش فيه بقيت كما كانت، والطاولات ذات القواعد المعدنية بقيت كما كانت. كانت أكواب الشاي على صفحة الرخام، وللمعلقة الصغيرة رنين رشيق خلال تحريك السكر. كان الحكواتي يصول أمام الحاضرين على الفرس التي ركبتها سعاد وهي تروي الحكاية لزياد، كي يردوا القهر بعنترة الأسطوري! كي يشعروا بقوة الماضي التي تغرسهم في بلاد واسعة متصلة! فهل قصد الإنكليز أن يفهموهم أن رصاص الحاضر يطلق حتى على الأسطورة، واعتقلوا أمامهم فرس عنترة؟

قالت سعاد في قهر: ياإنكليز، لن تقتلونا كلنا! نحن معكم والزمان طويل! وأرعشها أن تعترف بأنها سترسل زيادا إلى طبرية ولو كانت فيها حيّات، لتنشغل بالمعتقلين ورسائلهم. وهل يجوز أن تخمن حتى بنات العكي، صاحباتها، أنها مكلفة بنقل رسالة إلى الثوار كلما طلبت منهن أن يحرسن ابنها؟

في غرفتها المعتمة انهمر عليها الحزن. نعم، هناك أزمنة للحزن وأزمنة للفرح! لابد أن الحزن يتسرب إليها من الهواء. هاهي تودع سنة 1938. في حساب الثوار هذه السنة ملأى بالانتصارات. نفذ الثوار خمسة آلاف عملية تقريبا. واحتلوا مدنا وقرى وبقوا فيها ساعات وأحيانا يوما. أفهموا الإنكليز أنهم يملكون بلدهم. لكن المحاكم العسكرية أعدمت مائة وخمسين رجلا. واعتقل خمسون ألف رجل!

قالت سعاد لنفسها: سددنا ثمن حتى ما سجلنا أنه انتصارات! سددناه بحياتنا وبيوتنا. ومع ذلك لم نغلق الحسابات بعد. وهل ستغلق ذات يوم قريب؟! ربما تكون هذه البداية فقط! أسندت رأسها على زجاج النافذة وتبينت، صدفة، في السماء هلالا نحيلا. وعندما حدقت فيه أدهشتها قوة ضوئه، وبدا لها أن السماء ذات لون فضي حوله. لكنها استدارت عن النافذة وأنزلت الستائر. كأنها تخمن ماستحمله لها الأيام القادمة.

www.alkottob.com

وجدت سعاد رسالة تحت بابها بخط عبد الرحيم. يطلب منها أن تزوره في سجن عكا: قولي إنك أتيت لتزوري رجلا من بيت فارة. يتنزه بين المعتقل وبين سجن عكا؟!

الله يسامحك، ياعبد الرحيم! تذكرت حكاية الجزار التي يتناقلها أهل عكا، كأن الجزار شهريار! كان عقيما فوجد إحدى زوجاته حاملا. وكانت لديه أربعون امرأة. فقتلهن في يوم واحد مقهورا من خيانة تلك الزوجة، ودفنهن في سور عكا. لو تستطيع سعاد أن تستدعيه من الحكاية لتقول له تفرج على نساء عكا! نطبخ ونحمل الطناجر إلى المعتقلين، وعلى أذرعنا أطفالنا!

ذهبت إلى السجن. سألها الشرطي: لمن الزيارة؟ نسيت الاسم! يبدو أن المصائب ضيّعت عقلها! قالت للحارس: جردون! فابتسم من دعابتها: تقصدين فارة!

رأت عبد الرحيم نحيلا لكنه يظهر الرضا. سجن عكا عزّ، ياسعاد! نقل إليه لأنه مريض. وفحصه الطبيب. في هذا السجن يستقبل المعتقلون أهلهم. لا تفصل الأسلاك بينهم وبين الزوار، وليست بينهم خمسة أمتار، فلا تتشابك الأحاديث بين رجل يسأل عن البقر وآخر عن الدجاج وثالث عن الأولاد وآخر عن الغلّة! المشكلة فقط أن التهوية من السقف! قالت له: محظوظ! لذلك بلّغت من سأل عنك: ينزل الآن في سجن عكا! وسأنزل إلى الشام لأزور أختي!

لم تقل لعبد الرحيم إنها تتمنى أن تستريح في بيت أختها في الشام، وتترك أمه لزوجة أخيه. لا تشكو من أمه. سيدة مهذبة. لسانها حلو: الله يرضى عليك ياسعاد اسقيني! تسلمي لي أطعميني! ياروحي مشطيني! سعاد المدللة في بيت أهلها وقعت عند من يحتاج أن تخدمه! لاحل إلا بأن تسافر إلى بيت أختها! هل تقول لعبد الرحيم ساعدني أخوك في غيابك في المعتقل فأرسل لي شوال قمح بدلا من أن يرسل لي كيس طحين! وهل عندي وقت لأنقي القمح وأغربله وأرسله إلى

www.alkottob.com

المطحنة؟! قال لي يومذاك: من يعمل لك الخير لا يلقى شكرا!

انتهى العزّ وأعيد عبد الرحيم من سجن عكا إلى المعتقل. ولم تحقق سعاد أمنيتها بالسفر إلى الشام. المعتقل برّاكات من خشب وتوتياء، ينام فيها المعتقلون على حرامات عسكرية ومخدة من القش تنبش في التفتيش اليومي! فأين سعاد التي قالت لعبد الرحيم: محظوظ!

في تلك الأيام زرع الثوار ألغاما في الطرقات التي يمر فيها الجيش الإنكليزي. انفجرت بعض سياراتهم العسكرية. فاختاروا باصا مليئا بالركاب وساروا خلفه. طار الباص. وروي لسعاد أن أم السائق جمعت بعض أشلاء ابنها. أضربت الباصات بعد تلك الحادثة. فاختار الإنكليز بعض المعتقلين وأركبوهم في سيارة عسكرية تتقدمهم، ليمتحنوا بهم الطرقات. وكان عبد الرحيم في إحداها.

وضعت سعاد الطعام لعبد الرحيم وأصحابه المعتقلين في قفة من القش. وانتظرت استعادة القفة لتفتق الجلد في أسفلها وتخرج الرسالة التي يفترض أن يدسها عبد الرحيم. لكن القفة لم تعد والرسالة لم تصل. وصل شرطي عربي وضع رسالة تحت بابها. كتب فيها عبد الرحيم ما حدث. أركبوه مع بعض المعتقلين في سيارة سارت إلى الدبوية. أخرجوا المعتقلين من السيارة في المركز العسكري، ودفعوهم إلى الجبال. صفّوهم وقال لهم ضابط: قتلت كلابكم خمسة وعشرين إنكليزيا اليوم! وسنقتل منكم كل يوم مثل ذلك العدد! رد عبد الرحيم: نحن معتقلون، وأنتم مسؤولون عن حياتنا! ابحثوا عن سبب الألغام في الهجرة اليهودية! رد الضابط: اسكت! تظن أنك في محكمة؟! صفّوا المعتقلين وسددوا إليهم. فتدخل ضابط قال إن أصله ايرلندي، ومنع قتل المعتقلين. قال عبد الرحيم فيما بعد لسعاد: عندما سددوا البنادق إلينا فكرت في أني أتركك دون إخوة ذكور، مع طفل! فردت عليه ساخرة: في مثل تلك البرهة لا يتذكر الإنسان أحدا! كتب عبد الرحيم في الرسالة: أعادونا إلى السيارة، وعندما وصلنا إلى البلد صرخنا، ياأهالي عكا نحن فلان وفلان وفلان.. أخذونا ليعدمونا في الجبل!

انتشر في المدينة أن المعتقلين نادوا الناس من السيارة العسكرية. وفكرت سعاد في وصية عبد الرحيم: اعملي ما ترينه مناسبا! تساءلت هل هذا ضعف رجل خاف من الموت؟ ردت على نفسها: حقه! المعتقلون بين ألغام الثوار وبين رصاص الإنكليز! يجب أن ننقذهم! ستزور الشيخ أسعد، أكبر رجال عكا!

هاأنت ياسعاد وسط فرق متعارضة! بين الشيخ أسعد الداعية إلى الوحدة الإسلامية، واللجنة العربية العليا التي تعتمد على المحيط العربي والملوك العرب،

www.alkottob.com

والثوار المسلحين في الريف الذين يسندهم الفلاحون وفقراء المدن والوحدة المسيحية الإسلامية!

ما يزال الشيخ أسعد المؤمن بالوحدة الإسلامية، يدين خطأ العرب الذين عاونوا الشريف حسين وأعداء دينهم الإنكليز على الانفصال عن الدولة العثمانية. صحيح أن الألمان نزلوا في بيته في عكا، لكن اولئك المسيحيين خدموا الدولة العثمانية في عالم لابد فيه من سند اوروبي! الشيخ ضد اقتراح اللجنة الملكية التي أوصت بتقسيم فلسطين وتخصيص اليهود بمدينته عكا. لكنه لا يحترم بعض معارضي تلك التوصيات، كصبحي الخضرا. وقد لا يحترم المفتي نفسه.

قالت سعاد لتقية: أتيت لأقابل الشيخ. فأدخلتها تقية إلى الديوان ذي القناطر. أمامها البحر. في الديوان مجموعات من المقاعد، في كل مجموعة منها كرسي خاص للشيخ أسعد. يتنقل بينها عادة ليتحدث مع زواره. منذ الغروب تمتلئ المضافة بالناس.

روت سعاد للشيخ ما يعمله الإنكليز بالمعتقلين. فسألها: تطلبين أن يخرج زوجك من المعتقل؟ زوجك من أهل صفد الذين بلعوا وظائف عكا. ناظر الأوقاف علي رضا، الخضرا مدير التسوية، الشيخ أسعد قدورة قاضي عكا. ألا يوجد في عكا من يستحق تلك الوظائف؟ ومن صبحي الخضرا؟! بهلوان، سيقع من الحبل الذي يرقص عليه! تجمع زوجته الإعانات باسم مشروع القرش فأين تذهب بها؟ وراء زوجته عجاج نويهض، زوج أختها الذي يكتب قصائد يغنيها الثوار. قالت له سعاد: قتل الفرنسيون أخاها. نعرفه أنا وعبد الرحيم. وطني مخلص. يعرف الشيخ أسعد أنها من بعقلين في لبنان، وأن الخضرا أحبها وتزوجها. وصبحي الخضرا؟ رجل وطني ذكي وسيم، محدث، مثقف، أحبه الملك فيصل. سيعيش في دمشق بعد احتلال فلسطين، وسيحاربه صغار الناس فيتهمونه، هو الذي أحرق اليهود بيته، بأن اليهود بنوا له بيتا في نهاريا. فيدافع عنه القوتلي. وسيبني القوتلي من ماله الخاص قبره في الدحداح! لماذا يقودها الشيخ إلى هذه التفاصيل؟ قال: أقدّر أنك أتيت إلي! فزوجتي لم تطلب من أحد أن يفرج عني يوم اعتقلني الإنكليز! فهمت سعاد أنه يقصد أن يجرحها. قالت له: لو كان زوجي وحده في المعتقل لقدمته لبلاد العرب كما قدمنا إخوتنا وأهلنا! لكن رجال البلاد في خطر! قاطعها: تقصدين جماعة الحاج أمين؟ ردت: زعماء البلاد! هل سخرت نظرته إليها من "زعماء البلاد"؟ قال لها: بنات الدوماني يصاحبن الضباط الإنكليز. في أيديهن أن يخرجن زوجك من المعتقل. يعني هذا أنه لن يتوسط لعبد الرحيم لأنه من

www.alkottob.com

خصومه! وبالنصيحته! بنات الدوماني مشبوهات يتصلن بالإنكليز. فماذا ينجيها من الثوار؟ سيقال زوجها في المعتقل وهي تمشي في الطريق الخطأ! لن أذهب إلى بنات الدوماني ولو بقي عبد الرحيم دهرا في السجن!

هل باح الشيخ لسعاد بما في قلبه؟ وهل أتت سعاد لتسمع هذا؟ قالت في نفسها: لئيم! لم يفوت على نفسه لوم زوجها لأنه يراه من جماعة الحاج أمين. قال: هل يظن زوجك أنه يستطيع أن يقاوم حكومة؟ فتساءلت سعاد: هل مال الشيخ إلى الإنكليز؟ قال: الرجل العاقل لا يقاوم الحكومات بعرض كتفيه! لا يمكن أن يحب الشيخ أسعد الإنكليز الذين كسروا شوكته وطووا جماعته. لكن الثوار اليوم هم مثل الوطنيين الذين شنقوا ووقع على شنقهم في أيار. متمردون على النظام. ودون نظام لا تقوم البلاد. ألم تسمعه يردد ذلك في ندواته في شرفة المضافة؟! يبدو أن ولاء الشيخ أصبح للأمير عبد الله!

خشيت سعاد عندما قررت أن تطلب وساطة الشيخ أسعد، أن يتصور أنها أصبحت أسيرة هيبته. وكادت تقول له ينفتح وجه واحد من بيتك للزائر الغريب ويحيط الحلم بأجزائه الأخرى، فيضفي الأبهة على أصحابه. لكني أعرف خفاياه. أعرف حتى جناح الخدم. ألفت صالاته الواسعة، وأعرف أن فرشها من استنبول. لم أعد أنتبه إلى الطاولات المغطاة بمفارش مطرزة. وإلى الساعات والرخام البديع والثريات الكبيرة الفخمة! لم تروّضني هيبتك!

بلّغته كمن يتخلى عن وساطته: أفضل أن أترك البلاد وأرحل إلى أختي في الشام! فاجأها: سيؤمن لك ابن ماميش جواز السفر! هل قالت لنفسها في تلك البرهة: ما أخطر أن يلجأ الإنسان إلى شخص لا يستحق ثقته! ولكن هل يعرف الرجل إلا في الأيام الحاسمة! وقت الضيق تبدو شهامة الرجال، فيخسر الإنسان الأصدقاء والجيران أو يربحهم!

أمر الشيخ ابن ماميش أن يساعدها. لم يقصد أن يرسل رجلا سيئا إليها. لكن هل يسوس رجاله! قد يوجد رجل نذل يحاول أن يصل إلى امرأة طار صيت جمالها.

مشت سعاد المسافة بين بيت الشيخ وبيتها على شاطئ البحر، وهي تبكي من القهر. تذكرت الأغنية الشائعة: عللومة اللومة اللومة، بيضا وشقرا ومهضومة! ما أحلى أن تكون آخرتها في بيت الدوماني! رأتها بنت العكي محمرة العينين. ما بك؟ ردت: مريضة! اطلبي لي أنورا!

قبل أن يصل أنور وصلتها القفة، فكت الجلد ووجدت رسالة: "اذهبي إلى

www.alkottob.com

أبي درة وأفهميه ما يحدث ليصحح الثوار طريقة العمل".

أتى أنور. وضع على الأرض محفظته الطبية. لمح أثر الدموع في عينيها. فترك السماعة معلقة على رقبته. سألها: خير؟ نصحني أبوك أن أذهب إلى بنات الدوماني ليصلنني بالضباط الإنكليز! جفل أنور: إياك! تناول يدها وقبلها: أرجوك لا تذكري ذلك لأحد. ياست سعاد، أعيش مع أبي في بيت واحد لكني لا أرى بريده. ولا أريد أن يعرف أين أتحرك. برئيني من ذنوبه. لا أمشي في طريقه! في الليل أداوي الثوار في الجبال، وأداوي جرحى عكا، ولا يعرف أبي ذلك. أرجوك لا تنقطعي عن أمي وأختي. ويجب ألا يلاحظ أبي أنك رفضت نصيحته! قالت له سعاد: طلب مني عبد الرحيم أن أتصل بأبي درة. دبر لي اللقاء به!

هاهو صديق سعاد في بيت الشيخ أسعد نفسه! حقا، تلد الشوكة وردة! لم يخب ظنها في أنور ففي كل مرة كان يدخل ليقبل يد أمه في حنان كانت سعاد تشعر بأنه شاب رقيق، وأن سمعة أبيه ثقيلة عليه. ترك أنور سماعته وشرب القهوة مع سعاد. يحتاج هو أيضا إنسانا يبوح له بما في قلبه. قال: يضر بي أني ابن الشيخ أسعد. يشك فيّ بعض الثوار! يظن بعضهم أني أساعدهم من الخوف. أخرج معهم إلى الجبل لأني مخلص لهم، مؤمن بالثورة على الإنكليز واليهود! أنت، ألم تشكّي في صدقي ذات يوم؟ هزت سعاد رأسها: أبدا! قال أنور ملوّعا: لو تعرفين كم يجرحني ألا يثق بي بعض الثوار!

www.alkottob.com

انصرفت أم عبد الرحيم إلى قراءة القرآن، وخرجت سعاد إلى بيت لبست فيه ثياب فلاحة وانتقلت منه إلى بيت آخر خرجت منه مع فلاحتين. في الطريق رافقها فلاح.

منذ طفولتها لم تركب بغلا. وهاهي تنزلق إلى ذيله في الصعود، وستنزلق إلى رقبته في النزول. يوصلها رجل إلى نساء ونساء إلى رجال وتسير في الجبال. أخيرا وصلت! هاهو أبو درة الذي يطلبه الإنكليز! رأت رجلا قصيرا رحب بها دون أن يقف لها. الله يمسّيك بالخير، الله يخلي صاحب الهمم! أجاب باختصار: "إن شاء الله منصورين"! سألها ماذا تطلبين؟ فروت له ما يفعله الإنكليز بالمعتقلين. سيفجرون بالألغام وجوه البلاد! أخطأت في الكلام؟ رأت على وجهه سخرية. هم وجه البلاد، ونحن أسفلها؟! سألها: ماذا تريدين؟ قالت: لا أريد شيئا. أنا موزع بريد، أوصلت لك رسالة المعتقلين! رد: رجالنا في كل البلاد معرضون للخطر! قالت: المعتقل ليس نزهة. من يرسل له أهله طعاما يأكل ومن لا يرسلون له لا يأكل. طعام المعتقل شوربا كالماء. شعرت وهي تتكلم عن المعتقل أنها تتحدث عن أمور صغيرة. هل تنتبه الآن فقط إلى أنها كمن ينفذ ما أراده الإنكليز؟ دفعوا أهل المعتقلين ليتوسطوا عند المسلحين كي يمنعوا زرع الألغام! قال لها: لا نلام لأن الإنكليز يعذبون المعتقلين! وماذا تعرفين عن تعذيب الفلاحين؟! يظلم الإنكليز البلاد كلها لا الذوات فقط. قالت: الألغام التي تضعونها في الطرقات خطرة على الإنكليز وعلى غيرهم. رد: تأدبي "يامرة"! غضبت! هي "مرة"؟! "مرة" ويخبئون عندها السلاح! قال بخشونة: واجبك، لا تمنّين على أحد به! قالت: ليت زوجات رجالكم كلهم يقمن بواجباتهن مثلي! أمامه امرأة متعلمة من المدينة شاطرة في الكلام، ولا وقت لديه. لو كنا نعيش بهذه النعومة هنا لما قامت الثورة ولما احتمل أحدنا الخطر والجوع والنوم يوما على الحجارة ويوما على التراب، بعين مغمضة وعين صاحية. سألها بخشونة: قطعت الطريق الطويل كي تقولي لي هذا

www.alkottob.com

الكلام؟ ردت: أنا زوجة رجل قسّامي، قصدتك لأبلغك رسالة! لم يؤثر فيه أن تذكر أنها تحمل رسالة من المعتقلين! أثر فيه أن تكون زوجة قسّامي. قال: أنت على الرأس. وإنشاء الله نشوف. تفضلي اشربي قهوتنا!

نعم، ليس كل من لبس الطقم رجلا من رجال البلاد، وليس كل من لبس الحطة من الثوار! ذكرته بأنها سندت نداءه يوم طلب قادة الثورة من الرجال أن يلبسوا الحطّة ويتركوا الطربوش! قالت: أنشدنا يومذاك "اشلح، اشلح هاالطربوش، والبس، البس الحطّة، هيك بتعلّم الثورة". قال لها: سنفكر كيف نحمي رجال البلاد. وأشار: أطعموا الست وعودوا بها إلى بيتها! لم يقل الحرمة! ولم يقل "مرة"! ابتسمت: إن شاء الله، سأقول إني تشرفت بمعرفتك!

أكلت سعاد ما قدمه لها الرجال من لبن وجبن مع أن حلقها مغلق كأنه مسدود بسدادة. عيب أن ترفض الضيافة. انزاح حمل عن ظهرها. رمته على آخرين سيجدون حلا؟ أوصلت ما يجب أن يصل. لابد أن الخبر أتى من آخرين. لكننا نتصور أننا نعبّر تعبيرنا الخاص الذي لا يستطيعه سوانا. نحن الذين نستطيع مالا يقدر عليه الآخر! غرور؟ بل كي نؤمن بأننا يجب أن نتكلم ونشتغل! لذلك بدا لها طريق العودة أخف من طريق الذهاب وأقصر. مع أنها انزلقت عن ظهر البغل إلى رقبته. لكن كم أعجبت بالبغال التي تعرف الطرقات كأنها تشمها، وتستدير عن الوادي وتتفادى السقوط! سألت مرافقيها: ألا تخشون أن تدلّ البغال إلى الثوار إذا اعتقلت؟ رد رجل: نراقب بغالنا كما نراقب رجالنا!

قالت سعاد لنفسها وهي ملفوفة بالليل: لو كان القهر يقتل لمت من زمان! ترى هل جاع ابنها؟ وهل استطاعت شفيقة أن تخدم حماتها؟ وبدا لها أنها يجب أن تغبط عبد الرحيم: ليتني مكانه في المعتقل!

رجعت سعاد إلى البيت الذي خرجت منه. بدلت ملابسها ومشت إلى بيتها. وكتبت رسالة لعبد الرحيم. دورت كلماتها وغلفتها كي يفهمها هو فقط. لا تجهل أن الإنكليز يحاكمون النساء اللواتي ينقلن خبرا أو رسالة للثوار.

نقل لها الناس التفاصيل التي لم يستطع عبد الرحيم أن ينقلها إليها. صاح المعتقلون من السيارة: ياأهل عكا، أخذنا الإنكليز ليعدمونا في الجبل! أخذوهم إلى المركز العسكري في الدبوية. ركب منه ضباط. ثم إلى دير القاسي! أخرجوهم إلى الجبال وقالوا: سنقتلكم! سددوا إليهم البنادق. لكن ضابطا ايرلنديا تدخل ومنعهم. يلعبون بالمعتقلين؟ العمى في قلوبهم، المعتقلون رهائن؟ لا يعفّ الإنكليز عن ذنب! أعدموا الزير وجمجوم وعطا الله في سجن عكا وعشرات الشهداء بعدهم!

www.alkottob.com

ربطوا أذن فلاح وشدوها وصوروا كيف استطالت! كيف يستطيع هؤلاء الذين تعودوا أن يشربوا الشاي ويأكلوا البسكوت بعد الظهر في بلادهم، أن يكونوا متوحشين هنا إلى هذا الحد؟!

كانت شفيقة مشغولة بأمر آخر. تخيط الخام الذي قصته ملابس للثوار. وتغسله بعد الخياطة كي يكون طريا! سألتها سعاد: ياخالتي وهل ينامون على فراش من ريش النعام في الجبال؟! ردت بخشونة: ياست سعاد، ربيناك لتشتغلي كل شيء "من قريبه"؟!

أكانت سعاد تخمن أن الإنكليز سيعدمون أبا درّة وأنها ستبكي عليه؟ في سنة 1939 سيذيع رئيس الوزارة الأردنية في عمان بلاغا.. اعتقلت دورية من الجيش ثلاثة أشخاص أحدهم يوسف أبو درة من فلسطين، "وستدبر الحكومة أمر إقامتهم إقامة جبرية في الكرك"! لم يقيموا في الكرك! سلمهم إنكليز الأردن لإنكليز فلسطين!

www.alkottob.com

قالت سعاد لأنور بعد أيام: أردت أن أتخلص من بنات الدوماني فوقعت في ابن ماميش! ناداه الشيخ أسعد أمامي وطلب منه أن يعمل لي جواز سفر! فصار الرجل يدق علي الباب كل يوم، وأنا أسكن بين عائلات تخاف علي كأني ابنتها. نزلت إلى بيت خالتي في طبرية ورويت للست شفيقة القصة. أرسلت معي ابن خالي فصار هو الذي يفتح الباب لابن ماميش.

لن تغفر سعاد أبدا لنفسها أنها كتبت لعبد الرحيم عن ابن ماميش وقالت له: كان اليوم الذي قبلت فيه الزواج منك يوما أسود! عاد إليها الرد في بطانة القفة. "لن يزعجك المذكور! اهدئي، سيحاسب"!

بعد أيام طرق بابها رجل لا تعرفه، بشّرها: قتل ابن ماميش! وسيقتل كل من يتحرش بنساء الثوار والمعتقلين! عندما صحت سعاد وجدت ابنها زيادا يلمس وجهها، وحولها جيرانها. بكت طول الليل، ورجت الرب ألا ينتقم من أهلها وأقربائها! زارت عبد الرحيم في اليوم التالي لتقول له: أطلب الطلاق. لكنها في الطريق فهمت أن الأم ليست حرة كالمرأة العاقر. عزاها عبد الرحيم بالمقتول، فغضبت: لا تفخر بالنذالة! وقطعت زيارتها له.

لم تستطع أن تمسك دمعها أمام أنور في المساء. ما هكذا علمهم القسّام رحمة الله على ترابه! الحق معك، ياست سعاد! ربما أخذ ابن ماميش بأخطاء أخرى! لكن المصيبة تتجاوز قتله! يستخدم سلاح الثورة للانتقام، ياست سعاد. يصفي الإنكليز الوطنيين باسم الثوار! تصفى الثورة! فكر أنور في السلاح، وهو يسعف الجرحى ويفحص المقتولين. لمن يبوح بأن السلاح دون ضمير ودون قضية، مصيبة كبرى؟ يشتريه العرب بشق النفس ليمنعوا به الكارثة التي تنزل بفلسطين. ثمنه الحياة والقمح وحلي النساء، لكن بعضه يسدد إلى قلب الثورة الآن. تنفذ أحكام الإعدام بالمشبوهين. ويتسرب أيضا قتل آخر! أظن ياست سعاد، أن الإنكليز يقتلون الأبرياء ليلوثوا الثورة وينهوها! لكن اسمعي، زوري أبي

www.alkottob.com

غدا وبيّني له أنك حزينة على الرجل الذي أراد أن يساعدك! وقولي له إنك ستنتقلين إلى بيت خالك في طبرية! هزت سعاد رأسها. ستنفذ نصيحة أنور. ولكن في فمه كلام آخر. سألته ما بك؟ ليس هذا وقت الكلام! بل قل ما في قلبك، فأوقاتنا كلها هكذا! سألها: ما رأيك في بنت الحاج النابلسي؟ ابتسمت: تخطبها؟ نعم! لم تقبلني ثريا! لازلت تحبها؟ لازلت! لكن الزواج يقطع الحب اليائس! لا، إياك أن تتصور ذلك! سيعود أقوى مما كان عندما تشعر بأنك ضيعته! سيصبح جمرة طول العمر، ياأنور! وستعلق عليه كل ما تفشل فيه. كلما نقصتك السعادة ستشير إليه! وستقول إذا اقتربت من زوجتك، كان يمكن أن يكون هذا مع الحبيبة! لا تبحث الآن عن السلوى! انتظر حتى يهدأ القلب! قال لها: سأتزوج هذه، إذا عشنا، لأنها تشبهها! تأملته: إذا عشنا؟! هل كان يتنبأ بمصيره؟

أرسل أهله الألماس الذي سيقدم للخطيبة إلى أخت أنور المتزوجة في نابلس. لا تحتاج ابنة صاحب المصابن النابلسية المشهورة، الألماس! لكنه واجب وإشارة. قالت له سعاد: نزلت في بيت النابلسي مرات عندما كان عبد الرحيم يتابع أعمال الحاج. تعرف أنه وكيله! الصبية مهذبة وحلوة. تشبه ثريا التي أحرقت قلبك!

انصرف أنور. بينه وبين سعاد الآن ما بين صديقين. ستعوضه العروس عن حبيبة لم تقدّر أن الزواج منه حظ!

ضربت سعاد صدرها عندما قالت لها بنات العكي: البسي ملاءتك وتعالي معنا! قتل أنور! هبطت سعاد وجلست على الأرض. وصلوا إلى أنور؟! رغم الشر الذي رأته بقيت تتصور أنه لا يصل إلى المحرمات عليه! لم يمض نهار على خروجه من هذا الباب! قالت لها بنت العكي: طلبوه في الليل ليداوي جريحا من الثوار. وقتلوه في الطريق. من قتله؟ الثوار؟ الإنكليز؟ ضاعت الطاسة. لم تعرف سعاد أن لديها هذا المقدار من الدموع! ضيعت ملاءتها وجلست على أول كرسي صادفته وبكت! ياحبيبي ياأنور، لم تهنأ بشبابك! ولم نهنأ بك! هل كنت تشعر بموتك لذلك قلت لي "إذا عشنا"؟ لماذا لم أقل لك اقفل على نفسك الباب حتى ينصرف الموت! وقفت سعاد: خدم أنور الثورة أكثر ممن يحمل السلاح. كم مرة خرج في الليل ليداوي الثوار سرا! قتله الإنكليز كي يثيروا الناس على الثوار.

خرجت بنات العكي. ينتظرهن الحنطور في الطريق. سيخبرن آخرين ليكونوا في الصباح في بيت أنور. سعاد الآن حرة في البكاء. دخلت إلى المطبخ وبكت، بكت. ليتها تستطيع أن تندبه الآن كالندابات الماهرات. لتصف رجولته وتواضعه.

www.alkottob.com

لتذكر للسامعين دماثته ورقته. لتقول لهم إنه يكفر عن كل ما جناه أسعد شقير يوم كان مبعوثا ومفتيا للجيش الرابع وبقي على صلة بجمال باشا الذي شنق رجال العرب. ليتها تفهمهم أنه بتواضعه وبساطته كان أيضا يكفّر عن غطرسة أبيه. لو تستطيع أن تصف ما ضاع على الشابات اللواتي لم تتزوجه إحداهن! وما ضاع على أمهاتهن وآبائهن الذين لم يصاهرونه! لو تستطيع أن تستعيد المرات التي جلست فيها معه وهو بين أخواته يظهر لهن الحب، ويكتم ضيقه ببيت مثقل باسمه وتاريخه. لو تصرح عما خمنته من رغبته في التحرر من بيته وعن استحالة ذلك! وكأنما جاءت الثورة ليجد نجاته. فكان دائما في الليل قرب الباب كي يلتقط نداء رجل مجهول ينتظره كي يقوده إلى الجرحى البعيدين في الجبال والحواكير. سواء عرفنا من قتله أم لم يعرف فالرصاصة التي قتلته صوبت إلى الثورة!

سمعت سعاد نداء حماتها. هل شعرت بأن سعاد تبكي؟ سمعت صوت دموعها الصامتة؟ تسألها ماذا جرى؟ مصيبة! وستجر نفسها غدا منذ الصباح إلى بيته، وسترى جرحه الذي تجمد!

ليست أول أيام الثورات فقط صعبة. أصعب الأيام آخرها. إذا جمحت بانتصاراتها أو التفت بهزائمها. غروب الشمس جميل، لكن ما أبشع غروب الثورات والمجتمعات والدول! وقت يتفكك كل شيء، فتتفكك حتى روح الإنسان في بيته. وهاهي الثورة العظيمة التي بدأت بالإضراب العام، تغرب. بين عقوبات الثوار وعقوبات الإنكليز. وبين تدخل الملوك والرؤساء العرب المربوطين بالإنكليز.

روت لها بنات العكي أن أهله كانوا على باب بيت النابلسي عندما قيل لهم قتل أنور فرجعن إلى عكا. رمين المحفظة وما فيها على الأرض. ضاع الغالي فما قيمة الرخيص! لا يصدق العدوان على إنسان مثله، لا أعداء له. أتى رجل إليه وهمس: في البرج جريح من الثوار! هب أنور، حمل حقيبته وخرج مع الرجل. يقال إنه وجد رجلا آخر ينتظره فسار مع الرجلين. في مكان منعزل قتله الرجلان. وليّ عليكم، باسم الثورة تقتلونه؟ اسألوا الجرحى والقتلى عنه! كسرت أيديكم ياأنذال!

أتى الناس إلى بيت أنور. أتى محبو أنور. بانت وجوه لم تصادفها سعاد أبدا من قبل. من لم يداوه أنور، وأي إصبع لم يربطه بالشاش! رأته سعاد على سريره وحوله أمه وأخواته. قتلوا العريس! رشت النساء الماء على أمه مرات. فقدته أنت؟

www.alkottob.com

فقدناه نحن! أحرقوا قلبك، أنت؟ أحرقوا قلوبنا! بكت النساء على أنور. هل سمعهن الذين قتلوه؟ لا، في الدنيا قسوة لاتنفذ إليها الرحمة! لعل سعاد فهمت أول مرة في عمرها وصايا الآيات القرآنية بالرحمة!

دفن أنور في مقبرة النبي صالح في عكا. وأية جنازة كانت له! لا أحد يبكي هكذا إلا على محبوب! لطمت نساء لا تعرفهن وجوههن. ولولن وبكين. تركت سعاد بيتها للست شفيقة التي أتت من طبرية، وبقيت مع أم أنور وأخواته، لابسة الأسود، نائحة مرة وطالبة منهن أن يقبلن القدر مرة. ذهبت إلى المقبرة معهن. ورأت الشيخ أسعد هناك. رأته يبكي أمام الناس ويردد: أسعد يبكي ياأنور! أتعرف معنى ذلك؟ يعلن الشيخ أنه لم يعرف في حياته كلها الدموع! يعلن انهياره! انتهت الأيام التي كان الرجال يبكون فيها أمامه أبناءهم وهو أمامهم لا يلين ولا يشعر بحرقتهم!

في اليوم الثالث خرجت سعاد مع أهله إلى المقبرة في الصباح. وجدن القبر منبوشا وعليه ورقة مكتوبة: "لم نعمل بعد ما يكفي"! غضبت عنهن، فالحزن لم يترك لهن قدرة على الغضب. نقل أنور إلى حديقة البيت الواسعة ودفن فيها. أتى الناس حشودا ليزوروا القبر طول ذلك النهار. لايأتي الناس الآن خوفا من الشيخ. من يخاف الآن شيخا هدمه الحزن! أتوا لأنهم يحبون أنور! بقي المأتم في البيت، والقبر قائم أمام أهله طول النهار! لحقت سعاد الخانم إلى غرفتها. فرأت على السرير تلغرافات أحدها باسم المحمصاني: "تيمّن بالخير ياأسعد"! خفق قلبها: رأيت فاطمة المحمصاني ترفع صورة أخويها في عيد الشهداء في نافذة بيتها. والناس يمرون ويلتفتون كأنهم يقيمون معها المأتم. امرأة شهمة، من أسرة لا يمكن أن تتشفى! غضبت سعاد: زوّروا الثوار هنا، ويزوّرون شهداء أيار؟! وصلت تلغرافات أخرى رأتها سعاد على السرير. قبّلت الخانم. ماذا يمكن أن تقول لها عن الشر والانتقام! فهمت سعاد أن الكره يجب ألا يكون أعمى. يقال الحب أعمى؟ كل عاطفة يجب ألا تضيع بصرها وبصيرتها كيلا تكون وحشية هوجاء! يوهموننا أنهم ينتقمون من أسعد شقير بابنه الذي يفضله على إخوته؟ يصيبون الشيخ أسعد بأحب إنسان لديه؟ أنور موهوب وشهم ورقيق! ياأشرار، اجتمعنا في الألم مع الشيخ أسعد! من قتله فوضعنا أمام التساؤل المرّ: هل هم الثوار أم الإنكليز؟ همس بعض الناس في جنازته: "قولوا لاتاخذ الولد بجرايرِ والديه، ولا الطير بجرايرِ صاحبيه"!

في تلك الأيام سيجد بيت الكرد الفرصة مناسبة كي يزوجوا أخاه من قريبتهم

www.alkottob.com

في الشام. فأهل أنور بعد موته ضعفاء، وأخواته يتمنين حفيدا. العروس شابة متعلمة جميلة من الشام. ستأتي أمها لتعيش معها في بيت شقير لأن زوجها تزوج امرأة ثانية. لكن آه ياأنور، يقال إن أخوال العروس لم يكونوا وطنيين. يقال كانوا يسترون تهريب اليهود ويأخذون عن كل يهودي مئتين وخمسين ليرة فلسطينية.

سيعيش الشيخ بعد أنور مكسورا. ولن يتركه الناس وحيدا. سيبقون حوله في مضافته معزّين. سيهمسون في المضافة أن الإنكليز عرفوا قاتل أنور وشنقوه. وسيهمسون: من قتله غير الإنكليز؟! وستقول سعاد: ضرب الإنكليز الثورة! قتل الأبرياء مفيد للإنكليز أكثر من قتل الثوار!

في جنازة أسعد شقير، سيتساءل رجل من المعزين: ماذا سنقول ونحن وراء نعشه؟ وسيرد رجل من بيت التميمي: سنقول لعنة الله على المحمول! مع ذلك سيحضر تشييعه كثير من الناس. فهل كانوا يكرّمون المدينة التي مثلها ذات يوم في مجلس المبعوثين؟ أم لأن الرجل في حرمة الموت؟ وستتفرج سعاد على الجنازة. كان حتى الوطنيون يخشون بطش صاحبها فيزورونه. لكن جنازته لن تتجول في عكا. كأنما نقلوه من غرفته إلى قبره في حديقته. سيدفن قرب ابنه أنور. وستقول سعاد: مسكين ياأنور! مظلوم حتى بتلك الجيرة!

ستلد زوجة أخيه صبيين سيسمى أحدهما باسم أنور. ورث أخوه أراضي شقير الواسعة، مزارع وبيارات كما في الحكايا. لكنه رغب في الوظيفة. وسيخرجه الإنكليز منها فيما بعد. وستهز سعاد رأسها: يلعب الإنكليز بالضعفاء، ويقتلون الأقوياء! راحت الوظيفة والبلاد وأصبح بيت شقير وأراضيه للمستوطنين بعد الاحتلال!

لن تعيش الخانم، زوجة الشيخ أسعد، طويلا بعد زوجها. ستقع فتكسر ساقها. أين أنور يداوي أمه! كانت كالاستنبوليات تكبح حزنها بكبريائها. وستقول سعاد: مصيبتها أكبر من البكاء والكلام! هل يكتشف الإنسان فجأة أن زمنه انتهى؟ انتهى مجدها، طويت صفحة عمرها ولم تبق إلا تفاصيل الخروج من الدنيا! بموت ابنها وزوجها تبينت أن العالم الذي تعرفه غاب فبقيت غريبة. اجتاحت الغوغاء البلاد، اجتاحها الإنكليز واليهود. فلم يعد أحد يُعرف بتاريخه! لا تحب الوطنيين، لكنها لا تحب أيضا الإنكليز. في الغرفة التي جلست فيها مع سعاد ستتذكر استنبول، مدينتها الجميلة. لو رجعت إلى هناك لرحب بها بيت أهلها. قالت لها سعاد: انقلبت الدنيا، ياخانم، حتى هناك. هنا حولك المحبون! بناتك ونحن! مات عالم كامل، ياسعاد خانم. بقي فقط الله! قالت لها سعاد: اعملي

www.alkottob.com

مثلي! عندما أفكر بمصيبتي أراها كبيرة! زوجي في المعتقل وليس عندي خزانة حديد. في رقبتي ولد وامرأة عاجزة ورجل معتقل، وقد يقتلونه. لكني عندما أفكر بمصيبة الناس تهون علي مصيبتي. قتل الإنكليز أخوين معا وسجنوا أباهما.. قتلوا أطفالا في البيدر. وماذا أعدّ لك؟ فتحت سعاد عالما غريبا أمام الخانم. لكن لا وقت لها ولا رغبة في أن تتجول فيه.

كانت سعاد تحفظ بعدا بينها وبين عائلة شقير. تبين لها مودتها لكنها ترفض العشاء أو الغداء عندها. وتجد دائما أعذارا مقبولة ترد بها دعواتها. تحرص أن يفهم رجال الأسرة ونساؤها أنها مخلصة في صداقتها لهم، لكنها تتفادى أن يتوهموا أنها من حاشيتهم. عاتبتها الخانم مرة: ترفضين أن تذوقي طعامنا! يوم مرضت الخانم وفهمت سعاد أن مابها أكثر من المرض، بقيت لتتغدى معها. نظرت الخانم إليها ومدت يدها فأمسكت بيد سعاد. شكرتها دون كلام. كانت كل منهما ندا للأخرى. يالهذه الشابة ذات الأنفة! هل تفهم سعاد فرحها بأنها أمام ند لها؟ ياسعاد خانم، الحاشية تشعرك بالوحدة!

يوم ماتت الخانم، أرسلت بناتها من ينادي سعاد. كان مأتمها حزينا فيه دمع محبوس مرّ. المأتم الثالث في الأسرة. أين السطوة والعز؟! لم يسمع صوت بكاء. كأنما عيب أن يبكي إنسان بصوت مرتفع. لكن الحزن كان يطفح من البيت. كأنما انتهت أسرة كاملة. عندما زارت سعاد قبر الخانم الذي دفن في الحديقة أيضا، لم تشعر بكره نحو الشيخ. أصبح الجميع هناك في حمى الموت.

لم تسألها شفيقة: إلى أين بهذه الملاءة الكالحة؟ بقيت في البيت مكانها وهي تخمن أن سعاد ستبدل في أحد البيوت ملاءتها بثوب فلاحة. لم يكن أبو درّة كالقسّام الذي يستمع إلى قهر امرأة. كان مرهقا بعذاب الفلاحين وحرائق القرى ومقتل قادة الثورة. قال لسعاد مرة أخرى: تهذبي! وقالت له مرة أخرى: أنا مهذبة، لكن من لم يغضبه قتل أنور! من قتله أراد أن يصفي الثورة. مرة أخرى شربت قهوته، وأطعمها رجاله اللبن والجبن، وانزلقت على عنق البغل في طريق العودة. كان يجب أن تقول له ما يجب أن يسمعه. وستبكيه عندما يعدمه الإنكليز وتتساءل أكان يجب أن ترمي عليه كرة جديدة من القهر في ذلك اليوم؟

بعد الاحتلال الإسرائيلي سنة 1948 سيصل من بقي من أسرة شقير إلى الشام ولبنان. ستلتقي سعاد بتقية في بيروت فتسألها: كيف حالك؟ وسترد تقية: زال الخير وحل الفقر! فتقول سعاد: سلامتك! مثلنا لا يقول ذلك! سيعمل أخو أنور في منظمة الأمم المتحدة، وستطلقه زوجته وتتزوج إقطاعيا غنيا. هل حكمنا

www.alkottob.com

مصيرنا؟ قالت سعاد ساخرة: متى كان ذلك؟! لو حكمت مصيري لما نسينا ماميش وسط ذلك الموت الكبير. ولطلقت عبد الرحيم وعشت وحدي دون زوج وأولاد! بدا لسعاد أن حرية الإنسان، مهما كان قويا، مساحة صغيرة في بلاد تعصف بها الأقدار.

www.alkottob.com

لم يسمح لسعاد بأن تزور عبد الرحيم في المعتقل. إذا انفجر لغم عوقب أهل المعتقلين فحرموا من الزيارة! وإذا قتل مستوطن عوقبوا! وياويلهم إذا قتل إنكليزي!

رجعت سعاد دون أن تزور عبد الرحيم. صرخ فلاحون وفلاحات، رجال ونساء، واختلطت الأصوات. وعت سعاد في تلك الضجة أن صوتها منخفض. فرفعت ابنها كأنها تغطي به عجزها عن الكلام. ولكن ما قيمة الغضب إذا لم تستطع أن توصله! غاب الضباط الذين يجب أن يروا غضب أهل المعتقلين وتركوا مكانهم حراسا صغارا مأمورين. سألت سعاد بوليسا عربيا: والطناجر التي نحملها، هل نعيدها؟ رفع كفه كالعاجز. منذ الفجر أوقدت سعاد النار وطبخت لعبد الرحيم وأصحابه. كوسا محشي مع ورق العنب، تحته شرحات وعصاعيص تكفي عشرين شخصا! وطبخت ملوخية بالدجاج، ورزا مفلفلا، ورتبت في السلة خبز التنور الرقيق! طبخت كما يطبخ أهل المعتقلين الميسورين للمجموعة كلها. كادت تعود بالطعام لولا ضابط إنكليزي أشار من بعد للبوليس العربي فأخذ منها الطعام. تناول البوليس منها الطناجر وعادت مع ابنها. في الطريق لمست شعره الناعم. ماذا يقول؟ يسألها عن أبيه؟ ردت: تريد أن تراه؟ وأنا أيضا كنت أريد أن أراه! شعرت بالغضب على الدنيا وعلى عبد الرحيم وعلى الإنكليز. أرادت أن تتزوج لتستقر في بيت فأين البيت وأين الاستقرار؟!

أطعمت ابنها، غسلت وجهه وذراعيه كأنها تغسل عنه الصراخ والغضب وبوابة المعتقل. انتبهت بنت العكي إلى أن سعاد لم تأكل بعد فحضرت لها السفرة وجلست معها. اسمعي ياسعاد! نامي، فالنوم فقط يريحك بعد هذا الصباح! سآخذ ابنك معي كيلا يطلب منك أحد حتى كأس ماء!

بقيت سعاد وحدها ولكن أين النوم؟ ومع ذلك بدا لها أن سكونا هادئا انتشر في البيت. كأنها لم تتزوج بعد! كأنها لم تضبط أيامها بواجبات أم زوجها، وابنها

www.alkottob.com

وما يحتاجه عبد الرحيم أكان في المعتقل أم خارجه! أهكذا تأسرنا البيوت التي نستقر فيها وترهقنا الأسر التي نطلبها كمن يحتمي بها فتصبح كالأسوار؟! لا، ما أقل ما تحتاجه سعاد كي تشعر الآن بالراحة! ما أقله؟!

لم تعرف هل سبب غضبها الإنكليز فقط أم اختيارها عبد الرحيم. اشتعل فيها غضب على القدر الذي جعلها تحمل مقتل أخويها وموت خالها واعتقال زوجها. وضعت كفها على فمها كيلا تشتم السماء والأرض. عندما مرت بالمرآة رأت فيها شابة جميلة. "كان يمكن أن تعيشي في النعيم، بين بيروت ومصر والشام"! شربت فنجان قهوة وسكبت آخر. ثم استندت على ظهر المقعد.

خيل إليها أنها كانت غافية وأن طرق الباب أيقظها. فتحت عينيها. لا تحلم. بابها يطرق. لا يزال فنجان القهوة كما هو على الطاولة أمامها. غفت إذن جالسة قبل أن تشربه! تنهدت ونهضت إلى الباب. فتحته وجمدت في مكانها. رأت أمامها حمدان! ما الذي جاء به من جبل الناصرة وأنزله إلى بحر عكا؟ من الذي فتح قبر الزمن؟ سمعت صوته: ياست سعاد، هكذا تستقبلين الضيوف؟ اجتاحها برد ولم تعد تقدّر الوقت. ملأت أذنيها دقات طبول، وكأنما ارتجفت. هل وقفت طويلا ساكنة لا تجسر أن تقول للضيف تفضل، ولا يليق بها أن تغلق في وجهه الباب؟ أهكذا تستقبلين الضيوف؟ تسمح لها اللغة التي خاطبها بها أن تستنتج أنه يضع نفسه مكان ضيف أمام سيدة غريبة! قالت: تفضل! ومشت أمامه. أشارت له إلى الغرفة، وتحاشت أن تتكلم كي تستر اضطرابها. غابت برهة لترمي على رأسها غطاء أبيض ولتهدئ نفسها بكأس ماء. ومع ذلك تبينت أنها تريد أن تسرع كيلا تفوت برهة من اللقاء به. عندما عادت إليه لمحت ابتسامته. أتخفي عنه شعرها الذي كان يلمسه فتغفو وهو يربت عليه؟ لم تتغير قامته. ابيض شعره فقط. لكنها لو رأته في الطريق لما عرفته. فتح عينيه وأغمضهما كأنه يثبت فيهما صورتها، وتنهد. مازالت جميلة، بل ربما أصبحت أكثر جمالا من قبل. هذا هو إذن النضج! أراد أن يناديها مرة أخرى "ياست سعاد" فغرق النداء الغريب في حلقه. قال: عرفت أن السيد عبد الرحيم في المعتقل فأتيت لأعرض عليك مساعدة قد تحتاجينها! هل تعترف لنفسها بأن قلبها يكاد يصم أذنيها، وأنها تكبح في صعوبة رعشة ساقيها؟ ملكت نفسها وكتمت رجفة يديها. البركة في الأصحاب! لا يتركونني أحتاج شيئا. كأن لدي خاتم لبيك. آه، كيف رتبت هذه المصادفة فغاب من البيت ابنها الصغير؟ تطلبين الحماية منه، ياسعاد؟ عيب! كأنك امرأة مسكينة تحتاج حماية طفل! شدت ظهرها: شكرا ياسيد حمدان، يالابن الأصول! أترمينني

www.alkottob.com

بسرعة هناك، ياسعاد؟ لم تأت بي الأصول بل أتى بي الحب. وهاأنت كما كنت يوم كنا نعيش معا في سعادة قبل أن ينفجر كل شيء. لا يحتاج إلى زمن طويل كي يتأمل بياضها الشفاف الذي كان يذهله. وشعرها الأشقر الذي كان يرى فيه وهج الصباح. ونعومة كفيها التي تدفعه إلى الدوار. قال كأنه يهمس لنفسه: صرت أحلى ياسعاد! شدت ملامحها لتمنع انهيار الجدار الذي نصبته بينهما باللباقة والجد. سألها: هل أستطيع أن أرى ابنك؟ يعرف إذن أخبارها! قالت: نائم! تنهد وأطرق برهة ثم لام نفسه لأنه ضيع برهة من النظر إليها.

شيد هذا اللقاء مئات المرات بخياله وهو لا يعرف أين يمكن أن يكون. وهاهو يشعر بلسع النار في روحه فلا يكاد يضبط نفسه، فيكاد يبكي، ويكاد يركع أمامها، ويكاد يصرخ: ضيعتني وضيعت نفسك، يامجنونة! ويكاد يرجوها أن تترك زوجها وتعود إليه. في خياله لم يوجد مستحيل وهو يفكر فيها، وهو يتابع أخبارها. لم يكن يستوقفه أنها أصبحت أما أو زوجة رجل آخر، وأنها انتقلت من بيت إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى. كان يوقفها في خياله فوق الأوضاع التي تأسر امرأة، ويضع نفسه مقابلها في هواه نفسه. كان بعدها يشعله. فيستعيدها في أيام الهناء التي بهرته وفي أيام الجنون الذي بدأت تبعدها عنه. استعاد الفجر الذي هجرته فيه ورآها من بين أهدابه وهي تختار من ثيابها ما ليس فيه أثر منه. ووقف مرة أخرى خلف ستارة النافذة يتأملها موجوعا وهي ترحل إلى طبرية وتهجره. كم مرة صاح في البيت باسمها وكلمها وسمع جوابها وتبع صوتها في الغرف الفارغة!

استنجدت سعاد بتماسكها. لعل فاطمة ونفيسة وشفيقة أنجدنها في تلك البرهة القاطعة! فرده وجهها الساكن. أحقا ياسعاد لم تشعري بالحنين الذي عذبني؟ أحقا لا أخطر ببالك كما تخطرين ببالي، ولا تشعرين بوجع أن تفقدي حبا نادرا كحبنا؟ تتذكرين غضبي فقط، وتنسين وجدي وحبي، فلا تغفرين جنوني؟ وهل قسوت عليك إلا لأني لم أتحمل ذلك المقدار من الحب! نظرت إلى فنجان القهوة أمامها وقالت له: ضيف دون قهوة؟ مستحيل! يالمهارتها في تشييد البعد بينها وبين الرجل الذي عاشت معه سنتين كالجمر، جميلتين كربيع فلسطين وحارقتين كصيف الغور! اجتاحه غضب على نفسه وعليها فنهض. لا ضرورة لقهوة الضيوف، ياسعاد! لن أسمح لنفسي بأن أبدد كنزا، ولن أسمح لآخر أن يبدده أمامي! قالت لنفسها: آه، ما يزال يحب الكلمات المفخّمة! من بدد الكنز بالقهر أيها المجنون؟! قال لها: كم تمنيت دائما أن ننظر إلى الواقع كله لا أن نجتزئ منه! فقالت لنفسها: نعم، ياحمدان! يجب أن نرى الواقع كله، وقد رأيته. لذلك لم

www.alkottob.com

يستوقفني حبك فقط بل عذابك! فهمت وهو يسرع إلى الباب أنه يهرب لأنه لا يستطيع أن يضبط غضبه أو أن يحبس هواه بالكلمات. مازلت إذن كما كنت ياحمدان، ولو عاد أحدنا إلى الآخر لكررنا القصة نفسها! التفت في البرهة الأخيرة وقال لها: أتيت إليك كمواطن من فلسطين إلى امرأة اعتقل زوجها! هزت رأسها: يتبرأ إذن من هواه الذي دفعه إلي؟ كان يجب أن يعتذر لكن غروره يمنعه عن واجبه! قالت: وأنا أرد عليك كزوجة رجل معتقل، يساعده أن تكون مثله! اشتعلت نظرته. أصبته ياسعاد فاحتفلي بوجعه! تتمنين له الاعتقال، و"تعيّرينه" بحريته؟

مشى حمدان كمن يتمنى أن يبتعد بسرعة عن بيت سعاد. ثم وقف فجأة وعاد إليه مسرعا. طرق الباب. كانت ما تزال قربه. آه، ياربي لا أريد أحدا! فتحت الباب فرأت حمدان أمامها. تناول كفها اليمنى وحدق في الخاتم الوحيد الذي حفظته منه. الخاتم الذي كان مثله في يد خلاسية بيروت وبحث عنه ليثبت لسعاد أنه فكر فيها وتمناها حتى وهو مع أخرى تحت القمر وماء البحر، وهو لا يعرف بعد إن كانت ستقبل الزواج منه! نظر إلى الخاتم ونظر إلى سعاد كأنه ينزع عنها تماسكها ويرميه. فهمته بنظرة وقالت: أمور خاصة ليس لأحد أن يلمسها! أترديننني ياسعاد عن أبواب الجنة؟ ربما أرد نفسي عن جهنم ياابن الناصرة! ابتعد مقهورا. آه، سنرى من سينتصر ذات يوم، حبي أم رفضك الحب!

سألت نفسها أمام الباب المغلق أحقا كان حمدان هنا وتحدثت معه؟ رفعت كفها وتأملت الخاتم الذي انتقل معها من بيت إلى آخر. يوم لبسته قالت لنفسها: أصبح إشارة باردة إلى زمن لا أستطيع أن أنكره. ورأته علامة إلى حياتها قبل الزواج من عبد الرحيم، لتثبت أنها لم تبدأ الحياة منه. اعترفت لنفسها عندما أمنت أن حمدان لن يعود، بأن الخاتم يستحضر لها حبا رائعا في حياتها النظيفة من العشق. ويوهمها بصديق تحاوره وتستند إليه كلما سندت من حولها حتى التعب. لم يمس ذلك قرارها: تستحيل العودة إلى حمدان! منذ أعادت الخاتم إلى إصبعها اكتشفت حمدان آخر تستخرجه متى أرادت، كما تستخرج صور المحبين، نقية تذكر بأيام الصفاء فقط. كانت صادقة إذن عندما قالت لحمدان إن هذه أمور بينها وبين نفسها! ولكن هاهو حمدان يثبت بزيارته ذلك الجانب من حياتها معه. كأنه أراد أن يستعيد مالا يستعاد!

آه، كيف فاتك، ياسعاد، أن تخفي الخاتم عنه؟ كيف نسيت أن تضعي كفا فوق أخرى لتحجبيه عنه؟ ابتعدت عن الباب. تحتاج هذا السكون المنتشر كي تستعيد البرق الذي ومض في البيت فأضاءه وأعتمه. عادت إلى مكانها قرب فنجان القهوة

www.alkottob.com

البارد وجلست صامتة. ثم انثنت على نفسها وبكت. بكت عليه وعلى نفسها. بكت لأنها جرحته، وبكت لأنه كشف الخاتم في يدها. تخافين ياسعاد من الحب حتى وهو مدفون؟ تخافين أن تعترفي بأن قلبك كان يرتعش في أيام حمدان، وأنك تجولت في فصول كنت سعيدة فيها بمقدار ما كنت تعيسة؟ ليتها كانت تستطيع أن تقص الألوان، فتضع الأسود في مكان والأحمر في مكان! ليتها كانت تستطيع أن ترمي المعتم وتستبقي المبهج فتحفظ ذلك الزواج!

مسحت دموعها وشربت برشفة واحدة القهوة الباردة. لكن الدموع انسابت من جديد على وجهها. أين تلك الأيام التي كانت تشعر فيها بأن قلبها معلق بشعرة، وكان يهوي ولا يصل إلى قعر يمسك به، وكان يرتجف كورقة شجرة خضراء وكورقة شجرة مصفرة! أين الأفراح التي توهجت يوم ضيع حمدان المفتاح فرفعها على كتفه كي تدخل البيت من النافذة! أين الضحك الذي غمرهما في ذلك اليوم كولدين! رأته من النافذة يحمل أكياسا يخفيها في الحديقة ويطلب منها أن ترمي له حبلا ليرفعها بالسلة إليها. كانا يلعبان كي يزيّنا الحياة الصامتة في بيت واسع متزن، في مدينة لا يستطيعان فيها أن يركضا في الحارة والشارع وعلى الجبل! سمعت صوته يسألها هل نسيت، ياسعاد، يوم زرنا كنيسة البشارة معا وقدمنا للعذراء تنكة زيت؟ غسلت سعاد ذكرياتها بدموعها. انتهى ذلك، كفى! لكنها تستطيع أن تقول الآن إن الحنين موجع وعذب! ارتعشت: الحنين مرة أخرى، ياسعاد؟ إياك من ذلك المرض! تذكري، بعد الشفاء منه لاعودة إليه! آه، من قال ذلك؟ قلب الإنسان بحر!

هل نادتها أم عبد الرحيم وقتئذ؟ طلبت منها كأس ماء. لكنها لم تشرب الماء الذي قدمته لها سعاد. قالت لها: اقعدي يابنتي! اهدئي، وقولي لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم! ما أروع الكلمات التي يهدئ بها الإنسان نفسه ويرمي عليها قدره! نظرت إليها. هل تعزي نفسها بهذه الكلمات لأنها لا تستطيع أن تتحرك دون أن يسندها أحد؟ سألتها تحتاجين شيئا آخر؟ أحتاج أن أراك راضية! دون قوة سعاد ينهار هذا البيت. هزت رأسها: لا تخافي علي! زارك ياسعاد رجل أعرفه؟ لا، أنا فقط أعرفه! لاتشغلي بالك بي!

صحت سعاد في تلك الليلة وهي تبكي في حرقة. مسحت الدموع عن خديها كأنها ذنب. رأت نفسها في الحلم تجهض طفلا. ورأته أمامها مكتملا أبيض الوجه، أحمر الخدين، في ملابس بيضاء ناصعة. كان حيا فسألت تورنس: كيف تقول لي إنه ميت؟ ورد تورنس: ياسعاد، هو ميت لأنك قتلته! فانثنت على نفسها أمام تورنس

www.alkottob.com

وبكت في وجع ورجته: أعده إلى الحياة، أرجوك! كانت ترجو تورنس عندما أفاقت من نومها باكية. وكانت ما تزال تلهث.

استمعت إلى السكون. هي فقط الصاحية في بيت مغمور بالليل! تمنت لو تستطيع أن تنهض لتشرب ماء فترطب حلقها وتبلع غصتها. لكنها بقيت في فراشها. استعادت زيارة حمدان وتأملت تفاصيلها. ما أسعد الإنسان بالذاكرة! تأملت وهج الحب الذي يخفيه وتذوقته بهدوء. طافت حول كلماته المدثرة بتنميق قصد به أن يخفي هواه. خمنت أنه انتظر مناسبة يتسلق عليها كي يلتقي بها. ثم تفرجت على غروره الذي دفعه إلى إخفاء سبب زيارته. ردت عليه في قسوة؟ بل تكافأنا، ياحمدان! ولو كنا كذلك منذ البداية لربما بقينا معا! لكني كنت يوم عرفتك صغيرة وساذجة!

انتبهت سعاد في تلك الليلة إلى أن هربها من هيجان الحب واختيارها حياة متزنة لا يطفئ الحاجة إلى الحب، بل يدفعها إلى خوابي معتمة تعتقها. لكنها اعترفت لنفسها أيضا بأنها راضية بحمدان الذي تستله في الوقت الذي تريده، وأنها ترى فراقها عن حمدان الواقعي صحيحا. لا تستطيع أن تكرس نفسها لذلك المقدار من الحب! لا تستطيع أن تتحمل ضعف الحب ورجفته! ثبتت زيارة حمدان قرارها. ألم تلهث ونفسها يكاد ينقطع؟

أسندت رأسها إلى الوسادة وسرحت في الظلمة. خيل إليها أن المساحات التي أهملتها بعد حمدان بقيت مغلقة كأنها تركت له مفاتيحها. لن تستبدله بسواه وستبقى له فقط كلمات الحب الوحيدة التي نطقت بها، والوجع والدهشة واللوعة والوجد. لا تريد أن تعرف تلك العواطف مرة أخرى، لكنها يمكن أن تستدعيها لترشفها في السر كحق شخصي لاعلاقة لأحد به. تستطيع أن تلجأ إلى حمدان كذكرى وقت تتذكر الحب.

قالت لنفسها: يالهذا اليوم المليء! الصباح على باب المعتقل، وعودتها غاضبة، وندمها الخاطف لأنها تزوجت عبد الرحيم! هاهي تتبين اليوم، في ظلال حمدان، أن الحياة التي تندفع فيها تلبي هواها. ولن يعوضها عنها أي حب. غفت وهي تسمع مؤذن مسجد الجزار يصيح الله أكبر. وعندما صحت كانت قد قررت أن تحاول زيارة المعتقل دون طناجر. ستذهب محملة بغضبها.

www.alkottob.com

هل أصيب حمدان بالجنون بعد زيارته سعاد؟ أغلق على نفسه بابه، غرف من خابية النبيذ إبريقا ووضعه على الطاولة أمامه. سيشربه دون طعام! وليته يسكر! شعر بخدر ممتع. استحضر سعاد وقال لنفسه: ملكة! أحسنت الاختيار، ياحمدان! استعاد أيام زواجه، وتوقف في المقاطع السعيدة منها. زها بأن سعاد كانت زوجته. رفع كأسه وقال: سأنتظر موت عبد الرحيم، وسأستعيدها! وبدا له وهمه حقيقة لابد أن تصبح واقعا! ثم استعاد زيارته سعاد وتأمل مقطعها الأخير فقط. تتحداني؟! قال لنفسه: لا تستحق أن أنتحر لأجلها! أبعد إبريق الخمر. كان الإبريق فارغا ورأس حمدان ثقيل، فغفا. لكنه استيقظ مبكرا. ووقف عند النقطة التي تركها: تتحداني؟

وجد نفسه في الطريق. لن يكتفي كالوجهاء بالتوقيع على العرائض والرسائل! بل سيقصد أن يعتقل في عكا! لا يحتاج الإنكليز أسبابا مقنعة كي يعتقلوا عربيا! فليكن في منطقة اشتباك! وما أكثرها! نزل إلى عكا في أفضل ملابسه.

التقطه الإنكليز في عكا، وحقق أمنيته. في تلك البرهة كان الإنكليز يفصلون الفلاحين عن أبناء المدينة في المعتقل. فدفعوه إلى "الوجهاء". خطا خطوة متأملا المعتقلين. التقطت نظرته الفاحصة رجلا يجلس على بطانية على الأرض واضطرب قلبه. قال لنفسه: هو! قال أحد الواقفين لحمدان مداعبا: شرفت، تفضل ادخل! قدم حمدان نفسه. فقال له الشاب: أعرفك بالذين لا تعرفهم. عبر حمدان الأسماء بسرعة حتى وصل إلى الجالس على البطانية. غمره الفرح لأن تخمينه كان صحيحا، وقال لنفسه: محظوظ! نظر في فضول إلى عبد الرحيم. أهذا هو الرجل الذي تركتني سعاد إليه؟! قاس طوله، وزنه من بعد. ليس أجمل مني! كتم طوال النهار رعشة قلبه، وعندما خيل إليه أنه هدأ اقترب منه. كاد يهتف: مسكينة ياسعاد! أكبر منك، يامجنونة! بدأ يتسلل إلى روح عبد الرحيم، ويفحص طباعه. وشعر أحيانا بالغيرة منه. تبين مايعجب سعاد في عبد الرحيم. "نقيضي"! هادئ

www.alkottob.com

وحكيم! أذلك ما يعجبك فيه، ياسعاد! ألهذه الدرجة ضقت بي!

بدا عبد الرحيم غير مبال بأن حمدان كان زوج سعاد. بل خيل لحمدان أنه لا يكاد يذكر ذلك. رآه مشغولا بأخبار وصلته من خارج المعتقل، وتابعه وهو يجمع بعض المعتقلين ويتهامس معهم. أمثل هذا الرجل يمكن أن ينتبه إلى وهج الفجر على شعرك، ياسعاد؟!

لم يخطر لحمدان وهو يبحث عن مناسبة يعتقل فيها أن المعتقل سيحرمه من الشراب. فتلوى بعد الظهر من الضيق، وكبح غضبه في صعوبة. ولم يستطع النوم. خيل إليه أن يديه ترتجفان. لاحظه المعتقل الذي يستلقي قربه فقدم له علبة سيجارات دخن أكثرها في العتمة.

في اليوم التالي قصد أن يشغل نفسه بعبد الرحيم فلم يفارقه. لكنه لام نفسه عندما لاحظ أنه يصغي إلى كلامه المتزن. قال لنفسه: وهل تستمع سعاد إلى خطاباته؟ أضحك نفسه وهو يتصور سعاد جالسة أمام عبد الرحيم وهو يلقي عليها خطابه! راقبه في نومه بعين مفتوحة. هذا رجل لا يعرف القلق أبدا! ينام كالدب منذ يغلق عينيه! يعني ذلك، ياسعاد، أنك لست سعيدة معه. لكنك تخفين ذلك عن نفسك وعن الناس!

بعد أيام من العذاب دون خمر في المعتقل، قرر حمدان أن سعاد تعيش مع رجل سياسي لامع، رجل محب. في الحوار الذي تخيله بينه وبينها قالت له: رجل طيب! فرد: وهل قلت غير ذلك؟ لكنه دب، وأنت عصفور رشيق! أنت بلبل وهو دب! قالت له: اسكت! فرد عليها: لا تكذبي! اعترفي بأنه يكاد يغفو وهو يقبّلك، ثم يستدير عنك ويشخر! تشعرين بأنه دب! قرر حمدان أن سعاد تتذكره في السر، وأنها تغمض عينيها وعبد الرحيم يعانقها لتتصور أن حمدان مكانه! وقال لها بينه وبينها: "تستحقين هذا العذاب"!

أدهش عبد الرحيم أن حمدان اقترب منه فلم يفارقه. ثم تحاشاه كأنه لا يعرفه. هذا رجل متقلب، أعان الله سعاد! كيف استطاعت أن تتحمله سنتين؟ آه، تذكرت أن قريبي القاضي الشرعي روى لي أن حمدان اشترط أن تترك سعاد حليها وملابسها ومؤخرها وتخرج من البيت "ربي كما خلقتني". غريب هذا الرجل! كيف يعامل صبية مثل سعاد تلك المعاملة الوحشية؟ لكن يبدو طيبا "ليس في عينه شيء"! حمل أهله للمعتقلين خروفا محشوا! يعلم الله فقط مافي النفوس!

عامله عبد الرحيم برفق كما يعامل ابنا. وقهر حمدان أنه ناداه مرة: ياابني! ثم عزى نفسه: تستحقين ياسعاد أن تتزوجي رجلا في عمر أبيك! سأله عبد

www.alkottob.com

الرحيم: لماذا اعتقلت ياابني؟ فحار حمدان، وكاد يستصغر نفسه: كنت في الشارع عندما علقت بين الإنكليز والعرب! أدهش عبد الرحيم أن حمدان لم يهرب من الرصاص، ولم يلتجئ إلى بيت أو جدار. لكنه أثنى على جرأته! يلزمنا مثلك ياابني حمدان! نعم الرجل! آه، كم تؤلمه هذه الطيبة! لو كان حمدان في مكانه لما غفر له أنه أخذ منه زوجته! قال لنفسه: هذا أبله أو وليّ! رجل لايغار؟!

شغل نفسه بالقبّة التي بناها له في خياله. فلتكن قبّة بعيدة على جبل، تحاط بالأشواك فلا يقترب منها أحد! ولتدهن بلون أسود! لا، لتدهن باللون الأخضر وليزرع حولها بستان، ولكن ليبق فيها عبد الرحيم وليا صالحا بعيدا عن سعاد!

نشر حمدان ذراعيه وهو مستلق على الأرض وتاه في أحلامه. مر به عبد الرحيم وتأمله وشعر بأن حمدان لا يراه. فابتعد وانشغل بالهمس مع أصحابه: لم تهدأ العمليات رغم وحشية الإنكليز!

قال الضابط الإنكليزي لحمدان إنه يريد أن يفهم لماذا حشر نفسه وسط اولئك الأشقياء. رد حمدان عليه بلغة إنكليزية صافية: لا أرى أنهم أشقياء، أولا. ولم أحشر نفسي في المعتقل، بل أنتم حشرتموني فيه، ثانيا! أظهر الضابط الإنكليزي صبرا على كلام حمدان، وأكد له أنه يحترم أسر الناصرة الكبيرة، وجره إلى الكلام عن الناصرة. نعرف ياسيد حمدان أن أسرتك تقدم كل سنة تنكات زيت لكنيسة البشارة! فتح حمدان عينيه: نقدم الزيت لكنيسة في بلدنا، للسيدة مريم ابنة بلدنا، وللسيد المسيح ابن بلدنا. أنتم ما دخلكم في ذلك؟ ابتسم الضابط الإنكليزي كما ابتسم ضابط إنكليزي آخر في طبرية لصدقي الطبري. مقدرا مزاج أهل البلد!

www.alkottob.com

خرج حمدان من المعتقل واستقبلته أمه بالمناسف ودعت إليها أهل البلد. عندما أفاق في الصباح، بعد الاحتفال، كان قد نسي ضجة المهنئين. وجد نفسه وحيدا في بيت واسع. فنزل إلى بيت أمه منتفخ العينين من النوم. شرب القهوة وقال لها: ذلك إذن المعتقل الذي ينفش نفسه كالطاووس من يدخل إليه؟! رمته أمه بنظرة قاسية: اسكت، اسكت! سنبقى طول عمرنا نركض وراء سعاد؟ آه، فهمته إذن! فحرمته من لوم سعاد على زواجها من عبد الرحيم! تركها وصعد إلى الطابق العلوي ليعلن للبيت الذي عاش فيه مع سعاد: لاشيء في عبد الرحيم غير الصبر على المعتقل! هاقد عرفناه وعشنا مثله في المعتقل!

لو يستطيع حمدان أن يروي لأصحابه كيف سعى إلى القرب من عبد الرحيم في المعتقل وتأمله. وكيف دار مرات حوله متسائلا لماذا اختارته سعاد. وخزه أنها اختارت نقيضه، ولامها: ركضت إلى أبعد نقطة عني! سيصف لهم كيف ضحك عبد الرحيم عندما سأله حمدان: هل تدخن؟ فرد: لا أحب رائحة الدخان! فسأله: ولا تشرب؟ رد: من يشرب يحتاج الوقت ليجلس إلى نفسه. نحن دون ذلك والحمد لله! عندما رآه يصلي ثم يجلس وبين يديه سبحة، هتف لنفسه: الله يساعدك ياسعاد على هذه البليّة! وقارن رشاقته بضخامة عبد الرحيم وهتف ناقما: استمتعي بهذا الدبّ!

هل سيقول لأصحابه إنه راقبه أولا في غيرة لأنه الرجل الذي ينام مع سعاد في فراش واحد، ويشم عبقها الفواح في البيت، فيستمتع بما حرم هو منه! وإنه سمع ضجة قلبه وهو يقترب منه ليفحصه كغريم. ثم سادت عليه الدهشة: أيمكن أن تختار سعاد مثل هذا الرجل؟! انصرف إلى شعوره بالنقمة عليها: مجنونة! أبعد الحب الذي ذقته معي انتقيت هذا الغول؟ ثم استسلم إلى الشماتة: تستحقين هذا العذاب! لكنه قال لنفسه وهو يرى عبد الرحيم ينام منذ يضع رأسه على ما يشبه المخدة: مسكينة ياسعاد!

www.alkottob.com

عندما اطمأن إلى التعاسة التي افترضها في علاقة عبد الرحيم بسعاد، زاد قربا منه. ويسّرت له ذلك أيام المعتقل الطويلة. تحدث معه في راحة. وروى له نكتة معروفة أدهشه أن عبد الرحيم لا يعرفها. سمح لنفسه بأن يحكي له عن مريض طلب منه الطبيب ألا يدخن وألا يشرب وألا يقترب من النساء فرد المريض عليه: لا أريد الشفاء! أنت ياأخي عبد الرحيم عكس ذلك المريض! ابتسم عبد الرحيم دون ضغينة، وتابع حمدان ابتسامته الرائقة وبدت له ساذجة. قرر أمام نفسه: هذا رجل لا يفهم غير السياسة! ونام في تلك الليلة مطمئنا إلى أنه لم يفقد سعاد. عندما أفاق في الصباح كان ما يزال واقفا في تلك النقطة. وتساءل هل للإنسان أوجه لا نكتشف منها إلا ما نراه من المكان الذي ثبّتنا فيه القدر. نظر مزهوا إلى عبد الرحيم: أنا الذي أعرف ضمير سعاد، لا أنت! أنا الذي استخرجت كنوزها لأني سرحت بها حتى حيث لا تريد! أعرف ما تحب ومالا تحب، فماذا تعرف منها أنت؟! هل رأيت سعادتها وتوهج خجلها أو تبعت تكتمها؟ هل رأيتها وهي تتفتح كالوردة تويجا، تويجا؟ سيصف لأصحابه كيف نظر إلى عبد الرحيم في تعال، وتأمله وهو يسجد ويركع متسائلا: تصلي كي تكسب بعض المعتقلين؟ لهم أم له؟ في المساء انسكب عليه اطمئنان صوّر له أن عبد الرحيم سيموت قريبا وأنه سيستعيد سعاد. ونجح في أن يتقرب من عبد الرحيم وينام إلى يمينه. رآه يغفو بسرعة، وسهر مفتوح العينين يراقبه. كاد يلمس بيده الفرق في العمر بين سعاد وبين عبد الرحيم. استعاد بخياله وجهها النضر الذي كان يبهره وهي مستسلمة لنومها، ووضعه قرب وجه عبد. فبدا له البعد بينهما مخيفا وظالما. لمع البياض في شاربي عبد الرحيم كأنه جمع الضوء من المعتقل وركزه، وكاد يضحك من ارتجاف شاربيه وهو يشخر شخيرا ناعما ينتهي بين فترة وأخرى بصفير. اجتاحته شفقة على سعاد، وخيل إليه أنه سيعاتبها إذا رآها مرة أخرى: أهذا هو البديل ياسعاد؟ كم كرر لها: إذا وجدت من يحبك أكثر مما أحبك، وإذا وجدت من يدلّلك أكثر مما أدلّلك فلن أتألم إذا تركتني إليه! يبدو أنه كرر لها ذلك يوم لم تكن تفهم تلك الكلمات، وكان يرعبها أو يضحكها حتى التفكير بأنها يمكن أن تعيش مع سواه! كانت ترد عليه دائما: من قال لك إني أريد أن يحبني أحد غيرك؟ أو كانت تقول في غضب: كفى! من قال إني أريد أن أضع حبك في الميزان وأقايض عليه؟! استدار عن عبد الرحيم وهو يستعيد كلمات سعاد. يالشقائه بذاكرته! كأن سعاد إلى جانبه، أيام كانت تتحمل أن يوقظها في الفجر ليقول لها أحبك فتترقرق ضحكتها مختلطة بالنوم: أما كنت تستطيع أن تنتظر حتى الصباح؟! يكاد يرى الضوء الباهت الفضي ينسل من النافذة ليدثرها بغطاء

www.alkottob.com

شفاف! يكاد يلمس شعرها المتناثر على تطريز الوسادة البيضاء! تأوه: أهذا الجمال وتلك النضارة ترمى حيث لايوجد من ينتبه إليها؟ يغفو هذا الدبّ قربك منذ يضع رأسه على الوسادة، وأنا كنت أخاف النوم لأنه يبعدني عنك! أنت قاتلة، ياسعاد!

بدا لحمدان أنه شفي في أيام المعتقل من وجع التخمين. عرف من قرب غريمه، وصار يعرف الحياة التي تعيشها سعاد معه! كشفت ياسعاد سرك! اكتمي عن غيري ما بك! بدا أنه عاد هانئا لأن سعاد لن تكون سعيدة مع عبد الرحيم. فلتعش مع رجل متزن! لتعش مع رجل يدافع عن المعتقلين العرب ويعتقل مثلهم! لكنها لن تكون معه امرأة مشغولة بالحب، مستسلمة للهوى! لن تعرف غير الحب الذي ذاقته في حياتنا معا! صرخ في تلك الليلة موجوعا: عيشي ياسعاد في صحراء! تستحقين ذلك! فلتتعذبي بمقدار ما عذبتني!

في آخر الليلة بكى وهو يناديها ياحبيبتي! وشرب في تلك الليلة كل ما فاته أن يشربه في أيام المعتقل!

www.alkottob.com

طرقت بنات العكي الباب في الصباح على سعاد: تعالي معنا إلى نابلس! ماتت الست محفوظة، العمر لك! كادت سعاد تصرخ: أهذا وقت الموت؟ تنهدت. لا ينقصها وهي تخشى أن ينفجر لغم في عبد الرحيم ويقتله مع المعتقلين، إلا أن تموت الست محفوظة! قالت بنات العكي: ياحبيبتي، لا يستطيع أحد أن يختار وقت موته غير الشهداء!

بين محفوظة النابلسي وبين سعاد، عمر! كل منهما من جيل. لكن موت محفوظة يفقد سعاد جزءا من عمرها! فهل نموت حقا في يوم موتنا فقط؟ بل نموت في موت من أحببناه! لكن لم تترك لنا الأيام دموعا لنبكي أحباءنا! أفقدتنا حتى نضارة الحزن! كأن السابق أكل حصة اللاحق! تساءلت سعاد: هل احتفلت محفوظة بموتها في الأسبوع الماضي لذلك جمعت صاحباتها في الحمة! قلبها أوحى لها بتلك النزهة! لبست سعاد ملاءتها وخرجت مع بنات العكي ووداد خورشيد لتعزي بالست محفوظة.

محفوظة النابلسي صديقة شفيقة. لذلك قصدتها سعاد يوم نزلت من صفد فلم تجد خالتها في طبرية. قالت لنفسها: إلى الست محفوظة! وهناك وجدتها وسط جمع من صاحباتها، والعود في حضن إحداهن. همّت سعاد بالعودة. فاستبقتها محفوظة: لن تخرجي! ردت سعاد: لن أفسد جمعكن! قالت محفوظة: يفسده أن تخرجي! أقسمت سعاد عليهن أن يستمر العزف. تعرف محفوظة أن سعاد لا تطيق أن تسمع صوت العود بعد موت سعيد! تجلدت سعاد. فلتتعود أن ترى العود في حضن آخر! فلتتعود أن تسمع عزفا آخر عليه! خلعت ملاءتها وجلست. وقدرت عندئذ عزف أخيها. العزف روح! إذا كان العود استمرار اليد التي تعزف عليه. كان سعيد يشف عندما يعزف. يشعر بالحاضرين ويخاطب الخفي فيهم، ويجبرهم أن يظهروا به! راقبتها محفوظة ثم قالت: لم نكسر قسمك. والآن اكتفينا، فلنغير "الطابق"!

www.alkottob.com

أنعمت معامل الصابون النابلسي على محفوظة وأهلها. لكن محفوظة لم تحبس مالها عن أصحابها. ولم تحبسه عن نفسها. تعيش مجموعة من الناس من العمل عندها. ممرضة محفوظة مسيحية، والعشي عندها مسيحي، وكذلك الخدم. مازحتها سعاد مرة: يقال بيت محفوظة كنيسة! ضحكت: على رأسي وعيني إخلاصهم! لكن بالله عليك، هذا كلامك أم كلام شخص آخر؟ ياست محفوظة، لو فرمتني لن أبوح باسم أحد! أنا أفرمك، ياحبيبتي؟ تبلى اليد التي تمس شعرة فيك!

دعت الست محفوظة صاحباتها إلى الحمة! فقالت سعاد: مقبولة دعوتك ياست محفوظة، ولا ترد. لكني لا أجيد الغناء ولا الرقص! هل يدعى مثلك إلى ذلك، ياست سعاد! تعالي استريحي من هم السياسة ومن هم أخينا عبد الرحيم! هل هذا احتفال بنهاية الإضراب، ياست محفوظة؟ أنا لا أحتفل بها! ونحن مثلك، ياست سعاد! لكن ساعة لقلبك وساعة لربك! كي نتحمل الأيام!

نزلت سعاد يومذاك إلى الحمة مع الست محفوظة. الشوادر منصوبة. وأية شوادر! مفروشة بالسجاد والطراريح، مزينة، كأنها لإقامة أشهر. شادر للطبخ والخدمة، شادر للمغنيات والعازفات، وشادر للمدعوات. استمتعن ياصبايا! من سيرثنا ليس أفضل منا! لم تتزوج محفوظة، لأنها لم تجد رجلا من مقامها؟ أم كيلا يوزع المال بين غرباء؟ ربما قصدت أنها دون ولد يفرحها أن يرثها! تحب أن تفرح أصحابها! أرجعتنا ياست محفوظة إلى البداوة! تريدين أن نذوقها! لكن هل في تلك الأزمنة مثل هذا النعيم في الأكل والفرش! قالت: وأكثر!

أقامت سعاد في غرفة ألحقت بها مغاسل ومطبخ. فحصت الشراشف. نظيفة! لاحاجة لها بالمطبخ! لن تطبخ طوال الزيارة! ذلك وحده راحة! في الصباح تخرج إلى الشادر. تنزل بعض النساء إلى الماء ويبقى بعضهن مع محفوظة التي تنزل إلى الماء مرة فقط في اليوم. تقول لهن: اذهبن، واستمتعن! فيجبن: الحمة موجودة، والماء موجود! نعود إليه بعد الظهر!

ياللجمع الكبير! خمسة عشر شادرا للنساء نصبت كدائرة حولها خضرة الحمة الكثيفة. تجتمع النساء في المساء، يستمعن إلى الغناء والعزف. يتمايلن: آه يازمان! آه، ياالآلي! زوروني كل سنة مرة، حرام تنسوني بالمرّة! تصفق سعاد للغناء، ترفع ذراعيها على طولهما وتميل من الطرب. هل كانت تتصور أنها ستطرب هكذا؟ تعطرت النساء، لبسن ثيابا ملونة جميلة، تزيّن. نلبس للرجال؟ "فشروا"! نلبس لنستمتع بالنظافة والأناقة! سعيدات، أكلن دون أن يطبخن، نمن دون أن يرتبن فراشهن، سبحن واستمتعن بالماء، حرّات دون أزواج وإخوة، لا

www.alkottob.com

يفكرن في أولاد وبيوت. جلسن على السجاد تحت سماء ملأى بالنجوم، وهب عليهن عبق الأشجار. سألت بنت غندور سعاد وهي تتأمل نجوم السماء: ماهو برجك؟ دهشت سعاد. هل تبيّن أنهن نسين أنفسهن سنوات وسط صخب البلاد؟ أرادت محفوظة أن تذكّرهن بعيونهن الواسعة الكحيلة، بقامات كغصن البان، بألوان الملابس التي تتوهج على وجوههن! انتبهن ياصبايا، تبدأن بالذبول يوم تنسين المرآة في الصباح لأنكن مسرعات لتحضير الفطور! تبدأن بالذبول يوم تنسين أن تتعطرن في المساء لتغسلن بالعطر والملابس تعب النهار! ياست محفوظة، أين أنت وأين نحن! نركض لنطبخ الأكل للمعتقلين! من يحضّر لهم الطناجر الكبيرة غيرنا! نحسد الرجال على السجن. تركوا لنا الهمّ ونجوا بالسجن منه! ضحكن وهن يتحدثن عن رجالهن: غيابهم أفضل من حضورهم، ياست محفوظة! لكن لا تذيعي السر! إذا "طبّ" علينا ضيوفهم، نتفنا الدجاج، وطبخنا الخروف، وحضرنا المنسف! الطبخ لهم معتقلين أسهل من الطبخ لضيوفهم! التفتت سعاد إلى بنت غندور. هل تقول لها وفوق ذلك ننقل الرسائل إليهم، وننقلها منهم!

ضحكن، ضحكن أكثر مما تطلب الرواية التي استمعن إليها. كأنهن يرمين الهم عن الروح ويغتسلن بالنسيم! قالت الست محفوظة: البسن وتعطرن دائما في المساء! يحتاج الأولاد أن يروا أمهاتهم مرتبات لا خادمات! يحتاج الزوج ألا يظن زوجته طباخة! أين أنت ياست محفوظة وأين نحن! حماك الله من الزواج! هل تظنين أنهم يلاحظون أننا تعطرنا و"ترتبنا"؟ قصصت شعري وسألت زوجي: يليق بي الشعر القصير؟ فسألني: كان شعرك طويلا؟! يقطعكن يابنات! لم أر نساء "يشنّعن" على أزواجهن مثلكن! من يسمعكن لا يتصور أنكن تسحبن أطفالكن وتركضن من معتقل إلى آخر لتقابلوهم! قالت بنت غندور ضاحكة: حظ ياست محفوظة، حظ!

في يد محفوظة خاتم سوليتير. تحبه محفوظة وتزهو به. الخاتم في إصبع محفوظة منذ عرفتها سعاد. خواتمنا وعقودنا ملامح فينا كالعين والحاجب! تكشف ذوقنا وأهواءنا، وأحيانا نزواتنا. قد تبدو صرخة وحيدة أو صوتا مستمرا. قالت سعاد عندما رأت محفوظة دون خاتمها: كأنهم شلحوها اسمها! نقلت محفوظة إلى المستشفى. بين بيتها وبين المستشفى شارع، مع ذلك لم تنج من النوبة القلبية! كان الخاتم في إصبعها في المستشفى. في البيت خلعته زوجة أخيها من إصبعها ولبسته. قالت لها وداد: اخجلي، لا تزال محفوظة ممددة! انزعيه من إصبعك! ضعيه على الأقل في محفظتك! ردت: أخاف أن يضيع في الزحمة! أمرتها وداد:

www.alkottob.com

اخلعيه! خلعته: طول عمرك ياوداد تعملين من الحبة قبّة!

أبعدت سعاد نظرها عنهما. هل كشف هذا الخاتم الجميل مساحة سوداء في روح هذه الشابة الجميلة؟ أيسقطنا الإغراء بسهولة؟! أضافت سعاد سببا جديدا لتراقب نفسها! لكنها ليست منور كي تقول ربي، نجني من فتنة المال! ستحفظ منه مقدار ما يجعلها دائما آمنة! وليست منور كي تقرر أن تقاطع زوجة أخي محفوظة! كأن وداد قرأت روحها فهمست: هكذا الدنيا! أنا التي أعمل من الحبة قبّة أم أنت، ياسعاد!

www.alkottob.com

لماذا أفاقت سعاد مقهورة؟ ذلك أثر الأمس؟ سخنت الحليب لابنها، راقبته وهو يغسل وجهه، راقبته وهو يلبس ثيابا نظيفة، ثم أطعمت أم عبد الرحيم ومشطتها. أبو عبد الرحيم، رحمة الله عليه، أحب شعرها الطويل! فاحتفظت به حتى خصرها، لتهب سعاد متعة غسله وتمشيطه! كم مرة اقترحت عليها سعاد: ما رأيك في أن تقصّيه؟ وكم مرة ذكّرتها أم عبد الرحيم بأن زوجها كان يحبه طويلا ولن تخونه بقصّه! إذا عشت اليوم لن أعيش غدا، ياسعاد! تحمّليني! تريد أن يلقاها في الآخرة كما تركها! ينتهي الحوار عن شعرها بتفسير: تقصيره قليلا يقوّيه!

في كل يوم تنهضها سعاد. تلبسها ملابسها. وترتب فراشها. ثم ترتب فراش زياد. وفي النهاية ترتب فراشها. أنجزنا ترتيب ثلاثة أسرة! والآن ماذا سأطبخ؟ ماذا تشتهين اليوم؟ وأنت يازياد؟ وماذا نطبخ للمعتقل؟ تتحرك سعاد في سرعة بين الغرف والمطبخ. تسمع صوت أم عبد الرحيم: ياسعاد، كل شيء مع الصحة طيب! الله يديمها عليك! فتقول سعاد لنفسها: إذا بقيت الصحة بعد هذا الركض!

كانت غاضبة من الخلل بين مايجب أن تنجزه وبين الوقت الموجود في النهار. قالت لنفسها: تفضلي ياسعاد خانم! تريدين بيتا وأسرة؟ هاهي فاستمتعي!

دق الباب. من يزورنا في هذا الصباح المبكر، قبل الشحاذة وبنتها؟ هل سيعتقلني الإنكليز؟ ليتهم! سأستريح في المعتقل!

فتحت الباب. فرأت أمامها بنات العكي وأبوهن. مائة أهلا وسهلا، ياعمي! تركت لهم الطريق وأسرعت لتبدل ثيابها. سمعت أم عبد الرحيم تسألها: من ياسعاد؟ آه، لا وقت لديها للجواب!

ياعمي شرفت! يابنتي سأترك البنات عندك. أتيت لأقول لك فقط انتقلي إلى البيت الذي اخترناه لك من بيوتنا. بيت واسع، أربعة غرف حولها جنائن. لن

www.alkottob.com

نتركك تدفعين أجر بيت وزوجك في المعتقل! سأرسل من ينظفه لك اليوم، وستنتقلين إليه غدا! انصرف العكي دون أن يشرب القهوة. قالت سعاد: أبوكن فضّل عليّ! فوق شغلي يجب أن أحزم أغراضي! سنساعدك، ياسعاد! يساعدنها؟ هل يستطيع غرباء، مهما أحبوها، أن يرتبوا بيتها؟ قلن لأبيكن فضله كبير، لكني لن أغير بيتي!

في زيارتها إلى المعتقل أخبرت عبد الرحيم: كدنا نغيّر البيت لنضيّع الإنكليز! فهم من سخريتها أنها متعبة. قال: المهم ألا أخطئ في الطريق إليه، إلا إذا أردت أن تنزليني عن كتفك! تنهدت: البيت بيتك، مع كل من فيه! استقبل سخريتها الثانية بابتسامة. آه، ما في اليد، ياسعاد، غير الصبر! الصبر؟ تصبر أنت على الإنكليز واليهود، وأصبر أنا عليهم وعليكم! رجاها عبد الرحيم: أحتاج للوضوء "بوط صب" ماركة "تري اوغولنيك" من حيفا.

طال اعتقال عبد الرحيم هذه المرة. قالت: وصلت روحي إلى أنفي! الله يعين الناس، ياسعاد! رتبت بنات العكي لها زيارة تصرفها عن همها: لطفية وحدها. تعالي معنا لنزورها! رافقتهن ورأتهن ينهضنها إلى الحمام لتغتسل، ويخرجن منه محمرات الوجوه ينقط منهن البخار. غسلت خادماتهن خلال ذلك ثياب المرأة المريضة وشراشفها. الناس للناس، ياسعاد، والدنيا لا تدوم لأحد! تعالي! سنعزي زوجة محمداني. نعم، مات بائع الحلاوة أمس! رافقتهن. وفي الطريق بعد التعزية قالت: "تضربوا، ماناقصني همّ"! تساعد بنات العكي الفقير، ويخففن عن الوحيد. هكذا عكا ياسعاد! الواحد للكل، والغني للفقير! لكل مدينة أخلاقها! لم تعجبك عكا؟ بل هذا مايعجبها! جرتها بنات العكي إلى هموم الناس لتنسى همها! قلن: الحق معك! بكرة نروح إلى حديقة البلدية! لا، ستنزل سعاد غدا إلى حيفا لتلبي طلب عبد الرحيم! وبعد غد ستزوره في المعتقل! من له قلب للنزهة والثورة قائمة!

نزلت سعاد إلى حيفا لتشتري لعبد الرحيم الحذاء الصبّ الذي طلبه منها. حملته ومشت. استمتع به ياعبد الرحيم! وصلّ عشر مرات في اليوم! اضطرب السوق فجأة، دوى صوت الرصاص وركض الناس. دسّ رجل في يدها منديلا شعرت بصلابة المسدس فيه. أخفته تحت ملاءتها وهي تبتعد مسرعة. اختلط الدوي بدقات قلبها. تذكرت أنها أخفت مسدس عبد الرحيم تحت ملاءتها في مرة سابقة! أكلما نزلت إلى حيفا أقع في مغامرة؟! اخرجي، ياسعاد، من المنطقة التي سيطوقها الإنكليز! أسرعي! ابتعدي عن الناس، ففي البعد عنهم الآن الأمان! كان الأمان أيضا في ملابسها الأنيقة! هاأنت ياست سعاد اشتركت في عملية! إذا كان

www.alkottob.com

المقتول "ثقيلا" حضّري نفسك للمشنقة! وإذا كان "وسطا" فليحمل عبد الرحيم لك الطعام إلى المعتقل! أصبحت في أمان، ألذلك تهدئ نفسها بهذا الكلام؟! هاهي تمشي في هدوء، بعيدا عن الرصاص والسوق، بعيدا عن الخطر! ما أخف الإنسان إذا ركض من حلاوة الروح! تكاد تكون وحدها في الطريق هي وذلك الرجل البعيد! مرّ الرجل قربها: يرحم البطن الذي حملك، ياأختي! هاتي الأمانة! ردت إليه المسدس الملفوف بمنديل. واستمرت في طريقها.

تستطيع أن تفكر الآن في ابنها وفي أم عبد الرحيم! من سيمشط شعرك الطويل ياامرأة عمي، لو علقت؟ ومن سيرتب لك الفراش وينهضك إلى الحمام، ويبدل لك ثيابك كل يوم؟ زوجة قاض عاش في استنبول وتعودت الخدم والحشم! راح الخدم وبقيت سعاد! اطمئن ياعبد الرحيم! كدت أترك لك طفلا لترعاه! آه، تسلّي نفسها لأنها اطمأنت إلى أنها ستعود إلى من تركتهم في البيت! فلتستمتع حتى بترتيب ثلاثة أسرة!

وصلت إلى عكا مساء. أمام الباب كادت تصرخ: لو تعرفون ماذا جرى! لكنها دخلت صامتة. ستحجب ما جرى اليوم! لن تبوح به إلا عندما يصبح ذكريات قديمة. وجدت بنت العكي تحكي لزياد حكاية. عملت كراكوزا لابنك كي يضحك فإذا به يبكي! حرت في أمري. غديته مرتين! طبخت لك بامياء ورزا! وأطعمت "حماتك". كان زياد قد قفز وأمسك بثوب أمه. تركته يعانقها، لكنها ضاقت بيده التي شدت رقبتها. ما به اليوم؟ قالت لبنت العكي: وليتني وفّقت! اشتريت الحذاء الصبّ الذي طلبه عبد الرحيم، وضيعته وأنا أركض في السوق. ردت بنت العكي: يعني كان يمكن أن تتهمي بقتل إنكليزي أو يهودي فيلحقوك بزوجك! غلطتك أن تلبي طلب عبد الرحيم! الصغير قبل الكبير! قالت سعاد: والمعتقل قبل الحرّ! صحيح، لكن ياسعاد، زوجك معتقل سياسي وأنا ما ذنبي كي أصبح طباخة لك وكركوزا لابنك؟ تحاول بنت العكي أن تضحكها؟ نشف دمي وأنا أركض في السوق. خفت أن أبقى محجوزة في حيفا! لم أشرب ماء منذ الصباح!

وقفت بنت العكي: ولم تأكلي! اقعدي! سأسخن لك البامياء! تسخنها؟ أريد أولا أن أشرب! لم يتركها زياد. حاولت أن تبعده عنها فعض ذراعها وظل قابضا عليها بأسنانه. هبّ غضبها حتى شعرت على صدرها بقرع دقات قلبه فارتعشت وتأملته. خائف أن يفقدها! خائف عليها مما حدث في حيفا؟ احتضنته. لم يكن يقدّر الزمن عندما تركته في الصباح. لذلك ودعها في بساطة. لكنه الآن يخشى

www.alkottob.com

أن تغيب عنه. أمسكت بيده وقادته معها إلى المطبخ. شربت وتركت الماء يسيل على عنقها وزياد يمسك بها. أكلت وهو جالس قربها. في تلك الليلة قالت له ستنام معي في الفراش. ولاحظت أنه لم ينم حتى ظن أنها غفت. لن ينجدها بعد اليوم غير الست شفيقة!

في الصباح قصدت أن تبقى في قميص النوم كي يطمئن. مشطت شعره. يشبه شعرها، لذلك تركته منسدلا حتى كتفيه. لمست وجهه النظيف الطري براحة يدها. إذا أردت العب مع الأولاد، وإذا شئت ابق معي في البيت! اختار أن يلعب مع الأولاد. لكنه أطل مرات كأنه يبحث عن طابته أو يريد أن يشرب. ولم يبتعد وهو يلعب عن باب البيت.

كان واقفا كاللعبة عندما خرج مساعد حاكم اللواء مستر كوبرفيلد من بيت الممرضة يوركين في البناء المجاور. لمن هذا الولد الجميل الأشقر؟! توقف قربه: ما اسمك؟ زياد! أنت مسلم أم مسيحي؟ لا أعرف! ابتسم حاكم اللواء. سأله: أبوك من؟ أبي معتقل. معتقل لماذا؟ أبي سياسي! منذ متى معتقل؟ تأمل مستر كوبرفيلد الطفل. هل يولد الأطفال في هذه البلاد وهم يقبلون اعتقال آبائهم؟ التفت إليه: قل لأمك أن تواجهني عند مدام يوركين مساء!

نقل زياد الرسالة من مساعد حاكم اللواء لسعاد! هذا الطفل الذي ظنت أن له "فما يأكل وليس له فما يحكي"، يعرف أن أباه معتقل سياسي! يجب أن تحذره! يجب ألا يرى ما يجب ألا يعرفه! سألته مرة ثانية: ماذا قال لك الإنكليزي. وأوصته: تستطيع أن تقول شكرا أو عفوا، فقط. ولا كلمة أخرى. فهمت؟

في المساء أمسكت بيده وذهبت إلى بيت مدام يوركين. ما أبشع الإنكليز، رغم بياض وجوههم وحمرة خدودهم! بدا الرجل الذي يجلس أمامها لطيفا ومهذبا. لكن ذلك لن يغشها! رأت القنصل أبيلاّ في بيت أهلها في حيفا. وهو أهم من هذا. ورأت الضباط الأتراك والألبان والألمان في بيت خالها قدري. تتذكر ماذا قالت لها شفيقة يوم صرخت، دخل الإنكليز! رأى الناس دخولهم مصيبة. والحق معهم! من خرب هذه البلاد غير الإنكليز؟! قال لها مستر كوبرفيلد: يبدو أن حضرتك متعلمة! مرة أخرى فاطمة وأبيلاّ؟ روت له برشاقة دست فيها إبرها الواخزة أنها درست في مدرسة مس نيوتون الإنكليزية، ونحتت الملائكة والسيد المسيح والعذراء من الصابون، ثم درست في مدارس طبرية الرسمية على معلمات سوريات ولبنانيات وتركيات. لكن من يستطيع أن يلم بحضارة هذه البلاد التي كانت موجودة قبل أن توجد إنكلترا؟ علمها أخوها، الذي كان ينظم الشعر ويعزف على

www.alkottob.com

العود، أن هذه البلاد كانت مليئة بالمكتبات وكان طالبو العلم بقصدونها، لكن غزو المغول والتتر أحرق تلك الثروات. قالت: الاحتلال دائما وحشي يدمر حضارة البلاد التي يحتلها! ابتسم مستر كوبرفيلد: أنت ذكية ياسيدة سعاد! لكني أريد أن أصحح كلامك. كان المحتلون القدماء أقل حضارة من البلاد التي احتلوها. القاعدة مقلوبة الآن! على كل حال لم نحتل بلادكم بل نحن منتدبون عليها! لو أطلقت ما في قلبها لقالت فليفهم هذا الإنكليزي رأينا فيه، ولو بقي عبد الرحيم في المعتقل إلى ما شاء الله! ولصرخت بل أنتم محتلون. خنتم الشريف حسين ولعبتم بالملك فيصل، وسميتم بلادنا "أرض العدو المحتلة"! لكن سعاد لن تفقد طوال حياتها الصلة بين عقلها ولسانها. قالت له: على كل حال، العلم يامستر كوبرفيلد ليس فقط قراءة الكتب بل السلوك! قدمت مس يوركين بسكوتا إنكليزيا مع الشاي فنظر زياد إلى سعاد. هزت له رأسها فتناول قطعة من البسكوت وقال شكرا. قال مستر كوبرفيلد إنه أحب ابنها ويريد أن يساعدها. فما مشكلة زوجها؟ القصة أن زوجها كأهل هذه البلاد، ضد الهجرة اليهودية. زوجي وطني. لكنه لا يمكن أن يقتل. لأن القتل حرام عنده. وقد شهد له حاكم الصلح بأنه كان يرافع في المحكمة عنده وقت قتل ذلك الرجل. لكن في فمي بحصة أريد أن أبصقها يامستر كوبرفيلد! ابتسم: تفضلي، تفضلي! إذا قتل من يتعاون مع اليهود تقوم قيامة الجيش الإنكليزي، وإذا قتل عربي لا تسألون من قتله! إذا وجدتم فشكة صيد أو سكين مطبخ عند عربي تحكمون عليه بالإعدام، ولاترون أسلحة اليهود كلها! ابتسم مستر كوبرفيلد. لكنه لا يستطيع أن يعبر بالعربية. ترجمت يوركين كلامه وهي تبتسم أيضا: يبدو أنك أنت السياسية، ياسيدة سعاد. من أثّر منكما على الآخر، أنت أم زوجك؟ ردت سعاد: هذا الذي قلته سياسة؟ إذن أهل هذه البلاد كلهم سياسيون! فهل عندكم سجون تحويهم؟ استمع إلى كلامها لأنها أول امرأة مسلمة متعلمة تحاوره في بيت؟ لأنها سحرته بجمالها وقوتها؟ لأن العدو القوي الذكي يفرض الاحترام؟ تحدث عن القتل وتفجير القنابل. قالت: يزرع الظلم القنابل يامستر كوبرفيلد! لو قتل عبد الرحيم، مثلا، ألا تظن أن كل واحد من أقربائه الكثيرين لن يقتل عشرة إنكليز؟ ابتسمت لنفسها: أنا التي أهدده، لا هو! قال لها: ياست سعاد، أريد أن أساعدك. لا تظني أننا دون قلب! عندي طفل في عمر ابنك. تعالي لعندي في السرايا!

تفضل ياعبد الرحيم! ستقابل زوجتك مساعد حاكم اللواء في السرايا! يوم ذهبت إلى أسعد شقير تستنجد به كان ذلك أسهل. فهي صديقة بناته، وابنه أنور

www.alkottob.com

عزيز عليها. لكن أسعد شقير لم يظهر لها لهفة. ربما لأنه دون سلطة. وربما نصحها بما آمن به طول عمره. قال لها: ياابنتي، أفهمي زوجك أن من يعارض الحكومة يخسر! الإنكليز، أحببناهم أم كرهناهم، هم الحكومة الآن. ماذا كانت تستطيع أن تقول للشيخ الوقور يومذاك؟ تفرج، بلادك كلها أعلنت الثورة على الحكومة الإنكليزية!

وهاهي تصل الآن إلى السرايا والإنكليز! هذا هو الهدوء الذي أردته، ياست سعاد! هربت من اضطرابات الحب فوقعت في اضطرابات السياسة! تذكرت تلك الليلة عبد الرحيم الذي رأته نحيلا، مخسوفا، يمسك بنطاله بالشيالات والحزام. عرفت أن الماء ينقل للمعتقلين بالسيارة، وأنهم في الليل يقتلون العقارب وفي النهار يقتلون الحيّات. فهل تتركه يموت هناك!

أمسكت يد ابنها زياد وذهبت إلى خالاتها المسيحيات بنات قسيس: سترافقنني إلى مساعد حاكم اللواء! تعرفن لغته. بدا لها لأول مرة غريبا أن يكن مسيحيات مثله! تساءلت: دينكم واحد؟ مستحيل! ضحكن. انتبهت سعاد التي حملنها على أذرعهن يوم ولدت إلى أنهن مسيحيات، بعد تلك السنوات كلها؟ ذكّرتها بورينا: نحن فطمناك! وكنت تحبين كعك أعيادنا!

نزلت بورينا مع سعاد إلى السرايا. سرّ مستر كوبرفيلد أن يتحدث مع بورينا بالإنكليزية. لابد أنها حكت له عن أهل سعاد وأملاكهم التي بلعها اليهود. أوقفته أمام أحد ضحاياه؟ قال لسعاد: أستطيع أن أدفع لك خمسين جنيها في الشهر حتى يخرج زوجك من المعتقل. قاطعته قبل أن يسرد شروطه: يمكن أن أقبل هذا العرض من أقرباء. لكني لاأقبل قرشا من غريب. وثانيا سيقتلني الثوار إذا قبلت منك مالا. وأنت لا تريد أن يصبح ابني الذي أعجبك يتيما! ابتسم. هل كان يختبر شعبا بامرأة؟ المساعدة التي تطلبها؟ أن يخرج زوجها من السجن! أتوا له بإضبارة عبد الرحيم. أنت هنا في هذه الأوراق ياعبد الرحيم! قال مستر كوبرفيلد: زوجك خطر، لكني سأساعدك! اكتبي استدعاء وقدميه لي. لن تكتب كلمة دون أن تستشير أصدقاء زوجها المحامين!

نصحتها بورينا: "دقّي الحديد وهو حامي"! فلنذهب فورا إلى المحامي! ذهبتا إلى صديق عبد الرحمن فأملى عليهما استدعاء. عادتا إلى السرايا وقدمتا الاستدعاء موجها إلى مستر كوبرفيلد.

www.alkottob.com

لكن المصائب لاتأتي فرادى! سينسف الإنكليز دار عبد الرحيم في صفد، فاركضي ياسعاد! أمسكت بيد ابنها وخرجت من البيت. في السيارة قالت لنفسها: ماذا تستطيعين أن تعملي؟ تركضين كي تودعي الدار؟ كم من الأجيال عاشت في تلك السرايا! بقيت هناك أيام زواجها الاولى. اليوم الأول الذي تهيبت فيه الغربة في بيت كالقصر. كانت في ثوب نيلي. وسهرت مع أم عبد الرحيم الجالسة في سريرها النحاسي الواسع.

تذكرت في الطريق ما رواه لها عبد الرحيم. بنى جده تلك الدار على الطراز العثماني، من ثلاثة طوابق. وكلفته ملء الحضن من الذهب. جدرانها بعرض سجادة. واجهتها الواسعة من قطع الزجاج الملون. سعة بئر الجمع فيها تسعة حصر، لا ينفد منه الماء أبدا ويجري إليه من الجبل. في أيام الدولة العثمانية استأجرتها الدولة وجعلتها سرايا. جدد الخشب وقت زواج سعاد. تتذكر سعاد نوافذ المطبخ العريضة، الوجاقات الثلاثة التي بقيت جديدة لأن البلدية العثمانية لم تستعملها. تتذكر غرفة المؤونة الواسعة، والباب بين غرفة السفرة والمطبخ. لذلك قررت: يجب ألا يصل الخبر إلى عبد الرحيم في المعتقل!

هاهي تعود إلى صفد، وأية عودة! زوجها في المعتقل، وأمه في سريرها في عكا. وأخوه في عمان. وهي تقول للسائق في الطريق، أخي أسرع! والسائق يعرف أن الدار الكبيرة التي تشبه السرايا ستنسف. هانحن وصلنا، ياأختي! لم تنتبه إلى انعكاس الضوء على نوافذ صفد وعلى حجارتها! لم تر أشجار الحواكير والمناحل فيها! هبّ قلبها وهي تعبر طرقات صفد وتعترف بأنها أحبتها. وربما ما كان يجب أن تتركها! صفد على بوابة الشام! من سوق مدحت باشا في دمشق تشتري الصفديات ملاءاتهن البرتقالية! في صفد عاش السوريون الذين لجؤوا إليها بعد ثورة 1925 فأقاموا في بيوت أهلها كأنهم منهم، في وحدة فلسطين وسورية رغم خطوط الانتداب. من صفد نزل الناس ليحملوا الشهداء فؤاد حجازي وعطا الزير

www.alkottob.com

ومحمد جمجوم في حزيران سنة 1930 في الثلاثاء الحمراء. ومن صفد ذهب عبد الرحيم نائبا عن بلده إلى المؤتمر السوري الذي مثل بلاد الشام! تفضل، هاهم الإنكليز ينسفون بيتك ياعبد الرحيم!

كأنهم ينتظرونها! وهاهي ترى نسف بيت من ثمانين بيتا نسفها الإنكليز في شهر واحد في قضاء صفد، ومن آلاف البيوت التي سينسفونها! بيت أسرة كبيرة مات بعضها وسيبقى دائما ذكرها وأحفادها. تذكرت وهي ترى الإنكليز يحضرون نسف الدار، الكلمات التي سمعتها يوم وصلت إلى صفد:

يادار أبو زياد ياقلعة حديدية،

وشاروا عليها العدا ليهدموها،

فشرت لحاهم ماقدروا يجوزوها!

يادار أبو زياد يادكة على دكة،

وجيب الهوادج وصلنا على عكة!

هاهم العدا، يا من هزجتم لأبي زياد قبل أن يولد ابنه! نعم، تفرجوا! وأنت هل تفهم لغة البلاد التي أتيت لتهدم بيوتها؟ قل لي لماذا هذا الخراب؟ لا يعرف لغة البلد! ماذا يقول؟ يقول زوجك مخرّب! حرض على القتل! اسمع، ربما يتمنى جميع أهل البلاد لكم الموت، لكن كيف يحرض رجال معتقلون على العمليات؟ ياست زوجك مخرّب! وأنت ماذا تفعل؟ تخرّب بيتا لا يوجد مثله في بلادك! تعرف كم صرفوا على هذه الدار؟ رسم الإنكليزي الصليب على صدره وأمر بنسف الدار! اهتزت الأرض، تبعثرت الحجارة، وتكسر زجاج البيوت القريبة. ثم انتشر صمت لا مثيل له، كأن الانفجار ابتلع الأصوات كلها. ثم انسل من بعيد صوت عصفور. كم بدا أحمق! كم بدا طائشا! انتبهت سعاد إلى يدي زياد اللتين انغرستا في خصرها. ربما كان يجب أن تغمر وجهه بحضنها! كان يجب أن تعانقه حتى تحتويه كله. لا، فليتفرج! تفرج ياروحي، تفرج! لم يستطيعوا نسف الدار! تقاومهم! تفرج، كم غرسها في إخلاص من عمّرها! رأى زياد تحضير "القازانات" لنسفها. في الطابق العلوي الذي سكنت فيه مع عبد الرحيم رأت قطعة زرقاء من الزجاج لا تزال عالقة ببقية إطار من الخشب. تقدم رجل من سعاد. هذا الرجل من دار الحاج عيسى. قال: ياست سعاد، تفضلي إلى بيتنا! لا، يجب أن تتفرج حتى يسقط آخر حجر من الدار! حدثها عبد الرحيم في أول زواجهما عن زيارته إلى العراق. رجع يومذاك وهو يضع على رأسه الفيصلية. وروى لها أنه زار بابل. لم

www.alkottob.com

ير البرج المشهور. لكنه رأى أجانب وعراقيين ينقبون في المدينة. رأى أسوارها العظيمة، والثيران المجنحة المنحوتة في الطابوق على جدران شارع الموكب. في تلك الجدران على طابوق الأساس، نقش البناؤون أنهم شيدوه. كان كل ملك يشيّد أو يرمم يبحث عن هذا الحجر ويجب أن يجده أو يسجل آسفا أنه لم يجده. قال لها يومذاك: فهمت ياسعاد احتفالات القرية كلها ببناء بيت فيها، والفرح بضبط الأساس، والاحتفال بالبيوت. هذا احتفال بالبناء! ولذلك تبدو أكثر الدعوات شرا: يخرب بيتك! وهبها عبد الرحيم يومذاك شعورا بأنها تعيش منذ آلاف السنين، وهبها المدى في احتفالات كانت تظنها محدودة بزمنها ومكانها. ياعبد، لا يفهمون لغتنا لكنهم فهموا منها فقط "يخرب بيتك"، وحاربونا بها! يخربون بيوتنا، ويقصون شجر الزيتون الذي زرعه أجدادنا! بدا لسعاد أن عرق الإنكليزي الذي أمر بنسف الدار يسيل. ما أعجب هذا، يسيل عرق من يخرّب كما يسيل عرق البنّاء؟

وصل إلى سعاد صوت رجل يغني من بعيد:

دار أبو زياد سرايا، سرايا

ويادار العز تشرف عل قرايا!

دار أبو زياد عالية ع الناس

ياحجارها فضة وذهب روياص

عاداتها تضوي قناديل الذهب

مهباجها يضبح من الصباح

هل كان ذلك الرجل يرثي الدار؟

لم تدخل إلى بيت الحاج عيسى. وجدت سائق السيارة ينتظرها، مع أنها لم تطلب منه ذلك! قدم لها جرة ماء وكأسا فشربت وسقت ابنها. أعاد الجرة إلى أصحابها. لم تنتبه إلى النساء اللواتي دعونها مع أن الملاءة الصفدية لايمكن ألا ترى بلونها البرتقالي المتوهج! ستتذكر وهي في الطريق إلى عكا وجوه النساء وستنتبه إلى أنها لم تسلّم عليهن ولم تجب دعوتهن. لكنها ستنسى الدار والنساء وصفد وهي ترى ابنها غائبا عن الوعي. ظنته نائما، ثم سقط رأسه على جانبها. فصرخت: قف ياأخي، قف! تحتاج الآن جرة من الماء! سيركض السائق في لهفة باحثا عن الماء، وستغمر سعاد ابنها بدموعها حتى يفيق. قال لها السائق: حرام عليك أن تجرّيه معك ليتفرج على نسف البيت! كان يجب أن تتركيه في بلدك. تتركه؟ لا وقت كي تنادي بنات العكي، ولا وقت لتجد أي إنسان تستنجد به!

www.alkottob.com

قالت: تفرج أولاد الفلاحين مثل ابني على نسف بيوتهم، وتفرجوا على قتل إخوتهم وضرب آبائهم!

أطعمت ابنها، غسلت وجهه، بدلت ثيابه، لبست ملاءتها، واستأجرت حنطورا أوصلها إلى السرايا. ماذا قرأ في وجهها الرجل الذي قالت له: أريد أن أقابل مساعد حاكم اللواء؟ هل كان منظرها يبكي من يراها؟ عاد الرجل إليها وقال: تفضلي!

أمامها مستر كوبرفيلد. قالت له: نسفت الحكومة الإنكليزية دار أجدادنا. سيتعلم هذا الطفل كره الإنكليز! أهل زوجي كثيرون، فمن يستطيع أن يمنعهم من قتل الإنكليز؟ قال لها: سآمر الآن ألا تنسف الدار! ردت: نسفوها، وزوجي في السجن. هذه هي المدنية التي ينشرها الانتداب؟! انتبهت إلى هدوئه. وقالت لنفسها ماستكرره حتى موتها: "يخرب بيت الإنكليز شو دهاة"! اتصل بالتلفون وتحدث. وضع السماعة وقال لها: كلفنا نسف الدار كثيرا! بناء متين. اضطروا إلى نسفها بقازانات الطيران! قالت له: عرض الحائط سجادة، فمن اضطرهم أن ينسفوها! قال: نسف الدار قدر. قدر أن تنسف دار جميلة لا مثيل لها؟! قال: اذهبي إلى بيتك مستريحة. سيفرج عن زوجك. هذا وعد. قالت له في هدوء: في صفد أغنية ينشدها الناس. أتعرفها؟ لا! ماهي؟

صفد ياعالية وبراس تلة،

واللي يبغضك يصاب بمئة علة!

ابتسم: أنا لا أبغضها. صفد جميلة. وبراس تلة. فهمت أنه يريد أن يقول: هي تبغضني!

لو قال لها: قص الثوار أسلاك التلفون بين صفد وعكا فبحثنا عنهم في ميرون وسعسع. لردت: قصفتم القرى بالطيران، وخلال التفتيش خلطتم الزيت بالرز بالبرغل، وسرقتم حلي النساء!

بعد نسف بيت عبد الرحيم رفع أهل صفد احتجاجا إلى المندوب السامي بواسطة قائمقام صفد: نحن علماء صفد وأعضاء المجلس البلدي والهيئات الوطنية وممثلي الحرف الموقعين أدناه، نحتج على المظالم التي تنزل بنا.. أولا فرض منع التجول على الأحياء العربية فقط.. فتشت قوى الجيش محلتي الأكراد والصواوين وأتلفت الأدوات المنزلية والمؤن.. اعتقلت السلطة من الشارع بعض وجهاء البلد وقادتهم إلى الكامب وشغلتهم فيه وباتوا ليلتين دون طعام وفراش..

www.alkottob.com

كان المعلم أحمد عبده يدخل بيته فأطلق الإنكليز النار عليه وقتلوه. هرع أبوه إليه فأطلقوا النار على ساقيه. هرع شرطي عربي هو عزة الدبور فأطلقوا النار وقتلوه.. منذ خمسة أيام حتى الآن يمنع التجول في صفد فيعاني الناس من العطش..

عندما سيخرج عبد الرحيم من المعتقل ستطمأنه سعاد: نقل الإنكليز مكتبة أجدادك، قبل أن ينسفوا البيت، إلى بناء "تيغرت". وسيهز رأسه: المهم أنها لم تنسف! ستبقى المخطوطات الثمينة هناك حتى نهاية الانتداب. وسينقلها الإسرائيليون بعد الاحتلال إلى الجامعة العبرية في القدس. فتقول سعاد: أخذوا بلادا فقط؟ أخذوا بيوتا مفروشة، أخذوا مكتبات أجدادنا، أخذوا تنكات العسل المختومة للشتاء، حلي النساء المدفونة في الحدائق، الأشجار التي زرعناها وكبّرناها! أخذوا مدننا القديمة والجديدة.

في الأربعينيات ستخرج مظاهرة سيخطب فيها في جامع السوق، خوري مسيحيي صفد وسيهتف الناس: دولة عربية، إسلام ومسيحية، سيف الدين الحاج أمين، بدنا نحرر فلسطين. لكن صفد ستسقط وسيكون سقوطها كارثة تبكي منور وجيرانها في دمشق!

www.alkottob.com

كانت منور تتفرج أحيانا على جارتها هديّة التي تطعم القطط كل يوم. تصفّ هديّة صحونا قرب بابها، تسكب فيها قطع "المعلاق" "والشخت". كأن القطط تعرف موعد تلك الوليمة اليومية فتنتظرها. فيطل معتصم على القطط. ويقول بعد الفرجة: قطتنا ياسمينة أحلى! فتؤكد له منور: قطتنا شامية أصلية!

كانت تتفرج على هديّة والقطط عندما رأت بهاء قادما من أول الحارة مع رجل لا تعرفه. تركت معتصما مشغولا بالفرجة من الخصّ وعبرت الغرف. ستحضّر كأسين من شراب التوت!

من الداور سمعت بهاء يقول لزائره: نافع القدسي مدير الشرطة العام، عادل العظمة مدير الداخلية، سعد الله الجابري وزير الداخلية، مظهر البكري مدير شرطة دمشق، منير الريّس رئيس الشعبة السياسية! فماذا يقول أهل البلد إذا عرفوا أن الأمن العام الفرنسي سلم ثائرا فلسطينيا إلى الإنكليز ليشنقوه؟ سيقولون، ينفذ الوطنيون اتفاقات الانتداب الفرنسي والإنكليزي! لم ينس الناس بعد أن من إعلان استقلال سورية من دار البلدية رفض الوطن القومي الصهيوني! تفرجت منور على الرجل. وسمعته يقول لبهاء: اتفق وزير الداخلية مع مدير الأمن العام الفرنسي ألا يسلم الفلسطيني للإنكليز إذا لم يتسلل إلى فلسطين. لكن الرجل لم يلتزم بالشرط! تسلل واتصل بالثوار وربما اشترك في عمليات، فأحرج الحكومة! تبينه التحري الفرنسي في مقهى سوق علي باشا فاعتقل. ومع ذلك هرّبه التحري السوري. رأى ذلك نائب القنصل البريطاني الجالس في مقهى العباسية. فقامت الدنيا على الحكومة. من ناحية قامت عليها في الشاغور والميدان، فأتت وفود إلى فندق الاوريان بالاس لتقابل الجابري. ومن ناحية بدا للإنكليز أن الحكومة تتواطأ مع الفلسطينيين وأن الفرنسيين يقصّرون في منع التآمر عليهم. لايجهلون أن الأسلحة تتسرب من سورية إلى الثوار الفلسطينيين! هكذا صارت المعاهدة مع فرنسا على حافة الهاوية!

www.alkottob.com

انساق بهاء في الحوار. وحاولت منور ألا تضيع كلمة من كلماته، من خلال ستارة النافذة. قال: يردد وزراؤنا كلما "دق الكوز بالجرة"، إياكم، المعاهدة مع فرنسا على حافة الهاوية! هذا غير مقبول! كأن المعاهدة صارت هدفا فنسينا أننا رأيناها خطوة نحو الاستقلال! نهض بهاء ليأتي بإبريق الماء. وفهمت منور أنه نهض كيلا تنزلق منه كلمة زائدة. رجع هادئا. قال: أفهم أن التزام السياسيين يضطرهم إلى قول ما لايقبله الثوار! ليقل سعد الله الجابري ما يريد كي يبدو أمام الفرنسيين ملتزما بما اتفق معهم عليه: لا يسلّم الثوار الفلسطينيون اللاجئون إلى سوريا إذا التزموا بألا يعبروا الحدود ليشتركوا في عمليات في فلسطين! لكن قل لي، كيف نساعد ثورة فلسطين إذا أغلقنا حدودنا؟ كيف نساعدها إذا منعنا الثوار من تهريب الأسلحة إلى فلسطين، وإذا منعناهم من الاتصال برفاقهم؟ هل مهمة الحكومة الوطنية أن تحرس اتفاقات الإنكليز مع الفرنسيين؟ هل نعترف بأن الاتفاق على تبادل المجرمين ينطبق على تسليم الثوار؟ نحن لم نعترف بالاحتلال ولا بتقسيم بلاد الشام وسلخ فلسطين عن سورية!

بدا الواقع رهيبا في كلام بهاء. لكن بدا لمنور أن بهاء يضغط على محاوره بالمبالغة. قال إن الناس يختبرون الحكم الوطني الآن. سند الناس الكتلة الوطنية وقت كانت معارضة تقاوم الاحتلال. لكن وجودها في الحكومة يضعها وسط الامتحان: هل ستنفذ ما يرضي الوطنيين، أم ستساق في ما يطلبه الفرنسيون؟ رأيي؟ أثق بأن الفرنسيين لن يوقعوا المعاهدة! فلا تبحث عن رضاهم بالتنازلات! التفاهم مع الفرنسيين مرحلة موقتة قصيرة جدا. بل نحن في نهايتها! لا تظن أني أشك في سعد الله الجابري والعظمة والقدسي والريّس! هؤلاء وطنيون! لكن الناس لن يقبلوا ولن يفهموا أبدا تسليم ثوار فلسطينيين محكومين بالإعدام للإنكليز! أعرف أن الكتلة الوطنية في امتحان صعب! فلا هي قادرة على إنقاذ البلاد من الأزمة، ولا هي تستطيع أن تنسحب من مهمتها في حماية المعاهدة! لكن بين التعاون وبين تنفيذ أوامر الانتداب حدود دقيقة!

خرج بهاء مع الرجل الذي كان يحاوره. ولم يعد إلا في المساء. لكنه بدا لها راضيا. سألته: أخرجت الزير من البئر؟ تأملها زمنا. أخرجته، يامنور! يلاحق الإنكليز الثوار الفلسطينيين حتى هنا. يبدو لي أن القنصل البريطاني يقوم بنفسه بذلك! كانت الحكومة مضطرة إلى تسليم ثائر رصده الإنكليز وبلّغوا عنه التحري الفرنسي. لكن منير الريّس رئيس الشرطة السياسية والبوليس السوري هربوه. انزاح حجر عن كتفي، يامنور! سألته: الثوار المطلوبون كثيرون في الشام؟ رفع نظره

www.alkottob.com

إليها متسائلا ماذا تقصد. هز رأسه. قالت: لو سلّم واحد منهم لهاجرت، من الخجل، إلى مصر! إلى مصر، يامنور؟ تهربين من الفرنسيين إلى الإنكليز!

في اليوم التالي فحصت منور بيتها. وتبينت أن الغرفة على السطح مناسبة. هذه الغرفة جميلة! وكم تحبها منور! هي حقا كما تسمى، "طيارة"! في أيام الصيف نامت فيها منور تحت الناموسية المكعبة، الواسعة كغرفة، واستمتعت بضوء القمر الذي زاد الناموسية بياضا. رأت زخرفة ظلال الدرابزين مرسومة على الأرض قرب بابها. وأحبت فيها البرد في الشتاء. وقصدتها، تحت المطر، لترى البرق يضطرب فوق السماء بخيوطه السريعة. كانت تترك أغصان الدالية تتهدل على أطراف نافذتها، وتحرص ألا تمس العناقيد على تلك الأغصان لتستمتع بمنظرها. وكانت تصفّ أصص الفريزينة الصفراء والبيضاء أمامها، فيقول بهاء: يكاد يغمى علي من فوحها! فترد: توقعت أن تقول لي إنك تطير على عبقها! هل سمعت بإنسان يغمى عليه من عبق الفريزينة؟ وكانت تضحك: زر الطبيب بكرة!

رتبت منور الفراش في تلك الغرفة، مدت شراشف نظيفة وغطاء أبيض جديدا. وضعت على الطاولة إبريق ماء وكأسا. على السطح حنفية ماء الفيجة، وحمام صغير. لا يحتاج من يقيم في هذه الغرفة غير الطعام!

حرست منور تلك الغرفة منذ حديث بهاء عن تسليم الثوار الفلسطينيين، كأنها مؤتمنة عليها. وحرمت نفسها من النوم فيها أيام القمر. قالت لبهاء: أحب المشرقة لأن الياسمينة على كتفها! وعاد بهاء يكتشف جمال المشرقة في أيام القمر. قال لها: البيت الجميل نعمة! قالت: اشكر جنة خاتون التي اختارته! من كان يفكر في أن جنة خاتون، الحاجة المنصرفة إلى عبادتها وصدقاتها، الملتزمة بصلاة الفجر في الأموي في البرد وفي الحر، تملك هذا الذوق الرفيع فتزرع الياسمينة حيث يجب أن تزرع، وتختار المكان المناسب لشجرة المنوليا كي تكون كالباقة قرب نافذة إحدى الغرف في الفوقاني، وتحرص على أن تزين شجرة النارنج نافذة من نوافذ غرف النوم! كيف لم يخطر لمنور أن تفكر بمن رتب لها هذا البيت، مع أنها تعيش فيه وتستمع به؟ لم يخطر لها أن تتذكر من زرع أشجاره ومدّ عرائشه، وهي تأكل من عنب داليته وتحبك العقود من ياسمينه، وتجمع الباقات من بنفسج أحواضه! ما أعجب أن تفنى جنة خاتون وشجرة النارنج التي زرعتها ما تزال تعطي الثمار التي تحضّر منور منها مربى النارنج! تسلل الأسى إلى منور. واستسلمت له كما تستسلم للسعادة. لم الأسى يامنور؟ ألأنك وأنت تشعرين بعراقة بيتك في سوقساروجا تتبينين أن تلك العراقة شيدها أشخاص

www.alkottob.com

غابوا، والغياب مؤلم على الباقين مهما تظاهروا بأنهم نسوه؟ بدا لها بريق الحياة قائما على الغياب كما يقوم على التجدد. لكنها ظلت دهشة من بقاء الأشجار والعرائش بعد من زرعها. تدهشين يامنور؟ لولا ذلك لما كان سطحك ظليلا، ولما تبادل الناس غرسات الدوالي النادرة ليضيفوا بهاءها إلى البيوت، ولما كانت دمشق مزينة خضراء!

تابع معتصم صمت أمه. لا تخفى عليه الأمواج التي تغيب تحتها وتطفو عليها! لو تعرف كم يرعبه أساها! كأنه سيفقدها ويصبح وحيدا دونها! وضعت ذراعها حول كتفه وشدته إليها: تفرج على شجرة النارنج! حلوة؟ حلوة! اعرف إذن أن جدتك زرعتها! لكن هل يخطر لك أن ذلك البنفسج في الأحواض يعيش من أيامها؟!

عندما كانت منور تحضّر الغداء بحث معتصم عن السلحفاة، ورأته منور يحملها باحثا عن مكان يضعها فيه. لماذا يامعتصم؟ كيلا تأكل البنفسج! آه، مازلت هناك! أعدها إلى مكانها! لا تخف على البنفسج! عاش حتى اليوم وهي في وسطه! لكن تعال! سنغسل شجرة النارنج!

سمع بهاء الماء يتدفق في أرض الدار. عبر الممر فرأى معتصما ومنور يتسابقان في سكب الماء على شجرة النارنج. توقف يتفرج عليهما. كانا مبللين بالماء، والماء يسيل من أذرعهما، وينقط من أوراق الشجرة، والماء على حجر أرض الدار، والماء يسيل على طرف البركة ويظهر رسومها. كانا يلعبان! يتسابقان! من يستطيع أن يسفح الماء من مكانه إلى أبعد مسافة يستطيعها! ارتفع الماء من النافورة، تدفق من فم الأسدين على طرفي البركة، وسال من حوافها. نسيت منور الغداء! منور التي تعودت حتى اليوم أن تكون طاولة الطعام حاضرة في وقت لا تؤخره!

غسلت بهاء السعادة التي فاجأته. لا ينقصها إلا طفل آخر! اسكت يابهاء! انتبه إلى ما في يديك! تمنى أن يعانق منور، وأن يحمل معتصما ويدور في أرض الدار معلنا فرحه! تمنى أن ينشر ذراعيه شاكرا الحياة التي وهبته هذه المرأة وهذا الولد! لكن الوقت ضيق، ففي القيلولة التي يسترخي فيها الحي سيصل الضيف إلى بيت بهاء. فهل لديه الوقت كي يجفف الماء المسفوح على أرض الدار، ويخرج من السعادة إلى الجد؟ هل لدى منور الوقت لتكون جاهزة لاستقبال الغريب؟

سعل كما يسعل الرجال ليعلنوا أنهم هنا فتجد المرأة الوقت لتستتر منهم!

www.alkottob.com

سعل وهو ينظر إلى الأرض. فضحكت منور. قالت: "يالله، ياساتر"! كان يتفادى أن يعانق منور أمام معتصم. فرفع كفها وقبّلها! هل لدينا الوقت لنجفف أرض الدار، يامنور، ونحضّر غرفة لضيف سيصل بعد الغداء!

لديه حتى الوقت ليشرب القهوة في أرض الدار مستمتعا بالرطوبة! التصق به معتصم: غسلنا شجرة ستي جنة خاتون! آه، إذن كنتم تغسلون شجرتها؟! لا تملّ منور أبدا من اختراع أعيادها! تستطيع أن تجمع حكمة امرأة مع طيش مراهقة! لأنها تشعر دائما بأنها حرة! هذا ما يجب أن تحرسه، يابهاء، كي تبقى منور نبتة برية سعيدة بفلاتها، متوهجة كشقائق النعمان!

قال لها: حكيت لك عن الثائر الفلسطيني الذي كادت الشرطة الفرنسية تسلمه للإنكليز! لدينا الآن رجل مثله، من حيفا. سنستضيفه في بيتنا. مارأيك؟ أنا الذي دعوته، لكنك أنت التي ستبقين معه في بيتك، أنت التي ستقدمين له الطعام، أنت التي ستتحملين سره! هل تقبلين ذلك؟ سوقساروجا مكان غير مناسب لإخفاء غريب. سندبر له مكانا في حمص. قد يبقى هنا يومين وقد يبقى اسبوعا! كأن منور لم تسمعه! سألته: من حيفا؟! تعال معي، يابهو! صعد خلفها الدرج الحجري الأسود، عبر الداور، عبر المشرقة، ثم صعد على الدرج الخشبي إلى السطح. فتحت باب "الطيارة" فرأى فراشا، وطاولة وكرسيا. قالت: سيقيم هنا! تأملها. هل توقعت الضيف لذلك تفادت أن تنام في "الطيارة"، كأنها لم تعد من حقها، أو كأن طارقا سيأتي إليها في منتصف الليل طالبا أن تلجئه؟ تربكه منور أحيانا فلا يستطيع أن يعانقها أو يشكرها. تجمح وتسبقه دون أن تلوّح له بيدها! لكنه انتبه إلى غياب الناموسية. ألم يفهمها؟! على الناموسية آثار حبهما في ضوء القمر. لا يجوز لأحد أن يرى أطياف تلك السعادة. هذا مثل كشف سر من الأسرار! لا يبالي بهاء بتلك التفاصيل؟ ما أدق منور في حفظ أسرارها! نعم، هذا مثل الإعلان عن ملجأ ضيفه في هذه الغرفة!

فكر بهاء فيما بعد بمعتصم. هل يكذب عليه فيقول له هذا قريبي، أو قريب منور؟ هل يطلب من منور أن تخفي الضيف عنه؟ تبين أن منور فكرت في ذلك قبله. سبقته مرة أخرى! قالت له: تأخر معتصم في العشاء كي يأكل معنا! لا وقت لبهاء كي يسألها ماذا تقصدين فالضيف جالس في الصاليا. كأن منور تقوده ولا وقت كي يسألها إلى أين. رأى معتصما يصفّ الصحون ومنور تشير إليه: هنا سيجلس الضيف، هنا أبوك، هذا مكانك وأنا إلى جانبك!

رمت منور غطاء أبيض مطرزا على رأسها، وبقيت في ثوبها الأخضر.

www.alkottob.com

قدمت الضيف لابنها: يامعتصم، ضيفنا من البلد الذي ولدت فيه في فلسطين! وقالت للضيف: هذا معتصم. لم ينم كي يتعشى معك. يسهر لأول مرة حتى هذه الساعة! قدم الغريب نفسه: هشام! وهو يعرف أن منور تفهم أن هذا الاسم لايعرّف به، وقد يتغير غدا. لم تسأل منور بهاء عن أصله ولو لتعرف أسرته الحيفاوية! قدر الثوار أن يبدوا كرجال مجهولين دون تاريخ وأسر وأهل، وأن تكون أسماؤهم التي عرفوا بها منذ الطفولة خطرا عليهم!

تابع بهاء ابنه خلال العشاء. راقب انتباهه إلى كلام الضيف. هل قصدت منور أن تسأل الضيف عن حيفا كي يصفها أمام معتصم؟ همس بهاء لنفسه: لم تطلبي ذلك من سعاد، يامنور، فلماذا طلبت ذلك من الضيف؟ استمتع معتصم بحديث الغريب. من حظ منور أنه يجيد الكلام! ما كانت لتطلب منه أن يحدثها عن حيفا لو لم تخمن أنه ممن يستطيع التعبير عما يعرفه! بدا لها أن ابنها يتبعه صاعدا جبل الكرمل، ماشيا حتى نهر النعامين، عابرا سهول فلسطين المزروعة بالسمسم، وجبالها التي تطل على الساحل من تحت شجر الزيتون، ويلمس اتصال البلاد التي قسمها الفرنسيون والإنكليز. يالدهاء منور! من هناك رافق معتصم الضيف فوصل معه من مدينته إلى دمشق كما كانت تصل إليها أمها فاطمة، وكما كانت تصل هي إليها قبل الانتداب. يختبئ الضيف في بيت بهاء لأن الانتداب رسم حدودا بين بلاد يسكنها أهل منور! لذلك قالت للضيف: كنا نركب القطار من الشام ونصل في اليوم نفسه إلى حيفا، لا بازاربوتات ولا حدود! ولذلك قالت له: تصور، كي أزور قبر أبي في حيفا أو قبر أمي وخالي في طبرية يجب أن أطلب جواز سفر من الفرنسيين، وأن أعبر حدودا عليها من طرف فرنسيون ومن الطرف الآخر إنكليز! كان العشاء إذن لمعتصم كي يفهم أن الرجل يقاوم الغرباء الذين نزلوا في بلده وأبعدوا أمه عن أختها وعن قبور أهلها! ولذلك يجب أن يحميه. فلم تكن في حاجة إلا لجملة واحدة في الصباح: يامعتصم، لا تقل أمام أحد عندنا ضيف!

فتحت منور لمعتصم دنيا. صار ينتظر الضيف وقت الفطور، ويجلس إليه في الغرفة على السطح، ويسمع حكاياه. كأنه رأى شجر الخرنوب الذي لايعرفه، وتفرج على البحر الذي لم يره بعد. سمعت منور الضيف مرة يغني موالا لمعتصم. نسي معتصم الفرجة على هديّة والقطط طوال أسبوع. حرص الغريب على الجلوس إلى جانب معتصم وقت الفطور والغداء. وبدا لمنور أنه ينام مبكرا في انتظار أن يلتقي بالضيف في الصباح.

www.alkottob.com

عندما ودع الضيف منور رأت أسى معتصم. قال له الرجل: يامعتصم! قررت أن أتزوج ليكون لي ولد مثلك! وسأدعوك لتحضر عرسي! ابتسم معتصم لكن منور شعرت بالحزن. يحرّم هؤلاء الرجال على أنفسهم الأسرة والحب، وقد يقتلون دون أن يكون لهم ولد! من كان له أولاد وزوجة قبل الثورة فربما نجا. أما من صادفته الثورة في شبابه فمن أين له الأمان كي يتزوج؟ ذاق سعيد العاص العذاب وهو يرى امرأته المحبوبة تموت من الفقر، وترك طفلة يتيمة بعد قتله!

قالت منور للغريب وهي تودعه: الله معك! وكانت تقصد أن تكون السماء والأرض والعواصف والأمطار والصواعق وظلال الأشجار معه على أعدائه!

www.alkottob.com

بعد شهرين، بحثت منور في ذاكرتها عن أحد الأيام. وخيل إليها أنها وجدته! وصل بهاء يومذاك مشرقا. سمعته يصفّر وهو يعبر الممر بين المطبخ وغرفة الطعام، فأطلت من النافذة على أرض الدار ورأت رأسه يتمايل وهو يصفّر. يرقص؟ وما هذا اللحن؟ فتح نافورة البركة، وحرك سطح الماء بكفه. يلعب؟ كأنه صغر عشر سنوات! مرر كفه على الريحان وشم في نشوة العبق الذي تركه الريحان على كفه. مابه؟ قد يخفي الإنسان الحزن غيرة على الكرامة، لكن من يستطيع أن يخفي الفرح!

أسندت ذراعيها إلى النافذة وتأملته. بدا لها وسيما، لكنها تبينت من مكانها في الفوقاني أن بعض شعره ابيض. وبدا لها غريبا أنها لم تنتبه إلا إلى بداية البياض في فوديه. هل يفوتنا أن نتأمل أحباءنا وأولادنا وأصحابنا لأننا نراهم كل يوم؟ هل شغلها الحديث مع بهاء عن الانتباه إلى التفاصيل التي ظنت أنها تعرفها، وهاهي تكتشفها الآن؟ كأنها كانت ترى مقاطع من بهاء، فقط، وكانت تنتبه إلى بعضها فقط، والآن تحيط به، كله! كفى يامنور، أنت كمن يعيد في كل منعطف النظر إلى نفسه وينثر لومه عليها يمينا ويسارا!

بقي بهاء غارقا في أفراحه زمنا. لم يخطر له أن يسأل عن منور لينقلها إليها! في قلبه إذن مساحات يستمتع بها وحده مهما عشقها! يصعب عليها أن تعرف كم من الوقت راقبته وهو يتجول بين أصص الأزهار التي ما تزال رطبة من سقاية الصباح. فالوقت بينهما طويل في غيابه وكالومض إذا حضر! رأته يمشي في أرض الدار كمن يتنزه. في فرحه اضطراب، إذن! فماذا بعد؟ وقف قرب الأرطاسيا النيلية والصفراء والزهر ومد كفه ولمسها حذرا. فقدّرت أنه سيرفع رأسه باحثا عنها في البرهة التي رفع فيها رأسه إليها. ألأن هذه الزهرة من أزهارها؟ أم لأنه اكتفى من الاستمتاع بفرحه وشعر بالوحدة وهو يتجول فيه دون من يعرضه أمامه؟ ابتسمت منور عندما التقى نظرهما. حاولت أن تصفّر. كانت تراقبه إذن!

www.alkottob.com

طلب منها بالإشارة أن تنزل إلى أرض الدار، وطلبت منه بالإشارة أن يصعد إليها. "يادادا مابنزل، مابنزل مابنزل، مابنزل إلا بحلق ألماس"؟ لمس ذقنه. يرجوها؟ نزلت!

رآها من أول السلم. كالأميرة في الحكايا! كفاطمة المغربية، لكن شقراء ورشيقة! رأى قامتها. حقا، ننتبه إلى مقاطع من الإنسان فقط وهو قريب منا! هاهو يرى منور كلها ويشعر بأنه محظوظ بامرأة أنضجها الزواج وزادت الأمومة في بريقها. تناولها من آخر الدرجات فخافت: انتبه، ظهرك! حملها إلى الديوان وأجلسها عليه في صدر أرض الدار. يامنور، وصل صاحبنا، ضيفنا، سالما إلى حمص! وجدنا له مأوى في الميتم وسميناه "الحجي"! لذلك إذن تغمره الأفراح! لم أخبرك، يامنور، أن ضيفنا محكوم بالإعدام في فلسطين! تستحق حياة إنسان الاحتفال، يابهاء!

خيل لمنور أن ذلك اليوم مختلف عما سبقه وعما بعده من الأيام. كأن البيت كله اغتسل بالفرح. شبع من الفرح حتى الصغير معتصم! وشبعت الحارة من أفراح بهاء! أمسك بهاء بيد معتصم وخرجا من البيت. اشترى له غزل البنات الأبيض كالصوف المندوف. جلس معه على كرسي أمام صندوق العجائب قرب الفيجة، مقابل المقهى، وتفرجا على الظاهر بيبرس واستمتعا بالعرض! "تعا تفرج ياسلام، على فاطمة المغربية ياسلام"! طلب معتصم أن يتفرج على "الفيلم" مرة أخرى فوافقه بهاء. رأى صاحب مقهى سوقساروجا بهاء جالسا على المقعد الخشبي يحيط بكفيه عدسة الصندوق، مثل ابنه تماما، مصغيا إلى صاحب صندوق العجائب! سأله: بهاء بك، لم يشبع معتصم من مرة واحدة؟ رد: أنا مثله! تفضل شاركنا، على حسابي! وقال له عندما نهض: إذا أعدت كراكوز وعيواظ غدا سأشرب كأس شاي عندك! الله يسامحك، يابهاء بك! كأنك لا تعرف أن الانتداب منعه! أوصل بهاء ابنه إلى بيت نفيسة محملا بالكعك الطري المرشوش بالسمسم. استقبلته مرجانة. قال: الكعك لك، ومعتصم لنفيسة خانم! سمع صوت نفيسة من أرض الدار: تعطيني معتصما حقا، يابهاء! تعال ياروحي! تناولت مرجانة الكعك وسبقها معتصم إلى نفيسة.

مشى بهاء في سوق الصاغة كمن يتنزه. مع أنه يعرف أنه يقصد الصائغ الذي تعود أن يشتري منه هداياه لمنور. استمتع بأناقة القطع المعروضة في الواجهة. لكنه بقي حائرا لا يفضل إحداها على الأخرى. على طاولة الصائغ فقط فوجئ بما تمناه. وعاد من السوق وهو يلمس علبة صغيرة في جيبه. بقيت من

www.alkottob.com

طفولته ذكرى قرط أمه. قرط فيه حبة ألماس وحبة ياقوت. بقيت من ملامح أمه ما يحفظه طفل في الخامسة أو السادسة من العمر. لكن القرط بقي في ذاكرته. خيل إليه أنه وجده على طاولة الصائغ. ففرح به كما يفرح إنسان بلقية. لكن الأسى غمره عندما أصبح القرط في جيبه. اشترى قرطا قديما، فهل يمكن أن يكون قرط أمه قد تنقل بين النساء حتى وصل إليه؟ لم يقصد مرة شراء حلي قديمة لمنور، لكنه كان يتبين دائما أن الحلية التي تعجبه قديمة. فصار الصائغ ينتقيها له، لكنه لا يعرضها عليه حتى يراه ملّ من الحلي الجديدة. في هذه المرة بدا له أن الدنيا كافأته بقرط يشبه قرط أمه! لكن هاهو ينتبه إلى الحزن الذي تحمله الحلي القديمة! تعيش بعد من تزين بها، ولا تبالي بمن تركته، فالمهم أن تفرح من يستطيع أن يشتريها! كفى! لمس العلبة الصغيرة في جيبه، ومشى إلى منور منصرفا إلى أفراح ذلك اليوم العظيم! كأنه يرتعش من الشوق إليها!

نهضت منور لتسدل ستارة النافذة. لا، لماذا تتخفين عن شجرة النارنج! قدّر للناس أن يخفوا دقائقهم الجميلة لأنها عزيزة وحميمة! قدّر لهم أن يستبقوا رشاقة الحب وأناقة الحركة لتكون كنزا سريا! فدعي السماء على الأقل تطل علينا! راقبا أول العتمة. بدا لبهاء أن ضوء المساء مدهش على بشرة منور. وتاه في لون عينيها. وبدت السماء مدهشة لمنور بسعتها ولونها. تحاول دائما أن تلتقط لون السماء وقت تصبح نيلية. لكن هذا اللون يغرق مسرعا في العتمة! سرى فيها مع الفرح شيء من الأسى. ما بك يانوّارة؟ لا تخف! كأن الأسى ملازم للفرح! إشارة إلى رعشتنا أمام سعته وعمقه، ومن خوفنا عليه! انتهى النهار! وإذا ما حزنت يوما على الدنيا فسيكون حزني على هذا الوقت من اليوم! ضحك: والفجر؟ نسيته؟ آه، يذكّرها بأوقات الحب!

تناول بهاء العلبة الصغيرة، واتكأ على مرفقه: اغمضي عينيك، يانوّارة! وضع القرط في أذنيها. سألته: حلق ألماس؟ قال في جد: وفيه ياقوت! آه، يابهاء! لم أنزل إذن إلا بحلق ألماس، فيه ياقوت أيضا!

قالت منور لنفسها وهي تستعيد ذلك اليوم، لابد للحب من الفرح! لابد للحب من الحرية كي يتمطى ويقفز ويجمح ثم يستمتع بهدوئه. والحرية مستحيلة دون فرح. والفرح مستحيل في هذه الأيام دون انتصار! كنا في ذلك اليوم نحتفل بالانتصار! ترك بهاء منور مضطرا. يجب أن يأتي بمعتصم من بيت نفيسة! لو كان يستطيع أن يغفو ساعة فقط، هانئا مسترخيا على سعادته وذراعه تحت عنق منور!

www.alkottob.com

كأن منور وضعت سبابتها على ذلك اليوم، وقالت: وقتذاك! تذكرت أنها سخرت من سعاد يوم نصحتها: لا تتركي ابنك دون أخ وأخوات! فسألتها: صار الصغير ينصح الكبير؟ وأعلنت مثل قاض: هذه الدنيا مضطربة لا تتحمل أكثر من طفل! هل عرفت نفيسة ذلك الحوار فقالت لمنور: اسمعي! لا تبرمجي الطفل أبدا على الأحوال العامة! للأطفال زمن يولدون فيه فقط، لا بعده! لست أكثر أشغالا مني، والدنيا ليست أكثر اضطرابا مما كانت يوم ولدت ابنتين! كادت منور تتألم من سخرية نفيسة: هل تريدين أن يظنوا أن أمهم جدتهم وأبوهم جدهم؟!

يبدو أن الحياة دفعتها لتتجاوز قرارها! ذعرت يوم شكت في أنها حامل. وكتمت حيرتها وغضبها في نفسها. لاحظ بهاء صمتها وغيابها عنه وهي أمامه. وخشي أن يسألها ما بك. وكأنها انصرفت إلى حساب الأيام والساعات لتتبين هل دفعها بهاء حيث لاتريد، وهل غرر بها؟ ثم رآها تصفو كسماء صحراء هطلت سحابتها. عبقت منور ورأى أنها تحاول أن تخفي عبقها. وكأنها تكتم خطأ كادت تحاسب آخر عليه فتبينت أنه خطأها. خطأ؟ قالت لنفسها مداعبة: بل سعادة! وبدأت تعنى بنفسها. سألت نفيسة: ياعمتي، من أين اشتريت العسل بشهده الذي أهديتني قطرميزا منه في السنة الماضية؟ وسمعها بهاء مرة تسألها: هذا وقت الدراق الزهري؟

انحنت منور على نفسها كأنها تحفظ سرا تستمتع به ولا تريد بعد أن تعلنه. سمعها بهاء مرة تتمتم أغنية وهي تشطف أرض الدار مع معتصم بعد الظهر. انتبه إلى حرصها ألا تملأ السطل الذي تغرفه من البركة وتسفحه على الأرض. راقبها وهي تلتزم ذلك الحذر ولا تخرقه. فسمع صخبا في صدره: معقول؟ ولماذا تتكتم على ما يفرحه؟ نزل مسرعا إليها وقال مداعبا: أطلب الإذن بأن أستمتع بالماء! ردت: استحم! الماء دافئ في الحمام! لا، لا، أطلب أن آخذ عنك شطف أرض الدار! أم احتكرت أنت ومعتصم اللعب بالماء؟ يعرف بهاء أن منور لا تترك هذه المتعة لأحد. تشارك فيها ابنها لتفرحه فقط. لن أدلك بهذا، يابهاء! رجاها لكنه لم يحاول أن ينتزع المقشة من يدها. وبدا له القبقاب المصدّف الذي تلبسه وهي تشطف خطرا عليها. قد تقع أو قد تتزلق! أرض الدار ليست بلاطا، يابهاء! بل حجر يمسك بالقدم. ولماذا لم يخطر له قبل اليوم أنها قد تتزلق؟ فحصت ملامحه. رأت وجهه يشف عن اللهفة فقط. آه، من هذا القبقاب! سيخفيه في قفص الحَمَام على السطح! وما أغرب أن يكرهه الآن! كان رنينه الأنيق يطربه ومنور تعبر أرض الدار!

www.alkottob.com

قبّل كفيها ورجاها أن تسمح له بأن يحضّر العشاء. شربا الشاي العابق بالقرفة، في المشرقة قرب الياسمينة. ما أطيبه في برد المساء! انتظر أن تبوح له بكلمة يتمناها. لكنها غفت في ذلك المساء بسرعة كأنها متعبة. وفي الصباح تركته يطعم معتصما وبقيت نائمة. هل يخطئ في هذه الإشارات؟ مع ذلك بقيت صامتة. بعد أيام سألته وهي مستلقية ووجهها إلى السقف المرصع بالمرايا الصغيرة: هل طعّم خشب السقف بالمرايا ليوهم من يستلقي تحته بنجوم السماء؟ ربّت على ذراعها من كفها حتى كتفها وهو ينحني عليها: صحيح يامنور! سماء الشرق عظيمة! عيوننا منذ الصباح عليها لنتبين الطقس. وعيوننا في الليل عليها لنتبين النجوم ونعرف عمر القمر. لذلك استبقاها أهل هذه البلاد في بيوتهم بأرض الدار، ومرايا السقف، وسطح البيت. بماذا يذكّرها؟ كم مرة ناما تحت السماء على السطح! كم مرة بردا في الفجر فحملا الشرشف ونزلا ليكملا نومهما في الغرفة! كم مرة قاوم أحدهما برد أواخر الليل بدفء الآخر كيلا يقطع الغفوة الحلوة بالنزول إلى البيت! قالت: لكني لم أر السماء في الصحراء كما رآها قيس! قيس؟ لماذا خطر في بالك؟ لأني اخترت اسم ليلى إذا ولدت لنا بنت. أفضل أن تكون لدينا ليلى! أنا موقنة بأني أشعر بها! تنهد بهاء، عانق منور، ونهض مضطربا من الفرح. ألم تختاري وقتا غير الليل لتخبريني بهذا الخبر العظيم يامنور؟ أشعل الضوء فأغمضت عينيها: أطفئه! ركع قرب السرير وقبل ساقيها وقدميها. أرجوك يابهاء، أريد أن أنام! لا تقلقي، إذن، إذا خرجت من البيت. بعد منتصف الليل؟ طار النوم من عيني، يامنور!

لبس بهاء ثيابه ونزل السلم في هدوء. عبر حارته في سوقساروجا، عبر البلبانية وصيدلية ميشيل، وحمام الجوزة، وضريح صارم الدين ساروجا، ومقهى كراكوز، وجامع الورد. التقى بالحارس الذي كان يمشي وهو ينقر الأرض بعصاه. خير، بهاء بك، إلى أين في الليل؟ إلى الصالحية، تعال معي! لمن أترك "مأموريتي" يابهاء بك؟

www.alkottob.com

أفاقت سعاد مبكرة. الطنجرة الكبيرة جاهزة مع سلة من الخبز. سيرافق زياد ابن الجيران إلى معتقل المزرعة. برّاكات من التوتياء حولها أسلاك شائكة. تساعد التوتياء الإنكليز في تعذيب المعتقلين! فيبردون في الليل ويعانون من حر النهار! فلنخفف عنهم بالطعام الطيب!

ركب ابن الجيران الدراجة، وعلّق على ذراعها سلة الخبز، وضع طنجرة الطعام على المنصب خلفه، وجلس زياد أمامه على قضيب الدراجة. سيسوق الشاب الدراجة خمسة كيلومترات تقريبا ليصل إلى المعتقل. وسيتناول منه بوليس عربي سلة الخبز وطنجرة الطعام. وإذا صادف مستر بايك، مدير المعتقل، الشاب والصبي سينظر إلى زياد ويقول له: ستكون مثل أبيك! وسيلتقط الطفل الكره في كلمات مستر بايك! فيقول لسعاد: يكرهني مستر بايك!

في يوم الزيارة الأسبوعية تذهب سعاد مع زياد. يصرخ عبد الرحيم لتسمعه وسط صراخ الزوار. لا يستطيع أن يطلب من الرجل الواقف قربه أن يخفض صوته برهة، ولا تستطيع سعاد أن تطلب من الزوار الواقفين قربها أن يخفضوا أصواتهم برهة. تشفق عليهم لأنهم أتوا من الخليل، فخرجوا وقت الفجر ليصلوا في وقت الزيارة!

تعود سعاد من تلك الزيارات بالغم. لكن الزيارة تطمأنها على عبد الرحيم. لم ينحل كثيرا! وليست عليه آثار تعذيب! يجب أن تكتم غمها وتتظاهر بعكسه كي تحمي روح ابنها. قالت لها بنات العكي: حرام، اتركيه في البيت! سنبقى معه! لكن سعاد قالت كأنها تعبر عن غضب مخنوق: فليتعلم حتى الأطفال أن يكرهوا الإنكليز والمستوطنين اليهود! ومع ذلك أتين إليها قبل أن تخرج إلى المعتقل. مايزال الغضب إذن يملأ قلبها! الحق معها، فهذه الأيام تخرج حتى الحكيم مثل سعاد "عن طوره".

ترهقها الزيارة من وراء الشريط. في بعض الأيام تتمنى ألا تزور المعتقل!

www.alkottob.com

لكنها تجد نفسها قبيل يوم الزيارة الأسبوعية تحضّر كعكا يخيل إليها أن عبد الرحيم سيحبه، وتعطي زيادا قطعة من العجين يشكل منها ما يريد وتخبزها لتقول لعبد احزر أية كعكة عجنها زياد! تبحث عن فرح في فضاء من الشقاء؟ لا، لا، يحميها الغضب من الهزيمة. تقول لنفسها: مقاومة الحزن من مقاومة الإنكليز!

يجب أن تعترف بأن الشقاء يدمر شيئا في الروح. لعله يلسع أطرافها الرقيقة كما تلسع النار أطراف رغيف الخبز التنوري! ستتبين سعاد ذلك وقت ولادة ابنتها عائشة، وعبد الرحيم غائب في العراق. سيقول لها الطبيب: بكيت وتأوهت كأنك تحملين في قلبك هموم الدنيا! رأى إذن الأشلاء التي تتركها معارك الليل. خيل إليها أنه كان وهو يحاول أن ينقذ الطفلة، يدافع عن سعاد أيضا. قد يرى الغريب في أنينها وجعا عاديا. لكن ذلك الطبيب كان ابن بلدها! عندما أعطاها بعض المنوم الخفيف سمع أنينا تكتمه حتى وهي مخدرة فيصل عميقا موجعا. لم ترتعش سعاد من اكتشافه. لكنها فهمت في تلك البرهة أن العري الحقيقي ليس عري الجسم بل عري الروح. كانت منور تسخر مني في بيروت لأني أدخل ملابسي معي إلى الحمام. وتسخر مني لأني أغسلها وأنشرها في الليل كيلا يراها أحد! فهم الطبيب ما لم تقله! فقبل رأسها وبيّن لها بصمته أن لكل منهما وجعه ولذلك يفهمها. وقال لها: لا أحد في هذا الزمن دون هموم، ياست سعاد! لمن يعيش في القصور، أيضا، همومه!

ستقول سعاد لنفسها فيما بعد عندما تصبح سنوات الثورة ذكريات بعيدة، لم نخسر حياتنا في الثورة، بل ربحناها! وكانت تقصد أن مما كسبته صداقة ذلك الطبيب.

بقي عبد الرحيم بعيدا عن جولاتها في الحياة. عندما سيعود إلى البيت من المعتقل لن يكون لديه الوقت للاستماع إلى ما حدث في غيابه. ولن تستطيع أن تنقل إليه حرارة الأيام ونبضها ودماءها! فهل يبعدها ذلك عنه أم يحررها من الأسر الذي يربط الزوجات إلى أزواجهن؟! تجري سعاد في حياتها مستقلة عنه، سيدة بيت قدر لها أن تحمله عنها وعنه. سيرى أن سعاد نضجت واكتشفت نفسها في غيابه ويقدر ذلك ويفرح به. لأنه لم يكن من الرجال الغيورين الحريصين على معرفة خفقة قلب زوجاتهم أو بناتهم وهواجسهن أو أحلامهن. فليجر كل إنسان في مجراه! ولتكتشف الأنهار ضفافها! عندما رأى سعاد تلزم زيادا بوقت معين للنوم قال لها اتركيه. سينام متى شعر بالنعاس! ردت سعاد يومذاك: اسمع ياعبد الرحيم! لهذا البيت نظام لا أريد أن يختل في حضورك! لو تركت الرغبات تسوقه

www.alkottob.com

لسقط السقف فوق رأسي! فلنتفق على ألا تفسد نظامه! لن يحتاج عبد الرحيم إلى حوار آخر معها عن السيادة التي فرضتها على أسرتها. لكن الطفل الذي يعرف ولو بالتخمين من يخفض له الجناح سيلجأ إلى عبد الرحيم في السر عن سعاد.

رتبت سعاد ابنها، وعنيت بشعره أكثر من العادة. بللت المشط بالماء، وحددت المفرق. غلبت أرقها. سيجد عبد الرحيم عندما يخرج من المعتقل البيت نظيفا، والستائر مغسولة! سيجد المخللات التي يحبها في قطرميزات صفت على رف في المطبخ! سيجد الفطائر بالزعتر نضرة طرية! سيشم الصابون في الشراشف البيضاء النظيفة التي تركت سعاد في بياضها أثر زرقة النيلة! سيجد أغصان الزيتونة في حديقة البيت وارفة عليها بعض زيتونات جافة في الأعالي!

مرت أشهر طويلة ثقيلة! كفى ياعبد الرحيم! لكن ما به؟ لماذا يطرق؟ ألا يفرحه أن ينتهي اعتقاله؟ "استحبس"؟

اسمعي ياسعاد! يبدو أنهم لا يحبون فراقي! سقط قلب سعاد، لكنها قالت: يبدو، ياعبد، أننا نتنافس عليك! لكنهم أقوى مني! ياللمرأة الشجاعة! يسّرت عليه أن يقول لها: مددوا اعتقالي! فليستمتعوا بك، ياعبد! لكن ألا يمكن أن تعود ليلة فقط لتنام على شراشف نظيفة ومكوية؟ ستغطي سعاد دائما قلقها بالسخرية وستضبط نفسها بها. ياعبد، سأدعو إذن بنات العكي ليستمتعن بها! أما المقلوبة التي طبختها فسأرسلها لك غدا!

اتهم عبد الرحيم بالصلة بالثوار وهو في المعتقل! فمُدد اعتقاله. زارت شفيقة سعاد. تعرف ثمن السخرية والتماسك! قالت لها: ابكي، ياسعاد، إذا استطعت! ابكي! يبدو أن للضحك وللبكاء وظائف عظيمة. نعم، يبدو أنهما يزيحان الغطاء عن وعاد مغلق فيه ماء يغلي! لكن هل في يدي ذلك، ياخالتي؟ لا وقت حتى للبكاء. قبل الثورة كنا نتنزه ونضحك. نلبس اليوم ثيابنا السوداء! إذا لم نفقد عزيزا فقده آخرون من الجيران والأصحاب. ويجب أن نعزيهم بالمفقود. لا نكاد نخرج من مأتم حتى ننتقل إلى آخر. لا أكاد أعرف نفسي، ياخالتي! كم كانت شروط السعادة بسيطة قبل أن يعقّد الإنسان حياته بالسطو والاحتلال والظلم! قال لي أنور ذات يوم، أخفف عن نفسي بقراءة التاريخ في الليل، فيبدو لي أن بلادنا كانت دائما مكان اضطرابات وحروب، ففكري في أننا من صراع طويل بين الخير والشر! قلت له يومذاك، طمأنتني ياأنور على مصير ابني، الله يسامحك! هل كانت سعاد تخفي بالدعابة، ثقل أشهر جديدة من اعتقال عبد الرحيم؟ قالت لخالتها: أكثر من القرد ما مسخ الله! لو كنت رجلا لخرجت مع الثوار إلى الجبال!

www.alkottob.com

حماية بيوت المعتقلين وظهورهم مهمة، ياسعاد!

في الليل طرق بابها شرطي عربي يعمل في المعتقل، أوصل لها رسالة ملفوفة كالسيجارة. يجب أن تنقلها، ثم أن تضع الجواب في رغيف الخبز. ستنتقي من كومة من أرغفة الخبز رغيفا مناسبا. وستدفع الجواب بطرف السكين الدقيق. وسيبحث عبد الرحيم في سلة من الخبز عن الرغيف المقصود! غفت سعاد وهي تفكر في المهمة التي يجب أن تنجزها غدا! ستتخفى مرة أخرى بملابس فلاحة! ستركب الحمار مرة أخرى وتنزلق عليه إلى الخلف في الصعود، وإلى الأمام في النزول! ستكون الرسالة الصغيرة مدسوسة في طرف ثوبها. ولن يفهمها غير من وجهت إليه. لكن يجب ألا يفتحها إلا صاحبها. ستداعبها بنات العكي: عندما تتحرر البلاد من الإنكليز ستصبحين رئيسة البلد وسنعلّم عبد الرحيم الطبخ!

www.alkottob.com

حفر عبد الرحيم بظفره خطوطا على قطعة من الصابون. فسأله سليم، الجالس بجانبه: رسالة بالشيفرة؟ ابتسم: تقريبا! لكنها لن ترسل! كان عبد الرحيم يحدّث سعاد بينه وبين نفسه. ربما يحتاج كل إنسان أن يحاور شخصا يثق به. قال لسليم: وهل تتسع قطعة من الصابون لما يريد معتقل أن يكتبه؟! لابد من الشيفرة!

الوقت طويل في المعتقل، ياسعاد! وقد تكون الأحاديث مع النفس طويلة أيضا لو كان المعتقل منفردا بنفسه. لكننا نعيش معا كأسرة. ستداعبه عندما يروي لها ذلك: تتقاسمون الشخير أيضا؟ وسيبتسم: نحمي في المعتقل تقارب الطباع لا اختلافها! ننشغل بتبادل ما نعرفه! نغني أيضا! سرح عبد الرحيم. ففي المعتقل شعر بحاجته إلى الأغاني. وتمنى لو كان صوته حلوا. لا يعبّر عن الشجن غير الأغنية. فأنت لا تريد أن تبوح بأساك، وقد لا تعرف كيف تعبر عنه. فتأتيك الأغنية لتنطق بما تتمناه.

يـــاظلام الســـجن خـــيم إننـــا نهـــوى الظـــلام

لـــيس بعـــد الليـــل إلا مجـــد فجـــر يتســـامى

لعل السوريين غنوها في سجن القلعة في دمشق، وفي قلعة راشيا. ولعلني تذكرت بها أصحابي في دمشق، واستعدت طرقاتي بين كلية الحقوق وبين النادي العربي، وركبت مرة أخرى القطار من دمشق إلى حيفا! لكن أصحابي غنوا أغنيات أخرى يعرفونها. وغبطتهم على ذلك. استحضروا وديان وسهول فلسطين وأعراس القرى، فسمعنا أجراس الخرفان وثغاء الحملان، وشربنا القهوة المرّة. في المعتقل سمعت أول مرة مايغنيه الفلاحون عن بلفور:

يـــابلفور هيّـــاني جيـــت لابيـــع الخـــام والشـــيت

www.alkottob.com

الخيال رحمة وحرية، ياسعاد! سرح عبد الرحيم بعيدا عن المعتقل. لماذا يثير قلقها عليه؟ في كل برهة يمكن أن ينقل إلى معتقل آخر في مدينة أخرى. استعاد الأحداث مع أصحابه، وبحثها مرة أخرى. بسطوا على الأرض أمامهم الإضراب الذي أصبح ثورة مسلحة ضد البريطانيين والصهيونيين، ونقّبوا في التفاصيل والأجزاء. اكتشاف الأسلحة المهربة لليهود إشارة إلى تحضير دولة يهودية! تستّر الإنكليز عليها! الهجرة اليهودية السرية والعلنية! حضر القسّام مجموعات مسلحة لأنه قرأ هذه الخريطة كلها. وربما زاده ذلك ثقة باختياره. قتل قبل أن ينضج مشروعه. لكنه هيأ ثورة 1936. ليس هذا انحيازا للقسّام، بل اعتراف بحقيقة! القسّام أبو هذه الثورة! كان الخطأ أن نفك الإضراب الكبير. والخطأ أن نطلب من المتطوعين العرب الخروج من فلسطين! أتعرف ياعبد الرحيم، ما هي مشكلة العرب؟ أنهم يبدأون القصة دائما من أولها! لا، ياسليم! مشكلة العرب هي أنهم ينسون تجاربهم، ويبدأون من الصفر دون ذاكرة! مع أن عدوهم لن يلقاهم إلا بملف من تجاربه معهم ليسلك السبل الناجحة لتفكيك غضبهم أو تمردهم ويمنع نجاح ثوراتهم! الذاكرة كنز، ياسليم!

استعاد عبد الرحيم الأحداث مع سليم. هذا الرجل من أسرة ميسورة، متعلم، لدى أسرته مكتبة يبدو أنه اطلع على أكثرها. فلماذا بدأ يتوهم بعد أشهر من الاعتقال أن الحوار وتسرب العرب إلى منظمات مشتركة يوصل إلى.. ماذا تقول ياسليم؟ يوصلهم إلى حماية فلسطين؟ وهل يوقف ذلك الهجرة اليهودية ومشروع الوطن القومي الصهيوني؟!

استهدفت الثورة الإنكليز والصهيونيين. الهدفان صحيحان! مركزها الريف. لكن المدينة معها. في الثورة سكان المدن، اتحاد السائقين، المحامون، أغلق عمال المرفأ في حيفا الميناء. غطت معونات الأغنياء أجور العمال المضربين! وذلك عظيم! والعظيم أن الثورة أوقفت التعاون الوهمي في منظمة واحدة بين العمال العرب والعمال اليهود. حاول اليهود الصهيونيون أن يوهموا العمال العرب بأن حل الصراع في اجتماع العمال اليهود والعرب ضد أغنيائهم. فاستبعدوا أن الصهيونية ضد الأغنياء والفقراء العرب معا. برقية مسيرة أول أيار في حيفا إلى الهيئة العربية العليا مهمة جدا. تستنكر تهويد البلاد وحرمان العامل من العمل والفلاح

www.alkottob.com

من الأرض! قالوا: "أما التعاون بين العمال العرب والعمال اليهود فهو كذبة نحن بريؤون منها"!

مدينة حيفا مهمة. نعرف أن محافظها حسن شكري يمسك العصا من منتصفها! هذا غير مقبول! لكننا في حيفا نحصد ما نجح فيه الهستدروت. سربت العمال اليهود إلى مؤسسات كان عمالها عربا فقط. وجذبت بعض العمال العرب إلى منظمتها. لذلك أضرب مائة فقط من عمال المرفأ في حيفا! ياعبد، حيفا ذات وضع خاص. أعرف ياسليم! بيّن عبد الله أبو زايد، المقاول الذي يسيطر على أعمال المرفأ، أن حيفا ليست يافا. هنا يوجد مائتا عامل يهودي. استبدل العمال العرب المضربون. ووضع المرفأ تحت مراقبة إنكليزية. وهل المصلحة أن يستبدل العمال العرب إذا أضربوا كلهم بيهود؟ ياسليم، جزء فقط من كلام أبي زايد صحيح. نعرف اتصاله بالهستدروت. تدفع الوكالة اليهودية مالا ليبقى مرفأ حيفا مفتوحا.

لكن حيفا ليست المرفأ فقط! اشترك في الإضراب العام عمال السكك الحديدية، وعمال شركة بترول العراق، وعمال الأشغال العامة. هرب أبو زايد إلى لبنان، وأنزل الإنكليز الجيش ليحمي كاسري الإضراب. بقي المرفأ مفتوحا بفضل البحرية الملكية، وأنزل يهود الكيبوتزات ليأخذوا مكان العمال المضربين. وظهرت وحدة الروح بين اليهود وبين الإنكليز!

تذكر ياسليم أن الإضراب في معمل اسمنت نيشر، كان كاملا. لكن موشيه شرتوك قال إنه لن يسمح بزهو العرب بقوتهم لأنهم أغلقوه. هذا معمل يهودي يجب أن يلحق بقسم إدارة العقود في الهستدروت! هكذا ألغي عقد الشقيفي فهرب إلى لبنان، وأعطي مكانه لديفيد هاكوهين. اتصل هاكوهين بالإنكليز فرحبوا بفك الإضراب. واتصل بسامي طه وضمنه كرئيس منظمة فيها أكثر عمال نيشر العرب. أراد سامي حماية وظائف عماله، ومعارضة الحاج أمين الحسيني. هكذا نزل هاكوهين وسامي طه وضباط البوليس مع خمسين عاملا يهوديا من كيبوتز ياجور إلى المعمل، وفكوا الإضراب. الطعم: طمأنوا العمال العرب إلى أنهم سيحتفظون بعملهم وستزاد أجورهم، كيلا يقاوموا دخول العمال اليهود إلى المعمل!

قال عبد الرحيم: كانت تلك خدعة! ردّ سليم: لحيفا ظرف خاص. كان الأفضل لنا ألا يخسر العمال العرب مكانهم! وكان يجب أن نطلب فقط أن يقاوموا اليهود فيه! استند عبد الرحيم إلى حدسه في قراءة الواقع لذلك لم يغشه الوهم. في أيار سنة 1936 فك إضراب نيشر. بعد أن قبل العمال العرب العمال

www.alkottob.com

اليهود في المعمل دون مقاومة! فككت منظمة سامي طه وأدخل العمال العرب في منظمة العمال اليهود بعد موافقة سوليل بونيه الذي أوكلت إليه أعمال إنشاءات الهستدروت في سنة 1937. قال عبد الرحيم: سترى ياسليم! عندما سيرتفع المعمل إلى وسائل جديدة في الانتاج سيخفض عدد العمال العرب! كأنه كان يقرأ الغيب! سيصبح عدد العمال العرب ستين عاملا، وسيصبح عدد العمال اليهود خمسين عاملا في سنة 1939. سيباع معمل نيشر لشركة تشترك فيها الهستدروت مع أغنياء يهود مهتمين بالاسمنت. فأين سيكون العمال العرب وقتذاك؟! لكن تلك تفاصيل! المهم ياسليم، من يملك مصير هذا المعمل؟ من يملك مصير المعامل الأخرى؟ ألا توجه لاستقلال دولة غريبة؟

في ذلك الحوار مع سليم ركز عبد الرحيم مقولته التي ظل ثابتا عليها: بيننا وبين اليهود، أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء، أكنا من الأغنياء أم من الفقراء، صراع طويل. إذا سقطنا في خدعة المنظمات المشتركة على أساس المهنة أو على أساس أفكار الاشتراكية التي توحد العرب واليهود، ضيعنا بلادنا. هؤلاء ليسوا فرنسيين ينتهي الانتداب فيتركون بلادنا ويعودون إلى وطنهم! هؤلاء مستوطنون، يريدون أراضينا وبيوتنا ومدننا. الشريف منهم يعود إلى بلده الأصلي!

أكد لعبد الرحيم طرد العمال العرب من مقالع الحجارة في مجدل يابا، استنتاجه. أفادت الهستدروت من الإضراب العام فنزلت مسنودة بالإنكليز لطرد العمال العرب من وظائفهم وغرست اليهود في مكانهم. كسر الإنكليز بالقوة والسجن مقاومة العرب. سلب اليهود من العرب العمل في مقالع الحجارة التي عمل فيها ذات يوم أصدقاء نوري وسعيد. ولن يستعيدوا بعض الأعمال إلا عندما يتركها اليهود إلى أعمال أفضل منها.

قرب ذلك الحوار عبد الرحيم من سليم، وأبعده عنه. لم يلتق عبد الرحيم بسليم بعد أن خرجا من السجن. فبحث عنه في نابلس ليقول له: أين المنظمات اليسارية اليهودية التي ادعت أنها ستدافع عن العمال أكانوا يهودا أم عربا؟! افهم ياسليم، اليسار الصهيوني واليمين الصهيوني نغمتان لروح واحدة! يتفقان على سلبنا بلادنا!

قد لا يعيش عبد الرحيم إلى اليوم الذي ستحتل فيه إسرائيل بقية فلسطين، وتعلن فيه غولدا مائير أن إسرائيل لن تستبقي من العرب إلا من تحتاج منهم لأعمال لا يقبلها الإسرائيليون الذين سينصرفون إلى الاختصاصات العليا. ويفقد العرب فيه أرضهم ومزارعهم ويسترقّون في أعمال صعبة! سيعود اليهود سنة

www.alkottob.com

1948 إلى الأعمال الصعبة التي تركوها للعرب في المقالع والمعامل في أيام الحرب العالمية الثانية. وسيتركونها للعمال العرب بعد احتلال 1967

وضح تأمل الأحداث لعبد الرحيم في المعتقل حتى ما لم يخمنه. فالمنظمة اليهودية أفادت من الثورة لترجح التعاطف معها. كانت ماهرة في التزوير! ألم يقل موشيه شرتوك للجنة اللورد بيل الملكية: هذه بلاد فيها عنصران.. لكن تجربة الاضطرابات التي كانت على أساس إضراب عنصري علمتنا درسا جيدا. وجدنا أنه حيثما كانت الخدمات في أيدي العرب، كما هو الحال في مرفأ يافا، شلّت كاملة وساهم ذلك في انتشار الاضراب وفقد النظام.. أما حيث كان اليهود موجودين فالخدمات بقيت سليمة. لذلك نرى ضرورة أن يجسد في وظائف البلاد كسياسة، تكوين الشعب من عنصرين! ألم يقل شرتوك للجنة الملكية إن العمال اليهود تقدموا وأوقفوا الاضراب في مرفأ حيفا وقت كاد يشلّه. لكنهم لم يكونوا موجودين في يافا ليوقفوا الإضراب!

في برهة بدا عبد الرحيم ذاهلا أمام الاحتيال في تأويل الحقائق. ففي حياته كلها كان يحترم الصدق. وضع شرتوك، المستوطن، الأقلية اليهودية، وأكثرها من المستوطنين الغرباء، كعنصر رئيسي له الحق في فلسطين كالأكثرية العربية! وتسلل من موضوعات إنكليزية، كالاضطرابات والنظام، ليبين أن اليهود هواة نظام وهدوء! ما سبب الثورة؟ ولماذا أضرب العرب؟ أليس السبب غزو صهيوني للأرض والعمل؟ ولماذا يهرّب اليهود الأسلحة ويتدربون عليها إذا كانت نيتهم سليمة؟ من نفخ في الأبواق عند حائط البراق؟ من رمى القنابل على المحلات العربية؟

لكن كان يجب أن يكتم عبد الرحيم غضبه ويحفظ هدوءه. قال لسليم: ضيع العرب أربعمائة مكان عمل لكننا كسبنا أربعمائة رجل ومن حولهم من الفلاحين! اشترك المطرودون من الأعمال في حيفا في نسف القطار قرب محطة رأس العين. عرف اولئك الرجال بمعاناتهم الشخصية معنى الغزو الصهيوني!

تابع عبد الرحيم فيما بعد لعبة الصهيونيين اليساريين: يوحدنا الخطر على الأرض وهي لنا تاريخ ووطن ومقابر. ويوحد الصهيونيين استيطان الأرض، وهي لهم مزارع وبيوت رخيصة وخير وطقس. يأتي بعضهم ليؤسس مجتمعا اشتراكيا يحلمون به. ويأتي بعضهم باسم أرض الميعاد. لكنهم يقعون جميعا في مشروع الوكالة اليهودية استيطان فلسطين! يهمهم ألا نكون موحدين في مقاومتنا. لذلك يخترعون لنا منظمات عمال ومنظمات مشتركة عربية يهودية! يعمل الإنكليز

www.alkottob.com

مثلهم على تفريقنا!

www.alkottob.com

سمعت سعاد رصاصا في أول الليل. لم ينم بعد حتى زياد. شدت ابنها إليها وضمته بجسمها وقرفصا معا. رصاص في حارتنا! سيأتون، وسنعرف من اغتيل!

طرق الباب طرقا قويا. أمرت سعاد ابنها: ابق قرب ستك! عسكر إنكليز يطلبون تفتيش البيت. يجب أن يخرج جميع من فيه إلى الطريق! تركت الباب مفتوحا، رمت عليها ملاءتها: لا تستطيع العجوز أن تنهض! اتركوها! لا! لن يبقى أحد في البيت الذي سيفتشونه! حملوها إلى الطريق! وخرجت سعاد مع ابنها معهم. إلى الطريق! في المنطقة المحاصرة جمع الإنكليز الرجال في جانب والنساء في جانب، وفتشوا البيوت دونهم. ستسرق الحلي والأموال، وسيكسر الخزف، وسترمى المؤونة. لكن تفتيش الإنكليز بيوت القرى أكثر قسوة! من يجسر على منع المسلحين!

على من أطلقت الرصاصات من بناء قريب من بيت سعاد؟ على مستر كوبرفيلد وهو في طريقه لزيارة مسز يوركين! وضعت سعاد يدها على رأسها. وجدوا رجلا غريبا! يبدو أنه هو الذي أطلق النار! لا، لم يمت مستر كوبرفيلد! اخترقت الرصاصة قبعته! ياللصدفة! لكن مساعديه تبينوا المكان الذي انطلق منه الرصاص!

ستهدم عدة بيوت في الحي. لماذا؟ عقوبات جماعية! يجب أن يحرس الناس بيوت جيرانهم! ياخسارة البيت! اختار الإنكليز عدة رجال اعتقلوهم وساقوهم في المصفحة. ورجعت سعاد مع زياد إلى بيت اختلط فيه كل شيء! الملابس على الأرض، الخزائن منبوشة وأبوابها مكسورة، الأحذية فوق الشراشف النظيفة البيضاء، وفي المطبخ صحون وفناجين مكسورة وطناجر رميت على الأرض. ما ذنب الثريا المكشوفة كي يكسروا زنابقها الزجاجية؟ ستمضي سعاد الليل كله كي تنسق هذا الخليط!

www.alkottob.com

وياخسارة التعب! بلغوها أن البيت سينسف! آه، من ينقل الآن أثاث سعاد، وأوراق عبد الرحيم؟ وإلى أين؟ يهدد الإنسان بما جناه ورتبه فتوهم بأنه في جنّته! اركضي ياسعاد! قال لها رجل كمن يوصل رسالة: انتقلي إلى بيت الدباغ. كان بيت قائمقام! فيه غرفة واحدة فقط فارغة. بيت الدباغ؟ نعم، بيت الدباغ جميل واسع، يتفرج الناس على واجهته الزجاجية، وحديقته الواسعة. بيت من الطراز العثماني سكنه القائمقام ثم سكنه أصحابه الأغنياء. خافوا من الثورة فرحلوا إلى صيدا، فاحتلته عائلات الفلاحين الذين نسفت بيوتهم! بيت مدهون بالدهان "الزياتي"، لكن كل أسرة تطبخ طعامها في غرفتها، فلا تؤاخذيهم إذا غاب لون الجدران! إذا لم ترغب في بيت الدباغ فلتجد بيتا فارغا تحتله! تساءلت: أحتل بيتا؟ هل أنا جيش إنكليزي؟ أتت بنات العكي: يقول لك أبي، البيت جاهز، لا ترفضيه! آه، كم هي حزينة على الليلة التي مضت في ترتيب الخزائن!

اكتشفت سعاد في خزانتها الملابس الزاهية التي نسيتها. مر زمن طويل ثقيل إذن! وضعت الملابس والمناشف في بقج. لو تستطيع أن تكون امرأة فقط، أو أن تكون رجلا فقط! فهل تصرخ ياويلي وياخراب دياري!

لكنها نقبت في تلك الليلة في روحها: أليس السلاح الذي نقلته أو خبأته مسدد لقتل رجل مثل كوبرفيلد الذي طلبت مساعدته؟ فهل كنت تتمنين ألا تري من يقتلون به وألا تعرفيهم؟ ردت على نفسها: وهم ألا يقتلون أو يسجنون رجالا مثل زوجي ويبتمون أولادا مثل ابني الذي أعجب كوبرفيلد؟ هكذا يختلط الأسود بالأبيض، ياسعاد. وفي البرهة التي تتمنين فيها ألا يقتل رجل مثل مستر كوبرفيلد لأنك عرفته، تساعدين على قتل رجال مثله. لكنك ترفضين أن تصارحي نفسك بذلك! لماذا؟ لأنك تخشين أن تبوحي بأن الظلم يبيح دم الظالم، وأن الصراع على العدل هو أيضا صراع بين الموت والحياة!

www.alkottob.com

لم تلغ سعاد الزيارة المقررة لعبد الرحيم كيلا تشغل باله. لكنها لم تقل له إن الإنكليز سينسفون بيته. وضعت رأسها بين الرؤوس وقالت "ياقطاع الروس"! ليست أفضل من جيرانها. ومع ذلك قال لها قلبها إن بيتها لن ينسف.

تأمل عبد الرحيم زوجته من خلال الأسلاك. فراقبته دون أن تنظر إليه. ماذا يقول بينه وبين نفسه عني؟ أطرق. يفهم كل منهما الآخر في هذه البرهة التي تجمعهما بين معتقلين وزوار تفصل بينهما خمسة أمتار وأسلاك. عادت سعاد من المعتقل وهي تضع كفها على معدتها. تسرب الألم من معدتها إلى ظهرها والتف حول كتفيها! لا تصدق أن عبد الرحيم سيخرج من المعتقل؟!

تعلمت سعاد أن تروض أشواقها وألا تظهر الفرح بعبد الرحيم عندما يعود بعد أشهر الاعتقال إلى البيت. تراقب شوقه إليها عندما تغلق باب الغرفة. تفحص ارتباكه من الغربة بينهما، وتقيس ما تغير في روحه وجسمه. تحاول أن تلمس كسوره وتعبه عندما يقبل عليها كاشفا روحه. لكنها تغلف ذلك بالصمت. قالت له مرة: اسمع، هذا ليس واجبا، نم واسترح! خيل إليها أنه لم يعد يستطيع أن يرمي نفسه صافية، نظيفة مما يثقلها. وقالت لنفسها: لا تستطيع روحه أن تكسر قشرتها! سألت نفسها: وأنت ياسعاد؟ هل تستطيعين أن تستعيدي الغفوة التي أنستك الدنيا خارج البيت في صفد؟ تركته مرة نائما ونهضت إلى النافذة. أزاحت طرف الستارة لتغمس نفسها في الدنيا المعتمة. فلتعترف أن البطولة ذات ثمن! وأنها تحفر في الروح غضونا كغضون الوجه! يرقّ الإنسان، يشفّ، وتزيد قدرته على فهم الألم. يصبح أكثر انتباها إلى ما حوله. لكنه يصبح أكثر تعبا ووهنا. ينجح المعتقل في تفتيت جسمه، ويترك آثار أمراض قد تتلامح لكنها قد لا ترى، يبدو لسعاد أنها تشمها ولو لم تستطع أن تحدد مكانها بعد. في الأيام الأولى بعد عودته من المعتقل تتركه سعاد للمهنئين ولأمه وابنه. ثم للنوم في فراش نسي نعومته. وتطعمه ليستعيد صحته. وعندما يبدو لها أنه استعادها يطرق الباب

www.alkottob.com

ويعتقل مرة أخرى! أو ينشغل وتنشغل معه بمتهم يجب أن يدافع عنه. قالت مرة: يقطع الإنكليز! أفسدوا حياتنا! وفهم عبد الرحيم أنها تعني حياتها معه. تعوّد عبد الرحيم أن يتابع جملها التي توجز حديثا مضمرا بينها وبين نفسها. يوم قالت له: يجب أن يصبح لدينا ستة أطفال، خمّن المسارات الشائكة التي عبرتها في صمتها. وقدر أن ذلك ردّ على غضبها. آه، تبحثين ياسعاد عن أمراض لا ترى في عبد الرحيم؟ ابحثي عن الغضون في روحك! تحفر حتى قطرة الماء المكان الذي تسقط فيه، ألم تترك دموع الناس جروحا في قلبك؟!

في أول أيام الثورة بدا لعبد الرحيم أن سعاد انساقت في التفاصيل، فكانت تتوقف أمام كل حادث كأنه يملأ روحها. لذلك كانت تبدو له متوهجة مندفعة. لكنها خلال الثورة أصبحت تحيط في هدوء بصورة البلاد، وتضع كل حدث في مكانه ووزنه! آه، غشك الهدوء، ياعبد! لم تبح سعاد بأنها صارت تعاني من ألم في رأسها وفي معدتها. يوم شكت ذلك لأنور قال لها: لاتشربي القهوة والشاي. وهل أستطيع أن أطلب منك الهدوء والدنيا كما ترينها؟!

لم يفهم عبد الرحيم أن سعاد كانت تجري في تأملاتها السرية مبتعدة عنه، معتمدة على حدسها. كان مشغولا بتأمل عمليات الثوار عندما همست لنفسها: هانحن في آخر الثورة! أشعر بذلك! مع أننا مانزال ندفن شهداءنا ومانزال نغتال أعداءنا! لن يتذكر الإنكليز كثيرا من قتلاهم، لكن كم سنتذكر نحن من شهدائنا؟

يوم استنكرت اللجنة العربية العليا اغتيال أندروز، احتفت سعاد باغتياله، ورأت اغتيال سبايسر مدير الأمن العام عقابا على ضربه العرب في شوارع القدس. لكنها ستقول لأختها منور في دمشق ذات يوم: تحفر حتى هذه الأنواع من الفرح أخاديد في الروح! الفرح في الأعراس، الدبكة التي يسترسل الفلاحون فيها ليلة الفرح، تغسل القلب كما يغسل المطر الشجر! وكانت تقصد بالأفراح الأخرى فرحها بنجاة من قتل أندروز، وبدخول الثوار مدينة جنين يوم هتفت: تعيش ياعبد الرحيم الحاج محمد! وبدخول الثوار القدس والخليل في السنة نفسها. يعني ذلك أن هذه المدن لنا! ألا يفهم الإنكليز ذلك؟ وكان الاشتباك بين الثوار والإنكليز قرب صفد، وبين نابلس وبلعا، يعني لها أن الثورة لم تنطفئ.

ستتأمل سعاد أختها وستقول لها: نحن الفلسطينيات كالفولاذ المسقيّ! وستسخر منور منها: صرت فلسطينية وصرت أنا سورية، ما شاء الله؟! أنت ياحبيبتي من "جنوب سورية"! وستتركها وسط لهب الثورة وأحزانها. فأحزان البلاد كانت تنصب في بيتها! وستقول سعاد: آه، يامنور، ماذا أروي لك من عذاب

www.alkottob.com

فلسطين!

وكانت سعاد تقصد حياتها. ماحملته الزوجات والأمهات والبنات في الثورة. رأت إعدام محمد المحمود حسين الشاب الذي أتى أهله من قرية ضمرة في قضاء عكا ليودعوه! شاب في الخامسة والعشرين من العمر فقط! ورأت نسف بيت القائد عبد الرحيم الحاج محمد في قرية ذنّابة! رأت الإنكليز يدخلون قرية أرتاح ويقتلون خمسة عشر شابا وينسفون ستة بيوت ويحرقون القرية، ثم يصفّون القتلى على الأرض ممزقين عراة أمام أهل القرية! يجب أن يعرض أمام أهل القرى دائما قتلاهم في ساحة القرية! ثم رأت الإنكليز ينقلون القتلى إلى حفرة قرب مستعمرة ناتانيا اليهودية! مكافأة لها؟! لم تكن سعاد تميز البوليس اليهودي في تلك الحملات من الإنكليزي! فمنذ بداية الثورة طلب حاييم وايزمن من الإنكليز السلاح للمستوطنين في تل أبيب، فنظم لهم "بوليس إضافي" مسلح، وشكلت "زمر الليل الخاصة" اليهودية التي تهاجم العرب، وأضيفت إلى المسلحين في التنظيم العسكري الصهيوني في المستعمرات.

كان تفتيش الإنكليز عن السلاح في القرى يعني إهانة الناس واعتقالهم وتخريب بيوتهم وخلط مؤونتهم. يقول لنا الإنكليز أنتم لستم كاليهود! أنتم دونهم! برئ يهودي يحمل مسدسات، وحكم على عربي يحمل مسدسا واحدا بالإعدام! حكم على ثلاثة إخوة بالإعدام: عبد الحافظ عبد الله، ومحمد سعيد، ورضا محمد سعيد! لاقلب للوحشية، ياسعاد! لا تتوقعي منها الرحمة! اغتال اليهود في القدس قرب السرايا المهندس المصري أحمد مرسي لأنه يساعد الثوار! أطلق المستوطنون اليهود نارهم من مستعمرة رحابيا على العرب المارين قربها! ورمى يهودي قنبلة على العمال المارين قرب مستشفى الرمد في القدس! تخفى اليهود بملابس عربية وزرعوا قنبلة في وسط تجمع عربي! دعست العربَ سيارات يقودها يهود! هاجمت عصابة من اليهود قرية مسكة وقتلت عشرة رجال! وأين سنة 37 وسنة 38 من سنة 39!

في كل مكان تمر منه سعاد يمكن أن تقتل! لم تعد تستطيع أن تتوقف في زمارين كما توقفت ذات يوم! من المستوطنات اليهودية والأحياء اليهودية يطلق الرصاص على العرب. رميت قنبلة على الموظفين الواقفين أمام شركة الباصات العربية في القدس. زرعت قنبلة في سوق الخضار في حيفا في التاسع من تموز سنة 1938 وكانت سعاد يومذاك قرب السوق! انفجر السوق، وركض من نجا من الانفجار فاستقبلته سيارات اليهود التي تنتظر الناجين على أبواب الشوارع التي

www.alkottob.com

تحيط بالسوق وحصدتهم بالرصاص. سمعت سعاد دوي الانفجار. واتجهت نحوه فأبعدها رجل: ارجعي ياأختي! بسرعة! هناك عرفت أن اليهود صمموا قنابل مسمومة، صنعوها في مستعمرة ديران قرب الرملة، فقتلت تسعة وأربعين إنسانا في سوق الخضار! لم ينج حتى الجرحى! في تلك السنة المشؤومة وضع الإنكليز تسعة معتقلين في سيارة تقدمت سياراتهم كترس لتحميهم من ألغام الثوار في الطريق، فانفجر اللغم فيها!

أية من هاتين الحادثتين حفرت قلبها؟ بعد أي منهما بدأ أرقها؟ ومتى تجاوزت الخوف من الموت؟ بعد الانفجار الذي سمعت دويه في سوق الخضار في حيفا فكرت وهي مستلقية في عتمة غرفتها: في أية أرجاء ستتناثر إذا انفجرت قربها قنبلة؟ تسرب وجع بارد إلى قلبها وامتد إلى معدتها والتف حتى ظهرها وكتفيها. خيل إليها أنها ستصرخ من ألم معدتها. تكررت ليالي الأرق والألم. قرب الفجر كان النوم يغلبها لكنها كانت تقفز مرتعشة القلب. يوقظها دائما صوت انفجار كالدوي الذي سمعته قرب سوق الخضار في حيفا! آه، كيف تستطيع أن تمحوه من روحها؟!

لذلك فهمت بجسمها وروحها الرسالة التي دسها لها عبد الرحيم في أسفل السلة، وأخبرها فيها أن الإنكليز يضعون المعتقلين في سيارة تتقدم سياراتهم لتنفجر فيها الألغام التي يزرعها الثوار! كتب لها يومذاك: جعلونا كالترس لهم!

انفجرت يومذاك سيارة بتسعة معتقلين فلفت سعاد نفسها بملاءتها وخرجت من البيت وفي قلبها دوي تخشى أن يسمعه من حولها. في الطريق تساءلت: إلى أين؟ هل ستبحثين عن المحبوب بين الأشلاء؟ وضعت كفها على معدتها ورجعت وهي تكبح وجعها.

لعل العجز الذي هاجمها هو السبب! فلو كانت في المعتقل أو مع الثوار في الجبال لاستطاعت أن ترد على القهر! لا، ربما في قلب سعاد حاجز الأسلاك الشائكة التي رفعه الإنكليز على طول الحدود بين فلسطين وبين سورية ولبنان! تخزها أشواكه ويخنقها ارتفاعه! تلوب في البيت. وينساب خوفها على طفليها في شعور ثقيل بالقهر. طلقت الرجل الذي يحبك وهربت من الناصرة لأنه جرح كرامتك؟ تفضلي ياست سعاد، هذا القهر! يستهين الإنكليز واليهود بكرامة بلادك كلها! بعد ليال من الأرق ركبت سعاد السيارة إلى طبرية. ستقول لشفيقة: "ياخالتي، ابني أمانتي عندك، إذا قتلت"! هدأها قرارها حتى وصلت إلى طبرية.

شكت لها شفيقة: اعتقل الإنكليز عشرين أو ثلاثين رجلا، وعرفنا أن الإنكليز

www.alkottob.com

عذبوهم في السجن. أجبروهم على المشي على قطع الزجاج، أحرقوا أصابعهم، كسروا أسنانهم، أجلسوا بعضهم على الصوبيا، كووهم بالقضبان الحامية، ابتكروا ربط الخصيتين وشدهما! علقوا بعض الرجال من أرجلهم وأقدامهم طول الليل! صدق ظني عندما دخلوا إلى طبرية ورأيت قبعاتهم المزينة بريشة فقلت: وصل طائر الشؤم!

انثنت سعاد على نفسها. خير؟ معدتي! سأحضر لك ميرمية! آه، أتيت ياسعاد تطلبين الترياق في طبرية التي يحتلها اليهود؟! أتيت إلى البيت الذي قتلوا صاحبه من القهر!

لم توص سعاد خالتها بابنها. لكنها قالت إنها تخاف عليه. فردت عليها شفيقة: لو خاف قدري على أولاده لهانت عليه بلاده! فكري في رجال البلاد! غضبت سعاد. هل قطعت الطريق من عكا إلى طبرية لتسمع هذا الكلام؟ من يشك في قوة سعاد؟ لكن ليسمحوا لها بالحاجة إلى وهم! هل يوجع شفيقة أن تقول لسعاد أنا سندك؟ كثير على سعاد أن يقال لها اطمئني؟

لعلها فهمت في ذلك اليوم أن الهشاشة ممنوعة على الأقوياء. وأن مثلها يعطي القوة ويحرّم عليه أن يطلبها من آخرين. بل يحرّم عليه أن يظهر أنه يحتاجها. ولعلها فهمت أيضا قسوة العذاب الذي قطعته شفيقة. فبدت لسعاد في تلك البرهة كأنها دون قلب. أيمكن ألا تكون شفيقة بكت وضعفت في شبابها؟ أيمكن أنها كانت دون أحلام؟ لكن الحزن لقّحها يوم موت زوجها بالسل وهو بعد شاب. ولقّحها يوم خافت على أخيها في أيام جمال باشا. ثم في أيام هزيمة الدولة العربية. يوم مات مقهورا بالاستيطان في طبرية، كانت قد أصبحت كالفولاذ. فتركت الحزن لزوجته وأولاده وانصرفت إلى تأسيس حياة لكل منهم ليس فيها أب معيل. وبقوتها أبقت بيت قدري مفتوحا للضيوف كما كان في حياته. ورسمت لابنه الأول أن يدرس في الأحمدية في عكا، ولابنه الثاني أن يدرس في القدس، ورسمت لابنته زواجا مريحا. قالت سعاد لنفسها يوم طلقت من زوجها الأول: لن أكون مثلك ياست شفيقة! ويجب أن تكرر ذلك الآن وهي تعني غفوة القلب تحت قشرة صلبة قاسية كقشرة جوزة الهند. ولكن هل ما يزال قلب سعاد حقا نضرا صاحيا وحيّا؟ لماذا تغمض عينيها إذن كلما كادت تقول لعبد الرحيم: أنت عظيم لكن ما بيننا ليس حبا؟ اسكتي ياسعاد، اسكتي، أنت اخترت هذا الزواج الرصين، وأنت التي قررت ألا تقعي في مصيدة الحب، متفادية عذوبته كي تتفادي عذابه!

ستكتشف سعاد فيما بعد أن الكهولة تغيّر مذاق العواطف. وأن الحكمة تغير

www.alkottob.com

أوزانها ومساحاتها. وستقول إن الشباب فقط يصغّر أشكال الحب ويضيّق مساحاته. فالوجع الذي ستشعر به يوم يموت عبد الرحيم سيكون نوعا من الحب الحزين، فيه كثير من الأسى على الحرمان، وكثير من الشفقة. لكنها كانت تعرف أن ليلى التي استمعت إلى كلماتها قالت في نفسها "ذلك شعورك أنت وليس لي"! صحيح، يجب أن يكتشف كل إنسان من حياته نفسها أنواع الحب والحزن المتنوعة! ولكن آه، لو تستطيع سعاد أن تقول لأحبائها الذين ستتركهم: عندما نصل إلى الحكمة تكون المساحة التي تمدها الحياة لنا قد ضمرت كالشمس في الضباب!

www.alkottob.com

لم ينسف بيت سعاد. زار الحاج سليم الخياط المعتقل وأخبر عبد الرحيم بأن بيته سينسف. واتفقا على الادعاء بأن البيت مرهون للبنك. رتب أصدقاء عبد الرحيم الأوراق التي تؤكد ذلك. لا ينسف بيت لم يعد لأصحابه إذا لم يفك الرهن!

نجا البيت! لكن عبد الرحيم بقي في المعتقل. فبدا لسعاد أن وعد مستر كوبرفيلد بتحرير زوجها مثل وعود الإنكليز للشريف حسين. وقالت لبنت العكي: ماذا أوقعني في عبد الرحيم! أتمنى لو كنت في المعتقل، وكنت أنا التي أقاتل في الجبال. ليس في هواها أن تسعى إلى أبي درّة أو مستر كوبرفيلد، وأن تمشط حماتها وتغسلها، وأن تطبخ لتملأ السلال بالطعام للمعتقلين، وتربي طفلا دون أبيه! قالت: لو كان الناس يموتون من القهر لكنت أول من مات! هل أعدّ لك المشاكل التي مرت على رأسي؟

انصرفت بنات العكي وخلت سعاد إلى نفسها. خفّ بعد البوح مايثقل على صدرها. مررت كفها على أوراق الحبق الذي زرعته في أصص وضعتها في المطبخ، وتنفست عبقه على كفها. حاولت ألا تفكر في تعبها. وتركت لنفسها فنجان قهوة تشربه قرب النافذة والحبق. هذا الوقت من النهار لها لا يدخله حتى طفلها. من قال إنها أم فقط، أو زوجة فقط؟! تشعر وهي جالسة مع نفسها بأنها أكثر من ذلك!

لم ينم زياد مبكرا. كأنه شعر بأن أمه قلقة. رجاها وقت ألبسته البيجاما أن يؤجل نومه. وحمل لها ورق الشدّة. يريدها أن "تبصّر" مثل جدته؟ لو تستطيع أن تضحك! "تبصّر" هي التي لا تؤمن بقراءة الغيب؟! نشرت أوراق الشدّة وهو إلى جانبها. هنا الدرب مسدود! وذاك أيضا! لكن الشدّة تسلي حقا. يفسر لك الخيال الأوراق. كانت تشرب قهوة المساء. فقلب زياد فنجانها كما تقلبه جدته. تنجّم جدته بالقهوة أيضا. أليس غريبا أن تحاول استطلاع الغيب مع أن ما بقي لها من العمر

www.alkottob.com

ومضة؟ لو تستطيع أن تقول لزياد، من ينصرف إلى الواقع ويغرق فيه حتى الأذنين لا يجد وقتا ليقرأ الغيب! قلب زياد فنجان القهوة بين يديه وقرأ لها ما تخيله: سبع كبير يفتح بابنا ويدخل، سنخاف منه أنت وأنا، لكنه لن يؤذينا! هل يواسيها هذا الصغير، ويرمي لها بخياله أملا؟

دق الباب. قالت سعاد ساخرة: السبع الكبير! أمرته أن يبقى مكانه وفتحت الباب. أمامها رئيس البلدية والقائمقام. قالت: أهلا وسهلا! قالا: جئنا نبشرك بأن الإفراج تم عن عبد الرحيم. قالت: تفضلا اشربا القهوة. لا، لن يدخلا البيت حتى يصبح عبد الرحيم في البيت! قلبت شفتها. كم دخل عبد الرحيم المعتقل ثم خرج منه ولم يبشرها أحد بذلك فماذا تغير في البلاد؟

لمحت رأس زياد يطل من آخر الممر. ياملعون، علمتك جدتك أن تقرأ الفنجان؟ سيقرأ فيما بعد لصاحباتها فناجين القهوة، وسيتصورن أنه وهو الذي لم يقترف ذنوبا بعد، ملاك ينطق بما تصوره له الملائكة!

رافقته إلى فراشه، ونظفت البيت. تعرف أن الخبر سيتنقل في المدينة طول الليل، وسيصل إلى القرى. وستأتي صاحباتها إليها منذ الصباح الباكر ليعزلن البيت قبل أن يمتلئ بالمهنئين. لكنها لن تترك كل ذلك لهن. وربما تشتغل لأنها لا تستطيع أن تهدئ نفسها. هل تتمنى أن تغمض عينيها فتجد نفسها في بلد آخر تعيش فيه وادعة ولا تشعر باضطراب القلب؟ هل يسمون ذلك موتا؟ ليتها كانت محظوظة بذلك الموت! نعم، تخشى اضطراب القلب! هذا ما أبعدها عن الحب. لا تريد الفرح الذي يفتك بقلبها الآن، ولا تريد ذلك الأسى الذي قاومته وقت بدت لها الدنيا مغلقة وهي تتفرج على نسف بيت عبد الرحيم في صفد. فلتعترف الآن لنفسها، وهي وحدها الصاحية في البيت في هذا الليل، بأنها تحب كرامتها وتحرص أن تكون قوية لا تحتاج أحدا ولا تضطر إلى صداقة أو إلى حب.

عندما عبقت النظافة، أغلقت بابها وفتقت الفراش الذي تنام عليه وأخرجت الكنز الذي تسند بها كرامتها: المال الذي وفرته. عدّته. ستمائة ليرة فلسطينية. ثروة! أعادتها إلى الفراش وخيطته. لن تكون أبدا مثل منور التي تنفق مافي يدها دون أن تفكر بالغد! مشت مع منور في أيام الحرب وهي توزع أرغفة الخبز على العائلات الفقيرة. وكان الخبز أعز من الذهب. لو كانت مكان أختها أكانت تبيع حليها لتشتري بعض الزيت والسمن والسكر، أم كانت تقايض ببعض أرغفة الخبز؟ لماذا تستبعدين، ياسعاد، هذا السؤال كلما خطر ببالك؟! منور على حق عندما تقول لها، فيك رجل سياسي ياسعاد، لأنك تحسبين كل شيء حتى الحب! ترد

www.alkottob.com

سعاد دائما: لو كنت أحسب كل شيء لبقيت في بيت حمدان ونعمت بصندوق الحلي!

نامت سعاد بعمق تلك الليلة. وأفاقت في الصباح الباكر. فتحت النافذة فملأت عينيها شجرة اللوز المزهرة. هل بكّر الربيع هذه السنة، أم أنها لم تنتبه إليه إلا الآن؟ يبدو أن الأيام مرت دون أن تشعر بها! لكن شجرة اللوز مزهرة الآن، والربيع وصل! وما أحلى الدنيا! شعرت بأنها شابة، وبأنها جميلة وخفيفة. يبدو أنها نسيت في الأيام الماضية شبابها!

بقيت واقفة في ثوب النوم الأزرق قرب النافذة، كأنها تغسل عنقها ووجهها وذراعيها بهواء البحر. في الأمس هبّ هواء قوي كأنه عاصفة، وقيل إن البحر لطم سور عكا فلم يستطع القريبون من البحر النوم. وفي الأمس هطل مطر غزير. فأين ذهبت الغيوم والبرد والعاصفة؟ هل ارتوت الأرض وارتوى البحر كما ارتوت سعاد من هموم هذه السنوات؟ هل تقول الدنيا فجأة، كفى، كما يقول الإنسان للحزن أحيانا؟

قلقت في الأمس على شجرة اللوز. قالت لنفسها لن تبقى عليها زهرة. ثم عزّت نفسها: يتكرر ذلك كل سنة. تأتي أيام دافئة فتزهر الأشجار، ثم يغدرها يوم بارد فيصاب الزهر بالصقيع حتى على شاطئ البحر! لكن هاهي الشجرة، بيضاء ناصعة! يبدو أنها احتمت بجدران البيت!

حضّرت سعاد لنفسها فنجان قهوة، ومشت من المطبخ إلى غرفتها على رؤوس أصابعها، ووقفت قرب النافذة تشربه. لماذا نسأل أنفسنا أحيانا هل نحن سعداء؟! فلتبعد السؤال لتعيش هذه البرهة، ولتعترف بأن السعادة، كالشقاء، تلعب بالزمن فتمدّه أو تقصّره بعيدا عن تقسيم الساعات والأيام! رفعت فنجان القهوة وشمته بعمق، ورشفت رشفة من القهوة وتذوقت طعم الهيل. لديّ الطفل الجميل الذكي، لديّ زوج محب وحكيم، لديّ مال. فلأنتبه إلى ذلك! آه، ياسعاد! ما أرشق الإنسان عندما يحذف صفحات من حياته وينتبه إلى أخرى! فيخفي اليتم والفراق والقلق، ويخفي الدموع التي انسكبت في السر!

أسعدها حتى كشكش ثوبها الذي رفّ عندما رفعت ذراعها لتشرب القهوة. مع ذلك أيمكن ألا تتمنى أن يرى هذا كله الرجل الذي تعيش معه! وألا ترتوي بالكلام عن حبه! أيعيش بياضها الشفاف وشعرها السبط الأشقر ذو الخواتم في نهاياته، وقدّها الرشيق، في حرمان من نظرة رجل محب! أتستطيع أن تخمد عطش روحها إلى كلمات الإعجاب والحب! تطلب الروح ذلك، كما يطلب الجسم الطعام والماء.

www.alkottob.com

من هناك يتسلل الأشرار إلى الشابات النضرات ويغووهن ويقلبون مصائرهن من الخير إلى الشر!

تنهدت ورشفت بقية القهوة. الحياة ممتدة ولن تبقى المعتقلات قدرا يلعب بأسرتها! ما أحلى الشباب! لا يستطيع الحزن أن يغلق بواباته! كلما تجاوزت قطعة منه استقوت بالأمل لتجتاز قطعة أخرى! يبدو لها الحزن حالكا في الليل والدموع محرقة، لكن الصباح يمسح الألم الذي بدا بحرارته وعمقه كأنه يقتلع الفؤاد!

وضعت سعاد لابنها الفطور تحت شجرة اللوز المزهرة. وفتحت نافذة أم عبد الرحيم على عرضها. مشطت لها شعرها وثبتته بالملاقط الكبيرة. هل وصل الربيع إلى أم عبد الرحيم من شجرة اللوز فقرأت في أوراق الشدّة التي نشرتها على فراشها أن عبد الرحيم سيطرق الباب ويدخل، اليوم لاغدا؟ التقت نبوءتها برغبة سعاد التي انسابت تحت شجرة اللوز المزهرة. سمع زياد نبوءة جدّته فقال لأمه إنه رأى في المنام رجلا قال له سيصل أبوك اليوم من المعتقل! استمتعت سعاد باستحضار عبد الرحيم في يوم معبأ بالربيع، لكنها أبعدت عن ابنها غطاء النبوءات: يازياد، كم مرة رأيت ذلك الرجل في المنام؟ نريد أن يعود بابا، لذلك نراه في الأحلام وتراه جدتك في ورق الشدّة! قال لنا القائمقام إن أباك سيخرج من المعتقل. لكن إذا رجع اليوم أو غدا فسيكون ذلك صدفة! فهمت؟ مع ذلك استرخت سعاد على الكرسي مستمتعة بالشمس وبشعورها بأن عبد الرحيم سيدق الباب اليوم! رأت لون الشمس الوردي من خلال جفنيها المغمضين. فبدت لأم عبد الرحيم كصورة مؤطّرة بالنافذة. شابة حلوة، تعيش أكثر الأيام دون زوجها! مسكينة، تحملنا وتحمله على كتفها. عندما يرجع من المعتقل يتكوم عليه ضيوفه وأصحابه وموكّلوه فلا تكاد تراه!

قدّرت سعاد، رغم ما قالته لابنها، أن عبد الرحيم سيعود ظهرا. فتفادت أن تكون خارج البيت. وعندما فاح الدجاج المحشو باللوز والصنوبر والرز فهمت أم عبد الرحيم أن سعاد تنتظره. لذلك طلبت أن تأكل من طعام الأمس. فوافقت سعاد، وبقي الدجاج المحشو ينتظر رجلا تتوقع أسرته أن يدق الباب.

أنهى المساء الحلم بعودته. فصمت حتى زياد. دفن الليل يقين سعاد ونبوءة زياد وجدّته. سيذكر زياد ذات ليلة وهو عسكري مناوب، ذلك اليوم البعيد في طفولته، وأمه التي جلست إليه وهو يتعشى. قالت: اسمع، ياروحي! لسنا في جنازة! لم يأت أبوك اليوم لكنه سيأتي غدا أو بعد غد، أو بعد أسبوع! ضحكت: اسأل عنه، على كل حال، الرجل الذي يظهر لك في المنام! ولا تنس أن تعاتبه على كذبه!

www.alkottob.com

جلست سعاد على طرف سرير زياد يومذاك، وربتت على شعره الطويل. وتمنت أن تغني له. كانت النافذة مفتوحة ورطوبة المساء تغمر الغرفة. هل فهم أنها أرادت أن تبقي النوافذ كلها مفتوحة لشجرة اللوز المزهرة؟ بقي ممسكا بكفها حتى غفا. وعندما شعرت بأن أصابعه استرخت نهضت إلى غرفتها. بقيت ساهرة زمنا، وشربت فنجانا أخيرا من القهوة قرب النافذة. ولم تغلقها إلا وقت شعرت بلسعة الليل. مع ذلك سيعود الربيع في الصباح!

طرق عبد الرحيم الباب قبيل الظهر. ولم تكن سعاد تتوقعه. أهكذا تلعب ياعبد بنبوءاتنا؟ أحسنت أمك باقتراحها أن تترك الدجاج المحشو بالرز! لكن لو أتيت في الأمس لوجدته ساخنا، طازجا!

يرسل من يخرج من المعتقل إلى السجن ليبقى فيه أسبوعا. يبدو أن مستر كوبرفيلد حرر عبد الرحيم من ذلك الأسبوع. قالت سعاد: ليمنّ علي به! سيفرج عن المعتقلين! الحرب العامة على الأبواب، ولن يفتح الإنكليز جبهة على أنفسهم هنا. سجن عبد الرحيم سنة وسبعة أشهر! ألا يشبع ذلك الإنكليز؟

خيل إلى سعاد عندما دخل عبد الرحيم البيت أنه أكثر نحولا مما كان في المعتقل. قبّل يد أمه فقالت له: الله يرضى عليك! همست سعاد لنفسها: رضي الله عليه فسجن، واستبقاني دون سجن لأنه لم يرض علي! لم يتعلق زياد بعنق أبيه كما توقعت سعاد. بل التصق بها متأملا أباه. تجاهلت سعاد الغربة بينهما. يحتاج الطفل ساعات كي يألف من قرب أباه الذي كان يراه من خلف الأسلاك!

بدا عبد الرحيم كمن سيعود إلى المعتقل غدا. كأنه خرج من المعتقل بخطأ ما! بدا مستعجلا، على غير عادته، يريد أن يغتسل وأن يأكل، وأن يعانق ابنه، وأن يوزع وقته القليل بين أمه وزوجته وابنه. بدا سعيدا لأن أحدا لم يعرف بعد أنه خرج من المعتقل. فليكن هذا اليوم كله لأسرته! تنازلت سعاد لأمه ولابنه عن حصتها فيه: ابنك يريد أباه! وأمك قلقة عليك!

يكذب إذا ادعى أنه ليس مشتاقا إلى ولده. لكنه في هذه المرة تمنى أن يبقى زمنا طويلا مع سعاد. في الدقائق الاولى كان فرحا وهو يحمل صرة ثيابه وينتظر سيارة تنقله إلى بيته. استسلم للحرية، للأفق الواسع الذي رأته عيناه، لسعة البحر الذي لاقاه. الحرية سعة إذن، ياعبد! هل تستطيع أن تعد الأيام التي فارقت فيها عكا والبحر؟ في الطريق بدا له هواء البحر مختلفا عن هواء البحر الذي كان يتنفسه في المعتقل. لمح أشجارا مزهرة في طريقه إلى البيت. ربما يجب أن يمشي أو أن يطلب من سائق السيارة أن يقطع به عكا ويصل إلى صفد وطبرية وحيفا!

www.alkottob.com

لا، يريد أن يغتسل بقدر ما يريد! يريد أن يأكل حول طاولة في بيته مع أسرته! يريد أن يلمس نوافذ بيته ويستلقي على فراشه! انساب فيه شوق إلى سعاد. هل أيقظت أشواقه إليها أشجار البلد المزهرة؟ والربيع الذي وهب السماء لونا أزرق نظيفا وعميقا؟ لو يكون ثلاثة، واحدا ينشغل بزياد وبأمه، وواحدا ينصرف إلى سعاد، وواحدا يمشي في سهول فلسطين!

أطاع سعاد فجلس قرب زياد، وسكب له الدجاج وخصّه باللوز في الرز. التفت إليه مرات وسأله عن أصحابه أولاد الجيران. في المساء جلس زياد في حضنه وتركتهما سعاد وحدهما. جلت الصحون ثم جلست مع أم عبد الرحيم. هل فهمت أنها تشكرها لأنها اقترحت أن تترك الدجاج للمنتظر الذي سيأتي غدا حرا؟ أم تريد أن تستشف كيف خمنت أن ابنها سيأتي غدا؟ لم تسألها. لكن أم عبد الرحيم اختصرت الحديث الذي لم تنطق به أي منهما. قالت: قلب الأم! يصقل الزمن، ياسعاد، موهبة الأم في الحدس!

غفا زياد وأمه قربه. للأفراح هيجانها أيضا! لن يهدئه أن يرعى عبد الرحيم نومه. بل يجب أن تعيد إليه سعاد طمأنينة بيت مستقر يحضر فيه أبوه ويغيب عنه. تظاهرت بأن وصول عبد الرحيم لم يصبها بما يشبه الإغماء. وأنها لم تضبط فرحها واضطرابها. وأنها وهي تجلي الصحون لم تمنع رغبتها في أن تجلس على الأرض قرب ابنها وأبيه كما تجلس الأمهات مع أولادهن وأزواجهن. ولم تشعر بألم جارح قمعته قبل أن يبدأ. وبملل حزين من تكرار غياب عبد الرحيم. وبالقلق لأنه قد يعتقل غدا. يجب ألا يعرف زياد بحر العواطف المتلاطمة، بل صفحة البحر الزرقاء المستوية الممتدة! ويجب أن تكون هي تلك الصفحة الممتدة! ما رآه خلال زياراته المعتقل مع أمه؟ يجب أن يعرف أين يغيب أباه ومن يعتقله! يجب أن يفهم ما يحكم البلاد اليوم! آه ياسعاد، كيف تجمعين كل ذلك في حزمة واحة لطفل؟ كي يعرف الحقيقة دون أن يضيع صوابه! كي يفهمها دون أن يفقد طمأنيته وهدوءه! كلما استطعت أن أبعده عن الألم والاضطراب سأبعده عنه!

غفا زياد وكبح عبد الرحيم اضطرابه. هاهو مع سعاد في بيت نائم. وهو مرتبك بعد ذلك الغياب الطويل. يراقب اضطرابه ويقول لنفسه: أرادوا أن يكسروا فينا حتى هذه العواطف بين رجل وامرأته! وهنا يجب أن أقاومهم! طلب منها أن يخرجا إلى الحديقة. كأنه كان معها أمس تحت شجرة اللوز المزهرة! لبست جاكيتا وخرجت معه. لمحت في روحها ظلّ اليوم الذي تسللت فيه مع حمدان من البيت وعادا إليه متسللين ورفعها كي تدخل من النافذة. ابتسمت. ليت ذلك يعاد في

www.alkottob.com

صيغة جديدة تتداخل فيها حكمة عبد الرحيم في صورة تجعل العلاقة بينهما مبهرة. آه، لا! لا تريد أن يتكرر هيجان العواطف المعذب! لا تريد اضطراب القلب! ولكن هل يستطيع عبد الرحيم أن يترك الحب ينساب رائقا وعذبا، هو القادم من مكان يصنع فيه القلق والاضطراب، ويجهل المعتقل فيه إن كان سيوضع في سيارة تمر فوق الألغام أم سيتهم باغتيال؟! هل يستطيع هو أو هي أن يقيما أسوار بابل بين الحديقة التي تزهر فيها شجرة اللوز والبيت النائم وبين ما هو خارج الباب؟

قد تكون السعادة أكثر عمقا عندما تختطف في برهة القلق عليها! استنبت الفراق غربة مدّ كل منهما ذراعه كي يقطعها في رفق محاولا أن يكسب محبوبا غاب عنه زمنا طويلا. حاول كل منهما أن يستسلم لرائحة البحر وعبق زهر اللوز والتراب الذي لا يزال رطبا من المطر. كأن عبد الرحيم اكتشف الآن فقط أننا يجب أن نبذل جهدا كي نبقي الحب حيا! وحاول أن يسقيه كما كان يسقي العشب الذي زرعه مرة قرب بيته فأثار سخرية زوجة أخيه: "سلفي يحاول أن يقلد الإنكليز"! وربما كانت على حق فالنبتة لا تعيش إلا في بيئتها. ولذلك يبس عشبه القديم. لكن في يده أن يبقي شجرة اللوز، ابنة البلد، حية ونضرة! أمسك يد سعاد وربت عليها. ماذا تثير لمسة كفه فيها؟ أليست هذه هي العواطف التي هربت منها لكنها تستسلم لها الآن؟ هل يوجد حب دون اضطراب القلب، ياسعاد؟ سمعت دقات قلبها في أذنيها. وفي تلك البرهة تململ عصفور في العش في شجرة الخرنوب التي تظلل نصف الحديقة. ياللهدية الثمينة لهذه الليلة! ابتسمت. هل تأرق العصافير أيضا؟! قال لها: ارفعي رأسك! ورفعت رأسها فتبينت قمرا ليس هلالا وليس بدرا. سألته: كم عمر القمر اليوم؟ خمن: ربما، أسبوع! قبلت صمته وأصغت إلى لمسة يده. وخيل إليها أنه يقول كلاما كثيرا. لكننا ياعبد الرحيم لم نجلس أبدا بعد في القمر! كيف تنسى سعاد الليلة التي نامت فيها على زنده في صفد، مغمورة بالبدر؟ وأنها أفاقت فوجدته يتأملها. قال: طار عقلي وأنا أتفرج عليك في القمر. هل تعرفين أن القدر وهبك بشرة لا مثيل لها؟ غطت ارتباكها يومذاك: هل عرفت نساء كثيرات، ياعبد الرحيم، كي تقول ذلك؟ رد في هدوء: لم يكن لدي الوقت للنساء! لكن الإنسان وهب العقل كي يفهم الكل من الجزء، وكي يستشف ويخمن. يكفي لذلك الوجه والكفان، ياسعاد! ولذلك كنت كما توقعتك! أبقت عينيها مغمضتين يومذاك، لكنها كانت قد استيقظت. وعندما فتحتهما رأته مايزال يتأملها. حسب تلك الليلة من أيام سعادته. العين تشرب وتأكل وتشعر،

www.alkottob.com

ياسعاد. ملأت عيني بالفرح في تلك الليلة المقمرة في صفد. ملأت روحي بالضوء. ذهبت إلى مكتبي مرتويا، سعيدا. وبدا لي أني أفهم قضايا موكلي أكثر مما كنت أفهمها سابقا، وأصغي لها دون تعب. قوتنا هنا، ياسعاد، في الروح! كيف استطعت أن تنسي تلك الليلة؟!

بدا زهر اللوز أكثر بياضا في ضوء القمر. رفع عبد الرحيم يد سعاد ليتأملها في ضوء القمر بعيدا عن ظلال شجرة اللوز. ثم قرّبها من فمه فلفحتها حرارة نفسه وفهمت أنه يريدها فاقتربت منه. ابتسمت: وجهك بارد ونفسك حار! لاتبرد كيلا يقال أعدناك إلى المعتقل مريضا! آه، تلمحين إلى أن إقامتي ليست في البيت بل هناك؟! قربها منه في حنان. لمس رقبتها وكتفها. ونهض: أنت التي بردت! ومشيا معا إلى البيت.

أبقت سعاد النافذة مفتوحة. ورأت ارتباكه وهو يضمها إليه. يفضل أن يغلق النافذة وينزل الستارة دون القمر! لا، فلنواجه الضوء ولنحاول ألا نرتبك. وإذا فشلنا فلن نخجل. أمامنا الليل كي يألف أحدنا الآخر. وإذا خطر لك أن تنام فلتنم! لم تقل سعاد كلمة، ولم يقل عبد كلمة. سمع أنفاسها وأناملها، ورفع يدها إلى خده كي تشعر بأن رؤوس أصابعها اخشوشنت وأن ذلك يحزنه. وشكرته على ذلك في صمت. رأته يغفو فربتت على ظهره. نم! هل تستطيع أن تقاوم فراشا مريحا وشراشف نظيفة؟! رأته يغفو في سرعة كطفل. كأنها قرب زياد! لولا أن وجه عبد الرحيم مثقل بالتعب! تنهد في نومه واستمعت إليه. لا تستطيع الحكمة أن تكتم ما تحمله في روحك! عندما يغفو عقلك يصحو ألمك! انتفض في نومه وصحا فرآها تراقبه. غريب، رأيت نفسي في المعتقل وأنت جالسة قربي تتأملينني! قالت له في حنان: نم، نم! لكنه لم ينم. شعر بملمسها على طول جسمه، فعانقها مشتاقا إليها. وفي هذا العناق شعر برعشتها العميقة. ضمته إليها، وسمع آهة ناعمة وخجولة بقيت على كتفه فكاد يغيب عن نفسه. وكاد يصرخ هو أيضا انتصرنا ياسعاد على الفراق!

في الصباح قال لها: تفرجي على نفسك في المرآة! كأنك وردة شبعت من الماء. شغلت نفسها بفنجانيّ قهوة وضعتهما وقالت له مداعبة: حتى في البيت ترانا في معارك ننتصر أو نهزم فيها؟! فأبعد نظرته عنها مرتبكا. لكن أليس سبب نضارتها في هذا الصباح أنهما انتصرا؟

مرت الأيام التالية بين فناجين القهوة وقرع الباب حتى اقترحت سعاد: اتركوه مفتوحا! واستخدمت الحديقة لاستقبال الفائض من المهنئين. أتى رجال من رام الله

www.alkottob.com

والقدس، من اللد والرملة، من طبرية والخليل، من حيفا ويافا. حمل المهنئون أكياس الرز والسكر، وتنكات السمن، وساقوا إلى حديقة عبد الرحيم خرفانا. فقالت سعاد للست شفيقة: سيصبح عبد الرحيم راعي غنم! تغدى المهنئون القادمون من مدنهم وقراهم، وتعشى القادمون من مناطق قريبة. واستهلك الغنم الذي قدم هدية. لكن كان لدى سعاد في نهاية الاحتفالات ثمانية عشر كيسا من الرز ذات الميل الأحمر. وعشرة أكياس مثلها من السكر. وتنكات من الزيت. اقترح عليها العكي: استبقي يابنتي سعاد مؤونتك منها ولأبع الفائض وإلا أكله الفأر. الحرب على الأبواب فخبئي قروشك ومؤونتك! قد يعتقل عبد الرحيم مرة أخرى أو يوضع في الإقامة الجبرية، يعني سيكون دون شغل! قالت له ساخرة: ياعمي، يبدو أنه اشتغل في المعتقل وإلا فمن أين هذا الخير؟

استشارت عبد الرحيم: ما رأيك في أن نشتري بيت عادل البهائي؟ سيهاجر الرجل إلى أمريكا. بيته جميل ورخيص. رد عبد الرحيم: البلاد في خطر وأنت مشغولة بشراء بيت؟! ستسمع رأيه هذه المرة فقط، ولو لم يعبر عنه برشاقة! لكنها ستطيع عقلها فقط. وستفسر ذلك: بعبد الرحيم لاتقوم أسرة!

في أيام الحرب سيطلب منها جيرانها قليلا من الرز للمحشي فتلبيهم. سيطلب منها حتى ابن ميخائيل حبايب، شريك أبيها، سكرا لأن زوجته تريد أن تحضّر المعمول، وسترسل له تنكة من السكر. لن تشعر أبدا بالضيق في أيام الحرب! ستحكم أسرتها لتحمي قدرها وتخفف الأخطار التي يرميها فيها زوجها، مع أنها ستسنده دائما وتتمنى لو كانت مكانه. لكن هل كانت تتصور أنها ستنجو بأسرتها من مصير بلادها؟

انشغل عبد الرحيم بعد خروجه من المعتقل باتحاد عمال فلسطين. وقدم تقريرا عنه لأصحابه. خرج العمال من هذه المنظمة التي تجمع العرب واليهود، في الثورة. في رأيي أن أغاسي الذي يعمل فيه، هو رجل استخبارات صهيونية. هو رجل الوكالة اليهودية! المشكلة أن الهستدروت تحكم بعض الأعمال وترغم بمقاوليها العمال على الانتساب إلى اتحاد عمال فلسطين. وهكذا يساهم اتحاد عمال فلسطين بكسر الإضراب العام. قدمت الوكالة اليهودية سرا المال للعمال الذين كسروا الإضراب في مرفأ حيفا، ولسائقي التاكسي كي يكسروا الإضراب. وعرفنا أن اتحاد عمال فلسطين أمن أول الزوارق لمرفأ تل أبيب! مسؤول التنظيم في هذا الاتحاد الآن، صموئيل ألافيا. يهودي أصله من دمشق. ارتفع أغاسي إلى منصب آخر! في رأيي أن اتحاد عمال فلسطين مصدر معلومات للهاغاناه. كلف

www.alkottob.com

زازلاني الذي كان يعمل في القسم العربي من الهستدروت بتأسيس شبكة جاسوسية لحساب الوكالة اليهودية! وهو يبدو كضابط اتصال صهيوني بالإنكليز. ويحرص على تقارير القسم العربي من الهستدورت! فنبهوا العمال العرب الطامعين بعمل من طريق الهستدورت، أو الحالمين بوحدة العمال ضد أرباب العمل والبرجوازية العربية والإقطاعيين العرب! أصحاب الأملاك العرب ضحايا المشروع الصهيوني كالعمال تماما! قولوا لهم يجمع أغاسي وألافيا، العافية، المعلومات عن الشخصيات العربية ونشاط العرب! يرسل جورج نصار تقارير عن العرب إلى موشيه إريم وغيره من زعماء بوعالي صهيون. باسم وحدة التنظيم يخون وطنه!

التزم عبد الرحيم بألا يترك على مكتبه أوراقا قد تفيد من يعتقله. استبقى عليه أوراق القضايا والنشرات. في تلك الأوقات الخاطفة رأت سعاد على طاولة عبد الرحيم نشرة وزعها اتحاد عمال فلسطين ضد الإضراب. قالت: العمى! هذه خيانة للبلاد والناس! ما عندهم قلب! عندما رأت نداء عبد الرحمن عثمان الحسيني "إلى الإنسانية المعذبة" هبت واقفة. ياعبد، أليس هذا أبو صبحي الذي طلبت مني أن أعرف إن كان خائنا أم لا؟ أليس هو الذي زرته في بيته مع الست شفيقة؟ كنت أظن..

أمسك بيدها وأجلسها على المقعد. لم ترم الجماعة عليك فقط البحث عن حقيقته. كلفوا آخرين أيضا! لكنك أنت التي دخلت إلى بيته ورأيت دليلا إلى أنه سمسار للوكالة اليهودية. قتل القسّام وانشغلنا بمصيبتنا عنه! والآن يطعمنا هذا الخائن مبادئ الاشتراكية والسلام ليضرب الثورة. لكنه مكلف بعمل أكبر من ذلك البيان. أتى هذا الرجل من دمشق بعد أن تقاعد من وظيفته ليعمل مع اليهود! نعرف أنه يتصل الآن في السر باتحاد عمال فلسطين. وله صلات أخرى بالوكالة اليهودية. أرسله اتحاد عمال فلسطين في الظاهر ليقيم فرعا له في قرية عارة. وسيتسرب به إلى الريف ليقاوم نفوذ الهيئة العربية العليا. أسس ناديا، فيها وفي عرعرة، وأمّن للنادي راديو ومطبوعات! مشروعه أن يؤسس نواد ثقافية في المدن والقرى موالية للصهيونية. نعرف أن الصهيونيين استأجروا له مكتبا. ونظن أنه هو كاتب كراس "كشف القناع" الذي مدح الهستدروت لاهتمامها بالعمال العرب، وأعلن موقفا ضد الثورة والإضراب العام. يتغطى الحسيني الآن بالتبشير بأن العمل والمال الصهيوني ضرورة لفلسطين، ويؤسس على ذلك "الإخاء" الصهيوني العربي! أخشى أن يخترق اليهود به بعض الأحزاب العربية! قدمه اليهود ليتحدث باسم العرب مع ممثلي أحزاب إنكليزية! بينما منع ذلك اللقاء عن جورج منصور

www.alkottob.com

ممثل جمعية العمال العرب، واغتاله مجهول في أول الثورة.

هاأنت ترين الحقيقة المتخفية باسم تجمع واسم رجل! يسلك اتحاد عمال فلسطين مشروعا آخر أكثر خطرا لتفكيك وحدة الفلسطينيين. اتصل قادته بقرية اليوسفية في الكرمل وأرسلوا زعيمها، أبا ركن، إلى سورية وبيروت ليؤمن ضغطا درزيا. يرسمون معارضة دروز سورية الوطنيين! فيقسمون الدروز السوريين وشعب فلسطين في وقت واحد! وخلال ذلك يحمون كيبوتز ياجور في الكرمل! لا تظني ياسعاد أنهم يرسمون ضرب هذه الثورة فقط! ميزة اليهود أنهم يرسمون خطة لمائة سنة!

في ذلك المساء من سنة 1939 استمعت سعاد إلى عبد الرحيم بعد خروجه من المعتقل، قبيل سفره إلى سورية كأنه يأتمنها على اكتشافه. وعندما سكت سألته بنظرتها: وماذا بعد هذه المقدمة؟ بقي صامتا. هل سيكلفها بمهمة؟ تأملت صمته وقالت: يوم قلت لك إني أعرف عبد الرحمن الحسيني أجلستني وحدثتني عنه. لكني ياعبد لا أستطيع أن أقتله. لن تستطيعي ذلك! يحميه الإنكليز والصهيونيون.

www.alkottob.com

في الأيام التالية بدا لسعاد أنها بعيدة عن عبد الرحيم. لم يقدّر عمق جرحها من قتل أنور. عصرت له ولزياد البرتقال. وقالت كفى! فهل يخطر لأحد أن يعصر لها كأسا من البرتقال! كان عبد الرحيم في مكتبه يفحص قضية الأرض التي أوكل إليه الدفاع عنها. وكان يقول لنفسه: لا يعيش المحامون الوطنيون من القضايا التي يدافعون فيها عن موكليهم مجانا، بل يعيشون من الأغنياء الذين جعلوهم وكلاءهم دون قضايا!

قرأ الأوراق مستندا إلى مرفقيه. انشغل قبل قراءتها بزائر أوصل له خبرا عن تصفية جاسوس. لم يخطئ عبد الرحيم في قراءة كل سنة من سنوات الثورة. في دمشق السياسيون الفلسطينيون الآن، يساعدهم رجال الثورة السورية. لكن القواد الميدانيين فلاحون. تعلموا من خبرتهم ومن القاوقجي. يجمعون قوتهم في المركز الذي يهاجمونه، وينتقون الوقت المناسب للهجوم. بعد معاركهم الخاطفة يخفون أسلحتهم ويتفرقون عائدين إلى قراهم. يتفادون أن يواجهوا قوة إنكليزية كبيرة، ويعتمدون التكتم ومساعدة أهل القرى، لذلك لا يتهاونون في محاكمة الجواسيس. لديهم محاكم ثورية كسلطة مسؤولة عن أمن القرى وأمن الثورة. يفصلون في مشاكل الفلاحين كسلطة مدنية. لكن الإنكليز يقاومون نفوذ الثورة بالمحاكم العسكرية، وقانون الطوارئ، وتدمير البنية الزراعية. وبزمر الليل الخاصة اليهودية التي تهاجم العرب.

قرأ عبد الرحيم في المعتقل سمات هذه السنة في هدوء. لكنه منذ خرج من المعتقل يشعر بخفقان في قلبه ويلاحظ أن يديه ترتجفان. قال لسعاد: صفّي اليوم جاسوس! ردت: ليت الذين صفوه يفحصون التهمة كما تفحص قضاياك! استبقاها: اجلسي! ياسعاد، هل تستطيع محاكم الثورة أن تنتظر التحقيق الذي يمتد سنوات؟ أين تضع المتهمين خلال التحقيق والثوار أنفسهم مطاردون بالطائرات؟ محاكم الثوار محاكم ميدانية لا تطيل التحقيق! لكني لو كنت مع الثوار لنفذت

www.alkottob.com

بيدي قتل حليم اسكندر بسطة، مدير بوليس اللواء الشمالي! ألم يحتفل الناس باغتياله في السنة الماضية؟ على يديه ربي أحمد النايف قاتل القسّام! ياعبد، أحتقر هذا الرجل. أعرف أن أهل البلاد احتفلوا بالخلاص من شروره! لكن لا تقل إنك تستطيع أن تنفذ الإعدام بيدك! يلزم لذلك رجال غيرك! وقف عبد الرحيم: تقصدين، ليقم غيرنا بذلك لتبقى أيدينا نظيفة؟ إعدام الخائن ليس عملا وسخا، ياسعاد! بل ضرورة لأمن الناس والثوار! هبّت سعاد واقفة مقابله كأنها مرهقة بغضب كبحته زمنا: سيلوث أية ثورة أن تقتل رجلا بريئا!

لا تريد أن تسمع كلمة عن تصفية رجل! كان يجب أن يتأنى عبد الرحيم وهو يذكر التصفية كأنها من انتصارات الثوار! لكنه استند إلى دراستها في مدرسة مس نيوتن ليروي لها أن أشقياء دخلوا ديرا للراهبات قرب الناصرة وأخذوا أمواله باسم الثورة. حقق أبو درة بنفسه في شكوى الراهبات، وتابع البحث عن الأشقياء. هؤلاء كالصهيونيين الذين يتخفون بالكوفية والعقال ويتسللون ليضعوا قنابلهم في المقاهي والأسواق العربية! عرض أبو درّة من اعتقلهم على الراهبات فعرفنهم. استرد منهم ما سرقوه وأعاده للدير وأعدمهم!

لم يعرف عبد الرحيم وهو معتقل أن سعاد قسّمت الزمن قسمين، ماقبل مقتل أنور ومابعد مقتله. "قبل" مقتل أنور نزلت إلى حيفا لتقرر هل الحسيني يتعامل مع اليهود أم لا. "بعد" أنور لا تتحمل أن تسمع كلمة عن التصفيات! "قبل" أنور كانت التصفيات واضحة: للسماسرة الذين ينقلون الأراضي إلى الصهيونيين فيغيرون هوية البلاد. ولمن يتجسس على الثوار. لكن التصفيات في هذه السنة لم تعد منزهة! دخلت الأهواء وخلافات الأحزاب والعائلات، ودخل الإنكليز واليهود فصاروا يلوثون سمعة رجل وطني فيصفيه الثوار. ألم ينشروا أن صدقي الطبري باع أراض لليهود؟ طلب صدقي من الهيئة العربية العليا أن توضح الحقيقة ببيان. وضعت سعاد بيان الهيئة على مكتب عبد الرحيم: "اطلعت الهيئة العربية العليا على منشور وزعه البعض اتهموا فيه السيدين صدقي الطبري وخليل الطبري بأنهما باعا أراضي لليهود في منطقتي طبريا وسمخ بلغت مساحتها 3587 دونما. وبناء على طلب السيدين صدقي وخليل الطبري قامت دائرة الأراضي التابعة للهيئة العربية العليا بتحقيق دقيق. وبعد مراجعة قيود الطابو الرسمية تبين لها أن ما تضمنه المنشور المذكور مخالف للحقيقة والواقع. وإن الهيئة العربية العليا تعتقد أن القصد من إذاعة ذلك المنشور كان للنيل من وطنية السيدين صدقي وخليل الطبري، وهو أمر تستنكره الهيئة وترجو من السيدين صدقي وخليل الطبري

www.alkottob.com

اللذين تعرف الهيئة مواقفهما الوطنية المشرفة وتقدرها حق قدرها، الاستمرار على العمل في خدمة هذه الأمة الكريمة". ومن صدقي الطبري؟ مدير بنك الأمة في طبرية، الذي أسس البنك ليسند الفلاحين كيلا تصبح أراضيهم لليهود! لو خنت أنا البلاد لخانها صدقي الطبري! لا أريد أن أسمع كلمة عن التصفيات، ياعبد!

أصبح عبد الرحيم وحيدا في المساحة التي يقاوم فيها وهن جسمه وروحه. وصله رجل فأغلق الباب على نفسه وعليه، ولم تقدم سعاد لهما القهوة. عتب عليها بصمت. فليحرق الثوار مزارع من اغتنى من السمسرة وفقر الفلاحين العرب! فلتحرّم الصلاة على الجاسوس وليحرّم دفنه في المقبرة! وإذا دفنه الإنكليز فلينبش قبره وليرم في الطريق! قتل بعض الجواسيس بالفأس؟ فلينتشر بينهم الرعب ليخافوا خيانة الوطن! وإذا آوت قرية بريطانيين بإرادتها فلتخرب بيوتها!

ودع عبد الرحيم ضيفه ورجع إلى سعاد. كان يتصور أنه يتقرب منها فأخطأ مرة أخرى! "أراد أن يكحلها فأعماها"! ياسعاد، ادعى بعض عملاء الإنكليز بأنهم ثوار فاستضافتهم صاحبة البيت وقدمت لهم الطعام. فاعتدوا عليها. بحث الثوار عنهم، وعرضوهم على المرأة فعرفتهم. فحاكمهم الثوار، وقطعوا أعضاءهم ووضعوها في أفواههم وعلقوهم على الأشجار قرب الطريق!

ظن عبد الرحيم أنه يستعيد سعاد إلى تلك المنطقة المحرمة! ففاجأه غضبها. لم أعرف من قبل أن في قلبك قسوة توصلك إلى التشفي بالقتل! هذه أمور تنساها حتى الثورات إذا مارستها مضطرة! هذه أمور لا يفخر بها إنسان! أرعشته نظرتها. يبدو أن الإنسان الذي يعذب في المعتقل يحتاج تماسكا هائلا كي يحفظ في قلبه الرحمة! كي يرفض أن يعامل حتى عدوه بمثل ما عومل به! ينفذ حكم محاكم الثورة بالضرب بالفأس على الرأس؟ وبالتمثيل بالجثث؟ يرمى الجاسوس في بئر مع كلب يظل ينهشه حتى يموت أحدهما قبل الآخر؟ يجب أن تترفع محاكم الثوار على الانتقام! يجب أن ينفذ حتى الحكم العادل بالموت في احترام، فهذا الاحترام للموت والوطن والثورة لا للجاسوس!

هل تعيش سعاد خارج هذه السنة المرّة؟ ألا تعرف أن اليهود والإنكليز جمعوا رجال القرى التي قطعت قربها الأسلاك الشائكة المكهربة بين فلسطين وبين سوريا ولبنان وعروهم من ملابسهم وضربوهم ورموهم في عين الشمس ثم أرغموهم على المشي إلى المعتقل ونسفوا بيوتهم؟ ألا تعرف سعاد أن قنبلة رميت على موظفي شركة السيارات الوطنية الذين ينتظرون العودة إلى بيوتهم ليفطروا في رمضان، فنثرتهم أشلاء؟ ألا تعرف ماذا يفعله يهود "زمر الليل الخاصة" التي دربها الإنكليز

www.alkottob.com

وأطلقوها على العرب؟ روى له ضيفه كيف زرع اليهود قنبلة في سوق الخضار في حيفا! فجّروها وانتظروا الناجين من الانفجار بسيارات في الشوارع التي توصل إلى السوق فحصدوهم بالرصاص! وكانت القنبلة التي فجروها معبأة بمواد سامة وبمسامير، مصنوعة في معمل يهودي قرب الرملة يتجاهله الإنكليز! هل نسيت سعاد ذلك؟! كيف تطلب الرحمة إذن لعملاء هؤلاء المجرمين؟!

تقلب عبد الرحيم على ألمه. في المساء حاول أن يلمس سعاد ليبدد غضبها. فأخطأ مرة ثالثة. زأرت: إياك! فحمل بيجامته وخرج من الغرفة واستلقى على الديوان. ما ذنبه؟ يعرف نفسه! ليس قاسيا، ومايزال غير قادر على صيد عصفور. لكن سعاد لا تعرف ما رآه هذه المرة في المعتقل! ربما رمي الفلاحون المعذبون بين السياسيين ليرى "الذوات" آثار التعذيب الذي يستطيع الإنكليز تشويه إنسان به! روى فلاح لعبد أنه ضرب على قدميه حتى تورمتا ثم لفتا بكيس فيه قش ثم أحرق الكيس. روى له أن الإنكليز رموه في البحر مرات وسحبوه منه مرات كلما كاد يغرق، ولم يكن رأى البحر في حياته!

لايزال عبد الرحيم يتذكر أنه حشر مع المعتقلين في سيارة تقدمت سيارات الجيش، كي يكتشفوا بها الألغام! عرف عبد الرحيم هذه المرة في المعتقل غضبا في روحه لم يعرف مثله من قبل. لكنه لم يرو لسعاد شيئا مما رآه. فمنذ أسبوع ينام بعمق كالميت ويستقبل بعض الزوار فقط. وسعاد ترعاه لكنها تستسلم لحزنها على أنور. ليتها تسأله عما به! هل أصبح بنطاله واسعا يمسكه بزنار من الجلد على خصره، لأن طعامه قلّ؟! أم لأن روحه تؤلمه؟ لم تفهم سعاد حزنه، وبقيت غريبة عما رآه في المعتقل. وأخفى التفاصيل عنها، كيلا تخاف عليه وقت يعتقل مرة أخرى!

تحدث مع نفسه زمنا في ظلمة الغرفة. ربما فقد بعض صبره وهدوئه لابعض لحمه فقط! اعترف لنفسه بأنه يشعر بالغربة عادة كلما رجع من المعتقل. تحرص سعاد أن تبقي أثاث البيت في مكانه، ويقدّر لها ذلك. لكنه يجد أن ابنه كبر في غيابه. يتحاشاه زياد في اليوم الأول، يلتصق بأمه ويراقبه كأنه يتعرف عليه. هذه المرة يشعر عبد بغربة أخرى!

لم تغف سعاد بسرعة. قالت لنفسها في غضب: ماهذه الحياة! العمى! كأني للخدمة ولنقل الطعام إلى المعتقل! هذا ما يغضبك؟ لا! ليس هذا فقط! البلاد على عيني ورأسي، لكن أنتحمل قسوة الإنكليز، الله يهدّهم، وقسوة الثوار؟ لا! توجعني روحي على أنور! لا أستطيع أن أنسى البرقيات المكومة على سرير أمه، متشفية

www.alkottob.com

من الشيخ أسعد! هل ذلك التشفي لأن الشيخ أسعد مع عبد الله ضد المجلسيين، أم لأنه متهم بشهداء أيار؟! ضاعت الطاسة! هذه الفوضى تبعد الناس عن الثورة! سلب الثوار بنك بركليس في نابلس، فهمنا! حاولوا أن يسلبوا البنك العثماني، فهمنا! مال العدو حلال! لكن فرض الأتاوات على المزارع التي لا تناصرهم، لا! اتركوا الذين لا يعادونكم!

تقلبت سعاد في فراش واسع، واستسلمت لغضبها على قسوة عبد الرحيم. هل تكتشف زوجها الآن؟ اسكتي ياسعاد، اسكتي! فلتعترف بأنها غاضبة على الحياة التي تساق إليها هي والناس والبلاد! غاضبة لأنها أعيدت مرات دون أن يسمح لها بزيارة عبد الرحيم، وكانت تتمنى أن تتخفف من الطناجر الكبيرة التي أتت بها له وللمعتقلين فنقلتها في العودة أيضا! يحكم قدر بلادها من لا تقبل أن يكونوا بوابين على بابها! اولئك يقررون لها متى تقابل زوجها! في آخر زياراتها إلى المعتقل وقفت خلف الأسلاك المزدوجة. آه من الأسلاك! الأسلاك المكهربة بين فلسطين وبين سورية ولبنان، الأسلاك الشائكة حول المعتقل، الأسلاك المزدوجة بينها وبين زوجها في زيارة المعتقل. قالت للإنكليزي الواقف قرب الباب وهي تخرج من المعتقل: لم يبق إلا أن تنصبوا الأسلاك في غرفنا وأسرّتنا! سألها: ايش بيقول أنت؟ ردت: بيقول اتركونا وارحلوا! كانت تنوي أن تطلب ابنها من بيت شفيقة فأرسلت لها شفيقة ورقة: لاتيتمي ابنك، ابقي في بيتك، الطرقات ملغومة! صرنا محبوسين في بيوتنا! إذا خرجنا إلى سوق الخضار رمى علينا اليهود قنبلة، وإذا مشينا في الشارع أصابونا برصاصة، وإذا حدث اغتيال اعتقل الإنكليز كل من يمشي في الشارع! قررت سعاد أن تقاوم ذلك السجن فاقترحت على بنات العكي: فلنخرج إلى حديقة البلدية! فتحن عيونهن: رجال البلاد في المعتقل، فماذا يقال عنا؟! سيقال، وأنت ست العارفين، زوجها في المعتقل وهي في الحدائق! وقد تتسلل يهودية لترمي علينا قنبلة! همست سعاد لنفسها وهي تتقلب: فكري بما في يديك! رجع زوجك سليما! صار نحيلا كالخيط لكنه ليس مسلولا!

يغفو عبد الرحيم عادة بسهولة. عرف عنه الهدوء حتى في المعتقل. ومع ذلك تقلب. السبب أن الديوان ضيق! لا، لا تغش نفسك، ياعبد! لو ركعت وقبلت قدمي سعاد لما كان ذلك كثيرا! منذ ثورة البراق تقيم في المعتقل أكثر مما تقيم خارجه! وياسعاد اركضي من معتقل إلى آخر، وانقلي للثوار "الأمانة"، واطبخي للمعتقلين، وتحملي جلافة العسكر الإنكليز، واحضري الندوات والاجتماعات! صحيح! لكن لماذا تتهمه سعاد بالقسوة؟ يكاد يبتسم ساخرا: نحن الذين نقتل

www.alkottob.com

ونعذب ونشوى على النار، ندعي لأنفسنا القدرة على تعذيب الجواسيس والسماسرة؟! كيف أسقطه الغضب في الادعاء بما ليس من طبعه؟ هو، يستطيع أن ينفذ الحكم بالإعدام؟! ربما لم يكن يكلم سعاد، بل كان كمن يخاطب الإنكليز أو اليهود ويتمنى لهم العذاب! ربما كان محملا من المعتقل بأكثر مما يضبطه صبره وطبعه! من القهر، أطلق جنونا يبيحه الرجال لأنفسهم ويعفّ هو دائما عنه! كان يسخر من الرجل الذي لا يفحص كلامه ولا يضبط غضبه، ثم يعتذر لمن جرحه! وكان كمحام يسخر من صيغة "في فورة غضب". ويجرب ألا يستخدمها في مرافعاته، مع أن زملاءه يعلقون عليها نجاة موكليهم! وهاهو يسقط في ذلك! وأمام من؟ أمام سعاد التي تقيس الحركة والسلوك بميزان الصائغ! في الأسابيع الأخيرة من اعتقاله رمي بين السياسيين فلاحون عذبهم الإنكليز. قدّر المعتقلون أن الإنكليز قصدوا بهم إرهاب السياسيين! حدث عكس ما تمنى الإنكليز. أضربنا عن الطعام! لكن هل ننفي أننا تألمنا وحزنا؟ من يتذكر من اولئك المعذبين؟ البدوي الذي أجلسوه على بابور الكاز؟ أم الفلاح الذي أحرقوا أصابعه بالنار، وكسروا أسنانه، وعلقوه من رجليه في السقف، وأرغموه على المشي على الزجاج المكسور؟ أم الفلاح الذي أرغموه أن يستلقي على الصبار؟

بعد وداع المهنئين بخلاصه من المعتقل وجد في مكتبه قضية من عشرات القضايا التي يخسرها العرب! عرف عبد الرحيم أنه سيخسرها لكنه ما كان يستطيع أن يرفضها! لعائلة جربوع اليافاوية أرض أصبحت داخل بلدية تل أبيب. مساحتها سبعة عشر دونما. طلبت البلدية من أصحابها أن يسددوا عنها الرسوم منذ سنة 1930 إلى نهاية سنة 1939 مع ثمن مواسير المياه. المجموع 1965 جنيها، فمن يدفعها؟ عين اليهود على الأرض! طلبوا سابقا شراءها بثلاثين ألف جنيه فرفض أصحابها بيعها. ستحجز البلدية الأرض وستبيعها بالمزاد وسيشتريها اليهود! فهل يستطيع عبد الرحيم أن يجد من يدخل المزاد وينقذها؟ دمر الإنكليز الأغنياء العرب بالضرائب، ودمروا القرى بالاعتقالات وحرق البيادر وقطع الشجر ونسف البيوت! دمروا البنية الزراعية والبنية التجارية والصناعية العربية!

تقلب عبد الرحيم على الديوان. وتذكر أنه فشل في انتزاع شباب وكهول من الإعدام! سندهم بهدوئه، وحاول أن يبعد طيف الحزن عنهم وعن نفسه. لكن كم مرة قدّر له أن يرى سلب الحياة من بشر يستحقون الحياة أكثر منه؟ كم مرة رأى ذلك الوداع المرّ، والمحكوم يتبين أنه لم ينجز أمورا كثيرة في أسرته وفي بلاده؟ وكم مرة فكر عبد الرحيم بأن ما يريده الإنسان من الحياة لا يكتمل أبدا، وأن

www.alkottob.com

الموت قهر للقادر على الحياة؟ كان عبد الرحيم يردد للمحكومين أنهم يمهدون الطريق إلى حرية البلاد، لكنه كان يصرخ بينه وبين نفسه بعد وداعهم: كان يجب أن يعيشوا!

هل تكاثر كل ذلك عليه في هذا الأسبوع بعد خروجه من المعتقل؟ لماذا لم يبح لسعاد بأن قلبه ثقيل، وأن الألم ثقب صبره فبدا كمن يرويه الانتقام، مع أنه رجل ذو مشروع، لا يدفعه ثأر ولا يثنيه خوف؟

تقلب مرات مغمض العينين. أحس أن أحدا يقف قربه. فتح عينيه فوجد سعاد واقفة قربه حافية. قم ياعبد! يبدو أنك تعودت النوم في المعتقل على الأرض فصار حتى الديوان مريحا لك! هذا ليس لقياسك! تفرج، قدماك خارجه! تنهد عبد الرحيم في راحة ونهض. طوت سعاد مسافة الاعتذار والعتب! آه، آه ياسعاد! يبدو أني يجب أن أقاوم المعتقل هنا أيضا، في البيت! هل كنت أدخل الحمام كلما عدت من المعتقل لأستمتع بالماء والنظافة أم لأني أتمنى أن أغتسل منه!

تحدثا حديثا طويلا في الصباح. كان عبد الرحيم ملتزما بما يطلبه الشيخ القسّام. ثم صار ملتزما بما يراه الحاج أمين وما تقرره الهيئة العربية العليا. وهاهي سعاد تسأله عن تلك الدقة في الالتزام! لاتسير منظمة أو هيئة دونها. لكن هل ننفذ الشر إذا مالت تلك المنظمات وتخللتها الفوضى أو حكمها الظلم؟ هل نقعد في البيت ونستعفي من أمور البلاد إذا تبددت تلك الأحزاب أو شاخت أو ضاق بها الناس؟ أوقفته سعاد أمام السطوة التي تشعر بها المجموعة وتستطيع بها أن ترتكب حتى الإثم وتفرض التصفيق لها. هل نقبل فيها الحكم الخطأ على فرد أو مسألة؟ تحتاج المجموعات والأحزاب تلك السطوة، فدونها لا تستطيع أن تحكم مكانا أو تلزم معارضيها بحدود. لكن ما أخطر تلك السطوة إذا لم تكن مقنّنة ومضبوطة بمعيار دقيق! قالت له: لا تساهم، ياعبد، في الخطأ بهز الرأس! ولا تخش أن يستبعدك القواد الذين يطلبون مريدين ويستبعدون الأنداد! يتحمل المسؤولة رجال كبار، لاأتباع! تنهدت ورأى دموعها: أنور يساوي عشرات الرجال! طبيب تعب عليه أهله وربته بلاده. خسرته الثورة! كأنها نفذت بيانات الصهيونيين اليساريين الذي يحذرون العرب من الأغنياء والوجهاء!! نبه أصحابك، ياعبد!

www.alkottob.com

أخمدت الثورة بوحشية وعنف كي ينصرف الإنكليز إلى الحرب العظمى! لذلك حرروا لذلك المعتقلين! يجب أن ننزل السلاح! كي يتفرغ الإنكليز للحرب الاوروبية! مرة أخرى ياعبد الرحيم ندخل الحرب لأجل الاوروبيين؟ في المرة الاولى ساعدناهم فاقتسموا بلادنا ووهبوا فلسطين لليهود بوعد بلفور! سيكملون بهذه الحرب قصّ رقبتنا! فماذا نقول للشهداء في الجبال، ولأهل الشهداء؟ ماذا نقول للفلاح الذي شدوا أذنه بالحبل وحلقوا شعره وشاربيه ليضحكوا عليه ثم تسلوا بتصويره؟ وماذا تقول أنت الذي نسفوا بيت أهلك "السرايا" في صفد؟ لو سألتني ياعبد الرحيم لقلت لك "فخّار يكسّر بعضه"! ليس الإنكليز أحب إلى قلبي من الألمان!

انتعشت فلسطين بتشييد مطارات ومد طرقات؟ دفعوا لبعض العمال وسخّروا الفلاحين كعمال! لا تصدقي أن الألمان مع العرب! لن يجني الحاج أمين من برلين غير الوعود. سيطلب الألمان منه أن يجند المسلمين في الحرب معهم! موت آخر في بلاد بعيدة عن فلسطين!

ليت الإنكليز كانوا على الأقل مهذبين! يحتاجون هدوءنا لكنهم يفرضونه بالقوة. هل خمدت الثورة خوفا من حرب عظمى؟ بددوا رجالها في السجون وفي المنفى! أعدموا قادتها! فماذا يستطيع آخر الثوار في الجبال؟

سنة 1939 سنة مرّة كالعلقم. أنقاض البيوت، أنقاض البيارات، أنقاض الثورة، أشجار مقلوعة، قتلى وملابس سوداء وقبور. فلنرحل يوما إلى بيسمون! رحلت سعاد مع عبد الرحيم إلى أراضيه في بيسمون. استقبلهما الفلاحون. فسمعا الأهازيج وأكلا من المنسف. هل يوجد بعد من يهزج؟! تمنت سعاد أن يرحلا إلى محمود الفاعور في البطيحة، فقال عبد: قريبا! في الليل سهرا. ما هذا الاحتفال الغريب الذي شاركا فيه؟! جلست سعاد بين النساء واستمعت إلى غناء حزين. هل هذه نعوة ياعبد الرحيم، أم هي فخر أم مديح؟ أخفت سعاد دموعها وهي تسمع ما

www.alkottob.com

غناه رجل ورددده الرجال والنساء:

وسجّل ياقرن العشرين ... ع اللي جرى بفلسطين

جبـــل النـــار يـــافوز الـــدين ... يفـــــديك بالمـــــال والبنـــــين

ريـــح الجنـــة ياعـــالم فـــاح ... بمعركـــــــة وادي التفـــــــاح

استشـــــهد فيهـــــا الفـــــلاح ... حـــــط الســـــنغة بـــــالمرتين

وقعـــــة جـــــرزين وعيبـــــال ... شـــــــيبت روس الأطفـــــــال

انخـــذلت فيهـــا الأنـــذال ... بفضـــل القائـــد فـــوز الـــدين

وبتطويقـــــة بيـــــت إمـــــرين ... كـــــان فيهـــــا الثـــــوار ســـــنين

عينـــــك ياصـــــلاح الـــــدين ... تشـــــوف بطولـــــة المجاهـــــدين

انتشـــر الخبـــر بجبـــل النـــار ... هرعـــوا النـــاس كبـــار وزغـــار

بمعركـــــة مـــــتلا ماصـــــار ... تشـــــبه لوقعـــــة حطـــــين

صـــار الـــدم خصـــم المـــي ... بمعركـــــة جبـــــع يـــــاخي

طـــوت الأمـــة الأرض طـــي ... كـــــرّت علـــــى الملاعـــــين

أمـــــا وقعـــــة وادي دعـــــوك ... تشـــــبه لحـــــرب اليرمـــــوك

هـــذا المـــوت ياظـــالم دوق ... وهـــــذي رجالـــــك فلســـــطين

هل يطرب سعاد، كهؤلاء الناس، مثل هذا المطلوع؟ أهكذا أصبحت الميجانا والعتابا؟ أين عزف سعيد على العود وأغنياته التي شاركته فيها اميلي سرسق! رددت سعاد بعض كلمات المطلوع مع النساء، وفي الصباح استعارت قلم كوبيا وسجلتها. كتبت لبهاء: خذ يابهاء من فلسطين! خرجتم لكن ذكراكم بقيت فيها ولن تزول. فكل ما أصبح أغنية ستتناقله الأجيال. ومن لا يعرف فوزي القاوقجي سيتبعه في المطلوع. فوزي هو أنتم جميعا، الذين جئتم لتنجدوا فلسطين! اسمع

www.alkottob.com

يابهاء:

الـــدبابات فـــي كفـــر صـــور تكســـرت ياورمســـبي غـــور

إن ماألغيـــت وعـــد بلفـــور آخـــرتكم تبقـــى مثـــل الطـــين

بتطويقـــة جبـــل المنطـــار يـــاللي عقلـــه منهـــا طـــار

مافيهـــا طيـــارجي طـــار إلا اســـتجار مـــن فـــوز الـــدين

أعظـــم معركـــة فـــي بلعـــا كانـــت فـــي يـــوم الجمعـــة

استشـــهدوا فيهـــا ســـبعة قـــتلاهم مـــش محصـــورين

والمنـدوب قـال فـي البلاغـات قـــال مـــاوقع إصـــابات

اعتـــرف بجـــرح الضـــباط يغنـــي الجنـــد محجبـــين

نســـف القطـــارات صـــار موضـــة مـــن الموضـــات

وانقـــلاب الـــدبابات شـــلحو العســـكر مـــرتين

فـــوزي البطـــل الشـــجاع أوقـــف مالـــه روحـــه بـــاع

لتخلـــيص هـــذي البقـــاع مـــن أيـــدي المســـتعمرين

مـــن بغـــداد دار الســـلام جانـــا ماشـــي ع الأقـــدام

ويانصـــارى ويإســـلام حيـــوا القائـــد فـــوز الـــدين

بتطويقـــة نهـــر البركـــات جـــادوا العـــرب بالنجـــدات

والنســـا رفعـــوا الرايـــات للشـــبان مزغـــردين

قطعـــوا النهـــر بالأمـــان والخصـــم شـــاهد عيـــان

www.alkottob.com

تـــــرّخ عنـــــدك يازمـــــان ظلـــــم وغـــــدر الغـــــربيين

لم أرك يابهاء في فلسطين، لكني في هذا المطلوع مشيت معك كما مشى كل هؤلاء الذين لم يكونوا قريبين منكم. حضرنا معكم معركة بلعا، ورأينا سقوط الطيارين. وأنجدناكم مع أهل القرى وقت طوقكم الإنكليز. وتفرجنا عليهم وهم يرونكم تعبرون النهر آمنين!

هل عدت، يامنور، إلى عودك وأغانيك التي أحببناها؟ اغتنت فلسطين في سنوات الثورة بأغنيات أخرى! قد تكون حزينة. لكن الناس لا يغنون فقط ليطربوا. بل ليحدوا أحزانهم ويسجلوها. وهانحن نسجل لأهل بلادنا ما سيحفظونه. فقد لا يتعلمون في المدارس ما جرى في هذه السنوات إذا حكم أقدار البلاد الملوك الذين توسطوا لنوقف الثورة. فليسمع الأولاد في المطلوع حداء هذه السنوات! لكل زمن يامنور نشيده!

تساءلت سعاد: هل هي حزينة لأن الثورة انتهت؟ وردت دون تردد: نعم! كل ما نعيشه، ياعبد الرحيم، محطة لأزمنة أخرى. هذا يعزيني بمقدار ما يحزنني. كنت أتمنى لو أنجزنا ما أردنا أن ننجزه. لنبدأ حياتنا من عتبة أخرى! لكن هانحن كأننا في لولب! غمرها شعور بأن الأحزان التي رأتها جبال فلسطين ومدنها في ثلاث سنوات كالقمح الذي يبذره الفلاحون. كزنبق الجبال الذي يختفي كأنه مات ثم يورق. كالدوالي التي تجف كأنها ماتت وتعود إلى الحياة. لكن ياربي متى يأتي البعث من خلود البذور؟

استسلمت سعاد لليل بعد السهرة. مدوا لها فراشا نظيفا في الخيمة، تركته وخرجت إلى الليل. جلست على جلد خروف عند باب الخيمة، مغمورة بنجوم لا تعد. بدت لها السماء مدهشة السعة، وتبينت أن البيوت تحرم ساكنيها من السماء. تنهدت وهي ترتعش من برد الليل. وتذكرت أنها كالأولاد كانت تستلقي على السطح لتعد النجوم. ثم خطر لها أن السماء أدهشت أهل بلدها دائما، كما تدهشها الآن. لذلك قلدوها في قباب الحمّام. وبدا لها التشابه بين سقف ليوان نفيسة في سوقساروجا وبين السماء. ثبتت المرايا في رسوم السقف كي تذكر بنجوم السماء!

كشفت سعاد ذراعيها لتستمتع ببرد الليل. هل سعت إلى هذه الوحدة لأنها تتبين أن الحب العميق الذي يملأها هو حب بلدها؟ رددت وهي تمسح ندى عينيها: نعم، أكثر من الولد ومن الزوج! ألا يرعشها اعترافها؟ هل كشفت الثورة

www.alkottob.com

امرأة أخرى فيها؟ أم طبخت الثورة غضبا هادئا وعميقا في روحها لا يطفئه إلا قرار لا تملك أن تفرضه إلا على نفسها! وعد بأن تنفذ كل ما تراه ضرورة لبلدها. وكما تقدم الضحايا في الأزمنة القديمة تقدم نفسها وأسرتها لفلسطين!

صادف أبو رياح بهاء في دكان الحلاق جالسا على الكرسي الذي كان يجلس عليه خالد آغا. فناوله الرسالة التي حملها من فلسطين. قال لبهاء: نعم، نزلت هذه المرة إلى حيفا وعكا. الطريق شغّال لكنه صعب. عندما قرأ بهاء الأسطر الاولى طوى الرسالة ومشى إلى البيت لينفرد بها. قرأها على السطح كما تقرأ رسائل العشاق. وسرح في أفق يمتد حتى الأموي والبساتين. تذكر أهازيج الفلاحين وزغردة النساء في فلسطين. تذكر سعة الفلاة والخطر. هاهو يفك جديلة الفرح والحزن. الأمجاد التي ذكرها المطلوع؟ الأمجاد للمتفرجين من بعد، أو عندما يصبح ما أنجره الرجال وما عاشوه ذكرى بعيدة. لكن كل ذلك ما يزال حيا، وما يزال الدم يسيل منه. لا يذكر بهاء الآن غير الحب الذي لاقاه به أهل القرى والمسلحون الفلسطينيون. الحب الذي أطعم المتطوعين الخبز، وسقاهم الماء في حر آب، وحماهم من التطويق! رجا بهاء منور مرات أن تتزين بالعقد الذي أهدته له امرأة وقالت له: خذ، من فلسطين! كان يسوح في تلك الأيام وهو يتفرج عليه. ويتبين أن الأشياء تحمل مالا يرى، ما غمست به في الأفراح والأحزان، معبأة بحياة الناس والأمكنة ورعشة الروح!

وجدته منور واقفا والرسالة في يده. ناولها الرسالة دون كلام. وضعت منور كفها على بطنها كأنها تقرأها لليلى. هل تستطيع ليلى وهي جنين بعد، أن تتبين دنيا أخرى يحمونها منها غير هذه التي تعيش فيها؟ هل ستستبقي وهي بعد جنين، طيف رسالة من فلسطين قرأها رجل وامرأة على السطح في بيت في دمشق؟ وتتساءل ذات يوم عما كان فيها كي يعبئ حتى الأفق بذلك الصمت؟

غنت منور في تلك الليلة الأغنية التي رددتها نساء فلسطين عن فلسطيني ليلة إعدامه. ثم قرأتها في مجلة الدهور مع مقالة رئيف خوري. غنتها بصوت منخفض كأنها تغنيها لنفسها. ولم تعرف أن معتصما كان يستمع إليها من فراشه، مستمتعا بصوتها الرخيم.

ياليل خلّي الأسير تايكمّل نواحو
راح يفيق الفجر ويرفرف جناحو
تايمرجح المشنوق في هبة رياحو

www.alkottob.com

ياليل وقّف تافضّي كل حسراتي
يمكن نسيت مين أنا ونسيت آهاتي
ياحيف كيف انقضت بين ايديك ساعاتي
وشمل الحبايب ضاع وتكسّروا قداحو

لاتظن دمعي خوف، دمعي ع أوطاني
وع كمشة زغاليل بالبيت جوعاني
مين راح يطعمها بعدي، وإخواني
تنين قبلي شباب ع المشنقة راحو

بكرا مراتي كيف راح تقضّي نهارا
ويلها عليّ أو ويلها على صغارا
ياريتني خلّيت في ايدها سوارا
يوم الدعاني الحرب تا إشتري سلاحو

ظنّيت إلنا ملوك تمشي وراها رجال
تخسا الملوك، إن كان الملوك هيك أنذال
والله تيجانهم مايصلحوا إلنا نعال
نحن اللي نحمي الوطن ونبوّس جراحو

تأمل بهاء منور حزينا ومسحورا حتى أنهت أغنيتها بتمتمة. فرفع رأسه كأنه جالس تحت الزيتونة في طوباس يتفرج على نجوم السماء. وجد معتصم أمه ساكنة وأباه صامتا. عندما انتبهت منور إليه ورأته واقفا في الباب سألها: ماما، لماذا سكت؟ بدا له أنها كمن يصحو! وظل يتذكرها كما رآها في تلك البرهة حتى يومه الأخير.

www.alkottob.com

لبست نفيسة ملابس سوداء وركبت الحنطور من بوابة الصالحية إلى الميدان، لتعزي امرأة من بيت القضماني بزوجها. لم تتصدر المرأة العصرية. أين هي؟ مريضة! طلبت أن تراها. تفضلي ياخالتي، مازلنا نذكرك منذ أيام الثورة السورية! خير ياروحي؟ لم أعرف أن أمك مريضة! لأنك لم تزورينا منذ سنة، ياخالتي! الشغل يأكل العمر ويبعد الصاحب عن صاحبه، ياروحي! آه ياخالتي، يهون المرض، لكن أمي لم تعد تذكرنا. بدأ مرضها بهيجان. كانت تصرخ وتبكي، وتلوم أبي. لم يفهم بعض الأطباء مابها. وقال آخرون: دماغها! ربما مرض أبي من الهمّ. أخذته جلطة! كيف حال أمك الآن، ياروحي؟ ماذا أقول لك ياخالتي؟ كأنها لم تفهم ماجرى. ماتت عيناها. صارت تخلط بين أسمائنا. سألتني مرة وهي تنظر إلى أختي: من هذه؟

رأت نفيسة في غرفة في الفوقاني امرأة في ملابس النوم. لم تتغير ملامح بنت القضماني! وربما بدا وجهها أكثر نضرة. لكن عينيها ميتتان. نظرت المرأة الصامتة إلى نفيسة كأنها لا تعرفها. أمسكت نفيسة بيدها: كيف حالك؟ أمس، تذكرت كيف مشينا معا من الحارة إلى البساتين ونحن نخبئ تحت ملاءتينا مسدسات الثوار! سقى الله! لم تجبها المرأة، وبدا لنفيسة أنها لا تسمعها. سألتها: كيف صحتك؟ ردت: مليحة! ياربي، أين حدود الوعي وحدود النسيان؟ ذبل قسم من عقلها، لكن القسم الآخر لا يزال حيا. فكيف تستطيع أن تعبر بينهما لتستعيد امرأة ذكية، رائقة، شجاعة؟

رجعت نفيسة من العصرية حزينة. فكّت ملاءتها وهي بعد في الدهليز. رمت فجّتي الملاءة على ظهرها كأنها لا تتحملها حتى تصل إلى غرفتها. اغتسلت على غير عادتها في ذلك الوقت من المساء. وشربت ثلاثة فناجين من القهوة. نامت متأخرة، وحلمت بأنها تنزلق من السطح. كانت لا تزال تسقط عندما صحت. ولم تعد تستطيع النوم!

www.alkottob.com

راقبت نفيسة الوجع الذي نسل خيوطا دقيقة من روحها! هاهي وحدها في الليل، لا زوج قربها، ولا أولاد، ولا أحفاد. هل أخطأت لأنها لم تكن كأية امرأة في حي سوقساروجا، تسترد في كهولتها الحنان الذي سكبته في شبابها على الولد والزوج؟ لن ترد التجارة والسياسة لها الحب، ولن تسكب عليها الحنان في هذه الليلة! فلتعترف بأنها قتلت العواطف التي عاشت بها النساء طوال الزمان! لتعترف بأن هيبتها منعت من أن يسقيها أحد بيده كأس ماء! هاهي أخيرا تفكر في المرض الذي استبعدته، وفي الموت الذي خيل إليها أنه لا يجسر على تجاوز عتبة بيتها!

يحتاج الناس شخصا يحمل مالا يحملونه إلا مسافة قصيرة، كي ينصرفوا إلى تربية الولد واحتضان الحفيد! يحتاجون شخصا يشيرون إليه. يقدرونه لأنه ليس مثلهم لكنهم ليسوا مستعدين كي يكونوا مثله! هل تدفع نفيسة الآن ثمن الحياة العريضة التي اختارتها في هدوء وأسعدها أنها بقيت واقفة فيها؟

تختلط عليك أسباب الأرق، يانفيسة! فهل هي الوحدة أم الشعور بأن حصتنا الباقية من العمر قليلة؟ بأننا تنحينا عن وسط الطريق إلى طرفه، ولم نعد نحن من يملك الزمن؟ تراخت أيدينا وضاع منها الرسن! أنزلنا الزمن من عربته وأركب آخرين. فما بقي من الطريق أمامنا قصير يجب أن نمشيه ببطء مودعين!

رددت نفيسة ما سمعته ذات يوم بعيد "ربي، لا تثقل بنا أرض ولا تكرّه بنا عبد"! لكن هل هذه ليلة القدر التي تفتح فيها أبواب السماء لتستقبل أمنيتك، يانفيسة خانم؟ حاولت أن تتحمل الأرق. لا، كفى! لا تتحمل هذا الظلام! خرجت إلى الداور، مشت قليلا ثم لاحظت أنها تزعج الستيتية التي عششت في خشب السقف، فنزلت إلى القاعة في التحتاني. تذكرت أن المقعد الذي وقفت أمامه هو المقعد الذي كان يجلس عليه خالد آغا. فجلست عليه. نعم، أرقت! لماذا؟ ربما من العجز! لو أستطيع ياخالد آغا، أن أختار برهة الموت! لو أستطيع أن أحفظ عقلي وذاكرتي وقوتي كي أكون لائقة في استقباله! أنت محظوظ، ياخالد آغا، لأنك غبت في عزّك! لا تنظر إلى حزنك في تلك الأيام، ولا إلى أنهم رموك في الهامش! فهاأنت ترد على كل ذلك بموت عظيم نحتفل به!

مشت في القاعة. لمست أصص النباتات على طرف البحرة. ثم تناولت "كوانة" وضعتها على الغرامافون. هل تستعينين بصوت بديعة مصابني على الوحدة؟ أم تستعيدين أيام الشباب؟ نهضت فجأة وأوقفت "الكوانة". لاتريد صوت بديعة مصابني التي غنت في عرس ابنتيّ عبد الرحمن باشا اليوسف في سوق الغرب، وجمعت

www.alkottob.com

الذهب من مدعوي القصر، والناس في بيروت يموتون من الجوع!

فتحت مرجانة عينيها على ضوء غرفة نفيسة. ثم سمعت الغناء من القاعة. رأت من نافذتها باب القاعة مغلقا. معنى هذا أن نفيسة لا تريدها. آه، يانفيسة خانم، لو تضعين خبزتك على جبنة ابن الكحال! لو تفتحين بيتك لابنتيك! لكنك لا تستطيعين أن تعيشي كالناس! نزلت بابنتك الاولى مصيبة بزواجها. لكن لماذا لم تتزوج البنت الثانية رجلا يليق بها؟ ما ذنبك أنت؟ لا تلومي نفسك يانفيسة خانم، على ذنوب غيرك! لم يكن من مقامك غير خالد آغا. حتى ابن الكحال، ولا تؤاخذيني على صراحتي، ليس مثلك. أنت مثل النار وهو مثل لوح الثلج. تصلين إلى آخر الحارة قبل أن يخرج من الباب! حظك سيء يانفيسة خانم، مع أنك حلوة وظريفة وغنية، "مكمّلة" ما شاء الله!

بعد أيام طلبت نفيسة من مرجانة أن تمشي معها. التقتا بابن الكحال في مخزنه في باب البريد ومشوا إلى رجل لا تعرفه مرجانة. رجل حكومة! أشارت لها نفيسة: هنا! فوضعت مرجانة بصمتها على الورق. في المساء قالت لها: يامرجانة تنازلت لك عن دكانين في سوق مدحت باشا، وعن بيت في "مادنة الشحم". مع أنك لم تعديني بعد بما سأطلبه منك! خمنت مرجانة أنها وضعت في الصباح بصمتها على ورقة مهمة. لو طلبت نفيسة منها روحها لقدمتها لها، بعد هذا العمر الذي أمضته معها. لم تعطها نفيسة ثوبا من ملابسها بل "قطعت" لها أقمشة اختارتها مرجانة. اشترت لها أحذيتها من المخزن الذي تشتري منه لنفسها الأحذية. مشت معها في سوق الحميدية بين المخازن وسألتها ماذا تشتهين! قالت لها نفيسة: اسمعي يامرجانة، الكبر والمرض قدر على الناس. عديني بأن تقفلي علي الباب إذا ضيع العمر عقلي! إياك أن تفتحي الباب وقتذاك حتى لابن الكحال! لا تتركيني أظهر أمام الناس إذا مرضت مرضا "يبهدلني"! بكت مرجانة كما يبكي طفل فقد أمه. فربتت نفيسة على يدها: قلت لك مائة مرة تزوجي يامرجانة! لكن الآن ما عاد يمكن أن تتزوجي أي رجل. لا تتزوجي إلا من ينتقيه لك ابن الكحال فهو يعرف الرجل الطيب من الرجل الذي قد يطمع فيك وفيّ! ليت الدنيا يامرجانة حب وعواطف رائقة فقط! في الدنيا شر كثير يصعب على الطيب أن يحمي نفسه منه!

جففت مرجانة دموعها: ياست نفيسة، ما شاء الله، أنت في عز قوتك. تهتز الأرض تحت قدميك إذا مشيت! مازلت تشطفين أرض الدار في الصباح كالصبايا وتتعلم منك ذلك منور خانم! مازالت شهيتك للأكل كما كانت طول عمرها!

www.alkottob.com

ومازالت همتك، ما شاء الله، في العمل كما كانت! هل قلّت الفواتير على طاولتك؟ قاطعتها نفيسة: قلّت، قلّت يامرجانة. خرب الفرنسيون البلاد وسيتركونها على "الحديدة". صرنا ننفق مما ادخرناه، يامرجانة، لا مما نكسبه!

وصل ابن الكحال في المساء دون أن تتوقعه نفيسة. نظرت إليه كأنها تقول: كنا في الصباح معا! كانت ليلة الأرق قد ابتعدت، واطمأنت نفيسة إلى مارتبته مع مرجانة. وضعت مرجانة الصحون على طرف البركة، وأخرجت بطيخة كانت وضعتها في البركة لتبرد، قصّتها في المطبخ وعادت بصحن بيضوي توهج فيه بطيخ أحمر تكاد تظهر حبيباته الندية.

لكن ابن الكحال بدا مشغولا عن البطيخ. وكأنه لم يجد كلاما فقال: لماذا، يانفيسة خانم؟ لم تسمع في كلامه لوما، بل تساؤلا حزينا. نظر كل منهما في عيني الآخر. حدثته حديثا طويلا في صمت. ثم تناولت صحنا وسكبت له لبّ البطيخ. تدللين يانفيسة خانم بلب البطيخ، ولا تطمئنينني بالجواب! ياإبن الكحال، مرجانة أقرب إلي من بنتي! لم تسهر علي حتى اليوم لأني لم أحتج إلى ذلك بعد. واجبي أن أطمئن عليها. أطلب منك ياإبن الكحال، أن تجد لها زوجا طيبا! سوداء، لكنها حلوة. وقل للرجل الذي تختاره لها، الطفل الخلاسي أحلى الأطفال!

قال ابن الكحال كأنه يهمس: على هامان يافرعون؟ ماذا في بالك، يانفيسة خانم؟ نظرت إليه نظرة طويلة. وخيل إليه أنه فهم مالا تريد أن تقوله بالكلمات. فدمعت عيناه. سلامتك يانفيسة خانم، سلامتك! تفكرين في ذلك وأنا موجود؟ كادت نفيسة تقول له موجود إلى متى، ياإبن الكحال؟ تناولت صحنه وأضافت إليه قطعة أخرى من لبّ البطيخ الذي زينت مرجانة به الصحن. نقلت نظرها بين أشجار أرض الدار وبين رسوم البركة. ما أعجب الدنيا، ياإبن الكحال، يرحل الناس ويبقى مايشيدونه. لكن هل سيبقى هذا البيت فرحة للعين كما هو الآن؟

حاول ابن الكحال أن "يكش" الحزن: يانفيسة خانم، عليك بالثوم! الثوم يحمي من الأمراض! أنا آكل كل يوم رأس ثوم كامل. لا أمتنع عنه إلا وقت أزورك! لو زرتني في بيتي لرأيت على جدران أرض الدار ضفائر الثوم! أموّن من الثوم في موسمه "شليف" ينوء به حمار! يبعث لك الهناء، ياإبن الكحال! فهمت الآن لماذا رفضت أن تأتي يوم أرسلت مرجانة أطلبك! سبقته نفيسة في استبعاد الأسى؟ لا يغشني ادعاؤك يانفيسة خانم، فمتى أخطأت في فهم عينيك؟! من الهواجس مالا ننتبه إليه، لكنه يوم يقتحم خلوتنا يصعب طرده منها!

في ذلك اليوم من تموز سنة 1939 طرق بهاء عليها الباب. أخبرها أن

www.alkottob.com

الفرنسيين تنازلوا لتركيا عن لواء اسكندرون. فتذكرت الجلسة التي حضرتها في مجلس النواب واحتفالها تلك الليلة مع ابن الكحال: ياخسارة تلك الأيام، يابهاء! انتهى الحلم بأن توقع فرنسا معاهدة سنة 1936. يانفيسة خانم، يبدو أن أحداث أشهر وسنوات تكتمل في برهة. يتصل مصير بلادنا برياح بعيدة! تغيرت الحكومة في فرنسا، فتغير اتجاه الريح. يستعد الاوروبيون لحرب عالمية. وقع في مصلحتهم طلب تركيا من لجنة الانتدابات ألا تصدق المعاهدة إلا بعد تسوية مطالبها في سنجق اسكندرون. عرضت المعاهدة على الجمعية الوطنية الفرنسية فأحالتها إلى لجنة الشؤون الخارجية. فقررت هذه اللجنة ألا يوقع عليها لأنها تمس بمصالح فرنسا. لذلك سحبت الحكومة الفرنسية دو مارتيل وعينت بيو الذي وصل إلى بيروت في أول هذه السنة. واستعاد الإشراف على اللاذقية، وعلى وزارتي الدفاع والخارجية. فاستقالت حكومة نصوح البخاري في الخامس عشر من أيار واستقال رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي في السابع من تموز. لكن ذلك الخبر جعلهم يجتمعون مع رئيس المجلس النيابي ليتفقوا على استدعاء المجلس إلى دورة استثنائية كأن الاستقالة لم تحدث. فهم المندوب السامي نيتهم فأعلن إغلاق المجلس وتعليق الحياة الدستورية وعين حكومة من مديري الوزارات، حكومة مديرين رئيسها بهيج الخطيب.

كنت أشعر بأن على صدري بلاطة، يابهاء! هذا هو السبب إذن! كأني كنت أشم المصيبة في الهواء! ما العمل الآن؟ يانفيسة خانم، سأزورك غدا! لا أدري إن كانت الكتلة قادرة على تحريك البلد!

رأته منور من النافذة راجعا من بيت نفيسة. فسألته مداعبة: ماذا قررتم في اجتماع هيئة أركان الحرب؟ آه، يامنور، البلد في أزمة! منذ متى لم تكن في أزمة، يابهاء؟ منذ وعيت أسمع هذا الكلمة!

في الثاني من أيلول ستعلن فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا. وسيفرض المندوب السامي حالة الطوارئ والمحاكم العسكرية ويحتكر القمح لجنوده ويترك الشعير للسوريين.

www.alkottob.com

تأملت منور بهاء من خلالها أهدابها وقت عاد متأخرا في الليل. قلق أم متعب؟ هذا المطر من ذلك الغيم، يابهاء! بقيت مغمضة العينين. ستهدئه! تركت له العشاء على الطاولة تحت منخل كبير، دهنته باللون الأبيض يوم كانت منصرفة مع معتصم إلى الرسم. وغرست في ثقوب المنخل زهورا وبعض أوراق الليمون.

كان بهاء جائعا ومتعبا وربما عاتبا. تلمس في الظلمة ثقب الباب ليضع فيه المفتاح. أفي هذا اليوم اختار مصباح الحارة ذو الإطار المعدني الأبيض أن ينطفئ؟ قال لنفسه: لن أتعشى، أريد أن أنام! وكان يتصور أنه سيغمض عينيه منذ يضع رأسه على الوسادة! لكنه وجد المصباح في غرفة الطعام مضاء، وعلى الطاولة منخل زينته منور. ابتسم. هل خمنت أني سأعود مرهقا وحزينا لذلك وضعت لي باقتها؟ تقول لي "روّق"، اترك حملك قرب الباب، واشرب هذا الكأس من التمر هندي! رفع الكأس كأنه يرى منور أمامه: سلمت يداك، يانوّارة! انصرف إلى الكأس، تفرج على لون الكهرمان، تنهد بين رشفة ورشفة. ما أطيبه! حقا، شراب تمر الهند "يروّق" الدم! انتبه في آخر رشفة من الكأس إلى أنه بارد. مازال فيه أثر "البوظ" المدقوق. معنى ذلك أن منور حضرته منذ برهة. هبّ إلى أرض الدار. لكنه رأى أنوار العلوي مطفأة. غفت إذن! جلس إلى الطاولة، ورفع المنخل المزين ووضعه قربه. غمس الخبز التنوري بالزيت واللبنة، وخيل إليه أنه يشم عطر النعنع. رشّت منور النعنع اليابس فوق اللبنة دوائر تركت طرفها مفتوحا. تقصدين يامنور أن الدائرة ليست مغلقة؟ ما أكثر ما يستطيع أن يهبه المحبّ!

كانت البلد "مكهربة". والوطنيون بين اتجاه جميل مردم الذي يدعي أن تعديلات المعاهدة، التي قبلها في باريز، هي ما يمكن أن يأخذه السوريون، وبين معارضته. العالم على حافة حرب عالمية. ولن يترك الحلفاء بلاد العرب التي تحكم منطقة مهمة، دون ميثاق قوي. وما تزال المعاهدة رغم التعديلات خطوة إلى

www.alkottob.com

الاستقلال. مال بعض الوطنيين إلى ما رآه جميل مردم. لكن الآخرين رأوا أن التعديلات تلغي جوهر المعاهدة، وحق سورية في مناطقها المختلسة. بقاء قوة فرنسية كبيرة في سورية في زمن حرب عالمية خطر عليها. وسلوك الانتداب يؤكد أنه مايزال ينوي تفكيك سورية ويتفادى توقيع معاهدة صداقة متزنة معها! أنا، بهاء، ضد تعديلات المعاهدة!

كان ذلك يعني أن مشروع التفاهم مع الانتداب فشل فبقي المشروع الآخر: المقاومة! لكن هل الكتلة الوطنية الآن كما كانت كي تحمل مشروع الصراع مع المحتلين؟ تابع بهاء المظاهرات في المدينة طول النهار. خيار الناس واضح. لكن السياسي يحسب الخطوة التي لا يحسبها رجل الشارع. استقال جميل مردم منذ شهر شباط، وأجمعت الكتلة الوطنية على رفض التعديلات. لكن هل يمكن أن يرى بهاء العلاقة بالانتداب في سورية دون الحرب العالمية؟ اعتقل الفرنسيون من استطاعوا التقاطه من رجال الكتلة. وفي فلسطين وصل ظلم الانتداب ذروته. وساعدته قنابل الصهيونيين في الأسواق والمقاهي العربية! نقل الفرنسيون الوطنيين الذين اعتقلوهم من تدمر إلى السجن العسكري في بيروت. فما العمل الآن؟

يرى بعضنا أن الوقت مناسب للثورة هنا، لتحرك ثورة فلسطين. لكن بهاء يعرف من الأخبار أن قيادة الثوار صفّيت تقريبا في فلسطين، وأن القرى أنهكت، والاقتصاد انهار. دمر الإرهاب البنية الاقتصادية في المدينة، والبنية الاقتصادية في الريف. ودمر البنية التنظيمية بالسجون والاغتيالات والأحكام بالإعدام.

وهنا ماتزال البلاد هائجة من مؤامرة فرنسا على اسكندرون! سمحت فرنسا في سنة 1938 بدخول بعثة تركية إلى اسكندرون وأحصت السكان بإشراف تركي فرنسي. بعد توقيع المعاهدة الفرنسية التركية في حزيران سنة 1938 دخلت القوات التركية اسكندرون وأعلنت أن نتائج التسجيل هي 63% وضمت الإدارة التركية السنجق.

فهل يتحمل السوريون قهرا جديدا؟ انتهت محادثات مردم مع وزير الخارجية الفرنسية في أواخر سنة 1938 إلى اتفاقية مكملة تضمنت التمسك بحقوق الأقليات وامتيازات بنك سورية. فأثار اتفاق مردم هياجا في الشارع وفي المجلس. قرر المجلس النيابي التمسك بمعاهدة 1936 وانتقد تردد فرنسا في تصديقها، وطلب تسليم صلاحيات الانتداب إلى الحكومة السورية بسرعة.

من لا يشعر بأن المندوب السامي، بيو، وصل في مطلع 1939 ليؤكد

www.alkottob.com

الانتداب! قابلته المظاهرات. استقال مردم لأن فرنسا لا تحترم المؤسسات الوطنية وتصدر التشريعات دونها. ولأن الشارع لم يقبل تعديلات المعاهدة!

رتب الإنكليز البلاد للحرب العالمية في الشكل نفسه! دعوا إلى مؤتمر في قصر سان جيمس في شباط سنة 1939 حضره ممثلو البلاد العربية المجاورة لفلسطين وممثلون فلسطينيون وممثلو الوكالة اليهودية. اقترحت بريطانيا حكومة مستقلة مع احترام حقوق الأقلية اليهودية. ثم سحبت اقتراحها، وانفض المؤتمر في آذار دون قرار. يقبض الانتداب على البلاد إذن بقوة ليستبقيها في جبهته في الحرب العالمية!

بعد استقالة حكومة مردم رشحت الكتلة الوطنية لطفي الحفار مؤكدة الالتزام بمعاهدة 1936 دون تعديل. سافر وفد برئاسة البارودي إلى المهجر ليجمع التبرعات لفلسطين. وخطب نبيه العظمة في ذكرى استقلال سورية في الثامن من آذار، خطابا قويا أمام مكتب الشباب الوطني في شارع خالد بن الوليد. وكان من الحاضرين وزراء من وزارة لطفي الحفار. اعتقل نبيه العظمة في آخر آذار مع رجال من الكتلة وأرسلوا إلى تدمر.

هاجت البلاد من التدخل الفرنسي في عمل السلطات السورية فاستقالت حكومة الحفار، وقررت الكتلة الوطنية ألا تشترك في أية وزارة لا تتعهد بتوقيع معاهدة 1936. حدثت أزمة وزارية وكلف نصوح البخاري بوزارة حيادية تتعهد بالتوقيع على المعاهدة. لكن نصوح البخاري اضطر إلى الاستقالة في أيار سنة 1939. أصبح هاشم الأتاسي محرجا. فقدت اسكندرون وضاعت هيبة الكتلة الوطنية. فاستقال في تموز وشكل المندوب السامي مجلس مديرين رئيسه بهيج الخطيب.

نقل المعتقلون في نيسان من تدمر إلى سجن بيروت العسكري. لهم من يعنى بهم هناك! رياض الصلح! اتهمتهم المحكمة بالتحريض على الثورة والاضطرابات، وبتهريب الأسلحة لثوار فلسطين. حكم على نبيه العظمة بالسجن عشرين عاما مع الأشغال، ونقل إلى السجن المدني في بيروت. واتهم بأنه يتلقى مالا من ألمانيا النازية. ثم حكم بعشرين عاما جديدة ونقل إلى سجن المزة العسكري. وسينقل إلى سجن حلب. وسيكاتبه إلى حلب عزة دروزة السجين في دمشق. وسيكتب له عوني عبد الهادي من القاهرة. ثم سيبشره عادل العظمة من بغداد، ببرقية من فيشي إلى المندوب السامي للإفراج عنه. ففي سورية ولبنان التحق عسكريو الانتداب في حزيران سنة 1940 بحكومة فيشي. لكن المحكومين

www.alkottob.com

الوطنيين سيشعرون بالخطر عندما ستستعيد القوات الفرنسية الديغولية والإنكليزية سورية ولبنان. وسيرحل بعضهم إلى حلب ثم إلى تركيا.

لكن بهاء لا يملك العدسة السحرية التي تكشف له تتمة الأحداث. وهل كان يعزيه أن يعرف بقيتها؟ كان قلقا في تلك الليلة من أواخر سنة 1939. ولم ينسه هيجان البلاد غير المنخل الذي غطت به منور العشاء، وغرست فيه زهورها.

www.alkottob.com

دقت نرجس باب نفيسة، فأطلت مرجانة من خصّ النافذة: نازلة نرجس خانم، نازلة! ومع ذلك لم تترك يد نرجس سقاطة الباب. خرجت نفيسة إلى الداور، فرأت نرجس تعبر أرض الدار وهي تدق صدرها بيدها. خير يانرجس خانم، خير؟ رفعت نرجس رأسها إلى نفيسة: انزلي بسرعة، تقبريني، انزلي بسرعة!

همست نفيسة لمرجانة: هاتي كأس ماء عطّريه بماء الزهر، وحضري شراب الليمون! فهل كانت تظن أن نرجس فقط هي التي تحتاج ماء الزهر؟!

يانفيسة خانم، جنّت رابية خانم! كومت أثاث غرفة خالد آغا في أرض الدار قرب الباب. رأيت سجادته التبريزية وسريره ووسائده وطاولته والكرسي المحفور الذي كان يجلس عليه، رأيت فراشه.. ورأيت على الأرض كتبا فارسية وتركية. سألتها: يارابية خانم، تعزّلين البيت؟ قالت: لا، أنظفه من خالد آغا! أرسلت خبرا لليهودي ليشتري كل ما يحمل أثره! أمسكت قلبي وسألتها: تبيعين هذا فقط؟ قالت: سأبيع اليهودي فرش الصالية أيضا! فهمت أنها ترحّل كل ما لمسه خالد آغا، وكل ما أحبه. تعرفين، يانفيسة خانم، كم كان يحب الطقم الموزاييك والطقم المصدّف! قلت لها: لا تؤاخذيني، لن أعطّلك عن شغلك. وركضت إليك! آه، يانفيسة خانم، لو رأيت مارأيت!

خشيت نفيسة أن تكون نرجس سمعت دقات قلبها. اشربي يانرجس خانم ماء الزهر، اشربي! وأنا سأشرب أيضا! هل تطلب نفيسة بهاء الذي رفضته رابية خانم وحرمته من رزق أبيه؟ أم تطلب رجلا غريبا لايقدّر مايباع؟! يامرجانة اركضي لعند إبن الكحال وهاته معك. قولي له ضروري، ضروري!

هدأت نرجس. شربت كأس الليمون كله، وشمت ماء الزهر وهي تتذوق كأس الماء. من أين اشتريت ماء الزهر، يانفيسة خانم؟ نقي! قطّروه لي هدية، يانرجس خانم! سأعطيك قنينة منه! تنهدت نرجس. آه، كان خالد آغا قاسيا عليها. لامها

www.alkottob.com

لأنها خرجت إلى استقبال جمال باشا. كأنه لا يعرف أن أهل الشام يحبون الفرجة على الوزير والأمير والوالي ولو كرهوه! وكأنه لا يعرف أن الفرجة ليست استقبالا أو ترحيبا، بل فرجة! "لكن كل شيء وحده"! من يقبل أن تهان ذكرى خالد آغا؟! نظرت نفيسة إلى نرجس. في الدنيا لابد من مثلها! تهوى السيران واستقبالات الولاة والوزراء، لكنها لا ترد خدمة تطلب منها! هل تنسى نفيسة أن نرجس رافقتها في البحث بين القتلى المعروضين في ساحة المرجة عن أعزائها الذين توقعت أن يكونوا بينهم؟ استراحت نرجس عندما رمت المشكلة على نفيسة. وهل تستطيع غير ذلك؟ يكفي أنها نقلت الخبر إلى من يجب أن يعرفه!

في الليل ستستعيد نفيسة وهي مغمضة العينين في الظلام، لهفة نرجس، وستفكر في ما سهت عنه. فتتساءل هل أصبح حبها خالد آغا مكشوفا إلى هذا الحد، رغم حرصها على ستره كيلا يلمسه من لا يفهم هيبته! وستهدئ نفسها: تعرف نرجس أني أقدّر خالد آغا. لولاها لما وصل إلي سيفه!

صبّت لنرجس كأسا من شراب الليمون: اشربي يانرجس خانم، رطّبي حلقك! كيف تفسر لها ولنفسها جنون رابية خانم؟ هل تقول لها إن بعض الأشخاص، كخالد آغا، يمثلون هيبة الأخلاق وسطوة العرف لذلك يجري كل شيء في سياقه طالما كانوا أحياء! ويؤثرون في العقلاء كمثل يتعلمون منه فيعبّدون مسارات مشابهة مهما تميزت عن الأصل! لكن الغوغاء، والأميين والضعفاء يضيعون مجراهم إذا غاب اولئك الرجال. لأنهم يعيشون فقط في المدارات حول القوي والرصين. فيتوهون وينهارون إذا سقط أو مات أو هزم اولئك الرجال العظام. لا توجد للمبادئ جذور في قلوب الضعفاء والغوغاء، ولا تبنى بها الروح والطباع، ولا ترى بها العيون ماتراه! فيعيشون بوهج النجوم التي يدورون حولها. سقطت الخيمة التي كانت تظلل رابية خانم! نفد أثره فما عاد يضبطها الخجل من الناس!

سألت نفيسة نفسها في الليل هل هي محقة في ما قالته لنرجس؟ ألا تقتصّ رابية خانم من خالد آغا على الأيام التي أهملها فيها أو أهانها فيها؟ وجدت نفيسة نفسها تغوص في العلاقة الطويلة بين خالد آغا ورابية خانم. وتستقدم خالد آغا من الأيام التي استهوته فيها امرأة جميلة مفتونة بالرقص والغناء، حتى اكتشافه أن ذلك الهوى أفقر روحه ولم يملأها. وأنه لم يستطع وهو يستمتع بتلك المغاني الشاسعة من الأهواء، أن يستبقي قامته كبيرة فيها. خطر لها أنه قبل زمن طويل من انتحار شهاب، تبين أن أهواءه التي تلبّيها رابية في افتتان يلهب المزيد منها، ضيّقت الدنيا عليه. وأنها بتلك الأهواء صغرت أشواقه إلى امرأة أخرى ستر حتى

www.alkottob.com

عن نفسه أنه تمناها! تنتقم رابية خانم الآن منه على ما رفضه، وعلى ما أطفأه، وعلى ما أهانه! لكن لماذا انفك السحر عن مهابة خالد آغا التي استمرت طوال هذه السنوات؟! لابد أن الزمن نفسه يشجع رابية خانم! طويت آثار الثورة السورية، وعاد المنفيون، وقعت المعاهدة بين سورية وبين فرنسا. فبدا كأن أزمنة الحرية وصلت. ثم خاب الأمل، سقطت المعاهدة وابتعد الاستقلال، وبدا أننا نسمع هدير حرب كبرى! لعل هذا مزق آخر بقايا خيمة خالد آغا في بيته، وبعثرها. وتستطيع رابية خانم أن تلحق رغبتها بأن تنعم بما بقي من شبابها في بيت لا أثر لطيف خالد آغا فيه! كادت نفيسة تسأل نرجس: هل تنوي رابية خانم الزواج؟ لكنها قالت: لم تسمع رابية خانم بمصيبة فلسطين؟

لم توضّح نفيسة علاقة سؤالها ببيع أشياء خالد آغا، وانصرفت إلى نفسها. تؤمن نفيسة ببصيرتها ولذلك تتخذ قرارها بنفسها. لكنها في هذا الأمر شعرت بالحاجة إلى استشارة ابن الكحال. وانتظرته. منذ أربعة أيام لم تطل علينا! لم يقل لها: رمتني حصوة في الكلى، وسقوني أباريق من حشيشة القطة ومن مغلي أذناب الكرز! نصحها: لا تذهبي إليها الآن! سأذهب أنا إليها، وسأدفع لها الثمن الذي تطلبه! هل يحرمها من زيارة البيت الذي تفادته منذ مقتل خالد آغا! خيل لنفيسة أنها لمحت الدموع في عينيه. لماذا ياإبن الكحال؟ تتذكر خالد آغا الذي سهرت معه أيام كانت المدينة تفور وتشتعل؟ تتذكر أنك حملت ثياب خالد آغا المدمّاة ونقلتها إلي؟ مسح ابن الكحال دموعه عندما استدار عن نفيسة. في الحياة المكتظة بالمصائر الكبيرة تتعالى العواطف على الغيرة والندم. كان ابن الكحال ينصرف في الأمسيات التي كانت تجمعه بخالد آغا ونفيسة إلى تأمل الرقعة الصغيرة التي قد تكون آخر ما يتاح لأي منهم أن يعيشه. كان يتأمل نفسه، ويتأملهما، ويستمتع بهيبة خالد آغا وبجمال نفيسة وغرابة حبهما الذي يتنقل بأطيافه فيطفو ويتخفى كظلال شجرة تهزها الريح. وكان يتلقى كظامئ مشتاق، النسمة المنعشة وصوت النافورة. أتاحت له تلك الأمسيات أن يتذوق الحياة كمن يتذوق آخر يوم من عمره. وفهم أنه محظوظ برفقة رجل كشجرة كينا شاهقة حزينة. ولم يستطع أن يكون أقل منه شهامة. فحرس الحب المستحيل الصامت بين خالد آغا ونفيسة، وسكب عليه حنانه. لذلك أرعشه مانقلته له نفيسة. قال لها: سأدفع لها الثمن ذهبا!

قدم لرابية خانم صرة من الليرات الإنكليزية كما كان يقدم الصرر أمراء الزمان في الحكايا! برقت عيناها. من يخطئ في حبها الذهب؟! شدت الخيط على

www.alkottob.com

الصرة دون أن تعد مافيها. في زمن يتداول فيه الناس الورق، يشتري ابن الكحال هذه الأشياء البسيطة القديمة بالذهب؟! لم تخف عنه دهشتها. أشارت له: خذها! ولمح وهو ينصرف سخريتها وربما كرهها.

مسح عينيه قبل أن يدخل إلى بيت نفيسة. ملأته المهانة وهو يرى أثاث خالد آغا مكوّما قرب الباب كالمطرود. لم يستطع أن يدفع تلك المهانة عن خالد آغا إلا بالذهب. فهل زادت به رابية خانم من قدرها! تريث قبل أن يطرق باب نفيسة كمن ينفض عنه القهر. ما أكثر ما تستطيع امرأة تافهة أن تفعله! مهما اختلف العقلاء، يانفيسة خانم، تمنعهم الشهامة من الوضاعة. أما حيث لا توجد الشهامة فينساق الرعاع كيفما كان! تنهدت نفيسة: هذا ماأقوله في قلبي ياإبن الكحال!

عندما تألق وجهها فهم امتنانها له فأحنى رأسه مرتبكا. هذا نوع من الحب فهل يعمى عنه؟ لم تختر نفيسة أحدا غيره لهذه المهمة، ولم تأتمن أحدا غيره. أليست هذه الثقة نوعا من الحب؟ لولا بقايا الألم في الكلام لزغرد قلبه ولخطر له أن يحلم مرة أخرى بأن يعود إلى البيت الذي عاش فيه مع نفيسة! لكن هاهو يطمئن، على كل حال، إلى أن نفيسة التي تحفظ أثر خالد آغا وذكراه، لن ترمي أثر رجل عاشت معه. هذه امرأة لا تبيع ذكرى الأعزاء! وليعترف لنفسه بأنه من الرجال الذين يتمنون ألا ينتهوا بموتهم، بل يسعدهم أن يستبقي أحباؤهم منهم منديلا أو خاتما أو كرسيا يذكرهم به! قال لها: هكذا الدنيا، عمر الأشياء أطول من عمر الناس! وفهمته. قالت: لا، عمر بعض الناس طويل ياإبن الكحال! طويل بما يتركونه! وفهم أنها لا تقصد كرسي خالد آغا وسجادته وسريره وكتبه. بل تقصد مدى لا يحاط به، مدى يتسع كلما مر الزمن. وهل كانت تستطيع نفيسة أن تستعيد خالد آغا في علاقته برابية خانم لولا هذا اليوم القاسي؟

مع ذلك بقي الصعب الذي لم يتحدثا عنه! سينقل لها أشياء خالد آغا، ليوفر عليها اللقاء برابية خانم فيحرمها من زيارة البيت الذي لم تزره منذ مقتل خالد آغا؟ انتظرت رأيه في صمت دون أن تطلبه. ولكن هل يجب أن ينتظر كلماتها؟ قال لها وهو مشفق عليها: فلنذهب! يعرف أن رابية خانم لا تحتاج إلى ذكاء خاص كي تستنتج أنه وسيط نفيسة! ففي علاقات القرابة التي ضاقت بها رابية خانم منذ البداية، لا توجد أسرار!

مشت نفيسة وابن الكحال صامتين. لو يسمع ابن الكحال الضجة التي تصخب في صدرها! منذ مقتل خالد آغا لم تستدر نفيسة إلى هذه الحارة التي

www.alkottob.com

تغلق بباب من الحديد، ولم تر شجرة الكينا التي غرسها خالد آغا! توقفت ورفعت رأسها إليها. غطت ضجة العصافير على شجرة الكينا صخب قلبها فشكرتها. لعل البرهة التي رمتها للشجرة والعصافير ضرورية لنفيسة كي تهدئ نفسها وتستعيد رصانتها فتستر روحها! ما هذا؟ آه! ليس ما أراد أن يوفره عليها ابن الكحال اللقاء برابية خانم إذن، بل هذا الطرد الوحشي الذي يرمي كل ما لمسه خالد آغا! رن قبقاب رابية خانم وهي تمشي إليهما. ياللمشية! تغنج! استعادت رابية خانم إذن مشيتها بعد أن هشمت أطياف الرجل الذي ضبط خطواتها! قالت: هلّ القمر، يانفيسة خانم! تجاهلت نفيسة السخرية المرّة وأحنت رأسها كمن يرد التحية. لا تستطيع أن تنطق حتى بالتحية لهذه المرأة، ولم تعد تستطيع أن تشفق عليها. وتبينت أنها لم ترها أبدا منافسة لها، وأنها نسيت حتى اليوم أن هذه المرأة عاشت مع خالد آغا وسحرته سنوات طويلة! كأن ذلك لم يحدث أبدا ولا يمكن أن يقع فيه رجل مثل خالد آغا. أشارت رابية خانم كما يشير بائع إلى أنقاض رماها: لا تستحق الثمن الذي دفعتها فيه. كان اليهودي سيأخذها بقروش. اشتريت يانفيسة خانم مالا يستحق ثمنه! تتطاول عليها؟! هبّ ابن الكحال إلى نجدتها: قيمة هذه الأشياء، يارابية خانم، بصاحبها. لو لم يكن خالد آغا صديقنا وقريبنا لكان على الأقل رجلا قتل في ميسلون! يانفيسة خانم، تفضلي، سأشرف أنا على نقل هذه الأشياء الثمينة! فهمت نفيسة أنه قال لها: تفرجي بسرعة على البيت الذي لم تريه منذ ست عشرة سنة!

سادت هيبة نفيسة برهة طويلة، بصمتها وقامتها. نظرت إلى شجرة الرمان في طرف أرض الدار. هل ستطرد هذه الشجرة التي أحبها؟ رفعت رأسها نحو المشرقة وخيل إليها أن خالد آغا يطل عليها كما أطل يوم نزل ومشى معها ليكون الشاهد على إعدام شهداء أيار. آه، لو تستطيع أن تعيش في هذا البيت! لا، لا تستطيع ذلك لأنها ستخرج عندئذ من حياتها وتغيب في ظلاله! على ذلك الحدّ الدقيق فقط فهمت رابية خانم. لاتستطيع هذه المرأة أن تعيش مع طيف رجل يمنعها من الحياة التي أحبتها! فهمت نفيسة حتى انتقام رابية منه. رأت المزهريات جاهزة للبيع، ورأت البيرو المصدّف والمرآة الكبيرة الفخمة. تنظف البيت كله إذن منه! ستفرشه فرشا جديدا تمده للنسيان الذي يستطيع أن يمر عليه رجل آخر! هل لمحت رابية خانم شفقة نفيسة ولذلك صمتت؟ استدارت نفيسة وهزت رأسها كمن يودع رابية خانم. عبرت الحمّالين الذين شدوا إلى ظهورهم الأشياء أو احتضنوها. هؤلاء فهموا قيمة ما ينقلونه!

www.alkottob.com

بعد انصراف ابن الكحال والحمّالين، مشت رابية خانم في أرض الدار كالسجينة. دارت حول البحرة. هنا استمع خالد آغا إلى غنائها مفتونا بها! تحت شجرة الرمان جلس معها وكان الفجر يشقشق، وتفرج على وجهها وهو يخرج من العتمة إلى النور. ماذا كان يعني له يومذاك الفجر والمساء غير تأمل الضوء وهو يتموج متداخلا في شعرها وبشرتها؟! كيف ذاب كل ذلك الهوى فأصبح العاشق المسحور لا يراها؟ ما عاد لجمالها معنى دون العيون التي تتملاه، وما عاد شعرها فاتنا دون الأصابع التي تتداخل في خصلاته وتشعر بأنه كالحرير وتسعد بطوله! كان ظهرها المنساب يذهله فأين تبدد ذلك السحر؟ كأن خالد آغا أفهمها في تلك الأيام الطويلة أن قيمة الجمال في علاقته بمن يراه! وأنه لاشيء مهم بذاته! فليسألوها وستصف في ألم كيف يزهو الجمال وينتعش عندما يجد من يحبه ومن ينتبه إليه! وكيف أذلّه خالد آغا بإهماله! بعد انصراف ابن الكحال وفراغ المكان الذي كانت فيه أشياء خالد آغا اجتاحها جنون. فتناولت المزهريات الثمينة ورمتها على شجرة الرمان. ورمتها على المشرقة. ورمتها على الباب الذي خرجت منه أشياء خالد آغا. رمت صحون القيشاني الثمينة على البحرة. رمتها على الأرض. كأنها تبدد آثار الحب والكره! فليحترق كل شيء شهد حب خالد آغا وإهماله! ستنتقم منه بالحياة التي ستعيشها مع رجل آخر ستغني له أجمل مما غنت لخالد آغا، وستفتنه بعزفها على العود! لكنها لن تهب قلبها لأحد! ستقطف الحب كما يقطف الورد! هل تلتقي بسعاد في تلك النقطة؟ ربما! لكن كلا منهما تسير عكس الأخرى. واحدة إلى الحب كورد يقطف، وواحدة تستدير عن مرض الحب!

لم تستطع نفيسة أن تترك أشياء خالد آغا مبعثرة حتى الصباح! وفهمها ابن الكحال. لو عرفت كيف كانت هذه الأشياء في غرفته لرتبتها كما كانت هناك! أشارت إلى أجمل غرف الفوقاني وقالت لمرجانة: هناك! فصعد ابن الكحال مع الحمالين ولحقتهم نفيسة. هاهو في الحرم الذي لم يزره منذ سنوات طويلة، طويلة! هنا تنام نفيسة وتأرق وتكتب فواتيرها وتسهر مع البدر! هل ينسى ذلك؟! توقف قرب الغرفة التي كانت غرفتهما فعبرته نفيسة مسرعة. هل نحتاج مزيدا من وجع القلب ياإبن الكحال؟! يكفينا ما صرفنا فيه هذا اليوم! استشارته أين تضع سرير خالد آغا، وأين تضع كرسيه. أعرف أن كرسيه كان قرب النافذة! أعرف هذا فقط! حق ابن الكحال أيضا أن يرى كيف ستستقر غرفة خالد آغا!

هل شعرت نفيسة طوال هذه السنوات بأنها قريبة من ابن الكحال كما شعرت في ذلك المساء؟ كم يبدو الزواج والطلاق بينهما صغيرا أمام هذه العواطف التي

www.alkottob.com

جمعتهما اليوم! قال لها: كم سنة عشنا معا، يانفيسة؟ لم يخطر لها أنه يعني سنوات الزواج فقط فقالت: خمسا وثلاثين سنة! أشرق وجهه. هذا هو الجواب الذي تمناه!

www.alkottob.com

يوم غنت منور أغنيتها الحزينة عرفت أنها كانت كمن ينعي ثورة فلسطين. لكنها أشرقت في الصباح مثل يوم مشمس في الشتاء. كأنها أعلنت قرارها. ستحمي نفسها من الحزن حتى تلد ابنتها! أكانت تخمّن أنها ستعوض بالحداد على ثورة العراق عن كل ما فوّتته من الأحزان؟

راقبها بهاء دهشا! كأنها رسمت دائرة سيّجت بها نفسها! رفعت كفها أمامه كقائد صارم: لا تنقل لي أي خبر من الأخبار! ستقول له بعد ولادتها ليلى: هل كنت تريدني أن أحتفي بمن رمى أمله في ألمانيا، أم أن أحتفل بمن رمى أمله في الفرنسيين والإنكليز؟ كنتم وسط الصراع بين دول عظمى، لا رأي لكم فيه! كاد بهاء يغضب. فهل يوجز البحث عن النجاة من نتائج الحرب، بهذه الكلمات الظالمة؟ حاول الوطنيون أن يتفادوا المصائب التي نزل بهم مثلها بعد الحرب العالمية الاولى! لكن بهاء لن يجيبها. سيكون منصرفا إلى أفراحه بابنته!

راقب بهاء منور يومذاك وأدهشه حزمها. لم تخرق قرارها ولو من الفضول. نقلت الراديو إلى غرفة بعيدة عنها. فليستمع بهاء هناك إلى أخبار الحرب! لا تريد في هذه السنة أن يصلها حتى صداها! رآها بهاء تجفف نفسها في أناة بعد الحمام. وتأكل في أناة كأنها تستمتع بالطعام. بدت له هادئة، وأنيقة، حريصة على سعادة سرية لا تبوح بها. تناولت كفه ذات ليلة ووضعتها على بطنها. سألته: ألا تحس بليلى؟ ابتسم: تتقلب في الليل أرقة؟ ردت: بل ساهرة!

وجد بهاء نفسه مشغولا بالبحث عن خبز جيد لمنور ومعتصم، وعن صابون. أمنت له نفيسة الرز والسكر: سكر أسمر! هذا هو الموجود! تتحارب الدول، ونعاني نحن من حربها كما عانينا من سلامها! سألته: إذا أردت، أؤمن لك خبزا مرة في الأسبوع! من فلاحين أعرفهم، طحنوا قمحهم ويخبزون عجينهم في تنورهم! فرح: ياليت! أصبحنا يانفيسة خانم، نبحث عن السمن والزيت والطحين! قالت: الله يعين الفقير!

www.alkottob.com

خيل لبهاء أنه غير ماهر في حديث يبتعد عن هموم البلاد. كيف يصبح شخصين، واحدا ينشغل بأحداث البلد في أيام الحرب، وواحدا مشغولا بمنور؟ داهمته وحدة عرف فيها ما كان بينه وبين منور من إلفة وتفاهم على أمور الدنيا. كان ذلك يعمق حبهما. فلماذا تعاقبه بالبعد عنها؟ فحصته وهو صامت أمامها: يابهاء، اسهر عند نفيسة! لا تظلم نفسك! أنام بعد معتصم بقليل. فاذهب إليها أو إلى المقهى!

فهم أنها انصرفت عنه إلى نفسها. ورآها من نافذة غرفة النوم في الصباح تستنشق الهواء في عمق، واقفة في الداور، تحرك ذراعيها كمن يسبح. اشتقت إلى السباحة، يانوّارة؟ تتذكرين بحيرة طبرية؟ بدت له غارقة في نفسها، مستسلمة للسماء والهواء والدنيا، وسعيدة بذلك. أتستطيع أن تستبقي الكون وتحذف منه البشر؟ شعر بالغيرة. رآها تغمض عينيها كأنها تستمتع بما لايراه سواها!

لم يستطع بهاء أن يخترق المملكة التي كانت تشيّدها حول نفسها. اقتسم مع نفيسة العناية بمعتصم. في بعض الليالي نام معتصم في بيتها. لكن منور بقيت تسأل ابنها: ماذا أكلت، ومتى نمت!

بدا لبهاء أنها تستبقي من العواطف بعضها فقط. وجدها تستمع إلى "كوانات" أم كلثوم. سمع صوت الغرامافون منذ فتح الباب. فوقف منصتا إلى الأغنية. كدنا ننسى الغناء والطرب، يامنور، فما أحلى أن تعيديه إلى البيت! ابتسمت له. وتبين أن وجهها نضر من الصحة. انحنى وقبل بطنها: جعلتك ليلى أجمل مما كنت! أطربها أن يذكر ليلى. فانسابت تحدثه عنها. أظن أنها ستكون ذكية، وجميلة. أتصور أن بشرتها فاتحة، وأن عينيها خضراوان! أتستطيع أن تحمل لإنسان لم يولد بعد هذا الحب كله، وتنسى من حولها؟ كيف؟ كاد يقول لها إنها تهمل معتصما! لكنه غيّر صيغة الكلام: صار معتصم يشتاق إليك! ربما يغار أيضا! أدهشه جوابها. سأعود إليه، يابهاء، بعد أن تكتمل ليلى! تشعر إذن بأنها تصوغ إنسانا، ولذلك تتنفس له، وتشرب الحليب له، وتنام في عمق كي يستريح، وتسمع أغاني أم كلثوم كي تطربه؟ خيل إليه أنه يكتشف مساحات لا يعرفها في منور. بماذا ستفاجئينني بعد هذا العمر معك!

فحصت نفيسة بنظرتها بهاء. حاولت أن تفهم سبب غيابه عن منور. سألته: لماذا لا تزورني منور؟ لا يستطيع أن يخبرها! لابد لذلك من إذنها! وماذا يقول لنفيسة؟ منور غارقة في نفسها! لا تزورك لأنها لا تريد أن تسمع الحديث عن الحرب والبلاد! خيل إليه أنه يهمس: منور مشغولة بليلى! فابتسم. من ليلى هذه،

www.alkottob.com

التي تحجب منور عن عمتها وزوجها وابنها وعن أحداث بلدها؟ طمأنت نفيسة ابتسامة بهاء. لن تسأله ماذا بينهما! وهل باحت هي لأحد عما كان بينها وبين زوجها؟ هل باحت بكلمة عن حبها خالد آغا، وعن حزنها عليه؟ فليستمتع بهاء بأسراره! ليعرف فقط أنها أمامه: يابهاء، قل لمنور، إذا كنت تحتاجين مساعدة، عمتك موجودة!

في الصباح اقترح على منور: يجب أن تمشي كل يوم! سألته: عندك وقت لتمشي معي في الليل، قبل النوم؟ حاضر، جاهز، منذ الآن! وهمس لنفسه: يبدو أن صياغة ليلى اكتملت! وبدا له أنه بدأ يستعيد منور. صارا يمشيان من البيت حتى الجسر، عابرين طريق الصالحية. وعندما غيرا الطريق إلى شارع بغداد، اختارا للنزهة أول الليل.

زارت منور عمتها. تجاهلت نفيسة انقطاعها عنها لكنها فهمته. سألتها: تشتهين شيئا لا تستطيعين أن تأتي به؟ تستطيع مرجانة أن تحمل لك طناجر الطعام كل يوم! بيننا رمية حجر! تسلمي ياعمتي! حملت عني ابني وبهاء. ماذا أطلب أكثر من ذلك؟ بهاء ابن خالد آغا، له في هذا البيت مكان أبيه، يامنور! ومعتصم ابنه وابنك! يحمل بهاء إلي أخبار فلسطين والعراق وسورية! رفعت منور يدها: بعد ولادة ليلى ستروين ذلك لي! لا تحتاج ليلى الآن أن تسمع مايزعجها! رفعت نفيسة حاجبيها متأملة منور. هكذا، إذن، تجري الأمور في بيتهما! ولذلك يسهر بهاء عندها. هذا ليس سرا وكان يمكن أن يبوحا به. لم أعد أعرف ماهو سر وماهو ليس سرا في بيت منور وبهاء. فهل كبرت حتى ما عدت أستوعب ما يفكر فيه هؤلاء الشباب؟

في ذلك المساء وصلت رسالة من سعاد وعبد الرحيم. عرضها بهاء لمنور محتفيا بها. لكنها قالت له: اقرأها أنت، ولا تنقل لي إلا الأخبار المفرحة! فلنغرق في الصغائر إذن! تعيش سعاد من الهدايا التي قدمت لها حفاوة بعودة عبد الرحيم من المعتقل! لديها أكياس من الرز والسكر الأبيض والبرغل تكفيها ولو امتدت الحرب خمس سنوات. توزع على أصحابها منها. تصوري، تقدم لبيت العكي، أصحاب الألماس، سمنا ورزا وسكرا أحيانا وترفض أن تستعيدها! صارت أختك صاحبة مستودع! أرأيت يامنور، الفرق بين فلسطين وبين سورية؟ يحتفي الناس هنا بمن يخرج من السجن بعراضة وأهازيج! في فلسطين يحملون له أكياس المؤونة!

رفعت منور كفها. كفى! ياللتفاصيل التي تحاصر نفسها بها! ستهمس لليلى

www.alkottob.com

وهي طفلة بعد: لو تعرفين ماضحيت به! فيقول لها بهاء: بل اشكريها! نجوت من صغائر الخلافات بين الوطنيين، ومن انتظار المنتصرين! مافاتك حصرما أكلته عنبا، يامنور! فاتتك تفاصيل الأحلام بالمساعدة الألمانية وفجيعتها! سأرويها لك! غدا أسافر إلى حلب وسأعود بعد غد!

في أيام الحمل الأخيرة لم يترك بهاء منور وحدها. لم يشعرها بأنه يحرسها. لكنها تبينت أنها لم تعد تبقى وحيدة. إذا غاب بهاء حضرت مرجانة أو نفيسة إليها. كان بهاء قد اهتدى إلى بيت مريم نديم في القصاع واتفق معها أن تزور منور. وعرف أين يجدها متى طلبها.

كان مؤذن الشامية يؤذن الفجر عندما ولدت منور طفلة بيضاء. غسلتها مريم نديم ورفعتها أمام منور: تفرجي ما أحلاها! قالت منور مبتسمة: ليلى! وأغمضت عينيها كأنها تعلن أنها أكملت عملها وتترك لمن حولها أن ينجزوا عملهم. غمرتها راحة لم تذق مثلها. راحة عذبة وعميقة. شعرت بأنها شفافة وخفيفة. واستعذبت الغفوة، مع أنها ظنت نفسها صاحية. سمعت من بعد بهاء يقول وهو يغصّ بريقه: ليلى! وشعرت بأنه قبّل يدها، ففتحت عينيها قليلا وابتسمت كأنها تذكره بنبوءتها. ثم انصرفت عنه إلى غفوتها. وتبع بهاء مريم نديم إلى خارج الغرفة.

سألها: طمئنيني على منور! يابهاء بك، جرى كل شيء في دقة. كأننا كنا نعمل معا ليخرج إلى الدنيا إنسان سليما ومعافى! لم نضع في حركة زائدة، لم تطلق منور خانم صرخة تشغلها عن مولد الطفلة! تنفست في عمق كما طلبت منها، واسترخت كما طلبت منها! هل رأيت بقعة زرقاء على وجه ليلى؟ تنفست لها منور خانم، فصرخت قبل أن ألمسها! سألها عما يجب أن يعمله! فاتته العناية بمنور أيام مولد معتصم في طبرية، ولن يفوّت العناية بها الآن! فما العمل؟ أوصته مريم نديم: ستظن منور خانم أنها تستطيع أن تركض! لكن يجب أن تلزمها بالراحة! يجب أن يعنى بها أهلها. وضع يده على صدره: أنا! ليت الأزواج مثلك، يابهاء بك!

رأت نفيسة منور في قميص نوم سماوي يعمّق لون عينيها اللتين بدتا رماديتين في تلك البرهة. ورأت ليلى في سرير تتسدل عليه ناموسية. أزاحت الناموسية ففتحت ليلى عينيها. ابتسمت نفيسة: يو، عرفتني؟

يوم قالت منور لليلى: اجلسي على هذا الكرسي ولا تتحركي! ردت ليلى: الحق علي لأني تركتك تلديني! فنادتها منور: تعالي إلى هنا فورا! ماذا قلت؟

www.alkottob.com

عمرك أربع سنوات وتمنّين علي بأنك ولدت؟ من علمك هذا الكلام؟ زمّت ليلى شفتيها: تعلمته وحدي! كادت تقول لها: لن تخرجي مع أبيك هذا المساء إلى شارع بغداد! لكن بهاء سمع من الباب كلام ليلى ورفع حاجبيه يرجو منور ألا تهددها. كان ظهر ليلى إليه. قالت منور: اجلسي إذن على كرسيك ولا تتحركي، مفهوم! لم تطعها ليلى. فأمرتها منور: قلت لك اجلسي على الكرسي! ردت ليلى في ترفع: قاعدة.. نصف قعدة! فمنعت منور نفسها من الضحك، وخرجت من الغرفة. همست لبهاء: في اليوم الأول من عمرها فتحت عينيها كأنها تريد أن تعرف نفيسة، فماذا نتوقع؟! ذكّرها بهاء: أنت صغتها كما تصاغ حلية! ردت: صاغتها الأيام الصعبة! ولكن يابهاء، هل ستكون سعيدة؟ أتمنى ألا أموت قبل أن أطمئن عليها! رجاها بهاء: لا تعاقبيها أبدا! دلّليها! في هذا العمر يثبت الطفل شخصيته برفض ما يطلبه أبواه! تأملته: يابهاء، في هذا العمر تفهمها الخطأ والصواب! رجاها بهاء: دلّليها! بالدلال تكبر كالوردة! هل بدأ بهاء ينحاز منذ تلك البرهة إلى ليلى؟

www.alkottob.com

بعد رحلة سعاد وعبد الرحيم بأيام فتحت سعاد عينيها في الصباح فرأته يرتب محفظته. هبّت جالسة. تفيق دائما قبله فماذا ينوي وإلى أين يسافر فجأة؟ أعادها بإشارة من يده وجلس قربها على الفراش: سأسافر إلى دمشق ومنها إلى ذوق مكايل في لبنان لأرى الحاج أمين! قد أمر بمنور في عودتي. ماذا تريدين أن أبلغها؟ فاجأها. لم يستطع أن يخبرها عن سفره أمس؟ لم تلمه. ولم تسأله لماذا قرر له السفر. قالت له: انتبه! لم تدفئ بعد مكانك بعد المعتقل! بماذا أرد على من يسأل عنك؟ سأعود قبل أن يسأل عني أحد!

ترك عبد الرحيم حقيبته الصغيرة في الكراج، وتغدى في المطعم العربي قرب ساحة الشهداء في دمشق. لن يزور منور وبهاء مع أن بينه وبينهما دقائق من المشي! ركب سيارة من كراج السنجقدار إلى بيروت! وفي بيروت اتصل بمن أوصله إلى ذوق مكايل.

يراقب الفرنسيون بيت الحاج أمين بعين مفتوحة وعين مغمضة. يسكن جماعته حوله ويسهّلون زيارة من يقصده، من السياسيين السوريين واللبنانيين إلى الثوار الفلسطينيين. من بيته يراسل السياسيين العرب، ويدفع ثمن السلاح للثورة، ويتابع مسارها ومصيرها.

لم يتغير الحاج أمين منذ رآه عبد الرحيم آخر مرة! الحمد لله على السلامة! كيف حال البلاد؟ تأمل الحاج أمين، ولاقى نظرته العميقة الهادئة: نحفت! أمامي، ياحاج أمين، وقت لأسمن! قالت نظرة الحاج أمين شيئا آخر لعبد الرحيم، جمّد بقية الكلمات المتفائلة التي أراد أن يرسلها. الأيام الصعبة لم تأت بعد، ياأبا زياد! نحن الآن على بوابتها!

تعشى عبد الرحيم مع الحاج أمين وعدد من ضيوفه. بعد انصرافهم أغلق الباب. استمع إلى ما نقله له عبد الرحيم. أدهش عبد الرحيم أنه لم يعلق عليه. كأنه لا يبالي بالرسالة التي أوصلها! الإنكليز مصممون على دفن الثورة. فاق

www.alkottob.com

إرهابهم ما مارسوه في السنوات السابقة. يعرف الحاج أمين التفاصيل! أخذوا علي محمد من بيته وقتلوه في ساحة القرية أمام أهله. أخذوا صالح حسن من الجامع وقتلوه في ساحة القرية. أخذوا حسين محمد من الجامع وقتلوه في ساحة القرية. في السابع والعشرين من شباط هذه السنة قتلوا تسعة عشر رجلا قرب سخنين في قضاء عكا. وأشعلوا الحرائق في منشية عكا. قتلوا فلاحين ذاهبين لبيع الخضار وربطوهما بالحبال إلى سيارة وجروهما أمام الناس. قتل قادة الثورة عبد الرحيم الحاج محمد، ويوسف حمدان مساعد أبي درة، وسلم بعضهم.. صاد اليهود العرب على الطرقات في حيفا، وفجروا أسواق الخضار.. يطارد الفلسطينيون في لبنان وسورية.. بدا الحاج أمين كمن يستعيد أخبارا يعرفها لكن فكره يتجاوزها!

تحدث الحاج أمين حديثا آخر. الحرب على الباب. ويجب ألا يخرج العرب منها كما خرجوا في الحرب العالمية الاولى. هل يكتشف عبد الرحيم سياسيا واسع الصلات، جمع معلومات وضعها تفصيلا إلى جانب تفصيل ورسم من الأجزاء صورة بلاده وسط العرب ووسط العالم وبحث عن نقطة يقول فيها: هنا أفضل مكان لنا! لا يفكر في مصير الثورة كعمليات وثوار، بل في مصير البلاد العربية في حرب كبيرة! اتفقت فرنسا مع إنكلترا ولن يفيد الثوار من الخلاف بينهما بعد اليوم! لكن أمامهما ألمانيا القوية، التي سعى الصهيونيون إلى الاتفاق معها! وقد تكون هي المنتصرة في الحرب القادمة!

رصد الحاج أمين كل من زاروا فلسطين. ومنهم الألمان واليهود. سلم هتلر يهودا صهاينة القسم المسؤول عن اليهود في المخابرات الألمانية. وصل مبعوثوهم إلى فلسطين. لم تغشنا مقاطعة البضائع الألمانية التي حرضت عليها المنظمات الصهيونية في أمريكا واوروبا! فالمنظمة الصهيونية الألمانية رأت في دعوة حزب هتلر إلى النقاء الآري، فرصة ذهبية. فأوحت بأن الخلاص من اليهود ممكن بهجرتهم إلى فلسطين. هذا يرضي الألمان الذين يريدون تنظيف بلادهم من اليهود، ويلبي المنظمة الصهيونية التي تريد أن تلزم اليهود بالهجرة إلى فلسطين! رصد طلابنا في ألمانيا الاتفاق بين الألمان وبين المنظمات الصهيونية الذي كسر المقاطعة الاوربية والأمريكية بأيد يهودية! التقى المشروع الصهيوني بمصلحة الألمان! اشترك في صياغة الاتفاق روبين، مدير الاستيطان الذي عرفناه في يافا، ومدير بنك أنغلو فلسطين، ومبعوث بن غوريون. سموا هذا الاتفاق هافارا. يحوّل المهاجرون اليهود أموالهم إلى بضائع ألمانية تنقلها شركة بالترو من برلين إلى فلسطين، وتستلمها هافارا في تلك أبيب وتبيعها لمن طلبها! وصل حتى اليوم

www.alkottob.com

ستون ألف مهاجر يهودي ألماني إلى فلسطين، على خط بحري من هامبورغ يديره الحاخام. ووصلت مائة وثلاثون مليون دولار! لكن لدينا معلومات عن جناح آخر في ألمانيا يعارض هذا التعاون الذي يفقد الألمان صداقة العرب. سنعتمد على علاقة الدولة العثمانية القديمة بألمانيا! وسنحاول أن نكسب منها رفض الوطن القومي الصهيوني الذي اخترعته عدوتها انكلترا! الحرب الآن على الأبواب، ويجب ألا نخرج منها بكارثة كالكارثة التي نزلت علينا بعد الحرب العالمية الاولى! سأله عبد الرحيم: تقصد أننا سنتحالف مع الألمان الذين اتفقوا مع الصهيونيين؟ لا أقصد الآن التحالف، ياأبا زياد! أقصد أن نكون أذكياء كاليهود الذين يبحثون عن مصلحتهم في الأطراف المتناقضة! في ألمانيا مسؤولون لا يوافقون على دولة يهودية في فلسطين، لأنهم يرون أنها ستكون مركزا للصهيونية العالمية. تحتج المستوطنات الألمانية القديمة في فلسطين على تعاون ألمانيا مع الصهيونيين. وفي ألمانيا مسؤولون يعترضون على إرسال صهاينة ألمان لمفاوضة جابوتنسكي! لم نعطف على الهجوم على اليهود في تشرين الثاني سنة 1938. لكننا نرى أن ذلك مسألة داخلية ألمانية، ونراقب الخلاف بين غوبلز وهملر. نرى مايهمنا: يجب أن نوقف الهجرة اليهودية من ألمانيا إلى فلسطين! نعرف أن وكلاء الهاغاناه وصلوا هذه السنة إلى ألمانيا ليشرفوا على انتقاء الشباب اليهود ويرحلوهم إلى فلسطين، وأن المخابرات الألمانية تغض نظرها عن ذلك! مهمتنا أن ننبه الألمان إلى أنهم سيخسرون العرب! سيصغي الألمان إلى مصالحهم، ياحاج أمين! أنت قلت إن دعوتهم إلى نقاء عرقهم تتفق مع تهجير اليهود خارج ألمانيا! ياأبا زياد، أظن أن الاتفاق بين الصهيونيين وألمانيا لن يستمر خلال الحرب! سينحاز اليهود إلى الإنكليز! سأله عبد الرحيم: تقصد أن عدو عدوي صديقي؟ هذا وأكثر منه، ياأبا زياد! تعرف أن مؤتمر بلودان سنة 1937 تناول هذه المسألة! ياحاج أمين، كان ذلك في سنة 1937 قبل أن يصل المهاجرون اليهود إلى فلسطين! ياأبا زياد، كان ذلك بعد اتفاق هافارا بين الصهيونيين والأجهزة الألمانية! لا نصنع القوى العالمية، ياأبا زياد! لو كان ذلك في قدرتنا لصنعناها في شكل آخر! في الواقع الذي لم نختره، سنحاول أن نستخلص ما يمكن من الخير لبلادنا! ولا تنس أن إخوتنا العرب في وضع صعب! نبيه العظمة وأصحابه في السجن! والثوار الفلسطينيون يعتقلون الآن في دمشق! قتل الإنكليز الملك غازي في الطريق إلى قصر الزهور! الريح غير مواتية، ياأبا زياد!

خرج عبد الرحيم من بيت الحاج أمين في وقت متأخر من الليل. تمنى أن

www.alkottob.com

يمشي في البلدة الهادئة التي لم ير منها غير الطريق الذي قادوه منه إلى بيت الحاج أمين، وأوصلوه منه إلى بيت رجل صادفه عبد الرحيم في المؤتمر الفلسطيني الذي اجتمع في القدس. قدم له الرجل نفسه: أنا هنا أبو شجاع! كيف اخترع هذا الاسم؟!

في الصباح حاول عبد الرحيم أن يطل على ذوق مكايل. فرأى الأشجار في وجه النافذة. ابتسم: يبدو أن البلدة تتخفى وتخفيكم فيها، ياأبا شجاع! وبدا له اللقب الذي نادى به الرجل من تلك الأسرار! نتخفى ولا نتخفى، ياأبا زياد! زارنا رياض بك الصلح، وهاشم بك الأتاسي، وشكري بك القوتلي.. يصعب أن أعدّ لك من زاروا الحاج أمين من السياسيين السوريين واللبنانيين! هز عبد الرحيم رأسه. ذلك هو الجزء العلني من الزوار! الجزء الذي يستر الزوار السريين! لكننا الآن في سنة 1939 والحاج أمين قد بحث مع رجاله مفاوضة الإنكليز في لندن! كان هذا آخر ما ذكره لعبد الرحيم. فحاول طول الطريق من ذوق مكايل إلى بيروت أن يفهم لماذا أهمل الحاج أمين ذلك، وحدثه عن ألمانيا. وبدت له في الحاج أمين صفات لم ينتبه إليها سابقا. فكأنه يحدثك عن أمر كيلا يحدثك عن آخر! أو كأنه يفكر في أمر وهو مشغول بالحديث عن أمر آخر!

انصرف عبد الرحيم إلى النظر من نافذة السيارة عندما خرجت به من ساحة البرج في بيروت وبدأت تصعد بين أشجار الصنوبر والمصايف. ما أجمل الطريق بين بيروت ودمشق! يفتح القلب! تراءى له البحر كلما انعطفت السيارة. مرت بيوت من الحجر ذات سقوف من القرميد، وبعض أشجار التفاح وعرائش العنب. ورأى امرأة تشرب القهوة في شرفتها، مطلة على الوديان والجبال الخضراء والبحر. مر بفندق صوفر الكبير. من ذروة ضهر البيدر بدأ ينحدر نحو شتورا. لماذا خطر له في قمة ضهر البيدر أن الحاج أمين قال له شيئا كثيرا عندما تحدث عن ألمانيا؟! كيف لم تنتبه، ياعبد الرحيم، إلى أن الحاج أمين وضعك وسط ما يشغله؟! يعرف أن دعوة الإنكليز إلى مؤتمر لندن كانت لعبة هدفها أن يأمنوا العرب في الحرب القادمة ويضمنوا على الأقل حيادهم! وأنه من هناك لم يتوقع الحل، لذلك بحث عنه في الطرف المقابل! يبدو أنه سيبحث عن السند عند ألمانيا، معتمدا إلى علاقاتها القديمة بالعرب! هل يخطئ هذا السياسي العتيق؟ لايتحرك خطوة دون معلومات. فماذا لديه؟

وقف السائق في ميسلون ليستريح الركاب من الطريق. نزل عبد الرحيم من السيارة. مشى خطوات وغسل يديه بماء ساقية عين ميسلون البارد، واتجه إلى

www.alkottob.com

ضريح يوسف العظمة. تقدم ونظره على الجناح الذي يظلل الضريح. وقف قريبا منه وغرق في التأمل. حمل يوسف العظمة مسؤولية قرار كبير وهو يعرف نتائجه المرّة. لن يدخل المحتلون إلى دمشق دون أن تقاومهم! استعاد عبد الرحيم ملامح عبد الرحمن باشا اليوسف. تذكر دماثته وأناقته وترفه وحبه الطعام والسهر والحياة. كم كان ماهرا في تذوقها! استأثر حتى في عرس ابنته ببديعة مصابني ونافس ابنه عليها! استعاد عبد الرحيم ماروته له نفيسة عن دعوة اليوسف رجال الأحياء وإغرائهم بالمال كي يدخل الفرنسيون دمشق دون مقاومة! عاقب الثوار اليوسف في خربة غزالة. ولكن هل قدر على رجال العرب أن يواجهوا بين زمن وآخر مسؤولية قرار يشطر الحاضر والمستقبل إلى شطرين أحدهما أقل عتمة من الآخر؟ لا يقبل الضمير أن ينحاز العرب إلى الإنكليز فقبور الذين أعدموهم ماتزال طرية! والبيوت التي نسفوها لم تعمر بعد! والأطفال الذين يتّموهم لم يكبروا بعد! ولكن هل الانحياز إلى الألمان في الحرب سيأتي بالحرية للعرب؟ وكيف يغفر للألمان أنهم أرسلوا ستين ألف مهاجر إلى فلسطين، وأهّلوهم كمستوطنين؟!

لمس عبد الرحيم أكواز الصنوبر الحجرية على أطراف حاجز الضريح. كنت محظوظا، يايوسف العظمة، لأن قرارك متفق مع ضميرك وضمير العرب! ولأنه قرار واضح اعتزت به الأجيال! لأنه قرار ناصع وأخلاقي! لكن هل سيكون السياسيون دائما محظوظين بالتناسق بين الأخلاق وبين القرار؟ بقي عبد الرحيم حول الضريح زمنا. راقبه سائق السيارة من بعد، وأعطى لنفسه فرصة أخرى من الراحة. هذا فلسطيني لن يتاح له أن يزور ضريح يوسف العظمة بين يوم وآخر! ألف السائق وقوف الناس قرب الضريح. وسمع بعضهم يترنم بقصيدة شوقي. ورأى مجموعات من الناس تزرع شجر الصنوبر حول الضريح، وحسنا يفعلون! فبعد سنوات سيقف زواره في الظلال!

حام عبد الرحيم حول الضريح. وصلت أخبار ليلة تشرين الثاني سنة 1938 في ألمانيا وعبد الرحيم في المعتقل. وبدا واضحا له أن ذلك الهجوم سيسهل هجرة اليهود إلى فلسطين. وسيوظف في ظلم العرب مع أنهم لم يساهموا فيه ولم يرحبوا به!

فهل سيكون الاتفاق مع ألمانيا التي تحضّر نفسها للحرب، ومع الحزب الذي يدعو إلى نقاء العرق وتصنيف الشعوب بأعراقها، أخلاقيا؟ نعم، كان قرار يوسف العظمة نقيا وصحيحا وأخلاقيا، فيالحظه! كم تتشابك الخيوط اليوم! لا يستطيع الحاج أمين، كسياسي وطني، ألا يبحث عن نجاة شعبه من نتائج الحرب القادمة!

www.alkottob.com

لا يستطيع ألا يبحث عن حليف قوي أمام عدو قوي، لعله يطوي ما أنزله وعد بلفور من مصائب على العرب، ويحمي أرض بلاده من التسرب إلى المهاجرين الغرباء! لكن هل يستطيع أن يحكم سلوك حليفه ويفرض عليه أن يكون أخلاقيا! يحاول الحاج أمين أن يستخلص شعبه من عالم شرس!

روّح مدخل دمشق عن عبد الرحيم. يلجأ أهل دمشق إلى بساتين الغوطة وإلى الربوة، ليبعدوا الغم عن أنفسهم. فليته يتوقف في مقهى من المقاهي الخشبية المعلقة فوق النهر تحت الأشجار على يساره! أو يجلس على ضفة بردى في الوادي تحت الصخور الحادة على يمينه! إلى أين تسرع ياعبد الرحيم؟ الشغل لاينتهي ولاينفد! منذ كم من السنوات وأنت داخل إلى المعتقل خارج منه، أو داخل إلى اجتماع خارج منه إلى آخر؟ لن يفوتك مسار الظلم أو مسار الحرية إذا جلست ساعات في مقهى على ضفة بردى! وهل تعود إلى الربوة مرة أخرى؟

وعد نفسه: سأجلس ساعات طويلة يوم أطمئن إلى أن البلاد في خير! وسيذكّر نفسه بهذا الوعد ساخرا يوم يقصد القوتلي طالبا السلاح، وسيذكّرها به يوم يعود آخر مرة من عكا!

نزل عبد الرحيم في ساحة الشهداء. عبر البحصة، ومر بين دكاكين تعرض القباقيب المصدّفة. توقف ليشتري قبقابا مصدفا لسعاد. فتذكر أنه لا يعرف مقياس قدمها. عبر جوزة الحدباء ورمى نظرة إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه خالد آغا أمام دكان الحلاق، وصار يجلس عليه أحيانا بهاء. ثم عبر مقهى سوقساروجا وصيدلية ميشيل وبائع الجرائد وضريح الأمير سودون، وانعطف إلى حارة قولي.

دق الباب بسقاطة من النحاس لم تتغير منذ عرف عبد الرحيم هذا البيت. لاتزال الوردة الدمشقية الحجر فوق الباب، ولايزال حوله إطار من الحجر الأسود والوردي! أتاه صوت منور: مين؟ فتحت الباب كله غير مصدقة أنها سمعت صوت عبد الرحيم! أهلا وسهلا، أهلا وسهلا! وحدك؟ أين سعاد؟ يابهاء احزر من أتى! أطل بهاء من الفوقاني. ما أحلى لقاء الأهل! ما أحلى اللهفة التي تقول لك ضع محفظتك واسترح مقدار ماتشاء من الأيام، وسيكون الطعام الذي تحبه جاهزا لك، وسيكون الشراب الذي ينعشك في ملمس يدك، ستمد الشراشف النظيفة لك، وستشم فيها رائحة الياسمين والفل! ستتوهم أنك عدت إلى حضن أمك التي لا تحسب كم أعطتك ولا تتوقع منك أن تشكرها!

في ساعة فقط كانت طاولة الطعام جاهزة قرب بحرة أرض الدار. الكبة

www.alkottob.com

اللبنية، والفتوش، متبل الباذنجان، الكفتا مع البطاطا، والحراق إصبعه! ترددت في زيارتكم كيلا أتعب منور خانم! تعبك راحة! وهل نراك كل يوم في دمشق؟!

سيقول عبد الرحيم لسعاد إنه في أرض الدار في بيت منور، قرب الارطاسيا والدادا والفل، عوّض نفسه عن جلسة المقهى التي اشتهاها في الربوة. وإنه لن ينسى أبدا مذاق طعامها الذي اختلط بعبق الريحان. ولم يذق في حياته أعذب من النوم بعد الغداء في الصاليا الرطبة على صوت نافورة البركة. كنت، ياسعاد، مثل طفل في حضن أمه!

خرج عبد الرحيم بعد الظهر إلى كراج أبي رياح زوج مكرم، محملا بقطرميز كبير من مربى السفرجل وقطرميز أصغر منه من مربى الكباد. سيعود بسيارة من سيارات أبي رياح إلى فلسطين!

سيخمن عبد الرحيم فيما بعد أنه كان آخر زوار الحاج أمين، وأن الحاج أمين اختفى من ذوق مكايل ووصل متخفيا إلى بغداد. لا يترك الحاج أمين مكانا إذا لم يشعر فيه بالخطر! ولا يقصد مكانا إذا لم يشعر بأنه سيكون آمنا فيه! في بغداد، الإنكليز. لكن في بغداد أيضا الضباط القوميون الذين سيحمونه! انتقل الثوار من سورية ولبنان إلى العراق. وفهم عبد الرحيم ما لم يفهمه في حديث الحاج أمين في ذوق مكايل!

www.alkottob.com

بعد سفر عبد الرحيم إلى الشام صحت سعاد في الليل وهي تئن. لمست بطنها: الألم هنا، وهنا، وهنا! ياربي، هل هذا وقت المرض؟! وفي الليل؟! تقلصت معدتها، ليتها تستطيع أن تقيء ما فيها لتستريح! لو يوجد من يبلل رأسها بالماء! وضعت كفها على معدتها: قاسية كالحجر! هطل المطر غزيرا، كأنه يضرب السطح والنوافذ. آه، يامطر عكا!

نهضت لتضع رأسها تحت حنفية الماء. تتحمل الألم لكنها تخشى الإغماء! بللت رأسها ثم هوت على الأرض! هل تصرخ لتنادي ابنها؟ أم لتنادي أم زوجها؟ غمرها الخوف: لا وقت للمرض! لو يطلع الصبح بسرعة!

تلوّت من الألم، وارتجفت من البرد. هل زادت خشيتها من المرض من شعورها بالألم؟ اهدئي ياسعاد، اهدئي! راقبت الضوء منتظرة النهار! يجب أن تنتبه إلى ما يؤلمها كي تصفه للطبيب! كأنها كتلة متشنجة من ساقها إلى رأسها. ألم في البطن، يقفز حتى الظهر، ألم في الرأس، ألم في الركبتين، دوار، إعياء، ألم في المعدة! لا يريحها الفراش لكنها لا تستطيع أن تنهض! متى بدأت تغفو؟ ما أحلى تلك الغفوة!

صحت سعاد والجيران حولها. سقوها الماء بالملعقة. رشفة من شراب النعنع! رشفة أخرى! وصلت بنات العكي، ونزلن مع سعاد إلى مستشفى الحكومة في حيفا. ربط الطبيب عينيها وطلب منها أن تمشي إليه. مشت وتوقفت قربه. نزع العصبة عن عينيها: كيف قدرت المسافة؟ ألم أرك قبل أن تعصب عيني؟

قالت لبنات العكي في السيارة: هل ظنوني واهمة، أم ظنوني ألتمس الدلال بالمرض؟ لن أدوس المستشفى الحكومي أبدا! مع ذلك هاهي هادئة معافاة! لو قيل لي ماهو مرضي لاطمأن قلبي! ردت بنت العكي: الإنسان عجيب، ياست سعاد! في الليل يئن وفي الصباح يجد نفسه معافى! لن نتركك حتى تشفي! استقبلت سعاد الليل في قلق. ما أبشع الليل للمريض! لكنها نامت في عمق في

www.alkottob.com

أول الليل. في آخر الليل هرعت بنت العكي على أنينها. لمست جبينها: حار! بللت قطعة من القماش بالماء البارد ووضعتها على رأسها. فركت يديها بخرقة باردة. قربت من أنفها قطنة مبللة بالكولونيا. اشربي ياحبيبتي! اشربي ماء!

في الصباح زارها الطبيب. نظرت سعاد إليه وهو يفحصها. حاولت أن تخمن من تعبير وجهه مرضها. وكأنها اكتشفت وجها مستغرقا في الانتباه إلى ما يفحصه. اسمعي ياست سعاد، يجب أن تنزلي إلى مستشفى في حيفا. في البطن توجد المعدة والأمعاء! توجد المثانة والكليتان والرحم! لكني سأعطيك الآن إبرة كي تسترخي!

شعرت سعاد بسعادة وهي تغفو. وصلت الست شفيقة من طبرية، وحضرت لها "شوربا الجزر والرز". تدرك سعاد الآن أنها في هذه البرهة، تنتبه إلى الحياة. أدارت رأسها نحو الطرف الآخر من السرير فقابلتها دالية الحديقة الذهبية! تفرجت على الأوراق التي سقطت على الأرض، على شجرة البرتقال، على السماء الصافية، وخيل إليها أنها تشم عبق التراب المبتل، والهواء الذي غسله المطر. في هذه البرهة خلفها الآلام وأمامها المستشفى وهي بينهما تستنشق الحياة. لا تريد أن تتذكر الأمس ولا أن تخشى الغد. تترك إلى جانبها خوفها على طفلين، أحدهما يطل عليها من الممر والآخر في بطنها. ترمي قلقها على شفيقة التي تركت بيتها وشغلها وهرعت إليها. وتغمض عينيها مطمئنة! سمعت همسا وقدرت أن شفيقة تتحدث مع بنات العكي أو مع وداد عنها. ماذا يقلن؟ تعبت سعاد كثيرا، وركضت بين البيت والمعتقل حتى وقعت! هاهي مسترخية في حضن خالتها وصديقاتها. يبدو أن الراحة ممنوعة عليها إلا إذا مرضت!

في المستشفى الايطالي في حيفا جلست في صالة نظيفة. النباتات في أصص من الصيني على صحون من الصيني، منها قرن الغزال! على النوافذ ستائر بيضاء شفافة. هذا ليس صالون مستشفى بل صالون استقبال في قصر! أتى الطبيب الايطالي وتلقاها بابتسامة واسعة. غطاها بشرشف أبيض وحدق في عينيها وفحص فمها ولسانها، وجس بطنها، قاس ضغطها، أخذ بالإبرة بعض دمها وهو يحدثها. اختار لها غرفة تطل على البحر وتدفق هواء حيفا عليها. هل يأتي الطبيب بنصف الشفاء؟

جلس على كرسي قرب سريرها وتحدث معها. هل يفوتها أنه يريد أن يعرف من الحديث ماذا يقلقها؟ عاش زوجها في المعتقل أكثر مما عاش في البيت، أمّ زوجها مقعدة، أبوها، إخوتها..! استمتعت سعاد بلغته العربية المكسورة. قابلها

www.alkottob.com

برواية حياته. يعمل في المستشفى الايطالي، يحب حيفا، يعرف أن الإنكليز يظلمون العرب باستيراد المستوطنين اليهود. ياست سعاد، أشك في أنلديك قرحة. لكني أفضل ألا أتريث في وصف الدواء لأنك حامل. هل لديك أهل في حيفا تبقين عندهم أياما كيلا يكلفك المستشفى؟ إذن اتبعي الحمية التي سأصفها واتصلي بي خلال أيام. تذكري: لاشاي ولاقهوة، لاقلق ولاتوتر!

انتقلت سعاد إلى البيت الذي استأجره ابنا قدري في المحطة. ترك الأول معهد سنبل، واشتغل الثاني مراسلا لنجيب نصار في حيفا. عندما شعرت سعاد بالألم خابرت الطبيب فقال لها سآتي بسيارتي. قطع المسافة بين الكولونية الألمانية وبين المحطة، ونقلها معه إلى المستشفى: لم آت لأني أذهب إلى المرضى، بل لأني أحبك! في الغرفة ذات الستائر الشفافة سألته: ماذا تعطيني إذا شفيت؟ ضحك: أنت التي يجب أن تعطيني! مع ذلك اطلبي ماتريدين!

ألا يمكن أن يكون الدواء إلا مرّا؟ كم كبرت سعاد في هذه الأيام القليلة! وكم أصبحت ملابسها واسعة عليها! هل فهم الطبيب قلقها: صرت أجمل ياسعاد! بعد الولادة ارجعي! والآن ماذا تطلبين مني؟ أشارت إلى إصيص صغير فيه نبات قرن الغزال. قال الطبيب: لا، هذا إصيص صغير مثلك! سأعطيك هذا الإصيص الكبير مثلي! رفعت نظرها إليه. كان طويلا عريضا، لكنه أرقّ من طفل. قالت له سعاد: سأرسل إليك كل مريض أراه! قال: لكن لاترسلي لي مرضى على حافة الموت!

قالت سعاد لنفسها في الطريق إلى عكا: ماأعذب الشفاء بعد المرض! واستسلمت لوهن ناعم تعرف أنها ستنفضه كما تنفض غطاء سريرها. بقيت الحمية!

بعد أسبوع لفّت سعاد سجادة صغيرة من بخارى كانت تضعها على الديوان، لترسلها للطبيب الايطالي. هذا ليس أجرا ياخالتي! لا أجر على العواطف! هل ينجينا الدواء فقط أم الحنان الذي يوهمنا بأنه سيرد عنا الموت والمرض؟ يشعر المريض بأنه وحيد وثقيل، يشعر بأنه ضعيف وزائد، فهل ينتشله من ذلك الشعور الدواء فقط؟ كانت سعاد في حيفا وحيدة، فابنا قدري مشغولان عنها، ويوم المستشفى طويل. لولا الطبيب أكانت تتحمل عشرة أيام من الوحدة؟

لن تجده سعاد لتقدم له الهدية. احتل اليهود والإنكليز المستشفى الايطالي. ستلتقي به بعد الحرب، عندما تأخذ طفلتها إلى راهبات المحبة في حيفا لتداويها. وستعانقه. وسيدهش عبد الرحيم وهو يتفرج على دموع الطبيب ودموع سعاد. يعمل

www.alkottob.com

عند راهبات المحبة لأن اليهود والإنكليز رفضوا أن يعيدوا إليه مستشفاه! سيقترح عليه عبد الرحيم: ارفع دعوى عليهم! سنساعدك! وسيرفع الطبيب دعوى ويدافع عنه محامون منهم عبد الرحيم.

ستلتقي سعاد بالطبيب الايطالي آخر مرة بعد انفجارات القنابل التي رماها اليهود في سوق الخضار في حيفا. وسيراها تبكي على الياس مطر فيسألها: قريبك؟ فترد: لا! فيقول: آه، ياسعاد، لدينا كل يوم قتلى! وسيضع ذراعه حول كتفيها: يبدو ياسعاد، أننا سنرحل هذه المرة معا! نرحل؟ لماذا؟ لا تعرفين بعد؟

ستعرف سعاد فيما بعد، وهي في دمشق، أن الطبيب الايطالي ترك فلسطين عندما احتلتها إسرائيل.

بقيت شفيقة في بيت سعاد حتى استعادت قوتها بعد المرض. فهل أثار شجن سعاد الوهن أم شعورها بأن ستعود إلى مسارها اليومي المتعب بعد سفر شفيقة! رمت سعاد مافي قلبها في تلك الليلة.

هانحن أنجزنا، ياخالتي، ثلاث سنوات من الثورة! دخل عبد الرحيم فيها مرات إلى المعتقل وخرج منه! أعلنت البلاد الإضراب وأنهته احتراما لبيان الملوك العرب! أتى المتطوعون العرب مع القاوقجي ولعب علينا الإنكليز فأخرجوهم! أتت اللجان الإنكليزية وكتبت تقاريرها ورحلت! قرر لنا تقسيم فلسطين ورفضنا نحن والعرب كلهم التقسيم! ومع ذلك رفعه الإنكليز إلى لجنة الانتدابات ثم إلى عصبة الأمم، ولولا العرب والمسلمون فيها لما سقط! قالت مس نيوتون لعبد الرحيم: اكسبوا اللجنة الملكية! وقال لها: يامس نيوتون، كم استقبلنا من اللجان وكم ودعنا منها! كأن الإنكليز لا يعرفون الحقائق! بقيت مس نيوتون هنا، ورحل عبد الرحيم إلى العراق! ياخالتي، ذقنا الأحكام بالإعدام، وفرق الليل الخاصة، وقصف الطيران، والتعذيب في المعتقلات. وهاهي الثورة انتهت!

ماقالته سعاد صحيح، لكن هل يسجن الإنسان نفسه في الحقائق أم يتطلع إلى ما بعدها؟ مرت ثلاث سنوات! قطف عبد الرحيم وسعاد منها بعض الأيام. فلتتذكر سعاد ذلك فقط كي يولد طفلها سليما وجميلا! قالت لها شفيقة: صرت تغرقين في شبر ماء! لا تفكري إلا في الطفل الذي في بطنك! هذا ليس أمانة عبد الرحيم، بل أمانة البلاد! واجبنا أن نعوض عن الشباب الذين قتلهم اليهود والإنكليز!

ذكرتها شفيقة بأنها يوم سافرت مع عبد الرحيم في أيلول إلى دمشق ليحضر مؤتمر بلودان، تجولت في الأسواق وجلست في مقاهي الربوة واستمتعت بذهبيات

www.alkottob.com

الشام! قصدت أن تسوق سعاد إلى الذكريات الحلوة كي تنتبه إلى جنينها! انتهت الثورة كي ينصرف الإنكليز إلى حربهم مع الألمان! فلتنصرف سعاد إلى حملها، وسبحان من يغمس الأبوين في الحنان كي يكبر الصغير ويشفى المريض! ولكن هل كانت شفيقة تتوقع أن يطول غياب عبد الرحيم وأن تلد سعاد في غيابه توأمين؟!

جرت سعاد في الذكريات التي ساقتها إليها شفيقة: ما أحلى الشام، ياخالتي، في الذهبيات! وما أحلى طاولة منور في الفطور والغداء والعشاء! سمنت عندها وسمن زياد! سألنا بهاء يومذاك مداعبا: أخرجتم الزير من البئر بعد رحيل المتطوعين العرب؟ قلت له: بل كاد الإنكليز يقصفون رقابنا! لكن لا تقلق! بعد قرار اللجنة الملكية عادت الثورة. كسبنا منكم التنظيم. لم تعد عمليات الثوار مرتجلة كما كانت في بدايتها! ذكّرت قرارات مؤتمر بلودان عبد الرحيم وبهاء بقرار المؤتمر السوري: فلسطين جزء من الوطن العربي، الوطن الصهيوني مرفوض! لكن متى احترم الاوروبيون قرارنا؟! هاهم أخمدوا الثورة ليتفرغوا لحربهم مع ألمانيا! أغرانا بهاء يومذاك بأن نبقى لنستمتع بذهبيات الشام. قال لعبد الرحيم: لن تمل.. لديك المكتب العربي في القنوات وفخري البارودي وجماعتكم! رجال الثورة السورية في خدمتكم كمستشارين! عرف حتى الإنكليز أن دمشق مركز قيادة الثورة السري! لكن كان يجب أن نرجع! قلت يومذاك لبهاء: يجب أن يعود عبد الرحيم وإلا تأخر عن المعتقل! كان تخميني صحيحا. اعتقل عبد في معتقل المزرعة قرب عكا. قامت الدنيا بعد اغتيال أندروز. فهل كان يمكن أن يعود في تشرين المتطوعون السوريون الذين خرجوا من فلسطين في تشرين؟! ياحبيبتي ياسعاد، دخل القاوقجي إلى منطقة نابلس بعد عمليات الفلسطينيين فيها. أتى إلى أرض فيها ثوار. ومازال الثوار في المثلث، حول نابلس، وفي جنين. نسيت أنهم دخلوا إلى سراي الحكومة في جنين وقتلوا الحاكم الإنكليزي؟ في جنين أثر القسّام والثوار، وسيبقون هناك في الحرب وبعدها وحتى ينتهي الزمان!

عندما زارت سعاد عبد الرحيم في المعتقل يومذاك قالت له: ما أكثركم! صرنا نحن أقلية! كانت المشانق قائمة، والبيوت تنسف، والزيتون يقلع، وسور من الأسلاك الشائكة ينصب بين فلسطين وبين سورية ولبنان، والثوار يقصونه فيحكمون بالإعدام فيقصه بعدهم ثوار آخرون، فيلجأ الإنكليز إلى اليهود لحراسته. قالت لشفيقة: لم تعجبه مداعبتي! فهل كان يجب أن أعرض جرح قلبي أمام المعتقلين وأقربائهم؟ ياخالتي، لا تصدقي أن المعتقل لا يفرق رجلا عن امرأته!

www.alkottob.com

عاش كل منا وحده حتى أني لاأعرف لماذا تزوجت!

مع ذلك كان ما رأيناه في كفة وانفجار القنابل التي وضعتها الهاغاناه في أسواق حيفا ويافا والقدس، في كفة! قال لي عبد الرحيم: عدد الهاغاناه الآن حوالي العشرين ألف رجل منهم أربعة آلاف امرأة! نظم الإنكليز خلال ثورتنا شرطة المستعمرات اليهودية ودربوها، وشيدوا قلاع تيغرت! لي، كان اغتيال أنور كارثة. وألعاب فخري النشاشيبي مقرفة! تذكرين أنه طلب من الناس أن يعودوا إلى الطربوش، بعد قرار الثورة أن يلبس الجميع الكوفية والعقال لستر الثوار!

فهمت شفيقة أنها لايمكن أن تفصل الحلو عن المرّ في ذكريات سعاد. فالمرارة مخلوطة بعمر سعاد أكثر من الحلاوة. حاولت أن تهدئها. تعرف سعاد الكلمات التي تقولها شفيقة، كلها! لكنها تحتاج أن تسمعها. هل يهمنا إن كان الزمن هو الذي شرخ القلب أم قصرنا نحن في حمايته؟! ياخالتي، سنوات الثورة عمري، شبابي! سيسجل من سيكتب كتب التاريخ أن الشيخ عطية نظم معركة الدامون، سيسجل أن القاوقجي نظم عمليات عسكرية، وأن فرحان السعدي نصب كمائن، وأن عبد الرحيم صار قائدا للثورة، وأن أبا ابراهيم اشتبك في عرّابة بالإنكليز، سيذكر أبا درّة ومحمد الأشمر وأمين رويحة. لكن من سيذكر النساء اللواتي شقين طول الثورة وحملنها؟ مرت ثلاث سنوات كأنها ثلاثة عقود! قالت شفيقة: استحي! ماذا تقول الفلاحات اللواتي شنق أزواجهن! تنهدت سعاد: صحيح ياخالتي، من يأكل العصي ليس كمن يعدّها!

انصرفت سعاد في أول الحرب إلى حملها. وستلد في غياب عبد الرحيم عائشة ومصطفى.

www.alkottob.com

عندما دخل أبو رياح، زوج مكرم، كراج السنجقدار خفّ إليه السائق. أين حقيبة عبد الرحيم بك؟ هذه! تناولها أبو رياح، وانحنى على نافذة السيارة: نسيتنا ياعبد الرحيم بك؟ تتفادى أن تقول لنا مرحبا وأنت في الشام، فهل سنجسر أن نزورك في عكا؟ نزل عبد الرحيم من السيارة، ورأى محفظته في يد أبي رياح. سأؤمن سفرك الليلة، بعد أن نتعشى معا! كان عبد الرحيم قد استقر في السيارة. فمن أين ظهر أبو رياح؟!

عاد عبد الرحيم إلى سوقساروجا. رفض أن يمضي الليلة في بيت منور وبهاء، ليصل مبكرا إلى عكا، فماذا يقولان عندما يعرفان أنه قبل دعوة أبي رياح إلى العشاء؟! فتح أبو رياح الباب ونادى: مكرم خانم، وصل ضيف عزيز علينا!

في القاعة قال له: أرسلت سعاد خانم خبرا مع سائق أحد سياراتي! قالت إن الإنكليز طوقوا بيتك. وطلبت أن أستبقيك في الشام! ياأبا رياح، أمس كنت في ضيافتهم. يبدو أنهم اشتاقوا إلي! تساءل عبد الرحيم، ترى هل سبب الاعتقالات الآن أن العرب رفضوا الكتاب الأبيض؟ لم نقبله، واليهود أيضا لم يقبلوه! لكن متى بحث الإنكليز عن أسباب! قال له أبو رياح: يستعدون للحرب! اعتقل الفرنسيون فلسطينيين في الشام نقلوا بعضهم إلى تدمر! في لبنان اعتقلوا فلسطينيين! ويبدو أنهم سيعتقلون الحاج أمين في الذوق! أغمض عبد الرحيم عينيه. لا، لا! يحمي اللبنانيون الحاج أمين! ويحميه حرس من جماعته! قال: يجب ألا يعتقل الحاج أمين! لأنه كفاءة لا بديل عنها، ولأنه رمز! وخمّن أنه سيلجأ إلى العراق. ألم يسبقه بعض الفلسطينيين إلى بغداد!

فتح أبو رياح غرفة في الفوقاني لعبد الرحيم: رتبتها مكرم خانم لك! وأتت مكرم تحمل المناشف البيضاء: الحمام ساخن! تحتاج الراحة بعد هذه الأخبار!

ترك عبد الرحيم المناشف قربه وسأل أبا رياح: وبعد؟ إذا بقيت عندي، أنت في بيتك. لا تخرج من الحارة، وستكون في أمان! سرح عبد الرحيم. بدا غريبا أنه

www.alkottob.com

لم يفكر قبل اليوم في المكان الذي يقيم فيه! فالمعتقل والبيت مكانان في الوطن! فلماذا تفرض سعاد الآن الغربة عليه؟ قال بعد زمن بدا له طويلا جدا: ياأبا رياح! يعتقل الفلسطينيون في سورية ولبنان! يجب أن أرحل إذن، مثل إخواني، إلى العراق! لكن كيف؟ لنفكر في طريق السفر! ما أيسر ذلك لرجل يملك خط سيارات مثل أبي رياح! قال له: سافر سوريون يطلبهم الفرنسيون! الطريق سالكة إذن! مع ذلك، فكرا في الدوريات الفرنسية. ياعبد الرحيم بك، سأؤمن لك الوصول إلى العراق مع تجار الغنم! على عيني! عندما وصل بهاء خلال السهرة قال مداعبا أبا رياح: يبدو أن إخواننا كلهم يسافرون كتجار غنم! على كل حال أديب الشيشكلي ضابط وطني سيساعدك في ألبو كمال!

عبر عبد الرحيم حمص وحماة مع أبي رياح! أثقلت عليك، تركت شغلك لترافقني! لا تقل ذلك ياعبد الرحيم بك! أخذ الإنكليز منك حريتك مرات فلنقدم لك الحرية مرة! فوق ذلك بيننا قرابة وخبز وملح. آه، ياطالب الترياق في العراق! هل ستجده، والحرب وصلت إلى بلادك؟ بقيت في فم عبد الرحيم كلمة لاكها وتصور أنه سيقولها وهو يودع أبا رياح: لا تخبر فرومة، زوجتك اليهودية! لكنه سكت. أيعقل أن يجرح هذا الرجل الذي غطاه بحمايته، وأمّن له من ينقله إلى بغداد؟! لتكن فرومة يهودية مخلصة للبلاد التي تعيش فيها، مقابل ألف يهودي مخلص للحلم الصهيوني!

لبس عبد الرحيم قنبازا وعباءة وعقالا، واستسلم لسائق السيارة وللحظ! تبين السائق طريقه وسط تلك الصحراء. لا تحمل هما، سنصل بعد ساعات! لا تحمل هما؟ كم الساعات طويلة في الصحراء! أغمض عينيه لكنه لم يستطع أن يغفو. يفتديه هؤلاء السوريون بأرواحهم، يضيعون نهارهم وليلهم ليوصلوه إلى الأمان! عمر خرائط بلاد الشام سنوات، لكن عمر هذه البلاد آلاف السنوات، فمن يستطيع شطر روحها!

طرق السائق البيت الذي أشار عبد الرحيم إلى عنوانه. باب يتقدم حديقة مزروعة بالنخيل. هل مايزال التميمي يسكن في هذا البيت؟ على كل حال، ما أسهل أن يجد طرف خيط يوصله إلى أبناء بلده أو إلى السوريين! فتح الباب عندما كاد عبد الرحيم يستدير عنه! لم يقدر المسافة بين باب الحديقة والبيت! هذه بغداد، كل بيت فيها محاط ببستان! أنسيت؟

تساءل عبد الرحيم في الأيام الاولى فقط: ما فائدة محام في هذه الأوقات؟ وجد نفسه وسط تجمع الفلسطينيين والسوريين والعراقيين، وتنقلهم بين البيوت

www.alkottob.com

والمقاهي والمكاتب، منكبين على خرائط الزمن. بدا أن نجاة العراق من الإنكليز ستنقذ البلاد العربية كلها، وسترد فلسطين! هل كان أصحابه مبالغين؟ قال في هدوء: ينتقل مركز الأزمة من بلد إلى آخر! العراق مركز المقاومة العربية الآن!

خلال تلك الأيام أرسل لسعاد رسالة قصيرة لم يصف فيها حتى حديقة النخيل التي تحيط ببيته، خوفا من أن تبوح بمكانه. نقّى الرسالة من أشواقه، ومن الأخطار التي عبرها في الطريق، ومن القلق الذي يتسلل إليه مع الليل. عندما اكتملت رسالته الباهتة فحصها مرة أخرى واطمأن إلى أنها سطور ميتة مهمتها أن تطمئن سعاد بخطه إلى أنه في أمان! وفي ذلك اليوم لام نفسه: ألم تجد، ياعبد الرحيم، إلا حافة الحرب لتزور الحاج أمين في الذوق؟! لولا ذلك لكنت الآن في بلدك ولو في المعتقل!

فتح عبد الرحيم نوافذ بيته ليملأها النخيل. نخيل فلسطين غير نخيل بغداد! نخيل بغداد غابات ممتدة. نخيل مهيب، رشيق وكريم. قال له صاحبه الضابط عارف: أكثر نخيل في العالم، وأحسنه، موجود في العراق! وفي اليوم التالي أرسل له قفّة من التمر: ذق! مرت الأمسية وهما يتذكران لقاءهما في القطار أيام الحرب العالمية الاولى. كان عارف ضابطا في الجيش العثماني، وكان عبد الرحيم في تلك السنة قد استدعي إلى الجيش. التقى بعارف في القطار المسافر إلى مدائن صالح. وكان قد ألبس سوريا مطلوبا إلى المحكمة العرفية، ملابس عسكرية، ليهربه! ولعله تفاهم في ذلك اليوم بنظرة خاطفة مع الضابط عارف، فأصبحا شريكين في إنقاذ الرجل. عندما التقيا بعد السنوات الممتدة من سنة 1916 حتى سنة 1941 بدا له أن البرهة السريعة التي جمعتهما صدفة، مستقرة كجوهرة ثمينة لا يستطيع أي منهما أن ينساها!

التقى عبد الرحيم بعارف في بيت أصحابه الفلسطينيين. وتذكرا ذلك اليوم. وهل تعرف، ياعبد الرحيم، من الضباط الذين لا يريدهم الوصي؟ زملائي الذين حاربوا في الجيش العثماني أيام الحرب العامة! سنقابلهم إذا أردت! هل جاء عبد الرحيم إلى العراق ليكمل اللقاء بين من فرقهم الانتداب؟! ما أعجب المصادفة! وفي أي وقت! بل هو الوقت الملائم! ففي العراق، ياعبد الرحيم، يلتقي الآن رجال بلاد الشام، سوريون وفلسطينيون وأردنيون ولبنانيون! هل كان عارف يدري أن رسول الحاج أمين الذي نقل رسالة العراقيين إلى ألمانيا لبناني؟

انغمس عبد الرحيم في متابعة سقوط وزارة وصعود وزارة، وخلاف الضباط الوطنيين مع الوصي. حذره الحاج أمين من الجواسيس: لا تظن أنك آمن هنا!

www.alkottob.com

في وزارة الخارجية ووزارة الداخلية مستشار إنكليزي! والمخابرات الإنكليزية مقنّعة بأغنياء وفقراء، ويخدمها اليهود! حكى له عن مدير المخابرات دومفيل: أتاني هذا الجاسوس إلى مكتبي في القدس كصحفي في ديلي اكسبرس. فضبطه جمال الحسيني وهو يقلب الأوراق على مكتبه وطرده. وهاهو يجوب بغداد ويتكلم اللهجة العراقية. وأذكر لك سترلنغ مدير المخابرات في سورية الذي كاد يبكي سعد الله الجابري على حاله، فظهر أنه مهتم بالعشائر في البادية، وكاد الوطنيون يقتلونه في دمشق! العراق غني ومتسع، لذلك لن يتركه الإنكليز في أمان! ابحث هناك عن مقتل بكر صدقي الذي اشترى طائرات من ايطاليا سنة 1936! وابحث هناك عن تغيير الوزارات الآن ونفوذ المخابرات الإنكليزية! فلندع للضباط الوطنيين بالتوفيق! فهم عبد الرحيم بقية الجملة: أمام هذا الخراب، الضباط الوطنيون، فادع لهم بالتوفيق!

رطّبت انتصارات الألمان قلب عبد الرحيم. إذا خسرت إنكلترا الحرب طوي الوطن الصهيوني، ولينفّذوا وعد بلفور في إنكلترا! لكن أمريكا تتدخل! وصل مبعوث من روزفلت يطلب حتى من اللاجئين السياسيين أن يدعموا إنكلترا في الحرب! بعد الحرب لكل حادث حديث! كتم عبد الرحيم غضبه في تلك السهرة. نعرف مكر الإنكليز وانحيازهم لليهود! سيكافئوننا كما كافأونا بعد الحرب العالمية الاولى! ياعبد الرحيم، نشاركك رأيك! هذا مثل نيوكمب الذي أرسلته إنكلترا في المهمة نفسها!

لكن لننس هذه الاستهانة بعقلنا، ولنحتفل بنصر ألمانيا على الإنكليز! رفع عارف كأسه، ورجا عبد الرحيم: اشرب! شرب رشفة ثم رشفة أخرى. وفي نهاية السهرة شعر بأن رأسه ثقيل، فقال لعارف: يبدو أني دفعت هذه الليلة ثمن انتصار ألمانيا كما دفع العرب ثمن انتصار إنكلترا في الحرب العامة! ثقل جفناه كأنهما يحملان أرطالا، فترك السهرة لينام. لكنه صحا عندما مشى بين البيوت المحاطة بالنخيل ثم عبر الجسر على دجلة. لماذا تذكر بيت الشعر:

عيون المهى بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولاأدري

وقف مستسلما لسحر دجلة. مازجت ذلك السحر هيبة النهر في العتمة. وبدا له أن الأحزان التي تداهمه أحيانا، والخشية على النصر الذي يتلامح له، عابرة. كم مر على دجلة من أهوال! وهاهو باق، والعراقيون حوله! وهكذا نحن! ستبقى فلسطين، مهما قتل الإنكليز منا ومهما عربدوا! وإذا متنا سيكون بعدنا شعب من نسلنا! ولن يصح إلا الصحيح!

www.alkottob.com

لم يشعر عبد الرحيم بالغربة! قال مداعبا: لم أتوقع أني سألتقي بمثل هذا العدد من الأصحاب في العراق! فهل لبس، كأصحابه، السدارة العراقية ليعبّر عن حبه العراق؟ ما أعظم حماسة العراقيين لفلسطين! مكانة الحاج أمين لدى الوطنيين إشارة إلى وعيهم جوهر الصراع. لا تستغرب ياعبد الرحيم، أن يكون هذا البلد الذي يتدخل فيه الإنكليز وتراقبه مخابراتهم متحمسا إلى هذا الحد لفلسطين! هذا هو الطبيعي! من ينسى ثورة العراق عليهم؟ لولاها لما أتوا بفيصل ليمسك العصا من منتصفها! لعلك يجب أن تبحث في بابل عن خيانة اليهود التي فتحت بواباتها للغزاة! وربما تجد الجواب في اعتداد العراقيين بأن أساطير التوراة مسروقة من أساطير حضارة العراق القديمة! على كل حال، قرار الضباط: مراقبة مجرى الحرب. لن يشتركوا فيها مع الإنكليز! وعندما يهزم الألمان الإنكليز ستعلن الثورة في فلسطين ويطوى وطن بلفور!

قال عبد الرحيم لنفسه بعد لقائه بالعيساوي والصباغ: أثق بملامح الوجوه! العين مرآة القلب! لكنه لم يندفع في الأوهام. للإنكليز جماعة قوية. وليست لدى الجيش أسلحة تقابل أسلحة الإنكليز!

سيضع القدر الضباط الوطنيين أمام خيار واحد، بعد اقتحام الإنكليز البصرة: "حكومة دفاع وطني"! هذا هو الواجب. ستلغي حكومة رشيد عالي الكيلاني الأحكام العرفية. وسترفض طلب الإنكليز قطع العلاقات بايطاليا: اشترينا الطائرات والأسلحة من ايطاليا في أيام حكومة بكر صدقي وحكمت سليمان. فلماذا نقطع علاقاتنا بايطاليا وننحاز إلى إنكلترا التي ضربتنا وسهرت على وعد بلفور؟!

www.alkottob.com

شعر بهاء بغصة عندما استعاد أيام الحرب. لماذا يسجل مولد ليلى في سنة محاكمة الوطنيين! لماذا ملأ السنغال شوارع دمشق في ذلك اليوم السعيد! كأن بهاء تمنى أن يقص مولدها من المسار المضطرب الذي تقع فيه الأفراح كما تقع فيه الأحزان!

رغم سعادته بمولد ليلى كانت سنة 1940 ثقيلة! لم يستطع أن يحضر محاكمة الوطنيين الذين أضيفت إليهم فوق تهمة التحريض على الثورة، تهمة اغتيال بهيج الخطيب رئيس مجلس المديرين! حاكمهم الفرنسيون في محكمة بيروت العسكرية، ويحاكمونهم في دمشق بتهم إضافية!

لم يسجن بهاء. ربما حماه حذره، وربما حمته صحبة نامي بك! لكنه تذكر في صباح محاكمة الوطنيين، ليلة مرت عليه في الغوطة أيام الثورة السورية. كان وحيدا والظلام كجدار أمامه وحوله، ولو لمح بصيصا وقتذاك لتوجس منه. لكن لو كان معه أحد أصحابه أكان يشعر بتلك الوحشة؟ كأنما حوله ظلمة تلك الليلة! فتح ياقة قميصه وهو يمر قرب المحكمة.

روى لمنور عندما رجع من جولته: المحكمة مطوقة بالعسكر، والقاعة للسنغال! القضاة مطمئنون إلى عدالتهم! تأكل الحرب الاوروبيين ويأكلنا هنا الاوربيون! رغم هدوء وجهه لمحت منور قلقه. المتهمون نبيه العظمة، وعادل العظمة، ومنير الريس، وصاحبي الحاج أديب خير، وعبد الهادي المعصراني وآخرون! متهمون بالمؤامرة على سلامة الدولة! لذلك طلب النائب العام أن تكون الجلسة سرية. سمعت في مقهى سوقساروجا سخرية أهل دمشق من المحكمة: لم تجد في القاعة عندما أخلتها غير السنغال!

برغم ذلك وصلت أخبار المحاكمة إلى المقاهي في اليوم نفسه! هيئة المحكمة كولونيل وأربعة عسكريين. اسمعي، يامنور، ماذا قال النائب العام: "كان جزاؤنا من هذا الشعب الذي أسدينا إليه الخدمات الواحدة تلو الأخرى فساعدناه

www.alkottob.com

أن يخطو خطوات واسعة في المدنية والترقي، ونظمنا جهازه الحكومي، وعلّمناه، وأدخلنا جميع عناصر المدنية إليه، العداوة الدائمة والاضطرابات المتواصلة وثورته سنة 1925. جربت إحدى حكوماتنا أن تمتحن قدرة السوريين وإخلاصهم لفرنسا فعقدت معهم اتفاقيات يسمونها معاهدة سنة 1936 سلمتهم أثناءها الحكم وتخلت لهم عن الإدارة. وبعد سنتين على استقلالهم هذا فسدت الإدارة، وتعطلت الأعمال، وتبددت ثروة البلاد، وظهر عجزهم بأجلى معانيه. وما كان منهم إلا أن انتهزوا فرصة حريتهم هذه وأسسوا التشكيلات السرية، ونظموا الجمعيات الإرهابية، ومهدوا لإقامة الثورة. فاستدركت حكومتنا الجديدة، حكومة دلاديه وغاملان وبول رينو وزملائهم، الخطأ فأبعدت الحكومة الوطنية وأعادت الحالة إلى شأنها الأول"! أرأيت، يامنور، كيف يرون شعوب البلاد التي يحتلونها؟ لا تسليهم عن جهلهم بالحضارة العربية! لا تسليهم هل المدنية إلغاء البارلمان المنتخب والدستور! هذه السنة ثقيلة، يامنور! أية سنة منذ الحرب العامة لم تكن ثقيلة، يابهاء؟! هل تضيف: لكن كيف نسيت اليوم أن تقصد سرير ليلى وتستمتع ببريق عينيها عندما تراك؟ ألم تفهم من رحيلك إلى فلسطين أن الغياب قد يصور للطفل أن أباه هجره؟

تابع بهاء نقل صاحبه الحاج أديب خير إلى المستشفى. واستطاع أن يتصل به هناك. ورجع منتصرا. عرف حالة السجناء، ومن يضرب أو يعذب منهم ومن يعلن الإضراب عن الطعام، ومتى فتحوا لهم أبواب الزنزانات، ومتى منعوا عنهم النزهة، ومن نقل إلى التكية ليصلح أسنانه عند طلاب معهد الطب! تساءلت منور وهي تكوي ملابس ليلى هل يلتقي بهاء عند نامي بك بضباط فرنسيين، منهم الضباط الذين يديرون السجن؟ أم يصادف عنده ضباطا أهم منهم؟ هل تسهل لبهاء لغته الفرنسية النقية ثقتهم فيه، فيصل إلى معلومات يريدها؟ فحصت منور ما نقله لها: الضباط الأجلاف المتكبرون، مهذبون ومثقفون عند نامي بك! لا أفهم كيف يجتمع فيهم الوجهان! ردت: المثقف والمهذب لا يحتل ولا يقتل! صاحبك نامي بك، نفسه، لا يعجبني! هل نسي بهاء أن هؤلاء المثقفين قتلوا أخاها! فحصها بهاء، وبدا له أنها غير عادلة في غضبها: يامنور، لا تنسي أني حاربت هؤلاء الضباط في الثورة السورية! ارتعشت. هل كان يرد على ما خطر لها؟

قال لها بعد أسابيع: تصوري يامنور! سجن الدكتور شارل! اتهموه بالاتصال بألمانيا! ونقل المعتقلون الوطنيون إلى حلب. سألته ساخرة: أبعدوهم عن الساحل الذي قد يهدده الألمان؟! ابتسم: وصلت الأخبار إلى الوطنيين في حلب،

www.alkottob.com

وسيكونون في استقبال المعتقلين! حتى الطعام الذي سيرسله الوطنيون للمعتقلين سيكون إشارة إلى أن المدينة تحتضنهم! وقد يشعر السجان بأنه هو السجين!

بعد مولد ليلى عاد الراديو إلى مركز السهرة في بيت منور. فصار عشاء معتصم مبكرا، وفات بهاء أن يرى ابنه قبل النوم! وكان الليل يبدأ لليلى في السابعة مساء والنهار يبدأ في السادسة صباحا. في الليل منور حرة في الاستماع إلى الراديو، بمقدار ما تقاوم نعاسها!

صادر الفرنسيون راديو مقهى سوقساروجا، وطلبوا من الناس أن يسلّموا ما لديهم من أجهزة الراديو! فنقلت منور الراديو إلى غرفة المشرقة. لن يستطيع أحد أن يسمعه ولو وضع أذنه على الباب! كان الراديو من الخشب، في واجهته دائرة مغطاة بقماش بيج، تحتها أزرار مستديرة، تمسك بها منور وتحاول أن تضع إبرته في أفضل وضع ممكن، وتخفف البرازيت بزر آخر. يابهاء، أصبحت هذه العلبة التي فضلنا عليها "صندوق السمع" أهم قطعة في البيت! منها نعرف مصير الدنيا! رد: إذا صدق الراديو! من خلال البرازيت عرفت منور أن الألمان احتلوا هولندا، وعرفت أنهم اخترقوا خط ماجينو. سألها بهاء: متأكدة أنهم اخترقوا خط ماجينو؟! هذا خط هائل! طبعا، متأكدة! معنى ذلك، يامنور، أنهم سيحتلون باريز قريبا! علا البارازيت فخفضت الصوت. سألت بهاء: ونحن؟ قال لها: ساق الفرنسيون اليوم معتقلين جددا إلى السجن!

صارت منور تنتظر المساء لتسمع الراديو. تهرع خلال ذلك إلى غرفة طفليها لتطمئن هل يستغرقان في النوم، ولو طمأنها بهاء: نائمان! قالت لها نفيسة: تعالي في السهرة! عندي راديو أفضل من "راديوك"! ياعمتي، يجتمع عندك أهل الحارة ليسمعوا الراديو! فهل أجد لنفسي مقعدا؟! ضحكت نفيسة: هل تصدقين أن نساء من العقيبة لم أزرهن منذ سنة طرقن بابي ليسمعن الراديو؟ ماعدت أملك بيتي ولا وقتي! لكن الواجب، واجب! يريد الناس أن يعرفوا أخبار الحرب! وهل تظنين أن النساء أقل اهتماما من الرجال بأخبارها؟ من كان يظن أن نرجس خانم تسبق صاحباتها إلى السهرة! كن يجتمعن ليسمعن منها روايات خالدة أديب، فصرن يجتمعن عندي ليسمعن أخبار الحرب!

ستخبره منور يوم يجدها قرب الراديو في حزيران: وصل الألمان إلى مدن لم أسمع بها من قبل.. نانسي، بيزانسون، غرينوبل. وسيقول لها: مع ذلك، اعتقل الفرنسيون اليوم شبابا وطنيين! فترد: صدق المثل، "ماقدر على حماته، ضرب امرأته"! كانت يومذاك مجروحة. فالإنكليز كانوا قد أخمدوا ثورة العراق واحتلوه.

www.alkottob.com

هجرت منور الراديو كأنها لم تعد راغبة في متابعة مأساة ساخرة: المهزومون في بلادهم منتصرون في بلادنا!

في حزيران سيأخذ بهاء مكان منور قرب الراديو. سيلصق أذنه به وهو يستمع إلى بيان أو خبر بالفرنسية. وسيعلن: طلعت فرنسا من الحرب! وقعت هدنة!

سيخرج بهاء في تلك الليلة من البيت، وتنام منور قبل أن يعود. في الصباح سيخبرها أن الفرنسيين منقسمون في سورية ولبنان. أعلن المندوب السامي، بيو، أن الهدنة وقّعت لكن القوات الفرنسية في سوريا ولبنان لا علاقة لها بذلك. بعض الضباط يبكي. وبعضهم يفكر في أنه موجود هنا بأمر من حكومة بلاده وسيلتزم بتعليماتها مهما كانت. رجال فرنسا عندنا مضطربون! الآخرون؟ يقول بعضهم "فخار يكسّر بعضه"! وبعضهم شامت بالفرنسيين. ولكن يامنور، سيتجه الوطنيون إلى ألمانيا! عدو عدونا، صديقنا! سقط ما قاله المندوب السامي، بيو!

www.alkottob.com

لم يبتعد سكان سوقساروجا عن الراديو طوال ثورة العراق. صاروا يسهرون في البيوت التي لم يصادر منها الراديو. هجر حتى صاحب مقهى سوقساروجا مكانه في المساء. ولولا خشيته من الشكوك لأقفل المقهى بعد صلاة العصر.

قالت نفيسة لمنور: لم أر بهاء منذ أسبوع! فردت منور: أنا مثلك، ياعمتي! تمزحين يامنور؟ ياعمتي، وجد بهاء مهمة جديدة ينشغل بها: يحرس حكومة رشيد عالي الكيلاني! فحصتها نفيسة متسائلة، هل تبعد منور بالسخرية خشيتها من سفر بهاء إلى بغداد؟

عاتبت نفيسة بهاء عندما زارها مساء: وصلت إلي مجموعة من الطلاب تجمع تبرعات لتجهيز بعثة طبية إلى بغداد، قبل أن تقول لي أنت أن البلاد تنظم مساعدة العراق! نقلت لي نرجس خانم، ما يقوله أهل سوقساروجا في المقهى عن العراق! وصلتني الأخبار من كل اتجاه، إلا منك! اجلس واشرب القهوة! لا أعرف، يانفيسة خانم، السر في قهوتك! لم أشرب مثلها أبدا! تحكي عن قهوتي كي تنسيني أنك اختفيت منذ أسبوع؟ يرى ابن الكحال أن أهل الشام مع رشيد عالي الكيلاني. قال لي، كل ضربة على الإنكليز تفرح العرب. رأيه صحيح! أدخل الإنكليز المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وأعطوهم وعد بلفور، وأذاقوا الفلسطينيين المر والعلقم! قل لي، أنت، الخبر اليقين! ماذا يجري في العراق؟

كانت قوات العقداء الأربعة قد سارت إلى بغداد في أول نيسان سنة 1941 وهرب الوصي عبد الاله بسيارة السفير الأمريكي وزوجته إلى قاعدة الحبانية. ونقلته منها طائرة إلى البصرة ثم إلى مدرعة بريطانية. وأصبح رشيد عالي الكيلاني رئيسا للوزراء. دعي مجلس الأمة وعين الشريف شرف وصيا على العرش. كاد الوصي عبد الإله يشتت الضباط الوطنيين لينفذ انحياز العراق في الحرب إلى الإنكليز. فسبقوه. فكأن نيسان عزى السوريين عن الاعتقالات والمحاكمات! نقلت نرجس لنفيسة أن الناس يقولون سيطرد الجيش العراقي

www.alkottob.com

الإنكليز من بلاده ثم يطرد الفرنسيين من سوريا! لكن تلك الأحلام لم تغشّ نفيسة. فانتظرت زيارة بهاء. سألته: هل معنى هذا أن العراقيين دخلوا الحرب؟ تأملها بهاء: يانفيسة خانم، حركة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز الذين أرادوا انحياز العراق إليهم في الحرب، وطلبوا أن يقطع علاقاته بايطاليا! لكن النتيجة أن العراق لن يبقى على الحياد!

وجد بهاء نفسه مرة أخرى يشارك نفيسة في أنهما يستشفان ما وراء الأحلام ولا يستسلمان للأوهام. تساءلت نفيسة هل تستعذب أن تمنع عن نفسها فرح الأمل الغشاش؟ وخمّن بهاء مما وصله من الأخبار أن شهر نيسان للأمل وللشماتة بمقدار ماهو للقلق. اندفع الطلاب والسياسيون السوريون في الحماسة لحكومة الكيلاني. ولكن ماذا يستطيعون أن يقدموا لها والمصائر في الحرب تقررها قوى عالمية؟! سألته نفيسة كمن يقفز متجاوزا أسئلة مضمرة: سيساعد الألمان حكومة العراق؟ يانفيسة خانم، ربما يأمل بعض الوطنيين في ذلك. لكن بعضهم يأمل في مساعدة الاتحاد السوفييتي. صمت زمنا وتابعته نفيسة وهو يصبّ لنفسه فنجانا آخر من القهوة. هل أقول لك ما أشعر به؟ هذه المنطقة مقفلة الآن! لن يترك الإنكليز قاعدة الحبانية ونفط العراق! لن يتركوا فلسطين وقناة السويس! سيرتب الإنكليز أوضاعهم ليستعيدوا العراق! لكن هذا لا يقال الآن! الآن يجب أن نساعد حكومة الكيلاني! سألته: قل لي مافي ضميرك! هل هذه حركة ألمانية؟ يانفيسة خانم، هذه حركة أنتجتها سنوات طويلة من صراع الضباط الوطنيين القوميين مع جماعة الإنكليز! ابحثي عن أصول حركة الكيلاني في سنة 1929 وقت تجمعت نواة الضباط العرب القوميين! فكري في تدخل الإنكليز وصلفهم، وفي ضغطهم على العراق لينحاز إليهم في الحرب! لكن الحركة تحتاج أسلحة وقوى تسندها، فتبحث عنها على اليمين وعلى اليسار!

هل ينقل لها ما يعرفه كضابط في ثورة 1936 في فلسطين؟ هل يقول لها إن الحاج أمين الحسيني الذي يلاحقه الإنكليز، ويونس السبعاوي الذي هرّب السلاح لثوار فلسطين من مستودعات الجيش العراقي، من اللجنة السباعية التي تؤثر في أحداث العراق الآن؟ يانفيسة خانم، حركة الكيلاني متصلة بشكل ما بفلسطين! في العراق الآن ضباط ومقاتلون سوريون وفلسطينيون! مشروع حركة الكيلاني تحرير البلاد من الانتداب والجيوش الأجنبية. فسّري كل شيء من هذه البداية. وتمنّي ألا تضطر قيادتها إلى ملجأ بعيد!

يعرف بهاء أكثر مما توقعت نفيسة! قالت: ستتعشى عندي الليلة! ونادت:

www.alkottob.com

يامرجانة حضري العشاء! ففهم بهاء أنها تطلب مايخفيه عنها. سألته وهي تضع في صحنه قطعة مكدوس لماعة من الزيت: أثقلت قلبي، يابهاء، بالحزن على الحركة مع أنها تبدو في عزّ قوتها! ذكرتني بخالد آغا! كان موهوبا بأن ينبش مالايظهر للعيون! لكن قل لي، ما علاقة حركة الكيلاني بفلسطين؟!

حمى بهاء دائما أسراره بالتحفظ، وبالنسيان. تعود أن يرميها في بئر ويغلق عليها الغطاء ويقفله كما تقفل منور غطاء بئر البيت خوفا على معتصم! قال: يانفيسة خانم، ستحكم فلسطين حياتنا وحياة أولادنا! قاطعته بنظرة عاتبة ومتعالية. هل يجب أن تذكّره بأنها هرّبت السلاح وآوت الثوار؟! يابهاء، يجب أن توضع بين يدي "الأميرالاي أركان حرب" المعلومات التي لاتصل من الراديو، ليستطيع أن يتابع الأحداث! تشعره بواجبه؟ نعم، حقها ألا تتوه في التخمين! وواجبه أن يحميها من الخطأ!

رسم لها بهاء الجزء لتستنتج الكل! حدثها عن يونس السبعاوي كحقيقة يعرفها. هذا من السبعة الذين يقودون الحركة. ولا يمكن أن يكون مع ألمانيا! هذا ضابط عربي، قومي، كالعقداء الأربعة! في ثورة سنة 1936 وصلتنا أسلحة جيدة من العراق. من أمّنها، يانفيسة خانم؟ يونس السبعاوي! لو كنت معنا لعرفت كم ينجد السلاح الجيد الثوار في المواقف الصعبة! أخذ السبعاوي ذلك السلاح من مستودعات الجيش العراقي. استعان لتهريب الأسلحة بقاسم حسن، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي العراقي، الذي درس معه في مدرسة الحقوق في دمشق، وبصاحبه ناظم حميد نائب مدير الجمارك في الرمادي. وصل السلاح في أمان من مستودعات الجيش إلى الحدود. ومن هناك دبر نقله فؤاد نصار، أحد قادة الثوار القوميين في فلسطين.

مشروع يونس السبعاوي وصلاح الدين الصباغ قديم. فهل كان تجمع الضباط القوميين العرب في سنة 1929 دون هدف؟ قطع الضباط القوميون مسارا طويلا من الصراع مع الإنكليز وجماعتهم، ليؤسسوا جيشا وطنيا ويؤمّنوا له الأسلحة! تبينت حكومة بكر صدقي وحكمت سليمان أن بريطانيا لم تلتزم بالمعاهدة فتسلح الجيش العراقي. فوصل بكر صدقي إلى اتفاقيات مع ألمانيا وايطاليا لشراء السلاح. واشترى سربا من الطائرات الحربية الايطالية. طلب طائرات أمريكية حربية فسلمت له طائرات عادية! فتساءلي لماذا قتل بكر صدقي في مطار الموصل، وكيف سلمت أوراق الاتفاقيات من حقيبته إلى الإنكليز! لا تنظري يانفيسة خانم، إذن، إلى الأشخاص كأنهم ولدوا اليوم! كان نوري السعيد

www.alkottob.com

يتوجس من السبعاوي. ألا يطمئنك إذن أن يكون السبعاوي والصبّاغ والحاج أمين الحسيني في اللجنة السباعية التي تقود العراق الآن؟ هل عرفت يانفيسة خانم، كيف تتصل فلسطين بالحركة؟

أتت حكومة الكيلاني لأن حكومة نوري السعيد انحازت إلى الإنكليز في الحرب ضد المحور. فقطعت في أيلول سنة 1939 العلاقات بألمانيا. رفضت وزارة رشيد عالي الكيلاني الاولى قطع العلاقات بايطاليا. دعم وصول المفتي إلى بغداد في تشرين الأول الاتجاه القومي العربي الذي يعادي بريطانيا، والضباط العراقيين الوطنيين. أسقط حكومة الكيلاني الاولى في كانون الثاني سنة 1941 الضغط عليها لتنحاز في الحرب. لكنها عادت في نيسان كحكومة دفاع وطني يسندها الضباط القوميون. هذه هي المقدمات يانفيسة خانم! واولئك هم الأشخاص الذين يحملونها!

تساءل بهاء وهو يمشي في سوقساروجا راجعا إلى بيته: هل كان يمارس الغشّ وهو يطمئن نفيسة إلى جانب مضيء في وضع خطر؟ أخبار العراق التي يعرفها من الوطنيين، ومن جماعة أحمد نامي بك، مقلقة. تستخدم بريطانيا الآن المعاهدة، التي تمنى السوريون مثلها، لتسقط حكومة الكيلاني! أبلغت بريطانيا في الثامن من نيسان أن فرقة عسكرية هندية ستصل إلى البصرة. تهب المعاهدة بريطانيا الحق في عبور العراق في أسبوع، دون البقاء فيه. ولكن من يضمن رحيل تلك القوة العسكرية؟ من يجهل غدر الإنكليز؟ لم تسمح حكومة الكيلاني بمرورها. والأزمة قائمة!

وصل بهاء إلى العقيبة وعبرها إلى العمارة. يهدئ نفسه بالمشي! هل ورث هذه العادة من خالد آغا؟ خطر لبهاء أن يتطوع مع المتطوعين الذين وصلوا إلى بغداد من دير الزور. لكنه عرف أن الحرب لن تكون طويلة. لا يجهل الإنكليز أن القيادات العربية الموجودة في بغداد اتصلت بألمانيا كدولة عظمى. حقهم أن يعرفوا مصيرهم! فاقتسام بلادهم في الحرب العامة مايزال يعذبهم! حقهم أن يطلبوا إلغاء الوطن الصهيوني الذي فرض على العرب! لا يجهل الإنكليز الحماسة العربية لحركة الكيلاني! يعني هذا أنهم قد يفقدون جبهة في الحرب ويضيعون النفط! سيحاربون، إذن، العراق!

www.alkottob.com

بعد أسابيع قالت نفيسة لبهاء: تبددت أحلام نيسان! كأني أشم حريقها في شهر أيار! يخنق الإنكليز حركة الكيلاني، وأشعر بأن يدا تضغط حنجرتي. يانفيسة خانم، جر الإنكليز العراق إلى معركة قاسية! سألته: بيان هاشم الأتاسي إذن دون الخطر. يانفيسة خانم، يكنز هاشم بك خبرة تجعله يحسب ألف حساب قبل أن يخطو خطوة. بيانه مهم، لكنه ليس كبيان اللجنة! يعرف أن جماعة فيشي في سورية خاسرة! تذكّري أنه عاش أيام معركة ميسلون! حمله مدّ الانتخابات، وعرف الجزر في إلغاء المجلس المنتخب!

مع ذلك وضعت نفيسة نظارتيها وقرأت مرة أخرى بيان هاشم الأتاسي. "مازالت الأمة تسير في جهادها المقدس مستقلة برأيها.. ولذلك لم يكن لها شأن في النزاع القائم في العالم إلا من حيث ارتباط نتائجه بغاياتها العليا .. غير أنه قد اشتبك الآن في النزاع قطر عربي هو العراق العزيز فأصبح على كل من ينتمي إلى هذه الأمة أن يقوم بما يحتم عليه الواجب نحو إخوانه وأبناء قومه.. فأدعو أبناء البلاد الشامية جميعا أن يجيبوا دعوة الذين أخذوا على عاتقهم النهوض بأعباء هذه المهمة الشريفة". وكأنها تبينت خلال القراءة عمق الكلمات رغم تحفظها. مع أنها بدأت قراءة البيان لتثبت لبهاء أن تحفظ الأتاسي غير مقبول.

تساءل بهاء عن مصير السوريين والفلسطينيين الذين لجؤوا إلى العراق، وعن مصير الضباط العراقيين. يقاومون الآن جيش دولة كبرى! شد قبضته ليكبح قلقه. أكلما تجمعت مقاومة عربية تقتلع، ويبدد قادتها وخبراؤها؟ في العراق الآن سوريون وفلسطينيون وعراقيون عبروا الثورات والسجون، وعبروا الحرب العالمية الاولى، فهل يبادون ونبدأ من جديد؟ سيقنص الإنكليز من نجا منهم في فلسطين! القاوقجي مع الضباط والسياسيين السوريين، العلواني والحوراني والمعصراني والهندي والعمري، ومع ضباط عراقيين، في طريقه إلى الرطبة في البادية ليوقف قوات أبي حنيك التي ستهاجم العراق من الأردن! والطائرات البريطانية تقصف

www.alkottob.com

الآن بغداد وتحرق مستودعات البنزين والطائرات التي اشتراها بكر صدقي! فهل ينقل بهاء لنفيسة ألمه؟

قال لها: بيان لجنة الدفاع القومي لنصرة العراق أقوى. يثبت أن العراق يدافع عن القضية العربية ويعلن أن كبار الوطنيين السوريين أعضاء في اللجنة المركزية للدفاع القومي. نبيه العظمة، الأمير بهجت الشهابي، سليمان معصراني، مصطفى فخري، صبري العسلي، أديب خير، سيف الدين المأمون.. ويعلن أن لجانا فرعية شكلت في حلب وحمص واللاذقية. ما العمل الآن، يابهاء؟ ننفذ ما يطلبه البيان، يانفيسة خانم! بعثات طبية وإسعاف صحي! ياحسرتي، يابهاء! وصلوا إذن إلى الحاجة إلى الإسعاف؟! يانفيسة خانم، لم يجد بعض المتطوعين السوريين والفلسطينيين من ينظّمهم ومازالوا ينتظرون قرب بغداد. يدعو طلاب المعهد الطبي العربي إلى تنظيم لجان طبية! فلنحاول أن نسند العراق! قلت لك لن يترك الإنكليز قاعدة الحبانية ونفط العراق في سهولة! يخشون موطئ قدم يبدأ منه تحرير البلاد العربية من الاحتلال! سألته: والألمان؟ تناديهم الإذاعة العراقية! ألم تسمعيها؟ وصل سفيرهم غروبا إلى الموصل. قالت: رأيت طائراتهم، كالغربان السوداء! هل يقول لها: لن يجدوا بنزينا؟!

نزلت نفيسة إلى السوق، وجمعت مالا من التجار. وقعت لكل منهم ورقة تبين المبلغ الذي استلمته منه سندا للعراق. نسخت الأسماء ووضعت الورقة مع المال في كيس من الخام وسلمته في الليل لبهاء: الأحوال صعبة، ولا نلوم الناس على قلة ما جمعناه منهم! هذا قليل، يانفيسة خانم؟ هذا يجهز بعثة طبية! قلبي عليهم، يابهاء! من يقدم دمه ليس مثل من يقدم ماله!

أثبتت الأحداث لنفيسة أن بهاء قرأها وتنبأ بمجراها. ياليت نبوءتي أخطأت، يانفيسة خانم! بدأ الإنكليز الهجوم على العراق في أيار. جرّوا حكومة الكيلاني جرا إلى الصدام بهم. بالقوة فقط يستطيعون أن يسقطوها! حررت حكومة الكيلاني المعتقلين السياسيين. واقترحت في الثالث من أيار علاقات بالاتحاد السوفييتي، وتمنت أن تأخذ منه السلاح. في الثاني عشر من أيار أعلن الاتحاد السوفييتي اعترافه بالكيلاني. وكان يفترض أن يكون وصول السلاح منه إلى العراق أيسر من وصوله من ألمانيا. فكيف تتهم حكومة الكيلاني بأنها منحازة للنازيين، يانفيسة خانم؟! بعد أيام من تبادل الاعتراف مع الاتحاد السوفييتي بدأت هزيمة حركة الكيلاني! وياخوفي على عبد الرحيم والفلسطينيين الذين لجؤوا إلى العراق!

هل كانت وساطة جورج أنطونيوس لدى الحاج أمين الحسيني كي يتجاوز

www.alkottob.com

العراق أزمة مرور الفرقة العسكرية الهندية، زلّة؟ تعهدت السفارة البريطانية بأن تمر الفرقة الهندية مرورا. كان سفير بريطانيا في العراق كورنواليس الخبير، مع لورنس وغرترولد بلّ، بالمؤامرات على العرب في أيام الحرب العامة! في السابع عشر والثامن عشر من نيسان نزلت الفرقة الهندية في البصرة، وبقيت فيها. طلبت حكومة الكيلاني احترام الوعد الإنكليزي. فاستقدمت بريطانيا فرقا عسكرية نزلت في ميناء البصرة في التاسع والعشرين من نيسان. احتجت الحكومة العراقية. فردت بريطانيا باحتلال البصرة وتعيين حاكم عسكري بريطاني عليها. وأرسلت مدرعات إلى قاعدة الحبانية القريبة من بغداد. لا تبحثي يانفيسة خانم، عن أخلاق الفرسان! نسيها الإنكليز منذ زمن طويل جدا! هاجمت دولة عظمى دولة صغيرة!

طوق الجيش العراقي قاعدة الحبانية على بعد خمسة وعشرين كيلومترا. قصفته قاذفات القنابل البريطانية في يوم الجمعة الثاني من أيار. فاجتمع مجلس الدفاع الأعلى وقرر الدفاع عن البلاد. وأعادت الحكومة العلاقات الديبلوماسية مع ألمانيا. سيكتب تشرتشل في مذكراته أنه كان يجب ألا يكتفي العراق بقطع علاقاته مع ألمانيا، بل أن يعلن الحرب عليها لأنها آوت مفتي فلسطين! استنجدت الحكومة بالطائرات الألمانية والايطالية فوصلت رغم المدافع المضادة، ورأتها نفيسة وبهاء تعبر سماء دمشق. هتف العراقيون في حماسة: الله حي، هتلر جاي! لكن السفير البريطاني كان يعرف أن الجيش البريطاني سيصل إلى بغداد. بعد حريق مستودعات البنزين اكتشف العراقيون أن العراق دون مصفاة لتكرير النفط! هل قصد الإنكليز ذلك؟ وكان في حضن العراق أعداؤه: تجسس اليهود على المراسلات البريدية وعلى التلفونات وسلموا المعلومات طرية للإنكليز.

في التاسع عشر من أيار ضربت القوات البريطانية القوات العراقية واحتلت الفلوجة. في العشرين من أيار قصفت ثلاثون طائرة بغداد، أسقطت إحداها في شارع الرشيد. وصل متطوعون سوريون منهم ضباط هربوا من الجيش الفرنسي، وطلاب من كلية الطب، وسياسيون منهم أكرم الحوراني. سهل عبورهم أديب الشيشكلي قائد موقع "أبو كمال". في السابع والعشرين من أيار خرجت الدبابات والطائرات الإنكليزية من قاعدة الحبانية قرب بغداد، ومن قاعدة الشعيبة قرب البصرة، إلى بغداد. قاومتهم بغداد حتى التاسع والعشرين من أيار. لم تجد حكومة الكيلاني الوقت كي تنتقل إلى الموصل كخط للمقاومة. في الثلاثين من أيار انسحبت الحكومة وقادة الجيش إلى ايران. دخلت القوات البريطانية إلى مدن العراق كلها. بقي عبد القادر الحسيني يقاوم القوات البريطانية في موقع أبي غريب

www.alkottob.com

مع قواته الفلسطينية حتى اعتقل. كان القاوقجي قد انتقل مع قواته من الرطبة إلى عانة، وقاوم الإنكليز على الحدود السورية العراقية. وسيجرح وينقل فاقد الوعي إلى برلين.

خلال قصف بغداد تذكر عبد الرحيم زيارته ضريح يوسف العظمة متسائلا عن الخيار. كأنه زار الضريح قصدا! نعم، لايحسب السياسي فقط الربح والخسارة في برهة مغلقة! يحسبها في لوحة الزمن الواسعة، مقدّرا البرهة الراهنة والمستقبل! خمّن عبد الرحيم أن ثلاثين طائرة على الأقل تقصف بغداد وقال لنفسه: قد لا تثمر المقاومة انتصارا الآن، لكنها ضرورة للمستقبل!

أخبره عارف أن الإنكليز نقلوا عصابة صهيونية من فلسطين إلى الحبانية لتتسلل بملابس عراقية وتنسف مؤسسات وأسواقا وتنشر الفوضى في بغداد. قتل العراقيون رئيسها. ما اسمه؟ سميناه "رزيل"! يبدو أنه دفن، كبطل، في قاعدة الحبانية! التقطنا رسائل سرية إلى القوات البريطانية! يبيّن الإنكليز واليهود، محور الصراع حتى للجاهل!

من قال يفكك الذعر تجمعات الأصحاب! رأى عبد الرحيم النقيض في بغداد! وكان يصعب عليه التمييز بين الوطنية والشهامة. ركب الضباط والسياسيون القطار إلى خط الدفاع في الموصل. فاضطروا إلى البقاء في ايران! نشر عارف لعبد الرحيم الخيار الآخر: يقاتل عبد القادر الحسيني الإنكليز الآن. أنت، الحق القاوقجي والمتطوعين السوريين! فكر عبد الرحيم في كلام عارف. يبدو أنه قال له: انتهى كل شيء فاذهب إلى سورية، وعد إلى فلسطين! سأبعدك عن مغامرة أخمّن نهايتها! اعبر الخط الرقيق بين فيشي وفرنسا الحرة! نعم! لذلك قال له: عندما تصل إلى سورية انتبه، فبعض ضباط فيشي وجنودها في سورية منحازون إلى ديغول، مع أنهم تابعون لفيشي! هذا طبيعي، فهم فرنسيون بلدهم محتل! تريدني، ياأخي عارف، أن أشفق على من اعتقل السوريين؟ يتغير الوضع الآن في سورية، ياعبد الرحيم! الله معك!

كم بدت لعبد الرحيم "الله معك" ممتدة وحزينة! هل يقصد أننا أمام قدر لا نستطيع أن نستنجد فيه إلا برحمة الله؟ وكيف يمضي هو إلى مقاومة أصبحت كالمغامرة؟ تعانقا عناق رجلين أوثقت أحدهما إلى الآخر أيام معبأة بالأحلام، وقد تحسب ذات يوم استثنائية تساوي بعمقها ما عاشاه سنوات! هنا كان يمكن أن يقرر مصير فلسطين! لو هزم الإنكليز هنا وهم يهزمون في اوروبا! استعاد عبد الرحيم برهة وداع عارف وقرأ فيها مدى لا تعبر عنه كلمة بسيطة. في سنة

www.alkottob.com

1916 التقى رجلان في قطار كان يمكن لو فشلا في ستر اتفاقهما المضمر أن يعدما معا كضابطين خائنين. التقيا في سنة 1941 في بلد بعيد عن ذلك القطار، في برهة مشرفة على مشروع حياة ومشروع موت، وكان يمكن أن يقتلا معا في بغداد. لكن أحدهما يريد نجاة الآخر لأنه يعي أن نجاته هو أصبحت مستحيلة! كأنه يأتمنه على مقطع من حياة يريده أن ينجو بها! كأنه يريده أن يستمر بمشروع قد لا يستطيع أن يستمر فيه هو! فهل يقدم له هدية أم يطلب منه واجبا؟

رأى عبد الرحيم جنودا عراقيين يحاولون أن يصدوا طائرة بالرشاشات. ورآهم يحتفلون بسقوطها. واستمر في طريقه نحو الحدود السورية.

سهر بهاء في بيت نفيسة ليلة سقطت حكومة الكيلاني. يجب ألا تعرف منور كارثة العراق! قال: يانفيسة خانم، رجع الوصي، ورجع نوري السعيد! أضافا إلى الملك غازي قتلى آخرين! قالت له نفيسة: لا تدافع عن غازي. كان سكيرا! مع ذلك قتلوه، يانفيسة خانم! نصب إذاعة في قصر الزهور تذكر فلسطين! قتلوه ليصبح عبد الإله وصيا!

أوصل الراديو لمنور الأخبار ففهمت سبب غياب بهاء. وضعت أمامها ثيابها السوداء. كم مرة ستلبس ثوب الحداد وكم مرة ستخلعه؟ كم مرة ستبكي على القتلى الذين يضافون إلى أخيها نوري في العراق؟ هل تضيف إليهم الآن زوج سعاد؟ وجدها بهاء جالسة قرب ذلك السواد. وضع كفه على كتفها. لا يستطيع أن يعزيها! فحزنه مثل حزنها! وربما أكبر، لأنه تابع التفاصيل التي لا تعرفها. لكنه غبطها، فحزنها كان حزنا صافيا ونقيا. حزنه كان مخلوطا بالقرف والكره. انتصر الإنكليز الذين قتلوا سعيد العاص والقسام ورفاقه المتطوعين العرب في فلسطين! انتصر الوطن الصهيوني الذي حاربه بهاء! انتصر المتكبرون الذين لم يكلفهم الحكم بالإعدام على عربي أكثر من دقائق!

خمّن بهاء أن السبعاوي والمفتي لجآ إلى طهران. لكنه لم يعرف أن قاسم حسن لحق السبعاوي. وأنه وصل إلى الاتحاد السوفييتي في منتصف حزيران كأنه موفد. وأن السوفييت لم يثقوا فيه، معتمدين شهادة قدمها لهم زكي خيري اتهمته بأنه جاسوس. بعد أيام اجتاحت القوات الألمانية الحدود السوفيتية. احتل الإنكليز ايران واعتقلوا الفلسطينيين والعراقيين ونقلوا بعضهم إلى روديسية وسيموت بعض هؤلاء المعتقلين هناك غرباء يتشفى فيهم الصهيونيون الذين يتصل بهم بن غوريون في روديسية. وكأنما يتكرر مرة أخرى اعتقال السلطان عبد الحميد في فيلا يحرسها يهود! لكن الوصي ونوري السعيد سيتشفيان بقتل السبعاوي والصباغ

www.alkottob.com

ومحمود سلمان في بغداد! سيعلق الصباغ أمام وزارة الدفاع، لكن الضباط سيلقون عليه التحية وهم يمرون به. يوم سيهجم الناس في ثورة تموز على نوري السعيد ويبتكرون له السحل ستقول ليلى لمنور: يجب أن يحترم الموت! وسترد عليها منور غاضبة: هل احترم هو موت الصباغ يوم علقه على باب وزارة الدفاع؟ أي موت احترمه نوري السعيد والوصي والإنكليز، وأي وطن احترموه؟! في رقابهم ضباط مثل الفلّ! لم يقل الناس عبثا "العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم"!

سألت نفيسة في لهفة: يابهاء، سقطت حكومة الكيلاني، لكن هل بقي أمل؟ آه، يانفيسة خانم! سقطت بغداد، سقطت! نزلت مصيبة ببغداد، يانفيسة خانم! استباحها الإنكليز، كأن هولاكو عاد! ورجع الوصي ونوري السعيد. سألته: ارتكبت الحركة أخطاء؟ قال: لا يقبل الناس في بلاد الشام الآن كلمة على حركة الكيلاني! من يبحث أخطاءها ينعزل عن الناس! كان مشروعها طرد الإنكليز! وكان الحلم أن تتقدم منها القوات العربية لتحرير سورية وفلسطين! بدد الإنكليز تلك الأحلام. انتصروا، يعني انتصر الصهيونيون! لذلك هذا الحداد في بلاد الشام! راقبت نفيسة حزنه. قالت: اسمع، يابهاء. "محمد مات وتدبرت العباد"! لن نغرق في شبر ماء! الإنكليز غرباء، والصهيونيون مثلهم! نحن أهل البلاد! اشرب هذه الكأس من التمر هندي! حضرتها بيدي! من يبحث عن مساعدة الألمان كمن يقبض على الهواء! قال: صحيح! قبل أن تهاجم ألمانيا الاتحاد السوفييتي، كانت الحرب حربا لاقتسام المستعمرات. لكن الحرب العالمية صارت الآن حربا لتحرير العالم من النازية. تأملته نفيسة. يابهاء، لا تقل ذلك لأحد غيري! من يحرر وماذا يحررون؟ هل حررنا الإنكليز الذين احتلوا بغداد وقتلوا الفلسطينيين؟ لم تشف بعد أيدي رجالنا من حديد الفرنسيين في السجون! كيف أخطأ بهاء هذا الخطأ؟ هل ردد كلمات سمعها من بعض أصحابه؟

يترك القتلى كلمات ليكملها الأحياء! لن يكون بهاء حيا ليعرف تفاصيل اتصال العرب بألمانيا. لم ينغمس العرب في المشروع الألماني بل حاولوا أن يأخذوا ضمانات لاستقلالهم. ولن يعرفوا إلا فيما بعد أن المعلومات التي تسربت إليهم عن نقل اليهود من اوروبا إلى فلسطين صحيحة. سيخفى عن العالم أن المنظمة الصهيونية اتصلت بالنازيين وفاوضتهم. وأن ايخمن درب الشباب الصهيونيين! وسيدفع العرب فلسطين كأنها ثمن اضطهاد هتلر اليهود! وسيستر أن وايزمن "الوديع" سامح هتلر بالضعفاء والشيوخ اليهود لأنهم غبار، مقابل تهجير الشباب اليهود إلى فلسطين!

www.alkottob.com

حاول العرب الذين فاوضوا الألمان أن يتفادوا تكرار نتائج الحرب العالمية الاولى. لجؤوا إلى ألمانيا لأن الإنكليز طاردوهم. أوفد الحاج أمين من العراق إلى ألمانيا رسولا طلب الاعتراف باستقلال البلاد العربية ورفض الاعتراف بالوطن الصهيوني. وأتاه جواب من وزارة الخارجية الألمانية في الثالث من نيسان حفظه بين أوراقه: "إن ألمانيا لم تحتل قط أرضا عربية، ولا تستهدف الاستيلاء على أي جزء من البلاد العربية. وترى أن الشعب العربي، شعب ذو ثقافة عريقة وقد برهن على جدارته للحكم وفضائله العسكرية، جدير بأن يحكم بلاده بنفسه. ولذلك فإن ألمانيا تعترف باستقلال البلاد العربية استقلالا تاما، وبحق البلاد العربية التي لم تستقل حتى الآن بأن تنال استقلالها التام". ثبّت الرد نقيض الانتداب. وبين أن ألمانيا مستعدة لتقديم المواد العسكرية عندما تتوفر الطرق لذلك. وسيحفظ أمين الحسيني في أوراقه أمرا رقمه 30 بتاريخ 23 أيار من هتلر يبين أن "حركة التحرر العربية في الشرق الأوسط هي حليفنا الطبيعي ضد إنكلترا"، وأن تحرير العراق يعطل مواصلات إنكلترا، لذلك يوصي بمساعدة العراق ببعثة عسكرية وطيران محدود وأسلحة. لكن هل تكفي الوعود السرية لاطمئنان العرب إلى مصيرهم إذا انتصر الألمان في الحرب؟ جرف العواطف العربية نحو الألمان قهرهم من الاحتلال الفرنسي والبريطاني وغرور عسكرييه. أية قوة عسكرية يمكن أن تكون أكثر ظلما من الإنكليز في فلسطين؟ ألم يغدر الإنكليز بالعرب بعد الحرب العالمية الاولى ويقتسموا بلاد الشام ويهبوا فلسطين للصهيونيين؟ ولكن هل يمكن أن تكون الوعود بالاستقلال أوراقا توضع في ملف شخصي، ولاتعلن أبدا؟

قال عبد الرحيم لبهاء يوم وصل متعبا يشتهي النوم: لولا أديب الشيشكلي في ألبو كمال لما وصلت إليكم! أكلت عنده آخر وجبة طعام! كاد عبد الرحيم يغرق في النوم قبل أن تمد له منور الشراشف. غفا وترك لهما أن يفكرا في الأمان له! عبر عبد الرحيم حقا الخط الرقيق بين فيشي وبين فرنسا الحرة! ففي النهار، في أوائل حزيران، سمع بهاء من الراديو أن قوات فرنسا الحرة دخلت من فلسطين والأردن إلى سورية ولبنان! لكن بهاء همس فيما بعد: عرفت أن دانتز اتفق مع القاوقجي على الاستمرار في المعارك مع الإنكليز. سألته: مقاومة في الشمال واستسلام في الجنوب؟ يؤثر في الشمال الألمان. لكن هذا موقت. انتهى الأمر، يامنور، انتهى! سيحتل الإنكليز ألبو كمال! سألته: وعبد الرحيم؟ لنقل إنه كان مريضا في الشام. لدينا أطباء سيكتبون له التقرير المناسب. وستأتي سعاد لترافقه إلى فلسطين.

www.alkottob.com

بعد أشهر سيقول عبد الرحيم لسعاد: أتعرفين مم أنقذني عارف؟ من النفي إلى روديسيا أو سجون الجنوب التعيسة! ومن الرحيل إلى ألمانيا كمن رحل إليها من طاردهم الإنكليز! بقيت في بلدي، ولو في المعتقل!

وسيروي بهاء لنفيسة بعد زيارة حلب أن الوطنيين الذين بقوا في تركيا وسورية كانوا أكثر حظا. مع أنهم تحملوا الفقر والخطر! ولكن فكّري في الأحداث، يانفيسة خانم! انشغلت ألمانيا بالهجوم على روسيا فلم تتجد العراق. وأفادت بريطانيا من ذلك فاستعادت سورية ولبنان. ورغم إرهاب الإنكليز قطع رئيس وزراء مصر، علي ماهر، علاقات مصر بألمانيا وفتحت مصر للإنكليز ومن معهم من اليهود! هكذا دخلنا الحرب منحازين لمن يحتل بلادنا!

www.alkottob.com

بدا لنفيسة أن الدنيا انقلبت في دمشق بين نيسان وحزيران! شكت لها نرجس: كأنما كانت على صدري بلاطة، يانفيسة خانم! ما كنت أشتهي أن أخرج من بيتي! نرجس خانم، لا تشتهي الخروج من بيتها؟! صحيح، تغيرت الدنيا، يانرجس خانم! هذه السنة ثقيلة! احترق قلبي بحريق المشيرية! ضاع بناء يزين البلد. لكن ياخوفي على ما ستحرق الحرب في بلادنا! كانت ألمانيا قد احتلت باريز في حزيران، وانتقل الجنرال بيتان إلى فيشي مع حكومته. فسألتها نرجس: نفيسة خانم، صرنا مع فيشي؟ نعم، نرجس خانم! لأن الفرنسيين عندنا فيشيون! نفيسة خانم، تقبريني، كم تبعد بلادهم عن بلادنا؟.. يوه، لماذا يجب أن نتحملهم في أثناء الحرب؟ هل نحن أمهم الحنون؟!

استمعت نفيسة في تلك الأيام إلى الراديو كل يوم. لكنها لم تسترح إلى دعاية الألمان! مع أنها تمنت أن يساعدوا ثورة الكيلاني. تقلبت في حوارها مع بهاء، متسائلة هل يميل إلى الألمان! قال لها: القوات الفرنسية في سوريا ولبنان مع فيشي. لعب المندوب السامي، بيو، بين الطرفين فعزلته حكومة بيتان في تشرين الثاني وعينت مكانه الجنرال دانتز! هذا أفضل من بيو! يابهاء، "فخار يكسر بعضه"! هل قدّر علينا أن نحفظ أسماءهم الغريبة، وننتظر منهم الصحو والمطر؟ يانفيسة خانم، يحاول الفيشيون أن يتقربوا من السوريين. صرف دانتز حكومة المديرين وكلف حكومة خالد العظم. كأن بهاء يرش السكر على العلقم! قال لها: نيسان سنة 1941 في سورية ليس مثل نيسان سنة 1940! عين دانتز مجلس شورى موقت بانتظار الانتخابات. سألته نفيسة: يعني صرنا مع فيشي؟! ارتعش بهاء. لا!

لكن ثورة رشيد عالي الكيلاني غيرت موقف نفيسة من الألمان. لمسها يومذاك طيف من الأمل في مساعدة ألمانيا ثورة الكيلاني بعد بيان هاشم الأتاسي وبيان لجنة الدفاع القومي في أيار سنة 1941 ومن لا يثق باللجنة التي جمعت

www.alkottob.com

نبيه العظمة، وفخري البارودي، وأديب خير، وصبري العسلي، ومصطفى فخري، وسليمان المعصراني، وعارف اللحام! لن تدهش فيما بعد عندما تعرف أن الحاج أمين الحسيني وفوزي القاوقجي ورشيد عالي الكيلاني وصلوا إلى ألمانيا وطلبوا اعترافها باستقلال البلاد العربية، وأن بعضهم بقي حذرا وهو يراقب تلك المباحثات من استنبول. ستتذكر نفيسة أنها سألت بهاء: عدو عدوي صديقي؟ وأنه قال لها: يانفيسة خانم، يبدو أن الوطنيين العرب الذين طاردهم الإنكليز وصلوا إلى ألمانيا. يحاولون إنقاذ فلسطين من المشروع الصهيوني الذي تبناه الإنكليز! لعب الصهيونيون قبل الحرب العامة على الألمان وعلى الإنكليز، فلماذا لا نحاول نحن أن نأخذ ما يوافقنا؟ فقالت له كمن يتنبأ: لن يأخذ العرب من الألمان شيئا! لو كان الفيشيون يريدون لنا الخير لما أعادوا لنا الشيخ تاج بطائرة خاصة! فتأملها بهاء متسائلا: هل يجمع الضمير الصافي أصحابه الذين يعتمدون حدسهم، وآخرين يعتمدون خبرتهم، ولو لم يعرف أحدهم الآخر؟ كم يشبه حذر نفيسة حذر نبيه العظمة الذي قال لأخيه عادل: لا أريد أن أدخل اوروبا وأمد يدي إلى أية جهة قبل أن أعلم مصير أمتي معهم، وقبل أن أتحقق من أغراض ايطاليا في بلادنا.. فهمت أن الأفرنسيين الناتسيين هم أنفسهم ضربوا دمشق وسببوا قتل أكثر من مائة وخمسين شخصا.

مع ذلك تابعت نفيسة في تلك الأيام اختيار خالد العظم لرئاسة الوزارة. بيت خالد العظم على بعد خطوات من بيتها! زارت نرجس "الست" الكبيرة، وفهمت منها أن لافاستر مندوب المفوض السامي اتصل بخالد العظم، وأن العظم سافر إلى حمص ليقابل هاشم الأتاسي، وأن هاشم بك قال له "بما أن استقلال البلاد ومعاهدة سنة 1936 لا تمكن في أيام الحرب فتولى أنت إدارة أمور البلاد الداخلية"!

قد يكون الحق مع بهاء! نيسان سنة 1941 في سورية غير نيسان سنة 1940! كانت ثورة الكيلاني في العراق مانزال حيّة، يصل وهجها إلى سورية. وافق على خالد العظم فارس الخوري وصبري العسلي والقوتلي. وصدر الأمر من بيروت بتعيينه وبتأسيس مجلس شورى. فقالت نفيسة: المهم أن تطير حكومة المديرين وألا يعود الشيخ تاج! فهمت أن العظم استلم دوائر الإعاشة من الفرنسيين وربطها به مباشرة. رجل ذكي! ألم تكن زيادة سعر الخبز سبب مظاهرات آذار!

سند بهاء رضاه على دانتز أمام نفيسة، بدائرة الإعاشة التي نجح العظم في

www.alkottob.com

تأسيسها. قال: في اللجنة مندوب سوري ومندوب لبناني والمفوض الفرنسي، يبحثون تصدير الحبوب إلى لبنان. يتفادى العظم أن يجوع لبنان وأن تظلم سورية. كنا نأكل رغيف الشعير ليأكل الجنود الفرنسيون القمح، فتعزيني منور: الشعير مفيد للهضم! وهاهو العظم يؤمن للفقير "خبز الوثيقة".

ردت له نفيسة تفاؤله بدانتز: الفضل لخالد العظم لا للمندوب السامي! الفضل لثورة العراق التي ماتزال تدافع عن نفسها! أرباح أصحاب المطاحن ترفع ثمن الخبز. قالت لنا "الست" إن العظم وضع مشروع مرسوم يجيز للحكومة أن تضع يدها على المطاحن. فعرقله مجلس الشورى. فذهب العظم إلى بيروت وأفهم المندوب السامي أن مستشاره لا يريد تخفيض سعر الخبز. ففرض المندوب السامي أن يجيب مجلس الشورى على المشروع خلال يومين. هكذا استسلم أصحاب المطاحن وخفض سعر الخبز! يانفيسة خانم، أنا لاأنحاز إلى فيشي. قلت لنفد من الصراع بين طرفين كما أفاد منه اليهود! طباع الأفراد أيضا ذات دور! لكني أسألك، هل أصحاب المطاحن والتجار أكثر رحمة بالناس من الفيشيين؟! أبدا، يابهاء، أبدا! الناس يلعنون التجار الذين يغتنون من الحرب! ألم تسمع أغاني سلامة الأغواني؟

لكن ما قيمة حوار نفيسة مع بهاء؟ كانت منور سعيدة بالتخوم المشمسة بين نيسان وأيار. وبأن ليلى غردت كالكنار وابتسمت لثوب منور المشجر. استمتعت على السطح بطقس دافئ صاف وهي تنشر الغسيل. هذا قميص ليلى، من الشاش الناعم. ما أصغره! وهذا جاكيت من الصوف الناعم حاكته لها منور بسنارتين. للصبي اللون الأزرق وللبنت الزهر؟ ملابس ليلى زرقاء أو بيضاء! ما أحلى ليلى فيهما! ما أجمل طيف اللون الأزرق في عينيها! رفعت منور نظرها وتابعت سرب حمام حلق فوقها، سحرها بياضه على زرقة السماء الصافية. كان في يدها قميص ليلى عندما رأت طائرات سوداء تعبر السماء في اتجاه المزة. ارتجف قلبها. تركت الغسيل في الطشت ونزلت راكضة. التقّت بملاءتها وهرعت إلى بيت نفيسة: أين ليلى ومعتصم؟ ياعمتي، طائرات ألمانية! سيتقاتلون في بلادنا، وسيخربونها كما خربوا بلادهم!

أمس روى لها بهاء أن القوتلي والخوري كلّفا العظم بأن يطلب من دانتز إعادة الحياة الدستورية! فلماذا هذه الطائرات الألمانية في سورية! بقيت منور قرب معتصم وليلى حتى رجع بهاء. قدر أنها عند نفيسة. طمأنها كمن يحدث عمتها. يانفيسة خانم، عبرت الطائرات الألمانية سورية إلى العراق لتسند رشيد عالي

www.alkottob.com

الكيلاني ضد الإنكليز! أطفأ الإنكليز ثورة فلسطين فبزغت ثورة العراق عليهم! كأن منور لم تسمعه! حملت ليلى وخرجت. أراد بهاء أن يلحق بها فأبقته نظرة نفيسة في مكانه. منور خائفة على ولديها. ولكن خلف ذلك هناك وجع لا يزول من القلب أبدا، يابهاء! نوري والعراق! ذكرتَ الحرب في العراق فحركت شجنها! وجعها على نوري ليس أقل من وجعي عليه. لكني أكبر منها. كيف أمنع نفسي من التفكير في نوري الذي ضيعته الحرب بين العثمانيين والإنكليز في العراق؟ يؤلم منور حتى اليوم أن نوري دون قبر. نطمئن على أحبائنا يابهاء، ولو في القبور! ربما يثير ذلك السخرية، لكن قلب الإنسان دنيا لا تعرف أولها من آخرها! يهدئ الأحياء أن يستقر أحباؤهم في قبر، يتوهمون أنهم يستريحون فيه! فلا تتساءل هل يستريح إنسان على تراب تحت حجر! لا تقل لا يشعر الميت بالحي فكيف يشعر الحي بالميت! ولا تقل قد يكون المفقود أقرب إلينا في غرفنا منه في مقبرة! لعل بهاء لم ير نفيسة من قبل رقيقة وحزينة كما رآها في تلك البرهة. هل كانت تتذكر قتيلين مفقودين لاقبر لهما، نوري وخالد آغا؟ أطاعها فلم يهرع إلى منور. دعها يابهاء، فهذا كزيارة القبر! دعها تبكي وتتحدث معه! لكن قل لي هل سنكون ضحية الحرب؟ يانفيسة خانم، ستمون الطائرات بالبنزين من مطارات حلب ورياق والمزة، وستستمر في طريقها إلى العراق! ولكن أيمكن أن نكون نسينا عبد الرحيم وهو الآن في العراق؟ لا، يابهاء، لكنه رجل حيّ يملك خيار الدفاع عن حياته. نوري فقد منذ زمن بعيد حتى حق عودة المقتولين إلى أهلهم ومدنهم!

وضعت منور فراشا على الأرض بين سريري معتصم وليلى. صارت تنام في غرفتهما. وكأنها رمت الحوار بين بهاء وبين نفيسة من النافذة! كأنها قالت لهما: تبحثان عن الخلاص في الهواء! راقبها بهاء، وحاول أن يهبها الأمان بهدوئه وهو يسهر كل ليلة في البيت. لكنه لمح أنها تكلم نفسها بعيدا عنه. لا تبوح له بما تخشاه، ولا يجسر أن يطلبه منها! تساءل بهاء يومذاك: أحقا لا تنتبه إلى أن نجاح ثورة العراق يسند سورية، وقد يمهد لتحرير فلسطين من الإنكليز؟ ردت منور عليه فيما بعد، بحدادها الحزين على ثورة العراق. وفاجأته بالمأتم الذي أقامته لها. كان حدسها أقوى من قراءته الواقع. فهل كانت تصغي إلى يقين ورثته بأن الإنكليز لن يتركوا العراق حرا، وأن الألمان لن يساعدوه، مؤمنة بطمع الاوربيين في بلاد الشام؟

في أوائل حزيران عندما دخل الإنكليز درعا ومعهم الفرنسيون الأحرار ووصلوا إلى الصنمين واجتازوا الحدود في الناقورة ومرجعيون والقنيطرة، حدق في

www.alkottob.com

عينيها. وخيل إليه أنها كانت تتوقع ذلك. بعد أيام دوت المدافع وأضواء القذائف في الليل. حملت منور ليلى وساقت معتصما أمامها. نزلت إلى القاعة ووضعتهما في زاويتها البعيدة عن الباب. قالت لمعتصم: ابق هنا! راقبها بهاء دهشا وهي تصعد إلى السطح لعلها ترى مكان "الضرب". تخاف على ليلى ومعتصم ولاتخاف على نفسها؟ لاتفهم أنهما يحتاجانها؟

قال لها بهاء: قوات فيشي تقاوم الحلفاء! طلب العظم إعلان دمشق مدينة مفتوحة ووافق دانتز على إعداء مرسوم يعطي الحكومة حق التصرف في حالة انسحابه من دمشق. لكن فيشي لم تنسحب من دمشق بعد! أعاد العظم إلى دمشق مانقل من مصرف سورية إلى زحلة بسيارتين مع مدير المالية. اشترى بهاء من صيدلية ميشيل في سوقساروجا علب فوسفاتين، وصفّها على رف في المطبخ. يامنور، عندنا طحين؟ قد نضطر أن نخبز في البيت! لكن منور لم تضطر أن تعجن وتخبز. حملت لها مرجانة بقجة ملأى بالخبز الدافئ.

أنزل بهاء فراشا إلى القاعة ونام قرب معتصم وترك لمنور حراسة ليلى. في النهار أتاها بالأخبار: في الثامن من حزيران، دخلت قوات فرنسية بريطانية إلى سورية ولبنان بقيادة ويلسون. خذي، هذا هو المنشور الذي رمته الطائرات باسم كاترو قائد قوات فرنسا الحرة، يعد السوريين واللبنانيين بالاستقلال! وصلت أمس رسالة من ديغول إلى جميل مردم تقول إنه وافق على بيان نائبه كاترو ويأمل في تعاون مردم معه. وهذا بيان السفير البريطاني في القاهرة! "فوضتني حكومة صاحب الجلالة البريطانية في المملكة المتحدة أن أصرح بأنها تؤيد ضمان الاستقلال الذي أعطاه الجنرال كاترو بالنيابة عن الجنرال ديغول لسورية ولبنان وتشترك فيه". سألته منور: صدقتهم؟ يريدون رضانا في أيام الحرب! سترى يابهاء كيف سينقلبون علينا بعدها!

تراجع الفرنسيون إلى الكسوة! وتسللت فرقة هندية إلى المزة من طريق دمشق بيروت! طلب ويلسون قائد الحملة من دانتز إعلان دمشق مدينة مفتوحة وإلا ضربها! خرج بهاء من البيت كي يستر قلقه! وعندما عاد طمأن منور: سلّم معاون المندوب السامي لخالد العظم الصلاحيات بتوقيع الجنرال دولامالاد! عاد الدرك والشرطة إلى الحكومة.

انتظرت حكومة العظم في السراي دخول الإنكليز. لكن الفرنسيين قالوا تبدل الوضع! دوت القنابل فرأى بهاء غضب منور: فليرحلوا! فليحاربوهم في بلادهم! حملت ليلى وأمرت معتصما بأن يبقى قربها. ارتجفت ليلى مع كل قنبلة، لكنها لم

www.alkottob.com

تبك. وبدأت منور تغني لها. بدا بهاء عاجزا. هل تحمي منور طفلتها بصوتها وبجسمها، أم تقول لنفسها فلنقتل معا؟ فهم بهاء وسط دوي القنابل كم تشفق منور عليها! ماأبشع عجز المدنيين في الحرب!

خرج بهاء مغامرا بنفسه! لم تفته نظرة منور التي تلومه كما ترجوه. كتمت في غيابه قلقها عن ليلى ومعتصم. وحكت لهما حكاية "أم رعيدة" التي تجتاز الجبال وهي تؤرجح فانوسها. وبدا لها أنها أبعدت بصوتها وملامحها عن ليلى قصف القنابل. عندما رجع بهاء تمنت منور أن تغفو وتنسى كل ما حولها. بشّرها: يبدو أن الخلاص اقترب! اتصل محسن البرازي بمندوبي الدول وبين لهم أن خمسين قنبلة سقطت على المدينة! أعلن المندوب السامي أن المدينة مفتوحة! وتطوع الأمير كاظم الجزائري مع بعض الرجال لاستقبال الحملة.. ذهبوا بعلم أبيض وسيارة ودراجتين ناريتين، وأخلى العظم السجون.

ترك بهاء منور نائمة، وحمل ليلى ومشى معه معتصم إلى بيت نفيسة. بعد القصف بدا الهدوء ميتا ومقلقا. تناولت نفيسة ليلى منه وقالت ساخرة: ودعنا محتلين مهزومين، لنستقبل محتلين منتصرين!

في الساعة الحادية عشرة كان العظم مع وزرائه وموظفيه في السراي في استقبال المنتصرين. قال لهم الضابط: جئنا إلى سورية لنحررها من الألمان ولنعلن استقلالكم! فقال له العظم إنه قرأ منشور كاترو الذي رمته بالطائرات في الثامن من حزيران، وطلب احترام الأرواح والأملاك.

قالت نفيسة لمنور: سجّلي أننا، أنا وأنت، اشتركنا في الحرب من الثامن من حزيران حتى الثاني عشر من تموز بين قوات فيشي وبين قوات الإنكليز وفرنسا الحرة! مع أننا لسنا مع دانتز ولا مع ويلسون وكاترو! سجّلي، أننا خرجنا من الحرب باتفاقية عكا بينهما في الثاني عشر من تموز! أترين يامنور، هذا الظلم؟ يكتبون تاريخهم في بلادنا وعلينا أن نحفظه! سننشغل الآن باستقبالات المنتصرين وبوعودهم! ردت منور في هدوء حزين: ياعمتي، سجّلت أن الإنكليز لم يسمحوا لثورة العراق بأن تعيش غير شهرين سريعين من الربيع!

أخبر بهاء نفيسة أن العظم استقبل كوله في قاعة السرايا ولم يستقبله على السلم كما طلب. وأن الجنرال كاترو صار مفوضا ساميا. ودعا الحكومة لمقابلته وكرر الوعود بالاستقلال. لكن الحكومة طلبت منه بيانا مكتوبا يعترف فيه بالاستقلال. فكرر ماذكره في المنشور الذي رمته الطائرات! قالت له نفيسة: المكتوب واضح من عنوانه، يابهاء! نزلت اليوم إلى السوق وسمعت أن الفرنسيين

www.alkottob.com

يعتقلون من تخرج في ألمانيا! صحيح يانفيسة خانم! تدخلت الحكومة لتمنع ملاحقتهم.

في آخر تموز زار ديغول سورية وخطب في الجامعة السورية. جلس بهاء في الصف الأخير. كيف حدث أننا كنا في طرفين متقابلين؟ تهب المقاومة للإنسان وسامة، رآها بهاء في ديغول. لم يره في تلك البرهة ضابطا من الضباط الفرنسيين المتغطرسين الذين استعمروا بلده. رآه رجلا مثله يقاوم المحتلين. مع ذلك لم يطمئنه كلامه. قال ديغول: "نؤكد نحن الفرنسيين أن عهدا جديدا لسورية سيبدأ وقد حان الوقت لإنهاء الانتداب والسعي سويا لوضع الأسس النظامية التي تضمن حريتكم". هل يطمئن السوريين هذا الكلام؟ أما كان يجب أن يذكر ديغول كلمة الاستقلال وكلمة الجلاء؟ أليس من حقنا أن نحرر بلادنا المحتلة كما يريد أن يحرر بلده المحتل؟!

التقى ديغول بخالد العظم مرات، وأكد له أنه يريد عودة الحياة الدستورية ويريد معاهدة مع سورية. فصارحه العظم بأن الكتلة الوطنية فقط قادرة على عقد معاهدة.

تابع بهاء زيارة ديغول إلى حمص. استقبله أطفال الميتم. ألقى ثلاثة أطفال كلمات بالفرنسية، منهم طفل اسمه مصباح دبجن. قال الأطفال في نهاية كلماتهم إنهم حزانى لأن أباهم، مدير الميتم، في السجن. مال ديغول وسأل من هو؟ قيل له: سليمان المعصراني. طلب الأطفال وقال لهم: غدا سيكون أبوكم معكم! كان سليمان المعصراني يؤوي في ميتمه رجلا سمي "الحجي". يعيش في غرفة في الميتم ويحرس الأطفال. طوق الفرنسيون ذات يوم الميتم فقيل للحجي اهرب! فهرب من نافذة. فاعتقل مدير الميتم لأنه يؤوي ثائرا فلسطينيا محكوما في فلسطين.

رجع بهاء إلى بيته بتلك القصة. يامنور هل تذكرين الرجل الذي استضفته وفرحت بوصوله إلى حمص سالما؟ ذلك الرجل هو "الحجي" الذي نجا واعتقل بدلا منه مدير الميتم! وكأنما اقترب ديغول من فهم ما نريده. أصدر كاترو قرارا يعيد جبل الدروز وجبال العلويين إلى سورية ويلغي قرار بيو. واتصل بهاشم الأتاسي ليشكل حكومة وينفذ المعاهدة دون الملاحق التي قبلها مردم. استقال العظم في أيلول. ولكن آه، يانفيسة خانم! ربما بجهد الشيخ تاج وربما بحمق كوله، رتب الشيخ تاج أن يكون رئيسا للجمهورية وأن يهجر مردم رفاقه في الكتلة ليصبح رئيسا للحكومة! بعد أن أكل مردم الطعم، استبعده الشيخ

www.alkottob.com

تاج. الشيخ تاج الذي أعاده الفيشيون بطائرة خاصة، يابهاء؟ نعم، يانفيسة خانم! الشيخ تاج مرة أخرى! لاتقل لي إذن، يابهاء، إن هذه السنة أفضل من السنة الماضية!

www.alkottob.com

ماذا يستنتج من ذلك التفصيل؟ نشر الخريطة على مكتبه وانشغل بقراءتها. هنا، العراق الذي دمر الإنكليز ثورته. وهنا سورية التي ماتزال محتلة! هنا، في فلسطين انتداب بريطاني ويهود! وهناك في مصر إنكليز ويهود! لن تبقى ألوان هذه الخريطة بعد الحرب كما أراها الآن. قد يصبح بعضها أفضل مما هو الآن، وقد يصبح بعضها أسوأ مما هو الآن. ولكن أحقا لا تعرف منور أن الصهيونيين قوة في مصر، وتحتاج بعد هذا الزمن الطويل أن يبين بهاء لها الحقائق؟

يامنور، ليست مصر قصر عثمان باشا الذي أعجبتك حدائقه! وليست الرحلة في نهر النيل، ولا شمّ النسيم، ولا العزبة، ولا العوامة، ولا الحارات التي رأيت فيها النساء ذوات البراقع، ولاعيد الموتى الذي غنى فيه سعيد! لم يحدثك عثمان باشا عن يوسف قطاوي الذي كان وزيرا للمالية سنة 1924؟ تطلب يابهاء أن أعرف وأنا طفلة ما أعرفه اليوم! مع ذلك، اسمع! لاتشوه مصر التي في بالي! مصر خضرة ونيل وبشر على مدّ العين!

هل وضعته أمام حقيقة أخرى؟ منور مشغولة بالدنيا التي يملكها الناس كل يوم بسماء يصحون على زرقتها، وعصافير يطربهم شدوها، وشجر يستظلون به، وطرقات يمتعهم المشي فيها. كأن بهاء لا ينتبه إلى ذلك، لأنه مشغول ببحثه عن القوى التي تحكم البلاد! هل أصبح كالسياسيين الذين ينسون الحياة وهم يظنون أنهم يسعون لحمايتها؟ لا تخلط الأمور، يابهاء، وإلا أصبحت الدنيا قبيحة وصارت الحياة كأنها مسخّرة لأصحاب المفاتيح! استمتعت منور بشمّ النسيم في مصر، ولن تنسى ذلك أبدا! استمتعت بقصر عثمان باشا ولمحت فيه عزيز علي المصري، وما أبعدهما عن يوسف قطاوي! هل تنسى أن سعاد قالت لعثمان باشا عندما سألها لماذا لا تلعبين في الحديقة: أخاف على حذائي! وكان حذاؤها الجديد من "اللميع" الأسود! فلتنصرف منور إلى المتعة بالبساتين والدوالي والورود

www.alkottob.com

الشرقية الفواحة، ولينصرف بهاء إلى البحث في الوباء الذي قد يخرب البساتين والواحات والمدن!

في مصر التي تحبها منور، قابل هرتزل اللورد كرومر وبحث منطقة العريش التي كانت مرشحة كوطن صهيوني. كان الإنكليز سيعطون الصهيونيين منطقة العريش، كما أعطوهم فيما بعد فلسطين! غرباء يهبون أرضا لا يملكونها لغرباء لا يملكونها! منذ سنة الحرية، التي ولدت فيها منور، تحركت الجمعيات الصهيونية في مصر دون قيد! كان ولاؤها منذ البداية لهرتزل ومشروعه! علق يهود مصر صوره في بيوتهم! لكنهم كانوا قد أسسوا في مصر محافلهم، قبل ذلك بزمن طويل! أستطيع أن أخمن أن هرتزل عبّر عن تلك المحافل ولم يبتكر من خياله مشروع الدولة اليهودية! في مصر الآن، يامنور، جمعيات يهودية خيرية وفنية، ومدارس يهودية، وصحف يهودية، ومحافل يهودية، وبنوك ودور سينما وشركات سينما يهودية. لهم شيكوريل، وصناعة القطن، وشركات صناعية. وليكن ذلك! لا نختلف إلا حيث تكون تلك الجمعيات والمؤسسات للصهيونيين، ويكون ولاؤها لمشروع وطن صهيوني في فلسطين. فماذا يعني أن تكون في مصر جمعية أصدقاء الجامعة العبرية، وهي في القدس؟ في سنة 1936 ونحن وسط معارك فلسطين دعت جريدة المنبر اليهودي في مصر إلى الهجرة "التي ستهب فلسطين التقدم"! في سنة 1937 والعرب يعدمون في فلسطين اجتمع جابوتنسكي بالمنظمة الصهيونية في مصر، وقال في مؤتمر صحفي في فندق سيسيل: يجب فرض الدولة العبرية بالقوة! رفض مشروع بيل تقسيم فلسطين، فأعلنت المنظمة الصهيونية في الاسكندرية رفضها مشروع بيل والتزامها بوعد بلفور! كيف تستطيع منور أن تتذكر النزهة في النيل، ولاتذكر أن يهود الاسكندرية مشوا في مظاهرة إلى القنصلية البريطانية محتفلين بوعد بلفور، وأن القنصل الإنكليزي قال لهم بالعبرية "أرض إسرائيل لشعب إسرائيل"؟! هل يطمئننا، يامنور، أن يعتمد البنك الأهلي المصري في إصدار الأوراق المالية؟ في أول سنة من الحرب العالمية الاولى تدفق مهاجرون يهود على الاسكندرية، فعطف المصريون عليهم ويسّروا لهم الإقامة في معسكرات ذات حدائق وفتحوا لهم الأبنية الحكومية. رصفت لهم الطرقات، وشيدت لهم المدارس. لكن الجمعيات الصهيونية في الاسكندرية سمت معسكراتهم "معسكرات التحرير". تحرير ممن؟ من عرب فلسطين؟! منهم ومن يهود الاسكندرية نظمت فرق عسكرية لتحارب مع البريطانيين في فلسطين. وفي الحقيقة لتحارب العرب وترسخ الانتداب الذي يهبهم الوطن الصهيوني، وليكونوا

www.alkottob.com

نواة حرس المستعمرات والجيش السري الصهيوني! كانت على قبعاتهم نجمة داود! يخطر لي، يامنور، أنهم يوم نقلوا إلى تركيا ليحاربوا مع الإنكليز، قبل فتح جبهة فلسطين، حاربوا يوسف العظمة والضباط العرب الذين كانوا يدافعون عن الدولة الشرقية! وكان الضباط العرب ويوسف العظمة يردون الهجوم الغربي الذي يضمر تقسيم البلاد إذا هزمت، واقتطاع فلسطين للوطن الصهيوني! عندما أسس الفيلق اليهودي في لندن سنة 1917 ليرفد عمليات فلسطين، انضموا إليه. فتصوري، يامنور، هول أن يستقبل يهود مصر ذلك الفيلق الذي سيقتل العرب في فلسطين وسيكون جيشا للمستوطنين يطرد الفلسطينيين منها! حاربنا في فلسطين رجال ذلك الفيلق المدربين في حرب عالمية. وكنا ثوارا سلاحهم قديم، اشتروا ذخيرتهم من ثمن حلي نسائهم! ولماذا مر وايزمن بالاسكندرية وعرض ضرورة تأسيس المستعمرات الزراعية في فلسطين؟ لماذا اجتمع باللجنة الصهيونية في الاسكندرية ورتب التبرعات لمشروعه في فلسطين؟ في بلد عربي، تآمر الصهيونيون على فلسطين! تبرع الصهيونيون المصريون من الأموال التي جنوها من تجارتهم وصناعتهم وبنوكهم في مصر للمشروع الذي يقتلع أهل فلسطين منها وينصب حصنا صهيونيا وسط أرض العرب! اعرفي، يامنور، أن يهود مصر استقبلوا الجنود اليهود القادمين مع القوات البريطانية إلى مصر وحضّروهم للمستقبل. من مصر انتقل هؤلاء إلى فلسطين وأصبحوا نواة الهاغاناة والعصابات وحراس المستعمرات والبوليس! نزل موسى شرتوك في بيت يعقوب وايزمن المصري! ألقى هناك خطبه ونصائحه وتوجيهاته. مصر الآن مركز يعبره زعماء الصهيونية وينظمون فيه جمع التبرعات باسم ضحايا النازية ويقيمون بها المستعمرات في فلسطين. هدف يهود مصر: وطن قومي يهودي في فلسطين. وصلتنا من مصر كتيّبات عليها شعار إسرائيل، فيها دعوة إلى يهود مصر كي يستردّوا أراضي فلسطين. في الاسكندرية مكتب يعرض خرائط الأراضي على أغنياء مصر اليهود لشرائها. يشترك الصهيونيون كرياضيين في مهرجانات مصر الرياضية، والرياضة أسلوب للتدريب العسكري في فلسطين أيضا. رأيت تدريب كشافهم بعيني في فلسطين!

اكتشف بهاء أن منور ترفض الحقيقة لتبقي ذكرياتها صافية وتحفظ صورة مصر منزّهة. تغار على الوهم! وتبين الاختلاف بينهما والاتفاق بينهما. له، الحقيقة ضرورة، مهما بدت مرّة، ليؤسس عليها برنامجه. لها، يجب ألا تشوه الحقيقة حبها وألا تظلم ذكرياتها. كانت الأمكنة لديها مقدسات يملكها الناس.

www.alkottob.com

وكان زمن الأمكنة زمنا خالدا لا يجوز أن يقطع بمستقبل مهدد. كيف استطاعت، رغم عقلها واتزانها، أن تهرب بتلك الجزر من الحب وتمنع عنها نسيم الحقيقة؟ من الخوف عليها؟ لعل بهاء لم ينتبه إلى تلك الدقائق في روحها قبل أن يشتد الحوار بينهما! فقال لها إن دمشق طردت بلفور. حاصره المتظاهرون في فندق فيكتوريا ورموا الفندق بالحجارة فاضطر أن يهرب من دمشق في الليل. سألته منور: هل تقصد أن مصر مدانة لأنها لم تفعل ذلك؟ في مصر وضع مختلف. وفيها سياسيون لا يوجد مثيلهم في سورية! انزلق بهاء في الحوار كأنه يدافع عن بلد عربي أمام بلد عربي آخر. ضرب جبينه بكفه وقال: كفى! ذلك خطأ! هرب مصريون والتحقوا بالثوار في فلسطين، وما أطول الطريق إليها من مصر! لكن منور كانت قد رعت غضبها وسمّنته. هزّتها الحقائق التي شيدها بهاء كبنيان مرصوص. وفهمت وهي تسمعه أنه لا يختلق، بل يضع على كفيها ما وصله كي تحيط بصعوبة عمل الثوار في فلسطين، وعملهم في سورية، وكي تقدّر مركزهم في دمشق. لكنها لن تسأل نفسها إلا في نهاية المساء: ما ذنب القاهرة والعزبة والعوامة والحارات العتيقة وقصر عثمان باشا والنخيل والنيل إذا خانها بعض المصريين؟ ألم يخن فلسطين يهود عرب عاشوا معنا فيها؟ ألم تشكو لها سعاد من انحيازهم إلى المستوطنين الغرباء لمشروع الوطن الصهيوني؟ المسألة إذن هي الولاء، يامنور! هل ولاؤنا للوطن الذي نأكل خبزه ونشقى أو نسعد فيه، أم لمشروع بعيد عنه؟ لم يخطر لمنور أنها كانت تمس جوهر ماسيحكم بقية القرن كله في علاقة اليهود بالصهيونية، وأنها كانت كمن يتنبأ بأن اليهود السوفييت الذين سيكون ولاؤهم خارج الوطن الذي يعيشون فيه، سيكسرون من مواقعهم في أعلى السلطة، منظومة المعسكر الاشتراكي، وسيرفدون كعلماء وفنيين ومختصين، إسرائيل في ذروة عدوانها على العرب!

لو كانت لدى بهاء كرة الزجاج السحرية التي يرى فيها المستقبل لربما فهم منور في ذلك اليوم! ولما امتد بينهما حوار حار. قرر أنه لم يخطئ ولذلك لن يأتي إليها كالمعتذر. وقررت أنها ليست مخطئة لذلك لن تلتفت إليه. لكن وقت العشاء كان يقترب. فإذا لم يجلسا معا أعلن كل منهما أن الخلاف بينهما وقع! نزل بهاء إلى التحتاني. فتح النملية وأخرج صحن مربى المشمش وخيل إليه أن عطر الحبّات المنشورة في الصواني تحت الشمس فاح منه. فتح الكيس المربوط إلى حنفية الماء فوق المجلى وسكب لبنة منه. سكب من قطرميز جبنا ومن قطرميز آخر زيتونا معطرا بالزعتر الأخضر والليمون. وقف في أرض الدار ورفع

www.alkottob.com

رأسه فرأى سماء كثيرة النجوم. نادى: يانوّارة، العشاء جاهز! كتمت منور ابتسامتها. لم ينتصر أحد على أحد. ولتكن الأمور هكذا! الصراع بعيد جدا عن البيت! سألها وهو يتلقاها على آخر درجات السلم: تريدين أن أحمل العشاء على صينية إلى المشرقة؟ الطقس حلو! فضلت منور أن يتعشيا في التحتاني، وأن يشربا الشاي في المشرقة. سيدفئهما الشاي في برد ليل تشرين.

www.alkottob.com

فتحت منور عينيها في الليل. ماهذا الحفيف؟ اكتسحت جسمها قشعريرة. هذه حيّة تنسل خلف خشب السقف! جلست صاحية في الفراش. كأن الحيّة تزحف على جسمي! نعم، هذه حية! هرعت إلى غرفة معتصم وليلى، وأغلقت النوافذ والباب. أصغت.. لا حفيف هنا! الحيّة هناك، فوقي وفوق بهاء!

في أيام الثورة السورية جمع بهاء بين العمق في النوم، وبين اليقظة التي تشعره بدبيب النملة. لكنه في هذه الأيام يغفو منذ يضع رأسه على الوسادة. يهب نفسه كلها للنهار، ويهب المساء لنزهته مع ليلى في شارع بغداد. كم غيّره مولد ليلى! تساءلت منور مرات لماذا لم يكن فرحه بمعتصم بهذا المقدار؟ وبررت له ذلك بأنها ولدت معتصما، بعيدا عنه، في طبرية. راقبت حتى نفيسة ولعه بليلى، ونبّهته: ألا تخاف أن يغار معتصم؟ ضحك: يانفيسة خانم، أنا ومعتصم متفقان في حب هذه الصغيرة! في غيابي يقوم معتصم مقامي!

لم تضيع مكرم في تلك الأيام الفرجة على بهاء. فكانت تجلس قرب خصّ النافذة منتظرة مروره وهو يمسك بيد ليلى خارجا من حارة قولي، منعطفا إلى اليمين ليعبر سوقساروجا إلى شارع بغداد. وفي كل مرة كانت ليلى ترفع ذراعها نحو نافذة مكرم مشيرة لأبيها: بيت كرّامة! فتروي مكرم ذلك لمنور. في تلك الأيام نقلت مرجانة لنفيسة: جلس بهاء بك مع ليلى في مقهى سوقساروجا، وطلب لها فنجان شاي! لو رأيتها، لاتصل قدماها من الكرسي إلى الأرض وتظن نفسها كالكبار!

أصغى بهاء لحفيف الحيّة وقدّر أن مكانها خلف خشب السقف. كيف انسلت إلى هنا؟ من أين؟ من يسأل هذا السؤال في مدينة تتصل جدرانها وسطوحها! خمن بهاء منذ أيام أن حيّة تسللت إلى البيت، عندما رأى بيض الستيتية مكسورا. لكنه لم يبح بذلك لمنور.

بدت بقية الليلة لمنور مثل سنة من سنوات الكون التي لايعدّون! تابعها بهاء

www.alkottob.com

دون أن يفتح عينيه. وراقب ضوء الفجر وهو يظهر بياض الستائر، ثم يظهر رسوم الطاووس والزهور المطرزة عليها. عندما رأى منور تفتح الخزانة وتخرج ملابسها منها، نهض. التفتت إليه: لن أبقى مع الحيّة! وأشارت إلى السقف: حضرتها، فوقنا! قال: بنت طبرية تخاف من حيّة؟ ردت: بنت حيفا! تذكّر بهاء أن أمها فاطمة خافت من منور يوم جمعت الحيّات الصغيرة كما تجمع الخيوط. سألها دهشا: تخافين من الحيّة؟ ردت: يقشعر بدني! يجتاحني غثيان! هل هذا خوف أم قرف؟ رأيت في بستان الكركة حيّة تلتف حول نفسها، وتبينت أنها تلتف على عصفور، فركضت إلى البيت وكنت أرتعد! اجتاحتني قشعريرة يومذاك! همس بهاء لنفسه: كم يتغير الإنسان!

طوت منور الملابس والشراشف وهي تتحدث مع بهاء. لم تضيع دقيقة! ووجد بهاء نفسه يجلس معها في العربة مبتعدا عن سوقساروجا. عندما ودعها في بيت "الأظن" في قدسيا، قال لها معاتبا: لا تخافين علي من الحيّة؟ كانت قد شعرت بالأمان، وتفقدت البيت، وأعجبها أنه على قمة تلة، وأن شرفته تطل على النهر. قالت: سيساعدك أهل الحارة في صيدها! اترك أمرها للخبراء في الحيّات! كانت مطمئنة إلى أن حبه ليلى يمنعه من مغامرة طائشة. ولم يفتها عتبه لأن ليلى المبهورة بالأرانب البيضاء انفلتت من عناقه، فلم يرتو من وداعها! ولكن ألم يلاحظ أيضا أن منور مشغولة عنه!

تفقدت منور البيت المبني بالحجر. النوافذ كلها ذات قضبان من الحديد. هذه الغرفة المطلة على المنحدر لمعتصم وليلى! وهذه الغرفة المطلة على النهر لمنور! ولتبق الغرف الأخرى كما كانت: للطعام والجلوس!

مشت منور إلى التنّور. قالت لها زوجة البستاني: في الفجر نخبز الخبز! مرة أخرى، يامنور، يبدأ النهار في الفجر وينتهي في غروب الشمس! لا جيران تسهرين معهم، لاأهل ولابهاء! بقي الليل الممتع في دمشق! وما الحاجة إلى الاستمتاع بليل دمشق المنعش إذا كان نهار قدسيا مبتردا بالأنهار والأشجار والمرتفع؟

تفقّد معتصم شجرة التين وشجرة الزعبوب الأحمر. انتبه يامعتصم، ستخدش أغصان الزعبوب يديك! ولا تقطف التين الأخضر فحليبه يحرق الجلد! مرة أخرى، يامنور، ترين شجر الزعبوب وتتأملين حباته الصغيرة، وتقطفين التين من الشجر! رفعت وجهها إلى السماء. سماء عميقة وقريبة كأني ألمسها إذا مددت إليها يدي! بدا لها أنها ضيعت عمرا لأنها لم تخرج منذ زمن طويل من المدينة إلى البساتين

www.alkottob.com

البعيدة عنها. واست نفسها: نسينا أنفسنا ونسينا القرى، أم فرض علينا أن ننساها؟ وبدا لها أن عدوها سلبها جزءا من حياتها، فقضم قطعا منها بالحرب وقطعا بموت الأعزاء. كأنما هدف الاحتلال والحرب أن تسرق حياة الناس لأن آخرين سيكسبونها! مجانين، فالموتى الذين يقتلون الآن في الصحراء لا يهبون مزيدا من الحياة لأهلهم! والبلاد التي يضحى لها بدم الأبرياء في أمكنة بعيدة عن حدودها، لن تكلل بالمجد بل بالشوك! لماذا تفكر في ذلك الآن، وسط هذه السكينة والهدوء والخضرة؟ ألأننا نخزن في أرواحنا سياق الحياة، ولا مهرب منه ولو غاب عن نظرنا؟ قال لها بهاء: يساق السنغال والمغاربة في الحرب، ويقتلون في سبيل فرنسا وبلادهم محتلة! مساكين، يقتلون في حرب ليست حربهم الوطنية! وتساءل: أيمكن أن يكون اولئك شهداء؟ وذكر لها المغاربة الذين هربوا من الجيش الفرنسي والتحقوا بالثورة السورية! ردد يومذاك في ألم: كوميديا!

صحت منور عندما أتت إليها ليلى تضم أرنبا أبيض إلى صدرها: ماما، سينام معي! ينام معك؟ لا تنام الأرانب في فراش الناس بل في وكرها! تنام مع أهلها كما تنامين مع أهلك! ماما، لدى أهلها كثير من الأولاد، هذا سينام معي!

يوم قالت ليلى لأمها أول مرة: "ماددي" فرحت منور، وروت لبهاء: قالت ليلى اليوم لا أريد! ضحك بهاء كطفل: ستسمعين هذه الكلمة كثيرا منها، فلا تحتفلي بها مبكرا! لكنه احتفى بأن ليلى تعبّر عما تريد ولا تريد! كان يسجل كل يوم نمو ليلى بمقدار ما تشربه من الحليب، وما تشربه من العصير. أشار الفوسفاتين الذي صار يستهويه أن يحضّره لها ويطعمها منه، إشارة حمراء إلى أنها كبرت. كانت بداية احتفالاته يوم غرّدت، وكانت تكرر كل يوم بتغريدها حرفا. كأنها تحتفل هي أيضا باكتشافها الحروف. كان بهاء يحرص أن يطعم ليلى وجبة الصباح، فينسل حافيا إلى سريرها ويراقب فرحها وهو يغير ملابسها، فيترك ساقيها عاريتين حرّتين زمنا ويراقبها وهي تحركهما بسرعة كأنها تمارس رياضة. ثم يستسلم للاستماع إليها بعد الطعام وهي تغرد الحرف الذي اكتشفته. ويقول لمنور عندما تستيقظ: قالت ليلى اليوم ففففف، أو قالت اليوم رررررر، أو قالت كككككك. جلست ليلى في الوقت الذي يفترض أن تجلس فيه. ووقفت على ساقيها في الوقت الذي يفترض أن تقف فيه. كانت أمراضها واضحة، استطاع بهاء قراءتها بإشاراتها. وكان شفاؤها منها واضحا. لكنها أدهشته عندما رآها تستعين بالجدار ناقلة كفيها لتمشي في سرعة.

تبينت منور أن ليلى استبقت الأرنب في فراشها، عندما هجم الضبع على

www.alkottob.com

البيت. ولكن لم يكن لديها وقت لتقول هاهي "لا أريد" التي احتفينا بها! كان النهار فاترا، وجلست منور في الشرفة المطلة على النهر والوادي تراقب معتصما الذي يقطف التين وليلى واقفة قربه. على الطاولة في الشرفة كانت صحون اللبنة والجبن والمكدوس والمربى تنتظر صحن التين ليكتمل الفطور. لم تقاوم منور عبق الخبز التنوري الملوّح بالنار فقضمت أجزاءه "المقمرة". لابد أن الإنسان كان في البداية سعيدا مثل هذه السعادة التي تذوقها الآن! وكان يفترض أن يزيدها اجتماع الناس، لولا الطمع في أرض الآخر وفي ثروته!

هاهو التين! صفّته منور فوق ورق التين على الصحن. غسلت ليلى يديها وأتت رافعة كفيها، كأنها تخشى أن يمسّا ثوبها. فابتسمت منور، وهمست لنفسها: موسوسة، مثل عمتي نفيسة! قشرت حبة تين وناولتها لليلى: طيبة، عسل! بدا معتصم سعيدا بأمه وبشجرة التين وبالبستان: ماما، لماذا لا نأتي إلى هنا في كل صيف؟ نعم، يامعتصم، لماذا لا نمضي الصيف هنا مثل جميل مردم وغيره من أهل دمشق؟ تمنى معتصم أن يأتي أبوه ليستريح. وقدّرت منور أن بهاء سيصل يوم الجمعة!

من كان يتصور أن الضبع سيهجم على البيت في تلك الليلة؟! خيل لمنور أنها لمحت عينيه. فتفقدت الأبواب كلها، وبعد ذلك اقتربت من النافذة لتفحصها. نعم، هو نفسه، الضبع! دار حول البيت ودارت معه وهي تهز الفانوس لترهبه بضوئه. رآها معتصم قرب النافذة تلوح بالفانوس. همست دون أن تستدير إليه: هس، لا توقظ ليلى! تعال، تفرج على الضبع! وقف قربها. همست: الضبع جبان، وغدار! يقال إنه يخدّر ضحيته كي لا يواجهها!

استيقظت ليلى عندما تحرك الأرنب تحت الغطاء. ألزمته بأن يسكن عندما تبينت أمها في الغرفة. بقيت مغلقة العينين، تستمع إلى همسها لمعتصم وتلمحها وهي تهز الفانوس. ثم رأتهما يخرجان من الغرفة. فضمت الأرنب إلى صدرها: لا تتحرك!

رأت ليلى وقت أفاقت زوجة البستاني جالسة مع أمها في الشرفة. قالت: منذ أيام نزل الضبع علينا من الجبل. بيت الأرانب مقفل، وقن الدجاج مقفل، وأبواب البيت مقفلة. لاب الضبع حتى الصباح، ورحل! فهمت ليلى أن وحشا حام حول البيت وأن أمها وأخاها طرداه. سألت ما اسمه؟ ردت منور: ضبع! وأضحكها أن تهز ليلى رأسها وتطلب من معتصم أن يرسمه لها بقطعة فحم على الحائط. فرسم على الأرض بقضيب من الخشب حيوانا ظهره مائل. قالت: بشع! طبعا، بشع،

www.alkottob.com

ياليلى! ويخاف من الضوء!

شوت منور دجاجا ولفته بالخبز التنوري، وقطف معتصم الخيار والبندورة والنعنع من البستان، وقطّعها. قبل أن يتغدوا صفّر القطار وعبر محطة الهامة. خطر لمنور أن بهاء قد يصل بعد قليل. لكنه لم يصل إلا بعد الغداء. سمعوا نقر حدوات الخيل على الطريق، ورأت ليلى بهاء يصعد السلم الحجري إلى البيت فهرعت إليه: بابا، زارنا ضبع! توقف ورفعها بيديه فوق رأسه: زاركم ضبع؟ قدمتم له القهوة؟! عانقها في شوق، وعادت إلى الشرفة على ذراعيه.

سألته منور: لماذا لم تأت بالقطار؟ رد: فوّته! فهمت أنه لم يتغد بعد. لايزال الجمر يتوهج! وضعت الدجاج على الخبز فوق المنقل. هذه السلطة حضّرها معتصم من خضار البستان! وهذا اللّبن من زوجة البستاني! سألها قبل أن يأكل: والضبع؟ آه، وجدت ليلى الوقت لتخبرك عن الضبع؟ الضبع ولا الحيّة، يابهاء!

بدا البيت بعيدا والحيّة بعيدة طوال الغداء! وبدت لبهاء حتى المفاوضات بين الوطنيين والفرنسيين بعيدة! يالقدرة هذه الأشجار والنهر والجبل والسماء على نشر السلام عليه! رأته منور يكاد يغفو، فقالت له: نم، يبدو أنك تعبت في صيد الحيّة! فكاد يسألها أية حيّة؟ لكنه بدأ يغفو وهو يغسل يديه. كأنه لم يذق في حياته نوما عذبا ومريحا كهذا النوم!

انتظرته ليلى حتى شرب فنجان القهوة وأمسكت يده: تعال! خرج معها من البيت مستسلما. ما أحلى الطفل في هذا العمر! ما أحلى ليلى! قادته إلى مملكتها، فتفرج على الأرانب البيضاء ذات العيون الحمراء! وتفرج على منحنى في النهر عليه صخرة فهم أن ليلى تجلس مع الأرنب قربها وتطعمه قشور الخيار! ثم خرج من البستان إلى بستان آخر، دخل من بوابته ذات الأسلاك، وقطعه بين أشجار اللوز والتين والزعبوب والسرو إلى حظيرة واسعة. خمن وهو يمشي معها إلى الحظيرة أنها ستريه الطاووس الذي تلامح له من أول البستان. بابا، شف ما أحلاه! بقي بهاء واقفا ينتظر أن ينشر الطاووس ذيله. تأمل رقبته التي سحرت ليلى. هل لمح هذه الألوان نفسها في رسوم المسجد الأقصى وقبة الصخرة أم في فسيفساء الأموي؟ رأى من طرف عينيه ليلى ثابتة في مكانها، منتظرة، متلهفة. فقال لنفسه سأنتظر معها دهرا! وقدّر له أن يراها وهي تكتم شهقتها، وتفرّج على ذهولها وهي تتابع الطاووس الذي بدأ ينشر ذيله ويتحرك مزهوا! سيذكر حتى موته بريق عيني ليلى في تلك البرهة، وسيخيل إليه في فلسطين أن ألوان الطاووس انعكست في عينيها، وأن ذلك كان أيضا ألوان رسوم المسجد الأقصى وقبة

www.alkottob.com

الصخرة، ألوان السماء بعيد الغروب فوق جبال الجليل وحواكير الجليل، وألوان بحر عكا في الخريف. لكنه لن يجد البرهة التي يكتب فيها كل ذلك، بل سيشير إليه بجملة: رأيت طاووس ليلى! تاركا لمنور ومعتصم استعادة تلك الأيام في قدسيا!

رجع بهاء وقت قررت ليلى له أن يعود، وجلست إلى جانبه وهي تضم أرنبها إلى صدرها! قالت لها منور: لكن أرنبك لن ينام الليلة في البيت، بل مع أهله! لماذا تقسو عليها منور؟ جمعت وسخه في الصباح حبة، حبة، قبل أن تراه منور! استنجدت بأبيها، فضمها إليه. قال: يحب الأرنب ليلى، لكنه يحب أهله أيضا. لا نحرمه من ليلى ولا منهم. أعيديه إليهم في الليل فقط، ياليلى! بابا، سيضيع مني بين أهله إذا تركته! ياليلى، سيعرفك إذا رآك تحملين له خيارة!

قال بهاء لمعتصم عندما خرجت ليلى: أرتني ليلى المكان الذي تجلس فيه قرب النهر. إذا انزلقت قدمها غرقت! ابق معها دائما يامعتصم! ولتنشغل بالأرنب عن النهر! وضع كفه على كتف معتصم كأنه يسأله هل يتحمل مسؤوليته عن حماية ليلى. هز معتصم رأسه. اختارت منور لنفسها الغرفة التي تطل على النهر كي تبعد ليلى عنه، وهاهي ليلى تتسلل إليه!

روى بهاء لمنور أن الفرنسيين يراوغون كلما مست المفاوضة نقل القوات الخاصة إلى الحكومة السورية! لا يكتمل الاستقلال، يامنور، إذا بقي الجيش الذي نظمه كاترو من المتطوعين السوريين خارج السيادة السورية. لبنان متفق في الموقف مع سورية. كفى، يابهاء! لا تريد منور أن تسمع ما يفسد هدوء قدسيا! لماذا نشوه بالهواجس، يابهاء، ما حملته سنة 1944؟ تفرجنا على جنازة الشيخ تاج الذي مات في السنة الماضية، وجروه على عربة مدفع! قلنا، فليقم الفرنسيون عرضا يسلون به الناس، فلن ترفع سمعة الشيخ تاج عربة مدفع! نجحت الكتلة الوطنية في الانتخابات في آب، وانتخب القوتلي رئيس جمهورية، وصارت رئاسة الوزارة لسعد الله الجابري! احتفلنا طوال سنة 1944 بنقل المصالح المشتركة إلى الحكومة السورية، من الجمارك إلى السكك الحديدية. وزرنا محطة الحجاز احتفالا بذلك! ويبدو أن دولا كبرى اعترفت بنا! فلماذا القلق؟ يامنور، يبدو لي أن الفرنسيين يرون القوات الخاصة كمسمار جحا! لذلك يتوجس السياسيون في دمشق وبيروت من الغدر في نهاية الحرب! ألم تقتسم بلاد الشام في نهاية الحرب العامة؟! ليس الانفجار بعيدا! موقف الإنكليز، مراوغ كالعادة! مع ذلك لا يهمل السياسيون الاتصال بهم لأنهم ضمنوا إعلان ديغول يوم دخلوا مع الفرنسيين

www.alkottob.com

كقوات متحالفة إلى سورية ولبنان! على كل حال دخلت العالم قوة جديدة هي أميركا! ودخل الاتحاد السوفييتي كقوة منتصرة! ستخرج من خريطة العالم الامبراطورية الفرنسية. لكن المهزومين، يامنور، قد يكونون أقسى من المنتصرين! وقد ندفع نحن الثمن!

هاهو بهاء ينساق في نبوءاته، كأنه خالد آغا، فتتأمله منور. لو كانت نفيسة هنا لسألتها: ياعمتي، ألا يشبه بهاء الآن خالد آغا؟ ولردت عليها نفيسة: ترين كم أحب بهاء وكم أدلّله! ألم تفهمي بعد أني آنس فيه بطيف خالد آغا؟! ولقالت لها منور مداعبة: فلتتشغلا بالسنة القادمة، وأنا أعيش مع معتصم وليلى أواخر الصيف في قدسيا! أغمضت منور عينيها واستسلمت لنسمة شمت فيها عبق أوراق الجوز!

فسرت منور إهمال بهاء البحث عن الحيّة برغبته في أن يبقيها سعيدة في قدسيا. ثم ردت ذلك التفسير: لا يتحمل البعد عن ليلى! روى لها بهاء في تلك الليلة أنه لو صدّق الناس، لتصور أن في كل بيت من بيوت دمشق حيّة! ربما أراد أصحابي في سوقساروجا أن يهوّنوا علي الأمر. لكنك تعرفين أني أصدق ما يقال! لذلك كدت أصدق أن في ضريح الشيخ عثمان في مدخل الحي ثعبان يظهر كلما اشتهى البيض! وأن حيّة تعيش في سقف بيت علي أفندي في حارة داورآغا منذ ألف سنة، لاتؤذي أحدا لأن أهل البيت يقدمون لها كل أسبوع حمامة! وأن في الفروخشاهية ثعبان يحرس الأمير، أخا صلاح الدين!

طمأن بهاء منور إلى أنه يغلق باب الغرفة والنوافذ وقت النوم. وأنه تبين مع النجار العربي أن السقف سليم. وروى لها أن خبيرا بالحيّات دخل إلى "الطوان" وقال له إن الحفيف الذي سمعته الخانم قد يكون حفيف نمس. ومع ذلك فحص خشب السقف كله، ومشى بين المسامير. ولكي تطمئن منور سينام الرجل معي في البيت، ليقصد الحيّة وقت يسمعها. قد تكون الحيّة، يامنور، ضيفة عبرت سطحنا عبورا! استمتعي بآخر الصيف في قدسيا ريثما نعرف من أين أتت إلينا فنحتاط! وقد نرفع شبكا حول السطح كله!

غفت منور على ذراع بهاء مطمئنة، ونسيت الحيّة والضبع. أفاقت معه في الفجر، ونزلا إلى البستان. زها بهاء بالاختراع الذي أحضره: حلقة معدنية ذات نتوءات خيط في ثقوبها كيس من الخام، تتصل بعصا. رفعها فقطف بها حبة تين عالية، قطف حبة ثانية، وظل ينتقي حبات التين حتى ملأ بها الكيس. اختراع عظيم! لكني يابهاء أحب أن أقطف التين بيدي وألمس ندى الفجر عليه! ترك

www.alkottob.com

بهاء اختراعه وتفرج على منور وهي تقطف التين وتأكله. يبدو يامنور، أن أيام الشباب تعود عندما نسمح لها بأن تعود! وهاهي! رفع كفها ومص عسل التين الذي علق بأصابعها. ضحكت. تبقى، يابهاء، في الشباب لأنك تتفادى اتزان الكهول! لا يخطر لك أن معتصما أو ليلى قد يراقبانك من النافذة! فليراقباني! ليتعلما كم يمكن أن يحب رجل امرأته! فليعرف معتصم وليلى أن الحب قد يحدد ببداية، لكنه يستطيع ألا ينتهي أبدا! نحن، يامنور، الذين قد نشيخ لاهو! وربما نشيخ عندما نخجل به ونتعود أن نخفيه كأنه طيش! يابهاء، يظهر عبد الرحيم الحب لسعاد أمامنا، وكم كرهت أن يربت على قدميها أمامنا! لا أحب أن نكرر ذلك! الحب تعبير عن صاحبه، يامنور! قد يكون رشيقا جميلا، وقد يكون حزينا! عبد الرحيم مسكين! هل تركوا له وقتا يدلل فيه سعاد إلا أمامنا؟ أكثر أيامه في المعتقل!

استسلمت منور مع ولديها للراحة في قدسيا. جلست مع الفلاحة التي تخبز لها الخبز في تنور البستان، قرّصت أرغفة صغيرة لليلى تفرحها بها، طبخت من خضار البستان، قطفت التين والرمان والعنب والزعبوب، وحرصت أن تعرضها في طبق كبير على الطاولة كي تثير شهية ولديها. تفرجت على جيرانها الفلاحين وهم يصنعون الدبس من عصير العنب. وحضّرت مثلهم الملبن بالجوز وعلقته خيوطا على السطح. توقعت بهاء في أيام الجمعة، وبقي بهاء في قدسيا مرات يومين متتاليين. وكان يمون ليلى بعلب الفوسفاتين، ومنور بسكر الحرب الأحمر، فتحمّله أرغفة الخبز التي لا يجد لها مثيلا في دمشق أيام الحرب. لكنها نبهته: عندما تفتح المدارس يجب أن أنزل من قدسيا كيلا يضيع معتصم دروسه. إذا لم تصل إلى يقين في خبر الحيّة سأستأجر بيتا في المهاجرين!

استبعدت منور خطر النهر على ليلى بعد زيارة بهاء أول مرة. من يستطيع أن يحرس ليلى طول النهار؟! مشت معها على ضفة النهر. وقفت في المكان الذي اختارته ليلى، وقصدت أن تجلس هناك. قالت منور: هذا أحلى مكان على ضفة النهر! رمت حصاة ورأتها تغرق. ثم رمت غصن شجرة ورأت الماء يجرفه مسرعا. هل رأيت الورد والمشمش والجوز في الساقية في بيت نفيسة؟ ربما سقطت من هذا البستان، وقطعت البلد حتى وصلت إلى بيت نفيسة، وعبرته إلى بقية المدينة. تجد الثمار من يلتقطها طازجة فيغسلها ويأكلها. أما الإنسان فيغرق ويموت. لم أر أحدا يخرج من الساقية في بيت نفيسة؟! لا يغرق من يعرف السباحة! لكن من يعرف السباحة لا يسبح في نهر يمر تحت الجسور والبيوت!

www.alkottob.com

يسبح في البحر! راقبت منور بطرف عينيها الانتباه على وجه ليلى، ورمت غصنا آخر جرفه الماء بقوة. عندما مشتا في البستان راجعتين توقفت منور قرب بيت الأرانب: خذي أرنبك! برقت عينا ليلى. ستتبين منور دائما كلام ليلى من بريق عينيها. استبقه معك طول النهار، لكن اتركيه عند أهله في الليل! حرام!

لم تقدّر منور أنها ستترك قدسيا قبل أن تفتح المدارس. رجع الضبع في الليل. حاد عن بستان بيت "الأظن" إلى بستان الجيران. ودخل بين الأسلاك إلى حظيرة الطاووس. في الفجر روت الفلاحة لمنور أن ما بقي من الطاووس ريش جميل منثور على الأرض. غضبت منور: لم يستيقظ أحد؟ لم يسمع أحد ضجة؟ لم يسمع أحد نداء الطاووس! لم تأكل منور في الصباح القطع اليابسة "المقمّرة" من رغيف التنور. لم تأكل حبة تين. قالت لمعتصم هامسة: لا تقل لليلى إن الضبع أكل الطاووس! لكنهما سمعا في تلك البرهة بكاء ليلى: ماما، الطاووس! رأت منور دموع ليلى تغسل وجهها، بانت أهدابها الطويلة المبتلة. ارتجفت ليلى ضاربة جنبيها بكفيها: ماما، الطاووس! لم تفهم كيف يمكن أن يموت كائن جميل وملون. وهل تستطيع منور أن تفسر لماذا بقي الضبع البشع، وقتل الطاووس الجميل ولم ينجده أحد من الضبع؟! ضمتها إلى صدرها فشعرت بخفقان قلبها ورعشة جسمها. رددت ليلى والشهقات تقطع كلامها: ماما، الطاووس! لم تذق ليلى لقمة من الطعام طول النهار، ولم تشرب رشفة من كأس الحليب الذي حمله لها معتصم مرات. هزت رأسها ولم تكلم أحدا. أدارت ظهرها لمنور، وأدارت ظهرها لمعتصم وبقيت ترتعد في فراشها طول النهار. ركعت منور قربها: إذا لم تأكلي ياليلى لن يأكل الأرنب! أخفت ليلى وجهها بالوسادة. فشعرت منور بأنها عاجزة، وتمنت أن يأتي بهاء، ونادته بينها وبين نفسها: تعال، يابهاء، أرجوك! يالتلك الليلة! خشيت منور أن يخطر لليلى أن تبحث عن الضبع فأقفلت الباب وخبأت مفتاحه تحت وسادتها. نهضت واقفة عندما خيل لها أن ليلى تفتح النافذة. سمعت قرع قلبها وهي تسرع إلى غرفة ليلى ومعتصم. ولم تصدق أن ليلى نائمة إلا عندما لمست فراشها.

عندما شقشق الفجر تنهدت: أف! انتهى الليل! وبدأت تفتح النوافذ كأنها تريد أن يكنس هواء الفجر أشباح الليل. كانت واثقة من أن بهاء سيأتي مبكرا. همست لنفسها: إذا لم تأت، يابهاء، فمعنى ذلك أنك لاتسمع ندائي! أغمضت عينيها ورجته: تعال، اليوم! اليوم!

ارتعش قلبها عندما صفر القطار. وصل بهاء مبكرا كما توقعته. لم تستقبله

www.alkottob.com

ليلى في أعلى السلم، ولم يخفّ إليه معتصم. وجد منور قرب بوابة البستان. سألها: خير؟ لن تقوده ليلى إلى الطاووس! أكله الضبع! يبدو يامنور، أننا قضينا هذا الصيف بين الحيوانات! وضع ذراعه حول كتفها ومشى معها إلى البيت. وكان يعانق باليد الأخرى دبا كبيرا اشتراه لليلى من مخزن الزين في سوق الحميدية. هل شعرت منور بالأمان لذلك كادت تغفو وهي جالسة في الشرفة تراقب بهاء وهو يحمل على ذراعيه ليلى التي تعانق دبا كبيرا، مخترقا بها البستان إلى المكان الذي كانت تحب أن تجلس فيه على ضفة النهر!

عندما رجعا طلب من معتصم أن يحضّر له فطورا عظيما، لأنه لم يأكل منذ الأمس. وأعلن: وعدت ليلى أن آخذها معي إلى بيروت لترى البحر! وعدتها بأن أعلمها السباحة! هل يجوز، يامنور، أن تعرفي السباحة وألا تعرفها ليلى؟ هذا لا يجوز! أبدا لا يجوز!

www.alkottob.com

لم يظهر أثر للحيّة في بيت منور وبهاء. ومع ذلك اتفق بهاء مع بائع في سوق المناخلية نصب له شريطا كالمنخل حول السطح. وذهب إلى قدسيا بعربة نقلت منور وولديه إلى سوقساروجا. وانشغل بهاء ومعتصم بشراء الدفاتر والأقلام.

لم تعد الشمس تجفف الغسيل بسرعة. تستطيع منور أن تلمس الرطوبة في الشراشف التي نشرتها منذ الصباح. وأن تلاحظ أن الشمس مالت فأصبحت تدخل إلى آخرغرف الفوقاني. أعطت الياسمينة أجمل أزهارها ففاحت في الصباح والمساء، وجمعت منور أزرارها لكنها لم تضمها في أطواق بل وضعتها في صحون تتوسط الطاولات.

لذلك ماطل بهاء في تنفيذ وعده لليلى بالسفر إلى البحر. لم يرم في حياته وعدا يعرف أنه لن يستطيع أن ينفذه. وهاهو يبدو كمن غش ابنته المحبوبة بوعد! استسلمت منور للخريف، ووعدت نفسها بالصيف الثاني الفاتر بين تشرين الأول وتشرين الثاني. وقررت أن تذهب إلى الغوطة لتتفرج على ذهبيات الشام. لكن ليلى حامت حولها منتظرة السفر إلى البحر. فرسمت لها منور باللون الأزرق بحرا تأملته ليلى بانتباه. وفي المساء قالت لمنور: أريد أن أرى البحر!

لامت منور بهاء: كان يجب ألا تعدها بالسفر إلى البحر! يامنور، تمنيت أن ننزل إلى بيروت. بيروت أقرب إلينا من حمص! نأخذ سيارة من سيارات أبي رياح طول النهار، مباشرة إلى البحر، ثم نزور أصحابنا! اشتقت لعارف ابراهيم! لكن معتصما لا يستطيع أن يترك المدرسة. أنت ترتبين البيت للشتاء، وأنا مشغول بالمصائب التي يرتبها لنا الفرنسيون! يابهاء، إذا كنت تنتظر أن تتحرر من مشاغلك فلا تعد ليلى أبدا بشيء! أنت وعدتها بالبحر، واضطررت أنا إلى رسمه! ستظل ليلى تلوب حول الحلم!

لكن ليلى لم تطلب من بهاء أن ينفذ وعده. راقبته صامتة. شعر بأنها

www.alkottob.com

تتجاهله. رأته منور مرتبكا فكتمت ضحكتها. أجلس ليلى على ركبتيه وقال لها: معتصم مشغول، ومنور مشغولة. فلنؤجل سفرنا إلى البحر حتى الصيف! لم ترد ليلى عليه. نهضت عن ركبتيه، أدارت له ظهرها ومشت إلى خصّ النافذة! تفرج على قامتها الصغيرة. قال كل شيء فيها له: لن أصدقك! شعر بشوق محرق إليها. لم تعد تهرع إليه منذ تسمع المفتاح في قفل الباب. لم تعد تركض لتجلس في حضنه كأنه مكانها الطبيعي. وعندما كان يدخل إلى غرفتها ليقبلها قبل أن تغفو لم تعد ترفع ذراعيها لتعانقه، بل صارت تغمض عينيها كأنها نائمة. حرمته من نزهته معها في شارع بغداد، مستعملة الكلمة التي احتفى بها "مابدي"! واكتشف أنه صار معجبا بها!

قالت له منور أخيرا: فلنذهب إلى بيروت يوم الجمعة! سأحضّر فطائر بالجبن واللحم، وسأضع في السلة بندورة وخيارا وفواكه وقنينة من ماء الفيجة. اشتر أنت بسطرما من دكان صديقك الأرمني، ولنحمل لعارف ابراهيم علبة من حلويات الشام!

برقت عينا ليلى. حملت حذاءها الأسود اللميع ووضعته قرب فراشها. ووضعت فوقه جوربها الأبيض القصير. ابتسمت منور، وأبعدت الحذاء عندما غفت ليلى. قالت لبهاء: لا أفهم لماذا اهتمت بالحذاء لا بالثوب! تفرج بهاء على ليلى النائمة. وتمنى أن يلمس أهدابها الطويلة، ووجهها المستسلم للنوم. كم يجب أن تكون الدنيا حلوة، يامنور، كي يعيش فيها الأطفال! استدارت منور كيلا تسأله: كيف خطر لك أنها ستكون حلوة؟

ركبوا إحدى سيارات أبي رياح. اختارت ليلى أن تجلس قرب أبيها. وبدأت رحلة لن ينساها بهاء. راقب ليلى وهي تتفرج على الطريق. هل يكتشف الدنيا بها؟ متى تفقد الأشجار جمالها، والسماء روعتها؟ نضيع ألوانها يوم نتعودها! تصبح الحياة أياما ذات أرقام نسجل أننا قطعناها كالعدائين، لاكإنسان يتذوقها وهو يفهم أنها حياته التي لا يستطيع أن يستعيدها! تفرجت ليلى في دهشة على الجبال الجرداء على طرفي وادي الحرير، وأشارت له بصمت إلى الأشجار التي نبتت وسط الصخور. لم تتكلم، كأنها لاتريد أن تفسد بصوت مهابة ما تراه. وتساءل بهاء هل تحمل الصخور آثار أزمنة، منها زمن ميسلون، كي ترمي هذه المهابة حتى على طفلة؟ عندما أطلت ليلى من ظهر البيدر على سهل متسع وضعت كفها على صدرها، كأنها تكتم شهقتها. مدت رأسها كأنها تريد أن ترى قعر الوديان التي عبرتها السيارة في صوفر. وعندما أشار لها بإصبعه إلى البحر البعيد،

www.alkottob.com

فتحت عينيها وتقدمت بجذعها. هل كان يهديها الفرجة على البحر؟ أم هي التي قدمت له الفرجة على الدنيا؟!

لم يختر بهاء مقهى من المقاهي التي يحبها على البحر، لأنه أراد أن تسرح ليلى أولا. فليكن المقهى فيما بعد! لذلك نفذ رغبة منور فأحضر البسطرما لكنه لم يبال بالزوادة. سيقدم لأسرته سمكا في مطعم الحاج داوود على البحر الذي تعود أن يجلس فيه منذ أيام بيروت! كم يتمنى أن يكون ذلك المقهى مايزال موجودا!

عندما نزلت ليلى في الرملة البيضاء أمام البحر، التصقت ببهاء. ركع وخلع حذاءها وجواربها. أمسكت بيده وتقدما على الرمل. وعندما وصلا إلى حافة الماء تركت يده وركضت على الرمل المبتل صائحة: سما، بحر! وقفت برهة ليبلل ماء البحر قدميها ثم ركضت على طول الشاطئ ناشرة ذراعيها. وركض بهاء وراءها فرحا بها وخائفا عليها! رآها تعود إليه ففتح ذراعيه وتلقاها، ورفعها فوق رأسه ودار بها. انفلتت منه وركضت. هل كانت فرحة بنعومة الرمل تحت قدميها، بماء البحر الذي يمسهما ويرتد، بألوان البحر ومداه؟ في ذلك المساء قالت له وهي تغفو على كتفه في السيارة: البحر واسع، واسع! البحر حلو، حلو!

نبهته منور: الشمس! هل حانت دعوته لهم إلى المقهى؟ رفضت ليلى أن تترك البحر. فقال بهاء: سنعود إلى البحر من مكان آخر! سنسبح! رأى بريق عينيها، وركبوا السيارة!

نشر بهاء ذراعيه لليلى كي تعوم بهما. لم تتردد، مع أن الماء أرعشها. وأدهشه ذلك. وقفت في الماء وشدها من ذراعيها عائما بها. في مستوى وجهها صفحة البحر، والسعة التي تتصل بالأفق. أشار برأسه كي ترى أمها. فرأتها بعيدة كأنها وسط البحر. وكان معتصم يعوم قربهما.

رددت ليلى لبهاء: "كمان، كمان"! ما أصعب أن يسحبها من الماء! تمنى أن يسبح حتى يصل إلى منور، وأن يتوقفا معا بين الماء والسماء. هل تجلسين قليلا مع معتصم؟ رفضت. فانزلق ليسبح بها وضاعت عن نظره منور.

في المقهى شوي لهم السمك، وقدم الطراطور، والكبة اللبنانية النيئة التي يحبها. تحت مظلة من القصب أغمض بهاء عينيه على السعادة. من قال إننا نعرف أنواع السعادة ونحفظها كأنها كتاب ختمناه؟ لا الفرح ولا الشقاء، يابهاء، دروس تحفظ! بل عواطف يمدّها الزمن أو يقلّمها، وقد نفاجأ بها أو نفجع بها!

لمست ليلى ذراعه كأنها توقظه من غفوته: بابا! مدت عنقها تطلب منه أن

www.alkottob.com

يقترب منها، وقبّلته! همست منور: ياليلى، سنجلس معا في الظل كيلا تسلخ الشمس جلودنا فنتألم طول الليل!

صعب على ليلى ألا تنزل إلى البحر! لكنها كانت متعبة، أسندت رأسها إلى كفها على الطاولة! وبقيت عيناها معلقتين بالبحر. وعندما بدأ الغروب فوجئت ليلى بألوان لم تتوقعها فمشت إلى طرف الشرفة كأنها تريد أن تمسك ألوان الشمس والبحر. كان بهاء ومعتصم قد استحما ولبسا ملابسهما ورجعا. فرأى بهاء ليلى ذاهلة على الشرفة. وبقي يراقبها وهو يشرب القهوة. فجأة التفتت ليلى راجعة، عانقت بهاء وبكت بحرقة. ضمها إليه وربّت على ظهرها. في هذا العمر يثير شجنها وداع النهار وبداية العتمة الحزينة؟ ياحبيبتي، ياروحي، سنعود مرات إلى بيروت كي تري البحر! ذات يوم ستسبحين وسط الغروب! ذات يوم ستبقين في البحر ولو بدأت العتمة، وسترين القمر على الموج! لمس شعرها الناعم: كالحرير، مع أن ملح البحر فيه! لم تغسلي شعرك ياليلى، كي تأخذي بعض الملح إلى الشام؟ تفرجي! جمعت لك صدفا جميلا شغلك عنه البحر! حرك جيبه فسمعت ليلى صوت الأصداف. فتحت عينيها المبللتين، ثم فتحت كفيها فوضع بهاء فيهما الأصداف. والآن لنزر أصحابنا ياليلى!

صعد بهاء درجا طويلا من الحجر إلى بيت عارف ابراهيم. انفتح له بيت واسع، وأفرحه أن أثاث البيت لم يتغير. رحبت به زوجة عارف ابراهيم: بهاء بك؟ لا أصدق عيني! كأني في ليلة القدر! كان معتصم قرب أبيه يحمل علب الحلو. يابهاء بك، كيف طاوعك قلبك أن تغيب عنا حتى يكبر ابنك دون أن نراه؟

فحصت ليلى الصالون الواسع الذي يطل على البحر. نظرت إلى المرآة الكبيرة ذات التاج الخشبي المزخرف. وتأملت المرأة الممتلئة التي رحبت بأهلها بلهجة لم تألفها، وانحنت عليها وقبلت خدها. أيقظت الحفاوة في بهاء حماسة لم تعرفها ليلى فيه. وتلامحت لها حياة لم تدر أن أباها عاشها قبلها. وراقبت ذلك في حذر. ابتسم معتصم فخورا بالحب الذي اكتشفه في بيت غريب في بيروت. ليته يأتي مع بهاء إلى بيروت ليقابل الناس الذين عرفهم أبوه، ويزور الأمكنة التي عاش فيها!

كان عارف ابراهيم في الجبل في ذلك اليوم. ولن يعود قبل الليل. في البيت متسع فلتبقوا هنا! سنسهر معا. لا تستطيعون أن تبقوا أياما، كيلا يضيّع معتصم مدرسته؟ فلتسافروا إذن غدا باكرا!

في صعوبة تخلص بهاء ومنور من دعوة زوجة عارف ابراهيم. يجب أن

www.alkottob.com

يتركوا بيروت فالعتمة تنزل مبكرة في تشرين، والطريق الذي يتعرج في الجبال خطر في الليل. لا يطمئن بهاء، بل يقلقه، أن السائق قال له: أستطيع أن أقود السيارة مغمض العينين!

غفت ليلى مستندة إلى بهاء من أول الطريق. شعر بدفئها على جنبه وانساب فيه حنان عليها ورضا على نفسه لأنه أعطاها هذا اليوم. كان يمكن أن يفوّت على نفسه هذه السعادة لينشغل بأحداث لن يغير حضوره أو غيابه مسارها. انتشر في السيارة صمت انصرف فيه كل منهم إلى نفسه. راقب بهاء الأنوار البعيدة في بيوت الجبل المتناثرة، وأنوار بيروت التي تتجمع حول عتمة البحر. سيتحادث مع السائق همسا كيلا تفيق ليلى، وسيحملها عندما تصل السيارة إلى سوقساروجا على ذراعيه إلى فراشها. سيخلع حذاءها الأسود اللميع وجوربها الأبيض، وسيمد ذراعها المسترخية على السرير.

كان راغبا في النوم لكنه جلس إلى منور، وأكل آخر بطيخ في السنة، وربما آخر دراق. كل سنة وأنت سالمة، يامنور! ولنعد إلى بيروت في الربيع!

www.alkottob.com

يعود في الربيع؟ صرفه ربيع سنة 1945 في اتجاه آخر. وجعله يقول لمنور: لن نؤجل إلى الغد أبدا ما يمكن أن نعمله اليوم! لو لم نسافر إلى بيروت في السنة الماضية لبقيت مذنبا أمام ليلى! يبدو أننا لا نحكم حتى يوم الغد!

ماطل المندوب السامي بينيه في تسليم القوات الخاصة إلى الحكومة السورية رغم تسليم المصالح المشتركة المهمة لها. ووصلت قوات فرنسية عسكرية إلى بيروت. فأعلن جميل مردم في مذكرة في السادس من أيار: "هذا العمل يمس استقلال سورية. الاستقلال الذي اعترفت به مختلف دول العالم. فالحرب توشك أن تنتهي وليس ثمة عذر يفسر نقل الجيوش في هذه الآونة التي تبذل فيها الحكومة السورية غاية جهدها بغية تصفية المشاكل المعلقة بين فرنسا وسورية". هاج الشارع، وبحث البارلمان الأزمة، وأكد جميل مردم أن القوات الخاصة جيش سوري بضباطه وأفراده "ولا يجوز أن يظل أبناؤنا في خدمة أية دولة أجنبية". كانت سورية قد أعلنت في السادس والعشرين من شباط سنة 1945 الحرب على دول المحور ليكون لها الحق في عضوية الأمم المتحدة التي ستشكل من الحلفاء! وكانت إحدى سبع دول عربية وقعت على ميثاق جامعة الدول العربية في الثاني والعشرين من آذار سنة 1945. وكانت قد اعترفت باستقلال سورية تسع دول منها أمريكا والاتحاد السوفييتي والصين وإنكلترا، في سنة 944! فهل يطوي الفرنسيون ذلك كله؟

تذكر بهاء بهجته يوم وصلته بطاقة من جميل مردم وزير الخارجية: "إلى حفل الاستقبال الذي يقام تكريما لسفير الاتحاد السوفييتي بمناسبة إقامة العلاقات الديبلوماسية بين الجمهورية السورية وبين الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية". كان ذلك يوم الرابع والعشرين من تموز سنة 1944. بعد أربع وعشرين سنة من دخول غورو إلى دمشق! بعد أربع وعشرين سنة وأربعة أيام من مقتل خالد آغا! عرف يومذاك أن جميل مردم أرسل نعيم أنطاكي في منتصف حزيران إلى مصر سرا

www.alkottob.com

ليطلب من السفير السوفييتي نوفيكوف في مصر تبادل العلاقات مع سورية. وأن السفير أتى معه بالسيارة سرا إلى دمشق، وأنزل في فندق أمية ثم في فندق بلودان، واحتفى به القوتلي رغم مرضه. بقي ذلك سرا على فرنسا حتى انتهى ترتيب العلاقات بينهما. وروى بهاء لمنور في اعتداد أن حكومة لبنان اطلعت على تلك الصلات منذ البداية، وأن سليم تقلا حضر الاحتفال ودعا السفير السوفييتي إلى لبنان لإعلان علاقات مماثلة بين الاتحاد السوفييتي وحكومة لبنان المستقل. أكد السوريون واللبنانيون أن العلاقات تتضمن إلغاء الامتيازات القيصرية، وفهم السوفييت توجسهم بعد خبرتهم الطويلة في غدر الفرنسيين والإنكليز. طمأنوهم بأن الاتحاد السوفييتي يعتمد احترام حقوقهم الوطنية! فهل كان بهاء يتصور أنه سيرى في ذلك الاحتفال اوليفا روجيه؟

بدا لمنور أن بهاء يكبح في صعوبة غضبه. كانت أصوات الرصاص تصل إليها في سوقساروجا، فظنت أن الاشتباك بدأ بين الفرنسيين والسوريين. قال بهاء: يحتفل الفرنسيون بالانتصار في الحرب! يطلقون الرصاص في الشوارع ويحشدون أعلامهم كأنهم ليسوا في بلد يجب أن يحترموا استقلاله!

في تلك الليلة دوت انفجارات لم يستطع بهاء ومنور من السطح أن يتبينا مكانها. لكنهما قدرا أنها قريبة. في الصباح عرف بهاء أن متفجرات وضعت في البارلمان. فقال لمنور: ينسفون رموز استقلالنا. استعدي، الاشتباك قريب! معتصم يفهم ذلك، فاهتمي بليلى!

أنزلت منور إلى الصاليا الوسائد والشراشف وقررت: سنقيم في التحتاني! لن يصعد غيري إلى الفوقاني إذا لزمنا شيء! مفهوم؟ كم تمنت ليلى أن تتناول الدبّ الذي حمله لها بهاء إلى قدسيا، لكن منور لم تفهم كم ذلك مهم وضروري!

أتى بهاء بأخبار جديدة: التقى بينيه بالقوتلي ومردم. تطلب فرنسا قواعد عسكرية في لبنان وسورية. وتطلب أن تكون لها قيادة القوات الخاصة. رفضت الحكومة السورية والحكومة اللبنانية طلبها، فهذا يعني الاحتلال. اجتمع وزيرا الخارجية اللبناني والسوري، وردا على مذكرة الخارجية الفرنسية بطلب جلاء الجيوش الفرنسية من لبنان وسورية وتسليم القوات الخاصة. يجتمع ممثلو الحكومتين الآن بممثلي بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفييتي والصين ليفسروا ماحدث.

تسربت للحكومة السورية تعليمات اوليفا روجيه إلى جيشه: "سنصفي الحساب بضربة واحدة"، فنشرتها. ودعا البارلمان المواطنين السوريين المسلحين

www.alkottob.com

ليكونوا حرسا أهليا يدافع عن الوطن! انتقلت منور إلى التحتاني في الوقت المناسب!

وصلت أخبار عن الاشتباكات في المدن السورية. حرر الضباط والمتطوعون السوريون في القوات الخاصة المواقع والثكنات! وكأنما اهتز البيت فصعد بهاء قفزا إلى السطح. قال: يقصف الفرنسيون قلعة دمشق من قلعة المزة! بدا لمنور أن القنابل تسقط قرب البيت! فقالت لبهاء: يجب أن نخرج الولدين كيلا يموتا تحت الأنقاض! استبقاها: دمشق كلها تحت القنابل، والطريق أكثر خطرا من البيت! وهمس لها: لا تقلقي علي! يجب أن ألتحق بالدرك!

اختفى بهاء في برهة. وبدا لمنور أن القصف اشتد بعد غيابه، فاضطرت إلى الصعود إلى السطح لتعرف مكان القصف. رأت حرائق كبرى في دمشق. لكن بدا لها أن القصف آت من جهة البارلمان. فقالت لمعتصم: يضربون البارلمان! تذكر يامعتصم هذا اليوم، الثلاثاء التاسع والعشرين من أيار!

كان الفرنسيون قد نشروا الجنود السنغال أمام مواقعهم. فتوقع النواب الهجوم على البارلمان وألغوا اجتماعهم في ذلك اليوم. لكن الحكومة كانت في السرايا. فسمعت القنابل والرصاص. ونقل إليها خبر الهجوم على المجلس. قصفت قلعة المزة الدرك السوري في قلعة دمشق. ونزل الرصاص حول السرايا من الثكنة العسكرية في شارع النصر، ومن سطح بناء العباسية. فكيف ستنجو الحكومة؟! قال بهاء في قلعة دمشق: الهدف ضرب الحكومة والمجلس والدرك! مؤسسات الدولة! هذه معركة نفرض فيها استقلالنا! لكنه لم يدر هل كان يسعف الجرحى أم كان يصوب بندقيته إلى الثكنة القريبة في شارع النصر!

بدت ليلى قلقة فلم تأكل لكنها شربت كأسا من اللبن. ولم تلح منور عليها فالهم أكبر من الأكل. طلبت من منور عندما همّت بأن تصعد إلى السطح: خذيني معك! فحدقت فيها منور وقررت: تعالا معي! نصعد بسرعة وننزل بسرعة! رأت ليلى الدخان والنار. هل سيبقى في ذاكرتها عجز المدنيين الذين ينتظرون أن يكونوا ضحية، ولذلك ستختار مصيرا آخر في حرب أخرى؟!

نقل خبر إلى الحكومة: اتركوا السراي فورا! فتسلل الوزراء منها إلى البحصة وعبروها إلى بيت خالد العظم في سوقساروجا. في اليوم التالي قصف حي سوقساروجا واشتعلت النار في بيوته قرب بوابة الصالحية. فعبر الوزراء حي السمانة إلى القابون ثم الصالحية فبيت القوتلي.

كأنما هبّت عاصفة ملأت بيت منور بالغبار ورائحة الحريق، فأمسكت

www.alkottob.com

بولديها وركضت إلى الباب. وجدت أمامها أبا رياح: منور خانم، لا تخافي! ضربوا بعض بيوت سوقساروجا القريبة من ثكنة الصالحية. يحاول الناس أن يطفئوا الحريق. أتيت لأنقلكم إلى المهاجرين! لكن أظن أن الحي لن يضرب بعد خروج الحكومة من بيت العظم! هل صحت منور من صدمة الضرب القريب؟ قالت له: سأبقى في البيت! دهش: مكرم خانم قررت مثلك أن تبقى! كأنك اتفقت معها! على كل حال أنا هنا في الحارة!

أخرج القنصل السوفييتي سعد الله الجابري رئيس مجلس النواب من فندق الاوريان بالاس. لكن الطبيب مسلم البارودي قتل قرب محطة الحجاز، مقابل الفندق، وهو يسعف الجرحى. أرادت نفيسة أن تصل إلى مستشفى الغرباء، فلم تستطع الخروج من سوقساروجا. ففتحت بيتها للجرحى، وساعدها أبو رياح وصاحب مقهى سوقساروجا وشباب الحيّ. لم تغمض لها عين من يوم الثلاثاء حتى يوم الجمعة، ولم تعرف كيف استطاعت أن تبقى واقفة على قدميها. مزقت بعض الشراشف واستعملتها ضمادات، وغسلت مرجانة ملابس ملونة بالدماء.

كان القوتلي قد اجتمع بالوزير البريطاني المفوض شون، ورفض اقتراح شون عليه بأن يخرج معه إلى عمان، وطلب تدخل بريطانيا. بقي القوتلي في بيته رغم مرضه. وصلت إليه الحكومة التي تركت بيت العظم وعبرت السمّانة ثم القابون والصالحية. وطلبت تدخل الدول. كان سعد الله الجابري رئيس مجلس النواب الذي خرج من فندق الشرق مع المفوض السوفييتي قد وصل بسيارة المفوض إلى بيروت، وسافر منها إلى مصر، وكشف العدوان على دمشق، وطلب مساعدة حكومة النحاس باشا. وكان وفد حكومي قد وصل إلى عمان وطلب المساعدة. سمعت منور من الراديو الخشبي الكبير في صدر الصاليا، من محطة لندن، إنذار تشرتشل إلى ديغول. ورأى بهاء في يوم الجمعة القوات العسكرية الفرنسية تنسحب من الشوارع، والمصفحات الإنكليزية تسير في الشوارع.

لم تجسر ليلى أن تسأل عن بهاء. لكنها ركضت إليه عندما سمعت المفتاح في الباب، وشعر وهي تعانقه بسرعة دقات قلبها. لم تفلت يده. وانتظرته عندما دخل إلى الحمام، وبقيت قربه كأنها تخاف أن يهرب منها. كان منهكا، ولمحت منور على ثيابه أثر الدم، فسألته هامسة: مجروح؟ رفع حاجبيه. نام نوما عميقا دون أن يأكل، ونامت ليلى قربه. في منتصف الليل حمل ليلى إلى فراشها وفسر لمنور ما حدث: أرسلت إنكلترا وأمريكا برقيات إلى ديغول، واتصل ديغول بعسكره هنا. ستخرج فرنسا من سورية! ننتظر منذ الآن الجلاء! أما القوات الخاصة

www.alkottob.com

فتهرب الآن متسللة من الثكنات وتضع نفسها في خدمة الحكومة. ستحل المشكلة بهذه الطريقة! احتل الضباط السوريون الثكنات في السويداء ودير الزور وحماة وحلب.

مشت منور مع ليلى ومعتصم إلى البارلمان. كانت جموع الناس تمشي في الاتجاه نفسه. رأت فوهة كبيرة في الواجهة الحجرية البيضاء المؤطرة بخط وردي وأسود. دخلت مع الناس من الباب الحديدي إلى الحديقة الشمالية. على الجدار قرب الباب مساحة واسعة مصبوغة بالدم! ياقلبي، هذا دم الحرس! رأت الأثاث ممزقا! تبعت ليلى نظرات منور. هذا إذن ما حدث وقت الضرب! بقيت ليلى ممسكة بيد أمها. قالت منور: قتل حراس البارلمان لأنهم رفضوا أن ينزلوا علمنا ويرفعوا علم المحتلين! لم يخونوا بلدهم!

ستتأمل ليلى علم بلدها يوم تراه في عيد الجلاء. لأجل هذا العلم إذن قتل حراس البارلمان؟ ستفرح بالقميص الذي خاطته لها منور لتحتفل به في يوم الجلاء: قميص أبيض أزراره ثلاث نجمات حمراء. لكنها ستقول عندما تكبر: لايجوز أن يكون العلم إلا على سارية البلد!

شكت منور فيما بعد من أسر الأولاد في تلك الأيام. فواستها نفيسة: فليسترح ضميرك! أسعفت الجرحى عني وعنك! نقلت بعضهم من الشارع إلى بيتي. ومرجانة لم تقصر أبدا! ياعمتي، هل قدر على السوريين أن يكون شهر أيار سنة 1945 كشهر أيار في العراق سنة 1941؟ آه، ماذا تعدّين من المصائب في شهر أيار، يامنور؟ اسألي عمتك نفيسة!

www.alkottob.com

خلال الحرب، تفقدت سعاد غرفة المؤونة كمن يطمئن على ثروة. فحصت أكياس الرز والسكر المصفوفة على قاعدة خشبية، وتنكات زيت الزيتون والسمن. وقالت للشابة التي ساعدتها: نظفنا الغرفة. بقي أن نحمي المؤونة من الفأر! حياتنا في هذه الغرفة!

لم يهتم عبد الرحيم بعد عودته من العراق بأن يطل على الغرفة التي صار اسمها غرفة المؤونة. وعندما قالت سعاد إن الغرفة في الواقع مستودع سيحمي أسرتها من الحرب، اقترح عليها: وزّعي ما لديك على المحتاجين! آه، كم يجهل هذا الرجل بيته! كيف يخطط حياة بلاد وهو لا يبالي بما تحتاجه أسرته؟! ردت عليه في حزم: لم أقصّر في مساعدة، لكني أعرف أننا لا نملك مال قارون!

نسي عبد الرحيم غرفة المؤونة، فقالت سعاد ساخرة: ياخالتي شفيقة، نسي عبد نفسه وأولاده وهو يتابع أخبار الحرب! سأنزل إلى بيسمون لأتابع أخبار السمسم! لو لم يسمح له الإنكليز ببعض أيام من الحرية لما كان لدينا أولاد! ولدت التوأمين وربيناهما خلال غيابه في العراق! ذكّرتها شفيقة: خالك قدري، الله يرحمه، لم يكن أقل شغلا من عبد الرحيم. الفرق بينهما أن الطرب والسهرات والنزهات كانت في أيامه جزءا من الشغل، وأن المعتقل في أيام عبد الرحيم جزء من الشغل! تنهدت سعاد: عندي الآن صبيان وبنت. لن أتركهما لرحمة المحسنين! لايكاد عبد الرحيم يعرف كيف كبروا. لو أخطأ في اسم أحدهم لما عجبت! ياسعاد، يحتاج الرجل الذي يحمل همّ البلاد امرأة تسنده! نحمل الأسرة والبيت عن رجالنا. من يمدّ السفرة للضيوف؟ من يخيط في ملاءته رسائل الثوار؟ من يخفي المسدسات تحت ثيابه؟ النساء، نحن! ليس ذنب رجالنا أنهم لا يعرفون كيف يكبر أولادهم وكيف يبيض شعر نسائهم! هذا ذنب اليهود والإنكليز!

تركت سعاد بيتها وأولادها أمانة عند شفيقة ونزلت إلى بيسمون. في الطريق كانت غاضبة: لم ينقصني إلا حساب السمسم! وزاد ضيقها الحر في وسط

www.alkottob.com

النهار. لكن استقبال الفلاحين هدأها. حضّرت لها الفلاحات دجاجا بالبرغل، وسقينها لبنا بالثوم، واستراحت عندهن في الظل بعد جولتها في أراضي عبد الرحيم. تفرجت على السمسم، وقدّره ابن ميخائيل حبايب، صديق أبيها، الذي سبقها إلى بيسمون. لو كانت سعاد كبيرة يوم كان أبوها يحسب مع ميخائيل حبايب مواسم السمسم والزيت، لكسبت خبرة تحتاجها الآن! لذلك يجب أن يرافقها زياد في المرة القادمة. مع أنها قررت لزياد، بينها وبين نفسها، أن يدرس الطب ويعيش به بعيدا عن وجع القلب!

نصحها ابن ميخائيل حبايب بالدقة في حسابها مع الفلاحين. فرفعت كفها قليلا: الله يعين الفلاحين! ضربتهم الثورة وضرائب الإنكليز! ياست سعاد، لكن هذا شغل! ردت: يكفيني ربع السمسم! لن أطلب منك أن ترضي التجار! أترك لك الاتفاق معهم! ياست سعاد، لن تغيري سعر السمسم! يقرره التجار والحرب! قالت له: اترك لي الفلاحين، وأترك لك ماعداهم! بقي عندي موسم التمر. انتقى أبي أنواعا فاخرة من النخيل! تنهد ابن ميخائيل حبايب: لولا الحرب، لوضعت ذلك التمر الفاخر في علب من الخشب وصدّرته إلى تركيا! مع ذلك سأجد طريقة مناسبة لأوزعه! أتذكر التمر الذي كان يرسله أبوك إلى أبي في كل موسم! يكاد يشفّ عن بذرته النحيلة! قالت: سنزور أراضي أمي في عرعرة إذن، في الأسبوع القادم!

رجعت سعاد إلى عكا. كم تختلف عودتها في المساء الفاتر عن سفرها في الصباح! تشعر بأنها خفيفة. أنزلت حملا عن كتفها. أهكذا تهبنا الأعمال التي ننجزها، الشعور بقوتنا، وتطلعنا على مهارات نجهلها في أنفسنا! قبل أن تقرر الزواج من عبد الرحيم شعرت بمثل الوهن الذي شعرت به في هذا الصباح! وقبل أن تزور عبد الرحيم في المعتقل أول مرة شعرت بثقل على قلبها! وقبل أن تقرر أن يكون لها ولد ثان، شعرت بثقل على روحها! وهاهي قد أنجزت كل ذلك. ومع ذلك ماتزال الحيرة قبل أي قرار تمسك بها، لكنها لا تظهر ذلك في ملامحها أو حركتها. فهل كانت شفيقة فقط تلمح قلقها فتقول لها: لا تتركي شيئا في قلبك! امشي ولو في البيت لترمي مافي روحك! فترد سعاد: بالعكس، ياخالتي! من يعبّر عن اضطرابه يزد فيه!

بقيت في القلب الجراح! دعس الإنكليز الثورة! أعدموا قوادها أو قتلوهم. سلم إنكليز الأردن أبا درة إلى إنكليز فلسطين فأعدموه! كان خلف التل، الضابط الأردني الذي ساعد الثوار، يومذاك في السجن. قتل الصهيونيون حتى فؤاد المفرج

www.alkottob.com

في الولايات المتحدة حيث كان يجمع تبرعات من المغتربين للثورة! أخمدت ثورة رشيد عالي الكيلاني التي حلمنا بأن تسند فلسطين! وطارد الإنكليز الحاج أمين الحسيني فرحل من لبنان إلى العراق إلى ايران إلى برلين. كأنهم كانوا يسقطون كل بلد يلجأ إليه. فهل سيجد الحاج أمين في ألمانيا قوة تسند العرب؟!

ما أطول الطريق التي عاد بها الفلسطينيون الذين دافعوا مع عبد القادر الحسيني عن حكومة رشيد عالي الكيلاني! نفي بعضهم مع عبد القادر الحسيني إلى زاخو في الشمال، ثم اعتقلوا في بغداد. ونفي بعضهم إلى روديسيا. واعتقل الفرنسيون الفلسطينيين الذين لجؤوا إلى سوريا وسلموهم للإنكليز، فوصلوا إلى معتقل المزرعة! واعتقل مثلهم عبد الرحيم. لكن الإنكليز أعلنوا أخيرا العفو العام عن الثوار! يريدون بلادا هادئة خلال الحرب! لكن ماذا ينسي العرب وحشية الإنكليز؟

استعادت سعاد وعبد الرحيم أيام الثورة. وفكرا في الحرب الثقيلة. من سيربحها، ومن سيخسرها؟ نحن، ياسعاد، سنخسر فيها مهما كانت نتائجها! ربحنا شيئا واحدا فقط، ياعبد! كان طريقك من بغداد إلى فلسطين أقصر الطرقات وأسلمها! وربحنا طفلين، عائشة ومصطفى، ولدا في غيابك!

خلطت سعاد العدس والرز بالملح كي تحميهما من السوس. وتفقدت تنكات السمن والزيت. لم يؤثر التقنين عليها! أهدت السكر والرز والسمن لأصحابها. ووصل إليها الصابون من نابلس، من مصابن النابلسي! لكن التعتيم في الحرب أزعجها! دهنت زجاج النوافذ باللون الأزرق وأسدلت الستائر. كرهت الطرقات: كأن بلادنا ليست لنا! عسكر هنود، اوستراليون، نيوزيلانديون وإنكليز. لكني لا أفهم، ياعبد، كيف يتطوع فلسطيني في الجيش البريطاني ليساق إلى شمال إفريقية! من الفقر، ياسعاد! دمّرهم الإنكليز قبل الثورة وفي سنوات الثورة! ما أصعب أن يحارب إنسان في جيش عدوه! لكن لليهود مشروعهم! طلبوا فيلقا يهوديا ليغنّوا موّالهم! يدربهم الفيلق على السلاح، ويجهز لهم جيش المستقبل! سيخزنون الأسلحة باسمه في مخابئ أمينة! ستعدّهم هذه الحرب للهجوم علينا! تأملته سعاد. أي فلسطيني، ولو لم يكن موهوبا بالنبوءة، يفهم أن الفيلق اليهودي يعدّ اليهود كي يستكملوا بعد الحرب تأسيس دولتهم! لذلك تردد المندوب السامي ماكمايكل في تلبية طلبهم كيلا يثير العرب!

سيعرف عبد الرحيم اليقين في آخر سنوات الحرب! قبل تشرتشل تأسيس ذلك الفيلق! سيكون تدريبه في اوروبا! وسيهرّب هذا الفيلق السلاح إلى فلسطين، ولن

www.alkottob.com

يجسر "الحلفاء" أن يوقفوه وإلا اتهموا بأنهم ضد اليهود! سيكون وايزمن وشرتوك طوال الحرب قرب صياغ القرار بين "الحلفاء"، وسيفاوضون أيخمن النازي لينقلوا إلى فلسطين الشباب اليهود، وسيسامح وايزمن النازيين بمن بقي لأنهم كالغبار يجب أن يتبدد! خلال ذلك سيستمع العرب، ومنهم سعاد، إلى يونس بحري من محطة برلين!

انشغلت شفيقة بأولاد سعاد. يحتاج الأولاد صبر شفيقة وبالها الطويل، وحنانها الهادئ! يستمتعون بانصرافها إليهم، لا يشاطرهم فيها أحد! أكانت سعاد تستطيع أن تجلس إلى طفلة وطفل، عمر كل منهما سنتان لتطعمهما بالملعقة وتحادثهما كأنها إنسان في عمرهما؟! ترك عبد الرحيم أولاده لسعاد، وتركتهم سعاد لشفيقة!

لمحت سعاد خيال زياد قرب الباب. خير؟ لا، لن أسمح لك بالاستماع إلى الراديو! وفر على نفسك هذه الهموم! لامتها شفيقة. كأنك لم تجرّبه إلى المعتقلات لزيارة أبيه! لا تريد سعاد أن تضيع موعد إذاعة برلين. ياخالتي، سنحكي عن هذا فيما بعد!

وضعت الراديو في أبعد مكان عن الطريق، ومع ذلك خفضت صوته. يعدنا يونس بحري بالاستقلال ويحتفل بانتصارات ألمانيا! يرطب قلوبنا المقهورة من الإنكليز. ولكن من يصدق أن الألمان سيسندون العرب؟ لنستمتع، فقط، بهزيمة الإنكليز! شلحونا الأراضي المشاع وأعطوها للمستوطنين الغرباء، فهل نلام إذا احتفلنا بهزيمتهم؟! في مصر وسورية يشمت الناس بهم! لكن إذا انتصر الألمان لن نكون في خير!

حارت سعاد عندما أوصل لها عبد الرحيم خبرين متناقضين: نزل في البلاد فلسطينيون درّبهم الألمان! وتتفق ألمانيا مع الصهيونيين على ترحيل اليهود إلى فلسطين وتجهز الشباب منهم للاستيطان! قالت: خبران يكمل أحدهما الآخر! يظهران مراوغة الألمان. يشبهون اليهود! صحيح ياسعاد! تذكّر عبد الرحيم باخرة باتريا التي وصلت إلى حيفا سنة 1940 ومنع الإنكليز نزول المهاجرين منها التزاما بالكتاب الأبيض. فنسف الصهيونيون الباخرة واتهموا الإنكليز بذلك. قتلوا عددا من المهاجرين ليأتوا بعدد أكبر منهم! وفي سنة 1942 أغرق الصهيونيون الباخرة مستروما في البحر الأسود واتهموا بريطانيا بأنها تمنع إنقاذ اليهود، فضمنوا استمرار الهجرة. سباق في التدجيل!

قالت شفيقة لعبد الرحيم ساخرة: لكن فلسطين انتعشت، بناء مطارات

www.alkottob.com

ومعسكرات، تربية خنازير، تهريب..! رد عبد الرحيم: هذا ليس انتعاشا، ياست شفيقة! هذه خدمات تتصل بالجيش في الحرب، إذا راح راحت! وقفت سوق التجارة والتصدير! سألته سعاد: ماذا سنفعل بعد الحرب؟ صمت. قالت: يتدرب الصهيونيون عند الإنكليز حتى على الطيران!

همست شفيقة: زياد عاتب. لم يعد طفلا! قومي صالحيه! ما أبعد سعاد عن ذلك الآن! ليتها كانت رجلا يترك أولاده لامرأته الحنون!

دخل عبد الرحيم إلى مكتبه. وتصفح معلومات وصلته. يستكمل بها صورة وايزمن الذي قال لفيصل إنه يريد لليهود ملجأ فقط، ولايريد تأسيس دولة! وقال إن العرب لن يطردوا من أراضيهم بل سيرتقون بالأموال التي ستتدفق على فلسطين!

قرأ عبد الرحيم الأوراق المطبوعة بالفرنسية. ولد وايزمن في روسيا. خرج منها كبحار إلى ألمانيا. درس في دارمشتات ثم انتقل إلى سويسرا. وصل إلى مانشستر ليساهم في مصير الدولة العثمانية! انزلق عبد الرحيم على رغوة الدعاية الصهيونية: اكتشاف وايزمن الأستون من تخمر نشاء الذرة، فتح علمي قدمه للحكومة البريطانية فأفادت منه في الحرب وكافأته بوعد بلفور! كيف يهمل عقلاء غربيون الخيوط المتنوعة التي نسجت وعد بلفور؟! تصفح عبد الرحيم الأوراق، ثم عاد إلى الفقرة التي وقف عندها ورسم خطا تحتها. يقدمون وايزمن بين اليهود كصهيوني له الفضل في صياغة مشروع دولة! ويقدمونه للعلماء الغربيين كرجل غير متدين! "كان وايزمن نادرا مايذكر الاله، مع أنه كان مغرما بالاستشهاد بالأنبياء. لذلك تكون لدي الانطباع بأنه كان لاأدريا، يعتقد فقط بيهودية دنيوية باعتبارها رابطة ثقافية تجمع يهود العالم في أمة واحدة". ترك عبد الرحيم الأوراق: لو أستطيع أن أرى ذلك الكاتب لأسأله أين ستكون تلك الأمة؟! في أية بلاد، على أرض أي شعب؟! وكيف تجمع بالدين ويكون ذلك دنيوية؟ هدّأ عبد الرحيم نفسه وقرأ: "إن وايزمن في تشوقه لايقاظ الوعي القومي في يهود العالم قاطبة، وليحافظ على الثقافة والإرث اليهوديين في دولة يهودية ذات سيادة، لم يكن يتساهل مع اولئك الذين أصبحوا مندمجين في البلاد التي يعيشون فيها". قال عبد الرحيم كأنه يخاطب الكاتب: يارجل، ألا تفهم أن وايزمن يريد من اليهود أن يخونوا البلاد الغربية التي عاشوا فيها؟!

برغم خبرة عبد الرحيم في تناقضات الإنكليز، ظل تناقضهم يدهشه! يتمسكون بشاي بعد الظهر، وبالتقاليد الإنكليزية، لكنهم يمارسون مراوغة تافهة! "لم يحدد وعد بلفور امتداد الوطن القومي لليهود، بل تركه مفتوحا. لكن وايزمن

www.alkottob.com

كان يأمل بأن يتضمن مساحة أكبر من دولة إسرائيلية في فلسطين. كانت ولاية فلسطين التركية تتضمن الضفتين الشرقية والغربية، فطلب وايزمن في مؤتمر السلام في فرساي سنة 1919 أن تكون جميع الأراضي الواقعة غرب الخط الحديدي الحجازي، التي تمتد من العقبة جنوبا إلى عمان إلى دمشق ضمن الوطن القومي.. مطالبة وايزمن بكامل فلسطين معقولة أكثر من مطالبة فرنسا بسورية ولبنان".

أذهلت عبد الرحيم المهارة في الغش! المهارة في تنظيم الجمل في رشاقة تشوش القارئ الذي لا يعرف الحقائق، وتبقيه في مستوى التهذيب الذي يستر الظلم! كيف يستطيع عبد الرحيم أن يفهم اولئك الغربيين أن البلاد التي قيل إنها ولاية تركية بقيت أرضا عربية فيها بشر هو منهم، لهم أفراحهم ومواسمهم وعواطفهم وثقافتهم وعاداتهم؟! وأنها لهم وطن وليست استثمارات وتربة؟! كيف يفهمهم أن الزخارف والأضرحة والمساجد والكنائس ومخططات المدن نفسه إشارات إلى ثقافة وحضارة؟ من بنى عكا ويافا ونابلس وطبرية وحيفا وصفد والقدس، واستمر فيها؟ العرب! لا يتصفح هؤلاء الاوربيون المثقفون التاريخ ليتبينوا شعبا مستمرا، مستقرا؟!

لم يفتتح وايزمن الجامعة العبرية في سنة 1925 كمؤسسة علمية لأهل فلسطين كما ادعى، بل لتجذب "كل ماهو مشرف في اليهودية عبر العالم". وضع عبد الرحيم إصبعه على النقطة التي يلتقي فيها الإنكليز والصهيونيون: استعمار بلاد غريبة، والتعالي على شعبها ليبرروا استعمارهم! معهد وايزمن للعلوم وتخنيون حيفا "مخفر متقدم عظيم للعلم والتعلم"! يكرر كلام هرتزل عن الدولة التي أغرى بها الغربيين كمركز للحضارة ضد التوحش!

رأت سعاد عبد الرحيم يلوب في الغرفة. لم يرطب قلبه أن يقرأ في أوراق أخرى: كان وايزمن مستعدا لإخفاء الحقائق والعمل سرا، كان يسخّر أشخاصا في غايات محدودة ويتخلى عنهم عندما تنتهي حاجته إليهم! قالت سعاد لعبد الرحيم: "ياشاري الهم من قلب صاحبه"! لماذا تقرأ هذه الأوراق قبل النوم؟!

لم يخطر لعبد الرحيم أبدا أنه هو وأولاده سيبقون مجهولين في اوروبا! مع أنه لم يتوقع أن يعرفه الاوروبيون كما يعرفهم! سيذهله أن تصوّت الدول الشرقية والغربية على قرار التقسيم الذي يهب مستوطنين غرباء المدن العربية، والساحل، وأكثر الأرض الزراعية، ويترك للفلسطينيين، أصحاب البلاد، جزءا صغيرا ستحتله إسرائيل! سيسمي تلك الدول دولا عظمى مستعمرة، ولن يستثني منها الاتحاد

www.alkottob.com

السوفييتي إلا فيما بعد. فالأسلحة التي سيحاربه بها الصهيونيون الغرباء تشيكية، والاشتراكيون الصهيونيون سيحاربون العرب ويرحّلون المدنيين بسلاح اشتراكي وغربي! وسيكتشف أبناء عبد الرحيم أن الغرب منحاز للصهيونيين حتى بعد كشف المذابح التي رتبوها واحدة بعد أخرى للمدنيين العرب! وسيقول عبد الرحيم لسعاد قبيل موته: لن نحرر بلادنا إلا يوم تتحرر أمريكا واوروبا من الصهيونية! وسترد عليه في قوة: لن ننتظر ذلك، ياعبد الرحيم! تذكّر، لايموت حق وراءه مطالب!

لكن عبد الرحيم استقبل بوينا في بيته يوم خرج من المعتقل. أتى بوينا قبل المهنئين وانصرف قبل أن يصلوا! بعد هذه السنوات، يابوينا؟ يحمل له بوينا الابن سلاما من بوينا الأب. يتذكر ياعمي، أنك أنقذته في صفد أيام حوادث حائط المبكى! أطرق عبد الرحيم: حوادث البراق! يوم جمع جابوتنسكي عراضته المسلحة، وأتى اليهود بأبواقهم وملابسهم وأدواتهم إلى حائط البراق! وانتقلت الأحداث إلى صفد كما انتقلت إلى أنحاء فلسطين! نعم، حمى عبد الرحيم بوينا الأب وابنه يومذاك لأنهم من هذه البلاد!

حدق عبد الرحيم في عيني بوينا. لم يستطع أن يقرأ إخلاصا ولاأن يقرأ خيانة! ليته يعرف مافي قلب بوينا! قال له بوينا: ياعمي، أكلنا معكم الخبز والملح! أنتم أقرب إلينا من الروس والبولونيين والمجريين الذين لانعرف لغاتهم وعاداتهم! يابوينا، عشتم في أمان حتى بدأ الاستيطان والهجرة! كررنا ألف مرة أن لكم مالنا وعليكم ماعلينا! لكننا لا نوافق أن نكون في بلادنا أقلية ويأخذها الغرباء!

استمعت سعاد إلى حوارهما وفحصت، هي أيضا، بوينا. سألته عن أمه. كبرت، ياست سعاد! لم تعد تداوي المرضى! انصرف بوينا ليصل إلى صفد مبكرا، كما قال. مارأيك فيه، ياسعاد؟ يعلم الله مافي القلوب، ياعبد. قد يكون مثل زوجة الحاخام التي صاحبت الست شفيقة في طبرية وتبادلت معها الطعام في الأعياد، وبقيت تؤكد للست شفيقة أن أول الدنيا يهودية وآخرها يهودية! لكن متى كرهنا يهوديا لأنه من غير ديننا؟ كرهنا من خان الخبز والملح!

لم تكتشف سعاد إلا في آخر أيامها في فلسطين، من هو بوينا!

www.alkottob.com

خيل لسعاد أن زوار عبد الرحيم كثروا في الحرب. قالت له: أظن ياعبد الرحيم، أن غيابك في العراق يجذب إليك أصحاب الشكاوى. كأنك حررته وعدت لتحرر فلسطين. وكأن الإنكليز لم يستقبلوك بالمعتقل! تفضل، أتى إليك فلاحون من صفورية يطلبون أن تساعدهم!

جلس الرجال الخمسة مقابل عبد الرحيم. يلبسون كوفيات وقنابيز نظيفة. لم يتكلموا معا لكن أحدهم كان يكمل كلام الآخر. أدهشه هو العائد من العراق بعد فشل ثورة الكيلاني، أن زواره قدّموا لشكواهم باعتدادهم بأمجاد بلدهم! لم تهزم الروح إذن! ومايزالون يتمردون، ويطلبون العدل! قالوا له: وقت أعدم الإنكليز جمجوم وعطا والزير ماجت صفورية. فطوقوها ثلاثة أيام، ومنعونا من بيادرنا! واختاروا منا رجالا سجنوهم. وتعرف بقية ماجرى في أيام الثورة! منذ ثلاثة أيام بلغونا عن طريق المختار أسماء من يجب أن يشتغل عند الإنكليز بالسخرة. قال عبد الله داوود الموعد لن أذهب، وسأخرج إلى البيادر. ظهر غيابه من الأوراق التي سجلوا فيها الأسماء. فأتوا في الصباح إلى البلد في مصفحة. كانت زوجته تغسل، والماء يغلي على النار، والغسيل في اللجن. رموا الغسيل على الأرض. وسكبوا الماء المغلي على النار. كسروا خوابي المؤونة. خلطوا الزيت بالبرغل والطحين، والسمن بالعدس والحمص. كسروا الأبواب. ثم أحرقوا البيت، على عادتهم في أيام الثورة!

بلّغنا المختار أنهم يعتبرون من يرفض العمل في تعبيد الطرقات والمطارات مؤيدا لألمانيا. قلنا له، لا، يعاقبوننا لأن صفورية آوت السعدي وابراهيم محمد موسى وأحمد التوبة الذين اشتركوا في الثورة! قال عبد الرحيم: يأخذون البلاد اليوم مرة بالقسوة ومرة باللين!

طلب الرجال من عبد الرحيم أن يرفع ماحدث إلى حاكم اللواء والقضاة والمحاكم. عبد الرحيم لهم المحامي الذي يلبس بذلة ويستطيع أن يهدر في

www.alkottob.com

المحاكم رافعا قبضته! السياسي الذي يستطيع أن يصل إلى حكومة الانتداب، ويستطيع أن يتصل بزعماء وطنيين ويرفع معهم قضية!

كلما أتى رجل مظلوم إلى عبد الرحيم ترك له همّه وحمّله واجب الدفاع عنه. فليته يستطيع أن يعترف بالحقيقة: ياإخواني، ياقلبي، عطل الإنكليز استجارة رجل بآخر، وضعيف بقوي! رموا صفات الشهامة والفروسية التي نزهو بها كما ترمى ورقة! يثير سخريته دائما أن يلجأ إليه أشخاص ليدافع عنهم، ويكون قد خرج من المعتقل منذ أيام! لكنه لايقبل سقوط العواطف والعادات، ولو جعل الشكوى قضية سياسية ومدنية. سيستعين بأصحابه! سيطلب التعويض للرجل كأن الانتقام ليس سياسة وأمرا لمن ينفذه، وكأنه ليس تأديبا لمن يتمرد!

كيف يجمع عبد الرحيم أجزاء نفسه؟ تلك التي تستمع في هدوء وتبحث عن الحل. وتلك التي تتمنى أن تقلب الأرض على الإنكليز. وتلك التي تفحص في اتزان الممكن والمستحيل! سيترك هؤلاء الرجال الذين أتوا من بلد عرف أهله بشجاعتهم، مسألة تتحدى مهارته كسياسي وسمعته التي تجعله كوليّ: "روحوا لعند عبد الرحيم"! كم لديه كل يوم من هذه القضايا التي تحرق أصحابها، وتتجمع كلها عنده فترسم له الشدّة التي قررها الانتداب. فهل يستطيع بعد فشل ثورة فلسطين وثورة العراق، ألاّ يشعر بالهمّ؟ ألذلك صار يتفادى العمل في المساء كي يترك فاصلا بين القضايا وبين بيته؟ لكن الرجل الذي لايصبر حتى الصباح يقصده في بيته. ومن تطول طريقه من قريته إلى عكا يصل إلى عبد الرحيم في الفجر. فلاتعرف سعاد من يطرق الباب، الإنكليز الذين يريدون أن يعتقلوه، أم أهل بلده الذين يشكون إليه الإنكليز واليهود! تستقبل زواره وتستمع إليهم لتقدّر هل يجب أن توقظه أم يستطيعون أن ينتظروا حتى يفيق. تمد لهم أحيانا فراشا كي يناموا. تفحص صدقهم معتمدة على حدسها وبصيرتها، متحملة مسؤولية الوقوف بين الحياة والموت. ألم يكن الذين أتوا إلى أنور شقير، وطلبوه ليداوي ثوارا، هم الذين اغتالوه؟ الفروسية سمة أزمنة أخرى يواجه الخصم فيها خصمه صراحة! لاتتميز أيامنا بها! أليست العقوبة التي ينزلها الإنكليز بقرية استقبلت ثائرا، دعوة إلى إلغاء الصفات التي تعيش من أزمنة غابرة، وتدمير ماأنضجه التجمع البشري من طباع راقية! تقول سعاد للطارق الذي لاتعرفه: عبد الرحيم غير موجود، فماذا أنقل له؟ تسأله عما يريد وتفحصه خلال جوابه. وتقرر عندئذ أن تدعوه ليدخل أو أن تصرفه. امتحانها الثاني وهو جالس أمامها في غرفة الضيوف، وهي لاتزال تدعي أن عبد الرحيم غير موجود. قالت سلفتها خضرا يوم نقل إليها ذلك: صارت الست

www.alkottob.com

سعاد محامية، ماشاء الله! فردت سعاد لمن أوصل لها كلام خضرا: من جاور القوم أربعين يوما صار منهم! لكنها لم تبح بأن استجوابها الزوار خوف على زوجها. من يسلم ذلك السرّ لامرأة مثل خضرا!

خلال ذلك اكتشفت أن بين احترام المرأة والاستخفاف بها حدّ شفاف كورقة السيجارة! يفهمها الذين تستقبلهم أول مرة أنها رسولة فقط. ثم ينتبهون إلى أسئلتها، ويخمنون أنها الطريق إلى من يقصدونه. وعندما تتقصى مصيبتهم وهم جالسون أمامها يبهرهم ذكاؤها كما يبهرهم بياضها. من ينكر سلطة الجمال وسلطة المدينة! بعد ذلك ينادونها "الست سعاد" ويقسمون خلال كلامهم بها. وتكون اجتازت العتبة بين المرأة التي يجب أن يتقدمها الرجل في الطريق، وبين الأم التي تقرر للرجل من يتزوج وماذا ينفق. تكون قد أصبحت "الست سعاد" التي يحملون لها سلة من التين الفاخر، أو سلة من التوت المنتقى باليد، أو سلة من البيض، أو دجاجة. أو يشكون لها: ياست سعاد، الإنكليز دهاة. اشتغلت عاملا بأجر. خرجت معهم في شاحنة إلى حيفا لنأتي برمل. رأيت ضابطا يتكلم العربية فقلت له إن الشاويش يعاملنا بقسوة، فاستبدلوه بآخر. في يوم يقصدون إذلال الفلاحين بالسخرة ويفرضون عليهم العمل في الطرقات والمطارات. وفي يوم آخر يهمهم أن يمشي العمل.

عندما ترجح سعاد الشفقة على الشك، معتمدة على الثقة بحدسها، وتمد للزوار الفراش، تحتاط فتقفل الباب الذي يوصل إلى غرفتها. وتنام مع ذلك بعين واحدة. يلومها عبد الرحيم على مبالغتها في الحذر. فتسأله: هل يسعدني ذلك؟ وتتذكر مقتل أنور، إحدى كوارثها. وتذكر أخرى: هل عرف حتى اليوم من قتل رافع الفاهوم، الوجيه الغني الذي ساعد الثوار بالمال! في الزمن الذي لايستطيع من يحمل السلاح أن يعلن عن نفسه، يمكن أن يهدر الدم ظلما أو خطأ! قتل الناس بالشبهة يسهّل للإنكليز أن يقتلوا الوطنيين! قالت سعاد: يقتل الإنكليز القتيل ويمشون في جنازته. لكن الخطأ محرّم على الثوار! وسيفاجئ سعاد أن يكرر الناس في بلاد الشام جملتها نفسها.

وصلت الطائرات الألمانية إلى حيفا وضربت المصفاة. استمعت سعاد إلى إذاعة يونس بحري "حي العرب". من يعرف أن أيخمن اتصل بالصهيونيين وفاوضهم على نقل الشباب اليهود إلى فلسطين؟! أطفأت الراديو: يقطعهم كلهم! فخار يكسر بعضه! كتب علينا أن نستنجد بغرباء ليردوا عنا غرباء؟! وقالت لبنات العكي: يقطع الإنكليز، ماعدنا نفكر إلا فيهم! نسينا حديقة البلدية،

www.alkottob.com

والحرش، والسهر ليلة البدر، والزيارات! في زمن تركيا كنا نخرج إلى الكرم، ونسافر إلى الشام، نزور الأموي وسوق الحميدية، ونستمتع بالكنافة والبقلاوة. اختنقنا! لنأخذ طعامنا ونذهب إلى حديقة البلدية! لن نضيع انتصار العرب على الإنكليز إذا ذهبنا!

هل تبحث سعاد عن مجد الإنسان، حيث رتب حديقة جميلة، وزرع شجرا صار وارفا، وتستطيع الشعور بالانتصار وهي تروي لصديقاتها قصصا ونكات تضحكهن! تبدد عن نفسها وعنهن الشعور بالعجز والمهانة. في الدنيا غير القلق والعجز!

هل خطر لها أن الرجل الذي شكا لزوجها حرق بيته، سيلجأ إلى الرمان مع أسرته لينجو من الطائرة الإسرائيلية التي قصفت صفورية، وأصابت ابنه الرضيع في حضن أمه بشظايا بقيت في فكه وهم يحملونه إلى لبنان ثم دمشق! وسينسف اليهود بيته ومدينته كلها وقت الاحتلال سنة 1948؟

سألت بنات العكي سعاد: مابك؟ لم نرك تضحكين مثل هذا الضحك من قبل! استلقت سعاد على الشرشف الأبيض الممدود تحت شجرة الخرنوب الكثيفة وملأت وجهها بفيئها. خيل إليها أنها لم تشعر بسعة الحياة كما شعرت بها في تلك البرهة. سعيدة؟ ردت دون أن تبعد عينيها عن خضرة الشجرة: نعم، نعم! وتنفست في عمق كأنها تتنفس كل ماحولها وتدخله إلى ثنيات روحها وجسمها قبل كارثة كبيرة.

www.alkottob.com

لم يستقبل عبد الرحيم أصحاب الشكاوى فقط. بدا له أن الحرب تسهل تدريب المستوطنين في مجموعات عسكرية. فهل يستطيع العرب أن يحتاطوا من الخطر؟

رأت سعاد أمامها شابا يختلف عن زوار عبد الرحيم وموكليه. فهمست: ياعبد، تعال! قال ناصر لعبد الرحيم: ياعمي، ألم تعرفني؟ كيف لم أعرفك ياإبني! ماشاء الله! كبرت في غفلة عنا! ياعمي، تخرجت من المعهد العالي للرياضة في القاهرة! بارك الله! أتيت في وقتك!

سلم لناصر الكشاف في عكا. هو المؤهل لذلك! ألا ترى اليهود يدربون أطفالهم على الرياضة؟ كم مرة وقفت الباصات في عكا مقابل بيت عبد الرحيم، نزل منها أطفال يهود يلبسون الكحلي والأبيض مع مدربيهم، وقاموا في الطريق بحركات رياضية! أمس توقف باص نزل منه شباب يهود مقابل بيتي تماما، لعبوا ساعة وأنشدوا بالعبرية ثم رحلوا! كأنهم يستطلعون المكان الذي سيحتلونه!

نظّم ناصر الشباب في فرق كشفية يشرف عليها مجلس عكا. وانتقى مجموعة سماها سرية عمر بن الخطاب. تخرج بالباصات التي تصل عكا بقراها، وتعبر في الدبوية مدرسة الأحداث النموذجية، والمطار الذي أنشأه الإنكليز، وتمشي مسافة إلى مخابئ السلاح، وتتدرب عليه. السلاح بنادق قديمة اشتراها العرب من لبنان! يحلمون بسلاح جديد! من أين؟ هل تستطيع البلاد العربية التي أنهكها الانتداب أن تساعدهم؟ لن يصل السلاح الجديد أبدا! وسيضطرون إلى سرقته من معسكرات الجيش الإنكليزي! قال عبد الرحيم لناصر: وصل السلاح إلى اليهود باسم معامل استوردوها، ووصل تحت الاسمنت والسكر! لليهود معامل أسلحة تحت الأرض وفوقها في مستعمراتهم. لديهم مطارات. ينتظرون إعلان دولتهم في بلادنا! فهل نيأس، ياإبني، أم نقاوم استيطان أراضينا ومدننا؟! كم تشبه الرسالة التي وصلتني من تشرتشل، رسائل مكماهون للشريف حسين، ياابني!

www.alkottob.com

مايزال ناصر يتذكر أنور شقير. فهل كان يتصور أن أجمل أيام عمره هي الأيام التي عرفه فيها خلال الثورة؟ كان يبتكر فيها أساليب اللقاء بأنور في الليل، فيرسل له مرة سلة تين ألصق على ورقة في أسفلها رمزا. ويرسل إليه مرة فلاحة تهجم لتقبل يده فتضع فيها ورقة. كان ينتظره ويمشي معه إلى مكان ينتظرهما فيه حماران مربوطان إلى شجرة ورجل متستر بالظلمة. قال أنور لناصر مرة: نحتاج الزمن كي يفهم قادة الثورة أن المعارك التفصيلية يجب أن تكون في سياق وطني، لكننا لانملك الزمن! يوم يكتشفون ذلك تكون الثورة خمدت!

يضع الرجال في أيام الثورات أقنعة قاسية، معتمدين عظمة الأسرار التي يخفونها. وربما وضع ناصر مثلها. همس مرة لعبد الرحيم الذي سأله متى نفرح بك: ياعمي، لن أتزوج! تزوجت الوطن! لم تخف عليه نظرة عبد الرحيم: ياإبني، من سنورث إذن حب مدينتنا؟! هل سيعرفنا أصحابنا أكثر مما يعرفنا أبناؤنا؟ اسمع ياناصر، المرأة التي نحبها قد تقوي حبنا لبلدنا وقد تنخره. فاعرف من تختار كيلا نخسرك. لكن فكر بأن تحب امرأة! هل بدأ قربه من عبد الرحيم منذ ذلك اليوم؟

قال لعبد الرحيم يوم اغتيل حسن الدجاني في يافا: يبدو أنهم سيصيدون أبناء العائلات المشتركين في الثورة، ليسلخوا عائلاتهم عن الفلاحين! مارأيك ياعمي عبد الرحيم؟! للصغائر دور في هدم القضايا الكبرى، ياابني. قد تهدف الصغائر إلى كسر شخصيات نقية وصافية وحساسة. أو قد تستبعدها. لاتستخفّ أبدا بالصغائر ونبّه إلى دورها! لاتترك الصغار يرتفعون إلى مراكز يحكمون منها مصير مجموعة! نعم، قال أحد قادة الثورة عندما ذكر الدجاني أمامه: الله يصلحه! فأية أذن التقطت ذلك لتتهم الثورة بتصفيته؟ راقب فمك، ياابني!

عندما اغتيل أنور، هرع ناصر إلى عبد الرحيم باكيا: هذا رصاص مسدد إلى الثورة! أنت تعرفه، ياناصر، منذ أشهر! نحن نعرفه منذ أقمنا في عكا! فماذا نقول! يوسخ الإنكليز الثورة ويفتتونها! يقال إن يوسف عنقا، الضابط في الشرطة، هو الذي قتله أمام كازينو البحر. معنى ذلك أن الإنكليز قتلوه. وإذا كان المجهولان اللذان ادعيا أنهما يريدان أن يسعف ثوارا جرحى، فمعنى ذلك أيضا أن الإنكليز قتلوه!

قرر ناصر يومذاك أن يخطط لعملية ينتقم بها لأنور. وقال لمن انتخبهم لها: هذه العملية على شرف أنور! كم أبعدته الأحداث إذن عن عمليته الأولى التي تحدث عنها عبد الرحيم لسعاد وهو يكتم ضحكته. يومذاك عرف ناصر أن

www.alkottob.com

عاهرات من حيفا وصلن إلى عكا. فجمع الشباب: من يشتاق إلى امرأة يقصد حيفا، وليتحمل المشقة! لن نسمح بأن تكون في مدينتنا عاهرات! سنجمعهن الليلة ونخيّرهن بين الزواج أو الرحيل! سنجد من "يستر عليهن". نجحت عمليته فعدن إلى حيفا! استمع إليه عبد الرحيم يومذاك حتى انتهى من رواية انتصاره. سأله: وجدت عند تلك المسكينات أسلحة؟ دهش: لا! إذن لماذا تسميها عملية؟! بدأ كثيرون قبلك في الدنيا في إصلاح المجتمع من هناك ثم وجدوا طريقهم الأخرى! لكن قل لي هل وجدت من يستر عليهن؟

اختار ناصر من سريته أفضل الشباب وهاجم بهم مركز الشرطة في عكا، قرب مدرسة الفرقة. لكن يوسف عنقا لم يكن هناك! لذلك أعلن للمجموعة: إلى عملية أخرى نصيده فيها!

قطع عبد الرحيم مشروعه! قال له: عرفك شرطي، وسيحكم عليك بالإعدام. فخذ الطريق إلى بيروت حالا!

وهاهو ناصر في سنة 1941. قال عبد الرحيم لسعاد: احزري من الشاب الذي استقبلته! ناصر! أكنا، ياسعاد، نستطيع أن ننسج حياتنا لولا هؤلاء الناس؟ هم أحيانا مكوكنا وأحيانا خيطاننا! نظن ياسعاد أن أسرتنا هي عائلتنا التي قدر لنا أن نعيش معها. لكننا أحيانا لانتذكر إلا من عشنا معهم في أيام محدودة! ونفهم أننا لايمكن أن ننساها وأنها هي التي وهبت المعنى والدفء لما دونها.

www.alkottob.com

لم تكف منور عدة ورقات لوصف الاحتفالات بالجلاء. تخيلي ياسعاد، مدينة زينها الناس! أخرج كل بيت أثمن سجادة لديه وعلقها على الباب، وزينه بأقواس من أغصان الكينا. وصل الناس من المدن السورية كلها إلى دمشق ليتفرجوا على العرض العسكري في شارع بيروت. وضعوا زهرا على صدر حديقة المنشية في مكان خصوا به الشهيد المجهول. في الملعب البلدي تفرجنا على ألعاب الخيل التي أداها الفرسان الشركس. وقفوا وقفزوا وتنقلوا على ظهور الخيل وتحت بطنها وهي تعدو. وفي الليل قدم الكشاف مسرحية على جبل قاسيون. جلس الناس على الصخور وتفرجوا على الممثلين الذين أدّوها في ساحة عبدوها في الأسفل كمنصة مسرح. مشى الكشاف بالمشاعل في الشوارع. رجعنا إلى بيوتنا لننام والناس مايزالون في الطرقات! ماأحلى الفرح الذي يشترك فيه شعب! تشعرين بأن يوم الجلاء عيد وطن!

لم تذكر منور لأختها دموعها في صباح الجلاء. حملت قبل أن تطلع الشمس الآس إلى قبر سعيد في الدحداح. فوجدت نفيسة قد سبقتها إلى زيارة القبر. أخفت كل منهما حزنها على الشهداء، وهاهما تكتشفان أنهما لم تنسيا ولن تنسيا ثمن الجلاء. لم تسلّم منور على نفيسة، كأنهما كانت معا! هزت رأسها وبدأت تصفّ أغصان الآس فوق القبر الذي زينته نفيسة قبلها بالآس وبأغصان بنفشا بيضاء وصفراء. زهر نيسان!

قالت سعاد وهي تقرأ الرسالة على عبد الرحيم: الجلاء عن سورية ولبنان يقوّينا، ياعبد، مع أن سورية بعد الانتداب ضعيفة ولبنان مثلها. لكن ماأبعدنا عن الاحتفالات! قولي ياسعاد، الله يجيرنا من الأعظم! التفتت إليه: هل يوجد أعظم مما نحن فيه، ياعبد الرحيم؟ هز رأسه. كان يتصور اشتباكات بين العرب والمستوطنين، لكنه لم يتصور أنه سيهجّر من بيته ومدينته وبلاده!

عندما كان الناس منصرفين إلى الاحتفال بالجلاء كان بهاء يجلس إلى

www.alkottob.com

مكتبه. فليحتفل الناس بالجلاء، فالأفراح ضرورة للروح! لكن بهاء قلق على فلسطين. تأمل الخريطة المطبوعة باللغة الفرنسية. لم تبق كما كانت! استقلت سورية ولبنان. لكنهما بلدان دون جيش. فهل وضع الإنكليز فقط أساس القاعدة الصهيونية في فلسطين؟! سيجلو الإنكليز عنها ويسلمونها للمستوطنين! فماالعمل وقتذاك؟ سنتطوع للدفاع عنها. ولكن بأي سلاح نواجه عصابات يهودية علفتها وسمنتها دولة عظمى؟ وهل يسمح لنا العالم بالدفاع عن فلسطين؟

اجتمع مجلس الجامعة العربية في بلودان سنة 1946 ورد على اللجنة الإنكليزية الأمريكية التي تدرس مشكلة يهود اوروبا وفلسطين. رأى أن تشكيل اللجنة لامبرر له، فمصير فلسطين يجب أن يقرره أهلها الشرعيون. وأن الدولة المنتدبة هي المسؤولة عن الظلم الذي نزل بأهل فلسطين. أما القلاقل في فلسطين وفي الشرق العربي فسببها من يؤيد تقرير هذه اللجنة ويعمل على تنفيذه. ولذلك لابد من "ايقاف الهجرة وإقصاء كل المهاجرين". ورأت الجامعة العربية، في حزيران سنة 1946، أن التحقيق أظهر أن "الصهيونية قد شكلت جيوشا مسلحة في فلسطين وأن بريطانيا لم تستطع حتى الآن أن تحل هذه الجيوش". وأن التحقيق يبين "اضطرار الشعوب العربية للدفاع عن نفسها ومقاومة القوة بالقوة. ولاتستطيع حكومات الجامعة العربية أن تمنع هذه الشعوب عن أن تأخذ عدتها للدفاع الشرعي عن نفسها". وترى أن توصية اللجنة الإنكليزية الأمريكية بتسهيل بيع أراضي العرب إلى الصهيونيين في فلسطين وتسهيل إدخال مهاجرين صهيونيين إلى فلسطين، يقضي على الكيان العربي. لذلك ترى الجامعة العربية أن بيع العقار وتهريب اليهود سيعتبر جرما جنائيا.

هاهي الولايات المتحدة، القوة الجديدة التي دخلت إلى العالم بعد الحرب، تؤدي علنا أول أدوارها المسرحية! تتناول من الإنكليز أمام المتفرجين رعاية الصهيونية في فلسطين! أما القوة الجديدة الأخرى، الاتحاد السوفييتي، فتقف فوق خرائب بلادها. لايفكر أحد من اولئك في أن المستوطنين غرباء عن الأرض العربية كلها! لايفكر أحد في مشروعهم العنصري! لايبحث أحد في جرائمهم طوال أيام الانتداب! بل يبدو للشرق والغرب، معا، أن تقسيم فلسطين حل إنساني! لمن نقول إن المستوطنين الذين ادعوا أنهم يريدون مأوى يستمتعون بقتل الفلسطينيين ويرتكبون في فلسطين جرائم أكثر فظاعة مما ارتكبه النازيون؟!

لم تتأخر المصائب التي توقعها عبد الرحيم. فجلاء الإنكليز عن فلسطين كان يعني أن الانتداب أنجز وعد بلفور: أهّل المستوطنين الغرباء، بالسلاح

www.alkottob.com

وتنظيم فرق الليل الخاصة وبالهجرة اليهودية، ليؤسسوا في فلسطين وطنا صهيونيا. سيسلمها لهم، ويترك لهم أن يقرروا مصير العرب فيها!

كانت عائشة ابنة سعاد في الصف الأول في مدرسة عكا للبنات. لبست مريولها المكوي ومشت مع سلوى ابنة فرجيني، إلى مدرستها قرب سور عكا، إلى جانب جامع الجزار. مشتا من بيتيهما خارج عكا القديمة، وماأحلى الطريق إلى المدرسة. تقف عائشة برهة قرب سبيل الطاسات، تعبر الجامع، تصل إلى زقاق خلف الجامع. مقابلها السجن. بعد السجن نزلة تحت قوس السيباط. تصل إلى الزاوية الشاذلية وحارة المجادلة وأول بيت سكنته سعاد في عكا قرب الزاوية الشاذلية.

تلبس عائشة ملابس المدرسة، بلوزة زرقاء مقلمة بالأبيض، عليها قبة من البيكيه البيضاء، وتنورة كحلية، وجوارب بيضاء، وحذاء أسود. ستدرس في هذه المدرسة حتى الصف السابع، فإذا كانت متفوقة سترسل بمنحة لتدرس في القدس. وإذا لم تفز بمنحة سيرسلها أهلها إلى مدرسة "فريندز" للبنات في رام الله أو إلى "هاي سكول" في حيفا، عند مس نيوتون التي درّست خالتها منور وأمها سعاد.

صعدت عائشة درجات إلى باب المدرسة الكبير. كانت مس نصار، مديرة المدرسة، تقرع الجرس، فاصطفت مع زميلاتها وصعدت معهن الدرج إلى الصفوف. وعبرت الممر الطويل إلى صفها. ستبقى حتى الظهر في المدرسة! ثم ستذهب لتتغدى في البيت وتعود إلى المدرسة بعد الغداء. وستختار الطريق الأطول إلى البيت كأنها في نزهة. لن تمر في الطريق القصير الذي يعبر الكراجات، بل ستمشي في الطريق الآخر الطويل الممتع، لتلامس بيت السعدي الجميل، ثم بيت ليون، الصيدلي اليوناني، وبيت عباس أفندي، البهائي الذي تذكره أمها أحيانا في حديثها. في عودتها إلى البيت ستتوقف مقابل بيت شقير، وأرض فيها بئر كان يستخرج منها الماء، وبيت شبل، ثم بيت الكنفاني الذي قصفه الطليان، وستتفرج على الحفرة الباقية منذ أيام القصف. في طريقها من المدرسة إلى البيت تحب أن تعبر الخندق الذي يحيط بسور عكا، فالشجر فيه كالغابة، وبه تختصر هذا الجزء من الطريق إلى عكا الجديدة. هل تعرف أن شوماخر الألماني الذي سكن في الكرمل في حيفا هو الذي نظم هذه المربعات لتشيد فيها البيوت التي يسكن أهلها في أحدها؟!

بعد هذه الفرصة بين الدروس، درس مدام بولاتينو، التدبير المنزلي. لن تصعد عائشة الدرج إلى الصف بل ستمشي إلى غرفة واسعة في طرف الباحة،

www.alkottob.com

فيها طاولات من الخشب، وأباريق من الشينكو، وأطباق. هناك تعلّم مدام بولاتينو الفتيات خياطة قمصان النوم، وتطريز "عش البلبل"، والترتيب: عيب أن تعقدن البروتيل إذا انقطع! خيطوه! تعلّمهن كيف يحضّرن كاتو، ويحضّرن العصير والبسكويت، وكيف يصبغن الشراشف والملابس البيضاء بالنيلة بمقدار يجعل اللون ناصعا دون أن يوغل في الزرقة. درس التدبير المنزلي الذي تحبه عائشة، مرتان في الأسبوع فقط! قليل!

لكن ماذا يجري؟ نظر التلميذات معلق على نافذة السجن! يهرب منها السجناء! على السور شرطيان لايستطيعان أن يريا ماتراه التلميذات! خرجت مس نصار وقرعت الجرس لتدفع التلميذات إلى الصف. يسّرت للسجناء أن يكملوا هربهم دون من ينبه إليهم. فعبروا من دورات المياه في مدرستها إلى عكا القديمة. بعد زمن دوى الرصاص.

لم تسلك عائشة الطريق الطويل إلى البيت. لديها خبر؟ سبقتها الأخبار! سمعت سعاد تقول: وصل المعتقلون الذين هربوا من القلعة إلى ترشيحا!

منذ قرار التقسيم انقطع الماضي عن الحاضر. سيأخذ المستوطنون الغرباء أكثر من نصف بلادنا! سيأخذون مدننا العربية! ماذا لهم في عكا وفي صفد؟! كيف لايفهم هذه الحقيقة البسيطة اولئك الغرباء الذين صوتوا على التقسيم؟! يعوضون اليهود الاوروبيين عن ظلم أنزلهم به اوروبيون؟ نحن ماذنبنا؟ فليعطوهم مقاطعة في ألمانيا أو ولاية في أمريكا! خرجت مدرسة البنات، كالمدارس العربية في فلسطين والبلاد العربية، في مظاهرات. وأنشدت عائشة مع التلميذات: آه فلسطين بلادي، عبثت فيك الأعادي.. وبكين. غنين نشيدا آخر: في شموس السعد ياشيخ الحرم، أنت تاج الشرق للعرب علم، أنت نور العلم...

سألت عائشة أمها: ستبدأ الحرب بين العرب واليهود؟ قبيل التقسيم وقف باص نزل منه كشاف يهود في عمرها تقريبا. يلبسون "نيكرز" كحليا وبلوزة بيضاء. نزلوا في الشارع العام. تفرجت عائشة عليهم وهم يمارسون التمارين الرياضية. صرخت كالأولاد العرب: يهودي يابن الكلب، شو جابك ع بلاد العرب. لم يجبهم الكشاف اليهود ولم يلتفتوا إليهم. ركبوا الباص ورحلوا. قالت لها سعاد: يدرسون المدينة ياحبيبتي، وأنتم تعوون! لكن هل كانت سعاد تخمّن أن البائع الذي يحمل لجيرانها الملابس القطنية يتجسس على بيوت المدينة؟

في نيسان دوى الرصاص فقرعت مس نصار الجرس: اذهبن إلى بيوتكن! ماالخبر الذي همس به رجل لمس نصار؟ ستصل التلميذات اللواتي يسكن في

www.alkottob.com

عكا القديمة في أمان. لكن كيف تصل عائشة إلى بيتها في عكا الجديدة؟ عبرت جامع الجزار إلى موقف الباصات. سمعت الرصاص فركعت قرب باص. ستبكي؟ عيب! رأت من تحت الباص حنطورا نادتها منه نساء: عائشة! تعالي، اركضي! ركضت إليهم. بقيت في بيت صديقات أمها حتى هدأ "الطخ". وعندما أوصلوها إلى البيت كانت سعاد تفور، بين ماجرى قرب بيتها وبين قلقها على عائشة التي لم تعد بعد من المدرسة.

هل قررت المصفحة اليهودية أن تتوقف قرب بيت سعاد؟ أم أوقفها العرب؟ سمعت سعاد صوت الرصاص فأطلت من النافذة. ورأت المصفحة التي كانت في طريقها من حيفا إلى نهاريا مارة بشارع بيروت، واقفة. والعرب يرمونها بالرصاص من الحدائق التي تمترسوا فيها. توقف عبد الرحيم على بعد من بيته محتميا بجدار. خفض رأسه وركض إلى خلف البيت. لمحته سعاد يتحدث في الحديقة مع مسلحين. هل تستطيع من بعد أن تخمّن مايقول لهم، هل تستطيع أن تصرخ، انتبهوا؟! ماأصعب أن تكون متفرجة على صراع لاتستطيع أن تساهم فيه فتتقاسم الخطر والرد عليه! رأت المصفحة ساكنة. والرجال يتقدمون منها. فهمت أنهم لايصغون إلى تحذير عبد الرحيم. ماهذا؟ تشعر بوخز حار في يديها، وتسمع خفقان قلبها. تكاد تقع على الأرض لكنها تثبّت نفسها أمام النافذة. لاأحد يستطيع أن يفعل شيئا ولا زوجها الواقف في طرف الحديقة! رأت ابنها راكضا مع الشباب نحو المصفحة، ورأت المصفحة تطلق عليهم النار.

كيف نجا ابنها؟ يبدو أنه رمى نفسه على الأرض أو أن شابا رماه. يبدو أن رجلا غطاه بجسمه! لن تكتشف أنه لم يقتل إلا بعد انصراف المصفحة التي انتظرت الشباب حتى اقتربوا منها وصادتهم. مرة أخرى احملوا، يارجال عكا، شهداءكم على الأكتاف! أضيفوهم إلى شهدائها!

www.alkottob.com

مرة أخرى لاتأتي المصائب فرادى. هربت سعاد من قلق الحب، لكنها لم تستطع الهرب من القلق على البلاد والولد. أمس بصق ابنها زياد دما. أليس هذا هو السل؟ في الصباح نزلت معه إلى حيفا. كم تغير الزمان! قلبها ثقيل. والطريق المفتوح على الدنيا لايفرحها. يجب أن تصل إلى المستشفى الحكومي في العزيزية على شاطئ البحر لتؤخذ له صورة شعاعية. في ذلك اليوم كان اليهود قد وضعوا قنابل في سوق الخضار في حيفا انفجرت في الباعة والمشترين والمارين. رأت سعاد الناس يجمعون أشلاء القتلى ويضعونها في سيارات الشحن. فرفعت حقيبتها أمام وجه ابنها كيلا يرى قطع البشر والدم. وجدت المستشفى الحكومي دون أطباء، دون ممرضات، وحتى دون بواب. مضربون! يحتجون على تهاون الإنكليز في حماية العرب. وياله من مستشفى فخم! وجدت طبيبا واحدا من الناصرة. قال لها: الولد مصاب بالسل. لكن لاتخافي. خذيه إلى بيروت. وصل إلى هناك دواء جديد يشفي المسلولين! وخذي هذا التقرير فقد يفيدك في الطريق! حكى لها عن انفجار القنابل في السوق. جمع الناس أشلاء أقاربهم، قدما من هنا ويدا من هناك! وفي الليل هجمت الهاغاناه على حوّاسة التي يعيش فيها القسّاميون وقتلتهم وهم نائمون! دحرجت العصابات اليهودية براميل المتفجرات من أحياء اليهود المرتفعة على الأحياء العربية، فوصلنا بعض الجرحى وبقي القتلى تحت أنقاض بيوتهم! حيفا مطوقة بالمستوطنات المسلحة. ستقاوم حامية حيفا العربية جيشا مسلحا بدبابات ومدافع، فهل تستطيع أن تمنع سقوط المدينة! انسحب الإنكليز من حيفا قبل نهاية الانتداب بثلاثة أسابيع ليسلموها لليهود!

خرجت سعاد من المستشفى وقالت لسائق السيارة: إلى عكا! كأنها تطلب النجاة. النجاة؟ هذا حاجز هاغاناه! أمام سعاد على الأرض قتلى السيارة التي أوقفها الحاجز قبل قليل. ياويلي، ماتزال دماؤهم تسيل! هاهو الموت! لم تصرخ،

www.alkottob.com

لاوقت! مدت تقرير الطبيب كأنها تمده للقدر. ترجو من الموت الحياة لمريض؟ نظرت إلى عيون الرجال. شباب! هل هم بشر مثلنا، حقا؟ يستطيعون أن يبقوا أمام قتلاهم وينتظرون أن يضيفوا إليهم آخرين؟ نظرت في عيونهم ونظروا في عينيها. بعد برهة طويلة أشاروا للسيارة دون كلام. فتابعت سيرها. صرخ السائق: بسببكم كدت أموت! فهمته سعاد. غضب علينا لأنه لايستطيع أن ينجد الجرحى، ولايستطيع أن يشتم الهاغاناه!

على باب عكا رأت سعاد سيارة مفتوحة الأبواب. ركابها قتلى! أسرع، أسرع! لم تجد عبد الرحيم. قرأت الورقة التي تركها: سافرت إلى دمشق! مزقت الورقة ورمتها. يطلب عبد الرحيم نجدة أو أسلحة! لم يتكلم أحد كلمة في ذلك المساء، ولم يبك أحد.

بقيت سعاد صاحية في العتمة. تساءلت: ترى هل سنلتقي بعبد الرحيم مرة أخرى؟ نهضت في العتمة وتفقدت مؤونة البيت. تنهدت: تكفينا! قالت في الصباح: سنخبز خبزنا في البيت! أصبحنا في وسط الحرب! لكن هل تستطيع أن تربط أولادها في البيت؟ انتبهت في الصباح إلى زياد. تسلل إلى المغسلة فلحقته. ورأته يبصق دما.

أعلنت: سآخذكم إلى الشام. ومنها سأنقل زيادا إلى بيروت لأداويه. تسافر؟ كيف؟ أقفلت الباب بالمفتاح! ركبت في سيارة شحن ملأى بالراحلين الذين لجأوا من المذابح إلى عكا. بالفلاحين الذين مايزال في آذانهم صوت القنابل ونداء القتلى!

ماأبشع الطرقات الآن! تختلط بذهول الأطفال وعجز النساء! تبدو طرق نجاة وهي طرق غربة! وراء الراحلين بيوتهم وحقولهم وشجرهم! هل سيذكرهم الأثاث الذي جلسوا عليه، والمرايا التي عكست ضوء الصباح وقناديل الليل؟ تركت سعاد مشطها قرب المرآة، وثوبها الخمري على سرير النوم! تركت في حديقة بيتها شجرة اللوز وشجرة الخرنوب، وأقفلت الباب بالمفتاح! وهاهي تعبر بسيارة شحن الطريق الذي نقلت عليه مرة السلاح في تابوت، وعبره السوريون الذين لجؤوا إلى فلسطين أيام الثورة السورية، وعبره بهاء مع السوريين الذين التحقوا بالقاوقجي، يالهذا الطريق! وكم تغيرنا عليه! تذكرت رحلتها في سيارة شحن بيت الأسدي التي نقلت الخضار والفواكه من دمشق إلى فلسطين. التفتت كأنها انتبهت فجأة إلى الزحمة. كيف اتسع المقعد إلى جانب السائق لها ولأربع نساء في أحضانهن أطفال! وكان ظهر الشاحنة يكتظ بالراحلين تحت السماء.

تذكرت سعاد وهي تترك فلسطين راكبة في سيارة شحن، الدكتور بوينا! بقيت

www.alkottob.com

يابوينا في بلادنا، ورحلنا عنها! صدقت نبوءتك! تذكرت بوينا الشاب الذي قدمه لها عبد الرحيم في صفد: ابن بلدي صفد! آه، ياعبد الرحيم، ابن بلدك؟ بلع بلدك، بقي ورحلت أنت! قال لها بوينا يومذاك: أنا صديق أخي عبد الرحيم! ظل بيت سعاد مفتوحا له بعد هبّة البراق. وتابعت حواره مع عبد الرحيم. تتساءل الآن هل كان حوارهما بين مجموعتين؟ وهل توهم عبد الرحيم أنه ينقذ فلسطين بذلك الحوار؟ قال له عبد الرحيم: يابوينا، لانحب أن نتذكر الماضي لولا أن الحاضر يعيدنا إليه! ومن يعيد الماضي؟ نحن أم المهاجرون الغرباء؟ قل لي يابوينا، لماذا يتسلح اليهود الغرباء إذا كانت نواياهم صافية؟

ظل حوارهما كالعتاب. لأن عبد الرحيم اعترف لبوينا بأنه ابن صفد، واعتد باختصاصه في الطب من فرنسا، كأنه أخوه. وظل يذكر جدته طبيبة العيون التي عاشت في الحي اليهودي في صفد وماتت فيها. كم تذكر بوينا فضل عبد الذي أنقذه في اضطرابات صفد خلال أحداث البراق، يوم جرح أبو بوينا وحماه عبد الرحيم. قفوا! اتركوا الشاب يعمل واجبه نحو أبيه الجريح! لانهاجم الجرحى، ولامن يسعفهم! ظل بوينا يكرر لعبد الرحيم: أنا وأبي مدينان لك بالحياة! فيرد عليه عبد الرحيم: ليست المسألة مسألة دين! المسألة يابوينا أن اليهود العرب يسندون المهاجرين الغرباء. ويخدمون الإنكليز، ويهاجمون العرب أو يتجسسون عليهم! دع ذلك، ياعبد الرحيم! إذا قلت لك إني لاأحبك أكون كاذبا! يهز عبد الرحيم رأسه: وإذا قلت لي إنك لاتحب الغرباء الذين ينزلون من السفن ليستوطنوا بلدي، تكون كاذبا!

مع ذلك بقي عبد الرحيم يستقبل ابن بلده بوينا. هل كان يتصور أن عاطفة المواطن ستغلب ولاء اليهودي لمشروع جماعته؟ هل تصور أن الصداقة تعيش معزولة عن الانحياز إلى أحد جانبين متناقضين؟ لماذا يتكرر إذن الحوار نفسه بينهما كلما حضر بوينا؟ بدا لسعاد في تلك الأيام أن كلا منهما يحاول أن يجر الآخر إلى جانبه، أو أن يستبقي ذكريات يبددها القتل. ومأبعد القمر! أم تراهما كانا يراقبان الصداقة التي تتحول إلى عداوة؟! قالت لبوينا مرة: صداقتك أنت وعبد الرحيم مثل صداقة الست شفيقة وزوجة الحاخام! كانت كل منهما تزور الأخرى في الأعياد وترسل لها الهدايا، لكن زوجة الحاخام كانت تكرر للست شفيقة: أول الدنيا يهودية وآخرها يهودية، ياست شفيقة!

فتحت سعاد عينيها على الطريق. لاتصدق أنها ستعود إلى عكا بعد أسبوع بعد أن يحررها العرب! عكا في خريطة التقسيم من الوطن اليهودي! لاقيمة

www.alkottob.com

للواقع، ولاللتاريخ! ولو فكرت سعاد في الفرق بين الواقع وبين قرار التقسيم لجنّت. عكا عربية بعمارتها وطرقاتها، بناسها وبيوتها، بسورها ومقابرها وسجونها! فهل يساعدها أن تكره في هذه البرهة بوينا كأنه يجسد اليهود العرب والغرباء الذين بقوا في بلادها ورحّلوها؟ لاتستطيع أن تنسى أن بوينا داواها. يوم كانت تفيق في الليل جافة الحلق، تشرب الماء ويظل لسانها جافا، أسعفها بوينا. قصدت المستشفى الحكومي وأطباءه الإنكليز. انتقلت من طابق إلى آخر بالمصعد. وياويل من يقع في أيدي الأطباء! وصلت من تحليل إلى آخر إلى فحص عصبوا فيه عينيها ومشت كي يتبينوا توازنها! رجعت غاضبة ومتعبة. في المساء زارها بوينا: ياست سعاد ربما كان عندك التهاب في الرحم! اطلبي هذا الفحص! كان تخمينه صحيحا! قال: لكن هذا ليس من رد الدّين الذي علي لعبد الرحيم! اسمع يابوينا! لم يعمل عبد الرحيم إلا ماطلبه ضميره. لايجوز قتل الأسير أو الجريح أو الطبيب! لولا المتعصبين الذين أشعلوا النار في القدس ولولا ايكا لبقينا أهل بلد واحد بيننا جيرة وقربى! كان يهود طبرية يهدون خالتي الفطير وتهديهم حلوى العيد!

غاب بوينا عنها في أيام الثورة. وماكانت لتفضل أن تستقبله، لتبقى حركة عبد الرحيم بعيدة عن الغرباء. قالت لنفسها: لن يعبر بيوت العرب إلينا في عكا! لكنه أتى في عتمة المساء، قبل أن ينسف بيت عبد الرحيم في صفد. وكان عبد الرحيم في المعتقل. اقترح عليها: اطلبي من عبد الرحيم أن يبيعني البيت! سألته: لماذا يابوينا؟ قال: سأعمله مستشفى أو فندقا سياحيا! وماذا سيقال عنا يابوينا؟ باعوا لليهود؟ قال: خذوا المال وسافروا إلى أمريكا! أمريكا أفضل لكم من هذا البلد! هكذا إذن؟ يأتي المهاجرون اليهود ليستقروا في بلدنا ونتركها نحن؟ لماذا لايهاجرون إلى أمريكا مع أنها أفضل من فلسطين كما تقول؟! اسمعي، ياست سعاد! أحبكم لذلك أنصحكم! خذوا المال وارحلوا وإلا بقيتم لادار ولامال! ستنسف الدار إذا بقيت باسم عبد الرحيم وأخيه! هذا تهديد يابوينا؟ أبدا ياست سعاد! أبوح لك بالحقيقة!

هل شعرت سعاد يومذاك بأن بوينا ليس طبيبا فقط، بل صاحب سلطة ونفوذ؟ هل لمستها رغبته في أن يحفظ البيت الجميل الذي يزين صفد؟ لم يظهر بوينا بعد نسف البيت. لكنه ظهر بعد أن خمدت الثورة. اقترح على عبد الرحيم: أجّرني أراضيك في بيسمون تسعين سنة! سأله عبد الرحيم: وماذا تعمل فيها؟ تعطيها للجمعية الصهيونية؟

www.alkottob.com

كان اليهود يفجرون القنابل في أسواق الخضار العربية، وعبد الرحيم في سورية يحاول أن يشتري أسلحة للعرب يدافعون بها عن أنفسهم. أتى بوينا في عتمة المساء واستقبلته سعاد. فتح علبة كبيرة من المخمل النيلي فتألق الألماس. قال: بها أشتري منكم أرض بيسمون! شعرت سعاد بأنها تلتهب كمحمومة. قالت له: تظن أن الألماس يبهرني، يابوينا! ولذلك جئت في غياب عبد الرحيم؟ كان أهل أبي تجار لؤلؤ. في بيت أهلي شبعت من الألماس! تركت في بيت حمدان في الناصرة من الحلي مالايقدر بثمن! أهكذا تردّ دين عبد الرحيم الذي تحدثت عنه؟ قال: ياست سعاد، ستروح الأرض منكم دون ثمن! لولا وفائي لكم لما عرضت عليك الألماس الذي يعينك!

قالت سعاد لعبد الرحيم عندما رجع من دمشق: صاحبك بوينا صهيوني! لكنها لم تكن تعرف أنه يؤمن بأن أرض إسرائيل يجب أن تشترى بالفضة! ياعبد، هذا رجل سياسي، لكن أيمكن أن يؤمن رجل متعلم مثله، سياسي مثله، بتعليمات يهوة؟

بقي عبد الرحيم صامتا. لن يزيد أوجاعه بالحديث عنها! لكنه قال لسعاد وقت اشتدت الاشتباكات: تذكرين صبحي الجابي، الطفل الصغير الذي نقل رصاصا وقنابل للثوار على حمار محمل بالبندورة؟ هو الآن شاب. كان يتغدى في مزرعة أصحابه، فتعطل موتور الماء، فطلب أصحابه جارهم الميكانيكي. شكروه لأنه أصلح الموتور واعتذروا منه لأنه ضحى بوقت الغداء. فرد: لم أضح! ستكون هذه المزرعة لي! ضحكوا! ظنوه يداعبهم! لعلهم يفهمون الآن أنه كان جادا!

– تقصد ياعبد الرحيم أن تقول لي إن بوينا سيأخذ أرض بيسمون؟!

هاهي سعاد في سيارة شحن محملة بالناس. أرض بيسمون وعكا كلها لبوينا! ولكن إلى متى يابوينا، إلى متى! سأعلم أولادي، وأوصيهم بأن يعلّموا أحفادهم أن فلسطين بلادنا! هل خمنت إحدى النساء المحملات في سيارة الشحن ماتفكر فيه سعاد! همست لها: يقال ياست سعاد إن بوينا الذي كان يزور عبد الرحيم ضابط في الهاغاناه! تنهدت سعاد. آه، لو بقيت فلسطين القديمة التي عرفتها، نعيش فيها ولانخدع، ولانخشى غدر الأصدقاء!

ودع عبد الرحيم القوتلي ورحل من دمشق قبل أن تصل سعاد إلى بيت أختها منور. أبقت ابنها المريض قربها بعيدا عن الجميع. قالت: سأتصل بصاحبنا ابن اللحام تاجر السجاد ليؤمن لي بيتا! حملي ثقيل، لن أنزل عندك يامنور! لكني

www.alkottob.com

سأسافر إلى بيروت، وأستبقي عائشة ومصطفى أمانة عندك! قبل أن تشرب القهوة وصل ابن اللحام. وقال: بعد ساعة تكونين في بيتك، ياست سعاد!

حجبت سعاد مارأته في آخر يوم من أيامها في فلسطين. روت باختصار: يرحّل اليهود الفلاحين من القرى التي يحتلونها. وترحل الأسر التي تخشى المذابح! لكن الرجال بقوا في ديارهم. بعضهم مسلح وبعضهم ينتظر الأسلحة من سوريا ولبنان.

رجعت ليلى من المظاهرة التي هتف فيها التلاميذ أمام القصر الجمهوري في المهاجرين: "نريد أفعالا لاأقوالا"! تحاسبين، ياليلى، رئيس الجمهورية وأنت بعد في الصف الأول؟ ياسعاد هذه ليلى! ابتسمت ليلى لخالتها، وأخفت ارتباكها بالكلام. قالت: رأيت معتصما في مظاهرة الجامعة!

كان بهاء وقتذاك في المكتبة العمومية. رأى قرب التجهيز مخيما ينصب للاجئين من فلسطين. ومر بجامع وبمدرسة فتحت لهم. كان غاضبا وحزينا! يحولون شعبا ذا أراض وبيوت وزيتون وقمح وسمسم إلى لاجئين! يشلحونه بلاده! بلع ندى عينيه قرب الباب ودخل.

قالت له منور: وصلت سعاد! لم تفاجئه، ولم تفرحه. كأنه لم يكن يتوقع أن يراها في فلسطين بل في دمشق. في سنة 1936 لم يستطع أن يزورها مع أنه كان قريبا منها. وماكان ليستطيع أن يزورها غدا لو بقيت في فلسطين! ولكن هل يتحمل قلبه في يوم واحد وداع منور ومعتصم وليلى وسعاد؟ قالت له منور: وجد لها ابن اللحام بيتا في القنوات! لاتقبل أن تقيم عندنا!

بهاء أول زوار سعاد! فحتى عبد الرحيم لن يعرف عنوانها إلا فيما بعد من منور. قبّل بهاء جبينها: ياحبيبتي، يابنت فاطمة! أتيت لأودعك! سألته في يقين: إلى فلسطين؟! نعم، ياسعاد! في الفجر! ستحميها، يابهاء؟ ابتسم في مرارة: سأحاول؟ سألها: وعبد الرحيم، ملك الزمان؟ ردت: عبد الزمان، هناك! قد يكون في عكا مع الرجال. آه، ياسعاد! ماأصعب أن نطلب من أحبائنا أن يبقوا في بيوتهم في الحرب! لكن هل يدافع جيش من الرجال وحده عن وطن؟! قالت: اطمئن، سأعود مع الأولاد بعد أن أؤمن زيادا في بيروت! لكن يقال طلب الملوك العرب أن يرحل أهل فلسطين حتى تحرر الجيوش العربية البلاد! نظر إليها: صدّقت ذلك؟ هزت رأسها كأنها تلومه! قالت: لا! سيرحّل اليهود من لايقتلونه! وياحزني لأن العالم يسند من يقتلنا!

لاتستطيع سعاد أن تقدم له قهوة. لابنّ ولانار! نظر إليها في حنان. رغم

www.alkottob.com

الأبوة، بينهما صداقة كان يلجأ إليها في أيام بعد منور عنه. وكثيرا ماكان يخاطبها بينه وبين نفسه شاكيا أو مفسرا. ألسنا نلجأ إلى شخص نثق بأنه يفهمنا وينجدنا؟ كان تماسك سعاد يغريه بأن يخاطبها بينه وبين نفسه!

أتى يودعها؟ أخفت قلقها عليه: يابهاء صرت ترحل من بلد إلى بلد وعلى كتفك بندقيتك! انتبه، هذه ليست حرب الترعة! يستعمل اليهود أسلحة لم نسمع بمثلها! لاجواب لديه! قبّل جبينها. قالت: أهكذا نلتقي في الطريق، أنا قادمة إلى هنا وأنت ذاهب إلى هناك؟! قال: سنلتقي وأنا عائد إلى هنا وأنت عائدة إلى هناك! ثبتت نظرها عليه. فلير أنها تحبه كما أحبت سعيدا! يابهاء، ارجع بالسلامة! وانتبه من الغدر! أهذا هو الرجل الذي لوع سعيدا مرة أنه تزوج منور!

التفت إليها قرب الباب. أراد أن يوصيها بمنور، لكنه خجل. قالت لنفسها كأنها ترجوه: عد بالسلامة! إياك أن تموت!

تأملته وهو يبتعد. يابهاء، هل ماعشناه حياتنا أم حياة بلادنا؟ اخترت أن تحب منور، لكن من اختار مافي علاقتك بها ومافي علاقتي بعبد الرحيم؟ أليس قدر بلادنا؟ وإذا مت أو مات عبد الرحيم ألن تكون مصيبتنا إلا من هذا القدر الظالم الذي يحكم مصيرنا ومصير أولادنا! في الحرب العامة قسّمونا ووهبوا بلادنا للغرباء، وهاقد انتهت الحرب العالمية الثانية فماذا جنينا منها؟ تدرب اليهود في كتائبها وحاربونا بأسلحة المنتصرين فيها، وكسبوا من معتقلات الألمان الشباب الذين استوطنوا بلادنا. فإلى متى يرسم قدرنا خارج بلادنا؟

تركت سعاد زيادا في مصح بحنس في لبنان، ورجعت إلى دمشق. لم يتحقق وعدها لبهاء، ولم تعد إلى عكا! سقطت طبرية! سقطت حيفا، ثم يافا، ثم صفد. قاومت عكا العصابات اليهودية بمسلحيها وبمجموعة صغيرة من جيش الإنقاذ، وانتظرت الجيوش العربية! سهرت سعاد طول الليل كأنها وسط صوت الرصاص. وصرخت عندما سألتها عائشة: من يطعم القطط في غيابنا؟ ولم تتحمل أن يسألها مصطفى هل مازالت مدرسته مغلقة؟ لكنها جلست مع الأولاد حول طاولة الفطور كأنها تحتفل عندما استعاد أهل عكا وجيش الإنقاذ محطة السكة الحديدية! كان ذلك ومضة فرح! فالعصابات اليهودية فرغت لعكا بعد سقوط المدن الفلسطينية. وبدأت المذبحة!

بعد دخول الجيوش العربية قصفت طائرة إسرائيلية دمشق والقاهرة. سقطت قنبلة قرب بيت منور، فقتلت رفيقة ليلى وأسرتها. لكن بهاء لن يقتل هنا بل هناك في فلسطين، وسيبقى في ترابها. أما ابنه معتصم فسيقتل بالرصاص السوري في

www.alkottob.com

دمشق، دفاعا عن فلسطين!

www.alkottob.com

رصد ناصر معسكر الجيش البريطاني، ركب مع الشباب "الشختورة" إليه، وهاجمه من البحر. اتفق مع ضابط بريطاني على شراء السلاح من مستودعات الجيش في الخضيرة، ودفع ثمن السلاح مدير البنك العربي. بعد هجومه على المعسكر طوقت الدبابات البريطانية عكا. فخرج رجالها الكبار وفاوضوا البريطانيين.

مر ناصر بعبد الرحيم برهة: ياعمي، سندافع عن عكا بما لدينا! حتى تصل الجيوش العربية! تأمله عبد الرحيم. هل يوجد وقت لهؤلاء الشباب كي يرسموا خطة عامة، وأهل حيفا لجأوا إلى عكا؟ ومع من يرسمونها؟ سلاح كتيبة عمر بن الخطاب يصلح لمناوشة لالحرب مع جيش يهودي احتل حيفا!

أتى إلى عكا الحوراني وأديب الشيشكلي وأخوه صلاح، ومعهم خمسون رجلا أتوا من الجشّ. الأسلحة: برينغن، ستينغن! وانتظرت عكا الجيوش العربية لتحمي مدينة دون سلاح. قطعت شركة روتنبرغ الكهرباء عن عكا وبقيت المعسكرات البريطانية مضاءة! فذهب ناصر مع مجموعة من سريته واشتروا مولّدا وعادوا من شارع بيروت. أوقفهم رجال الشيشكلي ونزعوا أسلحتهم. نحن من سرية عمر بن الخطاب! لم يصدقوهم. فأرسلوا إلى الشيشكلي رسالة غاضبة: خذوا عناصركم! أتى الشيشكلي وأقيمت حفلة غداء جمعت الطرفين. ولكن لماذا حدث ذلك؟

رأى ناصر اليهود "يستحلّون" محطة القطار وحديقة البلدية. كان هجومهم في الفجر. أخذوا تلة نابوليون، تلة الفخار، على ضفة نهر النعامين. فركّب الرشاش وسلّطه عليهم! فتركوا ست سيارات وتركوا دما على رمل عكا الأبيض الناعم.

انسحب ناصر مع مجموعته من بوابة السور، وغطى انسحابه فتيان برشاش نصبوه على السور. مشى محاذيا المنشية إلى الدبوية، ثم المطار، وشارع بيروت.. كانت الشمس تغرب. وكان اليهود يحتلون برج المطار. أصاب رصاصهم خمسة عشر عربيا فقتلهم. سدد ناصر رشاشه على البرج. انسحب

www.alkottob.com

الباقون إلى كفر ياسيت. عند الجسر قال: لنعد لندفن الشهداء! وعاد مع بعض الشباب فدفنوهم قرب ضريح وليّ. نزلوا عند شيخ القرية. لكن رجلا همس في أذن ناصر: سيسلمكم فلاتتاموا هنا!

أصبح السلاح الذي تمنوه للدفاع عن البلاد خطرا عليهم. كم يقلب الزمن وجوهه مسرعا! أين نترك السلاح الذي اشتريناه بالذهب؟ اخفوه هناك ياشباب، وأقسموا بالبلاد التي أكلتم تينها وزيتونها أنكم لن تكشفوه حتى نعود! نقسم! نقسم بتينها وزيتونها، برمل عكا الأبيض وبسورها! نقسم بالبلاد التي نودعها أننا سنعلّم أولادنا الحلم بالعودة إليها! هل يستطيع ناصر أن يصف تلك البرهة لعبد الرحيم؟ شباب عرفوا في طفولتهم حديقة البلدية في عكا، تنزهوا على سور عكا، درسوا في مدارسها، أحبوا حاراتها العتيقة والمدينة الجديدة خارجها، توهموا أن حقهم يفرض بقاءهم في عكا، تبرعت أخواتهم وأمهاتهم بأساورهن ليشتروا من بيروت ودمشق السلاح الذي يحملونه، دفنوا أصدقاءهم وأبناء بلدهم القتلى، ومشوا في طريق التهجير إلى بيروت!

أسند ناصر رأسه إلى شجرة وتمنى أن يصرخ: لا! لكنه كان مضطرا أن يخمد هدير قلبه. قال يعزي أصحابه: سنعود!

www.alkottob.com

قامت القيامة في فلسطين! استكمل الإنكليز بعد الحرب العالمية الثانية مارسموه في الحرب العالمية الاولى! استكمل الصهيونيون ماخططوه لتقسيم الدولة العثمانية كي يؤسسوا دولة يهودية ويسرقوا فلسطين من أهلها! بالتقسيم اكتمل غدر الإنكليز وتآمر الاوروبيين علينا! لكننا سنسجل لهذا العالم أننا سنقاوم التآمر والغدر! سنقاوم مصفحات الإنكليز ومدافعهم ولو ببنادق قديمة! لكن لنحاول، ياعبد الرحيم، أن نطلب أسلحة من سوريا ولبنان! سافر إلى القوتلي في دمشق!

هل مرت سنة فقط على نزهة سعاد مع بنات العكي وفرجيني في حديقة البلدية؟! ذات يوم شكت فرجيني، زوجة المحامي أنيس، لسعاد وبنات العكي : مللت الأطباء! فحصني حتى الآن خمسة وعشرون طبيبا. قرروا أنني لن أنجب! لدي صبي وبنت فقط! سألتها سعاد: بم نصحتك يوركين؟ ولد على يديها كثير من أطفال عكا. قلقنا عليها عندما سجنها الإنكليز يوم دخلوا إلى البلاد ونقلوها إلى بيت لحم. هذه مثل طبيب البلد، لاتظهر إلا إذا تعسرت الولادة! ياست سعاد، حسبت يوركين من الأطباء الخمس والعشرين الذين فحصوني! نصحتها سعاد: انسي الأطباء وتعالي معنا غدا إلى حديقة البلدية! سنتغدى هناك!

تحوم سلوى، ابنة فرجيني، حول الباب كلما زارت سعاد فرجيني. فتبتسم أحيانا وتناديها. تعرف أن الأولاد في عمر سلوى يحبون حديثها! عبرت سعاد سنوات من الاستماع والصمت حتى أصبحت تمتع المستمعين إليها. فتشوق وهي تروي، دون أن تفتعل حركات في ملامحها. ينساب حديثها رائقا. ولاتبقى ثابتة في موضوع فيمل المستمع إليها. نعم، هكذا ندفع ياسلوى سنوات عمرنا كي ننضج! ماتظنينه بعيدا عنك اليوم سيأتي، وقد تحكين أنت كما أحكي الآن! لكن حضور سلوى الصغيرة منع سعاد مما نوت أن تقوله لفرجيني: اتركي للزمن حصته في أن يجد الحلّ! أختي منور لم تكن تنجب، وهاهي أنجبت! لديها الآن صبي وطفلة!

www.alkottob.com

أمي فاطمة بقيت عشر سنوات دون أولاد، ثم أنجبتنا!

مكتب المحامي أنيس قرب مكتب عبد الرحيم. تصعد الدرج على السور وتعبر سينما البرج إلى مكتبه. قال أنيس لأصحابه: سأغيب غدا. لماذا؟ سأصطحب زوجتي إلى طبيب في حيفا؟ مابها؟ خذها إلى الدكتور زانديك في القدس! داوى الملكة نازلي. ينتظر من يقصده أربعة أشهر ليأخذ منه موعدا. خذ هذه الرسالة إليه يستقبلك!

روت فرجيني لسعاد وبنات العكي: في عيادة الدكتور زانديك وجدنا كثيرا من المنتظرين. سألني معاون الطبيب: عندك موعد مع الطبيب؟ لا! معي هذه الرسالة إليه! تناولها مني. بعد برهة خرج الطبيب وبيده الرسالة: ممن هذه؟ مني! تفضلي! عرفت أن كاتب الرسالة أخو زوجته! فحصني زانديك. قال: خذي هذا الدواء شهرا. عودي بعده إلي ولو تحسنت صحتك. لاتكوني كالعرب الذين يهملون وصايا الطبيب! كلمني بالعربية. نعم يعرفها، لكن لسانه ثقيل!

فرجيني وحدها تنتظر أثر الدواء؟ سعاد وبنات العكي ينتظرنه معها! طمأنتهن: تسألن عن الصحة؟ هي المزاج الحسن، الرغبة في الحياة، في الأكل والنزهة وزيارة الناس! تذكرت أنواعا من الطعام نسيتها! تذكرت الزعرور والتين الأسود والصبار، اشتهيت العصاعيص تحت ورق العنب! كأني حامل في وحام! شفيت!

كالعرب الذي ذكرهم زانديك، همست فرجيني لنفسها: ماحاجتي في الذهاب إلى القدس والانتظار في عيادة مزدحمة؟ أكدت لها سعاد: يجب أن تعودي إليه، على الأقل كيلا تؤكدي رأيه في العرب! لكن فرجيني كانت قد نسيت وجعها!

سلك أنيس سبيلا آخر! قال لها: لدي دعوى جنائية في القدس. سندافع عن عربي وجد الإنكليز لديه بندقية صيد! فلماذا لاتنزل معه إلى القدس؟! تحب فرجيني حارات القدس القديمة، سورها وبواباتها وسبلانها وأضرحتها، أقواسها وأدراجها. تحب كنيسة القيامة. ستنزل معه!

روت فيما بعد لسعاد: في القدس قال لي أنيس: سنزور الدكتور زانديك لنشكره! وافقت. فرح زانديك بي، لكنه طلب فحصي. بعد الفحص قال: لابد من العملية الجراحية! صدم زوجي. قال: لا! رد زانديك: مسيو أنيس أنت محام تترافع أمام قضاة. ذلك اختصاصك. هناك أنا لاشيء! لكن هنا أنا الذي يقرر مايجب! سكت أنيس وأجريت العملية لي في المستشفى.

www.alkottob.com

احتفلت سعاد مع بنات العكي، في حديقة البلدية، بحمل زوجة أنيس. اخترن شجرة وارفة جلسن تحتها، شوين اللحم، وشربن اللبن، وطلبن من المقهى قهوة وبوظة. ونزل أنيس إلى القدس ليبشر الدكتور زانديك. روت فرجيني لهن: رقص زانديك! واعترف لأنيس بأن الحمل بعد تلك العملية محتمل لكنه ليس مؤكدا.

كانت تلك النزهة في حديقة البلدية آخر نزهة جمعت سعاد وفرجيني! انشغلت سعاد وزوجها بالتقسيم، واستقبلت في بيتها السوريين الذين زاروا عكا. ثم شغلتها الصدامات بين العرب واليهود. سألت زوجها: هل تشبه هذه الأيام ياعبد الرحيم، مايقوله القرآن عن القيامة؟ تشعل النار في بلادنا الهاغانا وشتيرن والأرغن!

وصلت إلى عكا أخبار احتلال اليهود حيفا، والمذابح التي قررت مصير المدينة. وصل من حيفا أقرباء أنيس وملأوا بيته. لايفهم أنيس مافهمه أخو زوجته في حيفا! رأى قوة عسكرية يهودية مدربة، خرجت من المستعمرات كجيش جاهز لاحتلال فلسطين.

في المكتب قال محام يهودي لأنيس: لم أنس أني كنت أستعير كتبا من مكتبتك. وأني أكلت على سفرتك. لذلك أنصحك بألا تصدق أن الجيوش العربية ستحميك! خذ هذه البطاقة مني، هي التي ستحميك! تحميني في بلدي؟ ياأنيس، لاتعش في الأوهام!

في البيت وجد أنيس زوجته في فراشها، وإلى جانبها رضيعها. غرفة النوم واسعة مرتبة، والنوافذ مفتوحة لربيع البحر. تجول في بيته وتأمل مافيه. الخزائن، المقاعد، الستائر، الفضيات. كل شيء في مكانه. هل يصدق أن بيته لن يكون بيته؟! ومدينته لن تبقى مدينته؟ مستحيل! عكا مدينة عربية، يعيش سكانها في بيوتهم ويشتغلون في أسواقهم. سأله أخو زوجته: ياأنيس، تودع بيتك؟! رد بقوة: لا، أبدا! ياأنيس، لم يكن لدي الوقت لأودع بيتي في حيفا! لكني الآن أودعك! سنرحل إلى لبنان! أقرباء زوجتي هناك! اسمع، رحيلك يحرض الآخرين على الرحيل! ابق في عكا! عكا مدينة عربية! ياأنيس، أتمنى ألا تلحقني إلى بيروت!

هل ستنجو عكا حقا؟ في عكا مائة بندقية أرسلها الملك فاروق. لن تحمي، إذا كانت صالحة، مدينة! من يحمي المدنيين إذن؟ نزل أنيس إلى "الكامب". سأل مديره الإنكليزي: لسنا أولادا قاصرين، لكن المدنيين، في الأوضاع الراهنة، يحتاجون حماية مسلحة! لم تتركوا لدى العرب مايدافعون به عن أنفسهم. فهل ستحموننا من اليهود إذا هاجمونا كما هاجموا حيفا؟ رد: "صوري" مستر أنيس،

www.alkottob.com

لانستطيع ذلك. وصلني أمر بالانسحاب من عكا اليوم، سننسحب منها في الساعة الثانية عشرة!

يوم اقترح عليه أحمد شقير فلتنزل زوجتك وزوجتي إلى لبنان ريثما تهدأ الأحوال، قالت له فرجيني: ابني رضيع، لم يبلغ بعد الأربعين يوما. وقريبا أربعون أبي! ماالعمل الآن يافرجيني؟! في الأيام العادية يؤجل الإنسان عملا يثق بأنه سينجزه غدا. لكن في أيام أخرى لكل حركة زمنها المحدد تماما. ماراح فات، فماالعمل الآن؟ نعم، يفترض أن تبقى زوجته حتى الأربعين في الفراش. جهد الدكتور زانديك كي يشفيها لتحمل. لكن الهاغانا قد تقتلها مع الطفل!

رجع أنيس من "الكامب"، ماشيا في مدينة بدأ يرحل منها نازحو حيفا ومن بقي حيا من سكان القرى التي احتلها اليهود! استوقفه صديقه الطبيب أردكيان: كيف تترك زوجتك واليهود قد يهجمون! رحّلها إلى لبنان وابق أنت مع الرجال! لو يملك أنيس العدسة السحرية ليفهم أن النساء والأطفال يثبّتون الرجال في بيوتهم! وليرى أن أهل مخيم جنين الذين جرفوا مع بيوتهم سيهزون الضمير بنداء ثباتهم ويعيدون اسم فلسطين!

هل قصد أنيس أن يطيل جولته في عكا قبل أن يحضر سيارة إلى البيت؟ كان يحاور نفسه قبل أن يحسم قراره. فتح الباب وقال كأنه القدر: سترحلون الآن! نظرت إليه فرجيني: نرحل؟ تحمل رضيعها، وتترك أربعين أبيها؟! لامجال للكلام! لن تغيبوا أكثر من شهر! شهر أيار سيحسم الأمر. ألبسها روب دو شامبر فوق قميص النوم. لاوقت ولاضرورة لحقيبة ثياب. ماذا تحمل ابنته سلوى؟ علبة مبطنة بالمخمل فيها طقم فخم من فناجين القهوة! ياللصغيرة! سألها: لماذا؟ ستلزمنا لنقدم القهوة للضيوف حيث سننزل! اتركيها! سنعود إليها! نعم، يحدث ذلك! من أثاث البيت كله قد نحب شيئا، قديما أو جديدا، يفتننا وربما يوجز لنا المكان أو الزمان! دعي العلبة ياسلوى! ستبقون في لبنان أياما. وستعودون إلي ماتحبونه!

حمل أنيس زوجته إلى السيارة. وحمل السائق الرضيع. حاول أن يرتب لها جلسة مريحة وحشر ولديه قربها. ضعي ياسلوى الرضيع في حضنك! وجلس هو قرب السائق. عبرت السيارة شارع بيروت. هانحن نخرج من عكا! عكا بلدنا، فماهذا الرحيل المجنون؟! افرضي يافرجيني أنك تتفادين زلزالا أو إعصارا! عبروا الطريق قرب نهاريا. قطعوا الناقورة. نزلوا في فندق أميركا في ساحة البرج في بيروت. لامكان في الفندق! صاحبته فيكتوريا ابنة حمي خالتي، أخبروها أن فرجيني وصلت! حضرت فيكتوريا. عانقتها سلوى: كيف حالك "ياتانت"؟ تسألين

www.alkottob.com

كيف حالي أنا؟! كيف حالكم أنتم؟! خذوا الغرفة التي حجزتها لضيوفي!

ياللغربة في الفندق! أحبت فرجيني الفنادق يوم كانت تنزل فيها سائحة، تغترب حتى تشتاق إلى بيتها. تجولت في لبنان ومصر سعيدة، تأكل في المطاعم وتشتري من الأسواق. أكان سبب تلك السعادة أنها مطمئنة إلى مدينة تركت فيها بيتها الذي ستعود إليه؟ أن طريقها مفتوح إلى بلادها؟ أن أصحابها آمنون ومدينتها سليمة؟ في الفندق شعرت هذه المرة بأنها عارية، دون حقيبة، دون ثياب. ليس لديها مايثبت أنها عاشت حتى اليوم. ليست لديها حتى صورة من صورها! فهمها أنيس عندما لمح في الليل بريق عينيها. قال لها وقت الغداء: وجدت بيتا في حريصا! وطلبت خياطة ستزورك لتخيط لك ثيابا!

يافيكتوريا، سنترك الفندق في الليل! لاأريد أن يراني أحد في قميص النوم! يافرجيني، خذي ثوبا من ثيابي! أو اصبري حتى أنزل إلى السوق وأجد ثوبا يناسبك! يبحثون لها عن ثوب وثيابها معلقة في خزائن بيتها في عكا! تشعر الآن بأنها دون بلاد! ألذلك قالت لأنيس سأعود معك إلى عكا؟ رد: لو كنت قادرة على البقاء هناك لما رحلنا!

ترك لها مالديه من المال. قال: أبقينا بعض حسابنا في بنك باركليس. اسحبي منه حاجتك في غيابي. وسافر إلى عكا. بين عكا وبيروت رمية حجر في الأيام العادية، لكن هذا زمن حرب! مع ذلك، يجب أن تظهر فرجيني أنها مطمئنة عليه! ويجب أن يظهر أنه مطمئن عليها! ياللمسرحية التي اضطررنا إليها!

يعرف سائقو السيارات أن الطريق خطر إلى عكا. فاليهود يخترقون الجليل والعرب يقاومونهم فيه. لكنهم يعبرون لبنان مع العائدين إلى مدنهم وقراهم في فلسطين. بعض هؤلاء يتسلل ليستقر فيها حتى يطرد منها أو يقتل فيها. وبعضهم ليتناول من بيوته بعض مايحتاجه منها لإقامة قصيرة. ويعود الرجال الذين أوصلوا نساءهم وأولادهم إلى لبنان وسورية، وينتظرون في بلدهم أن "تهدأ الأحوال".

سافر أنيس مثلهم في سيارة. مرة أخرى إلى الناقورة. لاتقلق، سنصل إلى عكا! أعرف الطرقات فإذا سدّ طريق سلكت آخر! أعبرها كل يوم! أمس هجم اليهود على "الشجرة". ردّتهم قوات الإنقاذ! بين السائق وبين أنيس الآن رابطة الحياة والموت. سيفترقان قريبا ولكن كلا منهما سيبقى في ذاكرة الآخر. هل أنت حقا سائق فقط؟ أصبحت مشاركا في الحرب، ياأستاذ أنيس! أنقل رجالا مسلحين ورجالا راجعين إلى بيوتهم مثل حضرتك، وأنقل أسرا هاربة من جهنم. لو تعرّفني إلى كاتب يكتب رواية لأحكي له ماذا عبأت في هذه السيارة! ياأستاذ أنيس، لاتلم

www.alkottob.com

الناس الذين يتركون قراهم! مدنيون بين محاربين. لاشغل لهم! بل لهم شغل! لاتبقى البلد دون سكانها! هل يرد أنيس على نفسه لأنه نقل أسرته إلى لبنان؟ فجعه أن يصادف تلك الجموع تعبر الناقورة إلى لبنان. كان يجب أن يبقوا في مدنهم! حتى للموت حجم لايستطيع أن يتجاوزه! ياأستاذ أنيس، يفرغون فلسطين من أهلها بالمذابح! حكوا لك عما حدث في حيفا؟ لو كان المدنيون مسلحين لبقوا. ماذا تقول؟ ليست لدى المقاتلين أنفسهم أسلحة!

عبرا الطريق قرب نهاريا. التفت أنيس في اتجاه المستعمرة. لماذا يتذكر زوجته كأنه لن يراها؟ يتبين الآن فقط أنه نسي أية مستعمرة زارت! لبّت فرجيني مرة دعوة صديقتها ورافقتها إلى مستعمرة يهودية. قالت لأنيس: كأنها ألمانيا! رد: مال اليهود يصب هناك! في تل أبيب، شوارع مخططة كأنها في اوربا، على طرفيها أشجار مقلّمة. لكنها ليست أجمل من "البهجة" أو من "حديقة البلدية"! يافرجيني، أحببت قرى اوروبا في مكانها، وكرهتها هنا!

يحاور زوجته وهو في السيارة يبتعد عنها كلما اقترب من عكا! وهو منتبه إلى مايعبره، مصغ إلى السائق الذي يتحدث عن أيام ماقبل الاصطدامات وإعلان التقسيم، أيام كان يصل بسيارته إلى حيفا! قصت من طريقه حيفا! طويت! هل يدرك الركاب الذين يرافقهم أنهم تركوا صورهم في هذه السيارة دون أن يقدّروا أو يقدّر سائقها ذلك؟ هاهو يتساءل عنهم، عمن بقي منهم ومن رحل، عمن بقي في مهجره ومن عاد فقتل!

في الطريق فهم أنيس أن البلاد في خطر أكثر مما كان يقدّر. هاهو في عكا وقد قرر أن يبقى فيها! ستدافع عنه مئة بندقية بعضها لايعمل وبعضها دون ذخيرة؟ هل ستنتظر عكا الجيوش العربية أم ستسقط قبل ذلك؟ هل سيرد اليهود عنها أنها، في خريطة التقسيم، من دولة عربية مفترضة؟ لن يعرف حتى المحامي أنيس أن اليهود يعملون في مخطط واسع لاشيء فيه للمصادفة، وأن قرار التقسيم لايعني إلا أن هيأة دولية قررت أن المستوطنين الغرباء أصبحوا ذوي حق في دولة. لكن دولتهم ستكون بمقدار مايستطيعون أن يبلعوا من فلسطين فوق ماقرروه لأنفسهم الآن. ولن يكون ذلك إلا خطوة اولى في خريطتهم التي تحيط بالبلاد العربية. كيف يخمن أنيس أن "من النيل إلى الفرات" مشروع حقيقي وهو مايزال يرى مشروع الدولة اليهودية في فلسطين خيالا لايبرره الواقع في فلسطين؟! كيف يصدق أن مدنا تمتلئ بالعرب يمكن أن تفرغ منهم ليوضع فيها مهاجرون غرباء؟!

تحدث مع نفسه وهو يتجول في بيته من غرفة إلى غرفة. هذا مكتبه. وهذه

www.alkottob.com

مكتبة أبيه صفت فيها المخطوطات والكتب النادرة. هذه أعداد مجلة المقطم متسلسلة في مجلداتها! هذه دواوين الشعر! هذا تاريخ الطبري في طبعة قديمة! وهذه مؤلفات أبيه، بعضها مايزال دفاتر لم تنشر! في غرفة الطعام خزائن تبدو من زجاجها الفضيات. كؤوس، صحون، زبادي، جاطات، علب فيها أدوات الطعام الفضية. بعضها هدايا من أعزاء عليه، وبعضها اشتراه من باريز وحيفا وبيروت. فتح خزانة ثياب زوجته. هذا ثوب من الحرير الوردي كان يحبه، لبسته آخر مرة تعشيا فيها في مطعم البحر. وهذا ثوب أصفر... وهذا أخضر مشجر. لمس بيده الألوان وترك الخزانة مفتوحة. في الغرفة الأخرى سرير ابنته وطاولتها. ماتزال كتبها المدرسية على الطاولة. ماتزال مدرستها في عكا القديمة قرب السور! وفي عكا ماتزال "البهجة"، و"حديقة البلدية"، و"الحرش" التي تنزه فيها مع أسرته، وجامع الجزار، والسور، والكنائس التي حضر فيها أعراس أصحابه ومآتمهم. كل ذلك لم يعد حقيقة، والحقيقة هي أن أسرته في لبنان وهو هنا! لماذا؟ أين العدل في الدنيا؟ أين الحق، ومن يدافع عنه؟ لم يعرف عن أنيس إلا أنه دمث وهادئ ومتزن. لكنه الآن يتمنى سلاحا في يده! لاتلزمك القوة لتدافع عن نفسك أمام متحضرين. لكن القوة فقط تردع المتوحشين! القوة ياأنيس؟ نعم، القوة! أتى إلى عكا أكرم الحوراني وخليل كلاس لتنظيم المقاومة. اجتمعت به كشقير والآخرين. لكن بقي سؤالكم دون جواب: أين السلاح؟ وهل ترك لكم الإنكليز واليهود وقتا للتدريب عليه؟

كانت الخزائن كلها مفتوحة، حتى خزائن الفضيات، عندما طرق الباب. من؟ ناداه السائق: أستاذ أنيس، افتح! سنرحل فورا! اليهود قادمون ليحتلوا عكا! ألا تسمع الرصاص والمدافع؟

ماذا يستطيع أن ينقذ من بيت فيه عمره؟ حلي زوجته أعز عليه من دفاتر أبيه التي لم تنشر؟ ملابسها أم الفضيات التي تحمل ذكريات من اجتمع عنده ومن أهدوها له؟ ألعاب ابنته سلوى أم كتبها المدرسية أم ثيابها؟ لم يحمل أنيس حتى ثوبا لزوجته. خرج كما أتى! فهمه السائق الذي رأى كثيرين مثله، لذلك قال له: أستاذ أنيس، لن نترك لهم هذه البلاد مهما طال الزمن! التفت إليه أنيس مرتعشا. وهل سيطول الزمن؟! انتبه أنيس إلى الراحلين مثله، ولم ينتبه إلى من لايزالون يعودون إلى فلسطين. شاحنات، وسيارات وعربات! يركب الناس كل مايمكن أن يسير! تفرغ مدينة! كان يجب أن يتفقوا على البقاء! هاهو يدرك أن العرب لم يكونوا منظمين كالصهيونيين. لاتقودهم مجموعة تنبههم إلى المذابح المحتملة،

www.alkottob.com

وتثبتهم في أراضيهم وبيوتهم، رغم ذلك! كم سيدفعون كي يقلبوا الجملة التي رددوها: "الأرض ولاالعرض" إلى الجملة التي ستصرخها فاطمة البرناوي في السجن بعد سنوات: "لاشرف شخصي في وطن مغتصب"! قال له السائق: أستاذ أنيس، لاتقلق! يقال ستعودون بعد شهر! لكن أنيسا سمع في كلامه أسى من لايصدق كلامه. صمتا زمنا بدا طويلا. ياللسائق الماهر الذي يعرف طريقه في الظلام الحالك! قال السائق: بقي الصليبيون في صور وصيدا مئتي سنة. باعوا واشتروا وتناسلوا وعمروا بيوتا. كانت بينهم وبين أهل البلاد أوقات من السلم. لكنهم في النهاية ركبوا سفنهم ورحلوا مهزومين! سامحك الله! تعزيني بأن هؤلاء الغرباء سيبقون مئتي سنة، وسأموت بحسرتي على عكا؟ لا، أذكّرك فقط بما يقول الناس: لايصح إلا الصحيح!

اكتشف أنيس في لبنان أنه كان حكيما لأنه، مصادفة، لم يضع البيض كله في سلة واحدة. منذ كان في مصر كان يضع وفره في بنك باركليس. في فلسطين قال له حلمي باشا نؤسس بنك الأمة العربية، مقابل البنوك اليهودية. يجب أن تؤازره! آزره! فنقل أكثر ماله من باركليس إليه. طار بنك الأمة العربية وبقي باركليس! لكن الوفر ينتهي إذا لم ترفده! أصبح الأولاد الذين حلمت بهم ثقلا عليك ياأنيس! نعم، فكر برهة بأن الوحيد حر، لاتكسر رأسه حاجة ولايخاف الفقر. لأول مرة في عمره رأى الفقر أمامه، وفي بيته. سأل عن المال الذي أودعه في بنك الأمة العربية فقيل له: تأخذونه عندما تعودون إلى بلادكم! رد: لن نحتاجه وقتذاك!

لعل بلاد الشام التي كانت وطنا متصلا تنجده! أهل أمه لبنانيون. وأبوه كان لبنانيا زمنا، وكتب في لبنان شعره. أبوه؟ ياللسعيد الذي عاش في بلاد الشامّ وإن حكمت حركته فيها مواقف الدولة منه لاالحدود! كتب في جريدة المقطم، وجمع أعماله بعد موته صاحب جريدة لسان الحال. وتنقل بين مصر وفلسطين ولبنان. ونثر شعره في مدنها. يمكن أن يطلب أنيس إذن الجنسية اللبنانية! في ذلك اليوم أعلن قرار حكومة رياض الصلح: لاتمنح الجنسية اللبنانية لفلسطيني كيلا يفقد الحق في وطنه!

عرض أنيس لزوجته العمل الذي اقترح عليه: في كندا أو أمريكا. ردت: لن نهاجر! لن نبتعد عن عكا! أصحابنا هنا! أكد رفضها رفضه. سيشتغل إذن كاتب مراسلات باللغات الإنكليزية والفرنسية عند تاجر لبناني، بمائة وخمسين ليرة.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

تنقل محمد الموعد مع قوات الجهاد المقدس في الجليل. صادف الكلاس والحوراني حول عكا. عكا مدينة عربية دون سلاح. فهل ستصل إليها قوات جيش الإنقاذ لتدافع عنها؟ أين الأسلحة؟ ركب محمد الموعد الباصات التي قدمها العفيفي لنقل قوات الجهاد المقدس لتستقبل الحاج أمين الحسيني. العفيفي من أغنياء صفورية، صاحب شركة باصات يعمل بعضها بين بنت جبيل والقرعون. ويعمل بعضها بين الناصرة وطبرية. خرجت عشرة باصات تنقل مستقبلي الحاج أمين الحسيني القادم من لبنان ليعلن الدولة الفلسطينية. سيضع إعلان الدولة البلاد في مرحلة جديدة! نعترف بدولة يهودية؟ نعترف بدولة فلسطينية! ونقاتل منها لنستعيد ماحتله الصهيونيون من فلسطين! سأل العفيفي محمد الموعد: بذمتك، ألا أستحق أن أكون وزير مواصلات في الدولة التي سنعلنها؟ ابتسم محمد: تستحق! نعم، يستحق لأن باصاته تعمل في دقة، وتصل المدن بالقرى. وتستحق الوزارة يابن العفيفي، لأنك قدمت باصاتك للثوار رغم مافي هذا من الخطر! هل كان العفيفي يستمتع بمنصب الوزير في الدولة وهو راحل بباصاته مع هؤلاء الرجال ليستقبل معهم الحاج أمين الذي سيعلنها؟ وزير مواصلات في دولة جديدة! لم لا؟ "سعرنا بسعر العرب الذين لهم وزراء ودول"!

قرب صفد رأى الراكبون بالباصات جموعا تملأ الطريق. أهل صفد في حال تبكي الحجر! خير؟ بل قولوا مصيبة! سقطت صفد! سقطت؟ كيف؟ رأى محمد الموعد الشيشكلي في سيارة جيب، على رأسه كوفية زرقاء وإلى جانبه عسكري. سأله: صحيح سقطت صفد؟ رد: لاأعرف! واستمر في طريقه في عكس اتجاه النازحين إلى الشمال. نزل المسلحون من الباصات ليركب فيها الناجون من صفد. وتفرقوا، يسعى كل منهم إلى بلده ليعرف مصير أهله. مشى العفيفي ومحمد الموعد إلى صفورية. طارت الوزارة، يامحمد الموعد، قبل أن نلمسها! الوزارة

www.alkottob.com

"عمرها"، لكن ياخوفي على البلاد!

أي لهيب في قلوب رجال يمشون إلى قراهم ملهوفين! يحتل اليهود الجليل الآن، إذن! يريدون كل شيء! كيف سقطت صفد، جوهرة الجليل وفيها حي يهودي واحد فقط، وهي مثل قلعة على جبل؟ لأنها وضعت في خريطة الدولة اليهودية في قرار التقسيم؟ هل وضع إميل جميعان وساري الفنيش في صفد قصدا؟ يلتزم الملك عبد الله بألا تعلن دولة فلسطينية؟ قال محمد الموعد: العمى، في صفد حي واحد لليهود، صفد عربية فكيف احتلوها كلها! تبحث عن الحق يامحمد الموعد؟! قطعوا الطريق على أمين الحسيني وإعلان الدولة الفلسطينية!

صرخت منور في دمشق: ياعمتي نفيسة، سمعت؟ سقطت صفد! صرخ الرجال في مقهى سوقساروجا الذين تصوروا أن صفد قلعة الجليل لايمكن أن تسقط! صرخ الضباط المتطوعون في جيش الإنقاذ: فشل السياسيون في تأمين جيش قوي يمنع هذه المهزلة! الحل؟ أن نستلم البلاد ونقلب الطاولة! ذهل الباعة في سوق مدحت باشا الذين يبيعون الملاءة المنسوجة بأقلام سوداء وأقلام برتقالية للصفديات ولنساء المزة في دمشق!

لكن كيف سقطت صفد؟! اسمع يامحمد الموعد! عرف شبابها الذين دربهم الضابط السوري إحسان كم ألماظ مصيرها منذ أجبر على الانسحاب منها! سمعوه يقول يوم استلمها إميل جميعان وساري الفنيش: اليوم سقطت صفد! ودّعوه وهو ينسحب منها حتى قرية الصفصاف وانتظروه حتى التقى بأديب الشيشكلي. قال لهم: لافائدة! القائد العام ليس الشيشكلي!!

تنقل محمد الموعد مع قوات الجهاد المقدس بين قرى الناصرة التي تطلب النجدة. كانت قوات الإنقاذ قد طلبت منهم أن ينزعوا الألغام من الطريق الذي ستصل عليه من الناصرة إلى شفا عمرو عابرة صفورية. ونزعوها كي تدخل قوات الإنقاذ شفا عمرو. كأنهم نزعوها للصهيونيين! سقطت شفا عمرو وانفتحت طريقهم إلى صفورية. ويوم سقطت صفورية، كان رجالها في نجدات خارجها!

كان الأولاد والفتيان في الساحة يلعبون في انتظار الإفطار ليركضوا إلى بيوتهم ويجلسوا إلى سفرة رمضان الغنية. فسمعوا صوت طائرة. رفعوا رؤوسهم ورأوها، وشعروا بأنها رأتهم. هل سمعوا دويا قبل أن يسقط "القازان" قربهم، أم بعد أن سقط؟ تذكروا أنهم ركضوا. قتل "القازان" عليا أبو خرج، وجز رقبة سليمان. سقطت أربع قازانات على صفورية! قتلت أسرة كانت تجلس إلى مائدة الإفطار،

www.alkottob.com

أسرة من أب وأم وأطفال. اختار اليهود الوقت المناسب ليقتلوا أكبر عدد من الناس!

خرج الناس إلى البيادر ليأمنوا شر الطائرات. أمضوا الليل تحت الزيتون. عندما "جهجه الضوء" التفتوا فرأوا اليهود يحتلون القلعة التي تشرف على البلد والرشاشات مصوبة عليهم منها. انطلق الرصاص من الرشاشات في كل اتجاه. بدا أن الصهيونيين طوقوا البلد، وقطعوا عين صفورية. اقتربت ثلاث مصفحات فيها جيش الإنقاذ. المصفحات التي نزع الثوار لها الألغام! أحرق اليهود مصفحة منها فتراجعت المصفحتان. فرحل الناس في اتجاه سهل البطوف.

أسقط اليهود القرى التي تحيط بصفورية، فحرموها من نجداتها. اختاروا لصفورية الوقت الذي كان فيها رجالها من جيش الجهاد المقدس خارجها. وهاجموها بالطيران الذي لاتستطيع أن ترده. وعبروا طريقا خالية من الألغام إليها. كم سبب نعد كي نثبت لماذا سقطت صفورية؟

مشى كثير من أهلها إلى القرى التي لم تسقط بعد في سهل البطوف. ومشى معهم محمد الموعد. ردد لنفسه الكلمات التي تعلمها الناس في بلاده: الله يعين الناس على النذل إذا تجبر! إذا أنت أكرمت الكريم ملكته، وإذا أنت أكرمت اللئيم تجبرا! لم نكرم الإنكليز لكن بعضنا صدق وعودهم فخسرنا بلادنا! وصل محمد الموعد مع الناس ماشيا إلى بنت جبيل، وبات تحت زيتونها.

هل يتذكر تحت زيتون بنت جبيل، مقطعا من حياته التي تركها في فلسطين، مثل كل واحد من أهالي صفورية الجالسين تحت الأشجار! في صفورية بيته وأرضه وأشجاره وبيادره وينابيع الماء وقبور أهله. لكنه لن يتذكر الآن جمال بلده وخصبها والسهرات في المضافة. لن يتذكر الفرح بالأولاد والأعراس. لن يتذكر السهر في ليالي الحصاد، أو قطاف الزيتون. لأنه مشغول بالنكبة التي أنزلها الإنكليز به منذ وهبوا فلسطين لليهود بوعد، حتى نفذوا ذلك الوعد طوال الانتداب على فلسطين. لم يجلوا عنها حتى أصبحت كالثمرة الناضجة للصهيونيين بمستوطناتهم وجيشهم وعصاباتهم المسلحة! سيتذكر جمال صفورية وخضرتها فيما بعد، عندما يهدئ العقل الغضب ويصنّف الأحداث. عندما يبدأ بعد ذلك وجع الحنين!

تأمل محمد الموعد الظلم الذي نزل به وصرخ لماذا؟ ماذنب هؤلاء الناس! لم يعتدوا على بلد غريب ولم يطردوا إنسانا من بيته! عندما ضربت الطائرة الإسرائيلية صفورية وقت الإفطار في رمضان، خرج مع جيرانه إلى الرمان.

www.alkottob.com

أصابت الشظايا طفلا رضيعا فسال دمه على حضن أمه. أما الأسرة التي كانت تسكن بيتا قريبا من بيته فقتلت كلها، إلا طفلة حملها الجيران معهم. عادت الطائرة ورمت "القازانات". فأفهمت أهل صفورية أن البندقية لاتجدي!

فكر محمد الموعد تحت زيتون بنت جبيل بالتسلل إلى صفورية. فصادف العائدين من قاروط في قضاء الناصرة. رووا له أن اليهود طوقوا أهل القرية الذين عادوا إليها، وأخذوا الشباب ورشوهم. فمشى محمد الموعد مع أسرته وأقربائه إلى الشام. كأنه يفهم الآن ماكان يردده المغني في الأمسيات:

يازراع الود هو الود شجرو قلّ
ولاّ سواقي الوداد نزحت وماها قلّ
أيام بناكل عسل أيام بناكل خلّ
أيام ننام عالسرير أيام ننام عالتلّ
أيام نلبس حرير أيام بنلبس فلّ
أيام بتحكم على ولاد الكرام تنذلّ

لم يمش أهل صفورية كلهم إلى بنت جبيل في لبنان. لجأ بعضهم إلى الناصرة وبقوا فيها. سيمر نصف قرن قبل أن يقابل شطر العائلة شطرها الآخر في دمشق. ليعرف الأعمام أولاد إخوتهم، والأولاد أخوالهم وأقرباءهم. سيحتفل بهم ابن محمد الموعد، أبو محمد، حول طاولات عليها مناسف تشبه المناسف التي كانت تمد في بلدهم. وسيسمعون أحفاد أقربائهم يتكلمون لهجة أهل صفورية نفسها. ستسجل كاميرا فيديو ذلك اللقاء الذي انتظروه نصف قرن، وسيتناقلون نسخ الفيلم ويحملونها لمن شغلته انتفاضة الأقصى فلم يستطع أن يلحقهم. سيعرض أحدهم على أهله في دمشق صورة ابنه الذي استشهد في الناصرة عندما تظاهر الشباب الذين رأوا قتل محمد الدرة في التلفزيون، فسدد عليهم الجيش الإسرائيلي رصاصه. سيزين بعضهم سيارته بصورة الشاب الشهيد. وسيكتشفون أنهم في الوطن وفي المهجر عشيرة واحدة، حمولة واحدة. ولذلك سيحاكم عزمي بشارة الذي سهّل اجتماع شطر الأسرة بشطرها الآخر بعد نصف قرن من الفراق.

بقي بعض أهل العفيفي في الناصرة. ووصل هو إلى الأردن ومات فيها. بقي بعض آل الموعد في لبنان في مخيم نهر البارد، وعاش محمد الموعد مع بعض عشيرته في دمشق، تزوج، ولد له أولاد وأحفاد، وفتح مضافة صفورية في مخيم اليرموك. يجتمع الرجال فيها كما كانوا يجتمعون في مضافات بلادهم،

www.alkottob.com

ويستمع إليهم الفتيان ليعرفوا تاريخهم كأحداث نسجت حياة الناس والبلاد. وليتأملوا القدر الذي زرع به غرباء وطنا لغرباء في فلسطين. وسيتناقلون صور صفورية التي وصلت ممن زار تلك الخضرة الكثيفة، ورصد تحتها حجارة بيوت صفورية المنسوفة، وصوّر أسلاكا وبقية سور من الحجر تشير إلى المعالم التي دمرها اليهود عندما احتلوا صفورية. والتقط نبع ماء ينساب بين الأعشاب المرتفعة، لعله النبع الذي شربت منه زوجة محمد الموعد. يشتري المستوطن مزرعة أو يسرق بيتا عربيا، لكن صاحب الوطن لايستطيع أن يتنازل عنه؟ من يملك أن ينطق باسم الموتى الشهداء ومن لم يولد بعد! فهل يهدف قتل الفلسطينيين الذي يعرضه التلفزيون كل ليلة أن يقبل هذا الجيل تعويضا عن الوطن ويسامح به الغرباء! ماأبعد "أبو محمد" عن الغنى مع أنه اشتغل نصف قرن ليشيد بديل البيت الذي فقده في صفورية. ولكن أيخطر له أن يسامح غرباء ببلدة تستقبل نسيم البحر، وتشكو من المطر وكثرة الماء وارتفاع العشب؟! أو يستبدل الأمكنة التي استشهد فيها أقرباؤه وعاش فيها طفولته وبعض شبابه؟

www.alkottob.com

في الطريق إلى لبنان خمنت ابنة صدقي الطبري حزن أبيها رغم تماسكه. كأنما قطعت بسكين متوحشة حياته في الأمس عن حياته اليوم. تأملته بطرف عينيها. صدقي الطبري، الأنيق، خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، رئيس الهيئة العربية العليا في طبرية، مدير بنك الأمة، لاجئ؟! صدقي، ابن المفتي عبد السلام الطبري، الذي كانت الجبّة تأتيه من تركيا مع الموسيقى، موشاة بالذهب، لاجئ؟! ليأخذ الغرباء الذين أتوا من روسيا ورومانيا وهنغاريا بيته وبلده؟

تعرف تفاصيل حياة أبيها. فالأسرة تحفظ السيرة وترويها لتنتقل إلى الابن والحفيد. لكن ألا تفقد السيرة ألوانها دون البيوت والبساتين التي جرت فيها! يجب إذن أن نحمي الذاكرة! سترسم ابنة صدقي سيرة أبيها وألوان بيتها وتفاصيل الشوارع في بلدها كي يحفظها أولادها وأحفادها! ستروي لهم كيف رجع صدقي الطبري من الجامعة الأمريكية وتابع مسار أهله في مصالحة الناس، وفي إعداد طاولة للفقراء في رمضان يوميا. ستحدثهم عن مقابلاته الإنكليز باسم وجهاء طبرية، وتوسطه ليخفف الأحكام الظالمة. وستحكي لهم كيف أسس بنك الأمة ليحمي أراضي الفقراء من سطو اليهود. وستصل معهم إلى رام الله التي درست فيها بنات الطبري الثلاث في مدرسة "فريندز" الأمريكية الداخلية. وستستعيد الفرحة بالعودة إلى البيت في العطل المدرسية.

نظرت إلى أبيها وأخجلتها شفقتها عليه. لو تستطيع أن تساعده! سرحت من نافذة السيارة. كان بيتنا بناء واسعا تحيط به الحدائق على تلة جبّ البان. ظهر البيت حتى في صور جنازة الشيخ عبد السلام التي نشرتها الصحف، رغم حشد الناس الذين خرجوا في الجنازة. كنت أفرح عندما أعود في العطلة إلى البيت. وأضيع في زحمة الضيوف العرب والإنكليز. سمعت أبي يصرخ في التلفون وهو يتحدث مع رئيس البلدية اليهودي الذي نصبه الإنكليز. طبعا يعرف رئيس البلدية

www.alkottob.com

من الأصيل في البلد ومن الغريب!

تساءلت في الطريق إلى لبنان هل كانت أيام الدراسة في "فريندز" هي الأيام الهادئة الوحيدة في حياتها؟ كيف انقلبت "عيشتنا" فصارت طلقة الرصاص توهمنا بأن صدقي هو القتيل! كان يهود طبرية فقراء، يستأجرون بيوتنا ويسكنون معنا، ثم انتقلوا إلى حي يهودي كالمستعمرة. بقينا نشتري منهم حتى اعتمد العرب مقاطعة اليهود. مع ذلك بقيت عماتي يزرن صاحباتهن اليهوديات. إحداهن أم ايلياهو. بكت عمتي معها على فراق ابنها. فياخسارة دموعها! عرفنا ونحن في الناصرة أن ابنها مع الهاغاناه.

أتذكر حماسة أبي للبنك الذي أسسه كي يحمي كل أرض يضطر صاحبها إلى بيعها. هاهي الأراضي كلها صارت محتلة! ياأبي، سلمهم الإنكليز طبرية وفلسطين كلها!

التفتت إلى أبيها في الطريق إلى لبنان وسألته: أتذكر يوم زارنا في البيت مساعد حاكم اللواء؟ هز صدقي رأسه. نعم يذكر ذلك، كان أحد ضيوفه! لم تكمل كلامها! لن أبوح له في هذه البرهة بأني سمعت زوجة مساعد حاكم اللواء اليهودية تقول لزوجها وهي تطل على بحرة طبرية من بيتنا: جميلة، اعطها لأهلنا! لم أبح بذلك له يومذاك، فهل أحزنه به الآن؟ ماأكثر الإنكليز الذين تزوجوا من يهوديات!

في سنة النكبة قابل أبي الشيشكلي الذي أتى إلى فلسطين ليدافع عنها مع الضباط السوريين. ثم سافر مع الشيخ نايف الطبري إلى دمشق ليشتري أسلحة. خلال غيابه في الشام سقطت قنبلة على بلكون المطبخ في بيتنا وهدمته. هل قصدتنا؟ وقفت بعد ذلك مصفحة عسكرية أمام بيتنا، نزل منها ضابط إنكليزي قال لأمي: صدقي الطبري ينتظركم في الناصرة. أركبونا في المصفحة وساروا بنا إلى الناصرة. في الطريق قالوا لنا: بعد أيام تعودون إلى بيتكم! كان عمر أخي يومذاك سنتين. قبل أن نخرج من البيت غيرت أختي ماء المزهرية كي تبقى الزهور نضرة في غيابنا! تركنا كل شيء كما هو لأننا سنعود بعد أيام. ثم فهمنا أن الإنكليز سلموا طبرية لليهود! بعد سقوط طبرية استضافت يافا أهل طبرية. وكنا في الناصرة. وصل أبي إلينا بعد سقوط طبرية. أخذنا إلى الأردن، ونزلنا عند أقربائنا أسبوعا في قرية الصريح. ثم ذهبنا إلى بيروت ونزلنا في فندق. فهمنا أننا لن نعود إلى بلدنا في شهر أو في سنة. فسكنا في سوق الغرب، وصار أبي ينزل منها إلى الحمة. كان رئيس مجلس إدارة شركة الحمامات. ولكن من يقصد الحمة ليستريح في تلك الأيام الصعبة؟! انتقلنا من سوق الغرب إلى دمشق. كان حمل أبي ثقيلا!

www.alkottob.com

كان يعيل عشرة أشخاص!

ستروي نهلة لأولادها فيما بعد: بقي عمي طاهر الطبري في الناصرة. احتلها اليهود، وطلبوا من العرب تسليم أسلحتهم. فقال عمي الشيخ طاهر لابنه خير: سلم ياإبني بارودتك! احتل اليهود البلاد وماعادت البارودة تنفع! فدخل خير إلى غرفته، أغلق الباب على نفسه وانتحر. وكان في الرابعة والعشرين من العمر.

بعد عقود جمع ابن صدقي الطبري أخواته وحدثهم عن زيارته طبرية. صار بيتنا مركز بوليس. قطع اليهود أشجارنا وجعلوا الحديقة موقف سيارات. خربوا البيت! وفي طبرية هدموا بيوت أجدادنا وبنوا في مكانها فنادق!

www.alkottob.com

سيتأمل صدقي حياته عندما يبدو له أنه لايستطيع أن يضيف إليها أحداثا كبرى. سيستعيد سنة 1939 التي حكم فيها عليه بالإقامة الجبرية والنفي ستة أشهر إلى رام الله. وسفره بعدها إلى بيروت. ولقاءه هناك بالمفتي وسعيه لشراء السلاح. ولقاءه الخاطف بعبد الرحيم في بيت المفتي في الذوق. في تلك الأيام قتل فرنسي في بيروت فاعتقل صدقي. و"أخذت إفادته". فدافع عن نفسه بلغة فرنسية صافية. كان قرار الفرنسيين أن يسلموه للإنكليز. فهل أثرت فيهم لغته أم براءته؟ اعتذروا منه، وبقي طوال سنة 1939 في بيروت.

رجع إلى طبرية خلال الحرب. كانت زوجته ترخي الستائر، مع أن زجاج النوافذ مدهون باللون النيلي. قد تقصف الطائرات الألمانية البلد! رآها تكاد تلصق أذنها على الراديو لتستمع إلى يونس بحري من محطة برلين حي العرب. قالت لصدقي: "يفش" القلب! سألها: عدو عدوك صديقك؟! يعرف أن العراق حاول أن يشتري سلاحا من ألمانيا وايطاليا. وأن المفتي يحاول أن يدرب مجموعات مسلحة. لكن الأسلحة الموعودة لم تصل. إلى متى سيظل العرب لائبين دائما عن أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم، والأسلحة توهب في يسر لمن يعتدي عليهم؟! لم يستمع صدقي إلى إذاعة برلين. لم تعجبه حماسة يونس بحري. ولم يغشه هدوء الإنكليز. قال: سينتصرون وسيحتفلون بما غرسوه! يجب أن نستعد، ولكن كيف؟

استنتج صدقي أن إنهاء الانتداب يعني أن الإنكليز سيسلمون المستوطنين اليهود فلسطين. وأن هجوم المسلحين اليهود على العرب منذ قرار التقسيم يعلن أنهم قوة مسلحة تستطيع أن تحتل فلسطين بالقوة. فاتصل بالشيشكلي، وسافر مع الشيخ نايف الطبري إلى دمشق ليأتي بأسلحة. في تلك الأيام زارت أخته جارتها أم الياهو فرأتها تبكي. كانت أم ايلياهو تخيط جاكيتا لابنها فيه جيوب داخلية. مابك؟ مسحت أم ايلياهو دموعها: سيسافر ابني إلى فرنسا! بكت أخت صدقي معها: فراق الابن صعب! لكن لاتقلقي عليه. سيعود إليك بشهادة! ستقول أخت

www.alkottob.com

صدقي لسعاد فيما بعد: عرفت أن ابن جارتي التي أكلت وشربت معها كانت تخيط جاكيتا لابنها الذي تطوع في الهاغاناه، وأن سفره كان إلى الحرب التي أخرجتنا من ديارنا! وأنا ياسعاد، يقطعني، صدقتها وبكيت معها!

خلال غياب صدقي في دمشق سقطت قنبلة على شرفة المطبخ وهدمتها. بعد يوم وقفت أمام بيته مصفحة إنكليزية، نزل منها ضابط وقال لزوجة صدقي: صدقي في الناصرة. طلب منا أن ننقلكم إليه. تعرف زوجة صدقي أن بعض أهل طبرية رحلوا إلى الحمة في انتظار أن تهدأ الأحوال. فشاورت أم صدقي: هل نرسل الأولاد إلى الحمة؟ ذكرتها أمه: قال صدقي، إياكم أن تتركوا البيت! قطفت زوجة صدقي باقات كبيرة من زهور الحديقة ووزعتها في المزهريات. ماأحلى البيت الآن! عندما نقل لها الضابط الإنكليزي رسالة صدقي، قالت لها أمه: لن أترك البيت! سألتها تتركيننا نرحل إلى الناصرة وحدنا مع إنكليز؟ كيف سهت عن ذلك؟ سأوصلكم إلى الناصرة وأعود إلى طبرية! سيتساءل صدقي فيما بعد: هل كان الضابط الذي ادعى أنه يحمل رسالته إلى أهله من الكتيبة اليهودية الإنكليزية، أم كان الإنكليز يفرغون طبرية من سكانها ليسلموها لليهود! لن يخطر له أبدا أن ضابطا إنكليزيا حاول أن يحميه من القتل!

بدلت إحدى بنات صدقي ماء المزهرية. تناولت زوجته بعض الملابس. وخرج الجميع من البيت. تركوا السجاد والثريات الكريستال، وفرش الأجداد. تركوا الثمين والغالي وصور الطفولة والشباب وصور الأهل. سيعودون بعد أيام! ركبوا المصفحة الإنكليزية. وفي الطريق إلى الناصرة مروا بيهود مسلحين ورأوا قتلى على الأرض!

في الناصرة قيل قتل صدقي. وسقطت طبرية. فعلى من وعلى ماذا نبكي؟ مدينة عربية تسقط؟! مصيبة! وقتذاك وصل صدقي إلى الناصرة. فرح الأولاد بسلامته؟ ياالذلك الفرح وسط السواد! لن ينقلوا له الأخبار التي وصلتهم قبله! لن يقولوا له نهب اليهود أثاث أجدادنا، ونهبوا الذهب والتحف!

رحل صدقي مع أسرته إلى عكا. وعندما طوّقت رحلوا إلى الأردن. عاشوا في الأردن أسبوعا في بيت أقربائهم. ثم رحلوا إلى بيروت. أقاموا في فندق في انتظار انتصار الجيوش العربية. طال انتظارهم فاستأجروا بيتا في سوق الغرب. قبل الاحتلال كان صدقي رئيس مجلس شركة الحمّة التي تستثمر الحمامات والفنادق وله أسهم فيها. فنزل من سوق الغرب إلى الحمّة ونقل بعض أثاث بيته منها. تنقل بين الحمّة وسوق الغرب. ثم رحل إلى دمشق. استقبله القوتلي،

www.alkottob.com

وعرض عليه بيتا فرفض. يصعب عليه أن يقبل مايظنه صدقة، ويصعب عليه أن يطلب منحة!

جلس إلى سعاد وتحدثا. هل قربتهما الذكريات التي أصبحت كالأسرار العزيزة! هل توهما أنهما يحرسان صور المكان المسروق كذاكرة يجب أن يغرساها، وهما يجلسان معا في الشام المحبوبة والغريبة! روى لها في آخر حديثه: قال لي القوتلي خذ بيتا واسكن فيه! أنت رجل وطني فضلك معروف، فاقبل ضيافتنا حتى تعود البلاد إلى أصحابها! قلت له لم نقبل، ياشكري بك، هبة قبل اليوم. مع أن عواطفك عزيزة علينا! وقالت سعاد يومذاك الكلمة التي ستظل ترددها: احتل اليهود بلادا؟ أخذوا بيوتا مفروشة، أخذوا ذهب النساء، سجادا وثريات، وحتى مؤونة! أخذوا مدنا بحدائقها وشوارعها وأسوارها ومساجدها وكنائسها وأضرحتها، أخذوا قرى مزروعة بأشجارها، مع بيادرها! بعد انصراف صدقي من بيتها طلبت سعاد من زوجها أن يسعى لصدقي بعمل. وسيصبح صدقي مدير الاونروا.

بقي الشيخ طاهر الطبري في الناصرة، وتحمل احتلالها. طلب اليهود من كل عربي أن يضع سلاحه أمام بيته. فطلب الشيخ طاهر من ابنه خير أن يسلّم سلاحه. يسلّم السلاح الذي دافع به عن مدينته؟ لايتحمل ذلك الذلّ! لكن هل يعصي أباه؟ دخل إلى غرفته وأطلق النار على نفسه. كان خير في الرابعة والعشرين من عمره، وكان أحد المدافعين عن طبرية.

بعد عقود قال زوج إحدى بنات الطبري لزوجته وهما في جنيف أمام البحيرة: كنت طالبا داخليا في مدرسة صهيون في القدس، وكان معي في المدرسة طلاب يهود. قال لي أحدهم وأنا أستعد في العطلة للعودة إلى بيت أهلي: أنتم تشمون الهواء في العطلة، ونحن نتدرب على السلاح! ظننته يومذاك يشكو لي حرمانه من العطلة! ألا نسمّي اليهود "أولاد الميتة"؟ كيف يمكن أن يحتل أولاد الميتة بلادنا!

كان عُمر ابن صدقي الطبري سنتين عندما أخرج الإنكليز أهله من طبرية. ومع ذلك حفظ أطياف بيته في ذاكرته ورسمها من حديث أبيه وأمه وجدته وأخواته. زار طبرية. ووقف أمام بيت أهله. أين الحدائق والورود التي حدثوه عنها؟ أصبحت مواقف سيارات! قطعت الأشجار وأصبح البيت مركز شرطة. رأته شرطية واقفا أمام البيت فسألته: لماذا تقف هنا؟ قال: لأن هذا بيتي! سألته: هل تريد أن تدخل إليه؟ هل يقول لها: حقي! رد: نعم. ودخل معها فوجد الغرف في

www.alkottob.com

الطابق الأرضي قد قسمت قسمين، غرفا عليا للنوم، وغرفا سفلية للمكاتب. أما أراضي الطبري التي كانت تمتد على التلال قبل البيت وبعده، فأصبحت بيوتا للمهاجرين اليهود! ولم يجد ابن صدقي بيوت أجداده في المدينة. عرف من الإشارات أنها هدمت. بنيت في مكانها فنادق.

لكن زوج ابنة صدقي تبيّن فندق أهله في شارع جنينة البلدية. عرفه يهودي عربي هناك ودعاه إلى بيته. اعترف له: عشنا في أمان معكم! هل قال له الحقيقة؟ بعد ماحدث، من يميز الصدق من الكذب؟

في زورق في بحيرة زوريخ قالت إحدى بنات الطبري لزوجها: بحيرة طبرية أجمل من هذه! قال: تبدو لك كذلك لأنها بعيدة! ردت: أبدا، طول عمرها أحلى! تذكرت كم كانت البحيرة نظيفة، واستعادت طعم السمك الذي كان ينقل باللجن إلى بيت أبيها. وسّخ الإسرائيليون مياه البحيرة، صبوا فضلاتهم فيها! عندما زارت طبرية لم تذق السمك: يبدو أن أيام البحيرة الجميلة رحلت معنا!

www.alkottob.com

بعد الاحتلال زارت سعاد بنات العكي وبنات شقير والسيدة فاطمة اليشرطية وفرجيني، في بيروت. قالت: تختبرنا الدنيا فوق كل مااختبرتنا به! خرجت من عكا، مثلكم، بالثياب التي علي. حملت معي "كم ذهبة" وقفنا بها على أرجلنا. ساعدنا شكري القوتلي الذي جمعته بعبد الرحيم أيام الدراسة والثورة العربية وثورة فلسطين، وهذه الأيام التعيسة! أخبرتها بنات العكي أن حديقة البلدية صارت مدرسة للأكاديمية البحرية الإسرائيلية! أخذ اليهود مدينة بنى آباؤنا في عصور جوامعها وقبابها وسورها وحدائقها. ويدّعون أن فلسطين كانت صحراء قبل أن يحتلوها! ماذا كان لهم في عكا؟! أخذوا حمام الباشا الذي كنا نستحم فيه، جعلوه متحفا! أخذوا السراي القديمة، بين جامع الجزار وحمام الباشا، التي كانت ثكنة عثمانية وصارت مدرسة بنات، وجعلوها مصحا للمدمنين على المخدرات. الله "يقرضهم"!

قالت سعاد لهن في مرارة: ربما هم الذين بنوا جامع الرمل ولهم فيه ضريح ظاهر العمر! وجامع البحر، الذي جدده سليمان باشا في سنة 1816! وجامع المعلق قرب ساحة الكراكون! وجامع الزيتون، جنوب الزاوية الشاذلية! وجامع الزاوية الشاذلية! وجامع السور، على ظهر السور الشرقي بين سينما البرج ومكتب زوجي عبد الرحيم وبنك الأمة العربية! ربما هم الذين بنوا كنيسة القديس جورجيوس وديرها التي بنيت أيام فخر الدين المعني سنة 1597، وكنيسة القديس أندراوس التي تطل على شارع الفاخورة، وكنيسة اللاتين وديرها! وربما هم الذين رصفوا حارات عكا، المبلطة، الرمل، النمرود، المجادلة، القلعة، الفاخورة، وساحة الكراكون، وساحة اللومان، وشارع الجزار، وشارع صلاح الدين! وربما هم الذين شيدوا أبراج سور عكا، برج الكومندار وبرج السلطان وبرج السنجق قرب منارة عكا، وبرج الحديد! وربما كان لهم السوران البحريان جنوب المنارة حتى برج السلطان! وقهوة خريستو التي كانت تسمى قهوة البحر! والميناء، وبرج الساعة

www.alkottob.com

المرتفع الذي بني في سنة 1900 احتفالا بربع قرن مر على عرش السلطان عبد الحميد!

سألتها بنات العكي يومذاك في بيروت: ياسعاد، تشتمين الذين احتلوا بلدنا أم تأخذيننا في جولة فيها؟ ردت سعاد: أشتمهم! يستطيع أي يهودي مهاجر أن يعيش في عكا، وتحرم علينا العودة إلى بيوتنا وبلدنا! تحرم علينا مدينتنا والحديقة التي نظمها أبوك، والبهجة، ومابناه لنا ظاهر العمر والجزار!

لم تكن سعاد صادقة تماما! كانت تتجول في عكا وهي تتذكر تفاصيلها أمام بنات العكي في بيروت. فقالت وهي تشرب القهوة: تعرفين ماذا أدهشني في عكا يوم رأيتها أول مرة؟ السور! السور العظيم المرتفع الذي يلفها من البحر والبر. لعب ابني على سطحه مع الأولاد كرة القدم. وصعدت معك إلى سطحه قرب مدرسة الفرقة على ممريه العريضين ووصلنا إلى البرجين الصغيرين اللذين يطلان على المدينة. بعد الخندق العريض خارج السور تأملنا السور الآخر الخارجي. تبعنا هذين السورين المتوازيين من شرق المدينة إلى غربها. وتصورنا مياه البحر التي كانت تفتح على الخندق فتجعل عكا جزيرة! كأني الآن هناك والشمس تغرب في البحر! لم نعرف الأيام التي كانت فيها بوابة السور الكبيرة في الشرق تغلق في المساء فيضطر من يقصد عكا إلى البقاء خارجها حتى الصباح. لكننا كنا نستمتع بأن ذلك من ماضيها! يوم رجعت بنتي من المدرسة ورددت لي ماتعلمته عن السور استمعت إليها كأني أشرب فنجان قهوة قرب البحر! "بنى السور الاسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد. أدخل فيه الصليبيون بعض الحجارة. وجدده ظاهر العمر. وحصنه أحمد باشا الجزار. كانت قرب البوابة الحديدية غرف يقيم فيها الجنود لذلك سميت المدرسة الملاصقة لها مدرسة الفرقة". صفقت لبنتي وقلت لها نسوا أن يعلموك أن حديقة البلدية الجميلة زرعها العكي! احفظي تاريخ عكا! فهل كنت أتصور أننا سنبعد عن بلادنا ليحتلها غرباء؟! ياسعاد، لم يخطر ذلك أيضا للشيخ طاهر الطبري القاضي الشرعي، ولاللشيخ أسعد قدورة! قالت سعاد ساخرة: حدثني عبد الرحيم أمس عن القلعة. كأنه اشتاق إليها! أنا تجولت بكن في البلد، لكن عبد الرحيم جرني إلى القلعة التي سجن فيها! قال ألم تكن في منتصف الجزء الشمالي من السور مقابل الجهة الشمالية لجامع الجزار؟ قلت له: تماما! قال: ألم يكن فيها برج الخزنة والثكنة العثمانية والجبخانة؟ قلت تماما! ويوم سجنك الإنكليز وضعوك في جزء القلعة في الطرف الشمالي الغربي الذي جعلوه سجنا! قلت له إن تحت السجن سرداب لكن المعتقلين لم يهتدوا إليه كي يهربوا

www.alkottob.com

منه! فهربوا في ذلك اليوم المشهود من النافذة التي قصوا قضبانها، ورأتهم ابنتك وهم يهربون عابرين مدرستها! فقال: يساعدنا القوتلي، ولانشعر في الشام بأننا غرباء. لكني أشتهي أن أعود ولو إلى سجن عكا! كررت له ماسمعناه من آبائنا: حب الوطن قتّال! قال: يخرب بيت الإنكليز، يستمتعون ببلدهم، ويحكمون علينا باللوعة في حب بلادنا!

كان آخر بيت سكنته سعاد في عكا خارج السور، مقابل فبركة الكبريت، في المنطقة التي نظمها المهندس الألماني شوماخر، وقسم فيها الأرض قطعا، في كل منها بيت مستقل من طابقين. هناك الشط الغربي، عز الدين، الطالع الأول، الطالع الأعوج، شارع فبركة الكبريت،منطقة جنينة البلدية، منطقة شارع بيروت، الفجر، شارع بيروت، شارع صفد. سجلت سعاد

ذلك.وقالت لأولادها: اكتبوه كيلا تنسوه!

www.alkottob.com

في بيروت روت فرجيني لسعاد أنها صادفت يوركين: لجأت إلى بيروت مثلنا! هل كانت تدرك أنها وهي تنقل لها عنوانها أن تجمعات المدن والقرى الفلسطينية ستبقى متماسكة وستكون شهادة على شعب في انتظار بلاده؟! قالت سعاد قبل أن تنصرف: يعمل عبد الرحيم الآن في القضاء، في دمشق. فلماذا لايأتي أنيس ليشتغل معه؟

ستقول لها زوجة أنيس عندما تلتقيان في دمشق: الدنيا ضدنا ياست سعاد! بعد اجتماع أنيس بنصري الجوزي وإميل الجوزي في مقهى الكمال، رجع أنيس ساهما. روى لي أنهم تذكروا الناس والمقاهي والنزهات والسهرات في عكا! أدار ظهره لي ووقف مع الليل. سألته تريد أن تشرب قهوة، أم كأس شاي؟ لم يجبني. سألته: ربما تريد كأس عصير؟ سأضع لك فيه قشرة ليمون تنعشك! لم يجبني. عندما عدت بكأس الليمون وجدته غائبا.. أصيب بشلل نصفي! لاتريد له الدنيا أن يشتغل في مهنته! لكن سورية حنت عليه. عني به الدكتور أحمد السواح والدكتور جمال الأتاسي في مستشفاهما في حماة ورفضا أن يأخذا منه أجرا. ودبر له أكرم الحوراني وخليل كلاس، اللذان عرفهما من أيام عكا، وظيفة مدرس في حماة. وهانحن نسكن في حارة الدباغة، يدرّس أنيس اللغة الإنكليزية والفرنسية في مدارس حماة. يغري الطلاب: اللغة باب إلى ثقافة أخرى. بها تعرّفون الدنيا بقضايا بلادنا. في أيام الحروب تتعلم البلاد المحتلة لغة عدوها لتقاومه! فاللغة ليست كلمات وقواعد لغوية فقط، بل عالم فيه حضارة وحوار وصراع ودفاع! لذلك لم يرسب أي طالب من طلابه في امتحانات الشهادة! عوضه عن مهنته حب الناس. يزوره المحافظ ورجال البلد، والطلاب. ياست سعاد، تذكرين أننا لم نعرف التعصب في عكا. عشنا فيها المسيحي بجوار المسلم لافي أحياء متمايزة. في حماة أيضا يحترمنا الجيران ويحبوننا.

ياست سعاد، يكتب أنيس الآن باسم مستعار في جريدة العاصي الحموية

www.alkottob.com

وجريدة النصر الدمشقية. قالت سعاد: هذا أفضل من كتابة الرسائل إلى الرؤساء! ردت زوجة أنيس: صحيح! كتب أنيس إلى تشرتشل وجاءه جواب منه. كتب إلى الملك عبد الله فطلبه الملك ليحاوره. وكان في الطريق إلى عمان عندما حدث انقلاب حسني الزعيم فعاد أنيس إلى بيته وقال لي: كانت المصيبة هناك، فأصبحت هنا! ولم يعد يكتب رسائل للرؤساء! قالت لها سعاد: كتب عبد الرحيم أيضا إلى تشرتشل. واحتفظنا بجوابه إلينا. فليأخذه اليهود الذين احتلوا بيتنا! توهم العرب أنهم بالكلام يهزون النخوة! هناك لاتهز السياسيين غير المصالح!

بعد عشرين سنة ستجتمع سعاد بفرجيني مرة أخرى. ستقول فرجيني: كأننا خرجنا بالأمس ياست سعاد! نعم، كأننا تركنا عكا أمس. ماأطول الزمن وماأقصره! كبر الأولاد، تعلموا، أثثنا بيوتنا، صارت المخيمات أحياء ثابتة، صارت لنا هنا قبور، وولد لنا هنا أولاد يتكلمون لهجتنا. اشتغل كثير منا في الخليج، وفي أنحاء الدنيا. لكن ألا يوجعك الشوق إلى عكا؟ يوجعني ياست سعاد! يوجع حتى بنتي سلوى التي زوجت أولادها في كندا! أضيفت إلى عكا، ياست فرجيني، الضفة الغربية في حرب حزيران، وسيناء والجولان! لكن "إذا ماكبرت مابتصغر"! في إسرائيل يتذكرنا جيراننا اليهود العرب بالخير بعد أن ذاقوا المستوطنين! روت لي سوسن التي أخذت الجنسية الأمريكية أنها اصطحبت أولادها لتزور صفد. عرفها يهودي من جيرانها فنصحها: لاتوقفي السيارة هناك، سيسرقونها! أوقفيها هنا! قال لها: يرحم أيامكم! وحملها تحيات لجيرانه العرب! قالت: صفد كما كانت، في مكانها على الجبل وفي طرازها. ما تزال بيوت العرب فيها كما كانت! كأننا بنيناها ليكسب الإسرائيليون منها السياح! قالت فرجيني: بجواز سفر أمريكي أو كندي يستطيع الفلسطيني أن يزور بلاده! نحن، يصعب أن نلتقي بأهلنا! بعد عشرين سنة من الفراق جاء إخوتي من الضفة إلى عمان ليروني. وصلوا في عطلة العيد. فطلبت من صاحبتي التي تعرف زوجة وزير الدفاع أن تؤمن لي جواز سفر. فوعدتها: إذا لم تحصل عليه الليلة سيصلها في صباح الغد إلى بيتها. وصدقت. وصلني الجواز في الساعة الثامنة صباحا. لكن اسمي لم يكن موجودا على الحدود الأردنية كما وعدني إخوتي! تأخر! فبقيت هناك إلى الليل. قال لي رجل هناك: إذا لم يؤمنوا لك الإذن سأحملك إلى عمان بنفسي! اطمئني! في الليل اتصل الضابط بوزارة الداخلية وبين للمناوب أني لم أر إخوتي منذ عشرين سنة، ولابد أن هناك إذنا لكنه لم يصل إلى الحدود بعد. لاتزال في الناس شهامة ياست سعاد! وهي التي تخفض السور المنصوب بين بلد وآخر!

www.alkottob.com

في عمان التقيت بإخوتي الذين صاروا من "عرب إسرائيل"! هل رأيت مثل هذا الظلم؟ شلحونا بلادنا ونسبوا من بقي منا إلى إسرائيل التي لم تكن موجودة! تنقلوا في بلاد الدنيا دون أن يسألهم أحد من ذبحتم ومن سرقتم. ونلاحق نحن كأننا إرهابيون مشبوهون!

خيل لسعاد أن الغرفة امتلأت بأطياف القرى، ورائحة الزعتر، ورطوبة الحارات وعراقة السور. لمع صدف القدس، ولفح لون الفجر القباب والمآذن، وتوهجت قبة الصخرة، وفاح زهر الليمون. طافت سعاد مع أهل فرجيني في بلدها. الرحمة على أبيك الذي قسم الرزق في حياته! لو تأخر سنة يافرجيني لصارت أراضيه كلها من أملاك الغائبين! صادروا أراضيك فقط! لماذا إذن أتى إلى هنا من يطلب أن يشتريها منك؟! أحسنت لأنك رفضت أن تبيعيها! ردت فرجيني: خبرني إخوتي أن إسرائيل أعلنتها منطقة عسكرية! سألتها سعاد: يعني أخذوها لأنك رفضت أن تبيعيها! لمن إذن كان يريدها من طلب أن يشتريها؟! لايزالون يريدون صكوك شرائها "بالفضة"؟!

www.alkottob.com

قصدت ابنة محام من أصحاب عبد الرحيم سعاد. ياخالتي، لاأريد الرجل الذي طلبني! أساس الزواج، المحبة! ساعديني على أهلي الذين قبلوه! أسكتتها سعاد: اعملي الحب بيدك! وإذا لم تستطيعي خبئي قلبك! نريد أن نخفف الحمل عن أبيك! أم أن حبه ليس حبا؟! لم تتذكر سعاد تعاستها مع زوجها الأول! لم تتذكر أنها فرضت على خالتها حقها في أن تختار زوجها الثاني! كأن مايصح في فلسطين لايصح لمن أصبحوا لاجئين! قاومتها الشابة: ياخالتي، لاأريد هذا الرجل! كأنه مار بطرس! تذكرها بتمثال مار بطرس في طبرية؟ لانت سعاد: لن نسمح لك بأن ترفضي الخطيب القادم! هذه المرة لك والمرة الثانية لنا! من حظ الصبية أن الخطيب الثاني تاجر لبناني.

طرق الباب صدقي الطبري، فخلصها من لوم نفسها. يهف من صدقي نسيم طبرية. تعود البحرة، وحديقة البلدية، والشاطئ الذي كانت تقصده مع صاحباتها. وتبدو لها حتى أيام حزنها في طبرية حلوة. هل نعيش اليوم لنتذكر الماضي، ياصدقي؟ سألتك، يوم أسست البنك، هل ستمنع بيع الأراضي لليهود؟ اشتريت ألفي سهم من أسهم البنك. واشترى عبد الرحيم خمسمائة سهم. السهم بعشر ليرات. ضحكت يومذاك: تستكثران مااشتريتماه؟ الحاج خليل وضع في البنك أكثر منكما! قلت لك: ليهنأ بما وجده! يستحق الكنز. لكن مالنا ياصدقي من عرق جبيننا!

كان الأصحاب يحبون أن يستعيدوا كيف انقلب مصير الحاج خليل. لم يتصوروا أن غناه موقت، وأنهم سيكونون جميعا فقراء. كان الحاج يلتقط سنابل القمح التي تقع من الحصادين. وكان يعزل "الششامي". خلال التعزيل وجد خابية فيها ذهب. خبأ الأتراك المنسحبون أموالهم في أضرحة الأولياء وفي الخانقات والجوامع، حفروا الجدران وأخفوها فيها وطينوها. حلموا بأن يعودوا يوما إليها. ثم رسموا لأولادهم الخرائط التي توصلهم إليها. وسيعود بعضهم حاملا في جيوبه

www.alkottob.com

الخرائط التي مات من رسمها. كان الحاج خليل من المحظوظين الذين وجدوا الذهب حيث لايمكن البحث عنه. فاشترى أسهما في بنك الأمة الذي أسسه صدقي. واشترى بيتا في القدس، وأرسل ابنا من أبنائه ليدرس في دمشق، والآخر إلى الجامعة الأمريكية في بيروت.

خلال احتلال فلسطين راحت أموال البنك. لم يحسب صدقي أن طبرية ستسقط وهو في دمشق يطلب الأسلحة للمدافعين عنها. وصل إلى الشام لاجئا، فقيرا. حكى لسعاد أن أفضل الرجال يطلبون بناته للزواج. فهل يوزعهن بين بيروت والكويت وعمان! من يلاقيهن ياصدقي، يتبين الأسرة العريقة التي ربتهن. أميرات! طول وجمال وكمال! أخلاق وتهذيب وأصول! يعجبن الباشا والوزير! لاتخف إذا تفرقن، فالدم لن يصبح ماء! بنات الأصل لاينسين أهلهن! هل يكشف لسعاد فرحه وتأثره من وفاء الأصدقاء؟ لم يبق، ياسعاد، إلا أن يضعوا في جيبي مالا!

لاتظن، ياصدقي، أن الإنسان لايجد عمله ومعارفه وقت الضيق! يجدهم! زوارك هم الناس الذين ساعدتهم وصادقتهم وسهرت معهم في بيروت وطبرية وحيفا ودمشق! لافضل لهم عليك. نزلت بنا المصيبة ولم تنزل بهم. والدنيا دين ووفاء! قالت سعاد لزوجها يومذاك في غضب: هذا رجل تعود أن يتوسط لغيره ولايطلب شيئا لنفسه! ساعده! فزار عبد الرحيم مدير الاونروا: صدقي الطبري رأس طبرية، حتى وظيفة مدير التربية صغيرة عليه!

تحاول سعاد أن تخفف عن صدقي! فهل تقول له إنه أفضل من التاجر الذي طرق بابها أمس؟ تاجر من حيفا، غني ومعروف، كان ممن تبرع للثورة السورية، وللثورة في فلسطين. سألها عن زوجها فقالت له تفضل، نستقبل أصحابه في غيابه! خرج هذا التاجر من حيفا بالثياب التي يلبسها فقط. لم يصدق أنه نجا من المذبحة. فهمت سعاد أنه دون طعام. فمدت السفرة له. جلس إلى طاولة الغداء. قالت له لاتنتظر عبد الرحيم فقد يتأخر! ليس معه ثمن غداء! قال لها: خرجت ومعي مفتاح الصندوق الحديد! أخذ اليهود أراض فقط؟ أخذوا أموالا وذهبا وكنوزا. أخذوا حتى الستائر والفراش! يجب أن يسعى له عبد الرحيم عند القوتلي!

رأت أثر الدموع في عيني صدقي. لم تسأله. تركته يشرب قهوته في هدوء. منتظرة أن يمسك قلبه بيده. هدأ نفسه وحدثها عن زيارته إلى حوران حيث اشترى بعض أقربائه أرضا زرعوها. قالوا له: سلوى سألتنا مرات عنك. سلوى؟ تلك الصبية اليتيمة التي خلّصها من رجل سيء السمعة وزوّجها من أحد رجال

www.alkottob.com

العشائر في حوران؟! قالوا له: زرها! وأعطوه حصانا ليصل إليها. لم يجدها فخرق العادات، شرب القهوة ولم يبق حتى الغداء. في طريقه سمع اسمه، ردده الصدى كأنه آت من أمكنة عديدة. تلفت. لم يتبين أحدا فسار. سمع: "ياصدقي الطبري، وين رايح"! أتته الكلمات مقطعة لكنه سمعها. ورأى امرأة تركض من بعد. ركضت، ركضت ولوحت بمنديل طويل لعله منديل رأسها.. ثم ركعت على الأرض. فعاد. رأيت سلوى، ياسعاد! جميلة كما كانت وأحلى. أرادت أن تقبل يدي وسحبتها منها. بكت، بكت حتى قطّعت قلبي. فهمت خوفي عليها فقالت: كله خير، كله خير ياصدقي. سألت عنك الناس منذ وقعت النكبة، وماعرفت أراضيك حتى رأيت أهلك. وبدأت تخلع ذهبها: خذ ياصدقي، إذا لم يعد عندي ذهب وإذا لم ترد لك عشيرتي الدين سأسرق لأعطيك! أتى دوري في البكاء، ياسعاد. بكيت، بكيت. بقيت تتذكرني وهذا أثمن عندي من الذهب. ألبستها ذهبها وقلت لها: حتى الزوج لايحق له أن يمس مصاغ امرأته! عدت معها ومأأحلى ترحيب زوجها بي! ياخوفي من المدينة التي تأكل الخير والوفاء في قلب الناس، ياسعاد! استبقوني ثلاثة أيام وأنا لم أبق عند أهلي هناك غير ليلة!

تفرق أولاد الطبري في الخليج والمدن العربية. شيد بعضهم مزارع في حوران. لم يستطع صدقي أن يكون مزارعا مثلهم. وهاهو يفكر في أن حياة الإنسان ليست حياته الشخصية التي تبدأ بمولد وتنتهي بموت! في الإنسان تاريخ مدينته وأسرته، أمكنتها، ذكرياتها، سيرة أهله، كل مايجعل حياته واسعة وممتدة في أزمنة لايملكها فرد. انتزعت منه بالقوة تلك الحياة التي شيدتها أجيال في أسرة كبيرة، في بلد. فبدأ يضع حجرا فوق حجر في حياة جديدة لم يدفئها أحد قبله!

بعد سنوات ستسمع سعاد ضحكته: يحب ابنه فتاة فقيرة لاتريد أمه له أن يتزوجها! كأني أنا نفسي لست فقيرا الآن! شكت له سعاد أولادها: من كان يتصور، ياصدقي، أننا سنجتمع في دمشق لنحكي عن همومنا؟ من بقي لنا منهم؟ هل ربيناهم للغربة؟ لم تسرق منا الدول الأجنبية بلادنا وبيوتنا فقط، لم تقسّمها فقط وتخترع حدودا بين بلد وآخر، بل شردت أولادنا في الدنيا. إسرائيل تريد هذا الشتات. فالشباب المتفرقون في الأرض مهما كانوا موهوبين، ذرات وليسوا شعبا!

لكن لماذا يغرقان في الكآبة؟ لن تنتهي أبدا علاقة الفلسطينيين بوطنهم المسروق! أعادته إلى طبرية. سألته: كيف حال قريبتك باهرة؟ لم تنتظر جوابه. حكت: كان أهلها يسمحون لها بزيارة الست شفيقة! تذكر أن الآلاتية في الحفلات عند خالي كانوا يجلسون خلف ستار وتستمع النساء إليهم. جلس سعيد مرة مكانهم

www.alkottob.com

وعزف على العود وغنى. فسمعته باهرة. وكنت أنت تردد "سعيد قال وسعيد عمل"، فأحبته. قالت لي: اخطبوني له! نقلت ذلك لسعيد فقال: كيف، والبلاد لاتستقر على حال وأنا أتنقل بين مدينة ومدينة؟ وكيف أتزوج فتاة لاأعرفها؟ قلت له: جميلة، بيضاء، شقراء، بشرتها مثل الورد، لها لفة ذراع تشتهي العين النظر إليها، يفضلها أبوها على إخوتها فيناديها ست الدار. تعرفه، رجل كريم مفتوح البيت لنا ولكل من يريد من أصحابنا. حتى أننا نقول لسنا مقطوعين، عندنا دار عمي الشيخ! يخطب الرجال باهرة فتقول لنا لن أتزوج إلا من سعيد! ذات يوم قال لها أبوها: طلبك ابن الزعبي، وأنا أعطيته. روى لها زوجها فيما بعد: النصيب! طلبت أمك فلم يعطوني إياها لأني كبير، وأعطوها لأبيك! فتفرجي على النصيب! أعطوني ابنتها!

أتعرف، ياصدقي، كيف غنت مع سعيد؟ فتحنا باب الغرفة، جلس هو قرب الباب، وجلست هي في الغرفة الثانية. عزف ورافقته في الغناء. كان صوتها حلوا. رافقته وكأن كلا منهما عزف وغنى مع الآخر من قبل. قلت له يومذاك: تحبك! سأل سعيد في ذلك المساء أخاها: كيف تجري الخطبة عندكم لتعطوا أخواتكم؟ فرد: ياسعيد، تطلب أخواتنا من أبينا. لو طلبن منا لهان الأمر!

تذكرت سعاد الرسائل التي خاطتها في حواشي ثوبها وأوصلتها إلى الثوار. والطعام الذي طبخته في الطناجر الكبيرة للمعتقلين. طار كل ذلك في الهواء؟ تبدد الألم والمجد؟ وتبدد الشهداء والثوار في الجبال، والقرى المحروقة، والنساء اللواتي استقبلن المتطوعين العرب بالزغاريد، وحملن لهم الماء، والفلاحون الذين دفنوا معهم الشهداء، وأهل القرى الذين حموهم في الانسحاب؟ أيمكن أن يمحى كل ذلك ياصدقي؟ مستحيل، ياسعاد! قد يبقى الغرباء في بيوتنا ومدننا وحواكيرنا، ينامون على أسرتنا ويجلسون على كراسينا ويزرعون أراضينا، طوال حياتنا. وقد ينبت العشب والشوك فوق أنقاض قرانا المنسوفة. لكن أولادنا أو أحفادنا سيعودون إليها ذات يوم. سيبقون أينما كانوا غصة للمستوطنين الغرباء. ياسعاد، نحن وهم، والزمان طويل!

www.alkottob.com

عرفت سعاد فيما بعد أن بيتها، كالأوقاف، كتسع قرى من قرى المثلث، كالأراضي الزراعية، كالمدن العربية، أصبح من "أملاك الغائبين" التي تحتلها إسرائيل. فعلّمت أولادها قصيدة راشد حسين:

الله أصبح غائبا ياسيدي
صادر إذن حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة فهي من أملاكه
وبع المؤذن في المزاد الأسود
حتى يتامانا أبوهم غائب
صادر يتامانا إذن ياسيدي
أنا لو عصرت رغيف خبزك في يدي
لرأيت منه دمي يسيل على يدي

عندما قرأت سعاد أن خمسة وأربعون ألف مهاجر غريب سكنوا في بيوت يافا العربية، وأن أربعين ألفا سكنوا في بيوت حيفا العربية، وأن خمسة آلاف سكنوا في بيوت عكا العربية، قالت لأولادها: تقاسم المهاجرون والجنود الغنائم! ولكن هل يعرفون قيمة السجاد التبريزي والكاشاني الذي نمده في بيوتنا؟ تصوروا ياأولاد مهاجرا يخطف من بيتنا مقعدا، وآخر يخطف سجادة! سيتحضر المستوطنون المتوحشون عندما يعيشون سنوات في بلادنا. لكن تذكروا أنهم نهبوا بيوتنا وبيادرنا وشجرنا! تذكروا أنهم عصابات ذبحت أهل بلادكم، وأنكم نجوتم صدفة! تذكروا أنهم أسسوا دولتهم على القتلى والبيوت المنهوبة! وأنكم أنتم أبناء حضارة عظيمة، لاتعرفونها بعد لأنكم صغار! خذوا، هذه صور المسجد الأقصى، وهذه صور قبة الصخرة، وهذه كنيسة المهد في بيت لحم، وهذه كنيسة القيامة، تفرجوا عليها!

أهملت سعاد همس عائشة التي سألت مصطفى: يعني أخذوا ثيابي وشرائط

www.alkottob.com

شعري؟ وأخذوا كتبك ودفاترك الجديدة؟ فهل تتساءل سعاد من تراه سرق ثوبها الخمري الذي تركته على السرير! صارت تجمع أولادها كلما وصلها خبر عن "البلاد". ولن تسمي أبدا الجيش الإسرائيلي إلا هاغاناه: طردت الهاغاناه أهل قرية المجدل من بيوتهم، وسيجتهم بالأسلاك! قالت حكومة إسرائيل إن سكان المجدل عبء عليها! لذلك طردتهم إلى مصر! اعتقلت شرطتهم امرأتين وخمسة أطفال لأنهم دون رخصة إقامة في يافا! ووضعتهم على الحدود وهم بملابس النوم!

ياأولاد اسمعوا: قال عضو الكنيست اون "صار منظر البلد أكثر جمالا دون العرب! أستمتع كثيرا بالسفر من تل أبيب إلى حيفا لأني لاأصادف عربيا في الطريق".

اسمعوا: قال عضو الكنيست الياهو هاكرملي: "لست على استعداد للقبول ولو بعربي واحد، ولابواحد من الأغيار. أريد أن تكون إسرائيل كلها يهودية".

اسمعوا: قال يوسف فايتس "تقرر نقل سكان ترشيحا الزراعية إلى قرية معليا المجاورة... يسكن قرية الريحانية شركس. ويثير موقعها القلق. فكرت في نقلهم إلى مقربة من قرية كفر كنا ليكون في إمكاننا استيطان رأس الأحمر والريحانية وعلما وديشوم... شاهدنا الخرائب المبعثرة التي قرر الجيش إجلاء سكانها عنها... الاستيطان العبري لهذا القطاع ضروري. إنه قطاع رائع بطبيعة أرضه وموقعه الاستراتيجي".

تصوروا ياأولاد ضابطا غريبا أشقر يقول لأهل البلاد ارحلوا، بلدكم يعجبني، أو يقول ارحلوا، ماعندكم تصريح إقامة، ويأخذ بيوتنا ويقول إنها أملاك غائبين!

هل كانت سعاد تدرك أنها كانت تربي في ابنها زياد الشوق إلى فلسطين وتمهد لقتله على بوابتها.

انتهى الجزء الثالث
من
حب في بلاد الشام

www.alkottob.com

نشر للمؤلفة

- ***أحب الشام***. مجموعة قصص. دمشق 1967
- ***في القلب شيء آخر***. مجموعة قصص. وزارة الثقافة 1979
- ***كتاب ومواقف***. دراسات أدبية. اتحاد الكتاب العرب 1983
- ***في سجن عكا***. مجموعة قصص. وزارة الثقافة 1984
- ***الهجرة من الجنة***. عن المدينة العربية. دمشق 1989
- ***لا مكان للغريب***. مجموعة قصص. اتحاد الكتاب العرب 1990
- ***دمشق ذاكرة الإنسان والحجر***. عن المدينة العربية. دمشق 1993
- ***حب في بلاد الشام***. رواية. اتحاد الكتاب العرب 1995
- ***مملكة الصمت***. مجموعة قصص. اتحاد الكتاب العرب 1997
- ***أعاصير في بلاد الشام***. رواية. اتحاد الكتاب العرب 1998
- ***شهداء وعشاق في بلاد الشام***، رواية، اتحاد الكتاب العرب،2000.

www.alkottob.com

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

وداع ولقاء في بلاد الشام: رواية/ ناديا خوست– دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2002 – 599ص؛ 24سم.

1– 813 خ و س و

2– 813.009561 خ و س و

3– العنوان 4– خوست

ع– 2002/9/1513 مكتبة الأسد

❑❑

www.alkottob.com